التاريخ الإسلامي (١)

موسوعة الثقافة التاريخية والأثرية والحضارية

تاريخ وحضارة صدر الإسلام



موسوعة
الثقافة التاريخية والأثرية والحضارية
التاريخ الإسلامي

المجلد الأول
تاريخ وحضارة صدر الإسلام

ملتزم الطبع والنشر
دار الفكر العربي
٩٤ شارع عباس العقاد - مدينة نصر - القاهرة
ت: ٢٢٧٥٢٩٨٤ - فاكس: ٢٢٧٥٢٧٣٥
٦ أ شارع جواد حسنى - ت: ٢٣٩٣٠١٦٧
www.darelfikrelarabi.com
INFO@darelfikrelarabi.com

٩٥٦ موسوعة الثقافة التاريخية والأثرية والحضارية-التاريخ الإسلامى.

م و ت ا تاريخ وحضارة صدر الإسلام/ تأليف مجموعة من المؤلفين. - القاهرة: دار الفكر العربى، ٢٠٠٨.

٥ ج: ٢٤ سم. - (موسوعة الثقافة التاريخية والأثرية والحضارية؛ ١).

تدمك: ٢ - ٢٢٨٢ - ١٠ - ٩٧٧.

المحتويات: ج١ - جزيرة العرب قبل الإسلام.

ج٢ - مكة المكرمة فى الجاهلية وصدر الإسلام.

ج٣ - المدينة المنورة فى صدر الإسلام.

ج٤ - الرسول وبناء الدولة الإسلامية.

ج٥ - عصر الخلفاء الراشدين: الحياة السياسية والحضارية.

المحتويات

اللجنة الاستشارية
لموسوعة الثقافة التاريخية والأثرية والحضارية

جميع المراسلات والاتصالات على العنوان التالى:

دار الفكر العربى

موسوعة الثقافة التاريخية والأثرية والحضارية

٩٤ شارع عباس العقاد - مدينة نصر - القاهرة

ت: ٢٢٧٥٢٩٨٤ - فاكس: ٢٢٧٥٢٧٣٥

www.darelfikrelarabi.com

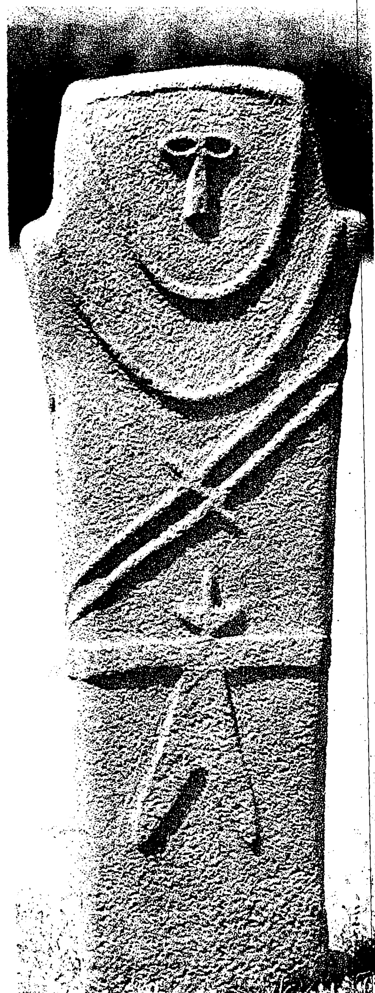
INFO@darelfikrelarabi.com

تقديم

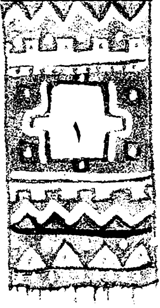
يمتد التاريخ الإسلامى أكاديميا منذ مولد الـرسول ﷺ سنة ٥٧١م حتى الحكم العثمانى لمصر وبعض البلاد الإسلامية سنة ١٥١٧م مرورا بعصر النبوة وعصر الخلفاء الراشدين والعصرين الأموى والعباسى، وفى خلال هذه الفترة ساهم المسلمون بعد أن هداهم الله إلى الإسلام ساهموا بنصيب كبـيرفى تقـدم وازدهار الثقـافة الإنسانـية، واعتـمد الأوربيـون فى نهضتـهم الحديثـة على العلوم الإسلامـية . والدول التى أقامـها المسلمـون ، دولا قوية لها نظمـها الإدارية والماليـة، ويسود بين أفرادها العـدل والمساواة، لأن دسـتور هذه الدول هو القـرآن الكريم، الذى حقق للإنسـان العدل والمساواة والشـورى، وبه الحدود التى تمنع الجرائم التى تؤدى إلى اضـطراب المجتمعـات، والمبادئ التى أقـرها الإسلام، تحـقق للإنسان السـعادة والسـلام والطمأنـينة، وتمنع الرذائل التى تؤدى إلى اضطراب المجتمعات، وانتشار الفساد فيها.

أ.د. عصام الدين عبد الرؤوف الفقى





تأليف
د. عطية أحمد محمود القوصى
أستاذ التاريخ الإسلامى
كلية الآداب - جامعة القاهرة



مقدمة

العرب شعب من أقدم شعوب العالم، عاشوا فى جزيرتهم التى تسمَّت باسمهم بعد أن انتقلوا إليها وسكنوها منذ آلاف السنين. وقد تناثر العرب فى جزيرتهم فسكنوا باديتها وأطرافها، وأقاموا فى الأطراف لهم حضارة ضاع، للأسف، مع الزمن معظم معالمها ولم يبق لنا منها إلا الفتات نلتقطه من على المخلفات الأثرية ومن فوق الأطلال. ولقد عرفت جزيرة العرب الأنبياء والمرسلين، فعاش على أرضها: هود وشعيب وإبراهيم وإسماعيل، كما شرفت بعيش نبينا محمد ﷺ خاتم الأنبياء والمرسلين. وقد حظيت هذه الجزيرة بوجود الكعبة المشرفة بيت الله الحرام على أرضها، وهو أقدم بيوت العبادة على الأرض، وأول بيت وضع للناس عليها. ومن مكة بأرض الحجاز من أراضى هذه الجزيرة انبعثت الدعوة المحمدية، وشهدت هذه الجزيرة انقلابا هائلا وتغييرا خطيرا وصراعا مريرا بين الوحدانية والوثنية، انتهى بانتصار الوحدانية وقيام دولة الإسلام على يد النبى محمد ﷺ خير الأنام.

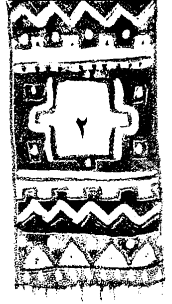
وجاء الإسلام ليضع نهاية لمرحلة طويلة من مراحل تاريخ العرب، كذلك ليضع بداية لتاريخ آخر لهم قامت لهم فيه دولة كبرى حكمت العالم ورفعت راية التوحيد وقضت على الوثنية والشرك بالله. ونزل الوحى فى مكة ومعه كتاب الله القرآن الكريم، آخر رسالة من السماء إلى الأرض وحتى تقوم الساعة.

ودارس التاريخ الإسلامى خاصة والتاريخ الإنسانى عامة لابد له من أن يبدأ دراسته بدراسة تاريخ العرب قبل الإسلام، فهى البداية الطبيعية والمدخل الطبيعى لدراسة تاريخ الإنسانية عموما. وقد طلب الله منا أن ندخل البيوت من أبوابها حتى نكتشف، بعد ذلك، ما بداخل هذه البيوت.

والله أسأل أن أكون قد وفقت فى مدخلى هذا بهذا العرض الموجز والمقتضب لتاريخ وحضارة العرب قبل الإسلام . .

والله من وراء القصد وهو وحده تعالى المستعان، وهو العليم الخبير.

المؤلف

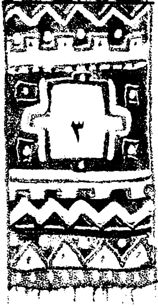


مصادر تاريخ العرب قبل الإسلام

أطلق الكتاب والمؤرخون المسلمون لفظ «الجاهلية» على الفترة التى غطت تاريخ العرب منذ القدم حتى ظهور الإسلام، وهو إطلاق يدل ضمنًا على شىء من التحقير لحالة الوثنية التى كان العرب عليها قبل التوحيد، وقد فهم جمهور من الناس، ومنهم بعض المستشرقين الأوروبيين، أن لفظة الجاهلية مشتقة من الجهل الذى هو نقيض العلم، وفهمها البعض الآخر على أنها الجهل بمعرفة الله تعالى والجهل بشرائع الدين.

وقد وردت كلمة «الجاهلية» فى مواضع عديدة فى القرآن الكريم، منها قوله تعالى: ﴿ **...يَظُنُّونَ بِاللَّهِ غَيْرَ الْحَقِّ ظَنَّ الْجَاهِلِيَّةِ... ﴿١٥٤﴾** ﴾ [آل عمران]، وقوله تعالى: ﴿ **أَفَحُكْمَ الْجَاهِلِيَّةِ يَبْغُونَ وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ اللَّهِ حُكْمًا لِّقَوْمٍ يُوقِنُونَ ﴿٥٠﴾** ﴾ [المائدة]، وقوله تعالى: ﴿ **وَقَرْنَ فِي**

منظر من داخل غرفة الخزنة - مدينة البتراء - تبين فن العمارة عند الأنباط

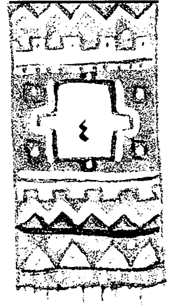


بيوتكن ولا تبرجن تبرج الجاهلية الأولى ...﴿٣٣﴾﴾ [الأحزاب]، وقوله تعالى: ﴿إذ جعل الذين كفروا في قلوبهم الحمية حمية الجاهلية ...﴿٢٦﴾﴾ [الفتح].

واختلف العلماء فى تحديد بداية العصر الجاهلى، وإن اتفقوا على نهايته، واختلفوا فى: هل هو عصر واحد أم عصران على تقدير أن القرآن الكريم ذكر الجاهلية الأولى، ومعنى ذلك أن هنالك جاهلية ثانية تعقب الأولى. وقالوا: إن عصر الجاهلية الأولى يقع بين عصرى النبى نوح والنبى إدريس عليهما السلام. وذهب آخرون إلى أنها الفترة بين عيسى ومحمد عليهما السلام. وقال فريق آخر: إن الجاهلية المعروفة لنا لا يتعدى توقيتها قبل بعثة محمد بقرن من الزمان. أما منتهاها فاتفقوا على أنه وقت ظهور النبى محمد ﷺ ونزول الوحى عليه، وإن كان جماعة منهم قد ذكروا أن منتهاها هو فتح مكة وسقوط دولة الكفر فيها. وقد ذهب بعض المؤرخين إلى أن لفظة الجاهلية هى لفظة إسلامية أطلقت فى الإسلام على الزمن الذى عاشه العرب فى شبه جزيرتهم قبل البعثة المحمدية، والزمن الذى مر على العرب قبل البعثة النبوية.

ولقد انحصرت المصادر التى استقى منها الدارسون لتاريخ العرب قبل الإسلام ومظاهر حضارتهم، فى مصادر أربعة هى: النقوش والكتابات العربية وغير العربية التى عثر عليها الباحثون وعلماء الآثار والحفريات.. والتوراة العبرانية وهى كتاب العهد القديم.. والكتب السريانية.. والمصادر العربية الإسلامية، وتمثلت فى القرآن الكريم وكتب الأحاديث الصحاح والسنن، ومدونات الشعر الجاهلى والشعراء المخضرمين الذين عايشوا الجاهلية والإسلام وكتب السير والأخبار، وكتب المؤرخين المسلمين الأُول من أمثال وهب بن منبه والهمدانى ومحمد بن السائب الكلبى وغيرهم.

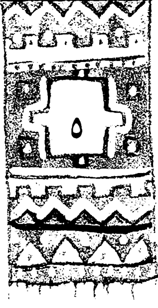
وبسبب قلة ما ورد عن عرب ما قبل الإسلام فى كتب الإسلاميين، تساءل البعض إذا ما كان الإسلام قد تعمد طمس أخبار الجاهليين أو أن العرب، عند ظهور الإسلام، لم تكن فى حوزتهم كتب مدونة فى تاريخهم، ولم يكن عندهم علم بأحوال أسلافهم إلا القليل الذى تحدثوا به إلى المؤرخين المسلمين فوجد سبيله إلى كتبهم. وقد أوكل بعض الباحثين هذا القصور فى معارف العرب القديمة إلى الإسلام وأن الإسلام ورجاله قد اتجهوا إلى استئصال كل ما يمت بصلة إلى أيام الوثنية فى الجزيرة العربية، واستدلوا على ذلك بحديث الرسول ﷺ القائل: «بأن الإسلام يَجُبُّ ما قبله»، وأن هذا الحديث قد أدى إلى تكاسل العلماء وتقاعسهم عن متابعة الدراسات المتصلة بالجاهلية، وإلى محو آثار كل ما يتفرع عن حياة العرب القديمة، وقد أدى ذلك إلى ذهاب أخبار الجاهلية واندثارها وجعل بداية التاريخ عند العرب هو عام ٥٧١ ميلادية المعروف بعام الفيل.



وهذا الزعم زعم باطل، لأن من فسر حديث «الإسلام يجب ما قبله» هذا التفسير قد فسره بشكل خاطئ، لأنه لم يكن المقصود به طمس تاريخ ماقبل الإسلام، ولكن المقصود به غفران الذنوب التى وقعت من معاصى الناس وتجاوزاتهم وسيئاتهم قبل دخولهم الإسلام، وقد حرَّم الإسلام أشياء من الجاهلية وأقر أشياء أخرى ورد إقرارها فى القرآن الكريم والأحاديث النبوية، ولم يرد فى الإسلام ما يفيد تحريم العلم الجاهلى ولا الشعر والنثر الجاهليين. ولم يقم حكام المسلمين الأُول وخلفاؤهم بهدم مخلفات الجاهليين من المبانى عدا الأصنام والأوثان التى كان الناس يعبدونها ويقدسونها آنذاك قبل ظهور الإسلام. ولم يرد فى أى خبر من الأخبار أن خلفاء المسلمين قاموا بتخريب كتابات الجاهليين ومحوها من على آثارهم أو إحراق كتبهم أو الإعراض عنها. ولم يثبت على الإطلاق أن علماء المسلمين منعوا رواية أخبار الجاهلية، بل كانوا يسعون فى طلبها للاستشهاد بها فيما يعظون به الناس وما يقررونه عليهم من تعاليم وفى تفسيراتهم التى كانوا يفسرون بها القرآن. وقد برع من علماء المسلمين الأوائل عدد فى الأنساب وفى رواية أيام الجاهلية ورواية الشعر الجاهلى، كل ذلك يناقض مزاعم المستشرقين التى ادعت فكرة طمس الإسلام لتاريخ وأحوال عرب ما قبل الإسلام.

وقد أشار القرآن الكريم إلى أحداث وقعت فى جزيرة العرب فى الزمن البعيد، وتحدث عن أقوام أبيدوا وهلكوا كانوا يعيشون فى تلك البلاد مثل قوم عاد وثمود وأهل مدين. وقد حث الإسلام على دراسة أخبار هذه الدول المندثرة وأخبار شعوبها فى الماضى القديم لأخذ العظة والعبرة منها. كذلك أشار القرآن إلى الأصنام التى كان عرب شبه الجزيرة يعبدونها من دون الله، وذكر أسماءها دون أن يجد حرجًا فى ذلك. ومن المؤكد أن أخبار الجاهلية الأولى قد طمست فى أيام الجاهلية الثانية، ولم يتبق للناس، عند ظهور الإسلام، إلا علم بأخبار أحداث قرن أو قرن ونصف قبل ظهور الإسلام فى أبعد تقدير.

ولقد نبه المستشرقون إلى ضرورة تدوين التاريخ الجاهلى، ودراسة ما دُوِّن عن عرب ما قبل الإسلام فى كتب الإسلاميين، وقد طاف بعض هؤلاء العلماء بلاد العرب ونقبوا عن آثارها، ونجحت حفرياتهم فى اكتشاف معلومات طيبة عن التاريخ الجاهلى تضيف الجديد إلى ما أوردته المصادر الإسلامية التاريخية والأدبية عنه، وتوصل هؤلاء العلماء أيضا إلى حل رموز الكتابة الحميرية العربية مما أسهم كثيرا فى إعادة كتابة تاريخ العرب قبل الإسلام؛ نظرا لما أضافه هذا العمل من معلومات جديدة قيمة.



بلاد العرب قبل الإسلام

فى بداية الحديث عن تاريخ العرب قبل الإسلام، علينا أن نتعرف على هؤلاء العرب أصحاب هذا التاريخ، ونتساءل: من هم العرب، وإلى أى الأجناس ينتمون ولماذا سُموا عربًا؟

للإجابة على هذه الأسئلة نقول: إن العرب أمة ساميّة الأصل، استوطنت شبه الجزيرة العربية قبل الميلاد بآلاف السنين، ولم يستطع أحد من العلماء أن يحدد التوقيت الدقيق لهجرتهم إليها. ولقد ورد فى التوراة أن العرب من نسل سام بن نوح، وأن لغتهم فرع من الأرومة السامية مثل: العبرية والحبشية والفينيقية والآشورية.

ولقد بحث علماء العربية فى أصل لفظة العرب والعربية فوجدوا أن أقدم نص ورد فيه اسم (عرب) هو نص آشورى يعود إلى أيام الملك الآشورى شلمنصر الثانى سنة ٢٠٠٠ ق م. وقد قُصد بها مشيخة كانت تحكم فى البادية المتاخمة للحدود الآشورية. وورد فى النص أنه كان يحكم هذه المشيخة ملك يُسمى (جندب).

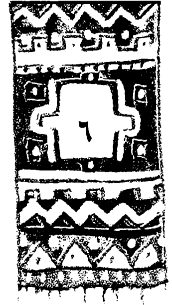
وقد دلت كلمة عرب فى اللغة العبرانية على البداوة، أى أنها كانت تطلق على سكان البادية. وقيل أيضًا: إن تسمية هذا الشعب بالعرب جاءت نسبة إلى يعرب بن قحطان جد العرب العاربة وهو من نسل سام بن نوح عليه السلام.

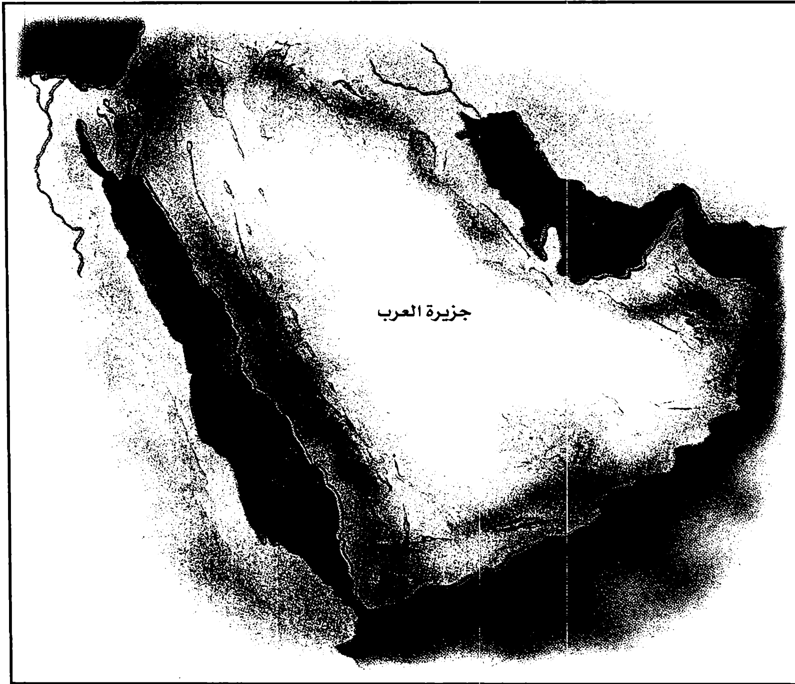
ويختلف العرب عن الأعراب، فالعرب هم أهل الحضر من سكان الأمصار والمدن والقرى. والأعراب هم البدو، سكان بادية الصحراء. ولقد وجدت لفظة (عربى) كلقب من ألقاب ملوك سبأ القدامى على النقوش العربية القديمة فى جنوب شبه جزيرة العرب، وقد كتبت هذه النقوش بخط المسند الذى عُرف بخط حميَر الذى كان استعماله مقصورا على أهل اليمن.

طبيعة بلاد العرب:

وعُرفت الأرض التى نشأ العرب بها من قديم بجزيرة العرب أو شبه جزيرة العرب بحسب إطلاق الجغرافيين لها؛ لإحاطة المياه لها من ثلاثة أجزاء. وهى أرض واسعة تبلغ مساحتها نحو مليون ميل مربع، وهى تساوى فى مساحتها تقريبًا ثلث مساحة قارة أوروبا بأكملها. وهى تقع جنوب غربى قارة آسيا. وتغلب الصحراء على معظم أرض شبه الجزيرة بسبب نقص سقوط الأمطار عليها. وتغطى الكثبان مناطق كثيرة فيها، وترتفع الجبال فى بعض أماكنها، ويبلغ ارتفاع بعضها أكثر من ستمائة قدم عن مستوى سطح البحر وتمتد طوليا إلى عدة أميال.

وتنقسم شبه جزيرة العرب من حيث طبيعتها الجغرافية إلى خمسة أقسام هى: الحجاز، تهامة، نجد، العروض، واليمن وحضرموت.



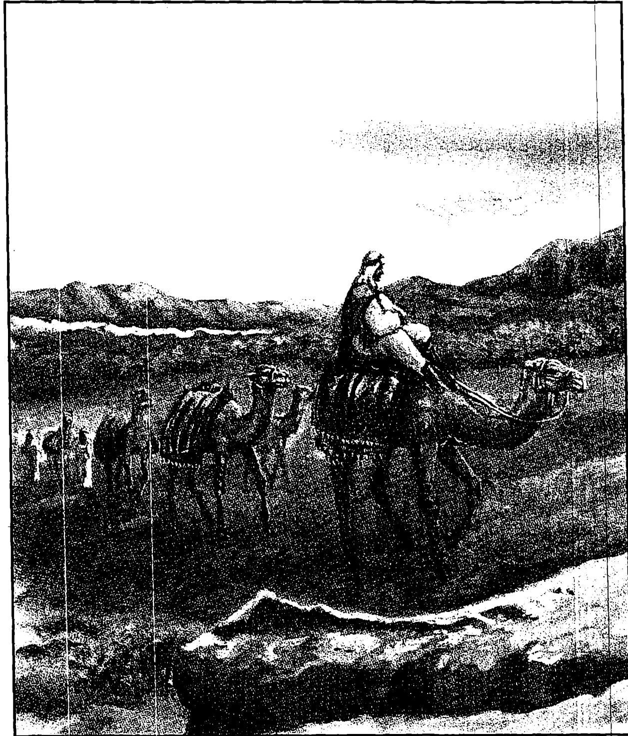


خريطة شبه الجزيرة العربية

الجمل سفينة الصحراء



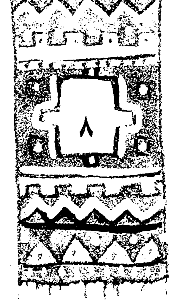
صورة لإقليم نجد



المواصلات فى جزيرة العرب

ويمثل **الحجاز** المنطقة الغربية من شبه الجزيرة، وهو يقع بحذاء البحر الأحمر شمال اليمن وشرقى تهامة وغربى نجد، وهو إقليم يمتد من خليج العقبة إلى عسير. وسُمى هذا الإقليم حجازاً لأنه يحجز بين نجد وتهامة، ويبلغ طوله من الشمال إلى الجنوب نحو ٧٠٠ ميل وعرضه ١٧٠ ميلا ومساحته ٩٦ ألف ميل مربع. ويتكون الحجاز من عدة أودية تتخللها سلسلة جبال السراة، وأشهر مدنه مكة والمدينة والطائف وتبوك، وموانيه جدة وينبع على البحر الأحمر.

أما **تهامة**، فهى الأرض الواقعة بمحاذاة ساحل البحر الأحمر الشرقى



من ينبع إلى نجران، وتُسمى أيضًا (الغور) لانخفاض أرضها. وسميت بتهامة من التهم وهو شدة الحر وركود الريح، ومن أهم مدنها عسير وأبها.

أما **نجد** فهو أوسع أقسام شبه الجزيرة، وسمى نجدا لارتفاع أرضه، وهو إقليم يمتد من بادية الشام شمالا إلى حدود اليمن جنوبا، ومن بلاد الحجاز غربًا إلى بلاد البحرين شرقًا، ويبلغ طوله من الشمال إلى الجنوب نحو ٨٠٠ ميل وعرضه من الشرق إلى الغرب نحو ٢٢٠ ميلا. وتقع صحراء الربع الخالى «الأحقاف» إلى الجنوب من نجد وكانت ديارا لقوم عاد وأشهر مدن نجد: الرياض (عاصمة المملكة السعودية الحالية) وحائل والقصيم.

أما إقليم **العروض**، فهو إقليم اليمامة، وقد سُمى عروضًا لاعتراضه بين اليمن ونجد والعراق.

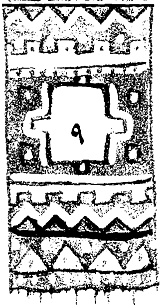
أما **اليمن وحضرموت** فيقعان فى جنوب وجنوب شرقى شبه جزيرة العرب، وقد تميزت أراضيها، منذ القدم، بالخصب والنماء لسقوط الأمطار الموسمية الصيفية الغزيرة عليها وقيام أهلها بالزراعة. وقد شهدت أرض هذه البلاد حضارات قديمة وقامت بها دول شهيرة، وهى على التوالى دول: معين، وسبأ، وحمير.

وقد فرضت طبيعة الأرض فى شبه الجزيرة نمط حياة العرب فيها، فسادت البداوة، وغلبت حرفة الرعى على أهلها بسبب غلبة الصحراء على أراضى هذه البلاد. ورعى العرب الإبل وعرفوها منذ خمسة قرون قبل ميلاد المسيح، وهى حيوانات تتناسب طبيعة تكوينها مع حياة الصحراء القاسية. ومن ثم أصبحت الإبل هى عماد ثروتهم ومصدر طعامهم وسفينتهم الوحيدة عبر بحور الصحراء. والجمل هو الحيوان الوحيد دون سائر الحيوانات الذى يستطيع أن يقطع الفيافى والقفار والمسافات الشاسعة عبر دروب الصحراء دون كلل أو ملل، وهو يستطيع، خلال رحلته الطويلة، أن يحمل على ظهره أكثر من أربعة قناطير من الأحمال، وأن يقطع ٦٠ ميلا سيرا متواصلا فى اليوم وهو قادر أن يسافر ٢٠ يومًا متصلة دون ماء فى ظروف حرارة قاسية قد تصل إلى ١٢٠ درجة فهرنهيتية.

طبقات العرب:

ولقد اتفق الرواة وأهل الأخبار والمؤرخون على تقسيم العرب إلى ثلاث طبقات: عرب بائدة، وعرب عاربة، وعرب مستعربة.

والعرب البائدة هم العرب الذين بادوا من قديم واندرست أخبارهم ولم يصلنا عنهم إلا القليل فيما ورد عنهم فى القرآن الكريم والسنة النبوية وماكشفته عنهم الحفريات الأثرية، وأشهر قبائلهم التى أبيدت هم: قوم عاد وثمود وأهل مدين وطسم وجديس وجُرهم الأولى.

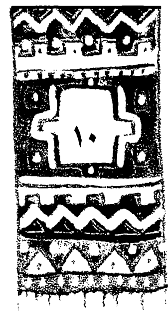


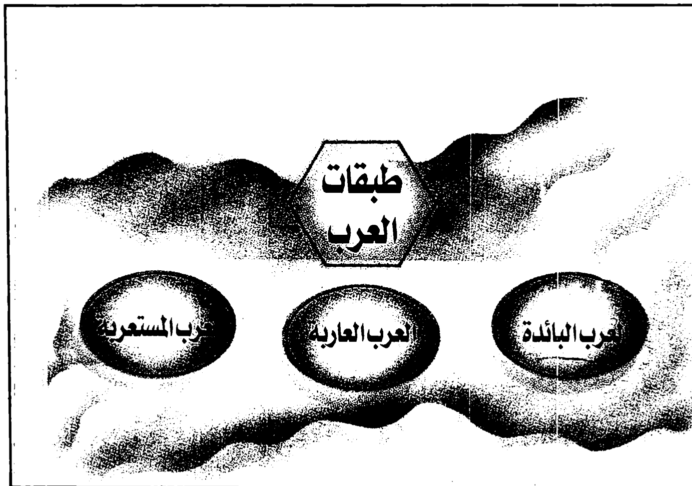
وقوم عاد، هم أقدم هؤلاء الأقوام من العرب البائدة، وقد ورد ذكرهم فى القرآن الكريم فى قوله تعالى: ﴿ **أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِعَادٍ ﴿٦﴾ إِرَمَ ذَاتِ الْعِمَادِ ﴿٧﴾ الَّتِي لَمْ يُخْلَقْ مِثْلُهَا فِي الْبِلادِ ﴿٨﴾** ﴾ [الفجر]. وذهب الأخباريون إلى وجود طبقتين لقوم عاد، وهما: عاد الأولى وعاد الثانية، وقالوا إن عاداً الأولى كانت من أشد الأمم بطشًا وقوة. وكانت مؤلفة من أكثر من ألف بطن من البطون. وقد ورد فى القرآن الكريم أن الله أهلك عاداً الأولى ولم يُبق عليهم، ويُفهم من القرآن أن مساكن عاد الأولى كانت بمنطقة الأحقاف (الربع الخالى)، شمال حضرموت وغربى عُمان وذلك فى قوله تعالى: ﴿ **وَاذْكُرْ أَخَا عَادٍ إِذْ أَنذَرَ قَوْمَهُ بِالأَحْقَافِ وَقَدْ خَلَتِ النُّذُرُ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِ أَلاَّ تَعْبُدُوا إِلاَّ اللَّهَ إِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ ﴿٢١﴾** ﴾ [الأحقاف] وقد أرسل الله تعالى إلى قوم عاد نبيه هوداً، وقال تعالى: ﴿ **وَإِلَىٰ عَادٍ أَخَاهُمْ هُودًا قَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُ إِنْ أَنتُمْ إِلاَّ مُفْتَرُونَ ﴿٥٠﴾** ﴾ [هود]. وقال تعالى: ﴿ **وَأُتْبِعُوا فِي هَٰذِهِ الدُّنْيَا لَعْنَةً وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ أَلا إِنَّ عَادًا كَفَرُوا رَبَّهُمْ أَلا بُعْدًا لِّعَادٍ قَوْمِ هُودٍ ﴿٦٠﴾** ﴾ [هود]. وقال تعالى: ﴿ **فَأَمَّا عَادٌ فَاسْتَكْبَرُوا فِي الأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَقَالُوا مَنْ أَشَدُّ مِنَّا قُوَّةً أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّ اللَّهَ الَّذِي خَلَقَهُمْ هُوَ أَشَدُّ مِنْهُمْ قُوَّةً وَكَانُوا بِآيَاتِنَا يَجْحَدُونَ ﴿١٥﴾** ﴾ [فصلت].

وكان قوم عاد يعبدون الأصنام فقام هود بتحذيرهم وضرب لهم المثل بقوم نوح وذكرهم بنعم الله عليهم إذ زادهم فى الخلق بسطة وجعلهم خلفاء من بعد قوم نوح وبوأهم أرضًا تدر عليهم الخير وتخرج لهم الزرع، وأن عليهم أن يستعملوا عقولهم ويعبدوا الله الذى خلقهم. وقد أعلن لهم هود أنه ينصحهم لوجه الله لايريد أجرًا ولا رئاسة.

وقد سفهه قومه وكذبوه واتهموه فى عقله. وظل هود فى محاولاته مع قومه ثم أنذرهم بالعذاب. يقول الله تعالى فى ذلك: ﴿ **إِذْ قَالَ لَهُمْ أَخُوهُمْ هُودٌ أَلا تَتَّقُونَ ﴿١٢٤﴾ إِنِّي لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ ﴿١٢٥﴾ فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُونِ ﴿١٢٦﴾ وَمَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِنْ أَجْرِيَ إِلاَّ عَلَىٰ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿١٢٧﴾ أَتَبْنُونَ بِكُلِّ رِيعٍ آيَةً تَعْبَثُونَ ﴿١٢٨﴾** ﴾ [الشعراء].

ولقد أعرض قوم عاد عن نبيهم هود واستكبروا، فأنزل الله بهم العذاب بأن أرسل إليهم الريح الشديدة التى سخرها عليهم سبع ليال وثمانية أيام متتالية فأهلكتهم وجعلتهم كأعجاز نخل خاوية. يقول تعالى فى ذلك: ﴿ **وَأَمَّا عَادٌ فَأُهْلِكُوا بِرِيحٍ صَرْصَرٍ عَاتِيَةٍ ﴿٦﴾ سَخَّرَهَا عَلَيْهِمْ سَبْعَ لَيَالٍ وَثَمَانِيَةَ أَيَّامٍ حُسُومًا فَتَرَى الْقَوْمَ فِيهَا صَرْعَىٰ كَأَنَّهُمْ أَعْجَازُ نَخْلٍ خَاوِيَةٍ ﴿٧﴾ فَهَلْ تَرَىٰ لَهُم مِّنْ بَاقِيَةٍ ﴿٨﴾** ﴾ [الحاقة]. كذلك قوله تعالى: ﴿ **كَذَّبَتْ عَادٌ فَكَيْفَ كَانَ عَذَابِي وَنُذُرِ ﴿١٨﴾ إِنَّا أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحًا صَرْصَرًا فِي يَوْمِ نَحْسٍ مُّسْتَمِرٍّ ﴿١٩﴾ تَنزِعُ النَّاسَ كَأَنَّهُمْ أَعْجَازُ نَخْلٍ مُّنقَعِرٍ ﴿٢٠﴾ فَكَيْفَ كَانَ عَذَابِي وَنُذُرِ ﴿٢١﴾** ﴾ [القمر]. وقوله تعالى: ﴿ **فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحًا صَرْصَرًا فِي أَيَّامٍ نَّحِسَاتٍ لِّنُذِيقَهُمْ عَذَابَ الْخِزْيِ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَلَعَذَابُ الآخِرَةِ أَخْزَىٰ وَهُمْ لا يُنصَرُونَ ﴿١٦﴾** ﴾ [فصلت].

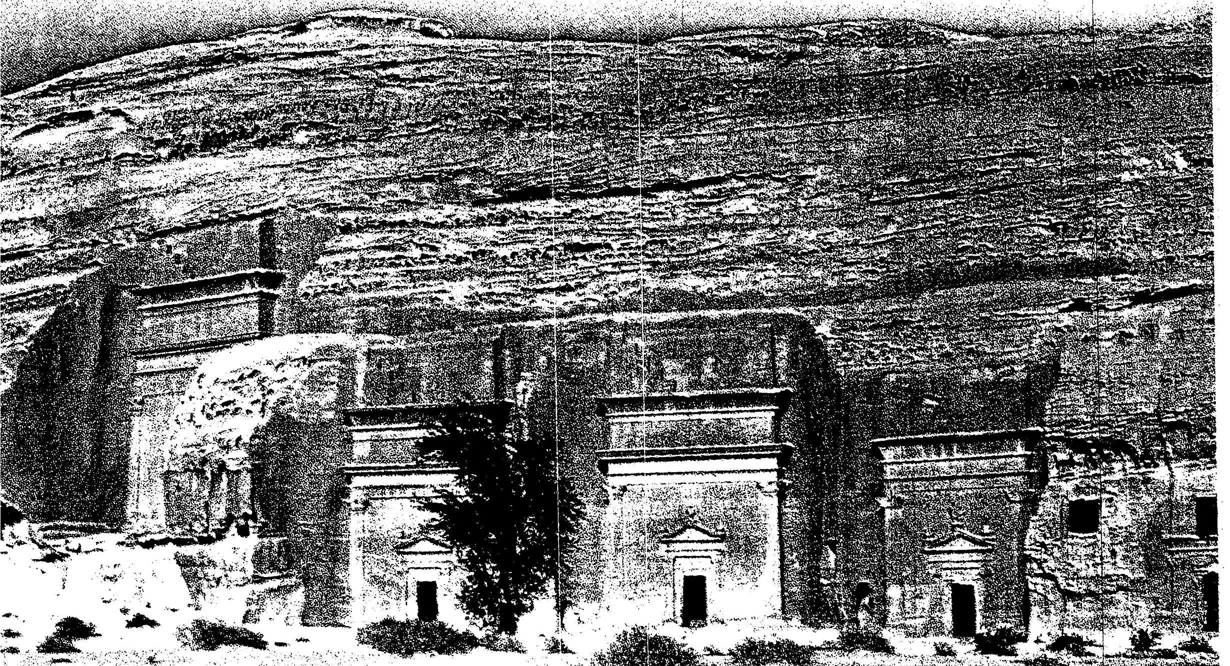


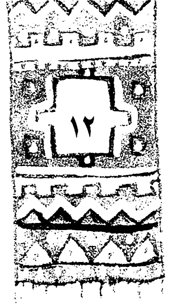


عاد من أقوام العرب

قوم صالح أهلكوا بالصاعقة

مدائن صالح





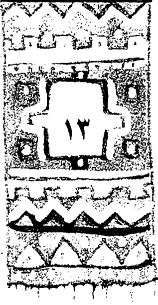
ولم يبق بعد هلاك عاد الأولى سوى هود وقلة آمنت به فيهم لقمان الحكيم وهو الذى ورد ذكره فى القرآن الكريم، وتسمت السورة بسورة لقمان. . وقد توجه هؤلاء إلى مكة طلبًا للماء وهنالك أقاموا دولة عاد الثانية، وخاف العاديون انحباس المطر والجفاف فى مكة فارتحلوا إلى اليمن وبقوا هناك حتى تغلبت عليهم القبائل القحطانية فالتجأوا إلى حضرموت واستقروا هناك وذابوا فى أهلها.

أما قوم ثمود، فقد ورد اسمهم فى الكتب العربية وفى القرآن الكريم مقرونًا بعاد، وورد اسم ثمود فى إحدى عشرة سورة من سور القرآن الكريم، وكانوا يسكنون منطقة الحجر (مدائن صالح)، وموقعها بين الحجاز والشام إلى وادى القرى وهى موجودة إلى الآن والمكان الذى كانت فيه ديارهم كانت تُعرف إلى اليوم بفج الناقة. وكانت بيوت قوم ثمود، كما أخبر القرآن الكريم، منحوتة فى الجبال: ﴿**وَثَمُودَ الَّذِينَ جَابُوا الصَّخْرَ بِالْوَادِ** ﴿٩﴾﴾ [الفجر] أى قطعوا الجبال واتخذوها بيوتًا، ولا تزال آثارهم المنحوتة فى الصخر باقية إلى الآن فى المنطقة الممتدة من الجوف شمالا إلى الطائف جنوبا ومن الأحساء شرقًا إلى أرض مدين غربًا.

وقوم ثمود فى الغالب بقية من قوم عاد، وما يؤيد أن قوم ثمود بقية من قوم عاد قول النبى صالح لهم فى القرآن: ﴿**وَاذْكُرُوا إِذْ جَعَلَكُمْ خُلَفَاءَ مِنْ بَعْدِ عَادٍ وَبَوَّأَكُمْ فِي الْأَرْضِ تَتَّخِذُونَ مِنْ سُهُولِهَا قُصُورًا وَتَنْحِتُونَ الْجِبَالَ بُيُوتًا فَاذْكُرُوا آلَاءَ اللَّهِ وَلَا تَعْثَوْا فِي الْأَرْضِ مُفْسِدِينَ** ﴿٧٤﴾﴾ [الأعراف]. أما زمن وجودهم فلم يُعلم بالضبط.

وكان قوم ثمود يعبدون الأصنام، وقد أرسل الله تعالى إليهم نبيه صالحا يأمرهم بترك عبادة الأصنام وعبادة الله الواحد القهار فهزأوا منه واستخفوا به ولم يستجيبوا لدعوته. وقد أورد الله تعالى رسالته لهم فى كتابه الكريم بقوله تعالى: ﴿**وَإِلَىٰ ثَمُودَ أَخَاهُمْ صَالِحًا قَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُ قَدْ جَاءَتْكُمْ بَيِّنَةٌ مِنْ رَبِّكُمْ هَٰذِهِ نَاقَةُ اللَّهِ لَكُمْ آيَةً فَذَرُوهَا تَأْكُلْ فِي أَرْضِ اللَّهِ وَلَا تَمَسُّوهَا بِسُوءٍ فَيَأْخُذَكُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ** ﴿٧٣﴾﴾ [الأعراف].

وقد طلب قوم ثمود من النبى صالح أن يأتيهم بآية معجزة خارقة تبين لهم صدق رسالته فأخرج لهم صالح من الصخر ناقة بإذن الله وأمرهم ألا يمسوها بسوء. ولكنهم تشاءموا من هذه الناقة وعدوها خطرًا عليهم فذبحوها فلما فعلوا ذلك وعدهم صالح بالعذاب الأليم من رب العالمين فأخذتهم الرجفة، أى أبادتهم الصاعقة عن آخرهم ولم تبق منهم أحدا. قال تعالى بصدد نهاية قوم ثمود المأساوية: ﴿**فَعَقَرُوا النَّاقَةَ وَعَتَوْا عَنْ أَمْرِ رَبِّهِمْ وَقَالُوا يَا صَالِحُ ائْتِنَا بِمَا تَعِدُنَا إِنْ كُنْتَ مِنَ الْمُرْسَلِينَ** ﴿٧٧﴾ **فَأَخَذَتْهُمُ الرَّجْفَةُ فَأَصْبَحُوا فِي دَارِهِمْ جَاثِمِينَ** ﴿٧٨﴾﴾.



وأما صالح والذين آمنوا معه فقد نجوا مما حاق بقومهم من العذاب الذى أدركهم بعد ثلاثة أيام من جريمة عقرهم الناقة وذبحها. وقيل إنه ذهب والذين آمنوا معه إلى ناحية الرملة من فلسطين. ويقول أهل حضرموت إنهم ذهبوا إلى حضرموت وأقاموا بها، وأنهم فصيلة من أهل الأحقاف، وهناك قبر فى بلادهم يزعمون أنه قبر النبى صالح.

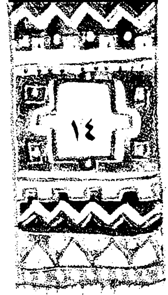
أما أهل مدين، فكانوا عربًا يسكنون مدينة مدين الواقعة على أطراف الشام مما يلى الحجاز، وكانوا تجاراً كفاراً يعبدون الأوثان وكانوا يطففون فى المكيال والميزان. فبعث الله إليهم نبيه شعيبا عليه السلام لهدايتهم إلى عبادة الله الواحد الأحد، فلم يستجيبوا له وسخروا منه. يقول الله تعالى عن أهل مدين: ﴿**وَإِلَىٰ مَدْيَنَ أَخَاهُمْ شُعَيْبًا قَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُ قَدْ جَاءَتْكُم بَيِّنَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ فَأَوْفُوا الْكَيْلَ وَالْمِيزَانَ وَلَا تَبْخَسُوا النَّاسَ أَشْيَاءَهُمْ وَلَا تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ بَعْدَ إِصْلَاحِهَا ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴿٨٥﴾**﴾ [الأعراف]، ﴿**قَالَ الْمَلَأُ الَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا مِن قَوْمِهِ لَنُخْرِجَنَّكَ يَا شُعَيْبُ وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَكَ مِن قَرْيَتِنَا أَوْ لَتَعُودُنَّ فِي مِلَّتِنَا قَالَ أَوَلَوْ كُنَّا كَارِهِينَ ﴿٨٨﴾**﴾ [الأعراف]، ﴿**وَقَالَ الْمَلَأُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِن قَوْمِهِ لَئِنِ اتَّبَعْتُمْ شُعَيْبًا إِنَّكُمْ إِذًا لَّخَاسِرُونَ ﴿٩٠﴾**﴾ [الأعراف].

ولما لم يستجب أهل مدين لشعيب وسخروا منه دعا عليهم واستجاب الله لدعوته فأخذتهم الرجفة، وهى الزلزال أو الصيحة، وهى زعقة عظيمة نزلت عليهم من السماء فأهلكتهم فبادوا عن آخرهم ونجا الله شعيبًا ومن آمن معه، قال تعالى فى ذلك: ﴿**وَلَمَّا جَاءَ أَمْرُنَا نَجَّيْنَا شُعَيْبًا وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ بِرَحْمَةٍ مِّنَّا وَأَخَذَتِ الَّذِينَ ظَلَمُوا الصَّيْحَةُ فَأَصْبَحُوا فِي دِيَارِهِمْ جَاثِمِينَ ﴿٩٤﴾ كَأَن لَّمْ يَغْنَوْا فِيهَا أَلَا بُعْدًا لِّمَدْيَنَ كَمَا بَعِدَتْ ثَمُودُ ﴿٩٥﴾**﴾ [هود].

وقال تعالى: ﴿**وَقَالَ الْمَلَأُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِن قَوْمِهِ لَئِنِ اتَّبَعْتُمْ شُعَيْبًا إِنَّكُمْ إِذًا لَّخَاسِرُونَ ﴿٩٠﴾ فَأَخَذَتْهُمُ الرَّجْفَةُ فَأَصْبَحُوا فِي دَارِهِمْ جَاثِمِينَ ﴿٩١﴾ الَّذِينَ كَذَّبُوا شُعَيْبًا كَأَن لَّمْ يَغْنَوْا فِيهَا الَّذِينَ كَذَّبُوا شُعَيْبًا كَانُوا هُمُ الْخَاسِرِينَ ﴿٩٢﴾**﴾ [الأعراف].

بعد ذلك أرسل الله تعالى شعيبًا إلى «أصحاب الأيكة»، وهى منطقة مزروعة وبها شجر كثيف قرب مدين، فلم يتقبلوا دعوة شعيب وكان من شدة حماقتهم أن طلبوا منه أن يُسقط عليهم قطعة من السماء إن كان من الصادقين؛ فأخذهم عذاب «يوم الظلة» بأن سلط الله عليهم الحر الشديد مدة سبعة أيام حتى فارت مياههم ثم ساق إليهم سحابة فاجتمعوا للاستظلال بها من وهج الشمس فأمطرهم بنار أحرقتهم.

قال تعالى: ﴿**وَإِن كَانَ أَصْحَابُ الْأَيْكَةِ لَظَالِمِينَ ﴿٧٨﴾ فَانتَقَمْنَا مِنْهُمْ وَإِنَّهُمَا لَبِإِمَامٍ مُّبِينٍ ﴿٧٩﴾**﴾ [الحجر] و﴿**كَذَّبَ أَصْحَابُ الْأَيْكَةِ الْمُرْسَلِينَ ﴿١٧٦﴾ إِذْ قَالَ لَهُمْ شُعَيْبٌ أَلَا تَتَّقُونَ ﴿١٧٧﴾ إِنِّي لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ ﴿١٧٨﴾ ... فَأَسْقِطْ عَلَيْنَا كِسَفًا مِّنَ السَّمَاءِ إِن كُنتَ مِنَ الصَّادِقِينَ ﴿١٨٧﴾ قَالَ رَبِّي أَعْلَمُ بِمَا تَعْمَلُونَ ﴿١٨٨﴾ فَكَذَّبُوهُ فَأَخَذَهُمْ عَذَابُ يَوْمِ الظُّلَّةِ إِنَّهُ كَانَ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ ﴿١٨٩﴾ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَةً وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُم مُّؤْمِنِينَ ﴿١٩٠﴾ وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ ﴿١٩١﴾**﴾ [الشعراء].



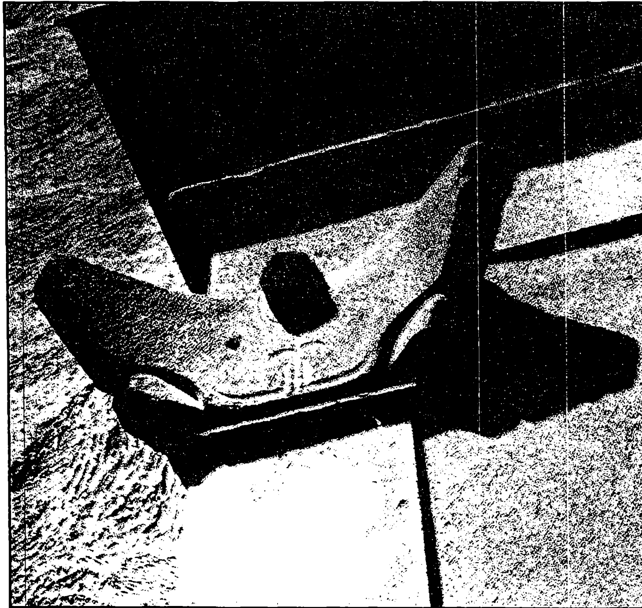
العرب العاربة:

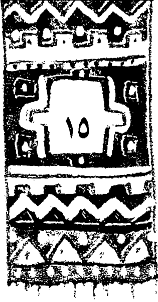
هذا عن العــرب البائدة، أمــا العرب العاربــة، فهم العرب الأُصّــل، وكانوا معــاصرين لإخوانهم من العرب البــائدة ومظاهرين لهم على أمورهم، وقد عــرفوا بالعرب اليمنية، والسبئية، والقحطانية، وعرب الجنوب، وكانوا فى الأصل يسكنون العراق، ثم هاجروا إلى اليمن واستقروا فيه ثم ارتحلوا من اليمن وتفرقوا شيعًا على إثر نزول سيل العرم وانهيار سد مأرب سنة ٥٢٥ مــيلادية وتوزعت قبائلهم فى شبه الجزيرة وخارجها.

ويُقسم النسابون العرب العاربة القحطانيين إلى قسمين كبيرين هما: جرهم الأولى ويعرب، وقد بادت جرهم الأولى وبقيت يعــرب التى انقسمت بدورها إلى مجموعتين كبــيرتين من القبائل هما: حميَّر وكهلان، وتنتسب حميّر إلى حــمير بن سبأ الأكبر ابن يشجب بن يعرب بن قحطان، وأنجب حميَّــر عددًا من الأبناء كانوا هم رءوس قبائل حــمير الشهيــرة، ومن أشهر قبائل حــمير: قضاعــة، ومن بطون قضاعــة: كلب وتنوخ وجهينة وعذرة وبهــراء وبلى، ومن حميَّر كــان أيضًا التتابعة ملوك اليمن، أما كهلان فيرجع نسبها إلى كهلان بن سبأ، وهو شقيق حمير بن سبأ، ومن أشهــر بطونها: الأزد، وطيئ، وبجيلة، وخــثعم، وعاملة، وهمــدان، وكندة، ومذحج، ولخم، وجذام. ومن بطون الأزد: أزد عُمان، والأوس والخــزرج الذين سكنوا يثرب، وخزاعة التى نزلت مكة وأجلت عنها جرهم الثانية.

العرب المستعربة:

وهم العــرب غيــر الخُلَّص، وقــد جاءوا من نــتاج زواج العــرب الخُلص مع أهل البــلاد التى ارتحلوا إليها وأقامــوا فيها. وهم من صلب سيــدنا إسماعيل ابن سيــدنا إبراهيم الخليل وزوجــته رعــلة بنت مضــام الجرهمى. وقد أنجب إســماعيل من رعلة اثنى عشر ولدا هم آباء العرب المستعربة. ونشأ العرب المستعربة فى مكة ومنهــا انتقلوا إلى ســائر البلاد العربيــة. ويُقال للعرب المســتعربة: الإسماعيلية، والقــيسية، والنزارية، والمعدية، وعــرب الشمــال، وعرب الحجاز، والعدنانيون.





ولقد تفرعت القبائل العدنانية كلها من نسل ولدين لعدنان هما: عك ومعد وأشهر هذه القبائل: إياد، ونزار، وقنص، وأنمار. ومن نزار تفرعت أشهر البطون العدنانية وبخاصة مضر وربيعة وأشهر بطون ربيعة: أسد وضبيعة، وأشهر بطون مضر قيس عيلان وسليم وغطفان وعدوان. وقريش هى أهم بطون إلياس بن مضر.

ولما تكاثرت القبائل العدنانية وضاقت بهم البلاد التى يقيمون بها تفرقوا حيث الماء والزرع وهاجروا، وممن هاجر منهم: بنو ربيعة وبطون من بكر بن وائل وبطون من تيم بن مرة هاجروا إلى البحرين. وهاجر بنو سليم إلى الأراضى شرقى يثرب، وهاجرت ثقيف إلى الطائف وسكنت فيها هى وهوازن إلى شرقى مكة. أما قريش فقد أقامت بمكة وضواحيها.

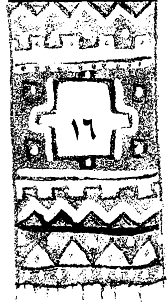
الممالك العربية قبل الإسلام

أ - ممالك اليمن

قامت فى بلاد اليمن قبل الإسلام خمس دول وممالك، هى: دولة معين، ومملكة حضرموت، وحكومة قتبان، ومملكة سبأ، ومملكة حمير. وتمتد تواريخ هذه الدول والممالك ما بين القرن الرابع عشر قبل الميلاد حتى ظهور الإسلام فى القرن السابع الميلادى، وكانت الدولة المعينية التى عاشت وازدهرت فى الفترة ما بين سنوات ١٣٠٠ - ٦٣٠ق م أقدم هذه الدول، وكانت دولة حمير آخر هذه الدول عهدا بالإسلام. وسيتناول حديثنا ثلاثا من هذه الدول، وهى أهمها وهى دول: معين وسبأ وحمير.

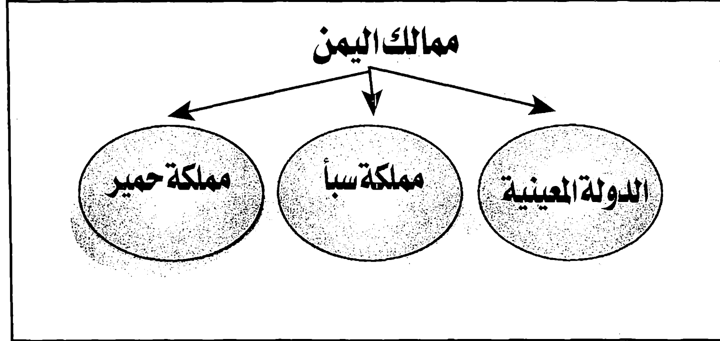


لوح خشبى منقوش عليه وجه الإلهة عشتار وقد انتقل مع القادمين من بلاد ما بين النهرين



١ - الدولة المعينية:

تعد الدولة المعينية من أقدم الدول العربية التى بلغنا خبرها، وقد استمرت قائمة ومزدهرة مدة سبعة قرون تقريبا، على رأى بعض العلماء. ووصلت إلينا أخبارها من الكتابات المدونة بالخط المسند والمصادر التاريخية القديمة غير العربية، ولم يرد بخصوص هذه الدولة ذكر فى المصادر العربية الإسلامية.

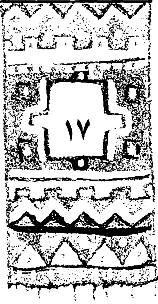


وكان ظهور دولة معين فى منطقة الجوف، شرقى صنعاء، فى الأرض السهلية الخصبة ذات المياه والتى تقع بين نجران وحضرموت. وكانت مدينة القرن عاصمة تلك الدولة. وقد حصل قُرَّاء الخط المسند على أسماء بعض ملوك هذه الدولة وليس جميعهم. كذلك صادفتهم مشكلة ترتيب قائمتهم ومعرفة سنوات حكمهم بالتحديد. وكان عدد الملوك الذين توصل المنقبون إليهم ٢٦ ملكا. ومن أشهر أسماء هؤلاء الملوك الذين حكموا وفق النظام الوراثى: اليفع يثع، اليفع ريام، تبع كرب، حفن صدق، ومعد يكرب.

وكانت حكومة معين حكومة ملكية يرأسها ملك، أُطلق عليه هذا اللقب، وشاركه فى الحكم أبناؤه وأشقاؤه. وكان للملك مجلس استشارى من كبار رجال خاصته، كان يستشيرهم فى أمور الدولة الهامة ولم يكن ينفرد برأيه.

وكان لرؤساء قبائل دولة معين دور خاصة تعرف الواحدة منها باسم (مزود) وجمعها مزاود، يتخذونها مجالس يجتمعون فيها للتشاور فى أمورهم. وتتألف مملكة معين من مقاطعات على رأس كل مقاطعة ممثل عن الملك يعرف عندهم باسم كِبر، أى الكبير.

ويتشكل دخل الحكومة من الضرائب التى تحصلها من الناس من واردات الأراضى الحكومية، ومن الضرائب التى وردت أسماؤها فى كتابات معين: ضريبة فرعم، أى الضريبة الفرعية، وضريبة عشرم، أى العشرية. وكانت للمعابد فى معين أراض خاصة تستغلها لصالحها وتصرف من ريعها، كذلك كان لها مورد ضخم من النذور التى كان يقدمها الناس لآلهة معين. وكان فى كل مدينة من مدن معين معبد أو أكثر خصصت لعبادة إله معين، الذين كان عشتر



(عشتار) أكبرهم، وكان يرمز له بالزهرة. كذلك كان أهل معين يعبدون الإله (ود) إله القمر، والإله (نكرح) إله الشمس.

وكانت مدينة القرن هى عاصمة معين وأشهر مدنهم، وقد ظلت هذه المدينة آهلة بالسكان حتى هجرت وتحولت إلى خرائب فى القرن الثانى عشر الميلادى. ومن مدن معين أيضا: براقش، نشق، ريشان، وبيحان.

٢ـ مملكة سبأ (١٠٠٠ق م ـ ١١٥ق م):

قامت مملكة سبأ فى الركن الجنوبى الغربى من بلاد اليمن، وكانت مجاورة ومعاصرة لدولة معين. ولما قويت شوكة مملكة سبأ وعظم أمرها انتزعت سلطان دولة معين وضمتها إليها، واتخذت مدينة صرواح، أول الأمر، عاصمة لها، ثم اتخذت، بعد ذلك، مدينة مأرب عاصمة لها.

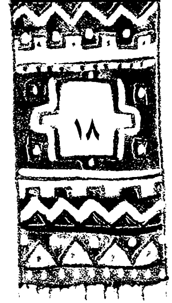
ولقد ورد اسم سبأ فى القرآن الكريم، وسميت سورة فيه باسمها لما كان لها من مكانة كبرى فى التاريخ القديم، يقول الله تعالى فى ذلك:

﴿ لَقَدْ كَانَ لِسَبَأٍ فِي مَسْكَنِهِمْ آيَةٌ جَنَّتَانِ عَن يَمِينٍ وَشِمَالٍ كُلُوا مِن رِّزْقِ رَبِّكُمْ وَاشْكُرُوا لَهُ بَلْدَةٌ طَيِّبَةٌ وَرَبٌّ غَفُورٌ (١٥) ﴾ [سبأ].

ويذكر الأخباريون أن نسبة هذه الدولة يرجع لسبأ بن يشجب بن يعرب بن قحطان من العرب العاربة. وزعموا أن اسمه الحقيقى هو عبد شمس، أما سبأ هذا فهو لقب لُقب به لأنه أول من سبى وسن السّبْى من ملوك العرب وأدخل السبايا بلاد اليمن، وذكروا أنه قام ببناء مدينة أسماها سبأ، وبناء سد مأرب، وقيامه بالغزو خارج اليمن.

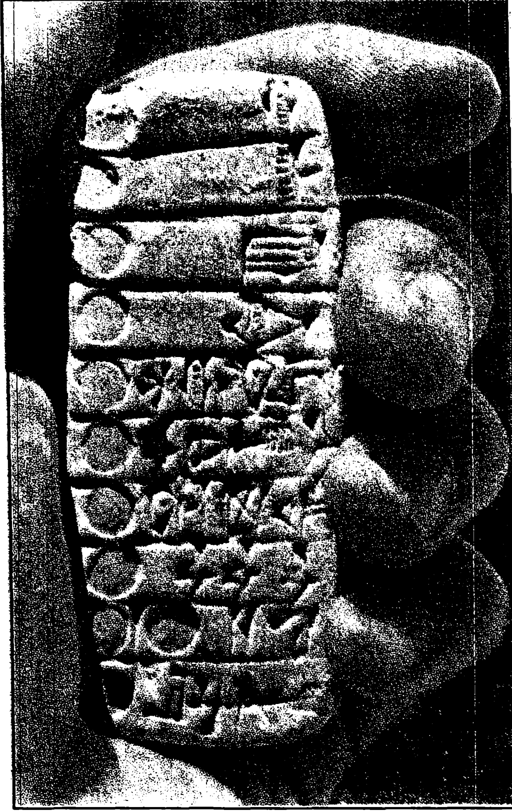
وورد أقدم ذكر لسبأ كشعب عربى فى النصوص السومرية القديمة، وبذلك كان السبئيون أول شعب عربى جنوبى تصلنا أخباره من المصادر التاريخية. وورد فى هذه النصوص أن شعب سبأ كان يسكن أول الأمر شمال شبه الجزيرة العربية، ثم ارتحلوا إلى جنوب شبه الجزيرة واستقروا فى منطقتى صرواح ومأرب وأقاموا دولتهم هناك. ووصفت التوراة أرض سبأ (شبا) بأنها كانت تصدر اللبان، وأنها كانت ذات تجارة كبيرة، وأن تجارها كانوا يتاجرون مع العبرانيين وأن أرضهم عرفت بغناها ووجود معدن الذهب بها.

وذكرت التوراة رحلة ملكة سبأ إلى فلسطين على عهد حكم الملك سليمان الحكيم حوالى سنة ٩٥٠ق م، لكنها لم تذكر اسم هذه الملكة. كذلك قص القرآن الكريم قصة ملكة سبأ والنبى سليمان دون أن يذكر اسم هذه الملكة وأورد أنها وأهلها كانوا يسجدون للشمس من دون الله. قال تعالى:



﴿وَتَفَقَّدَ الطَّيْرَ فَقَالَ مَا لِيَ
لا أَرَى الْهُدْهُدَ أَمْ كَانَ مِنَ
الْغَائِبِينَ ﴿٢٠﴾ لأُعَذِّبَنَّهُ عَذَابًا
شَدِيدًا أَوْ لأَذْبَحَنَّهُ أَوْ لَيَأْتِيَنِّي
بِسُلْطَانٍ مُّبِينٍ ﴿٢١﴾ فَمَكَثَ غَيْرَ
بَعِيدٍ فَقَالَ أَحَطتُ بِمَا لَمْ تُحِطْ
بِهِ وَجِئْتُكَ مِن سَبَإٍ بِنَبَإٍ يَقِينٍ ﴿٢٢﴾ إِنِّي وَجَدتُّ
امْرَأَةً تَمْلِكُهُمْ وَأُوتِيَتْ مِن كُلِّ شَيْءٍ وَلَهَا عَرْشٌ
عَظِيمٌ ﴿٢٣﴾ وَجَدتُّهَا وَقَوْمَهَا يَسْجُدُونَ لِلشَّمْسِ
مِن دُونِ اللَّهِ وَزَيَّنَ لَهُمُ الشَّيْطَانُ أَعْمَالَهُمْ فَصَدَّهُمْ
عَنِ السَّبِيلِ فَهُمْ لا يَهْتَدُونَ ﴿٢٤﴾﴾ [النمل].

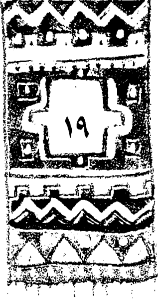
وقد ذكر المفسرون المسلمون وأهل الأخبار أن بلقيس هو اسم هذه الملكة السبئية وأنها كانت معاصرة للنبى سليمان بن داود عليهما السلام.

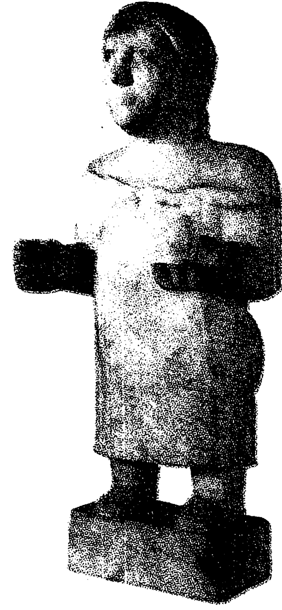


نموذج من الخط السومرى (المسمارى) الذى ترجع إليه اللغات السامية



وقد تبين من الكتابات السبئية أن فترة حكم ملوك سبأ انقسمت إلى حقبتين: الحقبة الأولى من سنة ١٠٠٠ إلى ٦٥٠ق م، وهى أقدمها، وقد حمل حكامها لقب المكارب، ومفردها مكرب (مقرب) دون أن يتخذوا لقب ملك. والحقبة الثانية من سنة ٦٥٠ق م إلى سنة ١١٥ق م، وهى الحقبة التى اتخذوا فيها لقب ملك وصاروا يعرفون بملوك سبأ حتى نهاية دولتهم.





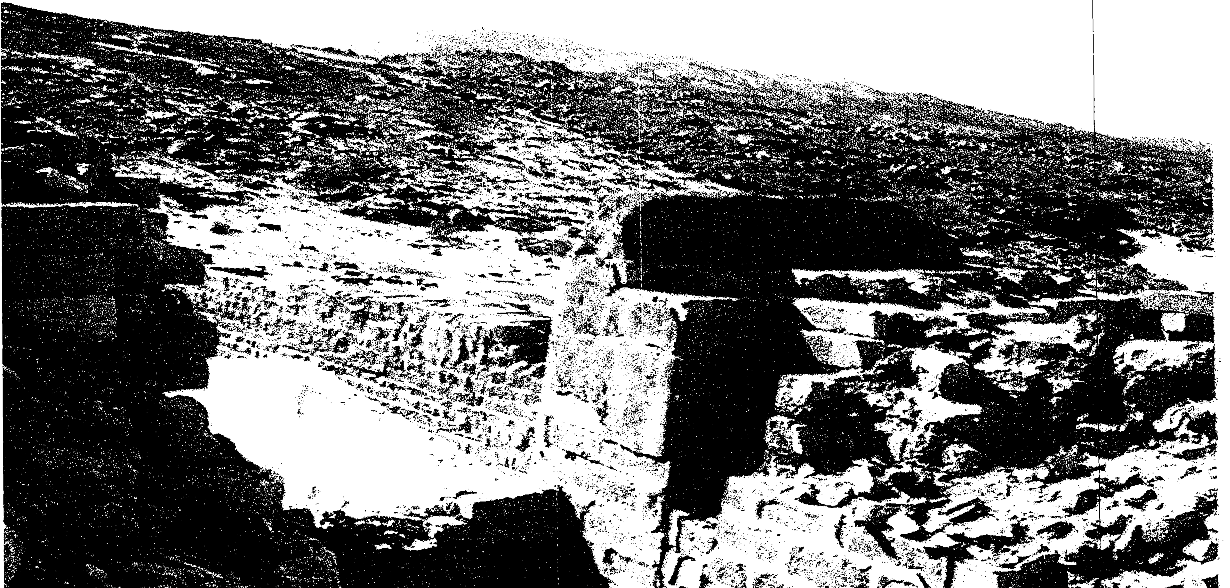
تمثال حاملة القرابين القرن ١ م - جنوب الجزيرة العربية

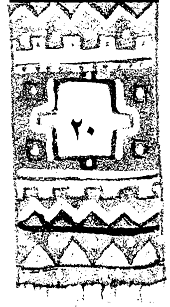
وتمكن العلماء من جمع أسماء ١٧ مكربا من مكربى الحقبة الأولى لدولة سبأ، أقدمهم المكرب سمة على، الذى نسب إليه بناء مدينة مأرب، وبعده ابنه وخليفته: يدع إيل بين، ثم المكرب يتع أمر. وذهب بعض الباحثين إلى أن المكرب سمة على وابنه يثع كانا المؤسسين الأصليين لسد مأرب فى القرن السابع قبل الميلاد.

ومن ملوك الحقبة الثانية الملك كرب إيل وتر وابنه سمه على ذرح، وقد اتخذ هؤلاء الملوك ومن حكم بعدهم دولة سبأ مدينة مأرب عاصمة لهم.

وترينا كتابات العهد الأخير من حكم دولة سبأ أن الوضع فى الدولة كان قلقا مضطربا وأن حروبا متوالية كثيرة قد وقعت لم يكن فيها من منتصر، وأن هذا الوضع أضعف دولة سبأ وأطمع الأحباش فيها. كذلك تأثرت هذه الدولة فى أواخر أيامها تأثرا كبيرا بانهيار سد مأرب، الذى وقع ما بين سنوات ٦٥٠ ـ ٦٣٠ ق م، مما أدى إلى غرق أراضيها الزراعية وهجرة قبائلها عنها إلى سائر

آثار سد مأرب





أنحاء شبه الجزيرة وتشكيل الهجرة القحطانية الكبرى، فضلا عن تحول التجارة عنها إلى حكام مصر البطالمة وقيام الأنباط عنهم بدور الوسيط التجارى فى التجارة العالمية. لكل هذه الأسباب سقطت دولة سبأ وقامت على أنقاضها دولة عربية أخرى هى دولة حمير.

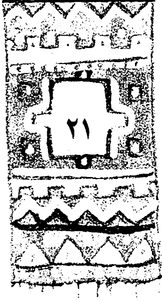
يقول الله تعالى عن نهاية دولة سبأ فى كتابه العزيز: ﴿ **فَأَعْرَضُوا فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ سَيْلَ الْعَرِمِ وَبَدَّلْنَاهُم بِجَنَّتَيْهِمْ جَنَّتَيْنِ ذَوَاتَيْ أُكُلٍ خَمْطٍ وَأَثْلٍ وَشَيْءٍ مِّن سِدْرٍ قَلِيلٍ (١٦) ذَلِكَ جَزَيْنَاهُم بِمَا كَفَرُوا وَهَلْ نُجَازِي إِلاَّ الْكَفُورَ (١٧) وَجَعَلْنَا بَيْنَهُمْ وَبَيْنَ الْقُرَى الَّتِي بَارَكْنَا فِيهَا قُرًى ظَاهِرَةً وَقَدَّرْنَا فِيهَا السَّيْرَ سِيرُوا فِيهَا لَيَالِيَ وَأَيَّامًا آمِنِينَ (١٨) فَقَالُوا رَبَّنَا بَاعِدْ بَيْنَ أَسْفَارِنَا وَظَلَمُوا أَنفُسَهُمْ فَجَعَلْنَاهُمْ أَحَادِيثَ وَمَزَّقْنَاهُمْ كُلَّ مُمَزَّقٍ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ (١٩)** ﴾ [سبأ].

٣- مملكة حميَّر:

كانت حمير من القبائل العربية الكبيرة المعروفة فى منطقة ريدان جنوب شبه جزيرة العرب، وهم ينتسبون إلى حمير بن سبأ بن يشجب بن يعرب بن قحطان، وقد وصل خبر دولة حمير إلى اليونان والرومان وذكروا أن عاصمتهم كانت مدينة ظفار، ويطلق أهل الأخبار لقب تُبَّع على الملوك الحميريين الذين حكموا اليمن ويُجمع بالتتابعة. وقد قيل إن التبع ملك يتبعه قومه ويلتزمون بطاعته، وإن أول من لقب منهم بذلك الحارث بن ذى شمر وإن هذا اللقب ظل فيهم إلى أن زالت مملكتهم على يد الأحباش بعد غزوهم اليمن.

ويرى بعض الباحثين أن سنة ١١٥ قبل الميلاد هى سنة نشوء مملكة حمير وظهورها إلى الوجود بصورة فعلية، ولهذا صار الحميريون يؤرخون بها لما لها من أهمية سياسية عندهم. ولم تلبث دولة حمير أن ازدهرت واستوى عودها وتقوت ودخلت فى حرب مع السبئيين وانتصرت عليهم واحتلت بلادهم، وصار ملوكها، بعد ذلك، يعرف كل واحد منهم «بملك سبأ وذى ريدان»

وقد انقسم حكم دولة حمير إلى فترتين زمنيتين، الأولى عرفت بدولة حمير الأولى في الفترة ما بين سنوات ١١٥ ق م حتى سنة ٣٠٠ ميلادية، وعرف ملوكها بملوك سبأ وذى ريدان. والفترة الثانية من ٣٠٠ ميلادية حتى نهاية الدولة سنة ٥٢٥ ميلادية، وقد أخذ كل ملك من ملوكها لقب «ملك سبأ وذو ريدان وحضرموت ويمنات» وذلك بعد أن تغلبت حمير على حضرموت وضمتها إلى أملاكها.



ومن ملوك حمير ذكر الأثريون ٢٢ ملكا، كان أشهرهم فى الدولة الأولى الشرح يحصب، وياسر يهصدق، وابنه الملك شمر يهرعش الأول الذى حكم حوالى سنة ١٤٠ ميلادية ويعد من أعظم ملوك حمير.

ومن ملوك العصر الحميرى الثانى المشهورين: الملك أبو كرب أسعد، الذى يزعم الأخباريون عنه أنه أول من اعتنق اليهودية من الملوك التتابعة ونشر اليهودية بين أهل اليمن. وينسب إلى هذا الملك أقدم قانون سنه لشعب سبأ وأهل مأرب وما والاها فى تنظيم البيوع بالمواشى والرقيق.

وكان الملك يوسف ذو نواس آخر ملوك حمير، وقد اعتنق هذا الملك اليهودية وقام بتعذيب نصارى نجران، وكانت نهايته باحتلال الأحباش لليمن من سنة ٥٢٥ ميلادية حتى سنة ٥٧٥م. ولقد روى القرآن الكريم قصة تعذيب ذى نواس للنصارى النجرانيين فى قوله تعالى: ﴿ **قُتِلَ أَصْحَابُ الأُخْدُودِ ﴿٤﴾ النَّارِ ذَاتِ الْوَقُودِ ﴿٥﴾ إِذْ هُمْ عَلَيْهَا قُعُودٌ ﴿٦﴾ وَهُمْ عَلَىٰ مَا يَفْعَلُونَ بِالْمُؤْمِنِينَ شُهُودٌ ﴿٧﴾ وَمَا نَقَمُوا مِنْهُمْ إِلاَّ أَن يُؤْمِنُوا بِاللَّهِ الْعَزِيزِ الْحَمِيدِ ﴿٨﴾** ﴾ [البروج]، وورد أن عدد قتلى نصارى نجران على يد ذى نواس بلغ عشرين ألفا».

ولقد سلطت الدولة الرومانية الأحباش النصارى على ذى نواس للانتقام منه وما فعله مع أبناء ملتهم بغزو أراضيه والقضاء على حكمه، وكانت بلاد الأحباش آنذاك ولاية رومانية مسيحية. فأغار الأحباش على اليمن بعد أن طلب الإمبراطور الرومانى جستنيان (٥١٨ـ ٥٢٧م) من نجاشى الحبشة غزو اليمن والثأر للمسيحيين الذين أحرقهم ذو نواس فى نجران. فأرسل النجاشى أحد قواده ويدعى أرياط على رأس ٧٠ ألف جندى لغزو اليمن سنة ٥٢٥م عن طريق البحر. وقد نجحت هذه الحملة فى مهمتها التى أنهتها بقتل ذى نواس واحتلال بلاده. وبذلك سقطت بلاد اليمن ودولة حمير تحت حكم الأحباش، وقد قيل بأن ذا نواس انتحر باقتحامه بفرسه البحر والموت غرقا.

ولقد ظل أرياط الحبشى يحكم اليمن من قبل النجاشى حتى ثار ضده قائد آخر يدعى أبرهة الأشرم الذى استطاع الانتصار عليه وقتله والحلول مكانه فى حكم اليمن. ووافق ملك الحبشة على تولى أبرهة حكم اليمن بعد قتل أرياط.

وانصرف أبرهة لنشر المسيحية فى اليمن وجنوب شبه الجزيرة، ومن أجل ذلك بنى فى صنعاء كنيسة كبرى زينها بأحسن زينة وأسماها العرب «القليس»، وجعلها محجا لقبائل العرب

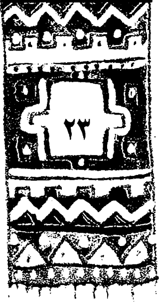


لإقناعهم بالمسـيحية وصرفـهم عن الحج إلى الكعبة والبـيت الحرام. ولما لم تنجح خطة أبرهة فى جذب العرب إلى كنيسته والديانة المسيحية صـمم على هدم الكعبة حتى يجبرهم على اتباع قبلته. وخرج أبرهة بجيشه متجها نحو مكة سنة ٥٧٠ ميلادية تتقدمه أعداد من الفيلة لتهدم الكعبة.

وكان عبد المـطلب بن هاشم، جد الرسول ﷺ، يتولى أمر البيت الحـرام آنذاك وكان زعيم قريش وكبيـر مكة. فلما رأى قوات أبرهة متقدمـة نحو الكعبة لهدمها بواسطـة أفيالها، طلب من قريش أن يخرجوا عن مكة إلى رءوس الجبال. وعندما تقدمت القوات الحبشية نحو الكعبة لهدمها حفظ الله بيته العتيق من الهدم، وقد حكى ذلك القرآن الكريم فى قوله تعالى:

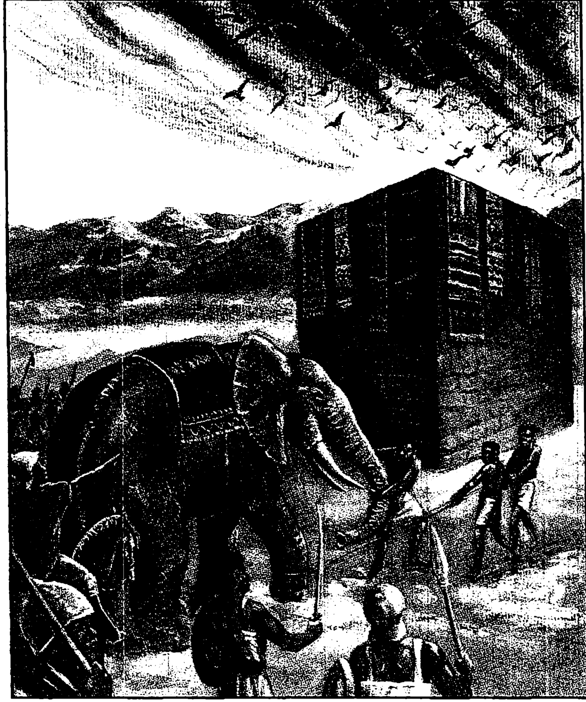
﴿أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِأَصْحَابِ الْفِيلِ ﴿١﴾ أَلَمْ يَجْعَلْ كَيْدَهُمْ فِي تَضْلِيلٍ ﴿٢﴾ وَأَرْسَلَ عَلَيْهِمْ طَيْرًا أَبَابِيلَ ﴿٣﴾ تَرْمِيهِم بِحِجَارَةٍ مِّن سِجِّيلٍ ﴿٤﴾ فَجَعَلَهُمْ كَعَصْفٍ مَّأْكُولٍ ﴿٥﴾﴾ [الفيل].

ولم ينج من جيش أبرهة إلا القليل ومـن بينهم أبرهة، وقد انسحبـوا عن مكة عائدين إلى صنعاء وقد أصابهم مرض الجدرى. ومـا لبث أبرهة إلا قليلا حتى هلك فى صنعاء. ويعرف هذا



العام الذى تم فيه غزو الكعبة بعام الفيل، وقد اتخذه العرب بداية لتأريخهم، كذلك تشرف هذا العام بمولد النبى محمد ﷺ خاتم الأنبياء والمرسلين.

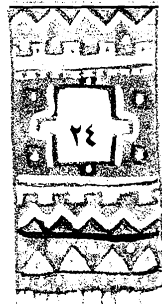
وخلف أبرهة فى حكم اليمن ابنه يكسوم، ثم خلفه من بعده أخوه مسروق. وقد أساء الأخوان معاملة أهل اليمن، مما أدى إلى تذمرهم من حكم الأحباش ورغبتهم فى الخلاص منهم. وثارت فى أهل اليمن الروح الوطنية والرغبة فى الاستقلال، وتزعم حركتهم الوطنية أحد أمرائهم ويدعى سيف بن ذى يزن. وحاول ذو يزن أن يستعين بالروم فى طرد الأحباش من بلاده فذهب إلى القسطنطينية وعرض الأمر على الإمبراطور جستنيان على أن يحكم اليمن نيابة عنه ويكون واليا مخلصا له.



فرفض جستنيان عرض ذى يزن مؤثرا ولاء الأحباش النصارى له عن اليمنيين. فاتجه سيف إلى المدائن عاصمة فارس للتفاهم فى أمر المساعدة مع ملك الفرس كسرى أنوشروان بعد أن اصطحب معه ملك الحيرة النعمان بن المنذر حليف الفرس، وسيطا له عنده. فوافق ملك الفرس على العرض وجهز لسيف بن ذى يزن جيشا هزيلا من سجناء بلاده يتكون من ٨٠٠ سجين قادهم قائد فارسى عجوز ضعيف البصر يدعى وهرز. وقد سار هذا الجيش فى البحر الأحمر إلى باب المندب فى ثمانى سفن على كل سفينة ١٠٠ جندى. وغرقت سفينتان فى الطريق ولم يصل إلى اليمن سوى ست سفن عليها ٦٠٠ جندى. وانضم اليمنيون إلى جيش وهرز واستطاع سيف بهذا الجيش الهزيل أن يخلص اليمن من الأحباش بعد حكم لها دام لأكثر من ٧٠ عاما.

وحكم سيف اليمن، نائبا عن الملك الفارسى، مقابل دفع جزية سنوية لملك الفرس.

وقام سيف بن ذى يزن بقتل كثير من الأحباش المقيمين فى اليمن، وجاءت نهاية سيف بأن قتله أحد الأحباش. وأرسل كسرى جيشا آخر ثبت به حكم الفرس على اليمن. وظل ولاة الفرس



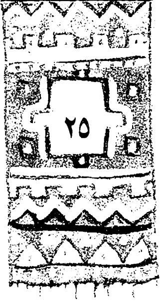
يتتابعون على حكم اليمن حتى كان آخرهم بازان الذى أسلم هو وقومه على أثر ما دار بينه وبين رسول الله ﷺ من مكاتبات. فأقره الرسول على ولاية اليمن وأرسل إليه الصحابى الجليل معاذ بن جبل ليفقه أهل اليمن فى الدين. ومنذ ذلك الوقت دخلت اليمن ضمن دولة الإسلام.

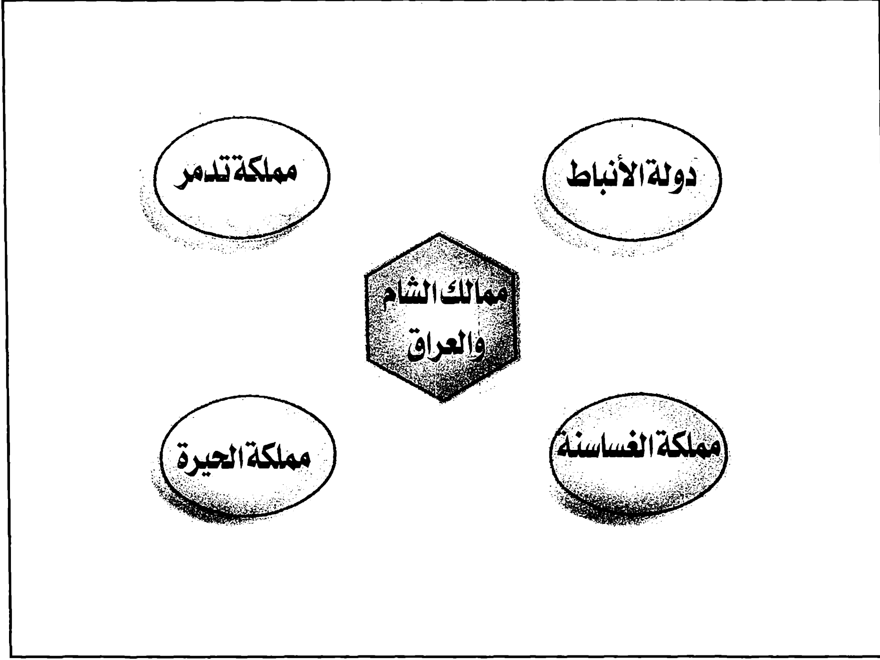
ب - ممالك الشام والعراق

لقد استغلت القبائل العربية حالة الضعف التى ظهرت على الحكومة السلوقية التى قامت فى سوريا فى أعقاب تقسيم دولة الإسكندر الأكبر المقدونى بين قواده، وأخذت فى الزحف من شبه جزيرتها نحو الشمال وقامت بتهديد المدن القريبة من البوادى وحاولت الاستيلاء عليها. ونجحت هذه القبائل، بالفعل، فى الاستيلاء على بعضها وتكوين إمارات أو مشيخات لها هناك، وهى حكومات توقفت حياتها على قوة مؤسسيها وقوة من حكم فيها من بعدهم، كذلك توقف توسعها أو انكماشها على هذا الأمر؛ إضافة إلى أحوال الدول الكبرى التى أقاموا على أطرافها.

وقد علَّمت الطبيعة حكومات العراق وبلاد الشام دروسا فى كيفية التعامل والتفاهم مع هؤلاء الأعراب، وعلمتهم أن القوة والصرامة ضرورية معهم لوقف طموحاتهم والحد من توسعاتهم على حساب أراضيهم، ولذلك أقامت هذه الحكومات مراكز محصنة لها على حواشى الصحراء، ووضعوا فيها حاميات قوية مزودة بالطعام والماء والأهراء لمجابهة غزو الأعراب. وكانت هذه المراكز خطوطا دفاعية أمامية تحول دون تقدم أبناء البادية إلى مواطن الحضر والعبث فيها.

وعلّمت الطبيعة، أيضا، حكومات العراق وبلاد الشام أن القوة وحدها لا تكفى لحماية حدودهم، وأنه لابد من مداهنة الأعراب واسترضائهم، وذلك بالاتفاق مع سادات القبائل الأقوياء ودفع هبات مالية سنوية لهم يرضون عنها مقابل ضبط الحدود وحمايتها من أى هجمات خارجية، والسماح لهم بإقامة إمارات عربية على حدود بلادهم، كانت بمثابة الإمارات الحاجزة جعلت الحكم فيها لرؤساء القبائل العربية الكبيرة. وكانت حكومة تدمر ودولة الأنباط ودولة الغساسنة ودولة المناذرة من هذه الإمارات. وتمتعت هذه الإمارات فى المناطق التى قامت فيها بالاستقلال الذاتى مع الولاء إما لدولة الفرس أو لدولة الروم. لكن هاتين الدولتين الكبيرتين لم تبقيا على استقلال هذه الإمارات طويلا فعملت على القضاء عليها وعلى حكامها، برغم الخدمات التى قدموها لهما، وقاموا بضمها إلى بلادهم. ولمَّا جاء الإسلام وقضى على دولة الفرس وقلص أجنحة دولة الروم؛ ضم هذه الإمارات إلى الدولة العربية الإسلامية الوليدة التى أقامها المسلمون مع مطلع القرن السابع الميلادى، ودخل تاريخها، منذ ذلك الوقت، فى طور جديد متغير.



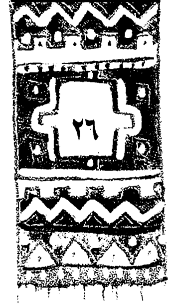


١ـ دولة الأنباط:

ظهر الأنبــاط، لأول مرة فى التــاريخ، فى القرن الســادس قبل الميــلاد، كقبــائل بدوية فى الصحــراء الواقعــة فى شرقى ما يســمى اليوم بدولة الأردن، فى المنـطقة التى عرفت عنـد اليونان والرومان باسم: العــربية الحجريــة، ودولة الأنباط دولة عربية تشـقف أهلوها بثقافــة آرامية وكتــبوا بكتاباتهم وتأثروا بلغتهم حــتى غلبت الآرامية عليهم. وقد اتخذ الأنباط كــتابة لهم وعرف قلمهم عن سائر الأقلام، واقتبس من هذا القلم الخط العربى المعروف بالخط النسخ، والخط الكوفى، الذى تطور فى الكوفة ونسب إليها.

ولقد ارتحل الأنباط فى القرن الثالث قبل الميلاد نحو الغرب واستقروا فى مواطنهم الجديدة، وتحولوا فى القرن التالى إلى مــجتمع منظم متقدم متطور، تحول من حــياة الرعى إلى حياة الزراعة والتجارة. ويعد عام ٣١٢ ق م أول تاريخ ثابت وقعت فيه أحداث مؤكدة لهم، وذلك حين نجحوا فى ذلك العام فى صد حملتين قام بهما السلوقيون ضدهم.

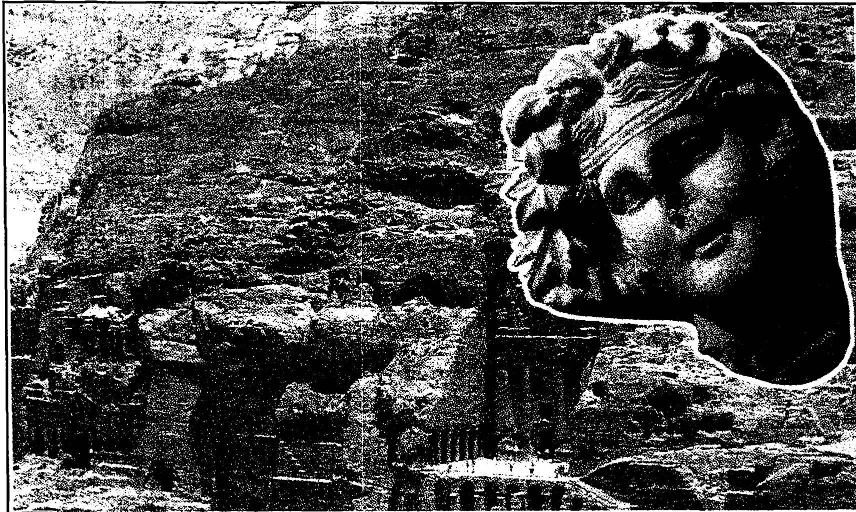
ولقد اتخذ الأنباط البتراء عاصمــة لهم، وأصبحت هذه المدينة منذ أواخر القرن الثالث قبل الميلاد المدينة الرئيســية على طريق القوافل التى تربط بين جنوبى الجزيرة العربيــة وبين مراكز الاتجار فى الشمال، وكانت تسيطر على الطريق المؤدية إلى مــيناء غزة فى الغرب وإلى بصرى ودمشق فى الشمال وإلى أيلة (إيلات) على البحر الأحمر، وإلى الخليج العربى عبر الصحراء.



وأصبحت دولة الأنباط فى أوائل القرن الثانى قبل الميلاد قوة يحسب لها حساب فى سياسة الشرق الأدنى. لكن سياسة البطالمة الرامية إلى السيطرة على البحر الأحمر واحتكار التجارة البحرية العالمية أدت إلى إلحاق أضرار فادحة بالنبط وبغيرهم من العرب الذين كانوا يتاجرون فى البحر الأحمر. فاضطر الأنباط إلى التحرش بسفن البطالمة وبمهاجمة السفن المتجهة إلى مصر والاستيلاء على ما فيها. فاضطر بطلميوس الثانى (٢٨٥ ـ ٢٤٦ ق م) إلى إنشاء قوة بحرية لحراسة السفن التجارية البطلمية. وقد ألحقت هذه القوة خسائر فادحة بأسطول الأنباط. وقد قام بطلميوس فيلادلفوس بفرض سيطرة البطالمة الكاملة على البحر الأحمر وأنشأ لذلك ميناء بيرينيس، بالقرب من أسوان، على هذا البحر لحماية أسطول تجارتهم، الأمر الذى أثر كثيرا على التجار عموما وعلى تجار النبط على وجه الخصوص.

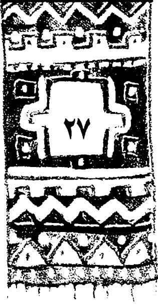


إله نبطى به تأثير الإغريق



معبد الأنباط فى مدينة البتراء

وبين ملوك الأنباط نجد اسم الحارث (أريتاس) يتكرر كثيرا، وكان الحارث الأول (الذى حكم حوالى سنة ١٦٩ ق م) على رأس قائمة هؤلاء الملوك.



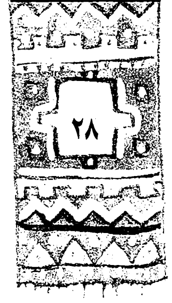
والحارث الثالث هو من أشهر الملوك المتقدمين من النبط، وقد اشتهر بتوسيعه رقعة دولته واستيلائه على مدينة دمشق، كذلك بفتحه باب بلاده على مصراعيه للحضارة اليونانية الرومانية مما أكسبه لقب «محب الهيلينية».


واجهة معبد نبطى

وبلغت مملكة الأنباط ذروتها فى عهد أطول حكامها عهدا وهو الحارث الرابع (الذى حكم فى الفترة ما بين سنة ٩ قبل الميلاد حتى سنة ٤٠ ميلادية)، وقد تابع هذا الملك نشر الحضارة الرومانية فى بلاده. ونحن لا نعرف عن آخر حكام دولة الأنباط غير بعض الحقائق المستخرجة من الكتابات الأثرية المحلية والنقود والكتابات القديمة. ومنذ عهد حكم «عبادة الثالث» (٢٨ ـ ٩ق م) أخذت تظهر فى نقود الأنباط صورة الملكة إلى جوار الملك واستمرت التماثيل النصفية المزدوجة للزوجين الملكيين تظهر منذ ذلك الحين حتى نهاية حكم دولة النبط. وهناك كتابة أثرية على تمثال للملك عبادة الثالث تدعوه بالإله؛ مما يدل على أن الأنباط كانوا يؤلهون ملوكهم بعد الموت. وقد وصفت الملكة على نقود الملك «مالك الثانى» (٤٠ ـ ٧٠م) ابن الحارث الرابع، بأنها شقيقة الملك؛ مما يشير إلى أن بعض الملكات النبطيات كن زوجات شقيقات

مملكة تدمر





للملوك الأنباط الحاكمين، متبعين فى ذلك عادة الفراعنة وحكام البطالمة. كذلك أشارت كتابة أثرية إلى أن إحدى زوجات الحارث الرابع كانت أختا شقيقة له.

وتذكر الكتابات الأثرية التى وجدت فى حوران أن رابيل الثانى (حكم حوالى ٧١ ـ ١٠٥م) كان آخر ملوك الأنباط. ولم يعرف بالضبط ما الذى حدث فى عام ١٠٥ ميلادية مما أدى إلى انهيار هذه الدولة النبطية وضمها إلى الإمبراطورية الرومانية. وأصبحت البتراء، منذ ذلك الوقت، فى ذمة التاريخ وزالت من الوجود، وما زالت أطلالها تقع الآن على بعد ٥٠ ميلا تقريبا إلى الجنوب من البحر الميت.

ولقد كانت حضارة الأنباط حضارة عربية فى لغتها، آرامية فى كتابتها، سامية فى ديانتها، ويونانية رومانية فى فنها وهندستها المعمارية. وهى لذلك حضارة مركبة، لكنها كانت عربية فى أساسها هيلينية فى مظهرها.

وكانت ديانة الأنباط من النوع السامى الشائع وأساسها طقوس الخصب المتصلة بالزراعة، وكان على رأس آلهتهم الإله (دوشارا) إله الشمس. كذلك كان الأنباط يعبدون اللات والعزى ومناة وهبل، كما كانوا يعبدون القمر.

٢ ـ مملكة تدمر:

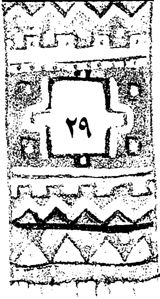
تنسب هذه المملكة إلى مدينة تدمر، التى كانت عاصمة لها، وهى تعرف عند الغربيين باسم بالميرا، بمعنى مدينة النخيل لكثرة ما كان بها من نخيل.

وكانت تدمر مثل البتراء، مدينة تجارية تقع فى طرف البادية التى تفصل بين الشام والعراق، وهى تبعد ١٥٠ ميلا شمال شرقى دمشق ونحو ١٠٠ ميل عن حمص.

وكانت بداية ظهور هذه المدينة سنة ١٨٠٠ ق م. وكان غالبية أهل تدمر من العرب برغم أن كتاباتهم كانت بالقلم الآرامى واللغة الآرامية شأنهم فى ذلك شأن نبط البتراء. وعلى العموم فلقد كانت ثقافة مملكة تدمر هى خلاصة جملة ثقافات عربية وآرامية ويونانية ولاتينية.

وكانت تدمر مركزا تجاريا خطيرا ومحطة تجارية كبرى لمرور القوافل عبر بادية الشام والعراق. وقد خلفت تدمر مكانة البتراء بعد أن سقطت الأخيرة فى يد الرومان، وانتقلت أسواق الأنباط إلى أيدى التدمريين. وتولت قوافل تدمر نقل البضائع بين العراق والشام واصلة إلى نهر الفرات.

وعادت هذه التجارة بالثروة الكبيرة على سكان المدينة، وتجلت آثارها فى المبانى الجميلة المنقوشة التى بنوها وفى معابدهم الفخمة التى لا تزال آثارها الباقية تشهد حتى الآن على غنى أهلها.



إلا أن وجود مثل هذه الثروة بهذه المدينة، دون أن يكون لها جيش قوى، أطمع الطامعين فيها من حكام الشرق والغرب، فطمع فيها الفرس وأهل العراق، كما طمع فيها اليونانيون والرومان والبيزنطيون. وقد قام الإسكندر الأكبر المقدونى بضم تدمر إلى إمبراطوريته، وبعد موته، صارت من نصيب السلوقيين.

كذلك حاول الرومان ضم تدمر إلى دولتهم، وحاول ماركوس أنطونيوس فتحها عام ٤١ق م إلا أنه لم يفلح فى ذلك، لكن الإمبراطور هادريان نجح فى فتح تدمر سنة ١٣٠م وإدخالها تحت حمايته، ومنحها اسم هاريانا بالميرا.

وظهرت مكانة تدمر على مسرح السياسة العالمية فى منتصف القرن الثالث الميلادى خلال حروب دولة الروم مع دولة الفرس الساسانيين. وقد أنعم، لذلك، الإمبراطور الرومانى جالينوس، بسبب ولاء التدمريين له، على أذينة ملك تدمر بلقب قنصل، ولقب زعيم الشرق Dux Orientis سنة ٢٦٢م. وقد جعل منه هذا اللقب ما يشبه بنائب للإمبراطور على القسم الشرقى من الإمبراطورية، وأعطيت تدمر درجة مستعمرة رومانية عليا؛ فاكتسبت بذلك حق الامتلاك التام والحرية الكاملة فى إدارة سياسة المدينة والإعفاء من الخراج وحصول سكانها على حقوق المواطنة الرومانية. وتمتعت بهذه المكانة أيضا فى عهد حكم الإمبراطور كراكلا (٢١١ ـ ٢١٧م).

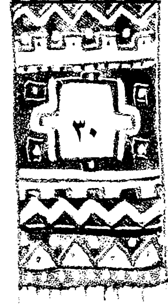
وتبعا لذلك قامت تدمر بتوسيع تجارتها وزيادة عدد قوافلها، وحصلت لذلك على ثروات طائلة. وتعد الفترة ما بين سنوات ١٣٠ ـ ٢٧٠ ميلادية أزهى سنى هذه الدولة، وإلى هذه الفترة ترجع معظم الآثار العظيمة التى خلفتها حضارة هذه الدولة.

وفى سنة ٢٥٠ م اتخذ أذينة ملك تدمر لنفسه لقب ملك Rex، فتخوف الرومان منه على مصالحهم، فأوعز القيصر إلى أحد رجاله فى حمص باغتياله ونجح فى ذلك، بينما كان أذينة يحتفل بإحدى المناسبات الخاصة.

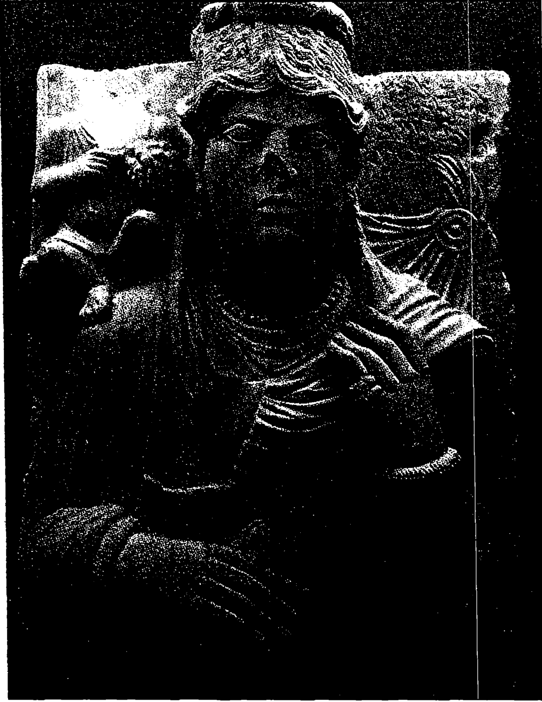
وانتقل الحكم فى تدمر بعد مقتل أذينة، إلى ابنه (وهب اللات) من زوجته الزباء (زنوبيا). ولما كان وهب اللات صغير السن تولت أمه الوصاية عليه وحكمت نيابة عنه حتى بلوغه سن الرشد.

وقد ادعت الزباء قرابتها من الملكة البطلمية كليوباترا حاكمة مصر، وادعت الثقافة اليونانية، وتكلمت باليونانية واللاتينية والآرامية والمصرية.

واتسعت مملكة تدمر فى عصر حكم زنوبيا فشملت سوريا وجزء من آسيا الصغرى وشمالى الجزيرة العربية ومدينة الإسكندرية. واتبعت زنوبيا سياسة عربية تعتمد على التقرب من الأعراب والتودد إليهم والاعتماد عليهم فى القتال والحروب، وذلك بعد أن أيقنت من طمع الرومان فى دولتها. فتقربت من العناصر العربية المستوطنة فى المدن، وأخذت تعمل على تكوين دولة عربية واحدة قوية تحت زعامتها. فأخذت زنوبيا فى تكوين هذه القوة، إلا أن الرومان كانوا أسرع منها فقضوا على مخططها قبل أن تنفذه واستولوا على دولتها وأسقطوا حكمها.

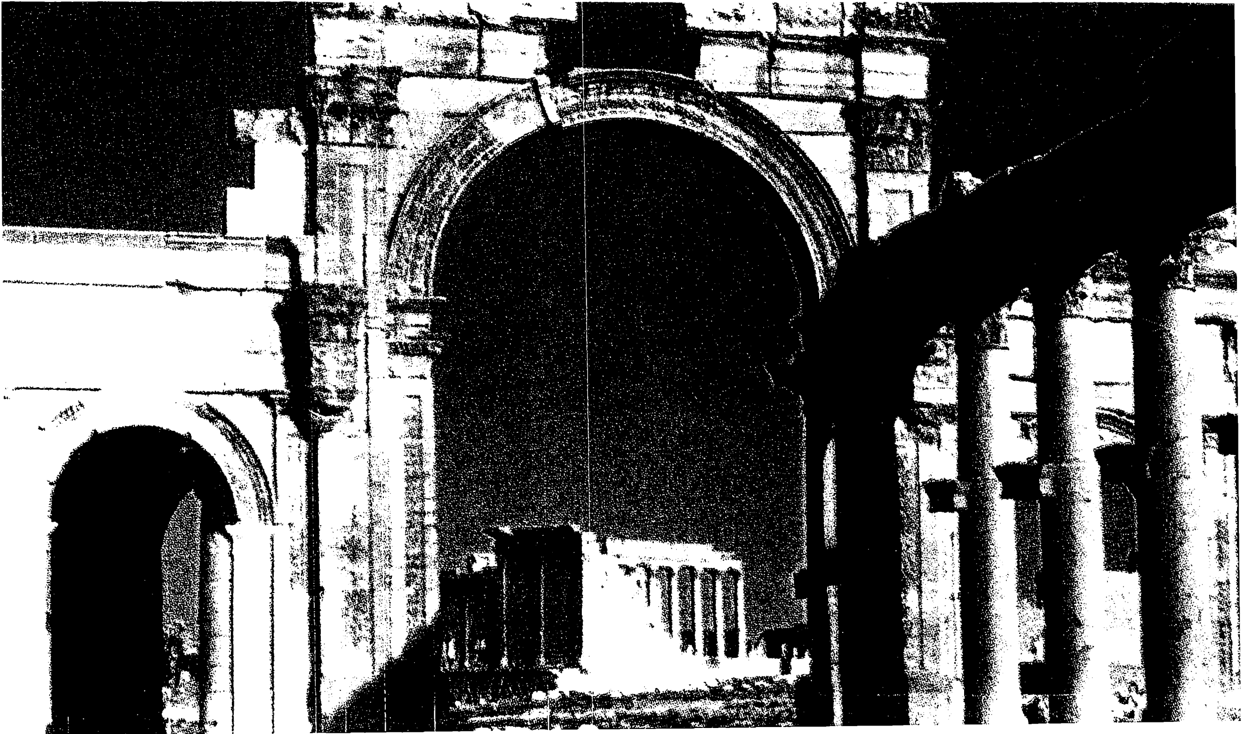


وقـــد فطن حـكام الرومان إلى خطر زنوبيا حين حاولت قواتها الاستيلاء على مصر ونجحت بالفعل فى فتح الإسكندرية، فـتـحـرك الإمبـراطور أورليان (٢٧٠ - ٢٧٥م) حـين أعلنت زنوبـيا نفسهـا ملكة وقامت بمحو صـورة الإمبراطور الرومانى من عـملة بلادها إعلانا منهـا بعدم اعترافـها بسيادة روما الاسـمية على بلادها، وأمرها بضرب اسم ابنها وهب اللات عليها. كذلك قـامت بالتحدى الصريح للإمـبراطور الرومـانى بتـلقـيب نفـسـهـا وابنـهـا بلقب أغـسطس، وهو لقـب القـيـصـر الرومـانى أورليان.



منحوتة جنائزية، سيدة تحمل على كتفها طفلا (تدمر القرن الثانى)

القوس الكبير خلف معبد بل - تدمر



تحرك الامبراطور أورليان سنة ٢٧٢م بقواته لمحاربة زنوبيا، فقام بمحاصرة تدمر وفتحها وهزيمة قوات زنوبيا وقتل ابنها وهب اللات فى المعركة ووقوعها فى الأسر. واقتصر عقاب أورليان لتدمر بفرض غرامة مالية كبيرة على سكانها وتعيين حاكم رومانى عليها وإبقاء قوة رومانية من الرماة بها.

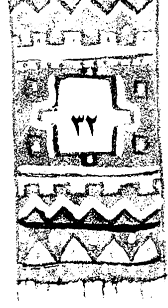
أما زنوبيا، فأخذت أسيرة إلى روما، ودخلتها فى موكب أورليان وهى فى كامل زينتها مقيدة بسلاسل ذهبية سنة ٢٧٤م. وحددت إقامتها فى روما حيث أمضت هناك بقية سنى حياتها حتى وفاتها.

ودخل تاريخ تدمر، بعد ذلك، فى عالم النسيان، ولكن دولتهم وإن كانت قد انتهت من التاريخ إلا أن آثار ملوكها ما زالت باقية حتى الآن تحكى أمجادهم وتعكس حضارتهم.



قصر ابن وازان ببادية الشام

يوضح طراز البناء فى ذلك الوقت



٣ـ مملكة الغساسنة:

فى حوالى نفس الوقت الذى كانت فيـه دولة تدمر فى طريقها إلى الزوال، أى فى أواخر القرن الثالث الميلادى، كان أقـوام من قبائل الأزد اليمنية فى طريقهم من اليمن إلى حوران بالشام، وكان ذلك بعد وقوع سيل العرم وانهيار سد مأرب، ليستقـروا عند ماء يقال له غسان. وقد عرف هؤلاء القـوم، نسبة لهذا الماء، باسم الغساسنة، كما عرفوا أيضا باسم بنى جفنة لأن قائدهم وزعيمهم كان يسمى جفنة بن عمرو وهو مؤسس دولتهم.

وحيـن وصل بنو جفنة منطقـة سهل حـوران وجدوا هنالك سكانا مـن العرب، كانـوا قد ارتحلوا إليها قبلهم، وهم الضجاعم من بنى سليم.

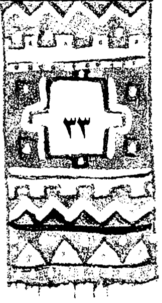
وكان شأن الضجاعم قـد ضعف هناك فتسيد الغساسنة الأزديون عليـهم وأقاموا دولتهم فى حوران. وقـد اعتنق الغساسـنة المسيحيـة خلال القرن الرابع الميـلادى، واتصلوا ببيزنطة وتحـالفوا معهـا. ووجد الروم فيهم خيـر معاون لهم فى حمـاية التجارة ووقف البدو عند حـدهم وحماية حدودهم من توسع الـفرس. وبلغت هذه الدولة قمـة ازدهارها فى القرن السـادس الميلادى تحت حكم الحارث بن جبلة، أعظم ملوكها.

ويعد جـفنة بن عمرو جـد الغساسنة، وقـد ولاه إمبراطور الروم ملكا على عـرب الشام، وتولى بعده ابنه ثعلـبة الذى حكم دولة الغسـاسنة ١٧عاما، ثم تولى من بعـده ابنه الحارث الذى حكم عشـرين عاما، ثم ابنـه جبلة الذى حكم عشـر سنين، ثم ابنه الحارث (الثـانى) الذى عرف بالحـارث الأعـرج، (٥٢٩ ـ ٥٦٩م) وقـد ارتفـعـت مكانة هذا الملك عند أباطـرة الروم فـعـينه الإمبراطور جستنيان سيدا على كل القبائل العربية فى سوريا ومنحه لقب بطريق، الذى يعادل لقب ملك.

ولما كان الحارث مـواليا لأباطرة بيزنطة، فقد اسـتمر فى صراعه مع اللخمـيين وحارب مع الجيش البيزنطى تحت إمرة القائد البيزنطى الشهير بليزاريوس.

وفى سنة ٥٤٤م شـارك الحـارث فى الحرب التى دارت بـين الروم من جهـة وبين الفـرس وحلفائهم المناذرة من جهة أخرى، وقد وقع ابن الحـارث أسيرا فى هذه الحرب وقام المنذر اللخمى بقتله بيـده. وانتقم الحارث لمقتل ابنه هـذا بعد عشر سنوات فى المعـركة الحاسمـة التى وقعت بين الغساسنة والمناذرة، وهى التى عرفت فى أيام العرب بيوم حليمة.

وقام الحارث فى سنة ٥٦٣ م بزيارة لبلاط الإمبراطور جستنيان وزوجته الإمبراطورة تيودورا واستقبل هنالك استقبالا حافلا، وحصل، أثناء وجوده فى العاصمة البيزنطية، من الإمبراطور على تعيين يعقوب البراذعى (يعقوب براديوس) أسقفا على الكنيسة المونوفيزيتية السورية، وكان الحارث يعتنق المسيحـية على المذهب المونوفيزيتى المخالف للمذهب الملكانى، مذهب الإمـبراطور. وانتشر



هذا المذهب المونوفيزيتى، الذى صار يعرف بالمذهب اليعقوبى، فى سوريا كلها أثناء حكم الحارث هذا وحكم ابنه من بعده.

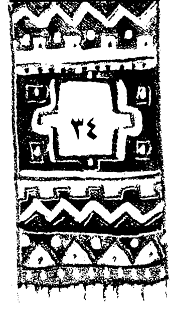
ووصلت مملكة الغساسنة أيام حكم الحارث بن جبلة إلى ذروة اتساعها، وأصبحت بصرى، التى بنيت كاتدرائيتها سنة ٥١٢م العاصمة الدينية فى المنطقة، كما اشتهرت كمركز تجارى، أما العاصمة السياسية للغساسنة فقد كانت مدينة الجابية، فى منطقة الجولان.

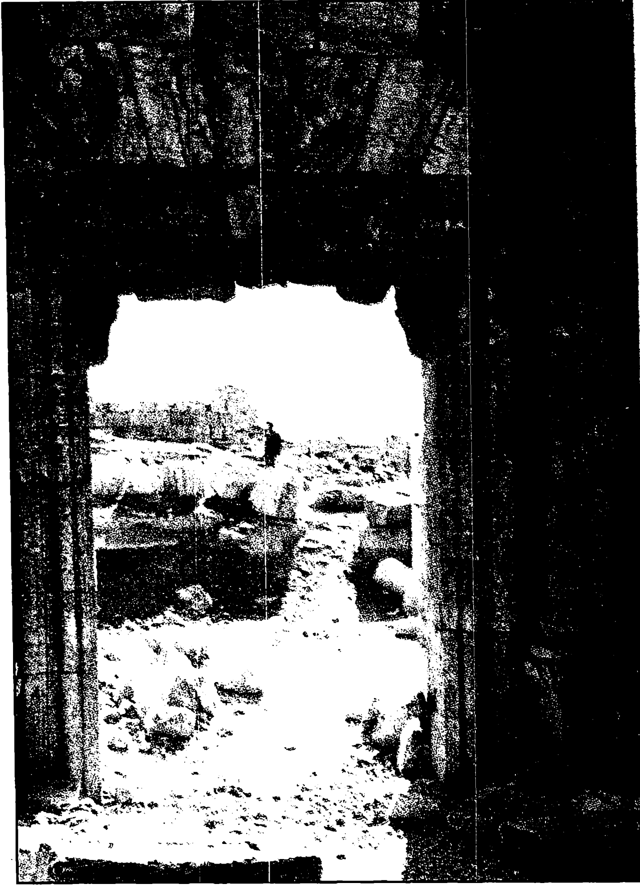
وتوفى الحارث بن جبلة سنة ٥٧٠م، وخلفه فى الحكم من بعده ابنه المنذر بن الحارث (٥٧٠ ـ ٥٨١م)، فى نحو نفس الوقت الذى ولد فيه محمد رسول الله ﷺ. وسار الابن على خطى أبيه فدعم قضية اليعقوبية فى بلاده وحارب المناذرة، حلفاء الفرس وانتصر عليهم سنة ٥٧١م فى معركة عين أباغ. ووقع الخلاف بين المنذر والإمبراطور الرومانى الجديد (جستين) الذى تولى الحكم بعد وفاة جستنيان لعدم اتفاقه معه فى المذهب. ولقد كان جستين متحمسا للمذهب الملكانى فباعد هذا الخلاف بينهما حتى أن جستين ارتاب فى ولاء المنذر السياسى له. وتطور الأمر بينهما إلى القطيعة، لكن سرعان ما زالت هذه القطيعة وتصافى الطرفان وعبر المنذر عن مصالحته للإمبراطور بقيامه بزيارة القسطنطينية سنة ٥٨٠م واستقبال الإمبراطور له بالترحاب. لكن العلاقة ساءت ثانية بين الغساسنة وحكام الروم بعد موت الإمبراطور جستين وبخاصة فى عهد الإمبراطور (موريقيوس).

ولقد كان جبلة بن الأيهم، هو آخر حكام الغساسنة، وقد قام هذا الملك بمحاربة المسلمين إلى جانب الروم حين تقدموا لفتح بلاد الشام.

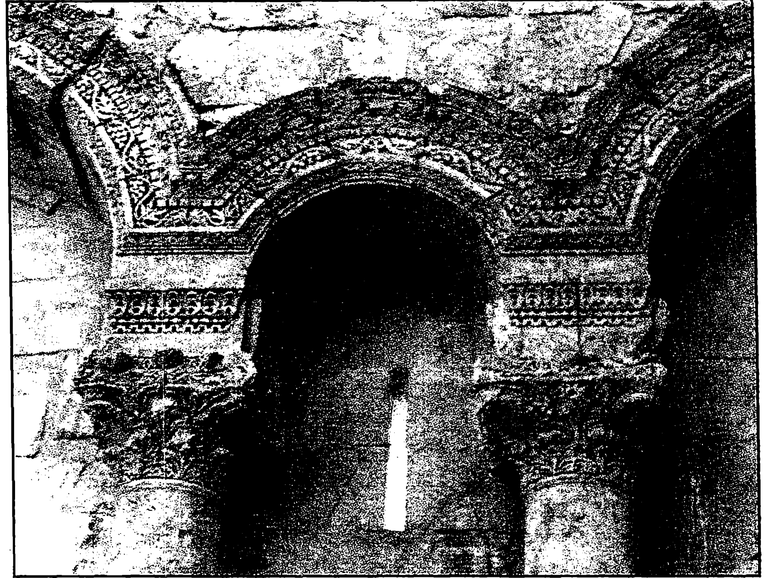
ويقال أنه اعتنق الإسلام بعد معركة اليرموك (١٣هـ/ ٦٣٦م) غير أنه ما لبث أن عاد إلى الروم وتحول إلى المسيحية واستقر فى القسطنطينية حتى وفاته بها سنة ٢٠هـ/ ٦٤٣م.

ولقد خلدت آثار الغساسنة حضارتهم التى أخذوا بمعظمها عن الروم وشيد الغساسنة قصورا فخمة كثيرة ورد ذكرها فى دواوين شعراء الجاهلية والشعراء المخضرمين الذين عاصروا الجاهلية والإسلام معا. كذلك فى شعر الشاعر العربى الكبير النابغة الذبيانى، وفى شعر حسان بن ثابت، شاعر الرسول ﷺ الذى عاش فى بلاط آخر ملوك الغساسنة قبل دخوله فى الإسلام. ومن أبنية الغساسنة الفخمة فى مدينة الجابية: قصر المشتى وقلعة القسطل المجاورة للقصر، وقد برز فيهما الطرازان المعماريان البيزنطى والساسانى. وقد فعل الغساسنة، مثلما فعل الأنباط من قبل، بأن قاموا باستخراج الحروف العربية من الحروف النبطية. كذلك قاموا بنقل الحضارة المادية البيزنطية إلى العالم العربى لتأخذ منها الحضارة الإسلامية، بعد ذلك، ما يناسبها ويتلاءم مع تكوينها ولا يخالف تشريعها وعقيدتها.





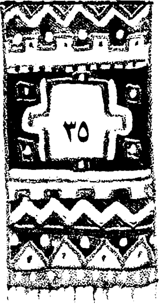
مدخل مدينة الرصافة على حدود إمارة الغساسنة



الأقواس التى تعلو الباب الشمالى فى مدينة الرصافة.

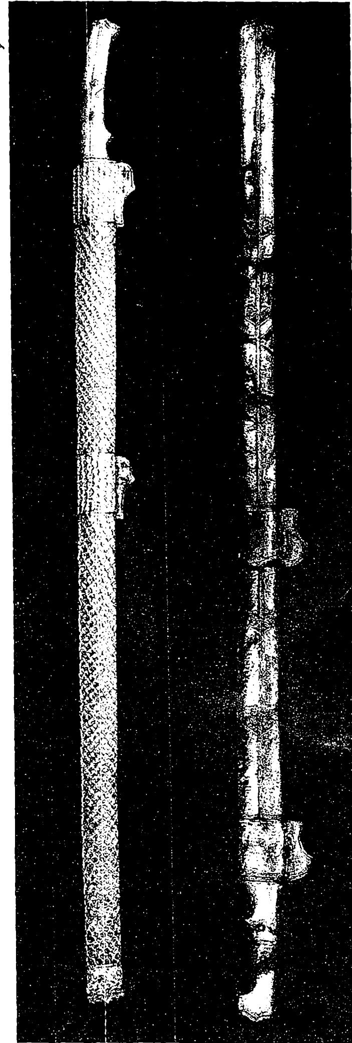
٤ ـ مملكة الحيرة:

كانت إمارة الحيرة تقع على بعد ثلاثة أميال من مدينة الكوفة العراقية على بحيرة النجف، وعلى أرض خصبة تمر بها أفرع من نهر الفرات. وقد أدى ميلاد مدينة الكوفة فى ظل الإسلام إلى أفول نجم الحيرة واندثارها.



وعرف ملوك الحيرة عند أهل الأخبار باللخميين وبنى نصر وبالمناذرة وينتسب هؤلاء الملوك إلى قبائل تنوخ ولخم اليمنية التى هاجرت، بعد انهيار سد مأرب باليمن، إلى غربى الفرات، ونزلت فى موضع الحيْرة وعرفوا هنالك بالعُباد. ويقول معظم الأخباريين أنهم سموا بالعباد لأنهم كانوا على دين المسيحية وتمييزا لهم عن الوثنيين. وقد لحقت بالحيرة أعداد أخرى من عرب اليمن بعد ذلك من غير تنوخ ولخم، وعرفوا هنالك بالأحلاف، وتألف من مجموع هذه القبائل مملكة الحيرة العربية التى عرفت أيضا بدولة المناذرة.

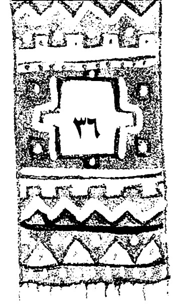
ويرجع تاريخ نشأة هذه المملكة إلى القرن الثالث الميلادى، واستمر قيامها إلى ظهور الإسلام. وقد جاءت هجرة عرب اليمن إلى العراق أيام حكم ملوك الطوائف لدولة الفرس منتهزين فرصة ضعف الدولة الفارسية، لكن ما لبثت دولة الفرس أن تقوّت وتوحدت تحت حكم ملوك ساسان، الذين عملوا على وقف هجرة الأعراب إلى بلادهم وتصدوا لها. وفكر الملك (أردشير بن بابك) الساسانى فى القضاء نهائيا على العرب وإجلائهم عن حدود دولته، لكنه آثر، آخر الأمر، أن يصطنعهم لنفسه ليتقى بهم غارات أقرانهم من عرب شبه الجزيرة، وكذلك ليكونوا عونا لدولة الفرس فى حربها ضد الروم وحلفائهم الغساسنة، فسمح لهم بإقامة إمارة حاجزة على حدود بلاده مثلما فعل الغساسنة حين أقاموا لهم إمارة على الحدود البيزنطية.



سيفان من الدولة الساسانية

القرن ٦ - ٧ م





ولقد اعتنق معظم أهل الحيرة المسيحية المذهب النسطورى، وهو مذهب شجعه الفرس فى بلادهم نكاية فى الروم. غير أن هنالك جماعة منهم كانت على المذهب اليعقوبى. وكانت الحيرة من المراكز الهامة فى حركة التبشير المسيحية بين العرب، ومنها ذهب قسم من المبشرين إلى اليمن وأجزاء أخرى من شبه الجزيرة. وكان هنالك من ظل على الوثنية من أهل الحيرة وعبد اللات والعزى. وسكن الحيرة مع أهلها جماعة من الأنباط والفرس واليهود.

وانقسم حكم دولة الحيرة إلى قسمين:

القسم الأول يشمل حكم من ملكها من ملوك الأزد التنوخيين، وقد حكموا ٦٦عاما (من ١٩٢ ـ ٢٥٨م).

والقسم الثانى يشمل حكم من ملكها من ملوك بنى نصر اللخميين، الذين عرفوا باسم المناذرة، وقد حكموا ٣٧٤ عاما (من سنة ٢٥٨ إلى سنة ٦٣٢م).

أ ـ ملوك الأزد التنوخيون

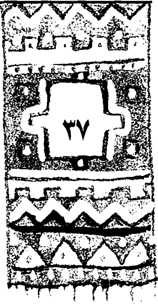
كان مالك بن فهم هو أول حكامهم، وقد حكم فى الفترة ما بين سنوات ١٩٢ و٢٠٨ ميلادية، ومات مقتولا، بطريق الخطأ، على يد ابنه سليمة حين كان يعلمه الرماية فأصابه بسهمه، وقد قال فيه أبوه قبل موته شعرا ينعى نفسه فيه. وحكم بعد مالك أخوه عمرو بن فهم، الذى لا تعرف مدة حكمه على وجه الدقة. ثم حكم بعده ابن أخيه جذيمة بن مالك بن فهم، الذى عرف بجذيمة الأبرش، وجذيمة الوضاح (لإصابته بوضح فى جلده) وحكم ٦٠عاما، وكان معاصرا للملك الفارسى الشهير أردشير بن بابك.

وكان جذيمة الأبرش من أفضل ملوك العرب وأشدهم حنكة ودراية وفروسية. وقام بحرب عمرو بن الظرب أمير الغساسنة وانتصر عليه وقتله. ولما مات جذيمة تولى حكم دولة التنوخيين ابن أخته عمرو بن عدى الذى ثأر له من قاتلته الزباء بنت عمرو بن الظرب، وهزم جيشها، فلما أدركت نهايتها قامت بمص سم ادخرته فى خاتمها لمثل هذا اليوم، وقالت وهى تودع الحياة «بيدى لا بيد عمرو» فصارت مثلا.

وبتولى عمرو بن عدى حكم الحيرة ينتقل الحكم فيها من ملوك الأزد التنوخيين إلى ملوك بنى نصر اللخميين، ويعد عمرو بن عدى أول حكامهم.

(ب) ملوك بنى نصر اللخميين (المناذرة):

وأول حكامهم عمرو بن عدى (٢٢٨ ـ ٢٨٨ م)، ثم خلفه فى الحكم بعد وفاته ابنه امرؤ القيس (الأول) الذى حكم حتى عام ٣٢٨م، وينسب إليه بناء قصر المشتى، الذى نقلت أحجار جدرانه المزخرفة إلى متحف برلين بألمانيا.



وخلف امرؤ القيس فى الحكم ابنه عمرو، الذى لقب بمُسعِر الحرب، أى موقد الحرب مما يدل على أنه كان محاربا. ثم خلفه فى الحكم من بعده أخوه النعمان بن امرؤ القيس أشهر ملوك الحيرة (حكم فى الفترة ما بين ٣٩٠ و٤١٨م). ولقد اهتم النعمان ببناء جيش كبير من عرب تنوخ ورجالات الفرس وجعل به كتيبتين من الفرسان زودهما بالأسلحة الخفيفة عرفت الأولى منها وهى من تنوخ بالدوسر، وعرفت الثانية الفارسية بالشهباء. كما ينسب إلى هذا الملك بناء قصرى الخورنق والسدير، والخورنق هو قصر شتوى بناه فى الحيرة، والسدير منتجع صيفى بناه فى بادية الشام. وقد بنى الخورنق مهندس معمارى من الروم يدعى (سنمار) واستغرق بناؤه عشرين عاما وأراد النعمان أن يحتفظ بسر بناء هذا القصر فكافأ سنمار على بنائه بأن قتله بطرحه من أعلى القصر وبذلك ضرب المثل وقالت العرب لمن يجازى على الخير بالشر: «جوزى جزاء سنمار».

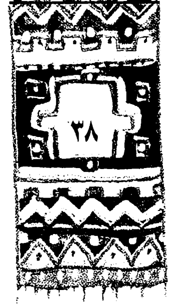
وتولى الحكم بعد النعمان ابنه (الثالث) المعروف بابن ماء السماء (٥٢٠ ـ ٥٥٤م)، وقد كان المنذر من مشاهير ملوك الحيرة لمعاصرته أشهر ملوك الفرس: قباذ وابنه كسرى أنوشروان، كذلك لمعاصرته الإمبراطور البيزنطى جستنيان والحارث بن جبلة أشهر ملوك الغساسنة.

وقد وقعت فى أيام المنذر هذا حروبه مع الغساسنة وبخاصة معركة يوم حليمة سنة ٥٥٤م، ومعركة عين أباغ. وتولى مُلك الحيرة بعد وفاة المنذر الثالث ابنه النعمان بن المنذر المعروف بالأسود. وقد وقع خلاف بين هذا الملك والملك الفارسى كسرى أبرويز انتهى بقتل النعمان سنة ٦٠٢م، وكان الشاعر العربى الشهير النابغة الذبيانى قد مدح هذا الملك بعدة قصائد وأشاد بمكارمه.

وقد أقام الملك الفارسى على حكم الحيرة، بعد قتله النعمان، أميرا من غير بيت المناذرة يدعى إياس بن قبيصة وأشرك معه فى حكم الحيرة قائدا من قواده الفرس. وقد نقم عرب الحيرة على الملك الفارسى بسبب ما فعله بهم وبمليكهم، ولذلك انقلبوا على الفرس وأعلنوا الثورة عليهم وجهزوا قواتهم لمحاربتهم. وقد وقعت بين الطرفين معارك كبيرة عرفت فى تاريخ العرب بيوم ذى قار، انتهت بانتصار العرب وهزيمة الفرس وأميرهم على الحيرة.

وعلى أثر النصر فى ذى قار، انفرد بحكم الحيرة الأمير آراز بن بابيان الهمدانى لمدة ١٧ عاما، وبعد وفاته تولى حكم الحيرة الأمير المنذر بن النعمان بن المنذر الثالث الذى لم يحكم سوى ثمانية شهور حتى قدم خالد بن الوليد العراق وفتح الحيرة ضمن ما فتح، وضم إمارتها سنة ١٢هـ/ ٦٣٥م إلى دولة الإسلام.

وبذلك انتهت مملكة الحيرة وصارت جزءا من دولة الإسلام، وهى دون شك مملكة كانت لها حضارتها الخاصة وإن غلب عليها الطابع الفارسى. ولقد تشبه ملوكها بالأكاسرة فى حياتهم الخاصة وبلاطهم وورد على مجالسهم كثير من أشهر شعراء عرب الجاهلية والمخضرمين أمثال: طرفة بن العبد، ولبيد بن ربيعة، وحاتم الطائى، وعنترة بن شداد العبسى، والنابغة الذبيانى وغيرهم.



ولقد ازدهر العمران فى عهد دولة المناذرة ويشهد على ذلك بقايا قصرى الخورنق والسدير وبقايا قصر الدوسر وقصر المشتى. وتجلت مظاهر جمال أبنية ملوك الحيرة أيضا فيما بنوه من كنائس وأديرة فخمة، وبخاصة دير هند بنت النعمان بن المنذر الشهير.

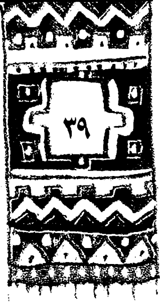
نقوش حجرية على جدار قصر المشتى

بلاد الحجاز قبل الإسلام

بلاد الحجاز، جزء من جزيرة العرب. وهو جزء هام لأن به نزل الوحى، وفيه ولد محمد رسول الله ﷺ، وعلى أرضه قامت، أول ما قامت، دولة الإسلام.

وأشهر مدنه: مكة والمدينة والطائف، وأشهر موانيه: جدة وينبع، على البحر الأحمر.

مكة المكرمة

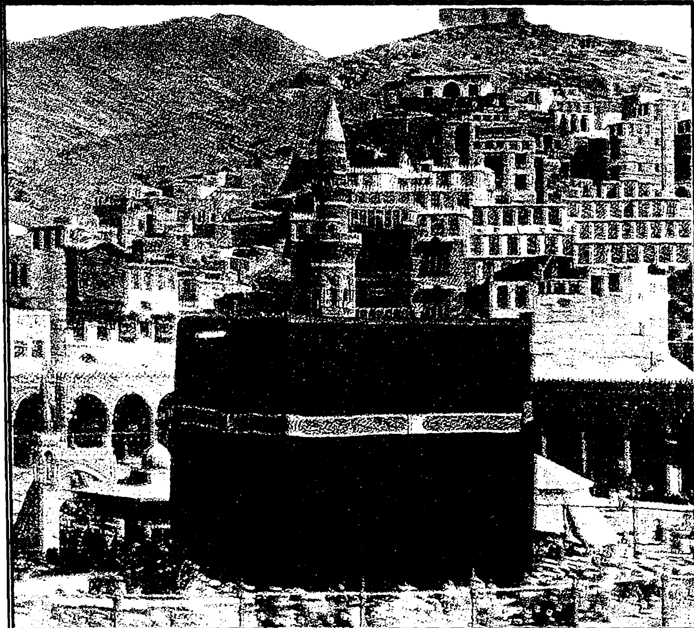


اسم مكة اسم قديم، يدل على البلدة التى فيها «بكة» وهو موضع البيت الحرام، لقوله تعالى: ﴿إِنَّ أَوَّلَ بَيْتٍ وُضِعَ لِلنَّاسِ لَلَّذِي بِبَكَّةَ مُبَارَكًا وَهُدًى لِّلْعَالَمِينَ ﴿٩٦﴾﴾ [آل عمران]. وعرفت مكة بأسماء أخرى منها: صلاح، وأم رحم، والباسة، والناسة، والحاطمة، وأم القرى. وللبيت الحرام فضل كبير على أهل مكة منذ نشأتها، وبسببه يقصدها الناس من كل مكان بعيد وقريب حتى اليوم لأداء فريضة الحج. وقد عُرف البيت الحرام بالبيت العتيق وبالكعبة لأنه بناء مكعب الشكل.

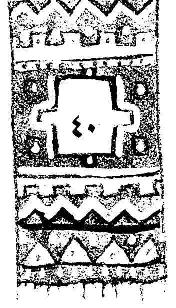
وقد بنت الملائكة هذا البيت عند نزول آدم على الأرض، ثم أغرقته مياه طوفان نوح والسيول التى كانت تنزل على بطن الوادى من جبلى مكة (الأخشبين). وقد كلف الله تعالى نبيه إبراهيم وابنه إسماعيل بإعادة بناء البيت ورفع قواعده.

وتأكيد ذلك قوله تعالى: ﴿وَإِذْ يَرْفَعُ إِبْرَاهِيمُ الْقَوَاعِدَ مِنَ الْبَيْتِ وَإِسْمَاعِيلُ رَبَّنَا تَقَبَّلْ مِنَّا إِنَّكَ أَنتَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ ﴿١٢٧﴾﴾ [البقرة].

وقوله تعالى: ﴿وَإِذْ بَوَّأْنَا لِإِبْرَاهِيمَ مَكَانَ الْبَيْتِ أَن لَّا تُشْرِكْ بِي شَيْئًا وَطَهِّرْ بَيْتِيَ لِلطَّائِفِينَ وَالْقَائِمِينَ وَالرُّكَّعِ السُّجُودِ ﴿٢٦﴾﴾ [الحج].



الكعبة المشرفة



وكان العماليق (الهكسوس) أول من سكن مكة، على أثر هجرتهم إليها من بلاد العراق، ثم خلفتهم عليها قبيلة جرهم الثانية اليمانية بعد أن هاجرت إلى اليمن وتغلبت على العماليق. وفى عهد سيادة جرهم على جبال مكة كانت هجرة نبى الله إبراهيم الخليل من العراق وكان نزوله مع زوجته هاجر المصرية وطفله الرضيع إسماعيل بطحاء مكة. وقد استجاب إبراهيم لأمر ربه بترك زوجته وطفله فى هذا المكان الصحراوى الموحش، وتركهما بعد أن دعا ربه لهما قائلا:

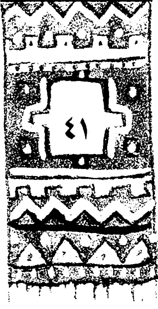
﴿ رَبَّنَا إِنِّي أَسْكَنتُ مِن ذُرِّيَّتِي بِوَادٍ غَيْرِ ذِي زَرْعٍ عِندَ بَيْتِكَ الْمُحَرَّمِ رَبَّنَا لِيُقِيمُوا الصَّلاةَ فَاجْعَلْ أَفْئِدَةً مِّنَ النَّاسِ تَهْوِي إِلَيْهِمْ وَارْزُقْهُم مِّنَ الثَّمَرَاتِ لَعَلَّهُمْ يَشْكُرُونَ ﴿٣٧﴾ ﴾ [إبراهيم].

واستجاب الله لدعاء نبيه وأنبع الماء من تحت قدمى الطفل الرضيع، وكانت بئر زمزم. وجاءت قبيلة جرهم على أثر الماء لتسكن مع السيدة هاجر وطفلها، فهوت أفئدة الناس إليهم ورزقهم الله من طيب ثماره، وقامت الحياة وازدهرت فى تلك البقعة القاحلة من صحراء الحجاز. وقد أمر الله تعالى نبيه إبراهيم أن يؤذن فى الناس بالحج إلى بيته الحرام، وذلك فى قوله تعالى:

﴿ وَأَذِّن فِي النَّاسِ بِالْحَجِّ يَأْتُوكَ رِجَالاً وَعَلَىٰ كُلِّ ضَامِرٍ يَأْتِينَ مِن كُلِّ فَجٍّ عَمِيقٍ ﴿٢٧﴾ لِيَشْهَدُوا مَنَافِعَ لَهُمْ وَيَذْكُرُوا اسْمَ اللَّهِ فِي أَيَّامٍ مَّعْلُومَاتٍ عَلَىٰ مَا رَزَقَهُم مِّنْ بَهِيمَةِ الأَنْعَامِ فَكُلُوا مِنْهَا وَأَطْعِمُوا الْبَائِسَ الْفَقِيرَ ﴿٢٨﴾ ثُمَّ لْيَقْضُوا تَفَثَهُمْ وَلْيُوفُوا نُذُورَهُمْ وَلْيَطَّوَّفُوا بِالْبَيْتِ الْعَتِيقِ ﴿٢٩﴾ ﴾ [الحج].

وحين وصل إسماعيل إلى سن الشباب، تزوج من قبيلة جرهم، بعد أن أحرز الرياسة عليها، تزوج من رعلة بنت الحارث بن مضاض بن عمرو الجرهمى. وعاش نسل إسماعيل فى جرهم والأمر على البيت لها، لأن أبناء إسماعيل لم ينازعوا أخوالهم على الرياسة. وظلت الرئاسة فى جرهم حوالى قرنين من الزمان إلى عهد آخر رؤسائهم مضاض بن عمرو بن الحارث. وفى عهد رئاسة مضاض حدث أن جفت بئر زمزم ونضبت مياهها، وتغلبت قبيلة خزاعة على جرهم، وكانت خزاعة وهم بنو حارثة بن ثعلبة بن عامر، قد هاجرت من اليمن إلى مكة بعد انهيار سد مأرب، واستولوا على مكة بقيادة زعيمهم حارثة بن عامر، والملقب بخزاعة.

وكان مضاض الجرهمى قد حذر قومه عاقبة الفساد والترف الذى انغمسوا فيه نتيجة للثروة التى حلت عليهم من عائد التجارة، ولكنهم لم يستمعوا له، فلما أيقن مضاض زوال أمر دولته فى مكة عمد إلى بئر زمزم فأعمق حفرها ودفن بها ما كان مدخرا للكعبة مما أهدى إليها من مال وذهب وأهال عليها الرمال، على أمل عودة جرهم للسيادة على مكة ثانية يوما من الأيام فيعيد الكشف عنها وتستفيد جرهم وتتقوى بها. وخرج بنو إسماعيل مع مضاض من مكة، ووليت خزاعة أمر مكة والبيت وكان رئيسهم يومئذ عمرو بن لحى الخزاعى، الذى ينسب إليه إدخال عبادة الأصنام إلى بلاد العرب بعد أن استوردها من الشام، بإحضاره صنما أطلق عليه هبل كان مصنوعا



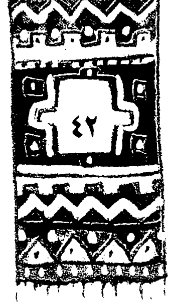
من العـقيق، وضـعه فى جـوف الكعبـة وحين كـسرت إحـدى يدى هذا الصنم استـبدلها بيـد صنعت من الذهب الخالص. وعد هبل كـبير آلهـة العرب وكبـير أصنامهم، فصاروا يطوفون حوله ويقدمـون له القرابين ولبقية الأصنام التى انتشرت حول الكعبة.

واستمرت خـزاعة على رئاسة مكة حوالى ثلاثة قرون، حتى تـقوت عليها قبيلة قريش وانتزعت الرياسة منهـا، وكان ذلك، على وجه التحديد، حوالى سنة ٤٤٠ ميلادية، بقـيادة قصى بن كلاب، الجد الخامس لرسـول الله ﷺ، وقد قام قصى بإجلاء خزاعة عن مكة إلى وادى فاطمة بالحـجاز. وقام قصى بإقطاع مكة رباعا بين قومه، فأنزل كل قوة مـن قريش منازلهم بمكة التى أصبحـوا عليها، وسكنوا بطاح مكة، وعـرفوا بقريش البطاح، وهم بخلاف قريش الظواهر الذين سكنوا جبـال مكة والأحابيش، وهم حلفاء قريش من بنى المصطلق وبنى خزيمـة ممن اجتمعوا بـجبل أسفل مكة يقال له ذنب حـبشى، وهؤلاء بخلاف الأحابيش من الرقيق الأسود الذين اشـتراهم أثرياء مكة من بلاد الحبشة وغيرها لخـدمتهم والعمل لهم فى مختلف الأعمال.

وقصى من قريش، وقـريش كلها من نسل رجل هو: فهر بن مـالك بن النضر بن كنانة بن خزيمة بن مـدركة بن مضر بن نزار بن مـعد بن عدنان. وهى من القبـائل العدنانية من مجـموعة العرب المستعربة. وقد سمى قصى مُجمعا لأنه جمع قومه من الشعاب والجبال والأودية إلى بطحاء مكة.

واشتـهرت قريش بالتجـارة وبها عرفت وذاع صـيتها بين القـبائل، وتمكن رجالهـا، بفضل ذكائهم ومـهارتهم فى أسلوب الـتعامل، من الاتصـال بالدول الكبرى فى ذلك الـوقت وبسادات القبائل وتكوين علاقات طيـبة معها. كما نجحوا فى عقـد إيلاف مع شيوخ القبائل ورؤسـاء الدول ضمـنت الأمـان لتجـارتهم طـوال أيام السنة ولرحلتى الشتاء والصـيف اللتين كانوا يقـومـون بهما شـتاء إلى اليمـن وصيفا إلى الشـام. وقد أشـار القرآن الكريـم إلى ذلك فى قوله تعالى: ﴿ **لِإِيلَافِ قُرَيْشٍ ۝١ إِيلَافِهِمْ رِحْلَةَ الشِّتَاءِ وَالصَّيْفِ ۝٢ فَلْيَعْبُدُوا رَبَّ هَٰذَا الْبَيْتِ ۝٣ الَّذِي أَطْعَمَهُم مِّن جُوعٍ وَآمَنَهُم مِّنْ خَوْفٍ ۝٤** ﴾ [قريش].

ولم تكن فى مكة حكـومة مـركزية بـالمعنى المعروف للـحكومة اليـوم، فكانت تتـألف من شعـاب، كل شعب تسكنه عشيـرة، وأمر كل شعب لرؤسـائه هم وحدهم أصحاب الحل والعـقد والنهى والتـأديب فيه. ولـيس لأى شخص مخـالفة أحكام هـؤلاء الرؤساء، الذين عرفـوا باسم (الملأ). وقد كان هؤلاء الملأ يجتمعـون فى دار الندوة للتشاور فى أمورهم الهامة، ولم يكن يدخل هذه الدار إلا ابن أربعين عـاما أو أكثر. ولم تكـن قرارات دار الندوة ملزمة ولا يحصل الإجـماع منها إلا باتفاق.



وكان قصى بن كلاب هو الذى ابتنى دار الندوة، لما استوى له أمر مكة، وذكر أهل الأخبار أن من جملة ما أحدثه قصى: الرفادة والسقاية، وهى الطعام وتوفير الماء للحجيج أيام الحج حتى يعودوا إلى بلادهم. وقد فرض قصى على قريش إخراج خراج من أموالهم كل عام يدفعونه له لكى يصنع منه طعاما للناس أيام بقائهم فى مكة طيلة أيام الحج، وقد بقيت هذه السنة فى الإسلام.

وكانت إلى قصى، أيضا، سدانة الكعبة، أى تولى مفاتيحها وخدمتها والإشراف عليها والتكفل بحمايتها وحراستها، كذلك كان إليه اللواء، وهى راية ملونة ترفع على رمح وينصبونها علامة للعسكر إذا توجهوا لقتال العدو. وكان لقصى أربعة أبناء هم: عبد الدار وعبد مناف وعبد العزى وعبد قصى. ولما طعن فى السن وضعف بدنه ولم يعد قادرا على تولى أمر مكة عهد لابنه الأكبر عبد الدار بما كان له من وظائف، ولما توفى قصى سنة ٤٨٠ميلادية، قام عبد الدار بعده بأمر مكة ولم ينازعه أخوه عبد مناف فى ذلك احتراما لرغبة أبيه. واستمر الحال كذلك حتى توفى عبد الدار وعبد مناف، فتنازع أبناء الأخوين على الرئاسة بينهما وانقسموا فى ذلك إلى فريقين فريق مع بنى عبد مناف عرف بالمطيبين وفريق مع بنى عبد الدار وعرفوا بالأحلاف أو لعقة الدم. وكاد القتال أن ينشب بين الطرفين لولا تداعى الناس إلى الصلح والاتفاق على اقتسام الرئاسة بين البيتين بأن يكون لبنى عبد الدار السدانة واللواء والندوة، وأن يكون لبنى عبد مناف السقاية والرفادة، وظل الأمر على هذا الحال حتى مجىء الإسلام.

وكان هاشم بن عبد مناف كبير بنى عبد مناف فتولى أمرهم ولزم السقاية والرفادة حتى وفاته سنة ٤٦٤م، وقد حاول ابن أخيه أمية بن عبد شمس أن ينافس عمه فى زعامة مكة وأن يتولى أمر السقاية والرفادة، لكن القداح حكمت لصالح هاشم وحكمت على أمية أن ينحر خمسين ناقة عند الكعبة وأن يخرج عن مكة إلى الشام مدة عشر سنوات فامتثل لأمر القداح وخرج إلى الشام.

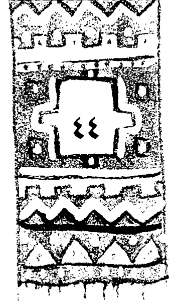
ولقد خلف عبد المطلب بن هاشم أباه فى أمر السقاية والرفادة، ولم يكن لعبد المطلب سوى ولد واحد يدعى الحارث، وقد لقى، بسبب ذلك، مشقة كبيرة وخاصة فى أمر سقاية الحاج؛ ذلك لأن الماء اللازم للسقاية كان يؤتى به من آبار عدة مبعثرة حول مكة، وكانت تجمع وتوضع فى أحواض إلى جوار الكعبة، وكان بئر زمزم قد جف وردم منذ قرون. وجاء هاتف فى المنام لعبد المطلب، وهو نائم فى حجر الكعبة، وألح عليه فى أن يعيد حفر البئر. وتفاءل عبد المطلب من ذلك خيرا وتمنى أن يعيد الحفر للبئر لينبع الماء منها فتخفف عنه وعن ابنه مشقة جلب الماء من أماكن بعيدة متفرقة. وكانت المفاجأة لعبد المطلب أن عثر على الذهب والمال الذى كان مضاض بن عمرو الجرهمى قد دفنه فيها قبل خروجه وقومه من مكة.

ونازعت قريش عبد المطلب فيما عثر عليه وأرادت مقاسمته فيه، لكن القداح التى احتكموا إليها حكمت لصالح عبد المطلب، فتقوى عبد المطلب بتلك الثروة على أداء ما عليه من واجب السقاية والرفادة.



ويروى أهل الأخبار أن عبد المطلب كان قد نذر لئن رزقه الله عشرة ذكور حتى يراهم أن يذبح واحدا منهم عند الكعبة قربانا للآلهة. ومع الأيام تحققت أمنية عبد المطلب وصار له عشرة ذكور، وكان عليه الوفاء بنذره، فضرب على أبنائه القداح لاختيار من يقع النذر عليه فخرج القداح على عبد الله، والد الرسول ﷺ، أحب أبنائه إلى قلبه. ولكن القوم منعوه، ثم أشاروا عليه بأن يرضى الآلهة بنحر إبل فدية عنه، وكلما ضرب القداح يخرج على عبد الله حتى بلغ العدد مائة فخرج على الإبل فنحرها بين الصفا والمروة وخلى بينها وبين كل من يريد لحمها من إنسان أو سبع أو طائر، وكانت تلك الواقعة سنة ٥٦٥ ميلادية، أى قبل عام الفيل الذى ولد فيه رسول الله ﷺ بخمس سنوات.





وكان عبد المطلب، سيد قريش حين هاجم الأحباش مكة، بقيادة أبرهة الأشرم، يريدون هدم الكعبة، وقد أشار عبد المطلب على قومه بالتحرز بشعاب الجبال وبترك البيت وشأنه لأنه لا قِبَل لهم به فإن للبيت ربا يحميه. ومات عبد المطلب حوالى سنة ٥٧٨ م بعد أن جاوز الثمانين، ودفن بالحجون، مدافن أهل مكة، وكان ابنه عبد الله قد توفى أثناء حياته.

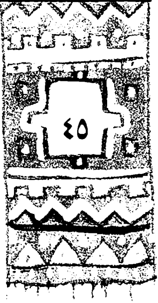
وكانت حرب الفجار من الحوادث المؤثرة فى تاريخ مكة، وسميت بذلك لوقوعها بين القبائل فى الأشهر الحرم التى حرم الله القتال فيها. وكان يوم نخلة أعظم أيام الفجار، وكانت بين قريش وهوازن، وقد شهد الرسول ﷺ هذا اليوم وهو ابن العشرين وشارك أعمامه الحرب فيه بجمع سهام الأعداء وإعادتها ليرموهم بها. وكان حلف الفضول الذى تألف سنة ٥٩٠م من أهم الأحداث التى يذكرها أهل السير والأخبار فى تاريخ مكة، وكان قد دعى لنصرة المظلوم من الظالم، وقيل أنه سمى بالفضول لأنه قام به رجال من جرهم كلهم يسمى بالفضل، وقد حضر رسول الله ﷺ هذا الحلف وكان معجبا به وقال: «لقد شهدت فى دار عبد الله بن جدعان حلفا ما أحب أن لى به حمر النعم لو دعيت به فى الإسلام لأجبت».

ولقد تفاوت الوضع الاجتماعى فى مكة بين الغنى والفقر، وكان هنالك كبار الأثرياء كما كان هنالك الفقراء المعدمون. وجاءت ثروة معظم أثرياء مكة من التجارة وكان هؤلاء الأثرياء، فى غالبيتهم، قساة القلوب، لا يعينون المحتاج ويقرضون المال بالربا الفاحش ويستعبدون الفقراء ويسترقوهم مقابل ما عليهم من ديون ويسخرونهم فى أشق الأعمال غير عابئين بآدميتهم. وكان بعضهم لا يتورع عن أكل مال الناس بالباطل، وعن إكراه فتياتهم على البغاء ليستولوا على ما يأتين به من مال. وكانت بعض القبائل تقوم بوأد بناتها خوفا من العار أو الفقر والإملاق.

وفى الوقت الذى كان فيه بعض الأثرياء فى مكة يأكلون فى صحاف من ذهب وفضة، ويصلون فى الأكل إلى حد التخمة، ويلبسون الحرير والديباج، ويتحلون بالذهب والأحجار الكريمة، ويقتنون الجوارى الحسان والغلمان؛ كان بعض الفقراء يتضور جوعا ومنهم من كان يقتله الجوع أو البرد.

وأدى هذا التردى فى مجتمع مكة قبل الإسلام إلى الخلل الكبير فى هذا المجتمع، وإلى شيوع الرذيلة والفساد وتفشى الظلم، وكان الأمر فى حاجة ماسة إلى الإصلاح، فقد كانت مكة تعيش على بركان فائر. وجاء الإسلام، وجاءت رسالة محمد ﷺ لتصحح المسار ولتنقذ المجتمع المكى من متناقضاته وتخلصه من أدرانه وتسمو بقريش وتضعها على رأس القبائل العربية كافة.

والحقيقة أن الإسلام هو الذى أعطى المكانة لقريش وجعل لها السيادة على العرب جميعا، وجعل الخلافة فيها. فلولا الإسلام، ولولا أن جاء رسول الله ﷺ منها لكانت قرية عادية كباقى القرى، ولكانت قريش قبيلة كسائر القبائل، لكن قريشا ومكة عزتا بانتسابهما إلى محمد بن عبد الله خاتم أنبياء ورسل الله.



المدينة المنورة
يثرب

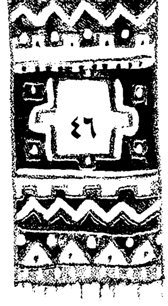
تقع المدينة المنورة على بعد نحو ثلاثمائة ميل شمالى مكة، وهى تحمل أكثر من اسم، فهى: يثرب، وطيبة، وجابرة، ودار الهجرة، وذكر أهل الأخبار أن لها ٢٩ اسما.

ويذكر أهل الأخبار أن أقدم من سكن يثرب فى التاريخ القديم قوم يقال لهم فالج، ثم سكنها العماليق، ثم سكن اليهود فى مواضع العماليق بعد أن أجلوا عنها. وأن قبائل عربية نزلت عليهم وسكنت معهم، وكان الأوس والخزرج وهما قبيلتان يمنيتان آخر هذه القبائل قدوما إلى يثرب على أثر حدوث سيل العرم باليمن.

وقد عقد الأوس والخزرج حلفا وجوارا مع يهود يثرب، فلم يزالوا على ذلك زمنا طويلا حتى نقض اليهود هذا الحلف والجوار وتسلطوا وحدهم على الأمور فى يثرب وقاموا باضطهاد العرب. فاستعان الأوس والخزرج بقبائل عربية أخرى عليهم فغلبوهم وصارت الغلبة للعرب فى يثرب بعد ذلك.

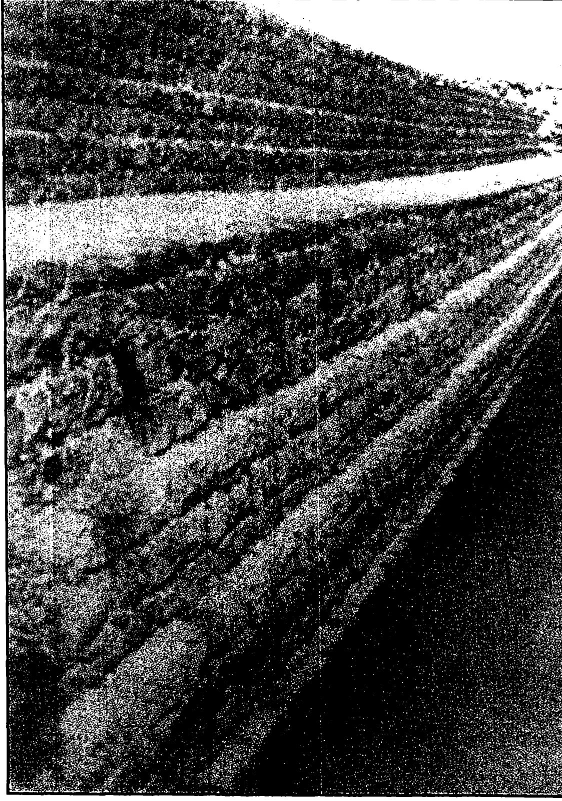
وبالرغم من صلة الرحم القريبة التى كانت بين الأوس والخزرج، فقد وقعت بينهما حروب هلك فيها من الطرفين خلق كثير، وكان اليهود يشعلون نيران هذه الحروب حتى يضعف الطرفان لصالحهم. وكان أشد هذه الحروب وآخرها بين الأوس والخزرج قبل الإسلام، يوم بعاث سنة ٦١٧ ميلادية، وقد ساعدت قبائل غطفان وجهينة الخزرج ضد الأوس فى هذه الحرب. بينما ساعد بنو إياس وبنو النضير وبنو قريظة من اليهود الأوس ضد الخزرج، وانتصرت فيها الأوس على الخزرج.

وقد وفد اليهود الذين سكنوا يثرب خلال القرنين الأول والثانى الميلاديين من فلسطين هربا من الرومان بعد أن أجلاهم عنها الإمبراطور الرومانى تيتوس سنة ٧٠ ميلادية وبعد أن دمر أورشليم وأحرق هيكلهم فيها. كذلك بعد قضاء الإمبراطور هادريان على من تبقى منهم فى مدن فلسطين الأخرى سنة ١٣٥ ميلادية. وكان ضمن الهاربين إلى يثرب ثلاث قبائل يهودية هى: بنو قينقاع وبنو النضير وبنو قريظة. وقد سكن بنو قينقاع وادى بطحان بداخل المدينة، وسكن بنو النضير منطقة العوالى على وادى مذينب، جنوب شرقى المدينة، بينما سكن بنو قريظة وادى مهزور جنوبى المدينة. وقد انتقى اليهود الأراضى الزراعية الخصبة فى يثرب وسكنوا بها وعملوا على زراعتها وبخاصة أشجار النخيل. وقام اليهود فى يثرب ببناء حصون وقلاع لهم فى مواطن سكناهم لحمايتهم، على عادتهم فى بناء الحصون فى أى موقع ينزلون به تحسبا من هجوم العدو عليهم. ومن حصونهم فى



المدينة: حصن ناعم، وحصن أوطاس، وفى خيبر حصن القموص.

وكان أهل يثرب يفدون إلى مكة مع من كان يفد إليها من التجار والحجيج وبخاصة فى موسم الحج. فتحدث الرسول ﷺ معهم، كما كان يتحدث مع كل وافد إلى مكة، وكان يوافى المواسم كل عام يتبع الحاج فى منازلهم وأسواقهم، ويعرض عليهم الدخول فى الإسلام، ويدعوهم إلى عبادة الله الواحد الأحد ويخبرهم بأنه نبى مرسل، ويسألهم أن يصدقوه ويمنعوه حتى يُظهر الله ما بعثه به. لكن القبائل لم تستجب للرسول الذى لم ييأس فى محاولاته وهو على يقين من أن الله ناصره ومظهر لدعوته. فتطلع فى إحدى المرات عند العقبة إلى وفد تجارى قادم من يثرب، فتحدث الرسول ﷺ معهم، كما كان يتحدث مع كل وافد إلى مكة. وفى هذه المرة وجد آذانا صاغية من أهل يثرب الذين قدر لهم أن يقوموا بدور هام فى حياة النبى ﷺ وحياة الدولة الإسلامية، وليتغير اسمها إلى المدينة المنورة لما كان لها من دور عظيم فى الإسلام وقيام دولته.

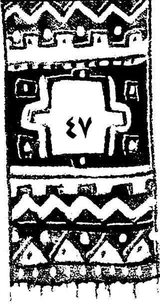


سور حصن فى خيبر

وكانت للرسول ﷺ علاقة خاصة بيثرب، فأبوه قد مات ودفن هناك عند أخواله من بنى النجار من الخزرج، وأمه أخذته إلى هناك وهو طفل صغير لزيارة أخواله وماتت وهى فى طريق عودتها من يثرب إلى مكة عند منطقة الأبواء حيث دفنت هناك.

ولقد عرف النبى ﷺ من وفد يثرب عند العقبة مدى العداوة الواقعة فى مدينتهم بين الأوس والخزرج وتربص اليهود بهما وسخريتهم منهما ووعدهم لهما بمقدم رسول منهم تكون نهايتهما على يديه مثل نهاية قوم عاد وإرم.

وكان وفد يثرب الأول الذى التقى به النبى ﷺ عند العقبة، على بُعْد ميلين عن مكة بينهما وبين منطقة منى، يتكون من ستة أشخاص من الخزرج أراد الله بهم خيرا، دعاهم النبى ﷺ إلى



الدخول فى الإسلام فأسلموا، وعادوا إلى مدينتهم بعد أن وعدوه بالعودة واللقاء فى نفس المكان فى العام القابل. وفى العام التالى (٦١٢م) وافى الموسم فى مكة من أهل يثرب ١٢رجلا، ١٠ منهم من الخزرج واثنان من الأوس، والتقوا بالنبى عند العقبة وبايعوه بالبيعة التى عرفت ببيعة العقبة الأولى، أو بيعة النساء. ولما انصرفوا إلى مدينتهم بعث معهم النبى ﷺ مصعب بن عمير وعمرو بن أم مكتوم ليعلموهم القرآن ويفقهوهم فى الدين. وكانت بيعة العقبة الأولى، ثم بيعة العقبة الثانية هى الانطلاقة لدخول غالبية أهل يثرب من العرب فى الإسلام، ولأن تصبح يثرب دار هجرة للمسلمين ودار هجرة لرسول الله ﷺ، ثم عاصمة لدولة الإسلام، وليتحول اسمها من يثرب إلى المدينة المنورة بعد أن أنار الله قلوب أهلها وبصائرهم بالإسلام وأشعت النور، بدورها، إلى شتى بقاع الأرض وسائر الأركان.



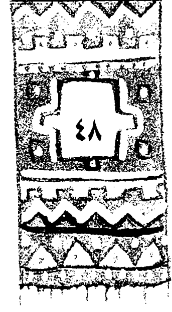
الطائف



واجهة تمثال العلا الذى وجد فى المعبد اللحيانى

القرن ٣ ق م شمال الطائف





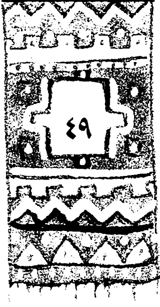
تقع الطائف على مسافة ٧٥ ميلا تقريبا إلى الجنوب الشرقى من مكة، وهى على خلاف مكة، أرض مـرتفعة ذات جو طيب فى فصل الصـيف بها زرع وغنى جادت به أنعم الله على أهله. وقد كانت، ولا تزال، مصيفا طيبا يقصده أهل مكة وسائر بلاد الحـجاز فـرارا من حر الصيف وشـدة القيظ. وتقع الطائـف على ظهر جبل غزوان بارتفاع ستة آلاف قدم عن مستوى سطح البحر. والطائف كثيرة الشجر وثمار الفواكه من أعناب وموز ورمان وتين، وهى تزود مكة بما تحتـاجه من بقول وخضر وفاكهة. وهى إلى جانب زراعتها الغنية، مركز تجارى هام ومحطة للقوافل المتجهة إلى اليمن.

ويقال فى سبب تسمـية هذه المدينة بالطائف أنها كانت قطعة من الجنة اقتطعهـا جبريل عليه السلام وطاف بها حـول البيت العتيق ثم أنزلهـا فى موضعها الحالـى. وهكذا أكسبت هذه الرواية الطائف قدسيـة وجعلت لها مكانة دينيـة. ويبدو أن هذه الرواية وضعت بتأثيـر من سادات ثقيف المتعصبين لمدينتهم والتى يرونها ليـست بأقل مكانة ولا شأنا من مكة، وكانوا يجعلونها موازية لمكة فى المكانة، وقـد ورد عنهم ذلك فى قـولهم كمـا ورد فى القـرآن الكريم: ﴿**وَقَالُوا لَوْلا نُزِّلَ هَذَا الْقُـرْآنُ عَلَىٰ رَجُـلٍ مِّنَ الْقَرْيَتَيْنِ عَظِيـمٍ** ﴿٣١﴾﴾ [الزخرف].

وكـان العمـاليق أول من سكنوا الطـائف، ثم سكنتهـا ثمـود، ثم عـدوان، ثم بنو عامـر وثقيف.

ويختلف أهل الطائف عن أهل مكة وعن الأعراب من حـيث ميلهم إلى العمل فى الزراعة وعنايتهم بغـرس الأشجار. وقبيلة ثـقيف التى كانت لها السـيادة مؤخرا فى الطائف كـانوا حضرا مستقرين متقدمين بالقياس إلى بقيـة أهل الحجاز. كذلك تفوقوا فى العمارة وفى اشتغالهم بالحرف اليدوية كالدباغـة والنجارة والحدادة، وهى حرف مسـتهجنة فى نظر العربى يأنف الاشتـغال بها، لكن أهل الطائف احترفوها وربحوا منها. وعاش أهل الطائف فى مـستوى أرفع من مستوى عامة أهل الحجاز، وكوّن أعيانها ورؤساؤها ثروات كبيرة.

ولقد استغل أثرياء قريش أموالهم واستثمروها فى الطائف، فاشتروا الأراضى الزراعية فيها، كمـا بنوا لهم منازل ومنتجعـات للاصطياف فيهـا، وأسهمـوا مع رؤساء ثقيف فى أعمـال تجارية



مربحة، وحاولوا، قدر إمكانهم، ربط الطائف بمكة فى كل شىء. وهكذا استغل أذكياء مكة الموضع المهم للطائف وحولوه إلى مكان فى حكم التابع لسادات قريش.

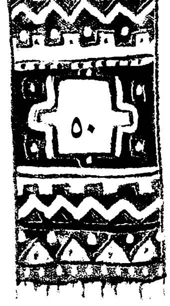
وكان أهل الطائف وثنيين يعبدون اللات، وكانوا قد أقاموا له صخرة مربعة، كانوا يضاهونها بالكعبة وجعلوا لها السدنة والحجاب من بنى معتب بن ثقيف.

وبسبب تبعيتها لمكة، رفضت الطائف دعوة الرسول ﷺ لها للدخول فى الإسلام، وردته ردا قبيحا حين ذهب إلى مدينتهم يدعوهم إلى دين الله، فى العام العاشر للبعثة الذى عرف بعام الحزن. كذلك لقى الرسول مقاومة عنيفة من أهل الطائف حين تقدم لحصارها بعد فتحه لمكة ولما رأت ثقيف قوة دولة الرسول ﷺ بعد فتحه مكة واستسلام قريش له قررت التفاوض معه والدخول فى الإسلام.

الحالة السياسية فى جزيرة العرب عند ظهور الإسلام

يعد القرن السادس للميلاد من القرون الهامة فى حياة البشرية، فقد شهد النصف الأول منه والنصف الثانى أحداثا هامة غيرت وجه البشرية وأوجدت فيها تغييرات هامة كانت لها نتائجها الخطيرة فى القرون التالية.

ففى النصف الأول من هذا القرن ظهر الضعف على الدولتين العظمتين فى العالم آنذاك، وهما دولتا الفرس والروم. وذلك بسبب الحروب الطاحنة التى دارت بينهما بصدد فرض السيادة والسيطرة على العالم، تلك الحروب التى أنهكتهما معا وأدت إلى انهيارهما تماما فى القرن التالى. وفى النصف الثانى من هذا القرن ولد نبى الهدى محمد رسول الله ﷺ، نبى الرحمة، «الذى كان مولده وظهوره وبعثته من أهم الأحداث التى وقعت على مسرح الحياة آنذاك وغيرت مسار التاريخ كله تغييرا تاما»، وجعل السيادة على العالم كله لبلاد الحجاز تلك البقعة من الأرض من جزيرة العرب التى كان الفرس والروم يحتقرون أهلها ويعدونهم مجرد بدو رعاة ليست عندهم إدارة ولم تتيسر لهم حضارة.



وكانت دولة الفرس، التى سيطرت على النصف الشرقى من العالم تقريبا فى القرن السادس تخضع لحكم ملوك ساسان، وأشهر ملوكهم كسرى أنوشروان، الروح الخالدة (٥٣١ ـ ٥٧٩م)، وقد تولى الحكم وإمبراطوريته يعمها الاضطراب وتنخر فى عظامها الأدران. وحاول هذا الملك، قدر إمكانه، إصلاح أحوال دولته، واستعان فى حكمه بمستشارين حكماء فى سياسة الرعية وتدبير أمر الدولة.

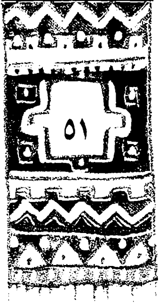
واهتم هذا الملك بالديانة المجوسية (الزرادشتية) ديانة الدولة الرسمية وتخليصها مما دخل عليها من انحراف من جانب الدعوات الهدامة الأخرى التى نادى بها بعض الدعاة مثل الدعوة المانوية والدعوة المزدكية، التى نادى بها كل من مانى ومزدك. وقد قام كسرى بمحاربة المانويين والمزدكيين ومطاردتهم ومحاربة أفكارهم الخطيرة على الديانة الرسمية للدولة وهى المجوسية.



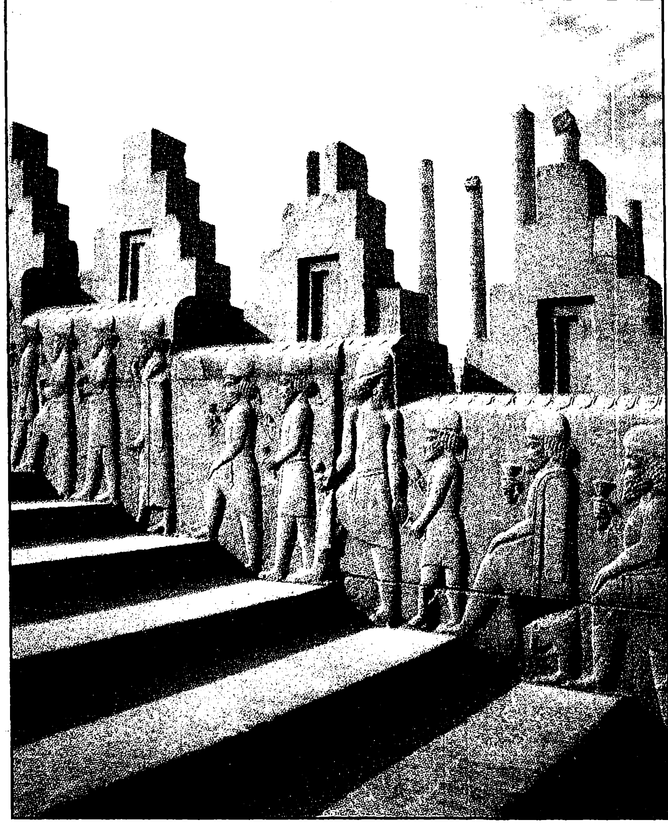
المعبود الفارسى (أهورامازدا) من الذهب ق ١٢ ق م

وحاول كسرى أنوشروان إصلاح أحوال بلاده الاقتصادية والمالية والعسكرية بإصدار تشريعات جديدة وقوانين وإدخال تعديلات على التشريعات القديمة مما جعل دولته أقوى مما كانت عليه فى عهد والده. ولما أكمل إعداد جيشه وتسليحه قام بغزو سوريا التى كانت خاضعة آنذاك لحكم الروم وللإمبراطور جستنيان (٤٢٧ ـ ٥٦٥م). فاستولى على مدينة أنطاكية الهامة ودمر أهم معالمها نكاية فى أهلها الذين دافعوا عن مدينتهم وتصدوا ببسالة لقواته الغازية. كذلك أرسل كسرى حملة إلى اليمن لمساعدة اليمنيين فى إزاحة حكم الأحباش لبلادهم وحلفائهم الروم.

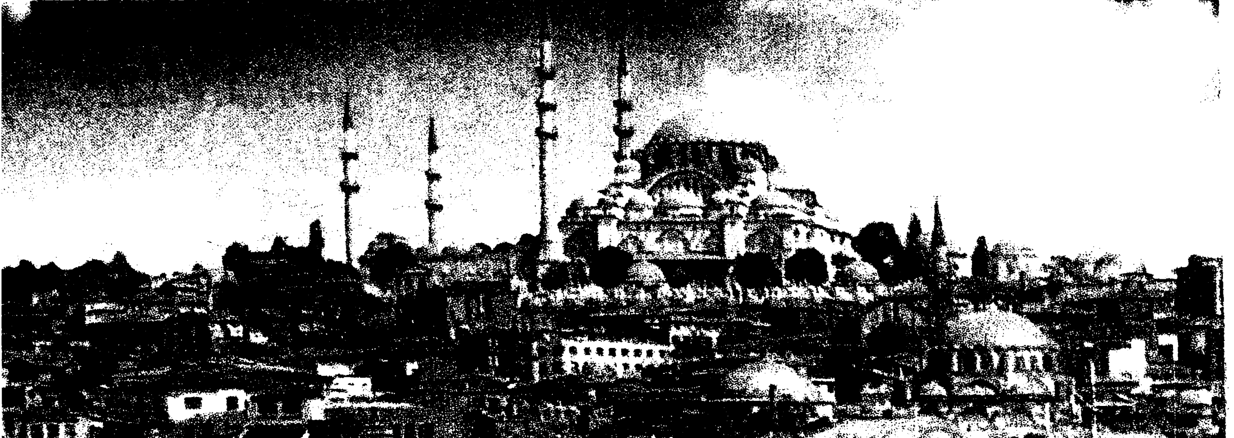
وقد قام كسرى باجتياح عدد من مستعمرات الروم فى بلاد سوريا وفى البحر المتوسط، ووصلت قواته إلى أبواب عاصمة الدولة القسطنطينية. وساعد الفرس على نجاح حملاتهم الحربية على مستعمرات الروم فى ولاياتهم الشرقية، تلك الخلافات الدينية التى كانت قائمة بين أهلها، واضطهاد الدولة للعناصر المسيحية اليعقوبية المعارضة لمذهب الدولة الملكانى. وقد ساعد أهالى هذه البلاد الفرس فى الاستيلاء على بلادهم وفتحوا أبواب مدنهم لهم ودلوهم على نقاط الضعف فى التسليح الرومى كراهية فى

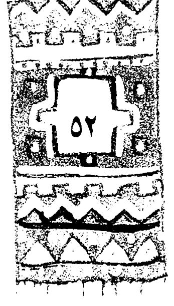


الروم، وبسبب سياسة التسامح الدينى التى انتهجها الفرس مع سكان هذه البلاد المفتوحة ممن كانوا على المذهب اليعقوبى والمذهب النسطورى.


قصر مدينة برسبوليس الفارسية

ونجح الفرس سنة ٦١٤م فى الاستيلاء على بيت المقدس واستباحة هذه المدينة المقدسة لجنودهم ثلاثة أيام، وقتلوا عددا كبيرا من أهلها، كما أسروا عددا أكثر مما قتلوا، وكان بين هؤلاء الأسرى الأب زكريا، بطريرك المدينة. كذلك استولوا على «صليب الصلبوت»، وهو الصليب المقدس الذى يدعى المسيحيون أن المسيح صُلب عليه، ويعدونه أهم آثار المسيحية الدينية، وقاموا بنقله إلى عاصمتهم طيفسون (المدائن). ودمرت حرائق الفرس

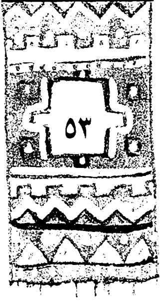
القسطنطينية، كانت عاصمة للبيزنطيين




كنيسة القيامة، التى كان قسطنطين الكبير قد قام بتشييدها فى القدس، وهى من أقدم كنائس المسيحية هناك. وبعد أن أتم الفرس فتح سوريا، قاموا بغزو مصر وفتحها، وكانت آنذاك مستعمرة رومية، فاستولوا على الإسكندرية سنة ٦١٩ ميلادية، ثم استولوا بعد ذلك على بقية بلاد مصر. وقد دوخ كسرى بفتوحاته الروم، إلى أن عاجله ابنه شيرويه بخلعه عن العرش، فاستراح الروم منه ومن انتصاراته. وسرعان ما تغيرت الكفة لصالح الروم بعد ذلك، فما لبثوا أن استردوا من الفرس أكثر مما أخذوه منهم فى تلك الحروب. وقد أضعفت هذه الحروب المتوالية الحكومة الفارسية الساسانية وآذت الشعوب التى خضعت لحكمها وأفقرت بلادها.

ولم تكن مشكلات الروم أهون من مشكلات الفرس بنى ساسان، وأول هذه المشكلات هى المشكلة الدينية التى أوجدت انقساما واضطرابا كبيرا فى الدولة. فعندما صارت المسيحية الديانة الرسمية فى دولة الروم وصار الأباطرة الرومان حماة للمسيحية ورعاة لكنيستها، انقسمت على نفسها وتقسمت إلى طوائف ومذاهب مختلفة متنافرة. وكانت هذه الاختلافات بين هذه المذاهب تمس صميم العقيدة ذاتها، وتختلف فى تحديد طبيعة الله وطبيعة المسيح وطبيعة العلاقة بينهما. وصارت مشكلة الديانة المسيحية وانشقاقها على نفسها من أهم المشاكل التى كان على أباطرة الروم مواجهتها وعلاج نتائجها وآثارها.

ولقد عقدت مجامع دينية كنسية عدة عرفت بالمجامع المسكونية لاتخاذ القرار النهائى بخصوص هذه المشكلة، وانتهى الأمر بأن اتخذت الدولة مذهبا لها عرف بالمذهب الملكانى، واتخذت شعوب الإمبراطورية الشرقية مذهبين آخرين وهما المذهب اليعقوبى والمذهب النسطورى. وبذلك وجد شرخ كبير فاصل بين كنائس الشرق وكنائس الغرب، مما أدى إلى انقسام الكنيسة المسيحية إلى شقين: الشق الشرقى وتمثله كنيسة القسطنطينية ويرأسها بطريركها، وهى التى تحولت، فيما بعد، إلى كنيسة الروم الأرثوذكس. والشطر الثانى وتمثله كنيسة القديس بطرس بروما، ويرأسها البابوات، وهى التى تحولت، فيما بعد، إلى الكنيسة الكاثوليكية. وبين الاثنين بدأت كنيسة الإسكندرية فى الاستقلال بشخصيتها وآرائها، وهى التى تحولت، فيما بعد، إلى الكنيسة القبطية اليعقوبية. كما بدأت كنيسة أنطاكية السورية والعراقية فى الاستقلال بشخصيتها والتمسك بالمذهب النسطورى.

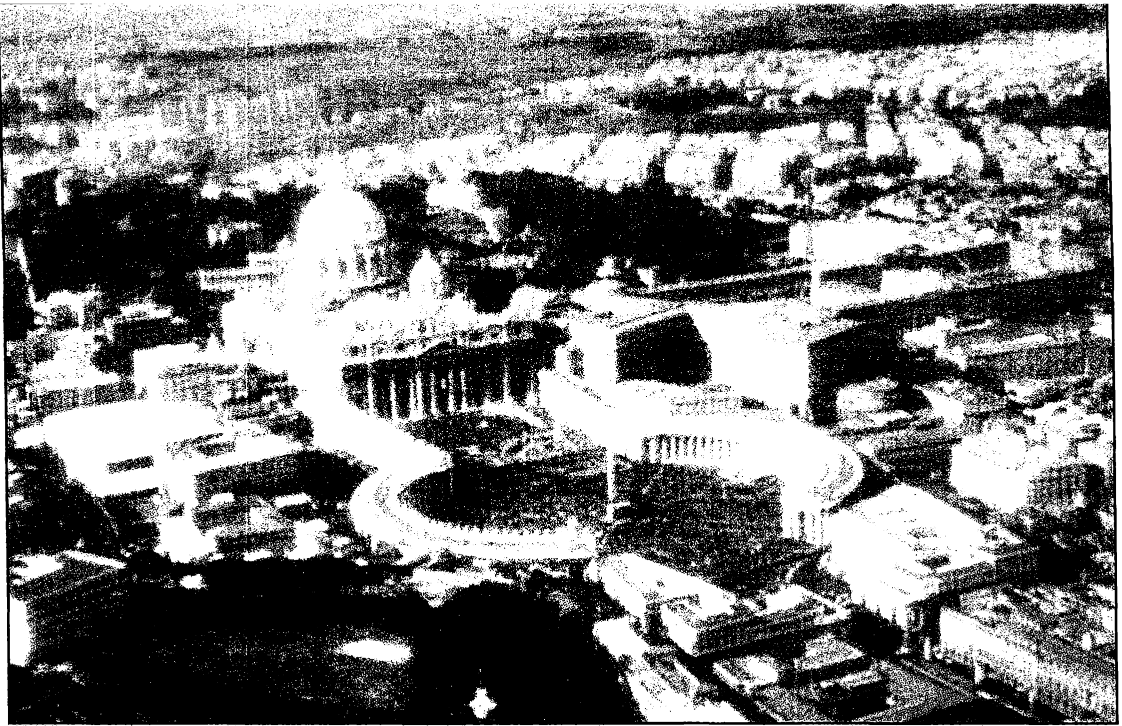


وقد رفضت الكنيسة الأرثوذكسية كل هذه الانقسامات، وقامت الدولة البيزنطية باضطهاد من خالفها فى المذهب، وتمسك أصحاب المذاهب المغايرة لمذهب الدولة الملكانى بمذاهبهم، وباتت الإمبراطورية وولاياتها فى فوضى دينية. وظل المسيحيون فى المشرق والمغرب فى حيرة من أمرهم بين هذه المذاهب دون الوصول إلى رأى نهائى ومعرفة المذهب الحق بينها.

ولم تكن المشكلة الدينية هى المشكلة الوحيدة التى عاشتها الدولة البيزنطية فى العصور الوسطى، فالحرب بينها وبين دولة الفرس كانت من المشاكل التى تؤرقها وترهق اقتصادها وتشيع الفوضى والاضطراب داخلها. وصارت الحروب بين الدولتين تقليدا موروثا لا يتركه أى منهما إلا مضطرا، ولا تعقد هدنة بينهما إلا بدفع جزية كبيرة للطرف الغالب تغنيه عن المكاسب التى يأملها من وراء الحرب، ويدفعها المغلوب صاغرا بسبب الأحوال الحرجة التى يكون فيها آملا تحسن موقفه واضطراب أمور خصمه فينتقم منه. فتاريخ الفرس والروم هو فى حقيقته تاريخ حروب ومهادنات عادت على بلاد الطرفين بأفدح الأضرار.

ولقد هاجم كسرى أنوشروان دولة الروم فى عهد جستنيان واكتسح بلاد الشام، ووقعت أحداث هذه الحرب بين الفرس والروم فى وقت بعثة الرسول ﷺ وهو لا يزال فى مكة قبل الهجرة يدعو الناس إلى عبادة الله الواحد القهار. فلما جاء الخبر بتفوق الفرس على الروم فرح المشركون من أهل قريش لانتصار الفرس الوثنيين مثلهم على الروم من أهل الكتاب، فنزل قوله تعالى: ﴿**الٓمٓ ﴿١﴾ غُلِبَتِ الرُّومُ ﴿٢﴾ فِي أَدْنَى الأَرْضِ وَهُم مِّنْ بَعْدِ غَلَبِهِمْ سَيَغْلِبُونَ ﴿٣﴾ فِي بِضْعِ سِنِينَ لِلَّهِ الأَمْرُ مِن قَبْلُ وَمِنْ بَعْدُ وَيَوْمَئِذٍ يَفْرَحُ الْمُؤْمِنُونَ ﴿٤﴾ بِنَصْرِ اللَّهِ يَنصُرُ مَن يَشَاءُ وَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ ﴿٥﴾**﴾ [الروم].

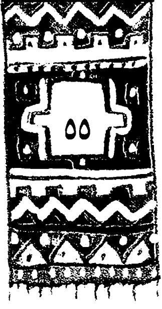
ولقد صدق تنبؤ القرآن الكريم بنصر الروم على الفرس بعد هزيمتهم منهم، وقد جاء هذا النصر فى أعقاب الحرب التى وقعت بين الطرفين فى عهد الإمبراطور هرقل (فى الفترة ما بين سنوات ٦٢٢ ـ ٦٢٨م). فى هذه الفترة أحرز هرقل ثلاثة انتصارات كبرى على الفرس، انتهت بثورة على الملك الفارسى كسرى أبرويز ومقتله على يد ابنه شيرويه بن كسرى. وفى هذه المعارك استعاد الروم جميع الأراضى التى كان الفرس قد اغتنموها منهم. وزاد هرقل على ذلك بأن قام بمهاجمة الفرس فى عقر دارهم فتقدم بجيشه سنة ٦٢٧م، ووصل إلى مدينة نينوى حيث هزم الجيش الفارسى هنالك هزيمة كبيرة اضطر شيرويه على إثرها إلى طلب الصلح مع الروم، وعقد صلح فيه إذلال للفرس سنة ٦٢٨م.



كنيسة القديس بطرس (الفاتيكان) مركز الكاثوليكية

وكان هذا الصلح الأخير بين الفرس والروم نهاية مطاف الحروب الطويلة بين القوتين العظميين آنذاك، وقد أضعفت هذه الحروب كلتيهما وأنهكت قواهما. ولم تكن أى من الإمبراطوريتين تعلم ما كانت تخبئه الأيام لهما، وما كانت عناية الله تعده داخل جزيرة العرب. ولقد سُر المسلمون، وهم بالمدينة، بانتصار الروم على الفرس وبتحقيق وعد الله فى كتابه الكريم، وتفاءلوا بذلك فى قرب مجىء اليوم الذى ينتصر فيه المسلمون على المشركين وقويت عزيمتهم فى التغلب على قريش، وأسلم آنذاك خلق كثير وانحطت معنويات قريش. وشاء الله تعالى أن يكون النصر فى هذه المرة للمسلمين لا للفرس ولا للروم. وقد نجح المسلمون، بعد سنين قليلة، فى ابتلاع مستعمرات الروم فى الشام ومصر، وابتلاع دولة فارس كلها؛ ليكون الجميع أجزاء من دولة الإسلام الكبرى التى تكونت فى عهد الراشدين بعد أن وضع بذرتها الأولى رسول الله الكريم عليه الصلاة وأتم التسليم.

وعند ظهور الإسلام، كانت اليمن تحت حكم الفرس الساسانيين، غير أن حكمهم، فى الواقع، لم يكن حكما تاما فعليا، بل كان حكما اسميا محصورا فى صنعاء وما والاها. أما الأطراف والمدن الأخرى فكان الحكم فيها لسادات اليمن من أصحاب الجاه والنفوذ. وقد كان الفرس الذين أقاموا باليمن، مثل سائر الفرس على الديانة المجوسية، ولما دخل أهل اليمن فى الإسلام دخل بعض هؤلاء فيه وأقام البعض الآخر على دينه وارتضى أن يدفع الجزية للنبى ﷺ. وقد دخل جيل الأبناء فى اليمن فى الإسلام، وهو الجيل الجديد الذى ظهر فى اليمن من تزاوج الفرس مع اليمنيين، وكان لهم فى اليمن نفوذ كبير.

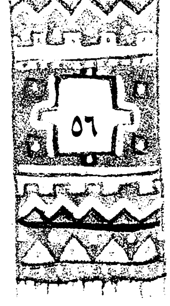


ولقد دخلت قبائل الأزد فى اليمن الإسلام، وجاء وفد منهم إلى الرسول ﷺ على رأسه صرد ابن عبد الله يعلن له إسلام الأزد، فباركهم النبى وأمرهم أن يجاهدوا المشركين من قبائل اليمن. ودخلت الإسلام أيضا قبائل اليمن الأخرى خثعم، ومذحج، ومراد، وهمدان، وعك، وحمير، وهمذان.

أما أهل نجران، فلم يدخلوا فى طاعة الفرس حين استولوا على اليمن ولم يخضعوا لحكم عاملهم وأداروا شئونهم بأنفسهم، وقد قدم وفدهم إلى الرسول ﷺ وأعلنوا إسلامهم فكتب لهم الرسول ﷺ كتاب صلح فى السنة العاشرة للهجرة. كذلك جاء وفد من بجيلة ووفد من خثعم وأعلنوا مبايعتهم للرسول ﷺ ودخولهم الإسلام.

وقد أرسل الرسول ﷺ عمرو بن العاص إلى جيفر بن الجلندى وأخيه عباد بن الجلندى الأزديين، وهما أصحاب عمان يدعوهما إلى الإسلام فأسلما وجميع قومهما. وجاء وفد البحرين من بنى عبد القيس إلى الرسول ﷺ وأعلن إسلامه.





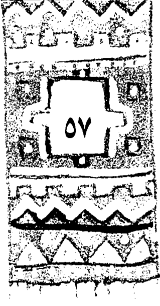
كذلك أسلم عرب هجر وبنو حنيفة باليمامة وقبيلة طيئ. وكان سيد طيئ أيام الرسول ﷺ زيد الخيل بن مهلهل الطائى، وهو ممن قدم على الرسول مع وفد قبيلته يعلن إسلامه وإسلامها، وقد أبدل الرسول اسمه من زيد الخيل إلى زيد الخير لزائد كرمه ومروءته. وكان وفد من أسد ضمن الوفود التى وفدت فى عام الوفود إلى المدينة وبايعت رسول الله ﷺ فى السنة التاسعة للهجرة، وكتب لهم رسول الله كتابا.

وكانت دومة الجندل، ومعظم أهلها من بنى كنانة من قبيلة كلب، عند ظهور الإسلام فى ملك أكيدر بن عبد الملك السكونى، وكان على المسيحية. وكان رسول الله ﷺ قد غزى دومة الجندل بنفسه فى السنة الخامسة من الهجرة فبلغها ولم يلق فيها كيدا لفرار أهلها منها. وقد أرسل رسول الله ﷺ بعد ذلك خالد بن الوليد ليفتحها، ففتحها وأسر أكيدر وجاء به إلى المدينة فعرض عليه الرسول ﷺ الإسلام فأسلم وكتب له كتابا وأقره على ملكه.

أما الغساسنة، فقد ورد فى الأخبار أن الرسول ﷺ أرسل إلى مليكها الحارث بن أبى شمر الغسانى يدعوه للإسلام، وكان يسكن غوطة دمشق لكنه لم يسلم ومات على النصرانية. ولما ذهب المسلمون لفتح الشام بقيادة خالد بن الوليد، كان آخر حكام الغساسنة جبلة بن الأيهم يحارب مع الروم ضد المسلمين وقد انهزم، ودخل الإسلام ولكنه ارتد إلى المسيحية وهرب ليعيش فى القسطنطينية حتى وفاته بها.

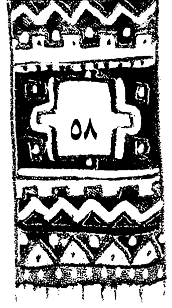
وجاءت وفود جذام وعذرة وكلب وغطفان وعبس وهوازن وفزارة وبنى سليم وجهينة لمبايعة رسول الله ﷺ والدخول فى الإسلام فى عام الوفود.

على هذا النحو كان الوضع السياسى فى جزيرة العرب عند ظهور الإسلام وفى أوائل أيامه: قوى مستقلة تخشى القبائل العربية المحيطة بها، وأذواء وأقيال فى اليمن وحضرموت، ورؤساء قبائل لهم السيادة والنفوذ على رجال قبائلهم. وكانت هذه القبائل فى غالبيتها فى خصومة واقتتال مع بعضهم البعض، ولم تتركهم هذه الخصومة من الانصراف لإصلاح حال رعيتهم، فتدهورت أحوال هذه القبائل وتملكت أهلها الحيرة والقلق. وظهر آنذاك أفراد ينادون بالإصلاح وبتحكيم العقل فى جميع الأمور والكف عن سفك الدماء ووقف الحرب. وجاء المبشرون المسيحيون إلى الجزيرة العربية لنشر المسيحية بين القبائل، فى الوقت الذى نادى فيه الحنيفيون بنبذ الوثنية وترك عبادة الأصنام والعودة إلى ملة أبيهم إبراهيم. وكان الجميع حيارى تتقاذف سفينتهم



الأمواج، ولم ينقذهم إلا ظهور الربان والحادى والمنقذ البشير والنذير محمد رسول الله ﷺ الذى جاء برسالة الإسلام، ولم يكن الإسلام على الناس بدين جديد، بل هو رسالة الله الخالدة التى بعث بها رسله وأنبياءه إلى عباده على الأرض منذ بداية الحياة. وما كان محمد إلا خاتم الأنبياء والرسل الذين دعوا إلى وحدانية الله واتباع الدين الحق وهو الإسلام، وذلك مصداقا لقوله تعالى: ﴿إِنَّ الدِّينَ عِندَ اللَّهِ الإِسْلامُ وَمَا اخْتَلَفَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ إِلاَّ مِن بَعْدِ مَا جَاءَهُمُ الْعِلْمُ بَغْيًا بَيْنَهُمْ وَمَن يَكْفُرْ بِآيَاتِ اللَّهِ فَإِنَّ اللَّهَ سَرِيعُ الْحِسَابِ ﴿١٩﴾﴾ [آل عمران] وما كانت رسالة محمد إلا نفس رسالة إخوانه الأنبياء والرسل، وقد جاءت ناسخة لما قبلها مهيمنة عليها جامعة فى الدعوة إلى الله إلى يوم قيام الساعة والحساب، جاء محمد ليؤكد وحدة الأمة الإسلامية، مصداقا لقوله تعالى: ﴿إِنَّ هَذِهِ أُمَّتُكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً وَأَنَا رَبُّكُمْ فَاعْبُدُونِ ﴿٩٢﴾﴾ [الأنبياء]. ولقد شهدت مكة فى النصف الثانى من القرن السادس الميلادى حدثا هاما ارتجت له الجزيرة العربية كلها، بل ارتج له العالم كله، وكان له الأثر الكبير فى تغيير تاريخ شبه جزيرة العرب وتحويلها من مجرد بلاد صحراوية يرتع الرعاة فيها بحثا عن الكلأ والماء، إلى بلاد حضارية تسود الدنيا وتقودها بعد أن تفجرت من أرضها ينابيع الهداية، وبعد أن تنزلت فيها آخر رسالات السماء إلى الأرض بمولد محمد رسول الله ﷺ ونشأته، والإعداد الربانى له ليتحول من راعى غنم إلى راعى بشر، وليقود العرب ليسودوا الدنيا ويحكموا العالم ويرفعوا راية (لا إله إلا الله) خفاقة فى الآفاق.

ولقد أوجد محمد لجزيرة العرب وجها جديدا من وجوه الحياة لم تعشه طوال حياتها ولم تكن تحلم به، أوجد لها السيادة والغنى والعز، وأزال ما كان قد علق بجسدها من أدران الجاهلية وأمراضها، ووضع لها بذرة الدولة الموحدة القوية التى سرعان ما اتسعت لتضم إلى جنباتها معظم بلاد العالم القديم، ولتمتد من المحيط الأطلسى إلى حدود الصين. وقد خرج المسلمون الموحدون إلى خارج جزيرة العرب يفتحون البلاد ويحكمونها باسم الإسلام ويدوخون أعظم الدول ويوقعون بها أشد الهزائم، كل ذلك فى مدة لا تعد طويلة فى حساب الزمن. فالإسلام إذن نهاية حياة قديمة وبداية حياة جديدة يختلف واقع وشكل الثانية عن الأولى كل الاختلاف، اختلاف إلى الأحسن وإلى الأعظم، وقد كان كل ذلك بفضل محمد بن عبد الله خير من ولدته النساء، والمحمود فى الأرض وفى السماء عليه الصلاة والسلام.





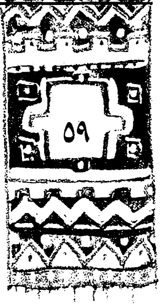
الزراعة:

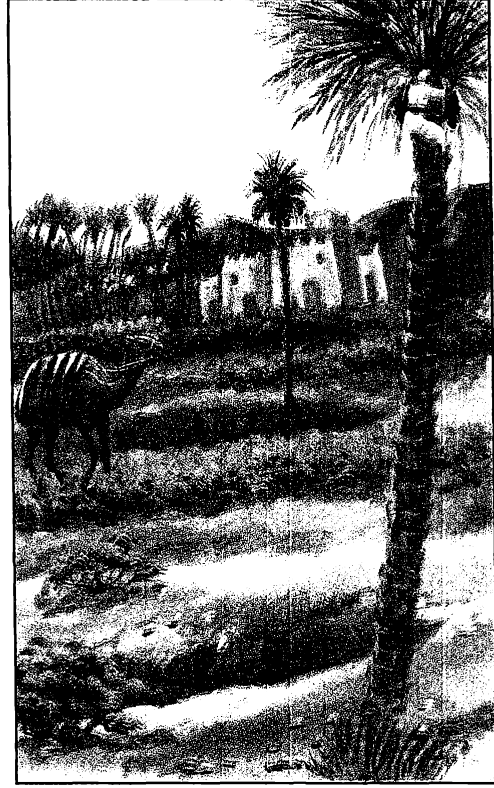
هى عماد ثروة اليمن وجنوب جزيرة العرب والمواضع التى توجد فيها مياه الشرب فى الجزيرة العربية، ولا توجد الزراعة فى الأرض الصحراوية التى تمثل النسبة الأكبر من أرض شبه الجزيرة. ولأهل اليمن السبق على غيرهم من عرب شبه الجزيرة فى الزراعة، وهم ما زالوا يعرفون حتى الآن بمهارتهم فيها. وقد حرص اليمنيون، منذ القدم، حرصا كبيرا على الاستفادة من الأمطار فى رى أراضيهم كما تبين ذلك من آثار السدود التى أقاموها فى أوديتهم وهى سدود أقيمت لتخزين المياه فى أحواضها والاستفادة منها وقت الحاجة.

وقد قامت الزراعة فى اليمن وجنوب الجزيرة فى الأودية (الأسرار)، وعموما اعتمدت أرض هذه البلاد على الأمطار الموسمية التى غذت أرضها بالماء وولدت فيها الحياة.

واليمامة من الأراضى الزراعية الخصبة فى جزيرة العرب، وقد وصفت بأنها ريف مكة إذ كانت تمون مكة بالحبوب، وأودية اليمامة مليئة بالعيون ذات الماء العذب. وفى الحجاز مواضع تكثر فيها العيون والمياه الجارية غرست بالنخيل واشتغل أهلها بالزراعة، وقد وردت أسماء مواضع عامرة آهلة بالسكان فى غزوات النبى ﷺ وسراياه تقع جميعها فى شمال المدينة ممتدة إلى حدود فلسطين. وبين مكة ويثرب بعض مواضع مياه عاش سكانها على زراعة النخيل وبعض الزراعات. وبالمدينة وأطرافها مواضع عرف الواحد منها بالبقيع، وهو مكان به مختلف الشجر، وأشهرها: بقيع الغرقد وبقيع الخيل والخضمات. وبالمدينة أودية قامت فيها الزراعة، أهمها وادى مهزور، سكن يهود بنى قريظة. وفى شرق الجزيرة العربية وجدت مواضع بها ماء وزرع مثل هجر، التى اشتهرت بنخيلها وجودة تمورها، والأحساء (الحسا) التى عرفت بزراعة النخيل، وقطر، وكاظمة.

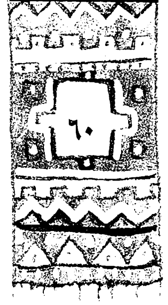
ومن الآلات التى استخدمها العرب فى جزيرتهم لحرث الأرض وزرعها: المحفار، والمخدة، والمعول، والمسحاة، والمعزقة، والميطدة، والمجز. والحيوانات المستخدمة فى الحرث الثيران والحمير والخيل والجمال، واستعان العرب فى تسميد تربة أرضهم بفضلات الإنسان والحيوان والطيور والرماد.





ومن المحاصيل الزراعية التي زرعها العرب قبل الإسلام: الحبوب وخاصة القمح والشعير، اللازمين لصناعة الخبز؛ لأن العرب لم يكونوا يعرفون الأرز آنذاك، ولم يكن طعامهم. وقد عرف أهل اليمن زراعة الذرة واستخرجوا منها شرابًا يُعرف بالمزر، وهو نبيذ الذرة. كذلك زرع العرب سائر أنواع البقول من حمص وعدس وفول ولوبياء، وزرعوا البصل والثوم والقثاء والقرع والبطيخ (الحبحب). وعرف العرب الأشجار الشوكية مثل القتاد والحسك والعوسج.

وانتشرت زراعة النخيل فى كل موضع من جزيرة العرب فيه ماء، وهو أنواع وفصائل كثيرة، واشتهرت كل من هجر والمدينة وخيبر بكثرة تمورها



وجودة أنواعها. وزرع العرب فى الطائف وفى اليمن أنواعا مختلفة جيدة من كروم العنب، وكذلك سائر الفواكه من تين ورمان وخوخ وموز، ويُفهم من النصوص الجاهلية أن الزراعة فى شبه الجزيرة كانت تتعرض لآفات زراعية خطيرة من حشرات وجراد وانحباس المطر.

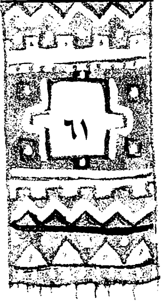
الرعى:

فى جزيرة العرب مراعٍ منها الخاص والعام، والمرعى الخاص إما أن يكون ملكًا لرجل أو لأسرة أو قبيلة تفرض سلطانها على المرعى وتقوم بحمايته، ولذلك عُرف بالحمى. وأما المراعى العامة فهى تكون مشاعًا لجميع أبناء القبيلة التى يقع المرعى فى أرضها أو شعبها. وإذا ارتحلت القبيلة عن أرضها وتركتها ونزل بها نازل جديد صارت الأرض ملكًا له.

والمرعى هو موضع الرعى، والرعى هو الكلأ الذى ترعاه الإبل أو تسوم فيه، ولذلك هم يقولون: «سامت الإبل» فهى سائمة، ويقولون: «رتعت البهائم» بمعنى أكلت وشربت فى خصب وسعة. والانتجاع عند العرب، هو الذهاب فى طلب الكلأ فى موضعه، وكذلك الارتباع وهو يحدث فى فصل الربيع بعد سقوط الأمطار.

والرعاة على صنفين: رعاة الإبل، وهم المعنون فى البوادى والذين يبيتون مع الإبل فى المرعى لا يأوون إلى بيوتهم ولايرعون غيرها، ورعاة يرعون إبلا ويرعون غيرها معها من بقر وخيل وغنم، وهم لا يستطيعون الابتعاد عن الماء كثيراً لعدم استطاعة تلك الحيوانات الصبر على العطش كثيراً، ولهذا فهم على اتصال بالحضر والحضارة. ولايشترط فى الراعى أن يكون أجيراً لغيره، فقد يكون راعيًا وهو مالك لما يرعى، وإنما سُمى راعيا لأنه اتخذ الرعى وسيلة للحياة يعيش عليها. ولا يربى الرعاة الدجاج والبط والحمام والطيور المختلفة، إنما يربيها أهل الريف من الأنباط أو ممن خالطهم.

والإبل مصدر ثروة عظيمة فى الجاهلية، وبعدد الإبل تقاس الثروات وهو المال عند العرب وأساس التعامل بينهم. ويُطلق العرب على الإبل والبقر والشياه: النَّعم، وإذا أفردت النعم لم يريدوا بها إلا الإبل، أما إذا قالوا: الأنعام، فإنهم يريدون بها الإبل والبقر والغنم. والسائمة هى الإبل الراعية، والجمل هو الحيوان الوحيد الذى ارتضى مرافقة الأعراب ومشاركتهم حياتهم فى البوادى ومشاركتهم مسراتهم وأحزانهم، وهو سفينة صحرائهم. وقد حرص الأعرابى على الإكثار من الإبل النجيبة والتى تُعد مقياس الغنى والثراء عندهم. والإبل من حيث الأصالة أجناس



وأصناف منها الأصيلة ومنها الرخيصة، وتُسمى الأصيلة منها بالنجائب والحرائز، وهى لا تباع إلا عن اضطرار.

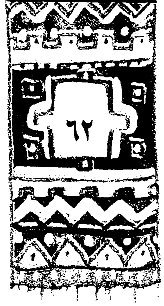
ويربى العرب الأغنام والماعز، كما عُنى أهل المدن بتربية الطيور وبخاصة الدجاج، كذلك قاموا بتربية النحل للحصول على العسل وخصوصًا فى بلاد اليمن وحضرموت، وقام عرب السواحل بصيد السمك (الحوت).

التجارة:

لقد كان عرب قبل الإسلام، مثل غيرهم من الشعوب السامية، نشيطين فى عالم التجارة، وتكاد تكون التجارة هى الحرفة الوحيدة عند العرب التى لم ينظر العربى إليها وإلى المشتغل بها نظرة احتقار وازدراء، بل هى عندهم من أشرف الحرف قدرًا ومنزلة، ونُظر إلى التاجر نظرة تقدير واحترام. وقد بقيت للتجارة هذه المنزلة والدرجة أيضا فى ظل الإسلام، وأشير إلى شرفها ومنزلتها فى كتب الحديث والأدب وكان أهل مكة من أبرع التجار وأنشطهم فى الجزيرة العربية قبل الإسلام، وقد أشار القرآن الكريم إلى رحلتيهم السنويتين فى الشتاء والصيف. وكان تجار مكة يقومون بمهمة الوسيط التجارى الذى ينقل تجارة اليمن وجنوب شبه الجزيرة إلى بلاد الشام وحوض البحر المتوسط، وبذلك حصلوا على أرباح طائلة وكونوا ثروات هائلة جعلتهم من أغنى قبائل العرب وجعلت مكة من أخطر مراكز الثروة والمال فى جزيرة العرب آنذاك.

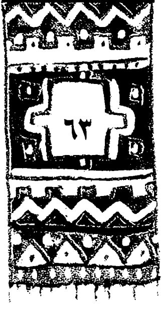
وكان العرب يتاجرون فى بضائع الشرق الخفيفة الحمل المرتفعة القيمة من ذهب وفضة وتوابل وعطور وبخور وثياب مختلفة وأحجار كريمة ورقيق وأسلحة وجلود. وكانت للعرب أسواقهم الثابتة مع أيام السنة يبيعون ويشترون فيها، كما كانت لهم أسواقهم الموسمية التى كانت تُعقد فى مواسم معينة وتنفضّ بانقضاء الموسم، مثل سوق عكاظ الذى كان يعقد لمدة أسبوعين من منتصف ذى القعدة حتى آخره، وسوق مجنة الذى يُعقد بعد الانصراف من سوق عكاظ لمدة عشرة أيام، ثم سوق ذى المجاز الذى كان يُعقد بمنى لمدة الثمانية أيام الأولى من شهر ذى الحجة، ثم يخرجون يوم التروية من ذى المجاز إلى عرفة، ويكون يوم التروية نهاية أسواقهم. وكان العرب لايتبايعون فى يوم عرفة ولا فى أيام منى، فلما جاء الإسلام أحل لهم ذلك.

وكانت هنالك طرق للبيع معروفة عند العرب مثل بيع الحصاة، وبيع الملامسة، وبيع المنابذة، وبيع التناجش، وبيع المزابنة، وبيع المخاضرة، وبيع المعاومة. واستعمل العرب فى تجارتهم



الوزن والكيل، ومن أوزانهم: الرطل والأوقية والدرهم والدانق والمثقال والحبة. ومن مكاييلهم: المد (وهو رطلان)، والصاع (٤ أمداد)، والقفيز (٢٠٠ لتر)، والوسق (٦٠ صاعا).

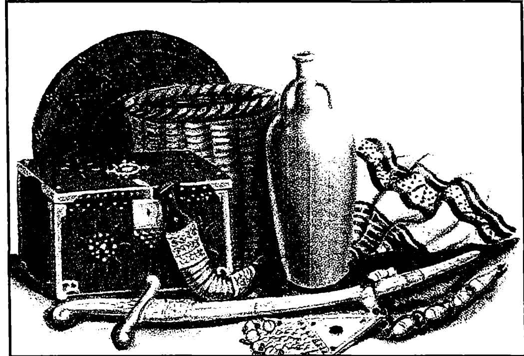
وتعامل العرب فى تجارتهم فى القديم بنظام المقايضة، ولكنهم بعد ذلك استعملوا النقود العين والورق، والعين هو الدينار والذهب عامة، والورق هى الدراهم المضروبة من الفضة أو الفضة عمومًا. وقد شاع الربا فى الجاهلية بين العرب وبين غيرهم من الشعوب السامية. وقد حرم الإسلام الربا وأحل البيع.



الحرف والصناعات:

تأتى بلاد اليمن فى مقدمة أجزاء جزيرة العرب فى قيام الحرف والصناعات بها، وتفوقت فى ذلك المجال عن غيرها من الأماكن الأخرى. وبرزت اليمن فى إنتاج صناعات كثيرة ولم تكتف بتصنيع واحد، وذلك بسبب توافر المواد الأولية اللازمة للصناعة بها. فتوافر بها معدن الحديد الذى قامت عليه صناعة الأسلحة عندهم، وبخاصة صناعة السيوف اليمنية المشهورة. كذلك توافرت عندهم الأخشاب والجلود مما أدى إلى قيام صناعات خشبية وجلدية اشتهرت بها اليمن وارتبط اسمها بها. كذلك وُجدت مناجم للذهب باليمن ومناجم للفضة. وعرفت اليمن الرصاص والنحاس والعقيق. واشتهرت اليمن بصناعة النسيج وبخاصة الثياب ذات الشهرة من أمثال: الخال والوصائل والمراجل والمعاجر، وهى أثواب نسائية غالية الثمن. واشتهرت اليمن بصنع ثياب بيضاء عُرفت بالثياب السحولية، نسبة إلى موضع سحول الذى كانت تنسج فيه هذه الثياب، كذلك اشتهرت عدن بالثياب النفيسة التى نسبت إليها وعُرفت بالعدنيات.

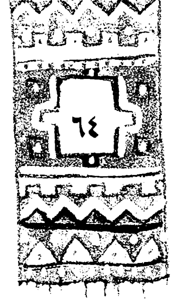
واشتهرت جزيرة العرب بصنع البسط والأكلمة، إضافة إلى الصناعات القائمة على الألياف والخوص وعيدان بعض الأشجار والحبال. كما استخدم العرب بعض النباتات فى الصباغة، كما استخرجوا الزيوت من البذور بمعاصر خاصة. وبرع العرب، وبخاصة أهل اليمن، فى دباغة الجلود، واستخدموا نبات القرظ وقشر الرمان والشب فى ذلك.



وقد قامت الحرف الخفيفة فى جزيرة العرب من نجارة وحدادة وخياطة وصباغة، برغم أن العرب نظروا عمومًا إلى هذه الحرف والمشتغلين بها نظرة ازدراء فلم يقبلوا عليها وتركوا العمل فيها للأعاجم واليهود والنصارى والعبيد.

وقد تشتهر مدينة ما من مدن شبه جزيرة العرب بحرفة من الحرف فيكون لمنتوجها من حرفتها شهرة واسعة وتباع فى الأسواق بأسعار مرتفعة، فاشتهرت اليمن ببرودها وسيوفها فى جميع أنحاء شبه الجزيرة، كما اشتهرت مكة بعطورها وثقيف بالطائف بجلودها.

وكانت الأجور تُدفع للعمال والصناع يوميًا، أما الرقيق فلم يكونوا يتسلمون أجورًا على أعمالهم بل يُكتفى بإطعامهم وإلباسهم وحمايتهم، وعليهم، مقابل ذلك، الاشتغال فى الصنائع والحرف بما يوكل إليهم به أسيادهم.





تألف المجتمع العربى قبل الإسلام من طبقات ثلاث: طبقة عليا وطبقة وسطى وطبقة دنيا. وكان أرباب الطبقة العليا هم السادة والأشراف وأعضاء الأسرة المالكة فى الممالك العربية القديمة. ولهؤلاء امتيازات خاصة وأراض يستفيدون من ريعها ورقيق يخدمونهم.

ويقع الإقطاعيون الكبار (الأقيال) وملاك الأراضى الكبار (الأذواء) فى الدرجات العليا من درجات المجتمع، وقد ينازعون الملك ملكه ويقصونه عنه. ورجال الدين طبقة تقع فى رأس طبقات المجتمع، ولهم امتيازاتهم وأراضيهم الخاصة، ولهم أموال يجمعونها من الوقفيات والنذور.

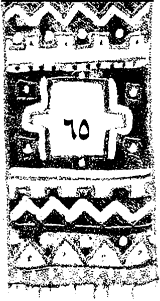
ويكوِّن المحاربون طبقة خاصة لها منزلتها التى تلى منزلة الأقيال والأذواء، وقد كان لهم نفوذ كبير وبخاصة فى مملكة سبأ. ويشكِّل التجار الطبقة الوسطى فى المجتمع العربى، بينما يشغل العمال الأُجراء والخدم والرقيق الطبقة الدنيا إضافة إلى الفقراء والصعاليك.

هذا عن مجتمع الحضر، أما المجتمع البدوى فهو مجتمع بسيط يتكون من سواد القبيلة المتساوين فى الحقوق والواجبات يترأسهم رؤساء القبائل وأشراف العشائر. ولرؤساء القبائل الإبل، وهى أموالهم، وهم الذين يستطيعون الذهاب إلى القرى والمدن ومواطن الحضارة للعيش فيها زمنًا ولشراء ما يجدونه فى أسواقها مما يحتاجون إليه من سلع.

وكان الصرحاء الأحرار من أبناء القبيلة العربية فى البادية الذين يجمع بينهم صلة الدم والنسب يمثلون طبقة السيادة فى القبيلة وأصحاب المنزلة العالية فيها، وكانوا يتمتعون بحماية قبيلتهم التى تنصر أيًّا منهم ظالمًا كان أو مظلومًا. وكانت لهؤلاء الأشراف من عرب البادية بيوتات تتفاوت عندهم فى الشرف والمكانة، وكانت بعض هذه البيوتات تتفاخر وتتباهى على غيرها من البيوتات فلا تزوج أحدًا من أبنائها أو بناتها إلا لمن كان كفؤًا لهم.

والشرف عند العربى الجاهلى هو الحسب بالآباء والحفاظ على العرض، وثأر العرض عند العربى مثل ثأر القتل. وتتمثل المُثل العليا عنده فى المروءة وكمال الرجولة التى من مظاهرها الكرم والحلم والصبر والعفو عند المقدرة وكرم الضيف وإغاثة الملهوف وحماية الضعيف ونصرة الجار.

والمروءة هى دين الجاهليين، وقد أقرها الإسلام فيما أقره من فضائل الجاهلية. كذلك كانت النخوة والجود والكرم من خصالهم الحميدة.



وللجوار حرمة كبيرة عند عرب الجـاهلية، وحقٌ على المجار الدفاع عن مجيره وحمـايته، وإن لم يفـعل ذلك يكن ناقضًـا للعهد مـخالفًـا للذمة والوعـد. وكانت العصبـية للقبيلة هى الظاهرة المـميزة لعرب ماقـبل الإسلام. والعصبـية هى أن يدعو الرجل عصبيته إلى نصرته، وترتبط العـصبية بدرجة الدم والتحام النسب. وأقرب دم إلى الإنسان هو دم أسرته حتى تصل الـعصبية إلى القبيلة والعـصبية للحلف. وعلى أفراد الحلف أن يتآزروا فى دفع الديات وبالمطالبة بديات من يُقتل من قبائل الحلف إذا عجز أهل القتيل أو قبيلة القاتل عن الأخذ بحقه. وتشمل العصبية كل من ينتمى إلى القبيلة أحرارها ومواليـها. وإذا قتل قتيل للقبيلة لزم كل أفراد القبيلة الأخـذ بثأره؛ ذلك لأن التبعة فى قانون العصبية تبعة جماعية، ومن هنا خضـعت فردية الأعرابى المتطرفة لسلطان العصبية، فصار واجبًا عليه أن يضع نفسه تحت إمرة القبيلة مستعدًا لتنفـيذ ما يصدر إليه منها من أوامر. وعليه أن يقدم نفسه طواعية واختيارا لقـبيلته وأن يشاركها فى غزوها وحربها والدفاع عنها. وقـد نهى الإسلام عن عصبية الجاهلية وحوَّلها إلى عصبية للإسلام بأن يتعصب المسلم لدينه ولجماعة المسلمين.

ولقد جر الأخـذ بالثأر على عرب الجاهلية حروبًـا مريرة وقتالا شديدًا، وكان السـبب المباشر لما وقع بين القبـائل العربية من حـروب ومعارك عُـرفت فى التاريخ باسم «أيام العرب»، ومن أشـهر هذه الأيام: يوم حليـمة، وعين أباغ، ويوم اليـحـاميم، ويوم بعـاث، وحرب البـسوس، وحـرب داحس والغبراء، وأيام الفجار. وقد تباهى رجال القبائل بهذه الأيام وعدوها من أهم مفاخرهم.

ومن عادات العرب الطيبـة قبل الإسلام الوفاء بالعهد فمنه حفظ السـموأل بن عادية أمانة امرئ القيس ولم يبال فى سبيل ذلك بقتل ابنه.

وكان من عـاداتهم إذا غدر رجل ونكث العهـد يرفعون لـه لواءً فى سوق عكاظ ليعـرفه الناس ويتجنبوا التعامل مـعه. كذلك جُبِل العربى على الحرية وهو لا يقبل الضيم ولا يـخضع إلا لقبيلته فى إطار الحفاظ علـى حريته الشخصـية. وقد كان للعـربى فى الجاهلية عادات اجـتماعية وتقـاليد تأثرت بمعتقداته الدينيـة وبطبيعة بلاده الصحراوية. فكان يؤمن بوجـود قوى خفية خارقة لـها أثرها الكبير فى حياة الناس وأعمالهم ومستقبلهم. لذلك عمدوا إلى التقرب لهذه القوى بتقديم القرابين والنذور وطلب العفو منها والتضرع لها فى مناسبات كثـيرة. ولذلك آمن العرب بقدرة المنجمين والسحرة على حمايتهم من هذه القوى والتزمـوا بتعاليمهم وعمـلوا على تنفيذها على الوجه الأكمل. كـما آمنوا بقدرتهم على تسخيـر الجن فى محاربة هذه القوى وفى منع الجن ذاته من التعـرض لهم. وقد كان لكل قبيلة كـهانها الذين يرجعون إليهم ويتنبؤون لهم بمستقبلـهم. وكان العرب يلجأون إلى العرافين والقيافين الذين كانوا يتتبعون الأثر. وكانوا يستقسمون بالأزلام، وهى إحدى طرق التنبؤ كان الكهنة يقومون بها أمام الأصنام حتى يظهروا أن ذلك من إرادة الآلهة ومشـيئتها. وكان الاستقسام جزءا من حـياة العرب اليومية فكانوا لايقدمون على شيء إلا بعد إذن الأزلام لهم بذلك من سفر أو عمل أو زواج، وقد هدم الإسلام ذلك وجعله فسقًا وذلك فى قوله تعالى ﴿ ... **وَأَن تَسْتَقْسِمُوا بِالأَزْلامِ ذَلِكُمْ فِسْقٌ** ... ﴿٣﴾ ﴾ [المائدة].

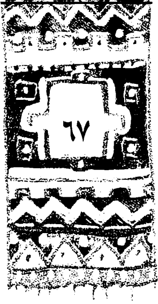


وكان العـرب يستطلعون حظوظهم بضرب الحـصى، كما كانوا يزجـرون الطير بالحصى ليفزعوها ويراقبوا اتجاه حركة طيرانها فيـتفاءلون بتيامنها ويتشاءمون بتياسرها. وتطيَّر العـرب من الغراب والبوم والحـدأة وذوى العاهات ومن بعض الأسـماء وبعض ساعات اليوم وبعض الأيام وبعض الأرقام وبعض النساء. وقد نهى الرسول الكريم عن الطيرة والتطير.

وكانت للجاهلية سمات أبطلها الإسلام، وفى جملة ما حاربه الإسلام من أمور الجاهليـة عبادة الأصـنام والأوثان، والعصبـية بكل أشكالهـا إلا للإسلام، والتفـاخر بالأحساب والأنساب، ووأد البنات، وقتل الأبناء خشـية الفقر، والنواحة على الميت ولطم الخدود وشق الجيوب والدعوى بدعاء الجاهلية.

كذلك نهى الإسـلام عن عـادة العـرب فى الجاهلية دفن الميت بملابسه، ودفنهم موتاهم فى بيوتهم، ودفن بعض الأشياء مع الموتى، وعن عقل ناقة الميت عند قبره.



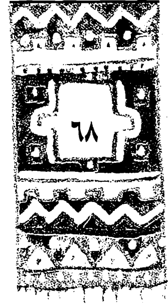


وقد حرم الإسلام أنواع الزواج الفاسدة التى كانت سائدة عند عرب الجاهلية مثل: زواج الشغار، وزواج المقت، ونكاح المشاركة، ونكاح الاستبضاع، ونكاح الخدن، ونكاح الأسر. كذلك منع الإسلام جمع الرجل بين الأختين فى فراش واحد.

وكانت للعرب فى الجاهلية عادات فى الطلاق وكانت عندهم أنواع منه، منها: الظهار والإيلاء والخلع. والظهار هو أن يقول الرجل لزوجته: «أنت علىّ كظهر أمى» أو كبطنها، وبذلك تحرم عليه ويكون تطليقها. والإيلاء، هو الحلف على ترك المرأة مدة، والخلع، هو فراق الزوج زوجته على أن تدفع له مالا تشترى به حريتها. وكانت للنساء عادة تقوم بها إذا ما أرادت الطلاق من زوجها، وهى أن تحوّل الفتحة المؤدية إلى خدرها فى الخيمة إلى الناحية المعاكسة، حتى إذا جاء الزوج ووجد الأمر كذلك فهم المراد وأحجم عن دخول الخيمة، ويقع بذلك التطليق. وكانت النساء فى الجاهلية يبالغن فى حزنهن على وفاة أزواجهن فيلزمن بيوتهن مدة عام وهن لابسات شر ثيابهن، وقد نهى الإسلام عن ذلك وجعل لهن عدة يعتدونها ومنع عليهن مظاهر الحداد الشديدة على الميت، كذلك منعهن من زيارة القبور.



وأعطى المجتمع العربى فى الجاهلية السيادة فى الأسرة للرجل دون المرأة بحكم تفوق بنيته عليها وتعهده بحماية الأسرة ورعايتها وتوفير احتياجاتها، فاغتصب بذلك الرجل حق المرأة والابنة من حقوق الميراث. ولذلك كره العربى إنجاب الإناث وتعلق بإنجاب الذكور.



الحياة الثقافية

العرب من الشعوب التى عرفت الكتابة وكان لها خطوطها قبل الإسلام بزمن قديم، مثل قلم المسند، والقلم النبطى، وقلم الجزم. والمواد التى كتب العرب فى الجاهلية عليها عديدة منها: الحجر والخشب وورق الشجر والجلود والقراطيس وأكتاف الإبل والكاغد والرق. وكان التعليم فى الجاهلية يبدأ فى الكتاتيب. والعلوم التى عرفوها: علم الأنساب، والقصص، والطب، والتنجيم والفلك، والتأريخ.

ولقد ارتقى العرب بلغتهم وعبروا بها عن ثقافتهم بما أوردوه وخلفوه من خلالها من نثر وشعر دل على ثراء هذه اللغة واحتلالها المكانة العليا بين اللغات السامية الأخرى. ولهجة قريش هى العربية الفصحى التى عمت وسادت فى الجاهلية فى كل القبائل العربية. وكان الشعراء يتخذونها لغة لشعرهم. والعربية بجميع لهجاتها وألسنتها مثلها مثل اللغات الأخرى تأخذ وتعطى من مفردات اللغات الأخرى، والأخذ والعطاء ووضع مفردات جديدة فى لغة ما هما من دلائل الحيوية ومن أمارات القوة والتكامل فى اللغة. وفى القرآن، كما يذكر العلماء، يوجد أكثر من مائة لفظ معرب نصوا على أصوله من الأعاجم. وهى كلمات دخل بعضها العربية قبل الإسلام بعهد طويل لعدم وجود مثيل لها فى لغة العرب، فأخرجتها العرب على أوزان لغتها فصارت بذلك عربية. وقد أخذت العربية ألفاظًا من اللغات اليونانية والفارسية والسريانية والعبرانية والحبشية والنبطية والقبطية. ووجود المعربات دليل على اتصال عرب الجاهلية بغيرهم واتصال غيرهم بهم، وعلى الروابط الفكرية التى كانت بين العرب فى القديم والشعوب السامية الأخرى. وقد جاء هذا الاتصال حين أقام العرب فى المستوطنات اليونانية الكائنة فى مواضع عديدة من سواحل البحر الأحمر والخليج العربى. كذلك جاء من تواجد مختلف أنواع الرقيق فى بلاد العرب وجلب الأعداد الكبيرة منهم فى كل عام، يضاف إلى ذلك التجارة مع دولتى الفرس والروم والاحتكاك بشعوبهما والتأثر بثقافاتهما. وكان للمبشرين أيضًا شأن مهم فى نقل التراث اليونانى والآرامى إلى جزيرة العرب أيام الجاهلية.

وللحديث عن أدب العرب فى الجاهلية، نقول: إن البعض ذهب إلى وجود أدب منثور للعرب قبل الإسلام تجلى طرازه فى الحكم والأمثال المنسوبة إلى حكماء الجاهلية. والخطابة وجه آخر من أوجه النشاط الثقافى عند عرب الجاهلية، وقد كان للخطيب عندهم مقام كبير للسانه وفصاحته وبيانه والقدرة فى الدفاع عن قومه والتحدث باسمهم، فهو لسان قبيلته. ومنهم من اشتهر بنظم الشعر وعُد من فحول الشعراء مثل عمرو بن كلثوم، ومنهم من كان يقول الشعر بالإضافة إلى علو شأنه فى النثر مثل عامر بن الظرب العدوانى. وأشهر خطباء



الجاهلية، أكـثم بن صيفى، وحاجب بـن زرارة التميمى، وعامـر بن الطفيل، وكعب بن لؤى، وقس بن ساعدة، وعبد المطلب جد الرسول ﷺ.

والشـعر، إلـى جانب الحكم والخـطابة، من أهم المظاهر التي تحـدد لنا معالم العقليـة الجاهلية وتعطينا فكرة عامة عن ثقافـة العرب قبل الإسلام. ولم يصلنا الشعر الجاهلى مدونًا فى الجـاهلية ولكنه وصلنا مدونا فى الإسلام بنقول الإسلاميين. وقـد بلغ عدد الشعراء الجاهليين الذين وصل إلينا شـعرهم حوالى ١٢٥ شاعرًا من أهمهم: المهلهل بن ربيعة، عنترة بن شداد، الحارث بن كعب، جذيمة الأبرش، وعامر بن الطفيل.

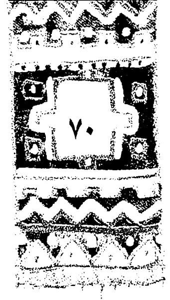
ومن الشعر الجاهلى قصائد عُرفت فى التاريخ باسم المعلقات السبع، ويزعم الرواة أن العرب اختارتـها من بين سائر الشعـر الجاهلى فكتبتـها بماء الذهب على القبـاطى ثم علقتها على الكـعبة إعجابًا بها وإشادة بذكرها، وقد بقى بعضها إلى يوم فتح مكة.

ولقد ازدهرت الفنون عـمومًا فى اليـمن، وخاصة الفن المعـمارى، وقد توافـرت فى اليمن أنواع من الأحجار الصالحة للبناء والنحت، كما توافرت فيها المواد المساعدة الأخرى التى تدخل فى إنشاء العـمائر. ولهذا قامت فى اليـمن القصور والبيـوت ذات الطوابق المتعددة، وأقيـمت السدود القوية التى تحملت على مر الزمن ضغط السيول العالى علـيها. وللأسف فقد دمرت معظم قصور اليمن، مثل قصر غمدان بصنعاء، وقصـر شمَّر بذى ريدان وقصور الأسر الحاكمة، كذلك هُدمت في العراق قصور الحيرة وبيوتها واستخدمت أحجارها فى بناء مدينة الكوفة عند تأسيسها.

ولا تملك المتاحف فى الوقت الحاضر تماثيل جاهلية بالحجم الطبيعى للإنسان مما خلفه الفنان فى الجاهلية، وقد تسبب فى إتلاف هذه التماثيل كونها أصناما. وقد اكتشفت حفريات اليمن تماثيل صغيرة لرجال ونسـاء وأطفال بعضها من الحجر وبعضـها من المعدن، وهى تكشف لنا عن عادات وتقاليـد المجتمع فى ذلك العـهد. كذلك الكشف عن أنواع الحلـى التى كانت المرأة اليمنيـة تتزين بها، كذلك الكشف عن بعض ملبوسات ذلك العهد.

وقد عثر المنقـبون والباحثون عن الآثار القديمة عـلى رسوم لبشر وحيوانات ونبـاتات نقشها الجاهليون على الصخور والحجارة، يرمز بعض منهـا إلى أمور دينية وأساطير قديمة، ويعبر البعض الآخر عن مواهب فنية عنـد حافرى هذه الصور، وقد كانت الوثنية تشـجع التصوير الذى لم يكن يتعارض معها، وكـانت الأصنام عماد عبادتها. وكانوا يقدمون القـرابين لها ويصنعونها فى بيوتهم لعبادتها والتـقرب إليها والتبرك بهـا، كما أنهم كانوا يمارسون الغناء ويعزفـون الألحان ويتغنون مع الموسيقى لما لذلك من صلة بأعيادهم وطقوسهم الدينية.

واشتـهرت الحيرة بقـصرها المعروف بالخورنق الذى بناه المـهندس سنمار، وارتبط باسم هذا القصر قصر آخر هو السدير، وكان ذا قبـاب ثلاث ويتألف من إيوان ينتهى إلى غرفة وعلى جانبيه

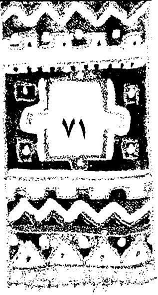


غـرفتـان ، وكان مـلوك اللخمـيين يقـيمـون فـيه قـبل الإسـلام. ومن الأماكن التى تنسب إلى ملوك الحيرة موضع يُعرف بالدوسر، كان من أحد أبنية ملوك الحيرة ثـم تملكه جعبر بن مالك، من بنى قشيـر، فعُرف بقلعة جـعـبـر، وكـان يقع على الشـاطئ الأيسر لنهر الفرات. وقـد تأثر فن بناء القصور فى الحيـرة ومـا والاها من قـصـور اللخـمـيين بالفن الساسانى الفارسى، كذلك تأثر تزيين ونقش بيوت الحيـرة بطريقة هذا الفن الفـارسى فى تزيين جدران القصور والبيوت ونقشها.



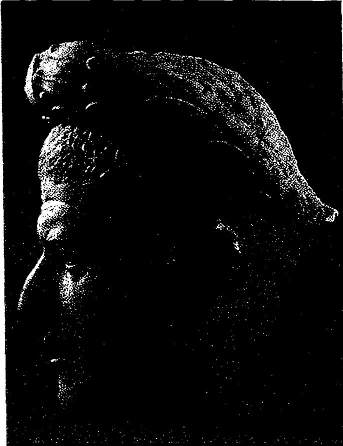
منحوتة جنائزية لسيدة

سوق عكاظ الذى كانت تلقى فيه الأشعار والخطب



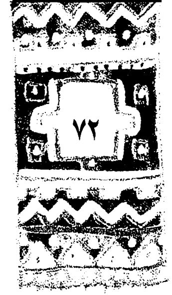
المصادر والمراجع

- القرآن الكريم.
- كتب الصحاح.
- كتب السنن.
- ابن هشام: السيرة النبوية.
- أحمد أمين: فجر الإسلام
- أحمد فخرى: اليمن، ماضيها وحاضرها.
- الأزرقى: أخبار مكة وماجاء فيها من الآثار.
- جواد على: المفصل فى تاريخ العرب قبل الإسلام.
- چورچى زيدان: العرب قبل الإسلام.
- رود كاناكيس: الجزيرة العربية قبل الإسلام، ترجمة فؤاد حسنين على.
- ابن سعد: الطبقات الكبرى.
- سعيد الأفغانى: أسواق العرب فى الجاهلية والإسلام.
- سيد الناصرى: الروم، تاريخهم وحضارتهم وعلاقتهم بالمشرق العربى.
- ابن شبة: أخبار المدينة.
- الطبرى: تاريخ الرسل والملوك.
- عبد الله حسن مصرى: الجزيرة العربية قبل الإسلام.
- عبد الوهاب النجار: قصص الأنبياء.
- عطية القوصى: تاريخ العرب وحضارتهم قبل الإسلام.
- فيليب حتى: تاريخ سوريا ولبنان، ترجمة چورج حداد.
- محمود عرفة: العرب قبل الإسلام.
- الهمدانى: صفة جزيرة العرب.
- ياقوت: معجم البلدان.



فيليب العربى (٢٤٤-٢٤٩م)
إمبراطور الروم من أصل عربى


المحتويات


٧٢

Abstract

The reader might not be aware of the conditions of Arabia before the rise of Islam. That period is usually referred to as Jahilya, a term which is linked with ignorance, darkness, and tribalism.

The author underlines some important facts about the Arabs of that era.

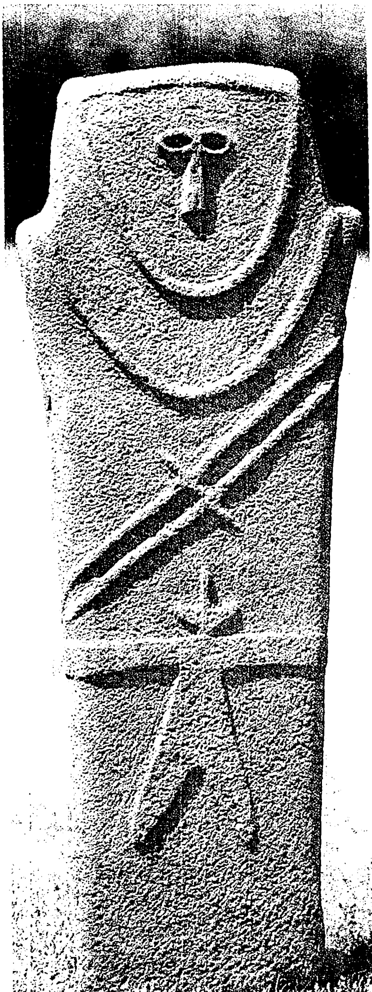
There were indeed some parts of the Arabian Peninsula which had social, economic, and cultural institutions. It should be stressed that Islam came to unify the Arabs round the word of God and His Prophet, who is the seal of all Prophets.

However, the book is intended to highlight a brief history of the kingdoms in classical Arabia, such as, Aad, Thamoud, Sabaa, Maaen, and Hemyar, beside the small buffer States on the borders with the Persian and Byzantine Empires, such as Mundirs, and Ghassanids.

Dr. Attia El - Qossi

(1)

Pre - Islamic Arabia



Dr. Attia El - Qossi

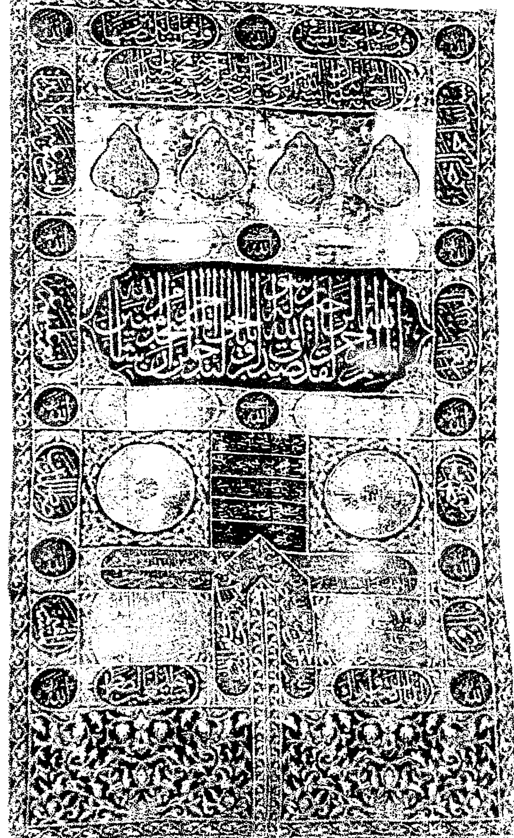


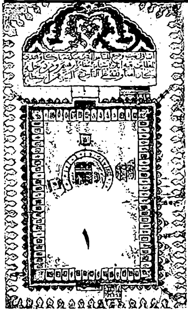
تأليف

د. عبد الشافى محمد عبد اللطيف

أستاذ التاريخ الإسلامى

كلية اللغة العربية -جامعة الأزهر





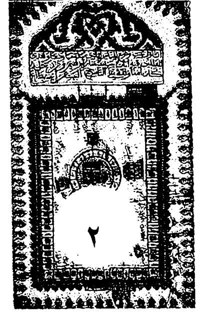
مقدمة

الحمد لله رب العالمين، والصلاة والسلام على خاتم المرسلين، وبعد.

فى الصفحات التالية موجز لتاريخ مكة المكرمة منذ نشأتها حتى وفاة الرسول ﷺ ومكة المكرمة هى أم القرى، والبلد الأمين، الذى أقسم به الله تعالى فى كتابه العزيز، والتى قامت حول أول بيت وضع للناس فى الأرض لعبادة الله وحده، وهى أحب بلاد الله إلى الله ورسوله ﷺ.

لقد ارتبطت نشأة مكة المكرمة بإعادة بناء البيت الحرام - الكعبة المشرفة - على يد أبى الأنبياء، إبراهيم وابنه إسماعيل عليهما السلام، وقبل هذا لم يكن لمكة وجود، وبدأ وجودها عندما ظهر ماء بئر زمزم تكرمة من الله تعالى لهاجر وابنها إسماعيل، فعندئذ تنبهت قبيلة جرهم اليمنية لوجود الماء فى مكان لم يكن مألوفا أن يوجد فيه واستأذنوا هاجر أن يقيموا معها فى المكان لينتفعوا بالماء فأذنت لهم، فبدأوا يقيمون مساكنهم فكانت هذه أول نشأة مكة المكرمة، ولما شب إسماعيل عليه السلام واشترك مع أبيه إبراهيم الخليل عليه السلام فى بناء الكعبة المشرفة، ثم تزوج من قبيلة جرهم، ثم كان هو المسئول عن شؤون الكعبة الدينية، بينما كانت قبيلة جرهم مسئولة عن الشؤون الأخرى كالأمور الاقتصادية والاجتماعية.. إلخ.

ظلت قبيلة جرهم تهيمن على أمور مكة - التى أصبحت مقصد كل العرب لزيارة البيت والتجارة فترة من الزمن، ثم ضعف شأنها فحلّت محلها قبيلة يمنية أخرى هى قبيلة خزاعة، وظلت كذلك تهيمن على أمور مكة إلى أن ضعفت هى بدورها وجاء دور قصى بن كلاب بن مرة الجد الرابع للرسول محمد ﷺ، الذى جمع قريشا من البوادى وأسكنهم مكة، وفى عهد قصى خطت مكة خطوات كبيرة نحو النمو والازدهار، فقد أنشأ العديد من التنظيمات الدينية كالسقاية والرفادة والسدانة وكلها مرتبطة بالكعبة المشرفة، ثم أنشأ دار الندوة، الذى كان أشبه بدار برلمان أو حكومة لقريش، ثم تابع أبناؤه وأحفاده مسيرته فى النهوض بأمر مكة المكرمة التى أصبحت إلى جانب مكانتها الدينية أهم مركز تجارى فى بلاد العرب، وأنشأت علاقات خارجية مع الدول الكبرى المجاورة، مثل الفرس والروم، ثم جاء دور عبد المطلب بن هاشم جد الرسول ﷺ، الذى كان أبرز زعماء مكة والذى أكرمه الله تعالى بأن أعاد حفر بئر زمزم مرة أخرى على يديه - بعد أن



كانت قبيلة جرهم قد ردمتها - وفى عهد عبد المطلب كان الغزو الحبشى لمكة المكرمة بهدف هدم الكعبة، وكان ذلك نحو عام ٥٧٠م وهو العام الذى ولد فيه النبى ﷺ وهو المعروف بعام الفيل، وكما هو معروف فقد مات والده عبد الله بن عبد المطلب قبل أن يولد هو، ثم ماتت أمه وهو فى السادسة من عمره، فرعاه جده عبد المطلب ولما توفى كفله عمه أبو طالب، واشتغل هو برعى الغنم ليشارك فى نفقة معيشته، ولما كبر اشتغل بالتجارة، ومن أشهر أعماله رحلته إلى الشام فى تجارة خديجة بنت خويلد، التى رغبت فى الزواج منه، لما اشتهر به بين قومه من الصدق والأمانة، وتم الزواج وأنجب منها ولدين وأربع بنات، ولقد كان يشارك قومه فى شؤونهم العامة، فقد اشترك فى بناء الكعبة، ثم شهد حلف الفضول . .إلخ.

ولما بلغ الأربعين من عمره جاءه الوحى بالرسالة الإسلامية فى غار حراء فى لحظة خالدة من شهر رمضان، فعاد إلى بيته وبلغ خديجة بما حدث معه وأفضى إليها بما كان يحس فى نفسه من الخوف ولكنها طمأنته، وكانت أول من آمن به، ثم تبعها على بن أبى طالب - الذى كان يعيش معهما - ثم تبعهما مولاه زيد بن حارثة، ومن خارج الأسرة أبو بكر الصديق، وتتابع دخول السابقين الأولين فى الإسلام، وكان الرسول ﷺ يجتمع بهم سرا فى دار الأرقم ثم أمره ربه بالجهر بالدعوة، وهنا جن جنون قريش ووقف معظم رجالها موقف العداء المطلق من الرسول ﷺ ودعوته، وآذوه وعذبوا أصحابه، فهاجر إلى يثرب - المدينة المنورة - حيث استقبل أعظم استقبال من الأنصار، وعلى الفور بدأ فى بناء الدولة الإسلامية، بسلسلة من الإجراءات، مثل تأسيس المسجد والمؤاخاة بين المهاجرين والأنصار، ثم المعاهدة مع اليهود، واضطر إلى خوض سلسلة من الحروب مع أهل مكة توجت بانتصاره العظيم عليهم وبفتحها، ذلك الفتح العظيم الذى عاملهم فيه بتسامح عظيم وعفى عنهم فأسلموا جميعا، وأصبحوا جند الله الفاتحين، وبفتح مكة فتحت كل السبل أمام الإسلام لينتشر فى بلاد العرب ثم فى العالم فيما بعد.

وفى شهر ذى الحجة من العام العاشر الهجرى، زار النبى ﷺ مكة المكرمة لآخر مرة وأدى فريضة الحج وودع أمته، لأنه بعد عودته من مكة بعدة شهور فاضت روحه الطاهرة إلى بارئها فى الثانى عشر من شهر ربيع الأول سنة ١١ هـ بعد أن بلغ رسالته وأدى أمانته، وترك أمته على المحجة البيضاء ليلها كنهارها، لا يزيغ عنها إلا هالك فجزاه الله خير ما جزى نبيا عن أمته.

وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين.

المؤلف

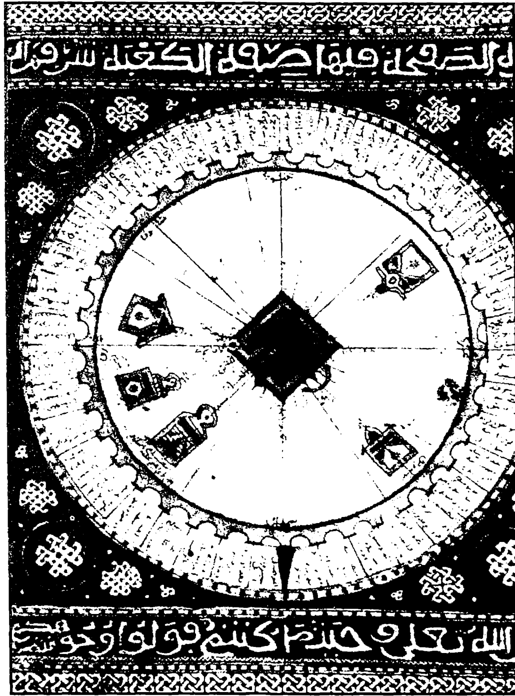


نشأة مكة المكرمة

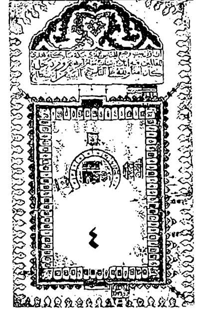
ارتبطت مكة المكرمة من حيث نشأتها وتطورها بوجود الكعبة المشرفة فى ذات المكان الذى قامت فيه، فقبل تجديد الكعبة المشرفة على أيدى إبراهيم - أبى الأنبياء - وابنه إسماعيل عليهما السلام لم يكن لمكة المكرمة وجود لأن المكان الذى نشأت فيه بعد تجديد الكعبة المشرفة لم يكن يصلح للإقامة الدائمة، لافتقاره إلى شىء أساسى لا يستغنى عنه أى كائن حى، وهو الماء فلما وجد الماء الذى نبع من بئر زمزم أصبح المكان صالحا للسكنى والعمران، ومن هنا نشأت مكة المكرمة.

والكعبة المشرفة بنيت قديما - فى تاريخ موغل فى القدم لا يعلمه إلا الله تعالى - والذين أرخوا لها يذهبون إلى أن أول من بناها الملائكة وكانوا يطوفون حولها، ثم جدد بناءها آدم عليه السلام، عندما وجد ثم شيث ابنه، وهكذا ظل البناء قائما إلى أن غمره طوفان نوح عليه السلام، فيما غمر من الأرض.

وظل مكانها مجهولا لا يعلمه أحد إلى أن شاء الله تعالى تجديدها وإعادة بنائها فدل إبراهيم عليه السلام على المكان الذى قامت فيه الكعبة المشرفة من جديد، يقول الله تعالى: **﴿وَإِذْ بَوَّأْنَا لِإِبْرَاهِيمَ مَكَانَ الْبَيْتِ... (٢٦)﴾** [الحج]، والمفسرون يقولون: بوأنا لإبراهيم مكان البيت يعنى دللناه عليه وحددناه له.. إذن عمل إبراهيم وابنه إسماعيل عليهما السلام لم يكن هو الإنشاء الأول للكعبة، وإنما كان تجديدا لبناء كان قائما قديما؛ لأن الله تعالى أخبرنا فى كتابه العزيز أن الكعبة هى أول بيت وضع للناس فى



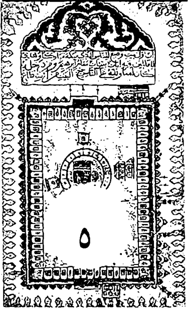
مخطوط مؤرخ بسنة ٩٥٨هـ/ ١٥٥١م يصور الكعبة المشرفة مركزا للعالم الإسلامى



الأرض، ولما كان الأمر كـذلك فليس من المعقول أن يكون إبراهيم علـيه السلام هو أول من بناها؛ لأنه كان قـبل إبراهيم عليه السـلام أنبياء ومـرسلون، وكانوا يعبدون الله تعالى فى بيوت، فقد كان نـوح وهود وصالح عليهم جميعا أفضل الصـلاة والسلام قـبل إبراهيم، وكانوا يـعبـدون الله تعالى ويأمـرون أقوامـهم بعبادته، ومن الطبيعى أن يكون ذلك فى بيوت عبادة، ثم إن تاريخ إبراهيم عليه السلام أصبح مـعروفا لنا بشكل جلى، فهـو كان موجودا فى القـرنين العشرين والتاسع عـشر قبل مـيلاد المسيح عليـه السلام، ومعنى ذلك أن بيـننا وبينه مدة تاريخية تقرب من أربعة آلاف عام، وليس مـعقولا أنه قبل هذه الآلاف الأربعة من الأعوام - وهى مدة قصـيرة للغاية فى عمر الزمن - لم يكن عـلى الأرض بيوت يعبد الله فيـها، إذن الأولية التى أشار إليهـا القرآن الكريم بالنسبة للكعبـة المشرفة تنصرف إلى بناء سابـق على وجود إبراهيم عليه السلام بزمن طويل، وأن عمل إبراهيم عليه السلام هو تجديد، ورفع لـقواعد البيت من جديد كما قال الله تعالى فى كتابه العزيز: ﴿ **وَإِذْ يَرْفَعُ إِبْرَاهِيمُ الْقَوَاعِدَ مِنَ الْبَيْتِ وَإِسْمَاعِيلُ رَبَّنَا تَقَبَّلْ مِنَّا إِنَّكَ أَنتَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ (١٢٧)** ﴾ [البقرة].

ذهاب إبراهيم إلى المكان أول مرة

إبراهيم عليه السلام ولد فى أور - جـنوب العراق - ولما كلفه الله تعالى بالرسالة كـما تقول المصادر الدينية؛ وأهمـها هنا القرآن الكريم ثم التوراة وقف قومـه ضده ولم يؤمنوا به وفى النهاية قرروا قتله بأبشع طريقة، وهى تحريقـه بالنار، لكن الله تعالى نجاه، وقال للنار: ﴿ **...كُونِي بَرْدًا وَسَلامًا عَلَىٰ إِبْرَاهِيمَ (٦٩)** ﴾ [الأنبيـاء]، على أثر ذلك هاجر مـن جنوب العراق إلى شـماله - إلى منطقة حاران، وهى حرّان الحالية - ثم هاجر إلى فلسـطين، ثم قام بزيارة إلى مصـر، طلبا للميرة - أى الطعام - لأن الجـوع فى أرض فلسطين كان شـديدا - كما تقـول التوراة: ولما عاد من مـصر ومعه هاجـر - الجارية التى أهديت له أو لزوجه سارة، ولما كانت سـارة لم تلد له ولدا حتى ذلك التاريخ - كان عمـره ستة وثمانين عاما - فقـد نصحته وهى ابنة عمه وتعـرف حنينه ورغبته فى أن يكون له ولد - نصحته بأن يتزوج هاجر المصرية، عسى الله أن يرزقه منها بولد تقر به عينه، فقبل النصيـحة وتزوج هاجر وأنجب منها ابنه إسـماعيل عليـه السلام، وهنا - كما تقـول التوراة - دبت الغيرة فى نفس سارة تجاه هاجر، التى أنجبت لإبراهيم ولدا، وطلبت منه أن يبعدها عنها، لأنها لم تعد تطيق رؤيتهـا فاستجاب لمطلبـها وذهب بهاجر وابنها وأسكنهـا فى المكان الذى وصفه الله فى



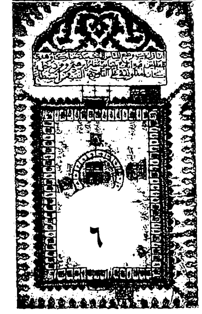
القرآن الكريم على لسان إبراهيم بقوله: ﴿ رَّبَّنَا إِنِّي أَسْكَنتُ مِن ذُرِّيَّتِي بِوَادٍ غَيْرِ ذِي زَرْعٍ عِندَ بَيْتِكَ الْمُحَرَّمِ رَبَّنَا لِيُقِيمُوا الصَّلَاةَ فَاجْعَلْ أَفْئِدَةً مِّنَ النَّاسِ تَهْوِي إِلَيْهِمْ وَارْزُقْهُم مِّنَ الثَّمَرَاتِ لَعَلَّهُمْ يَشْكُرُونَ (٣٧) ﴾ [إبراهيم].

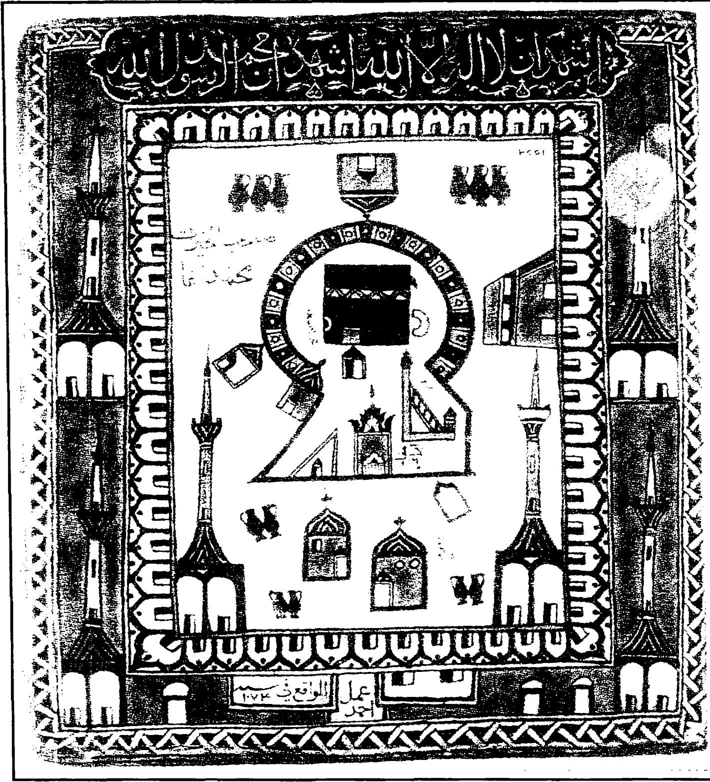
السبب الحقيقى لما صنعه إبراهيم

إن ذهاب إبراهيم عليه السلام بزوجه هاجر وابنه الطفل الرضيع إسماعيل من فلسطين إلى الحجاز وتركهما فى هذا المكان القفر الذى لا أنيس فيه ولا جليس لا يعقل أن يكون بسبب غيرة سارة من هاجر؛ لأن المسافة بين فلسطين والحجاز تبلغ نحو ألف كيلو متر، فهى مسافة بعيدة من ناحية، ومن ناحية أخرى فإسكان امرأة وطفل رضيع فى مكان كهذا وحدهما أمر يتنافى مع النخوة والرجولة، وإبراهيم عليه السلام هو أبو الأنبياء وأبو الرجال، إذن لابد أن ما فعله إبراهيم كان بأمر من الله ولحكمة يعلمها هو وحده سبحانه وتعالى؛ لأن أمر غيرة سارة من هاجر كان يمكن حله بأيسر من هذا، فقد كان فى إمكان إبراهيم عليه السلام أن يؤجر لهاجر بيتا فى حى آخر من أحياء المدينة التى كان يعيش فيها فى فلسطين، وهى مدينة الخليل ـ حبرون ـ بحيث تكون هى وابنها قريبين منه وتحت رعايته، أما أن يذهب بهما إلى الحجاز ذلك المكان البعيد ـ فهذا هو الذى يحتاج إلى فهم الحكمة منه، وهى أن الله تعالى أراد تجديد بيته المحرم، وعلى أيدى إبراهيم بالذات؛ لذا أمره أن يذهب بهما ويسكنهما هناك؛ تمهيدا للحدث العظيم وهو إعادة بناء الكعبة.

هاجر تسأل ابراهيم

لما ذهب إبراهيم عليه السلام بزوجه هاجر وابنه إسماعيل ـ وكان الحادى بهم الذى دلهم على المكان هو جبريل عليه السلام ـ قالت هاجر لإبراهيم بعد أن نصب لهما الخيمة وهمَّ بالرجوع: «يا إبراهيم إلى أين أنت ذاهب وتتركنا فى هذا المكان الذى لا أنيس فيه ولا شىء، فلم يرد عليها، فكررت عليه السؤال ثلاث مرات، وبعد الثالثة لما لم تتلق منه ردا، قالت له: «آلله أمرك بهذا؟» قال: «نعم» قالت: «إذن فلن يُضَيِّعنا»، وهذه هى قمة الإيمان بالله والثقة فى معيته





بلاطة خزفية تصور الكعبة وما حولها - عمل أحمد الواقع سنة ١٠٧٤هـ/ ١٦٦٣م

التى لا يخيب ولا يضيع من يركن إليها، هنا تروى المصادر أن جبريل عليه السلام قال لها: «يا هاجر هنا بيت الله يبنيه هذا الغلام وأبوه» هذا هو السبب الحقيقى لمجىء إبراهيم عليه السلام بزوجه وابنه إلى هذا المكان الذى علم الله أنه سيكون مهبط آخر وحيه على خاتم أنبيائه ورسله محمد بن عبد الله ﷺ.

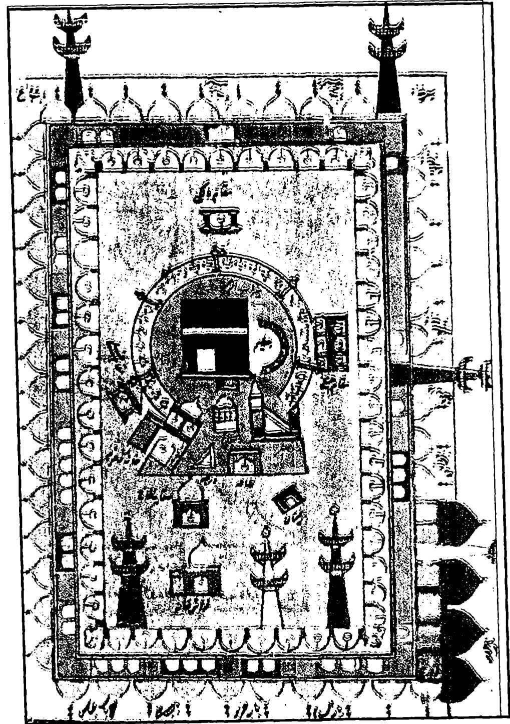


تروى المصادر أن هاجر لما تركها إبراهيم عليه السلام هى وابنها إسماعيل عليه السلام وعاد إلى فلسطين نفد ما معها من الماء وعطشت وعطش وليدها واستبد بها القلق على وليدها ـ ربما أكثر من نفسها ـ فأخذت تبحث عن الماء فى مكان هى أول من يعلم أنه لا يوجد به ماء، ولكنها اللهفة على الابن ومحاولة إنقاذه من الهلاك عطشا جعلتها تبحث وتهرول بين الصفا والمروة هرولة أصبحت ركنا من أركان الحج وهو السعى بين الصفا والمروة، هنا جاءها جبريل عليه السلام وحفر لها زمزم.



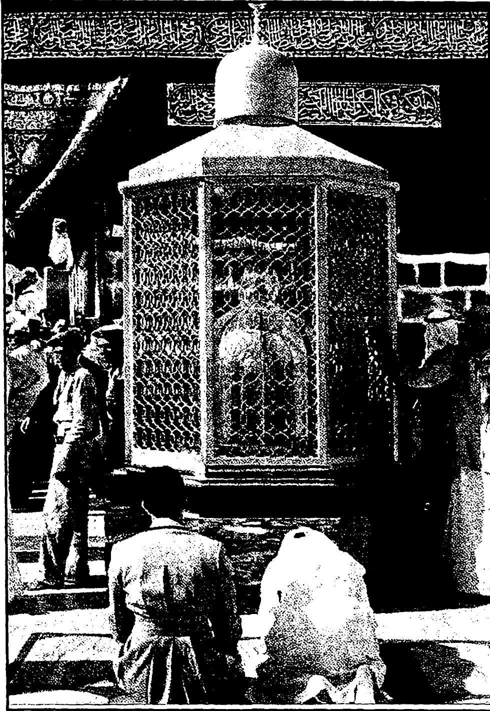
نبع الماء من المكان الذى سمى بئر زمزم، وهو ماء له خصائص خاصة؛ روى عن جعفر الصادق رضى الله عنه أنه قال: «كانت زمزم من أطيب المياه وأعذبها وألذها وأبردها» وروى أن النبى ﷺ قال: «ماء زمزم لما شرب له» ويفسر مجاهد هذا الحديث بقوله: «ماء زمزم إن شربت منه تريد شفاء شفاك الله، وإن شربت لظمأ رواك الله، وإن شربت لجوع أشبعك الله» ويروى أن الرسول ﷺ قال: «ماء زمزم خير ماء على وجه الأرض».

بناء الكعبة المشرفة

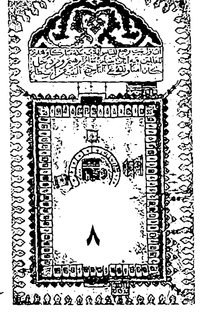


رسم تخطيطى للحرم الشريف

فى مكة المكرمة



مقام سيدنا إبراهيم عليه السلام



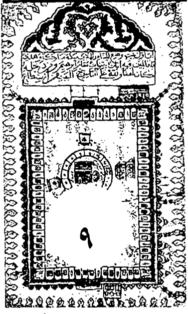
قبل أن نتحدث عن نشأة مكة المكرمة وعـمن أنشأها ينبغى لنا أن نتحدث عن بناء إبراهيم وابنه إسمـاعيل عليهما السـلام الكعبة المشرفـة وكيف كان ذلك البناء وكيف تطـور وجـدد بعد ذلك إلـى الوقـت الحاضـر، سـبق أن ذكـرنا أن الكعبة المشـرفـة هى أول بـيت وضع للنـاس فى الأرض كما أخبر الله تعالى فى كتـابه العزيز: ﴿**إِنَّ أَوَّلَ بَيْتٍ وُضِعَ لِلنَّاسِ لَلَّذِي بِبَكَّةَ مُبَارَكًا وَهُدًى لِّلْعَالَمِينَ (٩٦) فِيهِ آيَاتٌ بَيِّنَاتٌ مَّقَامُ إِبْرَاهِيمَ وَمَن دَخَلَهُ كَانَ آمِنًا وَلِلَّهِ عَلَى النَّاسِ حِجُّ الْبَيْتِ مَنِ اسْتَطَاعَ إِلَيْهِ سَبِيلاً... (٩٧)**﴾ [آل عمران].

وفى الحديث الصحيح الذى يرويه الإمام البـخارى عن أبى ذر الغفارى رضى الله عنه قال: «قلت يا رسول الله: أى مسجد وضع فى الأرض أول؟ قـال: المسجد الحرام قلت: ثم أى؟ قال: المسجد الأقصى قلت: كم بينهما؟ قال: أربعون سنة..؟».

هذه الكعبـة المشرفـة، وهى بيت الله الحرام الذى فضله علـى بقاع الأرض كلها، وخـصه بفضائل كثيرة، منها أنه جعله مثابة للناس وأمنا، فهو مكان يأمن فيه الناس والحيوان والطير وحتى الشجر، ومن خصائصه مضاعفة الثواب فيه أضعافا كـثيرة. فالركعة فيه تعدل مائة ألف ركعة فيما سواه من المساجد ـ عدا المسجد النبوى والمسجد الأقصى ـ كما أخبر النبى ﷺ.

لما أمر الله تعـالى إبراهيم عليه السلام بإعـادة بناء الكعبة بناهـا بناء مدورا من جهة حـجر إسماعيل، وجعل ارتفاعها تسعة أذرع ـ نحوا من أربعة أمتار ـ ولم يكن لها سوى ركنين، الأسود واليمانى، ولم يجعل لها سقفا، وجعل لها بابا واحدا ملتـصقا بالأرض من جهتها الشرقية، وكان هذا الباب مفتوحا يعنـى مجرد فتحة، ولم يجعل لها كسوة وعمل حـفرة على يمين الداخل إليها عمقـها نحو ثلاثة أذرع، كانت تسـمى خزانة الكعبة وأمـام باب الكعبة إلى اليمين قلـيلا تقع بئر زمزم، وأمام الجدار الشرقى يقع مقام إبـراهيم عليه السلام وهو الحجر الذى كان يقف لإتمام البناء عندما ارتفع عن الأرض، وكان إسمـاعيل عليه السلام يناوله الحجارة، أما الحـجر الأسود فمكانه الركن الجنوبى الشـرقى ويرتفع عن الأرض بنحو مـتر ونصف، ومنه يبـدأ الحجـاج الطواف حول الكعبة.

وبعد أن أتم إبراهيم البناء أمره الله أن يؤذِّن فى الناس بالحج، حيث قال تعالى: ﴿**وَأَذِّن فِي النَّاسِ بِالْحَجِّ يَأْتُوكَ رِجَالاً وَعَلَىٰ كُلِّ ضَامِرٍ يَأْتِينَ مِن كُلِّ فَجٍّ عَمِيقٍ (٢٧)**﴾ [الحج]، وهنا تروى كتب التفسير أن إبراهيم عليه السلام قال: «يا رب وما يبلغ صوتى» فقال الله له: «أذن يا إبراهيم وعلىَّ البلاغ» فوقف على جبل أبى قبيس، وأخـذ ينادى: «أيها الناس إن الله كتب عليكم الحج فحجوا



فأسمع من فى أصلاب الرجال وأرحام النساء وأجابه من آمن وسبق فى علم الله تعالى أنه يحج إلى يوم القيامة قائلين: «لبيك اللهم لبيك».

الكعبة بعد إبراهيم عليه السلام:

المنطقة التى بنيت فيها الكعبة المشرفة تكثر فيها السيول، التى كثيرا ما هدمتها، الأمر الذى تطلب إعادة بنائها مرات عديدة، بعد بناء إبراهيم عليه السلام فقد أعادت بناءها قبيلة جرهم، وقصىّ بن كلاب الجد الرابع للرسول محمد ﷺ، وهو أول من عمل لها سقفا من خشب الدوم وجريد النخل.

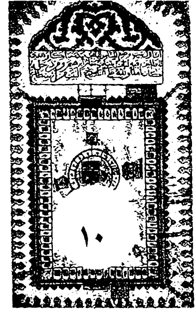
ثم أعادت قريش بناءها على أثر تهدمها بسبب السيول، وكان ذلك قبل بعثة النبى ﷺ بخمسة أعوام، وقد تعاهدت بيوت قريش على ألا يدخل فى بنائها من أموالهم إلا ما كان من كسب حلال، وهذا يدل على تعظيمهم وتقديسهم لها، وقد زادوا فى ارتفاعها فجعلوه مثلى بناء إبراهيم عليه السلام - يعنى ثمانية عشر ذراعا - ورفعوا بابها عن الأرض بمقدار مترين وجعلوا لها سلما من الداخل يصعد عليه إلى السطح وجعلوا للسطح ميزابا لتصريف مياه الأمطار، وكان يصب فى حجر إسماعيل الذى أخرجوه من بناء إبراهيم لما قصَّرت بهم النفقة لاشتراطهم ألا يدخل فى البناء إلا مال حلال، وقد شارك النبى ﷺ - قبل أن يبعث - فى هذا البناء، وهو الذى وضع الحجر الأسود فى مكانه، وبذلك حسم الخلاف الذى كاد يؤدى إلى حرب بين بطون قريش بسبب التنافس على وضع الحجر فى مكانه.

بناء عبد الله بن الزبير:

ظلت الكعبة على بنائها ذلك ولم يحدث فيها تغيير بعد ظهور الإسلام إلى أن حدث الصراع بين الأمويين وعبد الله بن الزبير على الحكم واحترقت الكعبة من جرائه فأمر عبد الله بن الزبير بهدمها وإعادة بنائها، وزاد فى ارتفاعها فجعله سبعة وعشرين ذراعا وأدخل فيها حجر إسماعيل عليه السلام الذى كانت قريش قد أخرجته منها، يعنى أعادها إلى قواعد إبراهيم عليه السلام، واحتج لذلك بحديث عن النبى ﷺ سمعه من خالته أم المؤمنين عائشة رضى الله عنها، حيث قال لها الرسول ﷺ: «لولا حدثان قومك بكفر لرددت الكعبة على أساس إبراهيم، وأزيد فيها الحجر».

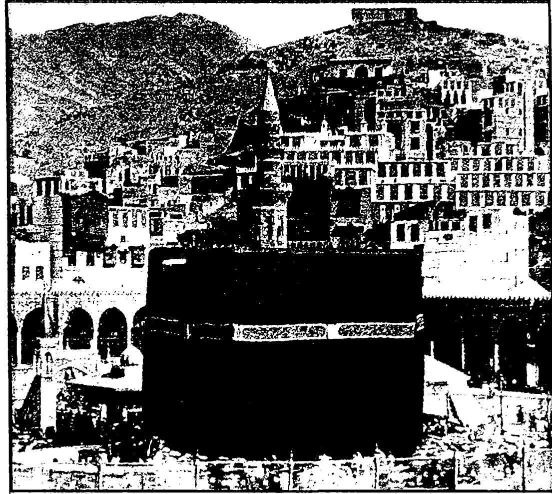
بناء الحجاج الثقفى:

بعد مقتل عبد الله بن الزبير سنة ٧٣هـ - ٦٩٢م كتب الحجاج بن يوسف الثقفى الذى كان أمير الحجاز عندئذ إلى الخليفة عبد الملك بن مروان يعلمه أن عبدالله بن الزبير قد أدخل فى الكعبة ما ليس منها، واستأذنه أن يردها إلى ما كانت عليه، فأذن له فهدمها وأعاد بناءها كما كانت وأخرج منها الحجر.





موكب الحجيج - لوحة من القرن الثامن عشر الميلادى



صورة قديمة للكعبة المشرفة

فى مكة المكرمة

ويبـدو أن الدافع إلى ذلك كـان سياسيـا يعنى هدم ما بناه خصم الأمويين بدليل أن عـبد الملك بن مـروان ندم على ذلك، وقال: «وددت لو بقـيت على بناء ابن الزبيـر لما سـمع أنه استـدل بحـديث عائشة السابق ذكره.

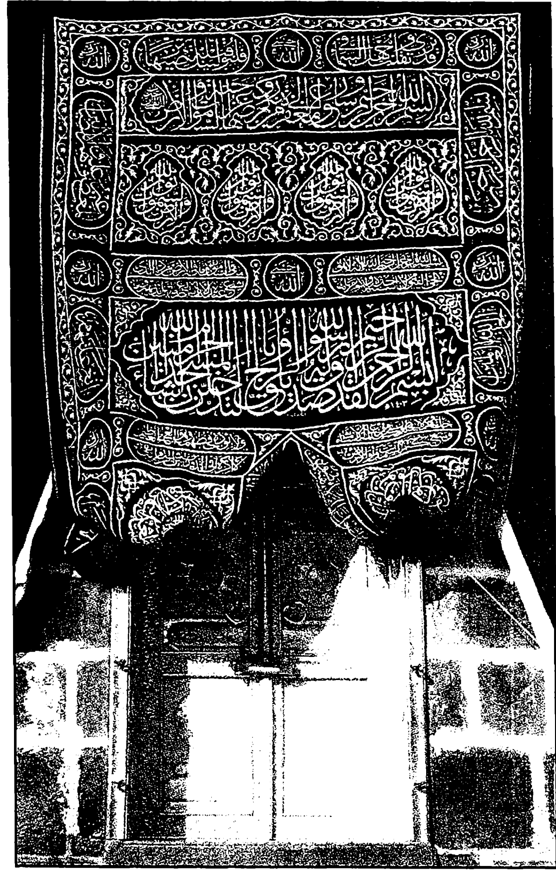
الكعبة بعد بناء الحجاج:

بقـيت الكعـبة المـشرفـة بعـد بناء الحجاج على حالها، وبقى الحجر خارجها إلى الآن، ولم يتـعـرض أحـد من حكام المسلمين لتـغيير قـواعدها، احتفـاظا لها بهيـبتـها حتى أن الخليـفة هارون الرشـيد (١٧٠-١٩٣هـ)/ (٧٨٦- ٨٠٨م) لما أراد أن يهدمهـا ويردها إلى بناء عبد الله بن الزبيـر، استشار فى ذلك الإمام مـالك بن أنس فنهاه عن ذلك وقال له: «نشدتك الله يا أمير المؤمنين ألا تجـعل بيت الله ملعبة للملوك، لا يشاء أحد منهم أن يغيِّره إلا غيَّر، فـتذهب هيبته من قلوب الناس، فأخذ الخليفة بـرأى الإمام مالك فظلت الكعبة على حالها دون أن تمس، حـتى أنه لما تصدع جدارها الشرقى فى عـهد السلطان العثمـانى أحمد الأول ١٠٢٦هـ/ ١٦١٧م وأراد أن يهدمـها ويعيد بناءها، فـمنعه العلماء من ذلك وأشـاروا عليه بعمل نطاقـين ـ أى حزامين ـ من نـحاس، طليا بالذهب وشـدها بهما، وفى شـهر شعـبان سنة ١٠٣٩هـ/ ١٦٢٩م نزل مطر غزير بمكة المكرمـة تسبب فى هدم الكعبـة، فأمر السلطان العثـمانى



مراد الرابع بإعادة بنائها على قواعدها دون تغيير، وتم البناء فى رمضان سنة ١٠٤٠هـ/ ١٦٣٠م ولا تزال على حالها إلى الآن.

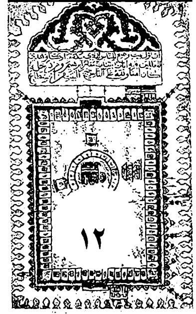
هذا وصف موجز للغاية للكعبة المشرفة ـ زادها الله تعظيما وتشريفا ـ ذلك البناء الشامخ المهيب، الضارب فى أعماق التاريخ، والذى يقع فى مركز الكرة الأرضية ـ كما يؤكد ذلك علماء الجغرافيا والفلك، وتقع الكعبة المشرفة حاليا فى وسط المسجد الحرام بمكة المكرمة ـ تقريبا - ويبلغ ارتفاعها نحوا من خمسة عشر مترا وطول جداريها الشرقى والغربى نحوا من اثنى عشر مترا، والشمالى والجنوبى نحوا من عشرة أمتار، وبابها مصنوع من الذهب الخالص وكسوتها من الحرير الطبيعى المصبوغ باللون الأسود تزينه آيات من القرآن الكريم، مكتوبة بخيوط من الذهب.



باب الكعبة - من الذهب - صُنع بأمر السلطان حسن فى العصر المملوكى

سماعيل عليه السلام والكعبة ومكة

كان إسماعيل بن إبراهيم الخليل ـ عليهما السلام ـ هو وأمه هاجر المواطنين الأولين فى مكة المكرمة، ذلك البلد الأمين الذى جعله الله تعالى حرما آمنا للناس جميعا، وشرفه بأن جعله أقدس وأطهر مكان على ظهر الأرض، لقد حظيت مكة المكرمة بدعاء إبراهيم الخليل ـ عليه السلام- لها ولأهلها بالأمن والبركة إلى يوم القيامة، فقد قال المفسرون إن إبراهيم عليه السلام بعد ما هيأ لزوجه هاجر وابنهما إسماعيل المقام فى المكان وعزم على العودة إلى فلسطين وسألته هاجر كيف

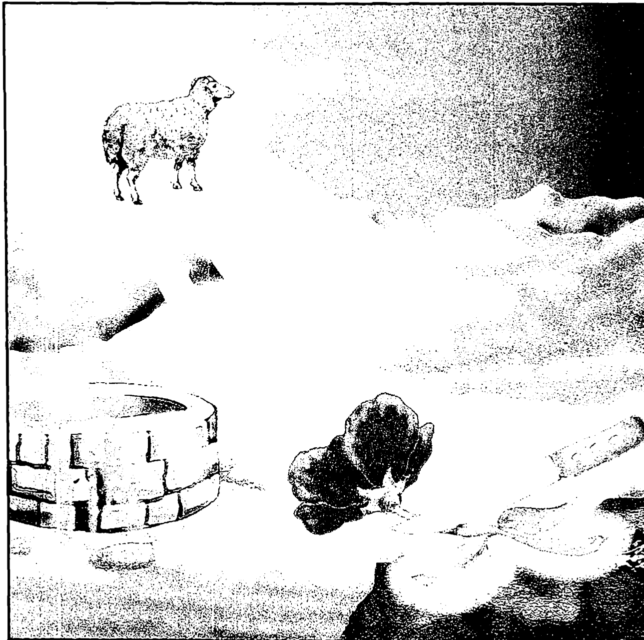


يتركهما وحدهما فى هذا المكان الموحش، فلما لم يرد عليها قالت له: آلله أمرك بها قال: نعم، قالت: إذن لا يضيعنا عندئذ.. وقف إبراهيم عليه السلام عند الثنية ودعا ربه قائلا: ﴿ رَبَّنَا إِنِّي أَسْكَنتُ مِن ذُرِّيَّتِي بِوَادٍ غَيْرِ ذِي زَرْعٍ عِندَ بَيْتِكَ الْمُحَرَّمِ رَبَّنَا لِيُقِيمُوا الصَّلاةَ فَاجْعَلْ أَفْئِدَةً مِّنَ النَّاسِ تَهْوِي إِلَيْهِمْ وَارْزُقْهُم مِّنَ الثَّمَرَاتِ لَعَلَّهُمْ يَشْكُرُونَ (٣٧) ﴾ [إبراهيم].

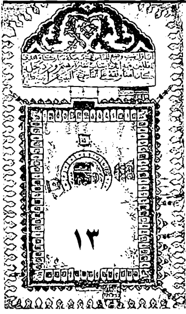
ثم تكرر دعاؤه لمكة كثيرا فى القرآن الكريم، فقد جاء على لسانه فى سورة إبراهيم نفسها التى وردت فيها الآية السابقة قوله: ﴿ وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّ اجْعَلْ هَذَا الْبَلَدَ آمِنًا وَاجْنُبْنِي وَبَنِيَّ أَن نَّعْبُدَ الأَصْنَامَ (٣٥) ﴾ [إبراهيم]، ثم جاء على لسانه فى سورة البقرة ﴿ .. رَبِّ اجْعَلْ هَذَا بَلَدًا آمِنًا وَارْزُقْ أَهْلَهُ مِنَ الثَّمَرَاتِ.. (١٢٦) ﴾.

لقد ارتبطت حياة إسماعيل عليه السلام بمكة المكرمة بصفة خاصة، وبشبه جزيرة العرب بصفة عامة، وبعث نبيا للعرب وكانت رسالته لمن سكن مكة من جرهم وغيرها، ولأهل اليمن فهو نبى ورسول كما أخبر بذلك القرآن الكريم فى أكثر من سورة، فقد جاء فى سورة مريم قوله تعالى: ﴿ وَاذْكُرْ فِي الْكِتَابِ إِسْمَاعِيلَ إِنَّهُ كَانَ صَادِقَ الْوَعْدِ وَكَانَ رَسُولاً نَّبِيًّا (٥٤) وَكَانَ يَأْمُرُ أَهْلَهُ بِالصَّلاةِ وَالزَّكَاةِ وَكَانَ عِندَ رَبِّهِ مَرْضِيًّا (٥٥) ﴾ [مريم].

إسماعيل عليه السلام هو الذبيح:



يقص علينا القرآن الكريم المحنة أو الابتلاء العظيم الذى تعرض له إسماعيل عليه السلام، حين أخبره أبوه إبراهيم الخليل أن الله أمره فى المنام أن يذبحه وكيف تقبل هو هذا الأمر الخطير بالإيمان والصبر كما أخبرنا الله سبحانه وتعالى حيث يقول على لسان إبراهيم وإسماعيل عليهما السلام: ﴿ وَقَالَ إِنِّي ذَاهِبٌ إِلَىٰ رَبِّي سَيَهْدِينِ (٩٩) رَبِّ هَبْ لِي مِنَ الصَّالِحِينَ (١٠٠) فَبَشَّرْنَاهُ بِغُلامٍ حَلِيمٍ (١٠١) فَلَمَّا بَلَغَ مَعَهُ



السَّعْيَ قَالَ يَا بُنَيَّ إِنِّي أَرَىٰ فِي الْمَنَامِ أَنِّي أَذْبَحُكَ فَانظُرْ مَاذَا تَرَىٰ قَالَ يَا أَبَتِ افْعَلْ مَا تُؤْمَرُ سَتَجِدُنِي إِن شَاءَ اللَّهُ مِنَ الصَّابِرِينَ (١٠٢) فَلَمَّا أَسْلَمَا وَتَلَّهُ لِلْجَبِينِ (١٠٣) وَنَادَيْنَاهُ أَن يَا إِبْرَاهِيمُ (١٠٤) قَدْ صَدَّقْتَ الرُّؤْيَا إِنَّا كَذَٰلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ (١٠٥) إِنَّ هَٰذَا لَهُوَ الْبَلَاءُ الْمُبِينُ (١٠٦) وَفَدَيْنَاهُ بِذِبْحٍ عَظِيمٍ (١٠٧) وَتَرَكْنَا عَلَيْهِ فِي الْآخِرِينَ (١٠٨) سَلَامٌ عَلَىٰ إِبْرَاهِيمَ (١٠٩) كَذَٰلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ (١١٠) إِنَّهُ مِنْ عِبَادِنَا الْمُؤْمِنِينَ (١١١) وَبَشَّرْنَاهُ بِإِسْحَاقَ نَبِيًّا مِّنَ الصَّالِحِينَ (١١٢) وَبَارَكْنَا عَلَيْهِ وَعَلَىٰ إِسْحَاقَ وَمِن ذُرِّيَّتِهِمَا مُحْسِنٌ وَظَالِمٌ لِّنَفْسِهِ مُبِينٌ (١١٣) ﴾ [الصافات].

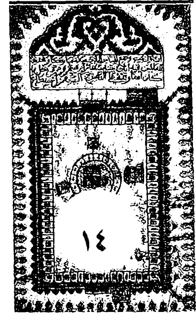
هذه الآيات الكريمة من الوضوح بحيث لا تحتاج إلى تفسير فى تأكيدها على قصة الذبح والفداء، وأن الذبيح هو إسماعيل عليه السلام سيما إذا تدبرنا مجىء بشارة إبراهيم بإسحاق بعد الانتهاء من قصة الذبح والفداء.

مما يدل دلالة قاطعة على أن إسحاق لم يكن قد وجد حين حدثت قصة الذبح والفداء، غير أن اليهود ـ كعادتهم فى قلب الحقائق وتحريف الكلم عن مواضعه ـ حاولوا أن يشيعوا أن الذبيح إسحاق لا إسماعيل مع أنهم يقرأون فى التوراة أن الله أمر إبراهيم عليه السلام أن يذبح ابنه بكره ووحيده، ومن المسلَّم به أن إسماعيل هو بِكْر إبراهيم بنص التوراة نفسها التى تقول نصوصها إن إبراهيم عندما أنجب إسماعيل كان فى السادسة والثمانين من عمره وعندما أنجب إسحاق كان قد بلغ المائة عام فمن إذن هو البكر الوحيد، أليس هو إسماعيل بنص التوراة؟.

إسماعيل يشارك أباه فى بناء الكعبة:

جاء فى كتب التفسير عند تفسير قوله تعالى: ﴿ **وَإِذْ يَرْفَعُ إِبْرَاهِيمُ الْقَوَاعِدَ مِنَ الْبَيْتِ وَإِسْمَاعِيلُ رَبَّنَا تَقَبَّلْ مِنَّا إِنَّكَ أَنتَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ (١٢٧)** ﴾ [البقرة].

أن إبراهيم عليه السلام قال لابنه إسماعيل عليه السلام: يا إسماعيل إن ربك عز وجل أمرنى أن أبنى له بيتا، فقال: أطع ربك عز وجل، قال: إنه أمرنى أن تعيننى عليه، قال: إذن أفعل.. فجعل إبراهيم يبنى وإسماعيل يناوله الحجارة وهما يقولان: ﴿ **...رَبَّنَا تَقَبَّلْ مِنَّا إِنَّكَ أَنتَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ (١٢٧)** ﴾ [البقرة] فلما ارتفع البناء احتاج إبراهيم إلى حجر يرتفع عليه فجاءه إسماعيل بحجر فقام عليه، فذلك هو مقام إبراهيم الذى كان ملتصقا بالبناء، وبعد الإسلام رأى عمر بن الخطاب رضى الله عنه فى خلافته أنه يعوق الناس فى الطواف حول الكعبة فأمر بإبعاده عنها فنقل إلى مكانه الذى هو فيه إلى الآن،.ولما بلغ البناء المكان الذى وضع فيه الحجر الأسود طلب إبراهيم من ابنه إسماعيل أن يبحث له عن حجر أسود يكون مميزا عن حجارة البناء حتى يبدأ الناس منه



الطواف، فذهب يبحث فلم يجـد، فعاد فوجد أباه قـد وضع الحجر فى مكانه، فسأله يا أبت من جاءك بهذا الحـجر؟ قال جاء به من هو أنشط منك، ويروى أن جبريل عليه السـلام أتى به من السماء، وقد أجريت دراسات علمية عليـه فتبين أنه من نوع من الصخور لا يوجد مثلها على الأرض.

بلاطة خزفية من دمشق سنة ١١٣٩هـ/ ١٧١٦م - عمل محمد الشامى بصورة مدينة مكة

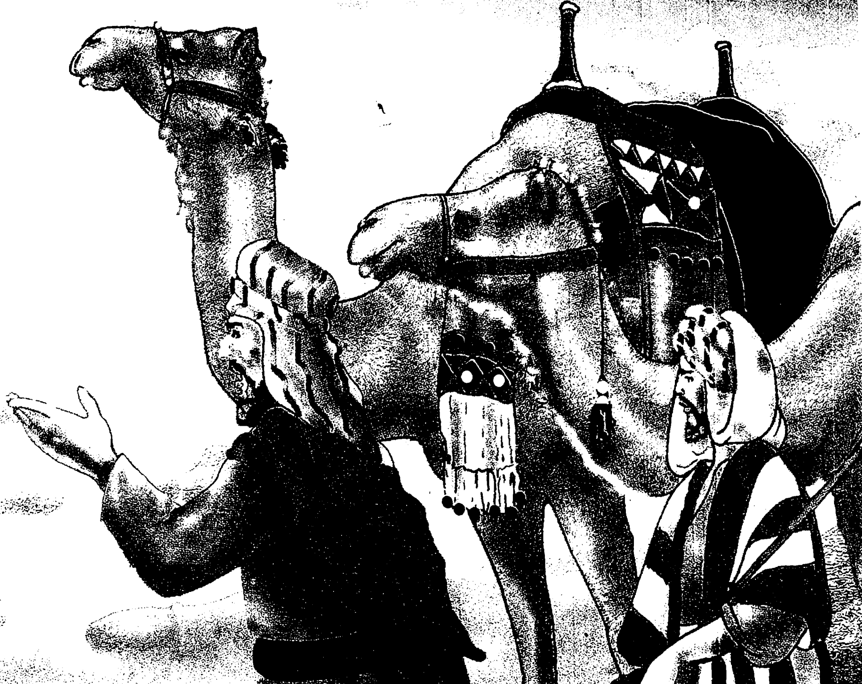


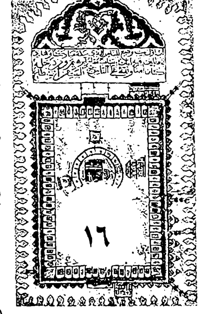
زواج إسماعيل من جرهم:

يقول المؤرخــون إن إسماعــيل عليه السلام تزوج أول مــرة من امرأة من العماليق هى عمارة بنت سعد بن أسامة بن أكيل العماليقى، ثم طلقها بناء على نصيحة أبيه وتزوج بعدها من بنت مـضاض بن عمرو الجرهمى فولدت له اثنى عشر ولدا ذكرا هم آباء العرب العدنانية ـ التى يسميها المؤرخون العرب المستعربة ـ ثم كانت له ابنة اسمها نسمة زوجها لابن أخيه عيصو بن إسحاق.

عاش إسماعيل عليه السلام حيـاته فى مكة المكرمة وأدى رسالته لأهلها ولمن حولهم، وكان من الطبـيعى أن يكون هو وأبناؤه المعـنيين بأمـر الكعبـة المشرفـة وكل ما يخـتص بها من سـدانة وحجابة.. إلخ، ولما توفى عندمـا بلغ السابعة والثلاثين بعد المائة دفن بالحجـر مع أمه هاجر التى كانت قد توفيت قبله.

جرهم والكعبة ومكة





قامت مكة المكرمة فى وادى الحجاز، وهو واد منبسط من أودية سلسلة جبال السراة التى تكاد تحيط به من كل جانب تقريبا وتتخلل هذه الجبال ثلاثة طرق، أحدها يصل مكة المكرمة باليمن، والثانى يصلها بالشام، والثالث يصلها بجدة على البحر الأحمر إلى الغرب منها.

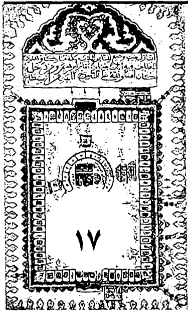
وتقع مكة تقريبا فى منتصف طريق القوافل الذى يربط اليمن بالشام، وقد كانت محلة - استراحة - لتلك القوافل قبل أن يأتى إليها إبراهيم عليه السلام بزوجه هاجر وابنه إسماعيل، ولكن منذ ذلك التاريخ ستصبح أعظم مركز دينى وأهم مركز تجارى فى كل شبه جزيرة العرب.

وقد سبقت الإشارة إلى أن إسماعيل عليه السلام وأمه هاجر كانا أول من سكن بالمكان وأقاما فيه، فهما أساس عمرانها وتطورها.

كانت قبيلة جرهم اليمنية من القبائل التى تمر بهذا المكان للاستراحة فلما جاءت بعد استقرار إسماعيل وأمه وتفجر الماء من بئر زمزم، رأت من بعيد الطيور تدور وتحوم حول المكان فقالوا: إن هذه الطيور لتدور على ماء، وعهدنا بهذا الوادى أن لا ماء فيه، فأرسلوا من يستطلع الأمر، فإذا بالطليعة تفاجأ بالماء فرجعوا وأخبروا قومهم بوجود الماء، فكانت فرحتهم عظيمة فأقبلوا فوجدوا هاجر عند بئر زمزم وكان من الطبيعى أن يسألوها عن وجود الماء فى مكان لا عهد لهم بالماء فيه، فأخبرتهم خبره فقالوا لها: (أتأذنين لنا أن ننزل عندك لنستفيد بالماء - قالت: نعم، ولكن لا حق لكم فى الماء قالوا: نعم) معنى ذلك أن هاجر قد سمحت لهم أن ينتفعوا بالماء فقط، دون أن يكون لهم حق فى تملكه وقد وافقوا هم على ذلك.

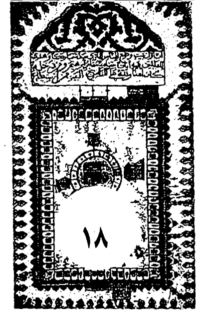
والحق أن هاجر كانت فى حاجة إلى من يؤنسها هى وابنها الصغير فى وحدتهم فرحبت بوجود هؤلاء العرب معها، وهم أرسلوا إلى أهليهم يخبرونهم بوجود الماء وبسماح هاجر لهم بالمقام معها هى وابنها، فجاءت أعداد كبيرة من جرهم وبدأوا يبنون المساكن، ومن هنا بدأت نشأة مكة المكرمة فى القرن التاسع عشر قبل الميلاد على أرجح الأقوال.

ولما كبر إسماعيل تزوج - كما سبقت الإشارة - من امرأة من العماليق الذين يبدو أنهم كانوا قريبين من المكان ثم طلقها وتزوج من بنت شيخ قبيلة جرهم؛ عمرو بن مضاض ومنها أنجب أبناءه الاثنى عشر، الذين هم آباء العرب العدنانيين - الذين يسميهم النسابة بالعرب المستعربة - ومن جرهم تعلم إسماعيل اللغة العربية أو بمعنى أدق نشأ وهو يتكلم اللغة العربية لأنهم عندما جاءوا إلى المكان واستأذنوا أمه هاجر فى المقام معها والانتفاع بالماء كان هو طفلا، فمن الطبيعى أن يشب وهو يعرف العربية.



كان أمر البيت الحرام ـ الكعبة ـ بيد إسماعيل عليه السلام طوال حياته، ثم استمر أبناؤه يقومون بمهامه بعد وفاته، غير أن أخوالهم من أبناء جرهم أبدوا رغبتهم فى مشاركتهم القيام بشؤون الكعبة، لما فى ذلك من الشرف والمجد والكرامة، وخصوصا بعد أن ذاع أمرها فى بلاد العرب وأخذوا يقصدونها من كل حدب وصوب، وأضيف إلى الناحية الروحية التى تمثلها الكعبة ناحية اقتصادية وأرباح طائلة أصبحت جرهم تجنيها من قوافل الحجيج فى الموسم، ويصور القرآن الكريم الأهمية الدينية والأهمية الاقتصادية لمكة المكرمة فى قوله تعالى: ﴿**وَأَذِّن فِي النَّاسِ بِالْحَجِّ يَأْتُوكَ رِجَالاً وَعَلَىٰ كُلِّ ضَامِرٍ يَأْتِينَ مِن كُلِّ فَجٍّ عَمِيقٍ (٢٧) لِيَشْهَدُوا مَنَافِعَ لَهُمْ وَيَذْكُرُوا اسْمَ اللَّهِ فِي أَيَّامٍ مَّعْلُومَاتٍ عَلَىٰ مَا رَزَقَهُم مِّنْ بَهِيمَةِ الأَنْعَامِ فَكُلُوا مِنْهَا وَأَطْعِمُوا الْبَائِسَ الْفَقِيرَ (٢٨)**﴾ [الحج]، يقول عبد الله بن عباس رضى الله عنه فى تفسير قوله تعالى: ﴿**لِيَشْهَدُوا مَنَافِعَ لَهُمْ**﴾ منافع الدنيا والآخرة (أما منافع الآخرة فرضوان الله تعالى، وأما منافع الدنيا فما يصيبون من منافع البدن والذبائح والتجارات).

ويبدو أن أبناء قبيلة جرهم قد أزاحوا أبناء أختهم ـ أبناء إسماعيل- شيئا فشيئا عن شؤون الكعبة، ثم أخرجوهم من مكة كلها، وانفردوا هم بإدارة شؤون الكعبة الدينية، وشؤون مكة الإدارية والاقتصادية والاجتماعية فترة طويلة من الزمن، غير أن أبناء جرهم لم يستطيعوا المحافظة على الأمن ثم طغوا وبغوا وعاثوا في الأرض فسادا، ولم يعودوا صالحين لخدمة بيت الله الحرام، وتأمين الحجيج، وضعف شأنهم، فداهمتهم قبيلة يمنية أخرى هى قبيلة خزاعة، وبعد حروب وخطوب انتصرت خزاعة وطردت جرهم من مكة لأن الجراهمة الذين كان يقع عليهم عبء تأمين الحجيج وتوفير سبل الراحة لهم وتنظيم شؤون الحج أهملوا هذا كله، بل أخذوا يسطون على القوافل وينهبون أموال الناس، فكان لابد من أن يحل غيرهم محلهم، سنة الله فى خلقه ولن تجد لسنة الله تبديلا، وهكذا حلَّت خزاعة محل جرهم فى السيطرة على مكة، وبدأت بداية صحيحة.



خزاعة والكعبة ومكة

لم يحدد الأخباريون الذين تناولوا تاريخ مكة المكرمة الفترة الزمنية التى سيطرت فيها جرهم على مقاليد الأمور فى مكة المكرمة، من تنظيم لشؤون الحج ورعاية حجاج بيت الله الحرام، وحفظ الأمن لهم، وكذلك تنظيم الأسواق التى كانت تقام حول مكة، مثل عكاظ وذى المجاز ومجنة، لم يحددوا المدة وإن كان السياق التاريخى يوحى بأنها كانت عدة مئآت من السنين.

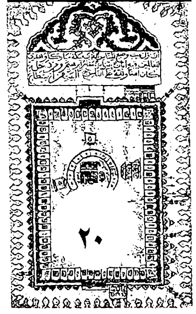
ثم ضعف شأنهم وتراخت قبضتهم فجاءت خزاعة فأزاحتهم وأخذت مكانهم وإن كان ذلك لم يتم بسهولة بل بعد حروب انتصرت فيها خزاعة، التى هى بدورها قبيلة يمنية، هاجرت من اليمن واستقرت فى مكة وبدأت بداية صحيحة - كما سبقت الإشارة - فأقامت من بينها ملكا ملكته عليها، وهو عمرو بن لحى الخزاعى وربما تكون كلمة ملك مبالغا فيها فهو رئيس القبيلة وزعيمها، لكن لما كان اليمنيون يعرفون نظام الحكم الملكى وعرفت بلادهم قيام ممالك كثيرة على أرضها، مثل قتبان ومعين وسبأ وحمير، ولما كان الأمر كذلك فقد عدوا زعيمهم عمرو بن لحى ملكا لأن الكلمة كانت مألوفة لديهم.

وعمرو بن لحى الخزاعى هو من أشهر الأسماء وأبرز الزعماء الذين عرفتهم مكة فى تاريخها قبل ظهور الإسلام، وقام بدور كبير فى تطوير مكة وعمل على تنشيط الحج بعد أن كان عدد الحجاج قد قل فى أواخر أيام جرهم بسبب اعتدائهم على قوافل الحجاج والتجار الذين يفدون إلى مكة، فعمل عمرو بن لحى على تأمين الحجاج وإقامة موائد الطعام لهم فى موسم الحج، وتوفير المياه لهم، وكانت تلك مهمة صعبة وشاقة، لأن جرهم لما غلبت على أمرها وأيقنت أنها ستخرج من مكة مكرهة مقهورة أمام قوة خزاعة استبد بها الغيظ فأقدمت على عمل خطير، فقد طمَّت بئر زمزم - أى ردمتها - فلم يعد يخرج منها ماء؛ لذلك كانت مهمة جلب الماء للحجاج من الآبار البعيدة مهمة شاقة، لكن عمرو بن لحى الخزاعى استطاع أن ينظم هذه العملية وأن يوفر لحجاج بيت الله حاجتهم من المياه لأنه كان يعرف أن عمران مكة وتطورها ورخاء أهلها يقوم على أمرين رئيسيين الحج والتجارة، فاهتم بالأمرين معا ونجح فى ذلك فشهدت مكة فى عهده فترة ازدهار ربما لم تعرفها من قبل.



عمرو بن لحى وعبادة الأصنام:

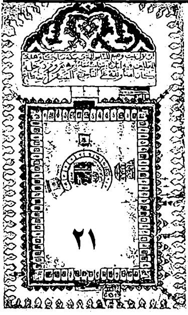
يكاد المؤرخون يجمعون على أن عمرو بن لحى الخزاعى زعيم خزاعة وملكها والذى قام بدور كبير فى تطور مكة وازدهارها، يكادون يجمعون على أنه أول من أدخل عبادة الأصنام فى مكة المكرمة، لكن ما هو السبب فى ذلك؟ وكيف تحولت مكة التى عرفت أول ما عرفت رسالة إسماعيل بن إبراهيم الخليل عليهما السلام، وهو الذى أثنى عليه ربه سبحانه وتعالى فى القرآن الكريم، حيث قال: ﴿ **وَاذْكُرْ فِي الْكِتَابِ إِسْمَاعِيلَ إِنَّهُ كَانَ صَادِقَ الْوَعْدِ وَكَانَ رَسُولاً نَّبِيًّا (٥٤) وَكَانَ يَأْمُرُ أَهْلَهُ بِالصَّلاةِ وَالزَّكَاةِ وَكَانَ عِندَ رَبِّهِ مَرْضِيًّا (٥٥)** ﴾ [مريم]، فأهله هم أهل مكة الذين سكنوها معه،



والذين تزوج منهم وأنجب أولاده من بنتهم، وهم قبيلة جرهم فهم أخوال أبنائه، فكيف تبدل الحال وتحولوا من الحنيفية ـ ديانة التوحيد ـ إلى الوثنية؟ يقول المؤرخون: إن العهد قد بعد بالناس عن الحنيفية، ونسوها وهذا معناه أن مدة حكم جرهم لمكة وسيطرتها على تقاليد الأمور فيها كانت مدة طويلة.

فلما أزاحتها خزاعة وحلت محلها رأى زعيمها عمرو بن لحى أن يجىء العرب إلى مكة من جديد لتنشيط تجارتها، ولما كان يعرف تأثير الدين على الناس، ولما كان الناس قد نسوا دين التوحيد الذى جاءهم به إسماعيل بن إبراهيم عليهما السلام، فقد اخترع لهم عمرو بن لحى دينا جديدا، ويذهب المؤرخون إلى أن الذى أوحى إليه بهذه الفكرة أنه كان فى رحلة عادية من رحلاتهم التجارية إلى الشام فرأى الناس هناك يعبدون الأصنام، فأعجبته الفكرة فنقلها إلى مكة، وكان يأمر بأن تنحت الأصنام بأيد فنية ماهرة يكون لها جاذبية تجذب الناس إليها، وكان على رأس هذه الأصنام هبل كبيرها، ومن هنا بدأت تنتشر الأصنام لا فى مكة وحدها بل فى سائر شبه جزيرة العرب، أما مكة المكرمة فكان نصيبها من الأصنام النصيب الأوفى، حتى يروى المؤرخون أنه كان حول الكعبة المشرفة عند ظهور الإسلام نحوا من ثلاثمائة وستين صنما، وهكذا حول الجهل والجهالة أول بيت وضع للناس فى الأرض الكعبة البيت الحرام إلى قلعة للوثنية، ثم أذن الله تعالى أن يختم رسالاته بمحمد بن عبد الله ﷺ فأشرق نور الإسلام فدالت دولة الوثنية ورسخت عقيدة التوحيد من جديد، فى ربوع بلاد العرب بل فى ربوع معظم العالم المعمور، وعندما دخل النبى ﷺ مكة فاتحا فى رمضان من العام الثامن الهجرى حطم كل الأصنام المنصوبة حول الكعبة وهو يتلو قول الله تعالى: ﴿**وَقُلْ جَاءَ الْحَقُّ وَزَهَقَ الْبَاطِلُ إِنَّ الْبَاطِلَ كَانَ زَهُوقًا** (٨١)﴾ [الإسراء].

ظلت خزاعة تلى أمر مكة المكرمة، وتقوم على سدانة البيت ـ خدمته ـ وتعشر التجارة المارة بها ـ أى تأخذ رسوم المرور، وهى ما يعرف الآن بالجمارك ـ ظلت كذلك نحوا من خمسة قرون، ثم ضعف شأنها ودارت عليها دورة الزمن، وعملت فيها سنة الله فى خلقه عملها الذى لا يتغير ولا يتبدل، فكان لها أن تخلى المكان لقوة أخرى صاعدة، تستطيع أن تسهم أو تقوم بدور جديد فى النهوض بمكة، وهذه القوة الفتية الجديدة لم تكن غريبة عن مكة فهم من سلالة أول من سكنها وعمرها. وهم قبيلة قريش التى ينتهى نسبها إلى إسماعيل بن إبراهيم عليه السلام، وكان الزعيم الجديد الذى قدر له أن يقوم بدور كبير فى تاريخ مكة المكرمة هو قصى بن كلاب بن مرة الجد الرابع للنبى محمد ﷺ.



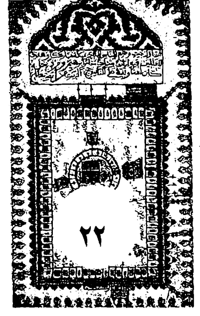
قصى والكعبة ومكة

قصى بن كلاب بن مرة بن كعب بن لؤى بن غالب، يتسلسل نسبه إلى أن يصل إلى عدنان ومن ثم إلى إسماعيل بن إبراهيم الخليل عليهما السلام، وقصى اسمه زيد وإنما سمى قصيا لأنه نشأ بعيدا عن قبيلته؛ فقد توفى أبوه وهو طفل صغير فتزوجت أمه واسمها فاطمة بنت سعيد من رجل من بنى عذرة اسمه ربيعة بن حرام، وأخذته معها إلى ديار زوجها فى بنى عذرة - قريبا من تبوك - ولما كبر وعرف من أمه أصله وعشيرته رجع إلى قومه، فنزل بمكة، وقدر له أن يقوم بدور فى تاريخ مكة ربما لم يتسن لأحد قبله فعندما عاد إلى مكة كانت زعامة خزاعة قد آلت إلى حليل بن جشية الخزاعى وقد لمس حليل فى قصى أمارات الزعامة من قوة الشخصية والقدرة على القيادة والتجميع، إضافة إلى الكرم والمروءة والنجدة، من أجل كل ذلك لم يتردد فى تزويج ابنته حبّى من قصى حين خطبها، وقد أنجب منها أبناءه الأربعة عبد الدار وعبد مناف وعبد العزى وعبد، الذى كان يقال له أحيانا عبد قصى.

وبعد وفاة حليل بن جشية الخزاعى لم يخلفه من ولده ولا من قومه خزاعة من تتوافر فيه مواصفات الزعامة، وهنا سنحت الفرصة لقصى بن كلاب بن مرة ليعيد مجد أبناء إسماعيل ويتولى زعامة مكة، ويدبر شؤونها وشؤون البيت الحرام.

ولم ينس قصى أنه سليل الشرف والمجد وصريح ولد إسماعيل وأن أجداده السابقين قد نحتهم جرهم قسرا عن مكة حتى اضطرتهم إلى الخروج منها والعيش فى شعابها قرونا طويلة حتى جاء قصى وجمع شملهم من جديد واستعاد مجد آبائه وأجداده، ويبدو أن الأمر لم يكن سهلا وأن قريشا وحدها لم تكن قادرة على إخراج خزاعة من مكة؛ لذلك يروى المؤرخون أن قصيا استعان بأخيه لأمه وهو رزاح بن ربيعة بن حرام العذرى فأعانه وجاءه ومعه قومه من بنى عذرة من قضاعة ووصلوا مكة ونصروه، وغلبت خزاعة على أمرها وزال ملكها عن مكة، وصار الأمر إلى قصى زعيم قريش.

ولفظة قريش التى أصبحت علما على تلك القبيلة اختلف العلماء فى تفسيرها كثيرا وأرجح الآراء أنها اسم ثان لفهر بن مالك بن إلياس بن النضر، ففهر هو قريش وقبله كانوا يدعون بنى كنانة، والرأى الراجح الثانى أن قريشا لفظة معناها التجميع؛ ولذلك سمى قصى مجمعا وقد قال أحد شعرائهم:



أبونا قصى كان يدعى مجمِّعا ... به جمَّع الله القبائل من فهر

فيظهر من هذا البيت أن قصيا هو أول من جمع قبائل مُضر ووحّدها وقد جاءت الكلمة فى القرآن الكريم فى سورة الإيلاف علما على تلك القبيلة، فى معرض امتنان الله سبحانه وتعالى عليهم بتسهيل أمر تجارتهم، التى هى عماد حياتهم، وجعلهم يعيشون فى بلد آمن، قال تعالى: ﴿ **لِإِيلافِ قُرَيْشٍ (١) إِيلافِهِمْ رِحْلَةَ الشِّتَاءِ وَالصَّيْفِ (٢) فَلْيَعْبُدُوا رَبَّ هَذَا الْبَيْتِ (٣) الَّذِي أَطْعَمَهُم مِّن جُوعٍ وَآمَنَهُم مِّنْ خَوْفٍ (٤)** ﴾ [قريش]، ويروى عن أسماء بنت يزيد بن السكن الأنصارية أنها قالت: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «ويحكم يا معشر قريش، اعبدوا رب هذا البيت الذى أطعمكم من جوع وآمنكم من خوف».

كان ذلك العمل الكبير الذى قام به قصى بن كلاب بن مرة والدور العظيم الذى أداه فى تاريخ مكة من القوة والذيوع بحيث أطلق الناس عليه لقب وصف الملك، وقال المؤرخون: كان قصى أول ولد كعب بن لؤى أصاب ملكا وأطاعه قومه، اعترافا بفضله عليهم فهو الذى جمعهم من شعاب مكة ومكَّن لهم فيها وجعل لهم كيانا هائلا.

وكانوا لا يعقدون أمرا إلا فى داره ولا يتم عقد زواج إلا فى داره، فكان أمره فيهم كالدين المتبع.



كثرت مهمات قصى وتشعبت مسئولياته وكان شأنه شأن مؤسسى الدول الذين يتحلون بالنظرة المستقبلية والقدرة الفائقة على العمل - إضافة إلى صفاته الحميدة الكثيرة التى أشرنا إليها فيما سبق. صحيح ليس من الدقة أن نقول إن قصيا قد أنشأ فى مكة دولة بالمعنى المتعارف عليه، وإنما يمكن القول أنه خطا خطوات تنظيمية على طريق إنشاء الدولة، ولعل ما قام به قصى كان مقدمة وإرهاصا للنظام الجديد والدولة الإسلامية العملاقة التى سيؤسسها حفيده، خاتم الأنبياء محمد بن عبد الله ﷺ.

كان لابد لقصى وقد اتسع نطاق عمله وعظمت مسئولياته أن يتخذ مكانا يكون عاما لكل القبيلة يليق بوضعها الجديد، تناقش فيه كل أمورها فأنشأ دار الندوة - التى ذاع صيتها فى شبه جزيرة العرب، فدار الندوة هى مكان المشورة وإبداء الرأى فى أمور الحرب والسلم، وكما كانت

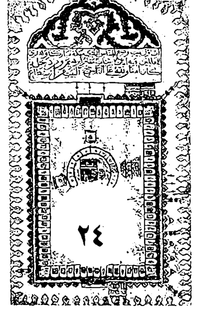


دار مشورة فهى دار حكومة أيضـا، ففيها يجتمع أعيان ووجـهاء القبيلة برئاسة قصى للتشاور فى الأمور والبت فيـها، وقد ذكر المؤرخون أنه كانت لهذه الدار تقاليد وأعراف لا تقل دقة عن تقاليد المجالس النيابية فى الوقت الحاضر.

فمن الـتقاليـد ذات الدلالة أنهم لم يكونوا يســمحـون لمن يقل سنه عن أربعين سنة بدخول دار الندوة، على اعتبار أن سن الأربعين فى نظر العرب هى سن النضج والكمـال ـ وهنا ملاحظة هامـة، وهى أن سن الأربعين غـالبا هى السن التى كان يبعث فيها الأنبياء والمرسلون عليهم الصلاة والسلام ـ ومع أن هذا التقليد كان مرعيا بشكل صارم، إلا أنه لم يكن جـامدا بل كانت لديهم مـرونة كبيرة، بحـيث إذا وجدوا فى رجل صغير السن جودة فى الرأى، وحدة فى الذكاء سمـحوا له بالاشتراك فى المناقشات، وقالوا دخلها عمرو بن هشام - أبو جهل - وهو ابن ثلاثين عاما لجودة رأيه، ودخله غيره للسبب نفسه.

ظلت دار الندوة تؤدى دورها فى تاريخ مكة حـتى ظهور الإسلام، وكان أخطر قـرار اتخذ فيها فى تاريخها كله هو قرارهم بقـتل النبى ﷺ وقد أخبر بذلك وأمر بالهجرة إلى المدينة المنورة، وتشير إلى ذلك الآية الكريمة ﴿ **وَإِذْ يَمْكُرُ بِكَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِيُثْبِتُوكَ أَوْ يَقْتُلُوكَ أَوْ يُخْرِجُوكَ وَيَمْكُرُونَ وَيَمْكُرُ اللَّهُ وَاللَّهُ خَيْرُ الْمَاكِرِينَ ۝٣٠** ﴾ [الأنفال]، ظلت دار الندوة بيد بنى عـبد الدار بن قصى حتى بعد ظهـور الإسلام، ثم باعوها لمعـاوية بن أبى سفـيان وهو خليفـة فجعلهـا دار الإمارة فى مكة المكرمة، ثم هدمت بعد ذلك وأدخلت فى الحرم المكى.





تنظيم قصى لشؤون الكعبة

لما كان البيت الحرام هو الذى أعطى مكة المكرمة قدسيتها ومكانتها، ولما كان العرب يقصدون هذا البيت المحرم للحج من كل فج عميق، فكان على من يلى أمر هذا البيت أن يوليه كل عناية ورعاية، وأن يسهل للحجاج أمر الوصول إليه والإقامة عنده، وأن يضمن لهم الأمن ويوفر لهم الماء والطعام لمن لم يكن معه طعام، وخصوصا أن العرب لم يكونوا يأتون إلى البيت الحرام حاجين فقط، وإنما كانوا يأتون إليه حاجين ومتاجرين.

ولم يغب عن فطنة قصى أن العناية بكل تلك الأمور يجعل أعداد الحجاج فى تزايد مستمر، وهذا فيه منافع كثيرة لأهل مكة؛ لذلك نظم تلك الأمور وجعل لها أسماء محددة ربما لم تكن معروفة من قبل مثل:

١- السّدانة:

وهى رعاية الكعبة المشرفة وخدمتها ونظافتها وإعدادها للزائرين، وإذا كان قصى لم يستحدث السدانة فهى موجودة منذ بناء الكعبة لكنه أعطاها من العناية والرعاية والاهتمام بحيث كانت كأنها لم تنشأ إلا فى عهده.

٢- السقاية:

وهى توفير المياه لحجاج بيت الله الحرام، وتلك مهمة ضرورية وشاقة فى الوقت نفسه، سيما بعد أن طمرت بئر زمزم - ردمتها جرهم حين غلبت على أمرها أمام خزاعة لتحرمها من الانتفاع بها - لذلك كان طلب كميات من المياه من الآبار البعيدة وبناء الأحواض لها، كان ذلك كله أمرا صعبا ومكلفا،لكن قصيا قام بذلك، وبطبيعة الحال بمعونة قبيلته ولو كان وحده لما استطاع أن يفعل شيئا ولكنه لما كان زعيما كبيرا فقد استطاع أن يجند كل طاقات القبيلة وإمكانياتها لتحقيق أهدافه، التى كانت أهدافهم أيضا.

ولعل قصيا هو أول من جعل لتوفير المياه للحجاج وظيفة خاصة سماها السقاية، فقد كانت خزاعة قبله تهتم بأمر توفير المياه للحجاج لكنهم لم يستخدموا اسم السقاية.



٣- الرفادة:

من الوظائف الهامة التى أنشأها قـصى بن كلاب بن مرة، والتى كان لها أعظم الأثر فى كثرة الإقبال على مكة والحج إلى بيت الله الحرام، والرفادة هى إطعام حجاج بيت الله الحرام فى موسم الحج ـ سيما الفقراء منهم ـ «وكان هذا العمل من قصى ينطوى على حكمة سياسية كـبيرة، فإن إمداد الحجاج بالطعام يدعـو إلى الإقبـال على القدوم إلى مكة، وخـصوصـا إذا قدرنا بُعْـد الشـقة وصعوبة حـمل المؤن والزاد مع السفر فى الصحراء مسـافات طويلة، كما أن البادية كانـت فقيرة، وكان إطعـام الطعام فضيلة من أكـبر الفضائل التى يمـتدح بها العرب، ويـنال صاحبهـا الاحترام والمنزلة الرفيعة، كما أن المؤاكلة تعد عقد جوار عند العرب، فإذا أطعمت قريش القبائل القادمة إلى مكة فى موسم الحج فإنهـا تنال بذلك احتراما ومنزلة ساميـة فى نظر القبائل وكأنها تعاقـدت معها برابطة الجوار والأمن نتيجة لهذا كله، وبذلك يصبح فى إمكان قريش أن تسير آمنة فى أراضى هذه القبائل على نفسها وتجارتها.

وقد تعاونت بيوت قريش كلها فى حمل هذا العبء، لأنه لم يكن فى مقدور قصى أن يقوم وحده بإطعام الأعداد الهائلة من الحجاج.

هذه الوظائف الثلاث ـ السدانة والسقاية والرفادة ـ خـاصة ببيت الله الحرام، وكانت تضفى على من يقوم بها شرفا وذكرا ومنزلة بين العرب، وإلى جانبها كانت هناك وظائف إدارية وسياسية وعسكرية إن صح هذا التعبير، منها:

١- اللواء:

وهو راية الحرب، وكان قصى يسلمها لمن يتولى القيادة العامة عند الحرب.

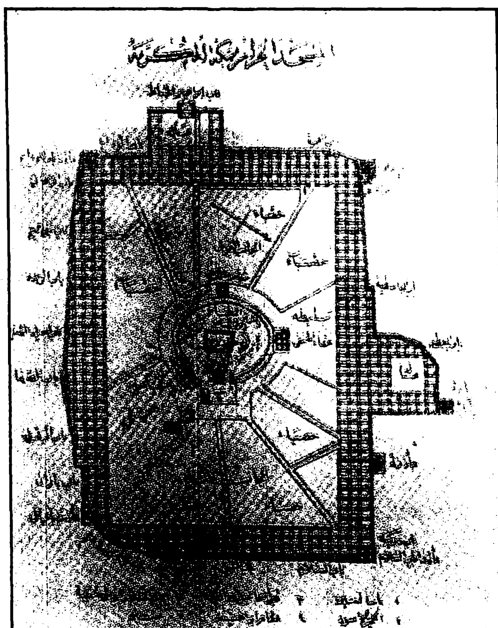
٢- القيادة:

وهى قيادة رجال القـبيلة فى الحرب، فمن يتولى هذه القيادة كان يسـتلمها من قصى، وفى دار الندوة.

هذه الوظائف كلها الدينية المتعلقة بالكعبة والدنيـوية المتعلقة بالحرب وغيرها من أمور الدنيا كانت بيد قصى، ولما كان قصى يدرك روح المنافسة بين البطون القرشية وأن هذه البطون لا يرضيها أن يستحوذ هو على كل شرف ومجد فى مكة، فـقد عمل على إرضائها لتسود روح الوئام بينهم، وذلك باستحداث وظائف أخرى أسند كل وظيفـة منها إلى بطن من بطون قريش، فرضيت وقرت عيونها؛ فعلى سبيل المثال كانت هناك وظيفـة السفارة بين قريش وغيرها من القبائل، وقد أسندت



إلى بنى عدى البطن الذى ينتمى إليه عمر بن الخطاب رضى الله عنه، وحمل الديات كان يقوم به بنو تيم، البطن الذى ينتسب إليه أبو بكر الصديق رضى الله عنه، اللواء وكان فى بنى عبد الدار. الأعنة وهى قيادة الفرسان وكانت فى بنى مخزوم البطن الذى ينتمى إليه خالد بن الوليد رضى الله عنه، والحكومة بين القبائل كانت من نصيب بنى سهم البطن الذى ينتمى إليه عمرو بن العاص رضى الله عنه.



خريطة من سنة ١٣٢٦هـ/ ١٩٠٨م
تصور المسجد الحرام بمكة المكرمة

مكة بعد قصى

يكاد المؤرخون يجمعون على أن قصيا قد قام بدور كبير فى تاريخ مكة وتطورها ووضع لها كثيرا من النظم والتقاليد التى ظلت سارية حتى ظهور الإسلام، ومن أهم مآثره على أهلها أنه غرس فيهم روح الوئام والبعد عن الشقاق والنزاع وحل كل مشكلاتهم سواء فيما بينهم أو فيما بينهم وبين غيرهم من القبائل بالتفاهم والحوار، والبعد عن الصدام والحرب ما استطاعوا لذلك سبيلا، وهذا أمر سنلاحظه بوضوح فى تاريخ مكة، فكلما نشب خلاف أو نزاع على أمر من الأمور وتداعى الناس إلى سل السيوف والحرب سرعان ما تظهر الأصوات التى تدعو إلى السلام وحقن الدماء فتتراجع صيحات الحرب وتخبو الدعوة إليها ويسود السلام والوئام بين بطون قريش.

وإذا كان المؤرخون مجمعين على الدور الذى قام به قصى بن كلاب بن مرة فى تاريخ مكة، فهم مجمعون كذلك على أنه المؤسس الحقيقى لكيان قبيلة قريش فهو الذى جمعها من شعاب مكة - حتى سمى مجمِّعا - وأسكنها فى البلد الأمين.

وإن كان قد ظل خارج مكة قسم منها كانوا يسمون قريش الظواهر، وهم الذين بقوا خارج مكة، وكانوا أقرب إلى البداوة وكانوا يفخرون على قريش البطاح، الذين سكنوا مكة بأنهم أهل قتال، وأنهم يدافعون عنهم وعن البيت.



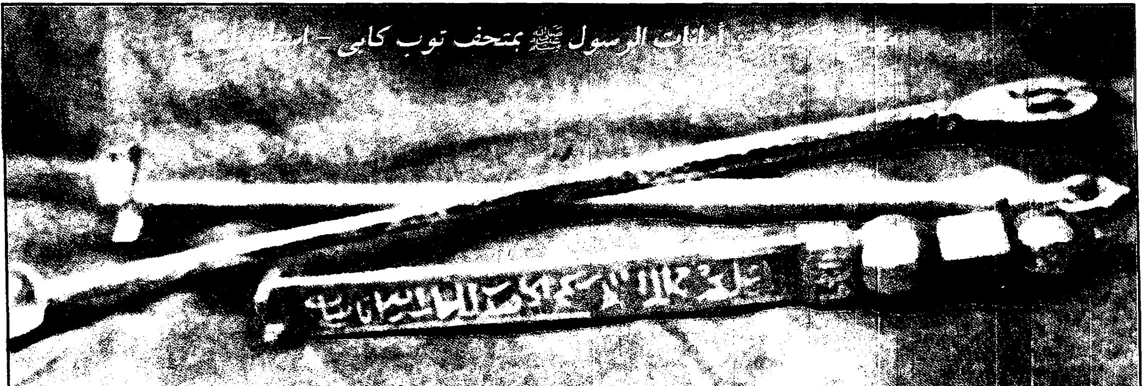
كما كان يسكن أطراف مكة قوم عرفوا بالأحابيش وهم جماعات من قبائل مختلفة، مثل بنى المصطلق وبنى الهون بن خزيمة، ويختلف المؤرخون فى تفسير كلمة الأحباش كما اختلفوا فى تفسير كلمة قريش، فقال بعضهم إنها نسبة إلى جبل يدعى حبشيا بأسفل مكة، وقيل سمو أحباشا لاجتماعهم واتفاقهم على أن يكونوا يدا واحدة على من سواهم، والتحابش هو التجمع فى كلام العرب.

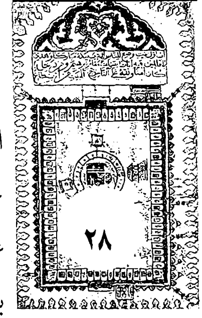
وقد كان هؤلاء الأحباش حلفاء لقبيلة قريش، فقد حاربوا معها فى غزوة أحد وكان لهم زعماء يتحدثون باسمهم ويدبرون شؤونهم منهم ابن الدغنة، الذى أجار أبا بكر الصديق رضى الله عنه لما رآه عازما على الهجرة إلى الحبشة، ومنهم الحليس بن علقمة الذى أوفدته قريش إلى رسول الله ﷺ فى الحديبية، يستطلع خبره، فلما رأى الهدى فى قلائده علم أن الرسول ﷺ ما جاء مكة محاربا، بل جاء معتمرا يسوق الهدى أمامه فلما رجع إلى قريش وأخبرهم بذلك فقالوا له: اجلس يا حليس إنما أنت رجل أعرابى لا علم لك، فأغضبه ذلك القول وقال لهم: «يا معشر قريش والله ما على هذا حالفناكم، ولا على هذا عاقدناكم، أتصدون عن بيت الله من جاءه معظما له، والذى نفس الحليس بيده لتخلُّن بين محمد وبين ما جاء له أو لأنفرن بالأحابيش نفرة رجل واحد، فقالوا له: مه - يعنى اسكت - كف عنا يا حليس حتى نأخذ لأنفسنا ما نرضى به.

على أية حال ترك قصى مكة كيانا واحدا محددا لها حلفاء يهبّون للدفاع عنها. ولا يذكر التاريخ تاريخا محددا لمولد قصى بن كلاب بن مرة وإن كان بعض الباحثين يستنبط من دراسة تاريخه أنه ولد فى مطلع القرن الخامس الميلادى، وأن وفاته كانت قرب نهايته ولما مات دفن بالحجون وهو جبل بأعلى مكة كان أهلها يدفنون موتاهم عنده، وكان قبره مزارا لأهل مكة، تقديرا واحتراما له واعترافا بفضله عليهم.

أولاد قصى:

أنجب قصى بن كلاب بن مرة أربعة أولاد ذكور، هم عبد الدار وعبد العزى وعبد مناف وعبد قصى، ويروى المؤرخون أن عبد الدار كان أكبرهم سنا، ولكنه كان أخملهم ذكرا؛ لذلك أراد أبوه أن يرفع شأنه ويعلى ذكره بين إخوته وكذلك بين أهل مكة فأسند إليه كل الوظائف التى


أمانات الرسول ﷺ بمتحف توب كابى



كانت بيـده، وهى رئاسة دار الندوة وسـدانة الكعبة والرفـادة والسقـاية وكذلك حمل اللواء، وقد أذعن اخوته الثـلاثة لمشيئة أبيهم، واستمر الأمـر كله بيد عبد الدار، فلما ماتوا جميعـا نشب خلاف بين أبنائهم حيث نفس بعضهم على بنى عبد الـدار أن يحوزوا هذا الشرف كله، وكان الذى فـعل ذلك وتزعم الأمر بنو عـبد مناف بن قـصى، وتكهرب الجـو فى مكة لأن بنى عـبد الدار لم يفـرطوا بسهولة فى تراث أبيهم، واعتبروا ذلك حقا لهم، لا يفرطون فيه.

وانقسمت بطون قـريش إلى فريقين؛ فريق ناصر بنى عبـد مناف وهم بنو أسد وبنو زهرة، وبنو تيم وبنو الحارث، وعقدوا معهم حلفا سمى حلف المطيبين ـ لأنهم غمسوا أيديهم فى الطيب عند التحالف، أما بنو عبد الدار بن قصـى فقد ناصـرهم بنو مخـزوم وبنو سهم وبنو جمح وبـنو عـدى وسمى هؤلاء بالأحلاف.

وكادت تنشب بين الحـيين حرب، ولكنهم تذكـروا وصايا قصى لهم فتـداعوا إلى الصلح، وبالفعل اتفقوا علـى أن يأخذ بنو عبد مناف السقاية والرفادة وتظل بـقية الوظائف وهى رئاسة دار الندوة واللواء والسدانة بيد بنى عبد الدار.

ظل الأمر هكذا وكل فريق يؤدى ما وكل إليه من مهام ومناصب إلى أن ظفر الإسلام فألغى النبى ﷺ بعد فـتح مكة كل المناصب عدا السدانة فـقد تركها لـبنى عبد الدار، والسقـاية والرفادة وبقيت فى يد عمـه العباس بن عبد المطلب رضـى الله عنه، وهنا لمسة وفاء أظهرها سيـد الأوفياء محمد بن عبد الله ﷺ، فعندما فـتحت مكة المكرمة طلب العباس بن عبد المطلب رضى الله عنه من رسول الله ﷺ أن يجـعل له السدانة مع السقـاية والرفادة، ولكن النبى ﷺ نادى عثـمان بن طلحة وقـال له: «هاك مفتاحك يا عـثمان» فـأعطاه المفتاح وقال: «هذا يوم بر ووفـاء» ودعا لآل طلحة أن يظلوا حاملى مفتاح الكعبة إلى يوم القيامة فهو معهم إلى الآن.



ونحن بصدد الحديث عن الأحلاف وأن قريشا مهما حدث بينها من خلافات ومهما تداعت إلى الحرب فإن نزعة الحرب فيهـا لم تكن عندها أصيلة، ولم تدخل قريش حربا إلا مكرهة، كما حدث فى حرب الفجار، فقد دخلت هذه الحرب مناصرة لبنى كنانة لما بينهم من الحلف ضد قيس



عيلان، وحدث قتال بين الفريقين فى الشهر الحرام؛ ولذلك سميت حرب الفجار، وقد حاولت قريش وضع حد لهذه الحرب وقد نجحت فى ذلك وتحملت دية عشرين قتيلا دفعتها لقيس عيلان، كل ذلك يدل على ميل قريش إلى السلام، وهذه الحرب شهدها رسول الله ﷺ، وهو ابن عشرين سنة، وشارك فيها وقال: «كنت أنبل على أعمامى» أى أرد عنهم نبل عدوهم إذا رموهم بها.

أقول ونحن بصدد الحديث عن هذا كله يحسن بنا أن نتحدث عن حلف آخر كان عظيم الأهمية فى تاريخ مكة المكرمة، وقد أشاد به رسول الله ﷺ، ذلكم هو حلف الفضول، الذى يدل عقده على أن أهل مكة لم يكونوا حريصين على وحدة قبائلهم فحسب، وإنما كانوا حريصين بالقدر نفسه على إقرار الأمن لأهل مكة جميعا وللقادمين إليها، سواء للحج أو للتجارة ـ وكانوا كثيرين ـ فلم يسمحوا لأحد أن يظلم فيها أحدا، أو يعتدى عليه، والسبب المباشر لعقد حلف الفضول أن العاص بن وائل السهمى اشترى بضاعة من رجل من اليمن قدم مكة تاجرا، ولم يعطه ثمنها فقال الرجل شعرا يستثير به حمية قريش ونخوتها لإنصافه، قال:

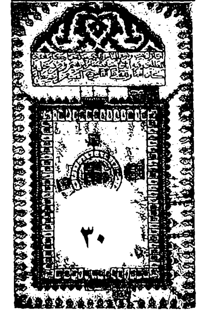
يا آل فِهر لمظلوم بضاعتُه ... بِبطن مكَّة نائي الدار والنَّفرِ

ومُحرمٌ أشعَثٌ لمْ يَقضِ عُمْرته ... يا للرجال وبين الحِجرْ والحَجَرِ

إن الحرام لمن تَمَّتْ كرامته ... ولا حَرامَ لثوب الفاجِرِ الغدرِ

فلما سمعت قريش ذلك تداعت إلى عقد الحلف الذى تكوَّن من بنى هاشم بن عبد مناف وبنى المطلب بن عبد مناف وبنى أسد بن عبد العزى وبنى زهرة بن كلاب وبنى تيم بن مرة، اجتمع هؤلاء جميعا فى دار عبد الله بن جدعان زعيم بنى تيم وتعاقدوا على ألا يجدوا بمكة مظلوما، من أهلها أو من غيرهم ممن يدخلها من سائر الناس، إلا قاموا معه، وكانوا على من ظلمه حتى ترد إليه مظلمته فسمت قريش ذلك الحلف حلف الفضول، وقد حضره الرسول ﷺ قبل بعثته، وقال عنه: «لقد شهدت فى دار عبد الله بن جدعان حلفا ما أحب أن لى به حمر النعم ولو أدعى به فى الإسلام لأجبت».

هذا هو حلف الفضول الذى يعد خطوة هامة فى تاريخ مكة المكرمة وتطورها، فهو ما قام إلا لمنع الظلم ونشر العدل وإحقاق الحق، ولعله أول حلف أو تجمع للدفاع عن حقوق الإنسان فى التاريخ البشرى.



هاشم بن عبد مناف ودوره فى ازدهار مكة

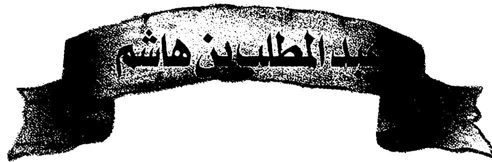
حين تنازع بنو عبد مناف مع بنى عمهم عبد الدار بن قصى أمر المناصب التى كانوا يتولونها بعد أبيهم، وطالبوا بنصيبهم فيها، وكادت تنشب بين البيتين حرب لولا تدخل عقلاء مكة ودعوتهم إلى الصلح، وقد تم الصلح وكان المتحدث باسم أبناء عبد مناف والمتولى أمرهم هو أكبرهم عبد شمس بن عبد مناف، لكن لما تم الصلح على أن يأخذ بنو عبد مناف بن قصى الرفادة والسقاية، تركها عبد شمس بن عبد مناف لأخيه الأصغر منه هاشم؛ لأن عبد شمس كان كثير الأسفار من ناحية ومن ناحية ثانية فإن هاشما كان واسع الثراء فكان أليق لتولى هذه المناصب التى تتطلب

المسجد الحرام بمكة المكرمة - تصويرة من مخطوطة لعبد الله الخلوصى سنة ١٢٨٠هـ/ ١٨٤٠م

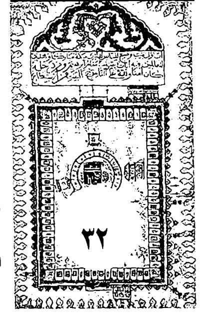


نفقـات كثيرة، وقد نهـض هاشم بهذا العبء، وكان إلى ثرائه يطلب مـساعدة القبيلة لضخـامة المسئولية، يقول ابن إسحاق: فـولى الرفادة والسقاية هاشم بن عبد مناف وذلك أن عبد شمس كان رجلا سفَّارا قَلَّما يقيم بمكة، وكان مُقلا ذا ولد، وكان هاشم مـوسرا فكان إذا حضر الحج قـام فى قريش فقال: يا مـعشر قـريش، إنكم جـيـران الله وأهل بيتـه وإنه يأتيكم فـى هذا الموسم زوار الله وحجاج بيتـه، وهم ضيف الله وأحق الضيف بالكرامة ضيفه فاجـمعوا لهم ما تصنعون لهم به طعاما أيامهم هذه التى لا بد لهم من الإقامة بها، فإنه والله لو كان مالى يسع لذلك مـا كلفتكموه، فيخـرجون لذلك خرجا من أموالهم كل امـرئ بقدر ما عنده فيصنع به للحجاج طعاما حتى يصدروا منها.

لم يقتـصر دور هاشم بن عبد مـناف على القيام بالرفـادة والسقاية، وتوفيـر الأمن والراحة لحجاج بيت الله الحرام، وهذا شرف عظيم لا شك، ولـكن بالإضافة إلى هذا عمل هاشم وإخوته على ازدهار مكة وتقدمها، وبصـفة خاصة فى ميدان التجارة. ويقـول المؤرخون إن هاشم بن عبد مناف هو الذى نظم تجـارة قريش الخـارجيـة هو وإخوتـه، وقد عـرف هذا النظام برحلتى الشتـاء والصيف اللتـين أشارت إليهما سـورة الإيلاف، أو سورة قريش، وقد خرج هاشـم بن عبد مناف وإخوته عبد شمس ونوفل والمطلب بتجارة قريش من النطاق المحلى إلى النطاق الخارجى، فذهبت قوافل مكة التجارية إلى اليمن والعراق والشام، وتـطلب ذلك إقامة علاقات مع المسئولين فى هذه البلاد، وعقـد معاهدات معهم لضـمان السلامة والأمن لتجـارة قريش وأموالها، فقـد عقد هاشم وإخوته معاهدات مع الروم والـفرس والنجاشى ملك الحبشة وملوك وحكام اليـمن، كما أن مرور القوافل المحملة بأنواع التجـارات على القبائل القاطنة على طريقها تطلَّب إقامة عـلاقات طيبة تقوم على الود والصداقة مع هذه القبـائل، مثل خزاعة وضمرة وجهـينة. . .إلخ، وكان من الطبيعى أن تستفـيد هذه القبائل من تجارة قـريش، حيث كان زعماؤها يشـتركون فى القوافل القرشـية وكانوا يوفرون لها الحـماية أثناء مرورها بأراضيـهم، وبهذا اتسعت تجارة قريش وعظـمت ثروتها وأصبح هاشم بن عبد مناف زعيما لمكة كلها.



كان هاشم بن عبد مناف يتـمتع بخصال الزعامة ومواصفـات القيادة ولذلك سلم له إخوته وغيرهم من زعماء وشيوخ بطون قريش بزعامة مكة طوال حياته؛ ولذلك تركت وفاته المبكرة فراغا

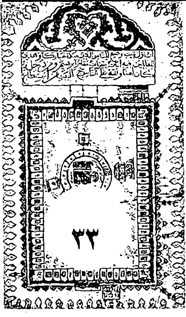


لم يستطع أحد من إخوته ولا من غيرهم أن يملأه، بمعنى أنه لم يكن فى مقدور فرد واحد أن يقوم بما كان يقوم به، وقد ترتب على ذلك ظهور قوة جماعية هى ما أطلق عليه الملأ من قريش، وهو مجلس القبيلة المكون من زعمائها، وأتيحت الفرصة لظهور زعماء عديدين فى بطون قريش المختلفة مثل: الوليد بن المغيرة فى بنى مخزوم، وعبد الله بن جدعان فى بنى تيم، والعاص بن وائل السهمى فى بنى سهم، وحرب بن أمية فى بنى أمية.. وهكذا، وكان أبرز رجالات بنى هاشم عبد المطلب بن هاشم، جد النبى محمد ﷺ، ولهذه الصلة نخصه وحده بكلمة دون بقية زعماء مكة المعاصرين له، لأن الله تعالى شرفه باختيار خاتم أنبيائه ورسله من ذريته وهو محمد بن عبد الله بن عبد المطلب بن هاشم ﷺ.

عبد المطلب بن هاشم وحفر بئر زمزم:

سبق وأن ذكرنا أن أول ظهور لبئر زمزم قد ارتبط بوجود إسماعيل بن إبراهيم عليهما السلام، وأمه هاجر، وأن وجود الماء فى المكان الذى بنى فيه البيت الحرام كان هو الذى جذب قبائل جرهم للسكنى حوله، ومن هنا كانت نشأة مكة المكرمة، ثم إن قبائل جرهم لما غلبت على أمرها فى نهاية أيامها أمام خزاعة وأدركت أنها ستضطر للخروج من مكة عندئذ استبد بها الغيظ وطمت بئر زمزم - أى ردمتها - ومن ثم اختفى أهم عنصر لازم للحياة والأحياء وهو الماء؛ ولذلك اضطر أهل مكة للبحث عن مصادر للماء غير زمزم، وكان ذلك أمرا شاقا لبُعد الآبار الأخرى عن مكة، وكان أكثر مشقة لمن يتولى أمر سقاية الحجيج، تلك المهمة التى آلت إلى عبد المطلب بن هاشم بعد وفاة عمه المطلب بن عبد مناف، ويبدو أن الله تعالى قد أراد إكرام عبد المطلب بأن يريحه من مشقة البحث عن الماء وأن يجرى على يديه ماء زمزم من جديد، ولا شك أن ماء زمزم بخصائصه التى تحدثت عنها كتب السيرة والحديث وارتباطه بجد العرب العدنانيين، إسماعيل عليه السلام، لا شك أن ظهوره من جديد على يد عبد المطلب سيكون أمرا عظيما وبالفعل بعد أن أتم عبد المطلب الحفر وظهر الماء فرحت به مكة كلها.

وكتب السيرة تروى ما ملخصه أنه بينما عبد المطلب بن هاشم نائم فى حجر إسماعيل إذ أتاه هاتف فى منامه وأمره أن يحفر زمزم وحدد له مكانها، فلما صحا من نومه لم يتردد فى تنفيذ ما أمر به فى منامه فحمل معوله وأخذ معه ابنه الحارث الذى لم يكن له يومئذ ولد غيره، وأخذا فى الحفر فأثار عملهما عجب قريش وحيرتها، ولم يسلم عبد المطلب من بعض عبارات السخرية، ولكنه صمم على الاستمرار فى الحفر حتى ظهر الماء، وكان أهل مكة فى ذهول مما صنع عبد

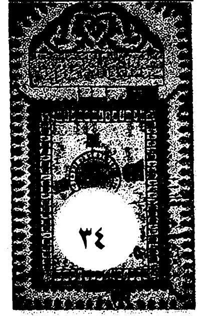


المطلب وكان من الطبيعى أن يسعدوا بظهور ماء زمزم من جديد، وهذا العمل زاد من مكانة عبد المطلب الأدبية بين رجالات قريش، واعتبروا ما حدث مكرمة خصه الله بها حيث أعاد لهم حفر بئر زمزم، التى هى تراث جدهم إسماعيل عليه السلام، ومن ذلك الوقت بدا وكأن عبد المطلب هو أبرز شخصية فى مكة بل سيكون المتحدث باسمها، وسيظهر ذلك بوضوح عند غزو الأحباش لمكة المكرمة حيث كان هو الذى تولى مفاوضة أبرهة الأشرم نيابة عن أهل مكة.

ومنذ أعاد عبد المطلب حفر بئر زمزم لم ينقطع ماؤها إلى الآن، ويحرص جميع حجاج وزوار بيت الله الحرام على الشرب منه مرارا وعلى الوضوء بل الغسل منه، وكثيرون منهم يحملونه إلى بلادهم لما يعتقدون فيه من البركة، وأى بركة أعظم من أن تكون بداية ظهوره كانت على يد جبريل عليه السلام، تكريما لهاجر وابنها إسماعيل عليه السلام.

قصة الذبيح الثانى

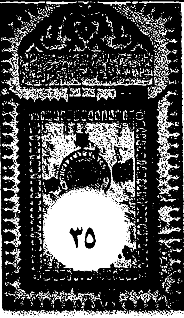
ارتبط بإعادة عبد المطلب بن هاشم حفر بئر زمزم قصة نذره أن يذبح ولدا من أولاده إذا بلغوا عشرة؛ ذلك أن عبد المطلب لقى من قريش عنتا وتعسفا وهو يحفر بئر زمزم، فهم لم يعاونوه ولم يتركوه وشأنه، بل قالوا له: «يا عبد المطلب أتستطيل علينا وأنت فذٌّ لا ولد لك» حز ذلك فى نفس عبد المطلب وتألم لمعايرة قومه له بقلة الولد، حيث لم يكن له عندئذ إلا ابنه الحارث، ولو كان له أولاد كثيرون لمنعوه، ولما جرأت قريش على معايرته ومضايقته؛ لذلك نذر إن رزقه الله بعشرة من الأولاد لينحرنّ أحدهم عند الكعبة قربانا للآلهة، وتقص كتب السيرة أن أمنيته قد تحققت وتكامل عدد أولاده عشرة وهم: ١ - الحارث، وهو أكبرهم، ٢ - الزبير، ٣ - حجل، ٤ - ضرار، ٥ - المقوم، ٦ - عبد العزى وهو أبو لهب، ٧ - العباس، ٨ - حمزة، ٩ - أبو طالب، ١٠ - عبد الله، عندئذ عزم على الوفاء بنذره، وضرب القرعة على أولاده جميعا، فأيهم جاءت عليه ذبحه، فجاءت على عبد الله، وهمَّ عبد المطلب بذبح أحب أولاده إليه تقربا للآلهة ووفاء بنذره، لكن أهل مكة جميعا، وبصفة خاصة بنو مخزوم وهم أخوال عبد الله منعوه من ذلك وقالوا له: لا تجعل ذلك سُنّة فى العرب.. ولكن كيف السبيل وما هو المخرج من ذلك وهم يعرفون إصرار عبد المطلب على الوفاء، عندئذ اقترحوا عليه أن يذهبوا إلى عرافة وكانت



مشـهورة بيـثرب فى حل أمـثال تلك المعضـلات، وأن يعرضـوا عليهـا الأمر، وبالفعل ذهبوا إليها فوجدوها فى خيبر، وعرضوا عليها الأمر فأشارت عليهم أن يعودوا إلى مكة وأن يقـربوا عبد اللـه بن عبد المطلب وعـشرة من الإبل - وهى مقدار دية الرجل عندهم - ثم يضربون عليها القداح كعادتهم فإن خرجت القداح على عبد الله فليزيدوا عشرة حتى ترضى الآلهـة، فعادوا وفعلوا فأخذت القداح تشيـر إلى عبد الله فـأخذوا يزيدون فى كل مرة عـشرة، حتى بلغ العـدد مائة، عندئذ خرجت القداح تشير إلى الإبل، ففرح الناس، وقـالوا لعبد المطلب لقد رضيت الآلهة، غير أنه صـمم على ضرب القـداح ثلاث مرات تأكـيدا للـوفاء وفى كل مـرة تشيـر إلى الإبل، عندئذ اطمأنت نفس عبد المطلب، ونحر الإبل المائة وأطعـم الناس وترك ما بقى للطيور والسباع. وهكذا شاء الله عز وجل أن يكون هذا الفداء كـرامة للنسمة المباركة، التى ستخـرج من ظهر عبد الله بن عبد المطلب، وإرهاصا بين يدى المولود الذى لا يزال فى ضميـر الغيب وهو سيد الخلق محمد بن عبـد الله؛ الذى يروى أنه قال: «أنا ابـن الذبيحين» الأول إسـماعـيل والثانى عـبد الله بن عـبد المطلب.

الغزو الحبشى لمكة المكرمة

فى نهايـة الربع الأول من القرن السـادس الميلادى قامت الحـبشـة بغزو اليمـن بأمر الدول البيزنطية التى كان يهمها بسط سلطانهـا على المواقع الإستراتيچية فى بلاد العرب فى إطار التنافس المستمـر بينها وبين الإمبراطورية الفارسـية على السيطرة على الممرات والطرق التـجارية، وقد نجح الأحبـاش فى احتلال اليـمن لمدة نصف قرن من الزمـان تقريبا مـن ٥٢٥ إلى ٥٧٥م، ثم استطاع سيف بن ذى يزن طرد الأحباش بمسـاعدة الفرس، الذين انتهزوا فرصة خـروج الأحباش وحكموا هم اليمن حكما مباشرا بعد وفـاة سيف بن ذى يزن، وظل الأمر كذلك إلى ظهور الإسلام حيث كانت اليـمن أول جزء من شبه جـزيرة العرب تضم إلى الدولة الإسلاميـة، حيث أسلم حاكـمها الفارسى سنة ٧هـ، وأقره النبى ﷺ ملكا على حكم اليمن.

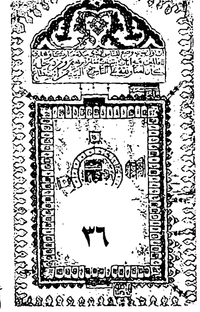


والذى يهمنا هنا هو محاولة الأحباش غزو مكة المكرمة، وهدم الكعبة المشرفة انتقاما من قريش التى عبث أحد أبنائها بالكنيسة التى كان الأحباش بنوها فى صنعاء ليحج الناس إليها وينصرفوا عن الكعبة التى كان يقصدها الحجاج من جميع أنحاء شبه جزيرة العرب، هذا هو السبب الظاهر للغزو الحبشى لمكة وهدم الكعبة، غير أن بعض المؤرخين يرى أن السبب أبعد من ذلك وهو ليس سببا دينيا فى المقام الأول بل سببا اقتصاديا فقد كان موسم الحج فى مكة طيلة ثلاثة شهور (ذى القعدة، وذى الحجة، والمحرم)، وكذلك موسم العمرة فى شهر رجب من كل عام، كانت تلك المواسم أعظم سوق تجارى فى شبه جزيرة العرب، وكان الأحباش يرون أن وجود الكعبة فى مكة هو سبب ذلك الرواج الاقتصادى الذى ينعم به أهلها، فإذا هم استطاعوا هدم الكعبة تحول الناس إلى كنيسة صنعاء ومن ثم تحولت التجارة إليها.

لذلك جهز أبرهة الأشرم الحبشى جيشه وسار به إلى مكة، وكان يتقدم الجيش الفيل العظيم الذى لم ير العرب مثله من قبل، ولم يكن فى مقدور أهل مكة مواجهة هذا الجيش الكبير، وأبرهة نفسه لم يكن راغبا فى الحرب وإنما هدفه هدم الكعبة، فإذا خلَّت قريش بينه وبين الكعبة يهدمها فلا ضرورة للحرب؛ ولذلك أرسل رجلا من رجاله اسمه حناطة الحميرى إلى مكة ليبحث عن زعمائها ويعرض عليهم الأمر، فذهب الرجل إلى عبد المطلب بن هاشم أبرز زعماء مكة فى ذلك الوقت وحدثه فى الأمر، فذهب على رأس وفد من كبار رجالات مكة إلى معسكر أبرهة، وعرضوا عليه أن يتنازلوا له عن ثلث ثمار منطقة تهامة ويرجع دون أن ينال الكعبة بأذى، ولكنه رفض ذلك وصمم على هدمها، عندئذ طالبه عبد المطلب بأن يرد له إبله التى كان جيشه قد استولى عليها، فقال له أبرهة: أيها الشيخ لقد هبتك حين رأيتك فلما كلمتنى زهدت فيك، فكيف تكلمنى عن الإبل وتتخلى عن البيت الذى هو دينك ودين آبائك، عندئذ قال عبد المطلب كلمته المشهورة: «أما الإبل فهى لى وأما البيت فله رب يحميه».

وبالفعل حمى الله بيته وذاد عنه، حيث أنزل على أبرهة وجيشه طيرا أبابيل، وقد سجل القرآن الكريم ذلك الحدث فى سورة سميت سورة الفيل.

قال تعالى: ﴿ **أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِأَصْحَابِ الْفِيلِ (١) أَلَمْ يَجْعَلْ كَيْدَهُمْ فِي تَضْلِيلٍ (٢) وَأَرْسَلَ عَلَيْهِمْ طَيْرًا أَبَابِيلَ (٣) تَرْمِيهِم بِحِجَارَةٍ مِّن سِجِّيلٍ (٤) فَجَعَلَهُمْ كَعَصْفٍ مَّأْكُولٍ (٥)** ﴾ [الفيل].



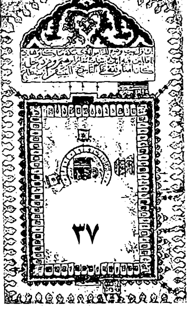
مكة بعد حادثة الفيل

دمر الله تعالى جيش أبرهة بأبسط جنوده؛ وهى الطير الأبابيل وهلك أبرهة نفسه من وباء الجدرى الذى تفشى فى الجيش، لكن ذلك الحادث العجيب زاد من مكانة مكة الدينية والتجارية وزاد إقبال العرب على الحج إلى البيت الحرام وزادت لذلك مكانة عبد المطلب بن هاشم وترسخت زعامته وجرت كلمته التى قالها لأبرهة: «للبيت رب يحميه»، على كل لسان، ولا زال الناس يرددونها عندما يواجهون خَطْبًا لا قبل لهم به، ومما دل على علو مكانته بعد حادثة الفيل أنه تزعم وفد قريش الذى أرسلته إلى اليمن لتهنئة سيف بن ذى يزن بتحريرها من الأحباش، كما زادت مكانة مكة وهيبتها فى نفوس العرب بعد حادثة الفيل فقد اتسعت علاقاتها وتشعبت بكثير من قبائل العرب، وبصفة خاصة تلك القبائل التى كانت تقطن الطريق التجارى المؤدى إلى الشام، وهى قبائل جهينة ومزينة وأشجع وغفار وضمرة، وكانت على علاقات طيبة ببنى عذرة من قضاعة على أطراف الشام، وقد ترسخت تلك العلاقة منذ أيام قصى بن كلاب الذى كان تربى فى بنى عذرة حيث تزوجت أمه من أحدهم، وهم الذين أعانوه فى الوصول إلى زعامة مكة، كما سبقت الإشارة، كذلك ارتبطت مكة بعلاقات طيبة مع القبائل القاطنة على الطريق التجارى المؤدى إلى اليمن، مثل قبيلة خثعم التى كانت تعيش فى الهضبة الممتدة من الطائف إلى نجران.

وكما حالفت مكة القبائل البدوية فقد كانت لها علاقات طيبة مع المدن الحجازية الأخرى، مثل الطائف ويثرب:

أما الطائف فكانت بينها وبين مكة علاقات وثيقة؛ مصاهرات وصداقات وكان كثيرون من أغنياء مكة لهم أملاك وعقارات وبساتين فى الطائف، وكان أبناء الطائف يشاركون فى قوافل مكة التجارية، وكانت سوق عكاظ وهى أكبر وأشهر أسواق العرب على مقربة من الطائف، وباختصار فقد كانت علاقة مكة بالطائف أقوى من علاقاتها بأية قبيلة أو مدينة أخرى، وقد وضحت قوة تلك العلاقات عند ظهور الإسلام، فقد لمسنا نوعا من توحيد المواقف فى مواجهة الدعوة الإسلامية فى البداية وكانت مقولتهم التى ذكرها القرآن الكريم: ﴿ **وَقَالُوا لَوْلَا نُزِّلَ هَٰذَا الْقُرْآنُ عَلَىٰ رَجُلٍ مِّنَ الْقَرْيَتَيْنِ عَظِيمٍ** (٣١) ﴾ [الزخرف].

كانت هذه المقولة إشارة واضحة إلى توحيد مواقف المدينتين، بحيث إنه لو جاءت الرسالة الإسلامية لرجل من زعماء أحدهما لآمنت به كلتاهما.



ولعل موقف أهل الطائف من النبى ﷺ حين ذهب إليهم يطلب نصرتهم، ذلك الموقف السيئ حيث سبوه وشتموه وأغروا به أطفالهم وسفهاءهم، لعل هذا الموقف كان مجاملة من أهل الطائف لأهل مكة، لأنهم كانوا يعلمون أن ذلك يرضيهم ولو كانوا يعلمون أن مكة ستغضب لإساءتهم إلى النبى ﷺ لما أقدموا على ذلك.

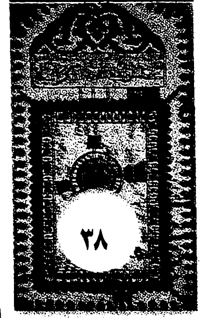
هذا عن علاقة مكة بالطائف، أما علاقتهم بيثرب فإنها لم تكن فى قوة علاقتهم بالطائف إلا أنها كانت طيبة ولم يشبها أى نوع من أنواع العداء.

فقد تزوج هاشم بن عبد مناف من سلمى بنت عمرو بن زيد من بنى النجار، وأنجب منها ابنه عبد المطلب الذى قضى شطرا من حياته عند أخواله، وظل على صلة وثيقة بهم، هذه الصلة التى سيكون لها أثر عند هجرة النبى ﷺ إلى يثرب (المدينة المنورة) وكان لكثيرين من زعماء مكة غير عبد المطلب صداقات مع زعماء يثرب.

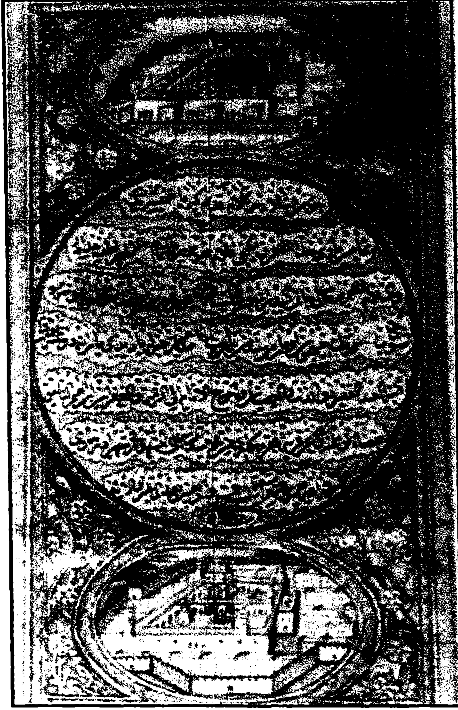
فقد كان أمية بن خلف القرشى، زعيم بنى جمح صديقا لسعد بن معاذ، زعيم الأوس وكان للعاص بن وائل زعيم بنى سهم وعتيبة بن ربيعة بن عبد شمس صداقات مع زعماء يثربيين، وباختصار ظلت علاقات مكة بيثرب طيبة، ثم تحدث الجفوة بل العداء والحرب بعد هجرة النبى ﷺ إلى يثرب ووقوف أهلها معه ونصرته؛ ولذلك سموا الأنصار، ولكن هذا كان وضعا مؤقتا فبعد فتح مكة وإسلام بقية قريش ذهب العداء وسار أبناء المدينتين معا لنصرة الإسلام وشاركوا فى الفتوحات الإسلامية وفى بناء الحضارة الإسلامية وكان منهم الخلفاء والأمراء وقادة الجيوش.

مكة المكرمة وعلاقاتها الخارجية:

على الرغم من أنه لم تقم فى مكة دولة بالمعنى الدقيق لكلمة دولة، وأن قريشا كانت تدير أمورها من خلال مجلس القبيلة ـ الملأ ـ حيث كان يجتمع شيوخها وأعيانها فى دار الندوة لمناقشة مشكلاتهم وعلاقاتهم بغيرهم، ويتخذون القرارات المناسبة، ولم يكن لهذه القرارات قوة ملزمة، اللهم إلا العرف الذى جرت عليه حياتهم، على الرغم من هذا فإن من يطالع تاريخ مكة فى القرن السادس الميلادى، وهو القرن السابق لظهور الإسلام يدرك أنه أصبح لمكة علاقات دولية بكل الدول المحيطة بشبه جزيرة العرب، فضلا عن علاقاتها الداخلية بعرب شبه الجزيرة، كعلاقاتها باليمن، التى تمتد جذورها إلى قيام الدول اليمنية القديمة، مثل الدول المعينية والقتبانية والسبئية التى بدأت فى الظهور منذ منتصف الألف الثانية قبل الميلاد، كذلك أصبح لمكة المكرمة علاقات طيبة مع الدولتين العظميين فى ذلك الوقت، الفرس والروم.



هذه العلاقات نمت وازدهرت مع نمو مكانة مكة وازدهار تجارتها بعد حادثة الفيل، ولقد أظهر زعماء مكة مقدرة كبيرة ومهارة وكياسة فى إدارة هذه العلاقات مع دول كانت متنازعة ومتحاربة فيما بينها، وقد حافظ زعماء مكة على علاقات ودية مع الفرس والروم فى الوقت الذى كانت الحرب مشتعلة بينهم، وبهذا حافظوا على استقلال بلدهم، واستقلال قرارهم بحيادهم بين هذه الدول، ولعلها حكمة إلهية بالغة تلك التى حمت مكة المكرمة من أن تقع تحت سيطرة أية قوة أجنبية فى تاريخها كله، فقد صان الله تلك الأرض المقدسة من أن تدنسها قدم احتلال أجنبى حتى يوم الناس هذا.



المسجد الحرام والمسجد النبوى - تصويرة من مصحف شريف سنة ١٢٤٥هـ/ ١٨٢٤م

علاقات مكة بالفرس:

كانت اليمن تضطلع بدور رئيس بحكم موقعها فى التجارة العالمية بين الشرق والغرب، ولكن منذ سقوطها تحت الاحتلال الحبشى فى نهاية الربع الأول من القرن السادس الميلادى ثم تحت الاحتلال الفارسى منذ بداية الربع الأخير من ذلك القرن، منذ ذلك الوقت تدهورت أحوالها وتضاءل دورها التجارى، وكان ذلك فى صالح مكة، التى علت مكانتها وحظيت بنوع من التنظيم والاستقرار بسبب حكمة زعماء قريش وبعد نظرهم وحرصهم على عدم الزج بأنفسهم فى الصراع القائم بين الفرس والروم، ويبدو أن كلا من الفرس والروم قد أعجبهم حياد مكة لحاجتهم إلى وسيط تجارى محايد ضمانا لسلامة تجارتهم؛ ولذلك كان من السهل على أحد زعماء مكة وهو نوفل بن عبد مناف أن يحصل على معاهدة مع كسرى - ملك الفرس - تتيح لأهل مكة التجارة فى البلاد الفارسية وملحقاتها كالعراق ومنطقة الخليج وتتيح لتجارة هذه البلاد الوصول إلى أسواق مكة، فمن المعلوم أن العراق كانت تحت السيطرة الفارسية، وكان حكامها العرب المناذرة هم الذين يقومون بتوصيل التجارات الفارسية إلى أسواق مكة، إضافة إلى تجارتهم هم وكانوا مسئولين عن



توفير الحمـاية لتلك التجارة عن طريق اتفاقات مع زعمـاء القبائل التى تمر تلك التجارة بديارهم نظير مبالغ من المال تدفع لهم.



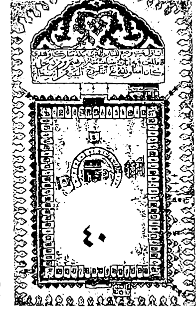
إيوان كسرى بالعراق

وقد ازداد نشاط مكة التجارى مع ملوك الحيرة المناذرة وكلاء الفرس كما تأثروا بهم حضـاريا حتى ليقـال إن أهـل مكة تعلموا الكتابة من عـرب الحيرة.

وظلت العلاقات التـجارة بين مكة والفرس عن طريق الحيرة قائمـة إلى ظهور الإسلام، بل زادت قريش مـن نشاطها التـجارى فى تلك الجـهات بعـد هجرة النبى ﷺ إلى المدينـة، وتصدى المسلمين لتجارة قـريش الذاهبة إلى الشام عن هذا الطريق عقابا لها على ما صنعـته معهم فى مكة من تعـذيب وأذى ومصـادرة أموالهم وإخـراجهم من ديارهم، عندئذ حـاولت قريش أن تـعوض خسارتها بمضاعفة تجارتها مع الفرس وعـرب الحيرة، لكن حتى هذا الطريق نفسه لم يعد آمنا، فقد تصدى لها المسلمون وضـيقوا عليها الخناق لتخفف من عدائهـا نحوهم، وظل الأمر كذلك إلى أن حسم فى النهـاية بفتح مكة وانتصار المسـلمين بعدها جرت عـجلة التاريخ جريانا سريعـا فدخلت الدولة الفارسية نفسها وكل توابعها تحت راية الإسلام.

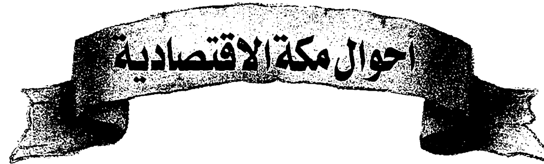
علاقات مكة بدولة الروم وملحقاتها:

فى صراعهـا مع الفرس على السيطرة على البلاد العـربية، وبصفة خاصـة الممرات والمراكز التجارية حاولت دولة الروم ـ الـدولة البيزنطية ـ أن تبسط سلطتها عـلى مكة، وقد سبق أن أشرنا إلى تشجيـعهم الحبشة على احـتلال اليمن نيابة عنهم؛ لأن الحبـشة كانت تدين بديانتهم المسيـحية وتدور فى فلكهم، هذه المرة أرادوا أن تكون مكة المكرمة نفسها تحت سيطرتهم عن طريق رجل من

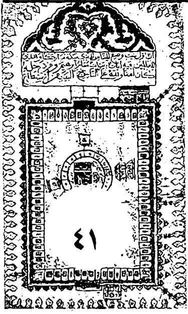


أبنائها، هو عثمان بن الحويرث بن أسـد بن عبد العزى القرشى، الذى كان من الرافضين لوثنية قريش، فقد حـاول البحث عن ديانة أفضل منها وأداه بحثه إلى أن وصل إلى القسطنطينيـة واعتنق المسيحـية، وحسنت مكانته عند إمـبراطورها الذى رآها فرصة مـواتية أن يستخدم ذلك العـربى ـ الذى دان بديانته ـ فى بسط نفوذه على مكة، وكتب له كتابا إلى قومـه بأنه ملكه عليهم، وقد حاول عثمان بن الحويرث أن يقنع قـريشا بذلك،وخوفـهم عواقب إغضاب إمـبراطور الروم، فقد يصل الأمر إن لم يستجيبوا له أن يمنع تجارتهم من الوصول إلى بلاد الشام، ولو حدث هـذا لأضر بهم ضـررا كبيـرا، لكن قريشـا رفضت رفـضا حـاسمـا خطة عثـمان بن الحويرث، وأصرت على بقاء مـكة بعيدة عن حلبة الصراع الرومى الفارسى وأن تحـتفظ بحيادها، وكانوا من الحكمة والكـياسة وبعد النظر بحيث أدركـوا أنهم وإن كانوا يستفـيدون من تجارتهم مع الروم ووكلائهم من الغساسنة، فإن هؤلاء وأولئك يستفـيدون أيضا، فحاجة الروم والغساسنة إلى مكة ليست أقل من حاجة مكة إليهم، فالجميع له مصلحـة حيوية فى استمرار العلاقات التجارية، وبالفعل فـإن رفض قريش خطة عـثمان بن الحـويرث لجعل مكة تابعـة لدولة الروم لم يؤثر على العلاقات بين قريش ودولة الروم ووكلائهم الغساسنة بصفـة عامة، وعلى العلاقات التجارية بصفة خاصة، فقد استمرت تلك العلاقات بل تطورت وازدادت وظل الأمر كذلك إلى أن ظهر الإسلام، وهاجر النـبى ﷺ إلى المدينة المنورة، وأقام دولتـه وأصبح طريق قـريش التجارى إلـى الشام تحت سيطرة المسلمين، الذين حـاولوا مضايقة قريش والتـصدى لتجارتها لا لإهلاكهـا ولكن لإجبارها على تغيير سياستها نحوهم وتخـفيف عدائها لهم، وقد حدثت بينهم وبينها حروب فى بدر وأحد والخندق، وفى النهاية آتت سياسة الرسول ﷺ نحو قريش نتائجها.

ففتحت مكة فى العام الثامن الهجـرى بدون حرب تقريبا، وبفتح مكة وإسلام قريش بدأت كل جزيرة العرب تدخل فى الإسلام، ثم تبعتهـا الشام فى عهد الخلفاء الراشدين، وبذلك أخذت العلاقـات مع دولة الروم وضعا جديدا، فـبعد أن كانت عـلاقاتها مع قريش أصـبحت مع الدولة الإسلامية وتلك قصة أخرى تخرج عن نطاق هذا البحث.



على الرغم من قيام مكة المكرمة فى واد غيـر ذى زرع، كما أخبر بذلك القرآن الكريم، إلا أنها كانت تتمتع بدرجـة عالية من الرخاء والازدهار الاقتصادى وكان بعض أغنيائهـا يعيشون حياة مترفة، وكان سبب هذا الرواج الاقتصادى أمرين:

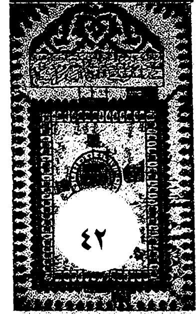


الأمر الأول: الحج، فمنذ أن أمر الله تعالى إبراهيم عليه السلام أن يعيد بناء البيت الحرام، أن يؤذن فى الناس بالحج ـ كما سبقت الإشارة، منذئذ ووفود الحجيج لم تنقطع منه أبدا، وعلى الرغم من وجود كثير من بيوت العبادة فى شبه جزيرة العرب فى العصر الجاهلى، مثل بيت الأقيصر فى مشارف الشام الذى كان يحج إليه قبائل قضاعة ولخم وجذام وعاملة، وبيت ذى الخلصة فى اليمن، والذى كانوا يطلقون عليه الكعبة اليمانية، والذى كان يحج إليه قبائل دوس وخثعم وبجيلة، ثم بيت صنعاء وبيت نجران. .إلخ على الرغم من كثرة هذه البيوت فإن البيت الحرام هو الذى حظى بأعلى مكانة وأكبر قداسة عند العرب جميعا، وهو الذى خصه الله تعالى بالأمن والأمان، حيث قال تعالى: ﴿**وَإِذْ جَعَلْنَا الْبَيْتَ مَثَابَةً لِّلنَّاسِ وَأَمْنًا** . . (١٢٥)﴾ [البقرة]، وقال تعالى: ﴿ . . **وَمَن دَخَلَهُ كَانَ آمِنًا** . . (٩٧)﴾ [آل عمران] وقال تعالى ممتنا على قريش عندما دعاهم النبى ﷺ إلى الإسلام فأعرضوا: ﴿ . . **أَوَلَمْ نُمَكِّن لَّهُمْ حَرَمًا آمِنًا يُجْبَىٰ إِلَيْهِ ثَمَرَاتُ كُلِّ شَيْءٍ رِّزْقًا مِّن لَّدُنَّا وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ** (٥٧)﴾ [القصص].

كان العرب يأتون من جميع أرجاء شبه جزيرتهم، بل من خارجها ـ من العراق والشام ـ ليحجوا إلى بيت الله الحرام لتحقيق أكثر من هدف، منها الدينى ومنها الاجتماعى كتقوية الروابط بين القبائل ومنها الثقافى حيث كانت تعقد الندوات الثقافية فى عكاظ ومجنة وذى المجاز، ويلقى كبار الشعراء أشعارهم، ويتبارى الخطباء فى خطبهم، وكان الحج مناسبة لتبادل المعلومات والأفكار والأخبار بين الحجيج عما يدور فى بلادهم، وفى البلاد المجاورة لهم، مثل أخبار الفرس والروم وحروبهم وعلاقاتهم، ومن أهم الأهداف التى كان يحققها المكيون من الحج هو الهدف الاقتصادى، فطوال أشهر الحج الثلاثة، (ذى القعدة، وذى الحجة، والمحرم) كانت أسواق مكة وما حولها تعج بأنواع التجارات الوافدة من البلاد القريبة والبعيدة، وكانت الحرب محرمة عندهم فى تلك الأشهر الحرم، إضافة إلى شهر رجب الذى كان يخصص للعمرة، لأنه لكى يتاجر الناس ويقبلوا ببضاعتهم لابد أن يتحقق لهم الأمن، ولذلك كانوا يحترمون هذا التقليد، حتى قال قائلهم: كان الرجل يلقى قاتل أبيه أو أخيه فى الأشهر الحرم فلا يمسه بأذى.

وقد حقق أهل مكة من وراء ذلك ثراء عريضا، وأصبحت بلدهم أهم مركز تجارى فى شبه جزيرة العرب، والاتجار فى موسم الحج أمر مباح ولا غبار عليه حتى فى الإسلام، وهذا مأخوذ من قوله تعالى: ﴿**وَأَذِّن فِي النَّاسِ بِالْحَجِّ يَأْتُوكَ رِجَالًا وَعَلَىٰ كُلِّ ضَامِرٍ يَأْتِينَ مِن كُلِّ فَجٍّ عَمِيقٍ** (٢٧) **لِّيَشْهَدُوا مَنَافِعَ لَهُمْ** . .(٢٨)﴾ [الحج].

فقد قال المفسرون: المنافع منها الأخروى ومنها الدنيوى، وهو ما يجنونه من مكسب التجارة وهذا تحقيقا لدعوة إبراهيم عليه السلام، حين دعا الله لهم قائلا: ﴿ **رَّبَّنَا إِنِّي أَسْكَنتُ مِن ذُرِّيَّتِي بِوَادٍ**

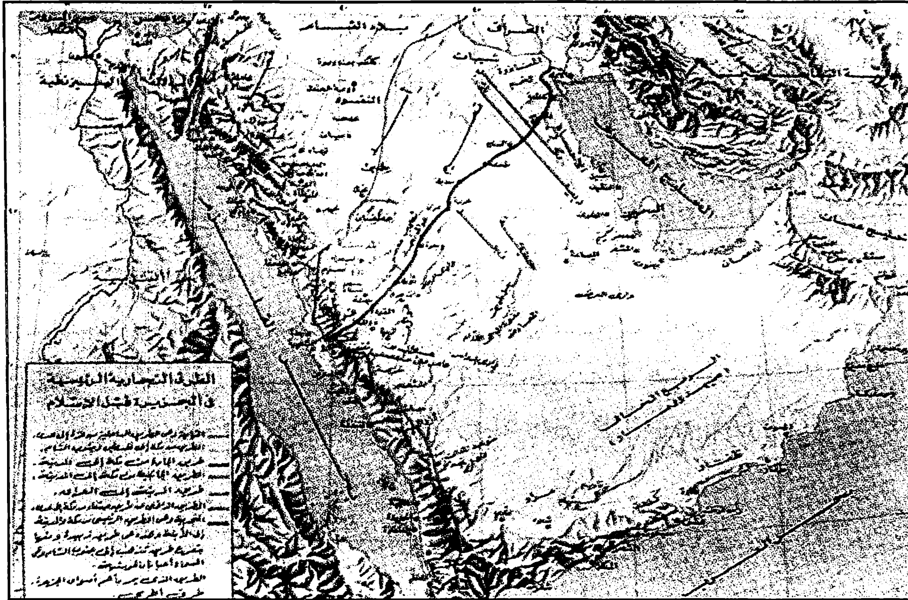


غَيْرِ ذِي زَرْعٍ عِندَ بَيْتِكَ الْمُحَرَّمِ رَبَّنَا لِيُقِيمُوا الصَّلاةَ فَاجْعَلْ أَفْئِدَةً مِّنَ النَّاسِ تَهْوِي إِلَيْهِمْ وَارْزُقْهُم مِّنَ الثَّمَرَاتِ لَعَلَّهُمْ يَشْكُرُونَ ﴿٣٧﴾ [إبراهيم].

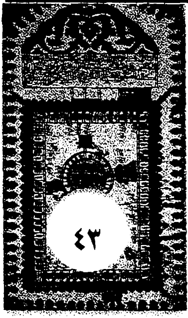


آثار من العصر العباسى في سوق عكاظ

الأمر الثانى الذى حقق لأهل مكة الرخاء والازدهار الاقتصادى هو التجارة مع البلاد المجاورة، فإضافة إلى ما كانوا يحققونه من أرباح فى موسم الحج كانوا يحققون أرباحا أخرى كثيرة من التجارة العالمية التى كانوا يقومون بدور الوسيط فيها، والتى برعوا فيها ومن أجلها أقاموا علاقات داخلية مع معظم القبائل العربية وبصفة خاصة تلك التى تمر قوافلهم بأراضيها؛ سواء عبر الشمال إلى الشام، أم عبر الشرق إلى نجد ثم العراق، أم إلى الجنوب نحو اليمن، ومن أجلها



خريطة التجارة قبيل ظهور الإسلام فى الجزيرة العربية

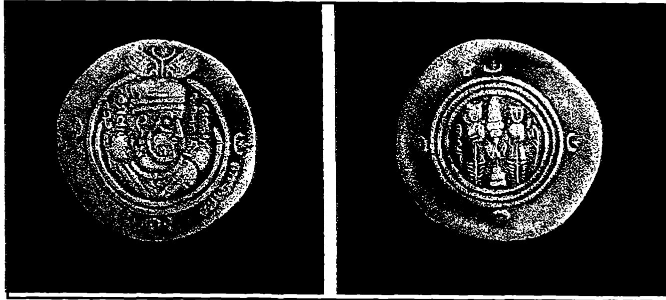


أيضا أقاموا علاقات طيبة مع الدول الكبرى المحيطة بهم، فكما سبقت الإشارة أقاموا علاقات مع الفرس وأخذوا منهم إذنا بالتجارة فى بلادهم، وكذلك فعلوا مع الروم حيث سمحوا لهم بالاتجار فى بلاد الشام، بل عرفت قوافلهم التجارية طريقها إلى مصر، وتتحدث المصادر أن كثيرين من أبناء مكة زاروا مصر، مثل عمرو بن العاص.

وكذلك أقاموا علاقات تجارية مع الحبشة التى كانت مصدرا هاما من مصادر التجارة الشرقية مثل البخور والطيب والتوابل والجلود وريش النعام.

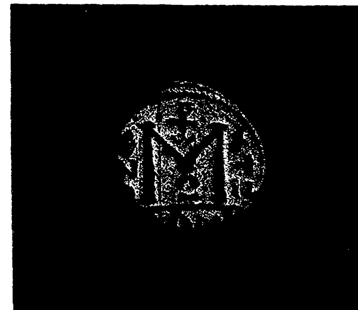
أنواع التجارات:

أظهر أبناء مكة ذكاء وفطنة وكياسة فى علاقاتهم بالدول والجماعات التى كانوا يتاجرون معها، وأداروا تلك العلاقات بمقدرة وحنكة جنبتهم الصدام مع غيرهم. وحافظوا بذلك على مركزهم التجارى وجنوا الأرباح الطائلة.



دينار ساسانى استخدم حتى عهد الخليفة معاوية بن أبى سفيان

وكانت قوافلهم التجارية ضخمة، فقد كانت بعض القوافل تضم نحو ألفى بعير، وكانت الحاصلات وأنواع التجارات والسلع والبضائع التى تحملها تلك القوافل منها ما يأتى من الهند، مثل الذهب والقصدير والأحجار الكريمة والعاج وخشب الصندل والتوابل، والمنسوجات الحريرية والقطنية والكتانية... إلخ.

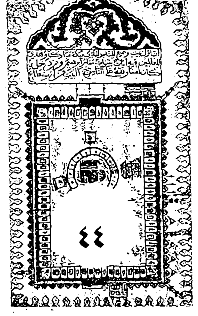


دينار بيزنطى



فلس عليه صورة الإمبراطور البيزنطى

ومن شرق أفريقيا، مثل العطور والطيب والأبنوس



والجلود وريش النعام والذهب والعاج والرقيق. . إلخ، ومنها ما يأتى من اليمن مثل البخور واللبان والعطور والأحجار الكريمة والجلود. . . إلخ، ومنها ما يأتى من الشام مثل القمح والدقيق والزيوت والخمور. . . إلخ كانت كل أنواع هذه التجارات إضافة إلى منتجات بلاد العرب نفسها من زيوت وتمر وصوف ووبر وجلود، كان كل ذلك يصب فى مكة المكرمة، ثم يباع منه ما يباع فى موسم الحج والعمرة والباقى يحمل إلى البلاد الأخرى، وهكذا تكتمل الدورة التجارية فى كل عام، وكانت عملة التعامل عندهم هى الدينار الذهب البيزنطى والدرهم الفضة الفارسى.

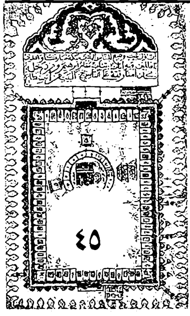
الأوضاع الاجتماعية فى مكة

وقد اقتربنا من نهاية الحديث عن مكة المكرمة فى العصر الجاهلى، فينبغى أن يعرف القارئ تركيبة المجتمع المكى عشية ظهور الإسلام، الذى سيدخل تعديلا جذريا لهذه التركيبة، لا فى مكة وحدها، بل فى جميع البلاد التى ستدخل فى الإسلام، فقد قامت دعوة الإسلام على المساواة المطلقة بين البشر فى أصل خلقتهم، فالناس جميعا من أب واحد وأم واحدة، وأكرمهم عند الله أتقاهم.

ولقد كانت دعوة المساواة هذه من أهم ما أثار عداوة قريش للإسلام فى البداية، إذ كيف يسوى بين السادة والعبيد؟

نشأت مكة المكرمة ـ كما أسلفنا القول ـ بعد استقرار إسماعيل عليه السلام وأمه فيها، وكانت أول قبيلة عربية عمرتها وسكنتها هى قبيلة جرهم اليمنية، ثم بعد جرهم خزاعة وبعد خزاعة قريش، التى جمعها قصى بن كلاب بن مرة من البوادى وأخرج خزاعة من مكة وأسكنها قريشا، كان ذلك فى مطلع القرن الخامس الميلادى، ولقد مر بنا ما فعله قصى وأولاده وأحفاده لمكة من تطوير، وما أنشأوه فيها من نظم ووظائف، فلا يختلف المؤرخون على أن مكة مدينة لتطورها وازدهارها وعمرانها لقصى وأولاده وأحفاده بالشىء الكثير.

كان سكان مكة عشية ظهور الإسلام يتكونون من ثلاث طبقات:



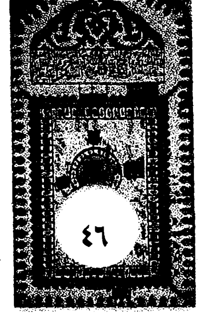
١ - قريش:

وهم أبناء القبيلة الذين أطلق عليهم المؤرخون (الصرحاء)، وهم أصل المجتمع المكى وسواده الأعظم، وكانوا يتمتعون بكل ما نظمه قانون العرف القبلى من حقوق، كما كان عليهم ما فرضه من واجبات، على أساس من التضامن التام بين الفرد والجماعة، فى ظل رابطة الدم المشترك. . . وقد حظيت قريش بنوع من الاستقرار والأمن لم يتوافر لغيرها من القبائل، فقد ضمن لها وجودها بجوار البيت الحرام حرمة عامة فى نظر القبائل العربية، فسلمت من الغارات القبلية عليها، كما أنه لم تحدث بين بطون قريش اشتباكات تؤدى إلى وقوع الدماء بينها، بل حرصت القبيلة دائما على حل منازعاتها العشائرية سلميا، ولكى تقضى على المنافسات العشائرية توسعت فى قاعدة الحكم، وارتضت نوعا من الحكومة تستطيع أن تسميه حكومة النظراء، وهى حكومة الملأ المكون من زعماء العشائر. . وكانت وحدة القبيلة القرشية مظهرا رائعا فى نظر القبائل العربية التى جعلت من قريش موضع إجلالها وقدوتها، وأصبح كثير من رجالها فى مكان الحكام بين المتنازعين من قبائل العرب.

٢ - طبقة الموالى:

كثر العرب الأحرار الذين سكنوا مكة من غير قريش، وارتبطوا مع أهلها برابطة الولاء، فهم موالى لا بمعنى العبيد الذين أعتقوا ـ كما هو الشائع من هذا التعبير ـ ولكن موالى بمعنى الحلفاء، وذلك كالأخنس بن شريق الثقفى، الذى كان مولى لبنى زهرة، أحد البيوتات المرموقة فى مكة، وبديل بن ورقاء الخزاعى، الذى كان ذا منزلة كبيرة فى مكة. وكان هؤلاء الموالى مسموعى الكلمة عند زعماء قريش، لهم تأثير كبير على القرار القرشى، فقد استطاع الأخنس بن شريق التأثير على حلفائه بنى زهرة وأقنعهم بعدم المشاركة مع قريش فى غزوة بدر سنة ٢هـ ضد الرسول ﷺ فلم يشهد بدرا زهرى واحد ـ على حد قول ابن إسحاق ـ استجابة لرأى الأخنس لأنه كان فيهم مطاعا.

أما بديل بن ورقاء الخزاعى فقد بلغ من مكانته فى مكة أن كان أحد الزعماء الثلاثة الذين خرجوا لملاقاة النبى ﷺ حين قدومه لفتح مكة لأخذ الأمان منه لأهلها، والآخران هما أبو سفيان ابن حرب بن أمية وحكيم بن حزام.



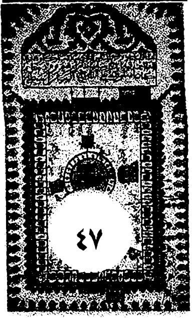
فطبقة الموالى ـ الحلفاء ـ كانت فى مكة ذات شأن كبير ومنزلة رفيعة، لأن قريشا أفسحت صدرها لـهم وعاملتهم معاملة كريمة، تمشيا مع سيـاستها العامة التى كانت تتوخى حـسن العلاقة مع الجميع؛ لأن لها فى ذلك مـصلحة ذاتية، وهم بدورهم قابلوا إحسـان قريش لهم بأحسن منه، فقد أخلصـوا لها إخلاصا كبيرا وأعلوا مصلحـتها فوق كل اعتبار، لدرجة أنهم كانوا يقـاتلون فى صفوفها كأنهم من صريحها، وتمثل ذلك فى حروب قريش ضد الرسول ﷺ، وإذا نظرنا إلى قوائم القتلى والأسرى التى أوردها ابن إسحـاق فى غزوة بدر الكبرى لوجدنا أن هؤلاء الموالى قد تحملوا ما يقرب من نصف الخسائر حتى قائمة المهاجرين الأولين بعد بيعة العقبة الثانية كان أكثر من نصفهم من هؤلاء الموالى.

٣ - طبقة العبيد:

وجدت فى مكة أعـداد كبيـرة من العبيـد قبل الإسلام لحـاجة أهل مكة إليهم فى أعـمال التجارة، فـأشراف قريش كانوا يأنفـون من العمل اليدوى، فحـمل التجارة على الإبل وتفـريغها وتخزينها وإخراجها للأسواق، كل ذلك يتطلب أعدادا هائلة من الأيدى العاملة، وكان عبء ذلك كله يقع على هؤلاء العـبيد، كـذلك كان أثرياء مكة فى حاجـة إلى أعداد كبـيرة منهم لخدمـتهم الخاصة فى شؤون حياتهم، فكثير من هؤلاء الأثرياء كانوا يعيشون حياة ناعمة مترفة؛ ولذلك كان طلبهم للعبـيد ـ بنين وبنات ـ للقيام على خدمـتهم وإرضاء لنزواتهم خاصة فى مـجالس الشراب والطرب والسمر، وكانت الغـالبية العظمى من هؤلاء العبيد تأتى من شرق أفريقـيا، وكان بعضهم يأتى من العـراق والشام، وكان هؤلاء من أسـرى الحروب التى كـانت كثـيرة الوقوع بـين الفرس والروم، فكانوا يجلبون إلى مكة ويباعون لأهلهـا، كذلك عرفت مكة الرقيق الذى كان يجلب من أسواق النخاسة فى أوروبا وغالبيتهم من الجنس الأبيض، وكـان هؤلاء العبيد فى جملتهم يقومون بالدور الرئيسى فى دنيا التجارة القرشية، وما تتطلبه من إدارة وبيع وشراء.. إلخ، كما كان بعضهم يجيد كثيـرا من الحرف والمهن التى يحتاج إليها أهل مكة، مثل أعمـال البناء التى كانت تحتاج إلى كثير من المهن والحرف كالحدادة والنجارة... إلخ.

وعرفت بيوت أثرياء مكة كـثيرا من الإماء اللاتى كن يخدمن فى البيـوت، بل بعضهم كن يتخذن للمتعة الشخصية والترفيه عن الأثرياء فى الحانات وأماكن اللهو.

وباختصار كثر الرقيق فى مكة كثرة هائلة حتى ليـروى أن سعيد بن العاص اشترى مائة عبد وأعتقهم دفعة واحدة.



وقد ترك هؤلاء العبيد أثرا لا ينكر فى حياة أهل مكة، وشاعت بينهم أسماء ومصطلحات حبشية وفارسية ورومية بتأثير هؤلاء العبيد.

وكان بعض هؤلاء العبيد يعاملون معاملة قاسية؛ ولذلك كان ترحيبهم عظيما بدعوة الإسلام إلى المساواة، ومعاملتهم معاملة كريمة، ومن آمن منهم تحمل كثيرا من الأذى، مثل بلال بن رباح، الذى لم ينقذه من العذاب إلا أبو بكر الصديق فقد اشتراه من سيده أبى بن خلف وأعتقه.

هذه هى باختصار شديد أوضاع مكة المكرمة وأحوالها السياسية والدينية والاقتصادية والاجتماعية منذ نشأتها إلى ظهور الإسلام الحنيف الذى بدل كل شىء فيها وفى غيرها من بلاد العالم.





فى عـام الفيل ـ عـام غزو الحبشـة لمكة المكرمة ـ نحـو سنة ٥٧٠م ولد محمد بن عبد الله بن عبد المطلب بن هاشم بن عبد مناف بن قصى بن كلاب بن مرة، والذى يرتفـع نسبه إلى إسـماعيل ابن إبراهيم، عليـهمـا السلام، فهـو من ذؤابة العرب العدنانية ـ وهم الذين يـسميهم المؤرخون العرب المـستعربة، تمييزا لـهم عن العرب (العاربة) وهم الذين ينحدرون من نسل يعرب بن قحطان، الذين هم سكان اليمن.

وقد مات عـبد الله والد النبى ﷺ قبل أن يولد هو، قـيل مات بعد شهريـن من حمل أمه به، فنشأ يتيما.

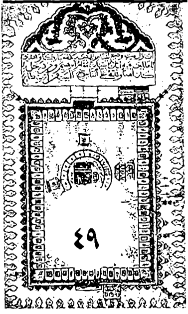
وماتت أمه وهى السيدة آمنة بنت وهب بن زهرة، وهو فى السادسة من عمره، أثناء عودتها به من زيارة قامت بهـا إلى يثرب لأخـوال جده عبد المطـلب، ولزيارة قبر أبيـه عبد الله بن عـبد المطلب الذى توفى ودفن هناك، وأثناء عودتها به مرضت وماتت ودفنت بالأبواء فعادت به جاريته أم أيمن إلى مكة، فكفله جده عبدالمطلب، وكان شديد العناية به والعطف عليه، محاولا تعويضه حنان الأب الذى لم يره، غيـر أن حياة عبد المطلب لم تـطل بعد ذلك فقد توفى بعـد عامين من وفاة آمنة بنت وهب، أم النبى ﷺ، وكفله عمه أبو طالب بن عبد المطلب وضمه إلى أولاده وكان يفضله عليهم فى المأكل والملبس.

ورسول الله ﷺ لـم يرض لنفسه أن يعـيش عالة على عـمه أبى طالب ـ الذى كـان كثـير العيال قليـل المال ـ فاحترف مهنة رعى الغنـم بالأجر لأهل مكة، ولما كبر سنه وأصـبح شابا عمل بالتجارة، وكان له شريك من أهل مكة اسمه السائب بن أبى السائب.

تجارته فى مال خديجة ورحلته الثانية إلى الشام:

اشتهر النبى ﷺ -قبل بعثته- بأعظم وأنـبل الصفات؛ من العفة والصدق فى الحديث وشرف القصد، والأمانة، حتى لقبه أهل مكة بالأمين، هذه الصفات العالية رشحته للعمل فى تجارة خديجة بنت خويلد، التى كانت من كـبار تجار مكة وأغنيائها، وتروى كتب السـيرة أن أبا طالب عرض على النبى ﷺأن يكلم له خديجـة بنت خويلد ليعمـل فى تجارتها، وهى امرأة شـريفة وكريمة وسـخية، وسوف تعطيـه أجرا مضاعـفا عما تعطى غـيره، فوافق النبى ﷺ، ولما عـرض أبو طالب الأمر على خديجة وافـقت، بل رحبت وقالت لأبى طالب «لو طلبت هذا لبـعيد بغيض لأجـبناك، فكيف وقد طلبته لقريب حبيب» وقيل أن خديجة هى التى عرضت عليه العمل فى تجارتها لصدقه وأمانته.

تم الاتفاق بين محـمد ﷺ وخديجة على العمـل معها فى تجارتهـا، وفى أول قافلة تجارية ذاهبة إلى الشام، ذهب مـحمد ﷺ مع ميسرة غلام خـديجة الأثير لديها وموضع ثقـتها، وكانت

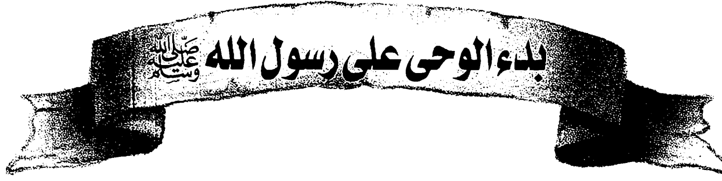


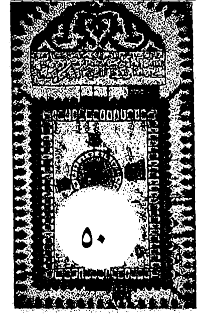
هذه هى رحلة محمد ﷺ الثانيــة إلى الشام، أما رحلته الأولى فكانت وهو فى نحو الثانية عــشرة من عمره، مع عمه أبى طالب، وكــان هو الذى تعلق بعمه وتاقت نفسه للقــيام بهذه الرحلة، ومع إشفاق عــمه عليه من مشقة الســفر فإنه أذعن لرغبــته وصحــبه معه، وهى الرحلــة التى التقى فيــها النبى ﷺ بالراهب النصرانى بحــيرى، الذى عرفــه من خلال وصفــه فى كتبــهم ونصح أبا طالب بالرجوع به إلى مكة، وحذره من غدر اليهود به، فقد قال له: «احذر عليه من اليهود، فوالله لئن رأوه وعرفوا منه ما عــرفت لبغته شرا فإنه كائن لابن أخيك هذا شأن عظيم».

وذهب محمد ﷺ مع ميسرة إلى الشام فى رحلته الثانية هذه فى تجارة خديجة وهو فى نحو الخامسة والعشرين من عمره، وظهر لميســرة عظيم أخلاق النبى ﷺ وصدقه وأمانته، فازداد حبا له من خلال مــعايشته أثناء الرحــلة، وقد نجحت التجــارة فى هذه المرة وحققت ربحــا ربما لم يحدث لخديجة من قبل، وأرد ميسرة الذى تعلق قلبــه بحب محمد ﷺ أن يكون هو الذى يبلغ خديجة بما صنع الله لهــا على يديه، وقال له: «فــإنها ستــعرف لك ذلك ـ أى ســتكافئك مكافــأة تليق بك ـ فانطلق مــحمد ﷺ حتى دخل مكة فى ســاعة الظهيرة، ودخل على خــديجة فاستقــبلته فى دارها أحسن استقبال، واستمعت إليه باهتمــام وهو يقص عليها خبر رحلته وما ربحت تجارتها، ولما أقبل ميسرة روى لها ما زادها إعجــابا بمحمد ﷺ ورغبة فيه، فقد حدثها عن رقة شــمائله وجمال نفسه وأمانته وصدقه، ولعل ميــسرة كان قد استشف من حديثه مع خديجة قــبل السفر أنها ربما تكون قد فكرت فى الزواج منه، وهى التى كــانت قد رفضت الزواج من كثــيرين من زعمــاء مكة ـ بعد أن ترملت مرتين ـ ولذلك كــان اقتراح ميســرة على محمد ﷺ أن يسبــقه إليها ليزف لهــا بشرى نجاح الرحلة وربح التجارة، وهذا أمر رتبه الله سبحانه وتعالى حيث أراد أن يرتبط النبى ﷺ بهذه السيدة الجليلة التى ستقف معه بكل ما تملك وتكون عونه على تبليغ رسالة ربه عندما يحين الوقت.

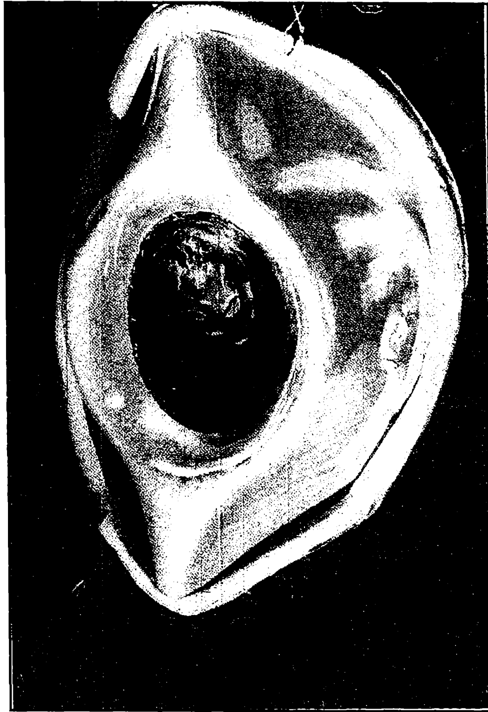
الطيبات للطيبين

لقد اختار الله تعالى لأشرف خلقه وخاتم أنبيائه ورسله أشرف امرأة فى قريش لتكون زوجة له، فهى امرأة شريفــة ذات ثراء عريض، وهو رجل مكتمل الرجولة، قوى أمين، فــأغناها بأمانته وكفلهــا برجولتــه ووجه مالــها إلى الخيــر بحسن نيــته وطيب طويتــه، وقد رزقه الله منهــا البنين والبنات، فهى أم أبنــائه جميــعا ـ عدا إبراهيم ـ ولدان همــا: عبد الله والقــاسم، وأربع بنات هن زينب ورقية وأم كلثوم وفاطمة، ومن الأخيرة ـ وهى فاطمة رضى الله عنها ـ التى زوجها من على ابن أبى طالب رضى الله عنه، كانت ذرية النبى ﷺ من ولديه الحسن والحسين رضى الله عنهما.

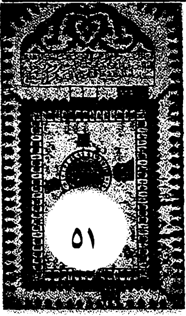




قضى رسول الله ﷺ حياته من مـولده إلى بعثته ـ وهو فى الأربعين من عمره ـ وهو يتمتع فى مكة بكامل الاحترام والإجلال لصفاته الحميدة التى اشتهر بها؛ من العفة والصدق والأمانة وطيب العشـرة والحياء. . إلخ، وآية هذا الاحترام والثقة التى كان أهل مكة يولونه إياها أنهم ارتضوا حكمه فى قضية كـادت تشعل الحرب بينهم، وهى قضية وضع الحجر الأسود فى مكانه عندما أعادوا بناء الكعبة ـ وقد شارك هو نفسه ﷺ فى ذلك البناء، وكان ذلك قبل بعثته بنحو خمس سنين ـ فلما شب الخلاف وتداعوا إلى الحرب اقترح أحدهم، وهو أبو أمية بن المغـيرة المخزومى، أن يحكّموا بينهم أول داخل عليـهم فكان هو ﷺ، فصاحوا جمـيعا فرحـين بمقدمـه، وقالوا: هـذا هو الأمين فـحكّموه، فـحل هذا الإشكال الخطير، بحل فى غـاية البساطة والـعبقرية فى الوقت نفسـه، حيث طلب منهم أن يحضـروا رداء ووضع الحجر فـوقه، وأن تشترك القبائل كلها، فى رفع الحجر وهو فى الرداء ثم أخذه بيـده الشريفة ووضعـه فى مكانه؛ وبهذا انطفأت نـار الفتنة ورضيـت القبائل كلـها، ثم إنه كان يشاركهم فى كل نشاطهم الاجـتماعى وغيره، فقد شاركهم فى حرب الفجار وفى حلف الفضول ـ كمـا سبقت الإشـارة ـ وفى غيـر ذلك، إلا أمرا واحدا لم يشـاركهم فيـه قط، وهو عكوفهم على عبادة الأصنام وتقديسها فقـد نشأ ﷺ مبغضا لها، كمـا صانـه الله تعالى من كل مـا يشين الإنسـان الكامل، فلم يشـرب الخـمـر مثـلهم، ولم يلعب الميسر، بل يروى أنه وهو طفل صغـير هفت نفسه إلى مشاهدة عرس فى مكة، فلما اقترب من المكان أخذه النوم فلم يشعـر إلا والعرس قد انقضى دون أن يراه، كمـا يروى أنهم عندما كانوا يعـيدون بناء



الحجر الأسود



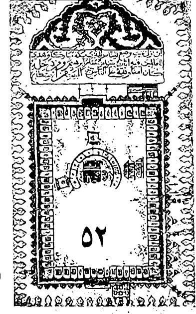
الكعبة وكانوا عـرايا ـ أثناء العمل ـ كعادتهم ـ فطلب منه عمه العـباس بن عبد المطلب أن يصنع مثـلهم ويخلع ثيابه فلما همَّ بذلـك لكزه لاكز وهتف فى أذنه قائلا: شـد عليك ثيابك. كل ذلك صيـانة من الله تعالى لمن اختـاره واصطفاه لحمل آخر وأعظم رسالاته إلى الناس جميعا.

فى غار حراء

كان رسول الله ﷺ دائم التفكير فيما عليه قومه من عبادة الأصنام، وكان يدرك أنه لابد من الخلاص من هذه الحالة المخزية، وهذا شىء طـبيعى فإذا كان بعض عقلاء العـرب العاديين، أمثال ورقة بن نوفل وزيد بن عمـرو بن نفيل، وعثمـان بن الحويرث وغيرهم قد كـرهوا عبادة الأصنام وأخذوا يبحثون عن طريق أفضل لعبادة الله سـبحانه وتعالى، ومنهم من تنصر، وهم الذى عرفوا بالحنفاء.. إذا كان هؤلاء فكروا وبحثـوا عن الإله الحق، فمن باب أولى أن تكون هذه حال خاتم الأنبياء ﷺ، فـقد كان كثيرا مـا يذهب إلى خارج مكة يفكر ويبحث وقد حـبب إليه الخلاء ـ أى الخلوة مع نفسه ـ وكـان يطيب له أن يذهب إلى غار حراء، يتعـبد فيه الليالى ذوات العـدد ـ كما تقول كـتب السيرة ـ إلى أن حـانت اللحظة الخالدة، وجـاءه النبأ العظيم، فـقد أتاه جبـريل عليه السلام، بصورة مفـاجئة فى ليلة من ليالى شهر رمضان ـ وهو فى غـار حراء ـ وفى يده رقعة من (ديباج)، وقال له: «اقـرأ، فيجيبه مأخوذا لنداء: مـا أنا بقارئ ـ لأنه كان أميـا لا يعرف القراءة والكتابة ـ فيضمه جبريل ضمـا قويا إلى صدره، ويقول له: اقرأ، فيكرر النبى ﷺ: ما أنا بقارئ، وفى الثالثـة يقول له جـبريل: ﴿ **اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ (١) خَلَقَ الإِنسَانَ مِنْ عَلَقٍ (٢) اقْرَأْ وَرَبُّكَ الأَكْرَمُ (٣) الَّذِي عَلَّمَ بِالْقَلَمِ (٤) عَلَّمَ الإِنسَانَ مَا لَمْ يَعْلَمْ (٥)** ﴾ [العلق].

ألقى جـبريـل عليه السـلام على قلب النـبى الكريم ﷺ هذه القطرات الأولى من الفـيض الإلهى وتركه وانصرف ولا يمكننا نحن بحسنا البشرى العادى أن ندرك ما كان يعانيه النبى ﷺ فى تلك اللحظات الخالدة، التى اتصلت فـيها السماء بالأرض، وهو يتلقـى أولى آيات الكتاب العزيز الذى قال الله عنه: ﴿ **لَوْ أَنزَلْنَا هَذَا الْقُرْآنَ عَلَىٰ جَبَلٍ لَّرَأَيْتَهُ خَاشِعًا مُّتَصَدِّعًا مِّنْ خَشْيَةِ اللَّهِ.. (٢١)** ﴾ [الحشر].

وقال عنه: ﴿ **إِنَّا سَنُلْقِي عَلَيْكَ قَوْلاً ثَقِيلاً (٥)** ﴾ [المزمل].



خديجة مالى؟...

عاد النبى ﷺ من غار حراء بعد هذا اللقاء الأول مع أمين الوحى جبريل يرجف فؤاده من شدة ما رأى، عاد إلى بيتـه، إلى زوجه خديجة. . إلى حصنه الذى كـان يلجأ إليـه كلمـا حزبه أمـر، فكان يجـد عندها الأمان والاطمـئنان والسكينة، عـاد هذه المرة وهو فى حـالة لم يعرفـهـا من قبل، وبادرها قـائلا: خديجة، ما لى؟

كأنه يقول لها: هل ترين بى شـيئا غير عادى، فسألت بدورها: ما الأمـر؟ فقص عليها ما حدث مـعه من جبـريل، وقال لها: «لقـد خشيت على نفـسى» من شدة ضم جـبريل له، ولكن العجيب فى الأمر أن هذه السيدة العظيمة أقـبلت عليه تسمع فى اهتمام ظاهر مهدئة مطمئنة، ولم يبد عليها أى خوف أو قلق، وكأنها كانت تتوقع ما حدث، حيث قالت له فى لهجة واثقة: «أبشر يا ابن عمى واثبـت، فوالذى نفس خديجـة بيده إنى لأرجو أن تكون نـبى هذه الأمة» ثم أردفت قائلة: «كلا والله ما يخزيك الله أبدا، إنك لتـصل الرحم وتحمل الكل، وتكسب المعدوم، وتقرى الضيف، وتعين على نوائب الحق».

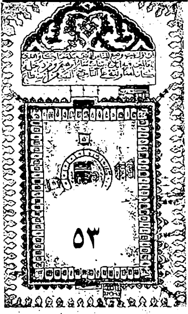
خديجة عند ورقة بن نوفل:

لكى تزيد خديجـة محمـدا طمأنينة وثباتا ذهـبت إلى ابن عمهـا ورقة بن نوفل ـ وهو من الحنفاء، ولديه علم بالكتب السمـاوية السابقة، فحدثته عما حـدث للنبى ﷺ، فقال الرجل ـ بعد أن سمع منها ـ: «قدوس قـدوس، والذى نفس ورقة بيده لئن كنت صدقتنى يا خـديجة لقد جاءه الناموس الأكبر الذى كان يأتى موسى، وإنه لنبى هذه الأمة، فقولى له فليثبت».

أول الناس إسلاما:

كان من الطبيعى أن تكون خديجـة رضى الله عنها أول المؤمنين برسول الله ﷺ والمصدقين لدعوته، لأنها أقرب الناس إلـيه وأعرفهم بخلقه، فقد آمنت من أول لحظة، وتـبعها على بن أبى طالب، وقد كان صـبيا فى نحو العـاشرة من عمره، وكـان يعيش فى بيت النبى ﷺ، ثم آمن به مولاه زيد بن حارثة.

وكان أول المؤمنين برسول الله ﷺ من الرجـال من خارج الدار أبو بكر الصديق رضى الله عنه، والذى كانت تربطه بالنبى ﷺ صداقة ومودة قوية، وعن طريق أبى بكر أسلم طائفة من كبار الصحابة، وهم: عـثمان بن عفان، والزبيـر بن العوام، وعبد الرحمن بن عـوف، وسعد بن أبى



وقاص، وطلحة بن عبيد الله، هؤلاء أسلموا بدعوة أبى بكر إياهم، لأنه كان رجلا محببا إلى قومه، وكانوا يألفونه لحسن خلقه وطيب معاشرته وتجاربه فى الحياة. ثم تتابع دخول الصحابة فى الإسلام، ولكن فى سرية تامة.

الدعوة السرية:

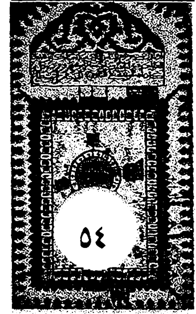
ظل النبى ﷺ يدعو الناس إلى دينه سرا نحو ثلاث سنوات، والسرية هنا ليس معناها أن قريشا لم تكن تعرف بالأمر، ولكن لأن النبى ﷺ كان يجتمع بأصحابه سرا فى دار الأرقم بن أبى الأرقم المخزومى، ولم يتعرض لقريش وآلهتها، فتركته هى دون أن تتعرض له، ولكن الموقف سيتغير عندما يعلن دعوته ستقف منه موقف العداء المطلق، وتصب على أصحابه ألوان العذاب وتقف بكل طاقتها فى طريق الدعوة الإسلامية.

الجهر بالدعوة:

أدت المرحلة السرية دورها، وحققت هدفها، فقد نجح النبى ﷺ فى دعوة ما يقرب من أربعين رجلا، وأعدهم لتحمل مشاق الدعوة وتكاليفها وآن له أن يعلن عن دعوته مذعنا لقول ربه سبحانه وتعالى: ﴿ **فَاصْدَعْ بِمَا تُؤْمَرُ وَأَعْرِضْ عَنِ الْمُشْرِكِينَ** (٩٤) ﴾ [الحجر]، وقوله تعالى: ﴿ **وَأَنذِرْ عَشِيرَتَكَ الْأَقْرَبِينَ** (٢١٤) ﴾ [الشعراء].

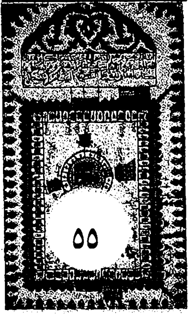
بناء على هذا الأمر الإلهى دعا النبى ﷺ قومه إلى الإسلام، حيث صعد على ربوة الصفا وناداهم قائلا: «يا بنى عبد مناف يا بنى زهرة يا بنى أسد يا بنى مخزوم يا بنى تيم.. إلخ فلما اجتمعوا عليه قال لهم: «أرأيتم لو أنى أخبرتكم أن خيلا خلف هذا الجبل تريد أن تغير عليكم أكنتم مصدقى؟ قالوا: نعم ما جربنا عليك كذبا قط. قال: «فإنى نذير لكم ورسول الله إليكم خاصة وإلى الناس كافة بين يدى عذاب شديد وإن الله أمرنى أن أنذر عشيرتى الأقربين، وإنى لا أملك لكم من الدنيا منفعة، ولا من الآخرة نصيبا، إلا أن تقولوا لا إله إلا الله عندئذ رفض عمه أبو لهب، وصاح ساخرا منه، وقال: تبا لك!! ألهذا جمعتنا؟ وانفضُّوا عنه جميعا دون أن يؤمنوا.

وقد رد الله تبارك وتعالى على أبى لهب تلك الإهانة التى وجهها إلى النبى ﷺ وسجل عليه أنه من أهل النار، فقال تعالى: ﴿ **تَبَّتْ يَدَا أَبِي لَهَبٍ وَتَبَّ (١) مَا أَغْنَىٰ عَنْهُ مَالُهُ وَمَا كَسَبَ (٢) سَيَصْلَىٰ نَارًا ذَاتَ لَهَبٍ (٣) وَامْرَأَتُهُ حَمَّالَةَ الْحَطَبِ (٤) فِي جِيدِهَا حَبْلٌ مِّن مَّسَدٍ (٥)** ﴾ [المسد]، وعلى الرغم من هذا الرد السيئ الذى جاء من أقرب الناس إلى النبى ﷺ، وهو عمه أبو لهب فإن الدعوة الإسلامية كسبت مسلمين جددا، كان فى مقدمتهم ومن أهمهم حمزة بن عبد المطلب عم النبى ﷺ، وعمر بن الخطاب الذى كان إسلامه فتحا، وهجرته نصرا، وخلافته عدلا ورحمة،



كمـا عبر عن ذلك عبـد الله بن مسعـود رضى الله عنه، فمما لا شك فـيه أن إسلام حـمزة رضى الله عنه،وعمـر بن الخطاب رضى الله عنه كان دفعـة قوية للدعوة الإسلامية، وكان سرور رسول الله ﷺ بإسلامهما عظيما وبدأ المسلمون يصلون جهرا وبحرية عند الكعبة ومـا كانوا يقدرون على ذلك قبل إسلام حمزة وعمر رضى الله عنهما.

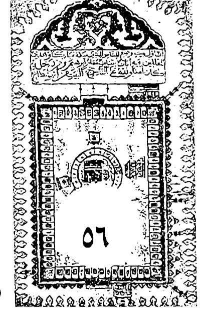
من مخطوط حمزة نامة - رسم بأمر الإمبراطور أكبر
فى الهند المغولية الإسلامية ٩٧٣هـ/ ١٥٦٥م



موقف قريش من الدعوة الإسلامية

سبق أن ذكرنا أن علاقة النبى ﷺ بأهل مكة جميعا كانت علاقة طيبة وقد كان يتعامل مع الجميع أحسن وأكرم معاملة، وتميز بينهم بالصدق والأمانة حتى وصفوه بالأمين؛ ولذلك لم يشب علاقته بهم أية شائبة من عداء وشحناء، وظل الأمر كذلك حتى بعد الدعوة فى مرحلتها السرية، ولكن منذ صدع بالأمر ودعاهم علانية إلى الإيمان بالله تعالى، ونبذ عبادة الأصنام، فعندئذ تغير موقفهم وأعلنوا عداءهم الصريح للدعوة الإسلامية وصاحبها، ولم يكن عداء سلبيا بمعنى أنهم لم يؤمنوا وتركوه يدعو لدينه فى حرية وأمان، ولكنه كان عداء إيجابيا سافرا، فقد أعلنوها حربا شعواء عليه وعلى أصحابه وصبوا عليهم جام غضبهم وعذبوهم عذابا شديدا، وبصفة خاصة الضعفاء والعبيد منهم، مثل آل ياسر وبلال بن رباح، وكان هؤلاء نماذج رائعة للثبات على المبدأ والتضحية من أجل العقيدة، فقد استشهد ياسر وزوجه سمية من جراء تعذيب قريش لهما، وتحمل بلال ما تحمل من التعذيب حتى أنهم كانوا يضعونه على رمال الصحراء المحرقة، وتحت لهيب أشعة الشمس، ويضعون الحجارة الثقيلة على صدره بلا شىء إلا لأنه يقول: ربى الله، فلم يلن ولم يضعف وظل على ذلك إلى أن أنقذه أبوبكر الصديق رضى الله عنه، حيث اشتراه من سيده أمية بن خلف وأعتقه لوجه الله تعالى.





أسباب عداء قريش للإسلام:

ولكن لابد من السؤال لماذا وقفت قريش من الإسلام هذا الموقف العدائى البغيض؟ هل كان إيمانها بوثنيتها وأصنامها هو السبب؟ الحق لم يكن هذا هو السبب، لأنها لو كانت تؤمن بالوثنية والأصنام إيمانا حقيقيا لما تخلت عنها أبدا ولكنها تخلت عنها فى نهاية الأمر، بل كانوا هم الذين حطموا أصنامهم بأيديهم، لأنهم كانوا يعلمون أنها باطلة ولا تضر ولا تنفع، وكل دفاعهم عنها قولهم: ﴿ .. **مَا نَعْبُدُهُمْ إِلاَّ لِيُقَرِّبُونَا إِلَى اللَّهِ زُلْفَىٰ** .. (٣) ﴾ [الزمر].

إذن ما هو السبب الذى جعل قريشا تعادى الإسلام والمسلمين طوال أكثر من عشرين عاما، وتعاملهم تلك المعاملة القاسية، الخالية من الإنسانية والرحمة وتجبرهم على ترك وطنهم والهجرة إلى الحبشة، ثم فى نهاية المطاف الهجرة إلى يثرب بعد سلسلة من المساءات والمقاطعات الاقتصادية . . . إلخ.

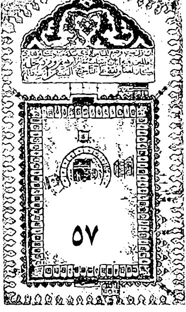
يمكن تلخيص الأسباب التى جعلت قريشا تعادى الدعوة الإسلامية وتجعل القضاء عليها شغلها الشاغل منذ ظهورها إلى فتح مكة سنة ٨هـ فى الأمور التالية.

أولا: المنافسة بين القبائل على الزعامة فى مكة:

فكل البطون القرشية تقريبا رأت أن النبوة فى بنى هاشم تعطيهم ميزة وتفوقا على غيرهم لا يدانى؛ لذلك حسدهم على ذلك، ولقد جاءت كثير من الأقوال على ألسنة زعماء بعض البطون المكية ـ مثل أبى جهل ـ عمرو بن هشام ـ وأبى سفيان بن حرب، تؤكد هذا المعنى، وهؤلاء لم يدركوا أن النبوة اصطفاء من الله تعالى لأنبيائه ورسله، وليست من قبيل الأمور الدنيوية التى يتنافس عليها البشر، فالله أعلم حيث يجعل رسالته.

ثانيا: دعوة المساواة:

من الأمور التى أهاجت قريشا وجعلتها تقف من الإسلام هذا الموقف العدائى دعوة المساواة المطلقة بين البشر، التى أعلنها الإسلام بكل وضوح وحسم منذ اللحظة الأولى، فالناس جميعا أمام الله سواسية كأسنان المشط، وهم مخلوقون من أب واحد وأم واحدة، وأكرمهم عند الله أتقاهم، ولا فضل لعربى على أعجمى إلا بالتقوى، ولكن كيف ذلك؟ كيف تقبل قريش أن يسوى محمد ﷺ بين سادتها وعبيدهم؟



ثالثا: الإيمان بالبعث:

من أصول العقيدة الإسلامية الإيمان بالبعث بعد الموت، لكن أهل مكة بل ومعظم العرب ـ كانوا لا يؤمنون بالبعث بعد الموت، وينفرون من ذلك نفورا شديدا، وكانوا يعتقدون أن حياتهم تنتهى بالموت، وأنه لا حياة بعد ذلك، وتردد ذلك على ألسنتهم كثيرا فى القرآن الكريم، كقولهم: نموت ونحيا وما يهلكنا إلا الدهر.

فإذا جاء القرآن الكريم ليحدثهم عن اليوم الآخر وحياة أخرى فيها ثواب وعقاب وجنة ونار فليقاوموه، فالفزع من البعث بعد الموت هو طابع الكافرين فى كل زمان ومكان.

رابعا: متابعة الآباء والأجداد:

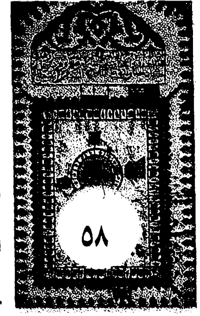
فإذا كان آباؤهم قد عبدوا الأصنام فليتابعوهم على ذلك، بل هم اعتبروا اعتناق الإسلام خروجا على ذلك وخيانة لآبائهم وأجدادهم، حتى لو كان هؤلاء الآباء والأجداد لا يعقلون شيئا ولا يهتدون. ولقد سخر القرآن الكريم من هذه المتابعة العمياء، ونعى عليهم إصرارهم على الشرك لمجرد أن آباءهم كانوا مشركين، قال تعالى: ﴿ **وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ اتَّبِعُوا مَا أَنزَلَ اللَّهُ قَالُوا بَلْ نَتَّبِعُ مَا أَلْفَيْنَا عَلَيْهِ آبَاءَنَا أَوَلَوْ كَانَ آبَاؤُهُمْ لا يَعْقِلُونَ شَيْئًا وَلا يَهْتَدُونَ (١٧٠)** ﴾ [البقرة].

خامسا: الخوف على وضعهم السياسى وعلى تجارتهم:

لقد تصور القرشيون أن الإسلام سيؤثر سلبا على مكانتهم بين العرب، وكذلك على تجارتهم وكانوا مخطئين فى ذلك؛ فالإسلام لم يأت ليسلبهم مكانتهم أو يقضى على تجارتهم، بل جاء ليرفع تلك المكانة إلى أعلى عليين، ويجعلهم سادة الدنيا، والملاحظ أن زعماء مكة الذين عادوا الرسول ﷺ وحاربوه ما يقرب من عشرين عاما عندما وضحت لهم الحقائق وأدركوا ما يحمله لهم الإسلام من عزة وكرامة وسؤدد تنافسوا فى الجهاد فى سبيله ـ وخصوصا بعد فتح مكة ـ وكانوا كأنهم يريدون أن يعوِّضوا ما فاتهم من الجهاد مع رسول الله ﷺ، وأن يكفِّروا عن مواقفهم العدائية ضده.

أساليب قريش فى مقاومة الدعوة الإسلامية:

لكل ما تقدم من أسباب رفعت قريش راية العصيان لا بل أعلنت عليه حربا شعواء منذ اللحظة الأولى لإعلان الدعوة الإسلامية وصبت على المسلمين نقمتها وأرتهم العذاب ألوانا، ولم يسلم الرسول ﷺ نفسه من قسوتها ووحشيتها، رغم أن عمه أبا طالب وبنى هاشم كانوا يقفون معه ويدافعون عنه إلا أنه كان كثيرا ما يتعرض للأذى والإهانة.



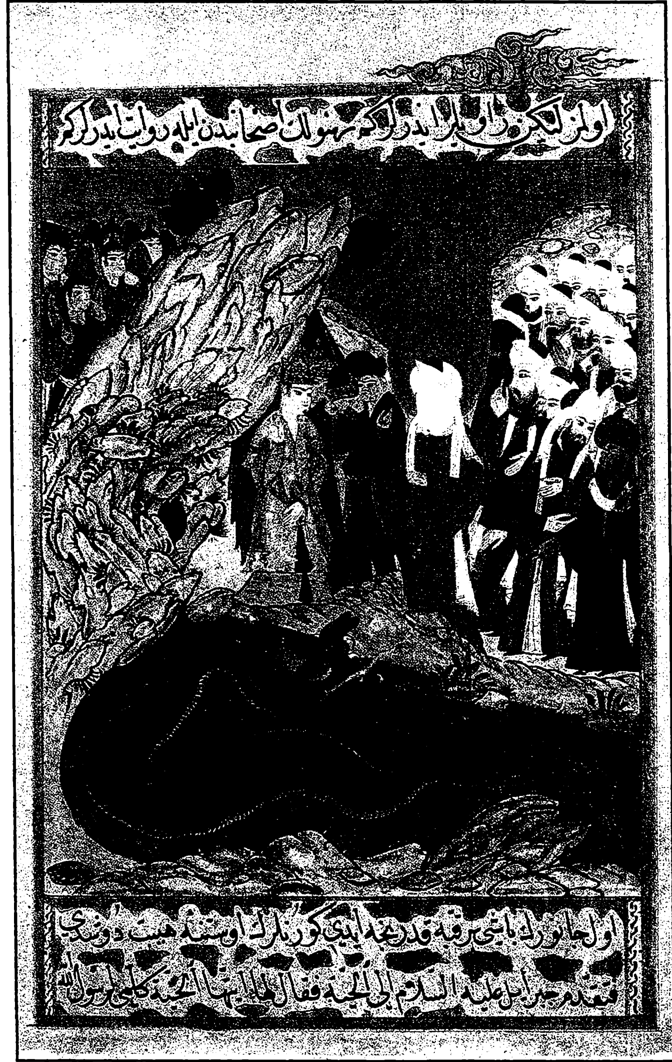
ولا يتسع المقام هنا لشرح كل مساءات أهل مكة نحو الإسلام والمسلمين، فعلى الجملة عذبوا المسلمين عذابا بدنيا، مات من جرائه بعضهم - مثل ياسر وزوجه سمية - كما سبقت الإشارة، وعذابا معنويا بالإهانات والسخرية والازدراء، لدرجة أنهم أجبروا عددا كبيرا منهم على الهجرة إلى الحبشة فى العام الخامس من البعثة، كما أنهم حاصروهم وقاطعوهم اقتصاديا واجتماعيا لمدة ثلاث سنوات وهم فى شِعب أبى طالب، فقد كانوا لا يبيعون لهم شيئا، ولا يشترون منهم شيئا ولا يزوجونهم ولا يتزوجون منهم وهذا أقسى ما يمكن أن يتعرض له الناس فى بلد كمكة المكرمة، فلما فشلت تلك الأساليب ووجدوا المسلمين والنبى ﷺ على رأسهم صامدين مصرين على الإيمان بدينهم، حاولوا أن يجربوا مع النبى ﷺ أساليب الترغيب، فقد عرضوا عليه أن يملّكوه عليهم إن كان يريد ملكا أو يعطوه ما شاء من الأموال إن كان يريد مالا، أما إن كان ما يعانيه هو نوعا من المرض فهم على استعداد لبذل أموالهم لمعالجته، والحق، إن النبى ﷺ لم يكن طالب ملك أو مال، ولم يكن به مرض - حاشا لله - بل كان المرض فى عقولهم وقلوبهم هم.

أما النبى ﷺ فلم يكن له هدف سوى أن يبلغ رسالة ربه كما أمره سبحانه وتعالى، وأن يخرجهم من الظلمات إلى النور وأن يضعهم على طريق المجد الحقيقى والعزة والكرامة؛ ولذلك حسم الأمر بجملة واحدة مع عمه أبى طالب عندما عرض عليه أن يقبل منهم عرضا من عروضهم فقد قال ﷺ لعمه: «والله يا عم لو وضعوا الشمس فى يمينى والقمر فى يسارى على أن أترك هذا الأمر ما تركته حتى يظهره الله أو أهلك دونه».

عام الحزن ورحلته إلى الطائف:

قاوم النبى ﷺ، والمسلمون معه، كل أساليب قريش وصبروا على أذاهم وخرجوا من ذلك الحصار القاسى، ليستأنف دعوته فى مكة وبين من يفدون إليها من العرب فى موسم الحج، وبينما هو يمضى فى طريق دعوته إذا به يفقد أهم نصيرين له، عمه أبا طالب، وزوجه خديجة بنت خويلد رضى الله عنها، فقدهما تباعا بعد انتهاء المقاطعة فى العام العاشر من البعثة وقد حزن النبى ﷺ لوفاتهما أشد الحزن، بل سمى عام وفاتهما عام الحزن.

وقد حدث ما توقعه ﷺ من قريش بعد وفاة أبى طالب، وخديجة بنت خويلد فقد اشتد أذى قريش عليه، وسدت فى طريقه كل السبل، ففكر فى اللجوء إلى إحدى قبائل العرب القوية عساه أن يجد من يؤمن به ويعينه وينصر دعوته فكانت رحلته إلى الطائف إلى قبيلة ثقيف، فلما كلمهم وعرض عليهم الإسلام وطلب منهم الوقوف معه أعرضوا عنه بل سبوه وشتموه وأغروا به

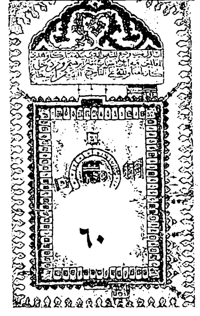


تصور رمزى لحياة النبى محمد ﷺ من مخطوط تركى سنة ١٥٩٤
كتاب سيرة النبى محمد فى عهد السلطان مراد الثالث



صبيانهم وسفهاءهم فضربوه بالحجارة، ولقد عز عليه وهو الذى جاءهم بعز الدنيا والآخرة أن يقابل منهم بهذا الأذى، ولقد عبر ﷺ عن آلامه من هذا الموقف فى تلك النجوى للخالق سبحانه وتعالى: حيث قال: «اللهم إليك أشكو ضعف قوتى وقلة حيلتى وهوانى على الناس، يا أرحم الراحمين، أنت رب المستضعفين وأنت ربى إلى من تكلنى؟ إلى بعيد يتجهمنى أم إلى عدو ملكته أمرى؟ إن لم يكن بك علىّ غضب فلا أبالى، ولكن عافيتك أوسع لى، أعوذ بنور وجهك الذى أشرقت له الظلمات وصلح عليه أمر الدنيا والآخرة من أن تنزل بى غضبك أو تحل على سخطك، لك العُتْبَى حتى ترضى ولا حول ولا قوة إلا بك ».

ومع أنهم بالغوا فى إهانته، وكان موقفهم منه من أشد المواقف التى واجهها فى حياته فإنه كان رحيما بهم حريصا على هدايتهم، فقد روت كتب السنة والسيرة أن جبريل عليه السلام جاءه فى تلك اللحظة ومعه ملك الجبال وعرض عليه أن يطبق عليهم الأخشبين ـ جبلى مكة ـ إن أراد، ولكنه الرسول العظيم الذى أرسله ربه رحمة للعالمين قال: «لا يا أخى يا جبريل ـ ولكن أقول:

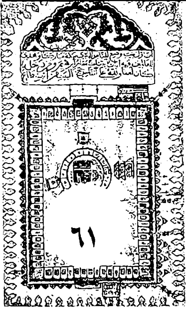


اللهم اهد قومى فإنهم لا يعلمون، لعل الله يخرج من أصلابهم من يعبده وحده لا يشرك به شيئا».

لم ييأس النبى ﷺ من دعوة القبائل العربية ـ بعد موقف ثقيف منه ـ بل أخذ يعرض نفسه فى مواسم الحج على وفود القبائل التى كانت تحضر إلى مكة، فقد عرض نفسه على وفود قبائل كندة وكلب وبنى عامر، وبنى حنيفة. . إلخ ولكن أحدا منهم لم يؤمن به ولم يعده بنصرته، وكان هذا الموقف الذى اتخذته تلك القبائل يرضى قريشا، التى كانت تحسب لذلك ألف حساب، فقد كان ما تخشاه قريش أن تؤمن قبيلة كبيرة ذات بأس وقوة بمحمد ودعوته، وعندئذ ستكون الحرب وما تجره من ويلات، ولذلك كانت قريش تترصد الموسم وتضع الخطط وأساليب الحرب النفسية والدعاية المسمومة ضد النبى ﷺ ودعوته لصرف القبائل عن الإيمان به، فعلى سبيل المثال فقط ـ لا الحصر ـ اجتمع الملأ من قريش فى أحد المواسم إلى الوليد بن المغيرة ـ وكان أحد أئمة الشرك وزعمائهم فى مكة ـ ليتشاوروا فى ماذا يصنعون وما هى خطتهم لمواجهة وفود العرب فى موسم الحج لإقناعهم بعدم لقاء محمد ﷺ وسماع دعوته، فقد قرروا الاتفاق على خطة واحدة ينفذونها معا، حتى لا يختلفوا ويكذب بعضهم بعضا، واقترح بعضهم أن يقولوا للوفود إن محمدا كاهن، ولكن الوليد بن المغيرة لم يقبل هذا الرأى وقال لهم: إن ما يقوله محمد يختلف عن زمزمة الكهان فقال آخر: نقول إنه مجنون فقال الوليد: إنكم لا تستطيعون أن تقيموا دليلا على أنه مجنون، فجاء اقتراح ثالث، نقول: إنه ساحر، فقال الوليد: إن محمدا ليس ساحرا، فهو لا ينفث فى العقد ولا يأتى من عمل السحرة شيئا، عندئذ سكتوا جميعا منتظرين ماذا يقول الزعيم، وقالوا له: فماذا تقول أنت؟ قال: الرأى عندى أن تقولوا إنه ساحر البيان أى أوتى من سحر البيان ما يستطيع به أن يفرق بين الرجل وزوجه وبين الرجل وعشيرته ونستطيع أن نقيم الدليل على ذلك، أليس قد تابع محمدا كثيرون وفارقوا أهلهم وعشائرهم فوافق الجميع على هذا الرأى، وانبعث رجالهم بين وفود الحجاج يروجون هذه الفرية، والخلاصة أن قريشا سدت كل الطرق فى وجه الدعوة الإسلامية ومنعها من الانتشار والانطلاق، ولكن هذه الدعوة الخالدة التى جاءت لتخرج الناس من الظلمات إلى النور كان لابد لها من الانتشار والانطلاق، وإذا كانت قريش قد سدت فى وجهها الطرق فإن الله سبحانه وتعالى قد هيأ لها مكانا آخر للانطلاق وقوما آخرين ادخرهم لها ليكونوا أنصار الله ورسوله ودعوته، وهم أهل يثرب.

تباشير النصر تأتى من يثرب:

أثناء عرض النبى ﷺ دعوته على القبائل فى موسم الحج شاءت إرادة الله أن يلتقى بوفود من أهل يثرب كانوا ستة رجال، فعرض عليهم الإسلام فشرح الله صدورهم له وأسلموا ورجعوا



إلى قومهم وأخبروهم خبرهم مع رسول الله ﷺ فقالوا: لعله هو النبى الذى كانت توعدكم به يهود فلا يسبقنكم إليه فأسلم كثيرون منهم، وفى موسم الحج التالى ـ العام الثانى عشر من البعثة جاء منهم اثنا عشر رجلا، أعلنوا إسلامهم بين يدى النبى ﷺ، وبايعوه بيعة العقبة الأولى، وبعث معهم مصعب بن عمير، رضى الله عنه، ليعلمهم القرآن وشعائر الإسلام، وقد نجح مصعب بن عمير فى مهمته نجاحا باهرا، وفشى الإسلام فى يثرب حتى لم يبق بيت فيها إلا وفيه من أسلم، وآية ذلك ما حدث فى الموسم التالى ـ العام الثالث عشر من البعثة ـ فقد جاء إلى النبى ﷺ منهم ثلاثة وسبعون رجلا وامرأتان وأبدوا استعدادهم لاستقبال رسول الله ﷺ فى بلدهم والدفاع عنه ومنعه مما يمنعون منه أنفسهم ونساءهم وأولادهم، فكانت بيعة العقبة الثانية أو الكبرى التى سميت بيعة القتال، والتى تعد أخطر وأهم حدث فى تاريخ الإسلام فقد كانت مقدمة لانطلاقته الكبرى ونشره فى بلاد العرب وإقامة الدولة الإسلامية وبناء المجتمع الإسلامى، ومن ثم الانطلاق خارج جزيرة العرب إلى بقية العالم المعروف آنذاك.

هجرة النبى ﷺ إلى يثرب:

بعد لقاء النبى ﷺ برجال بيعة العقبة الثانية، بدأ أصحابه فى الهجرة إلى يثرب ووجدوا هناك من إخوانهم ـ الأنصار ـ كل كرم وترحيب، سجله الله سبحانه وتعالى فى كتابه الكريم. قال تعالى: ﴿ **وَالَّذِينَ تَبَوَّءُوا الدَّارَ وَالإِيمَانَ مِن قَبْلِهِمْ يُحِبُّونَ مَنْ هَاجَرَ إِلَيْهِمْ وَلا يَجِدُونَ فِي صُدُورِهِمْ حَاجَةً مِّمَّا أُوتُوا وَيُؤْثِرُونَ عَلَىٰ أَنفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ وَمَن يُوقَ شُحَّ نَفْسِهِ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ (٩)** ﴾ [الحشر]، وبقى النبى ﷺ فى مكة ينتظر الإذن من الله بالهجرة، وكانت قريش قد علمت بأمر بيعة العقبة وأن أهل يثرب قد تعهدوا لرسول الله ﷺ بنصرته والدفاع عنه ضد كل من تسول له نفسه النيل منه، وهنا انزعجت قريش وقدرت خطورة ذلك الذى حدث عليها، فها هم أصحاب محمد قد هاجروا إلى يثرب، ولم يبق فى مكة إلا هو وعدد قليل من أصحابه، مثل أبى بكر الصديق رضى الله عنه، وعلى بن أبى طالب رضى الله عنه، وقدرت قريش أن محمدا لو هاجر ولحق بأصحابه هناك، فسوف يشتد ساعده وتزداد قوته، وقد يغزوهم فى عقر دارهم؛ لذلك عزموا على قتله، بعد اجتماع خطير عقدوه فى دار الندوة، وقد علم النبى ﷺ بأمر ذلك الاجتماع وأنهم قرروا قتله، وعلى الفور ذهب إلى دار صديقه أبى بكر وأخبره الخبر، وأن الله أذن له فى الهجرة وأنه سيصحبه معه، ففرح أبوبكر فرحا عظيما بصحبة النبى ﷺ فى هذه الرحلة الفريدة فى

التاريخ، حيث اختاره هو من بين أصحابه يشترك معه فى وضع خطة محكمة للهجرة، اتخذت فيها جميع الأسباب التى تكفل لها النجاح والتى يقدر عليها البشر، ثم يكون النجاح والنصر من عند الله.

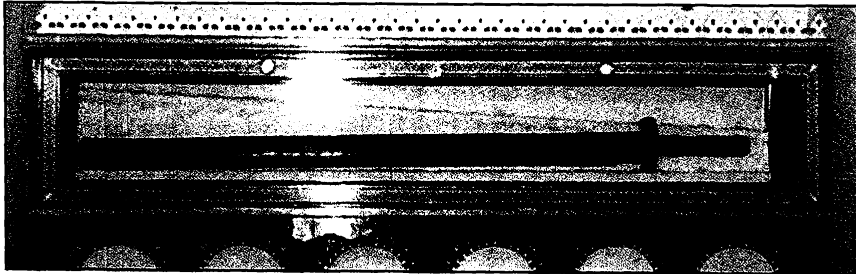
النبى ﷺ فى يثرب:

بعد رحلة مثيرة نجا النبى ﷺ من ملاحقة قريش وترصدها له ونجح فى الوصول إلى يثرب ليجد الأنصار فى انتظاره، وقد استقبلوه استقبالا يليق بمقامه، استقبلوه وهم ينشدون بين يديه ذلك النشيد الخالد:

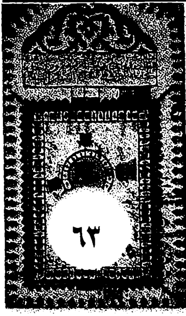
طلع البدر علينا ... من ثنيات الوداع
وجب الشكر علينا ... ما دعا لله داع
أيها المبعوث فينا ... جئت بالأمر المطاع
جئت شرفت المدينة ... مرحبا يا خير داع

بدأ النبى ﷺ لحظة وصوله إلى يثرب - التى ستصبح من الآن المدينة المنورة - فى تأسيس مسجده وبناء دولته، وإعداد جيشه الذى سيحمى به دعوته ويدافع عن دولته، فالحق أى حق لابد له من قوة تدافع عنه وتحميه، وقد كان النبى ﷺ على يقين من أن أهل مكة لن يدعوه فى دار هجرته ينشر دينه ويبلغ دعوته، فكان لابد من إعداد القوة لكسر شوكتهم وإزاحتهم من طريق الدعوة، سيما وأنه يعلم أيضا أن بقية قبائل العرب لن تقبل على الدعوة الإسلامية ما دامت قريش تناصبها العداء.

بعد بناء المسجد - الذى أصبح مكانا للصلاة، ثم مقرا للدولة الإسلامية - أخذ النبى ﷺ فى استكمال بقية أسس تلك الدولة وأجهزتها فقد آخى بين المهاجرين والأنصار لتقوية الروابط



سيف النبى ﷺ - معروض فى المشهد الحُسينى بالقاهرة

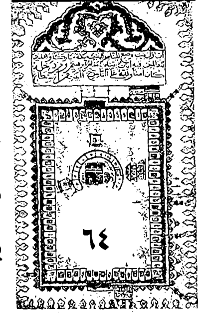


بينهم، ثم عقد معاهدة مع اليهود الذين رفضوا الدخول فى الإسلام، فلم يجبرهم على ذلك لأنه: ﴿لَا إِكْرَاهَ فِي الدِّينِ ... (٢٥٦)﴾ [البقرة]، وقد جاءت تلك المعاهدة آية فى العدل والتسامح وإتاحة حرية العقيدة، فرغم بقاء اليهود على دينهم إلا أنه اعتبرهم مواطنين لهم كافة الحقوق ما داموا ملتزمين بواجبات المواطنين، وأولها الدفاع عن المدينة ضد أى عدوان عليها من الخارج، وهو الأمر الذى لم يلتزم به اليهود مطلقا بل خانوا وغدروا مما اضطر النبى ﷺ إلى طرد بعضهم من المدينة، كبنى قينقاع وبنى النضير وقتل البعض الآخر كبنى قريظة الذين خانوا النبى ﷺ وغدروا به وانضموا إلى أعدائه فى عام الأحزاب.

غزوات الرسول ﷺ

لقد غزا النبى ﷺ بنفسه سبعا وعشرين غزوة، وجرد سبعا وأربعين سرية بقيادة أصحابه، هذا المجموع الكبير من الغزوات والسرايات ـ ٧٤ ـ كان عدد شهداء الإسلام فيه نحو ١٥٠ شهيدا





وقتلى قريش، وهى أكبر أعدائه ـ آنئذ ـ كانوا نحو من مائة وعشرة قتلى، هذا العدد القليل من شهداء الإسلام، وقتلى أعدائه يعكس حرص النبى ﷺ على حقن الدماء، وأن الحرب عنده لم تكن غاية فى حد ذاتها، بل وسيلة لكسر شوكة الأعداء وإقامة السلام، وإذا كان يمكن تحقيق الهدف دون حرب فإنه لم يكن يلجأ إليها قط ـ كما حدث عام الحديبية.

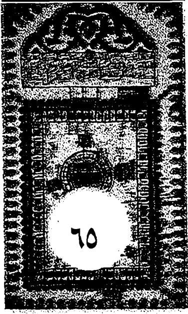
والنبى ﷺ لم يكن يحارب إلا الحرب المشروعة، والتى يسوغها الإسلام، وهى الحرب التى تكون للدفاع عن العقيدة عندما تكون مهددة من أعدائها أو الدفاع عن النفس والمال والعرض أو الدفاع عن المستضعفين فى الأرض.

ومن أعظم غزوات الرسول ﷺ وأكبرها أثرا فى تاريخ الإسلام غزوة بدر الكبرى التى انتصر فيها على مشركى مكة، والتى كانت فى السابع عشر من شهر رمضان سنة ٢هـ والتى سماها الله فى كتابه العزيز «يوم الفرقان»؛ لأنه فرق بها بين الحق والباطل، فقد اندحر فيها الشرك، ووضعت حدا لغطرسة قريش وخيلائها حيث انتصرت القلة المسلمة (٣١٣ مسلم) بقيادة النبى ﷺ على الكثرة المشركة من أهل مكة (٩٥٠ مشركا) حيث قتل منهم سبعون من صناديدهم وأسر ستون، واستشهد من صحابة رسول الله نحوا من أربعة عشر رجلا.

كانت خسارة قريش فادحة، ولم تكن تتوقع أن تهزم، فضلا عن أن تخسر هذا العدد الكبير من القتلى والأسرى؛ ولذلك أخذت تعد العدة للثأر والانتقام وكان النبى ﷺ على يقين من أن قريشا لابد من أن تعد لمعركة أخرى تسترد بها هيبتها بين العرب فما أن استدار العام حتى جاءته الأخبار بأن جيشا قرشيا خرج من مكة قوامه ثلاثة آلاف رجل قاصدا المدينة فاستعد هو بدوره للقائهم، ودارت المعركة بين المسلمين (٧٠٠) بقيادة النبى ﷺ وبين جيش مشركى مكة، (٣٠٠٠) رجل بقيادة أبى سفيان بن حرب عند جبل أحد فى شهر شوال سنة ٣هـ.

غزوة أحد:

كان النصر حليف المسلمين أول النهار ثم انقلب الموقف عندما خالف الرماة أوامر الرسول ﷺ وتركوا مواقعهم التى عينها لهم. وعندئذ انقض عليهم خالد بن الوليد الذى كان قائد فرسان جيش مكة وتحول النصر إلى هزيمة، وخسر المسلمون هذه المعركة وكان موقفا صعبا للرسول وللمسلمين، ولكنه كان فى الوقت نفسه درسا عظيما تعلمه المسلمون، فقد تعلموا من بين ما تعلموا أن الانضباط وطاعة أوامر القائد من ضرورات الحرب، والتخلى عنها يؤدى إلى الهزيمة

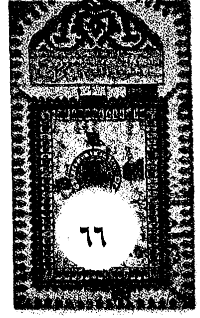


والخسارة، ولكن المسلمين إذا كانوا قد خسروا معركة أحد فإنهم لم يخسروا الحرب ضد قريش؛ لأن النصر والهزيمة فى مثل هذا الصراع يكون بحساب الجولة الأخيرة، فالذى يكسب الجولة الأخيرة هو الذى يكسب الحرب مهما خسر من معارك فى ثنايا الصراع، فقد كسب النبى ﷺ الحرب ضد قريش وفتح مكة فى العام الثامن من الهجرة ودخلت قريش كلها فى الإسلام، وكان من أبنائها من أصبحوا من كبار الفاتحين، وهذا كله بفضل الله أولا ثم بفضل صبر وجهاد الرسول ﷺ.

غزوة الأحزاب:

مع أن أهل مكة كسبوا معركة أحد إلا أنهم أدركوا أنهم لم يحققوا هدفهم النهائى، وهو القضاء على النبى ﷺ ودعوته ولم يكن مشركو مكة فقط هم الذين يهدفون إلى القضاء على الإسلام، بل كان اليهود يشاركونهم فى ذلك بدرجة أشد؛ ولذلك لما رأى اليهود أن معركة أحد مع قساوتها لم تنل من عزيمة النبى ﷺ وصحابته فقد قرروا القيام بعمل جماعى وهو حشد كل القوى المناوئة للإسلام وأول هذه القوى قريش بطبيعة الحال للقضاء عليه قضاء مبرما.

وقد تزعم هذه الحركة الخطيرة حيى بن أخطب زعيم يهود بنى النضير، ذلك الرجل الذى انطوى قلبه على حقد دفين وكره شديد للنبى ﷺ ودعوته، ذهب حيى على رأس وفد من زعماء يهود بنى النضير وبنى قينقاع إلى مكة وعرض على مشركيها خطته التى أعدها وهى حشد حلف يضم مشركى مكة وقبائل غطفان وبنى أسد للقضاء على النبى ﷺ ودعوته، ووعدهم بأن يجعل يهود بن قريظة الذين لا يزالون يقيمون بالمدينة ينضمون إليهم رغم وجود معاهدة بين النبى ﷺ وبينهم، وقد نجح فى كل ذلك واستطاع أن يحشد عشرة آلاف مقاتل للهجوم على المدينة، واقتلاع الإسلام من جذوره، ولم يكن يساوره شك فى نجاح خطته، ولكن ما إن وصلت جحافل الأحزاب إلى المدينة حتى فوجئوا بوجود خندق يحيط بها من الجهة الشمالية الغربية ليكمل تحصينها حيث كانت محصنة من بقية الجهات بغابات كثيفة من الأشجار والنخيل يصعب على خيول المشركين اقتحامها، وأسقط فى أيدى المشركين وفقدوا كل وسيلة للتغلب على اقتحام ذلك الخندق الذى حفره الرسول ﷺ أخذا برأى سلمان الفارسى رضى الله عنه، وطوال ما يقرب من شهر لم يحدث بينهم سوى بعض المراماة ومقتل فارس العرب المعلم؛ عمرو بن عبد ود على أيدى على بن أبى طالب رضى الله عنه، ومع ذلك فقد كان الموقف صعبا على المسلمين، وليس هناك أدق ولا



أبلغ من وصف القرآن الكريم للحالة التى كان عليها المسلمون حيث قال تعالى: ﴿ إِذْ جَاءُوكُم مِّن فَوْقِكُمْ وَمِنْ أَسْفَلَ مِنكُمْ وَإِذْ زَاغَتِ الأَبْصَارُ وَبَلَغَتِ الْقُلُوبُ الْحَنَاجِرَ وَتَظُنُّونَ بِاللَّهِ الظُّنُونَا (١٠) هُنَالِكَ ابْتُلِيَ الْمُؤْمِنُونَ وَزُلْزِلُوا زِلْزَالاً شَدِيدًا (١١) ﴾ [الأحزاب]، عندما بلغت الأمور هذا الحد من الخطورة واشتد الكرب ليميز الله بين المسلمين الصادقين وبين المنافقين جاءت نسائم النصر تترى، فقد أسلم أحد المشركين وهو نعيم بن مسعود، فكلفه الرسول ﷺ بإيقاع الشقاق بين المشركين ويهود بنى قريظة، وقد نجح فى ذلك نجاحا هائلا، ثم هبت ريح عاصفة على المشركين قلعت خيامهم وأكفأت قدورهم عندئذ أدرك قائد المشركين أبو سفيان صعوبة البقاء فنادى بالرحيل وتبعه بقية الأحزاب ﴿ وَرَدَّ اللَّهُ الَّذِينَ كَفَرُوا بِغَيْظِهِمْ لَمْ يَنَالُوا خَيْرًا وَكَفَى اللَّهُ الْمُؤْمِنِينَ الْقِتَالَ وَكَانَ اللَّهُ قَوِيًّا عَزِيزًا (٢٥) ﴾ [الأحزاب].

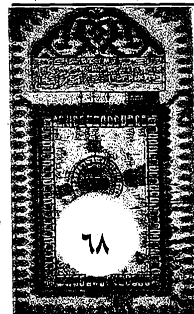
أما يهود بنى قريظة الذين خانوا عهد الرسول ﷺ وغدروا به واستجابوا لحيى بن أخطب وانضموا للأحزاب بغية القضاء على الإسلام من جذوره فقد حل بهم عقاب الله تعالى حيث أمر رسوله بالقضاء عليهم، قال تعالى عنهم: ﴿ وَأَنزَلَ الَّذِينَ ظَاهَرُوهُم مِّنْ أَهْلِ الْكِتَابِ مِن صَيَاصِيهِمْ وَقَذَفَ فِي قُلُوبِهِمُ الرُّعْبَ فَرِيقًا تَقْتُلُونَ وَتَأْسِرُونَ فَرِيقًا (٢٦) وَأَوْرَثَكُمْ أَرْضَهُمْ وَدِيَارَهُمْ وَأَمْوَالَهُمْ وَأَرْضًا لَّمْ تَطَئُوهَا وَكَانَ اللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرًا (٢٧) ﴾ [الأحزاب].

النبى ﷺ يصالح أهل مكة:

أدرك النبى ﷺ أن النصر الذى منحه الله إياه على الأحزاب قد جعل ميزان القوة فى صالحه، ومع ذلك لم يستغل قوته فى الضغط على قريش ولم يحاول إذلالها، لأنه يعرف أصالة معدنهم فهو يريدهم أحياء ينصرون الإسلام برجولتهم وشجاعتهم؛ ولذلك فقد قرر فى العام السادس الهجرى ـ بعد الأحزاب بسنة ـ أن يؤدى العمرة هو وأصحابه بناء على رؤيا رآها، وبالفعل سار إلى مكة يسوق الهدى أمامه وخلفه نحو ألف وأربعمائة من أصحابه، وما إن علمت قريش بذلك حتى هاجت وقررت منعه بالقوة من دخول مكة، وكان هذا موقفا ظالما منهم، لأن البيت الحرام ليس ملكا لقريش بل هو لكل الناس مثابة وأمنا، ومع ذلك فقد صمم الرسول ﷺ على الوصول معهم إلى حل سلمى تجنبا لإراقة دماء يدخرها لنصرة الإسلام، فانحاز بصحابته إلى وادى الحديبية، ودارت بينه وبين قريش مفاوضات طويلة ومضنية، وأخيرا أرسل لهم عثمان بن عفان ـ رضى الله عنه ـ الذى عاد من عندهم ليخبره بتصميمهم على منعه من دخول مكة هذا

ان اول بيت وضع للناس للذي ببكة مباركا وهدى
للعالمين فيه ايات بينات مقام ابرهيم ومن دخله
كان امنا ولله على الناس حج البيت من استطاع





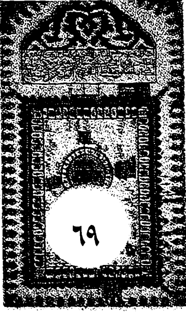
العام، والسماح له بدخولها فى العام القادم وقدر رأى رسول الله ﷺ أن تأخير العمرة سنة وحقن دماء المسلمين أفضل من الحرب، وقبل كل شروط أهل مكة التى ظنوها انتصارا ولكن سرعان ما تكشفت لهم أوهامهم وأن صلح الحديبية لم يكن نصرا لقريش بل كان فتحا مبينا للرسول ﷺ.

فتح مكة الفتح الأعظم

كان من بين شروط صلح الحديبية وقف الحرب بين المسلمين وقريش عشر سنين ولكن قريشا نقضت شروط الصلح حيث ناصرت حلفاءها بنى بكر على خزاعة حلفاء النبى ﷺ قبل مضى سنتين على المعاهدة، وفى خلال هاتين السنتين قام النبى ﷺ بأعمال جليلة، منها القضاء على شوكة اليهود فى خيبر، ومنها مخاطبة ملوك ورؤساء العالم ودعوتهم إلى الإسلام، تأكيدا لعالميته.

ولما استغاثت خزاعة بالنبى ﷺ لبى النداء على الفور وسار إلى مكة يقود عشرة آلاف مسلم، ومع أنه امتلك هذه القوة الكبيرة إلا أنه لم يستخدمها فى إهلاك أهل مكة وتدميرهم، ولم يضع فى حساباته مساءاتهم معه طوال أكثر من عشرين عاما، بل كان حريصا على دخول مكة دون قتال، لأنها بلد الله الحرام من ناحية ولأنه كره إراقة الدماء من ناحية ثانية، وحقق النبى ﷺ هدفه وتم له فتح مكة دون قتال تقريبا ودخل البيت الحرام وحطم الأصنام وهو يتلو قوله تعالى: ﴿ **وَقُلْ جَاءَ الْحَقُّ وَزَهَقَ الْبَاطِلُ إِنَّ الْبَاطِلَ كَانَ زَهُوقًا** (٨١) ﴾ [الإسراء].

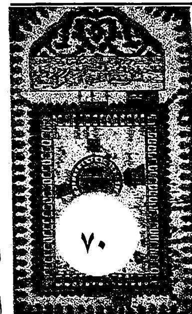
وجاءه أهل مكة جميعا، وكانوا زهاء ألفى رجل، فنظر إليهم نظرة إشفاق لا نظرة تشفى وقال لهم: «ما تظنون أنى فاعل بكم؟ قالوا: خيرا أخ كريم وابن أخ كريم، فقال ﷺ: اذهبوا فأنتم الطلقاء» هذا هو العفو عند المقدرة وصدق من سماه الرؤوف الرحيم، ووصفه بأنه جاء رحمة للعالمين.



أثر فتح مكة فى انتشار الإسلام بين العرب فى العالم:

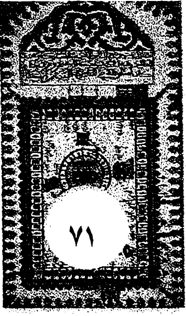
ظلت الغالبية العظمى من أهل مكة تناصب النبى ﷺ العداء أكثر من عشرين سنة، وعداء أهل مكة للإسلام كان عقبة كبيرة أمام انتشاره بين العرب ثم فى العالم بعد ذلك، لأن معظم العرب كانوا يحسبون حسابا لقريش ويقدرونها ويقتدون بها، ولا يريدون إغضابها، فإذا كانت قريش تحارب رسول الله ﷺ فكيف يؤمنون به ويغضبونها، بل إن كثيرين منهم تحالفوا معها ضده كما حدث فى غزوة الأحزاب، ولم يشذ عن هذا الموقف إلا أهل المدينة، الأوس والخزرج، فى البداية فهؤلاء هم الذين هداهم الله وأراد لهم الخير والعزة والكرامة فأقبلوا على الإسلام، ليس هذا فحسب، بل قبلوا عن رضا كامل وطواعية مطلقة وعن حب عميق، قبلوا أن يهاجر رسول الله ﷺ إلى مدينتهم لينشر رسالته ويقيم دولته، وهم يعلمون أن ذلك سيؤدى إلى الحرب بينهم وبين قريش، ومع ذلك قبلوا ذلك التحدى الهائل، ووقعوا مع رسول الله ﷺ بيعتى العقبة، وقد سميت الثانية منهما بيعة القتال وقاتلوا معه فى كل غزواته ونصروه وفازوا بهذا اللقب العظيم الذى منحه الله تعالى إياهم وهو أنصار الله ورسوله وثناء الله عليهم فى كتابه ورسول الله ﷺ فى أقواله وأفعاله أكثر من أن يحصى، وكان النبى ﷺ يعلم حقيقة جوهر قريش وأنه جوهر أصيل تراكمت عليه طبقات من الجاهلية والوثنية فإذا أزيلت هذه الطبقات وظهر الجوهر الأصيل فإنه سيكون نافعا؛ لذلك صبر عليهم طوال هذه السنين وتحمل ما تحمل من أذاهم حتى أسلموا فى النهاية جميعا، وعفى عنهم عفوا مطلقا وقال لهم: اذهبوا فأنتم الطلقاء، إذن فهو يريد سلامتهم لا إهلاكهم، ولو كان يريد إهلاكهم لقبل ما عرضه عليه جبريل عليه السلام عندما عاد من الطائف وهو حزين لما ناله من أهلها من الأذى والإهانة، فقد جاءه جبريل ومعه ملك الجبال، وقال له لو شئت لأطبقت لك عليهم الأخشبين ـ جبلى مكة ـ ولكنه ﷺ رفض ذلك العرض وقال: لا يا أخى يا جبريل ولكن أقول: اللهم اهد قومى فإنهم لا يعلمون، لعل الله يخرج من أصلابهم من يعبده وحده لا يشرك به شيئا.

إذن كان ﷺ حريصا على سلامتهم لأنه يعرف حقيقتهم، كما يعرف أن معظم العرب يحجمون عن الإيمان به إكراما لقريش؛ ولذلك كرس كل جهده لجذب قريش إلى الإسلام بكل الوسائل وصبر وصابر وجاهد حتى فتح الله له مكة المكرمة، وبفتحها فتحت الطرق كلها أمام



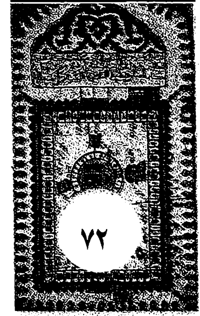
الدعوة الإسلامية، ولكى نوضح هذا نلفت النظر إلى أن الذين أسلموا من أهل مكة قبل الهجرة كانوا قليلين، وفى غزوة بدر كان عدد المسلمين الذين حضروها من المهاجرين والأنصار أكثر قليلا من ثلاثمائة رجل، وهؤلاء هم أغلب المسلمين يومئذ، وفى غزوة أحد فى العام الثالث الهجرى كان عدد المسلمين الصادقين الذين حضروها نحوا من سبعمائة رجل، وهكذا حتى إذا وصلنا إلى الحديبية فى العام السادس الهجرى وجدنا عدد المسلمين الذين خرجوا مع رسول الله ﷺ لأداء العمرة كانوا نحوا من ألف وأربعمائة، وبعد صلح الحديبية عندما أدرك العرب أن موقف قريش قد لان بعض الشىء، وأن مكة فتحت أبوابها أمام رسول الله ﷺ ليؤدى عمرة القضاء فى العام السابع الهجرى عندئذ أدرك بقية العرب أن مقاومة قريش للدعوة الإسلامية قد تلاشت بل قد انتهت، وأن فتح مكة لم يعد أكثر من وقت لن يطول؛ ولذلك تسارع العرب إلى الدخول فى الإسلام، حتى من أبناء مكة أنفسهم فقد أسلم بعد عمرة القضاء رجلان من خيرة رجالات مكة، وسيكونان من خيرة رجالات الإسلام، بعد إسلامهما وهجرتهما؛ وهما سيف الله خالد بن الوليد رضى الله عنه، وداهية الحرب والسياسة عمرو بن العاص رضى الله عنه، هذان البطلان اللذان أصبح لهما فى تاريخ الإسلام شأن عظيم.

وقفة عرفات التى تشتاق إليها الأفئدة



فى الحديبية فى العام السادس الهجرى كان عدد المعتمرين مع رسول الله ١٤٠٠ رجل وبعد عامين كان عدد جيش الرسول ﷺ الذى فتح به مكة عشرة آلاف، وبعد عام من فتح مكة أى فى العام التاسع الهجرى كان عدد جيش الرسول ﷺ الذى توجه به لمواجهة الروم لما علم أنهم يريدون مهاجمته فى المدينة ـ كان عدد ذلك الجيش ثلاثين ألفا، وهو جيش العسرة، وقد عسكر الرسول ﷺ بذلك الجيش العظيم فى تبوك عندما علم أن الروم قد هابوه وخافوا منه وانسحبوا إلى داخل الشام، فلم يلاحقهم لأنه لا يريد الحرب من

رسم فى مسجد من الفالنامة - القديمة رمزان إلى نعلى رسول الله ﷺ - ق١٦



أجل الحرب، وإنما لردع أعداء الإسلام فإذا ارتدعوا وخافوا فلا ضرورة لحربهم، وهذا دليل ناصع على أن الإسلام دين السلام، وبعد غزوة تبوك تقاطرت الوفود من جميع أقطار شبه جزيرة العرب على رسول الله ﷺ فى المدينة تعلن إسلامها وبيعتها، ولكى تتصور كثرة الأعداد التى سارت خلف رسول الله ﷺ لأداء الحج فى حجة الوداع فى العام العاشر الهجرى، فقد كانوا أكثر من مائة ألف مسلم، وقد قدرهم بعض المؤرخين بمائة وأربعة عشر ألفا.

حجة الوداع وآخر عهد رسول الله ﷺ بمكة المكرمة

فتح النبى ﷺ مكة المكرمة فى العشرين من شهر رمضان من العام الثامن للهجرة، وعفى عن أهلها الذين أسلموا جميعا وكانوا نحو ألفى رجل، وحضروا معه غزوة حنين ضد هوازن وثقيف فى شهر شوال من العام نفسه، وقد أعطاهم الكثير من غنائم تلك الغزوة تأليفا لقلوبهم، وقد رتب شؤون مكة وعين لها أميرا من أهلها وهو عتاب بن أسيد بن أبى العيص بن أمية بن عبد شمس بن عبد مناف، ثم أدى العمرة ـ وهى عمرة الجعرانة ـ ثم عاد إلى المدينة المنورة، وأبرز أحداث العام التاسع للهجرة غزوة تبوك، وبعدها أخذ يستقبل وفود القبائل العربية، التى جاءت من كل حدب وصوب تعلن إسلامها وبيعتها ـ كما سبقت الإشارة ـ وفى الخامس والعشرين من ذى القعدة من العام العاشر للهجرة أحرم ﷺ بحجة الوداع من ذى الحليفة، ليؤدى الفريضة ويعلم المسلمين مناسك الحج حيث قال ﷺ للمسلمين: «خذوا عنى مناسككم» وفى هذه الحجة ـ وهى الحجة الوحيدة التى حجها ـ والتى تسمى حجة الوداع لأنه ودع فيه أمته، وحجة الإسلام لأنه لم يحج غيرها، وحجة البلاغ لأنه قال للمسلمين فى خطبة الوداع فى يوم عرفة فى نهايتها «اللهم بلغت اللهم فاشهد».

وفى هذه الخطبة الجامعة لخص ﷺ لأمته مبادئ الإسلام، وبين لهم حرمة الأموال وحرمة الأعراض وحرمة الدماء، وحرمة أكل الربا وحثهم على أداء الأمانة وعلى الحفاظ على الأخوة الإسلامية، كما حثهم على حسن معاملتهم للنساء، وحفظ حقوقهن ثم حذرهم من الشيطان، الذى لا يكف عن الإيقاع بهم والتحريش بينهم، ثم أمرهم أن يسيروا فى حياتهم على هدى كتاب



الله وهدى سنته ﷺ حيث قال لهم: «فاعقلوا أيها الناس قولي، فإني قد بلغت وقد تركت فيكم ما إن اعتصمتم به فلن تضلوا أبدا، أمرا بينا؛ كتاب الله وسنة نبيه» وختم الخطبة بقوله ﷺ: «اللهم بلغت اللهم فاشهد».

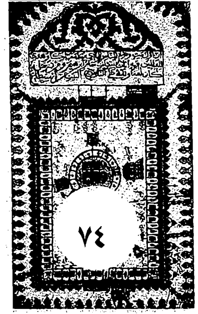
وبعد أن أدى ﷺ مناسك الحج عاد إلى المدينة المنورة فى الخامس والعشرين من ذى الحجة للسنة العاشرة من الهجرة وعاش بقية ذى الحجة والمحرم من العام الحادى عشر، وفى أواخر صفر أحس ﷺ بالمرض، الذى أخذ يشتد به حتى فاضت روحه الطاهرة وصعدت إلى بارئها فى يوم الإثنين الثانى عشر من شهر ربيع الأول للعام الحادى عشر الهجرى، وهو اليوم الذى كان فيه ميلاده وفيه هجرته ثم توديعه الدنيا إلى لقاء ربه.

وقد كان بعض الصحابة أحس بقرب أجل رسول الله ﷺ وهم معه فى حجة الوداع، ففى يوم عرفة نزل عليه قوله تعالى: ﴿ ... **الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ الإِسْلامَ دِينًا** ... ③ ﴾ [المائدة]، فلما سمعها عمر بن الخطاب رضى الله عنه بكى، فقيل له ما يبكيك؟ قال: ما بعد الكمال إلا النقصان والنقصان هو وداع رسول الله ﷺ الدنيا.

وهكذا غادر رسول الله ﷺ الدنيا إلى الرفيق الأعلى بعد أن بلغ أعظم رسالة سماوية للناس وأخرج الأمة من الظلمات إلى النور، وإذا تأملنا كيف كان حال العرب والعالم حولهم حين بعث ﷺ، حيث كان العرب قبائل متنافرة تعيش فى وثنية مظلمة، والعالم من حولهم يزدريهم ولا يقيم لهم أى وزن، وذلك العالم نفسه ـ وبصفة خاصة الدول الكبيرة مثل الفرس والروم ـ يعج بالمظالم والمفاسد، ذلك كله تغير تغيرا كاملا إلى الأفضل والأحسن، فالعرب الذين وجدهم النبى ﷺ أشتاتا متفرقين أصبحوا بفضل الله ونعمته أمة واحدة قوية متماسكة، وبعد وفاة الرسول ﷺ بشهور قليلة انطلقت هذه الأمة العربية فى قلوبها كتاب الله وسنته لتبلغها إلى الناس كما أمرهم الله ورسوله، وسارت تجاهد فى سبيل الله مضحية بالنفس والمال، ونجحت فى نهاية المطاف فى تغيير أحوال العالم وسياسته بالعدل والإحسان والأخوة الإنسانية وما كان لها أن تفعل ذلك لولا الإسلام الحنيف الذى أكرمها الله به،ولولا تربية الرسول ﷺ لها وجهاده العظيم فى نشر رسالته وتأسيس دولته وتكوين أمته فصلوات الله وسلامه عليه، وجزاه عن أمته وعن الإنسانية كلها خير الجزاء.

هذه صفحات قليلة أوجزنا فيها القول حسبما يقتضيه المقام عن مكة المكرمة منذ نشأتها حتى وفاة الرسول ﷺ، نرجو أن تكون هذه الصفحات قد أدت الغرض المطلوب وعلى الله قصد السبيل، ومنه العون والتأييد.





- القرآن الكريم.
- الكتاب المقدس.

أولا - المصادر:

١- تقى الدين محمد بن أحمد بن على الفاسى: شفاء الغرام بأخبار البلد الحرام. دار الكتب العلمية ـ بيروت.

٢- جلال الدين السيوطى: حسن المحاضرة فى أخبار مصر والقاهرة. تحقيق محمد أبوالفضل إبراهيم ـ مطبعة الحلبى ـ القاهرة.

٣- عبد الملك بن هشام: سيرة النبى ﷺ، تحقيق محمد محيى الدين عبد الحميد. طبع ونشر دار الإفتاء السعودية بالرياض.

٤- عمر بن فهد: إتحاف الورى بأخبار أم القرى ـ تحقيق فهيم شلتوت ـ منشورات جامعة أم القرى بمكة المكرمة.

٥- محمد بن إسماعيل البخارى: صحيح البخارى. طبع مطبعة الحلبى ـ القاهرة.

٦- ابن كثير: البداية والنهاية: نشر دار صادر ـ بيروت.

٧- ياقوت الحموى: معجم البلدان ـ دار صادر ـ بيروت.

ثانيا: المراجع:

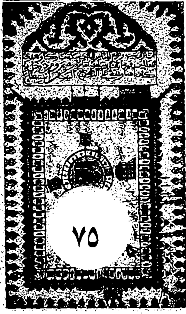
٨- د. أحمد إبراهيم الشريف: مكة والمدينة فى الجاهلية وعهد الرسول ﷺ دار الفكر العربى ـ القاهرة.

٩- إبراهيم باشا رفعت: مرآة الحرمين ـ بدون ذكر تاريخ أو مكان الطبع.

١٠- د. جواد على: المفصل فى تاريخ العرب قبل الإسلام ـ طبع جامعة بغداد.

١١- محمد حسنين هيكل: حياة محمد ـ دار القلم ـ القاهرة ـ الطبعة السابعة.

١٢- محمد على الصابونى: مختصر تفسير ابن كثير ـ نشر دار القرآن الكريم ـ بيروت.



المحتويات

الموضوع	الصفحة



الموضوع	الصفحة
- مكة بعد حادثة الفيل.	٣٦
- مكة وعلاقاتها الخارجية.	٣٧
- أحوال مكة الاقتصادية.	٤٠
- الأوضاع الاجتماعية فى مكة.	٤٤
- ميلاد النبى ﷺ .	٤٨
- تجارته فى مال خديجة.	٤٨
- بدء الوحى.	٥٠
- فى غار حراء.	٥١
- أول الناس إسلاما.	٥٢
- الدعوة السرية.	٥٣
- الجهر بالدعوة.	٥٣
- موقف قريش من الدعوة الإسلامية.	٥٥
- أسباب عداء قريش للإسلام.	٥٦
- أساليب قريش فى مقاومة الدعوة.	٥٧
- عام الحزن ورحلة الطائف.	٥٨
- تباشير النصر تأتى من يثرب.	٦٠
- هجرة النبى ﷺ إلى يثرب.	٦١
- غزوات الرسول ﷺ.	٦٣
- النبى ﷺ يصالح أهل مكة.	٦٦
- فتح مكة.	٦٧
- أثر فتح مكة فى انتشار الإسلام.	٦٧
- حجة الوداع.	٧١
- المصادر والمراجع.	٧٤
- المحتويات.	٧٥

Abstract

The City of Makkah is a most important center in Hedjaz. It lies in a barren valley surrounded by mountains. Mecca has different nominations such as Bakka and other names.

The earliest inhabitants of Mecca were Amalicos, then Jarham when Ibrahim, his wife Hager, and their son Ismail arrived to the place.

It is noteworthy that the arrival of Ibrahim's family coincided with the overflow of water from the well of Zamzam.

Next the Yemenites moved to Mecca after the collapse of the dam of Mareb. Khuzaa allied themselves with Bano Ismail, and together they controlled the affairs of Mecca including the catering of the pilgrims to the Holy Shrines of Kaaba. This administration lasted for about three centuries till the arrival of Qurayish under the leadership of Qussi bin Kilab who unified the city's clans. Then the leader of Khuzza conceded the control of Kaaba to Qussi and entrusted him with the keys of the Holy Shrines, and thus Qussi became the king and protector of Mecca, and endeavored to enhance the prestige of his tribe amongst the other Arab tribes.

Qussi was a wonderful administrator who gave special concern to the pilgrims as guests of God. Mecca flourished as a trading mediator between North and South (The Summer and Winter Itinerary).

The status of Qurayish flourished after the Message of the Prophet of God (Peace Be Upon Him), who demolished the idols of El- Kaaba, and introduced the city within the Islamic Umma.

After the winning over of Mecca by the Muslims, the companions of the Prophet stayed in it and transformed the Inviolate Mosque into a center of learning for the study of Islamic law.

However when the Ummyiats took over power as Caliphs, the Qurishites were opposed to them, and Abdallah Ibn El - Zobair took shelter in the city, and declared himself Caliph until he was Martyred at the hands of the Ummyiats.

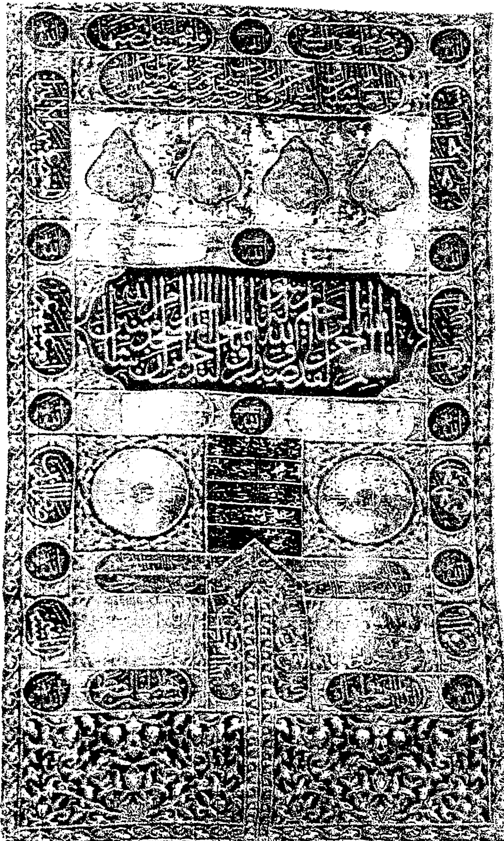
It is noteworthy that the people of Mecca played a vital role in the Arab conquests, and in spreading Arabic language, and Islamic culture.

Dr. Abdel Shafi Abdel Latif

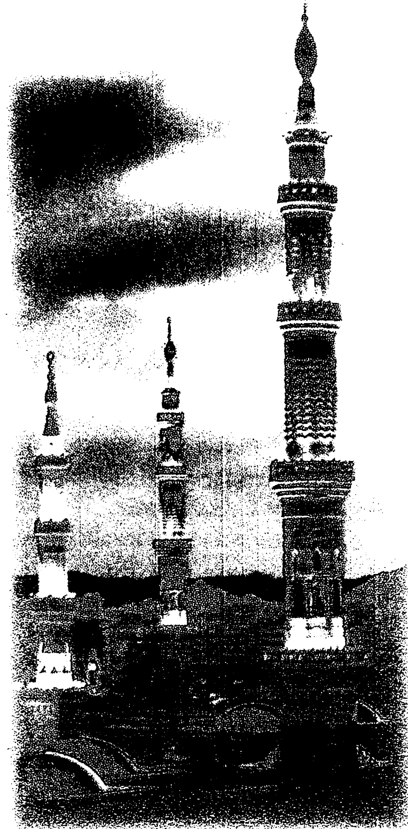
(2)

The Holy City of Makkah in Jahilia and Early Islam

Dr. Abdel Shafi Abdel Latif



(٣)
المدينة المنورة
فى صدر الإسلام
(العصر الجاهلى والإسلامى)

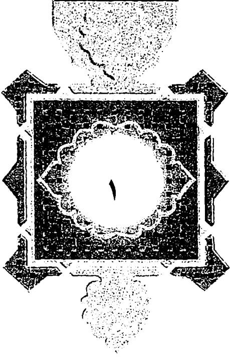


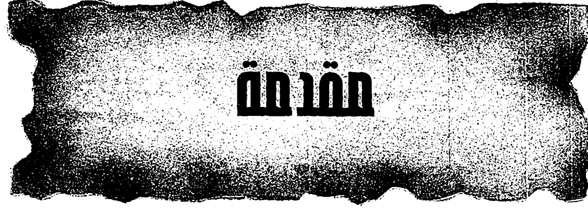
تأليف

د. محمد نيسان سليمان مناع

أستاذ التاريخ الإسلامى بقسم التاريخ والحضارة

كلية اللغة العربية - جامعة أسيوط





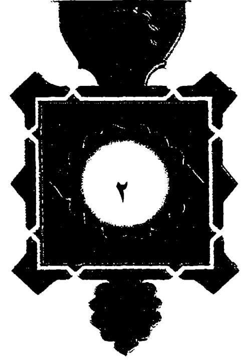
هذا بحث يتضمن المدينة المنورة قبل الإسلام وفى صدره، ما تناولت الدراسة وضع يثرب قبل الإسلام والصراع بين الأوس والخزرج من ناحية واليهود من ناحية أخرى، كما تناول الصراع بين الأوس والخزرج، وتتناول الدراسة ذهاب وفد من الأوس والخزرج إلى مكة المكرمة ومبايعة للرسول ﷺ وطالبوه بالهجرة إلى بلدهم لنشر الإسلام، وتجنب معارضة قريش للدعوة الإسلامية.

هاجر الرسول إلى المدينة المنورة، وآخى المهاجرين والأنصار وأعطى أمانا لليهود بالعيش فى سلام فى كنف دولة الرسول، واستطاع الرسول ﷺ بتوحيده بين الأنصار والمهاجرين مقاومة اعتداءات قريش على دولة الرسول والمسلمين، فأحرز انتصارات رائعة على كفار قريش، ومهدت هذه الانتصارات إلى زيادة أعداد المسلمين، وانتشار الإسلام فى الجزيرة العربية. وفى سنة ٨هـ فتح الرسول ﷺ مكة وحطم الأصنام، ودخل العرب فى دين الله أفواجا، واتسعت دولة الرسول ﷺ حتى شملت الجزيرة العربية كلها، وحاضرتها المدينة المنورة.

وتتناول الدراسة الأوضاع السياسية والحياة الاقتصادية والأحوال الاجتماعية، والحياة الثقافية فى المدينة المنورة فى صدر الإسلام.

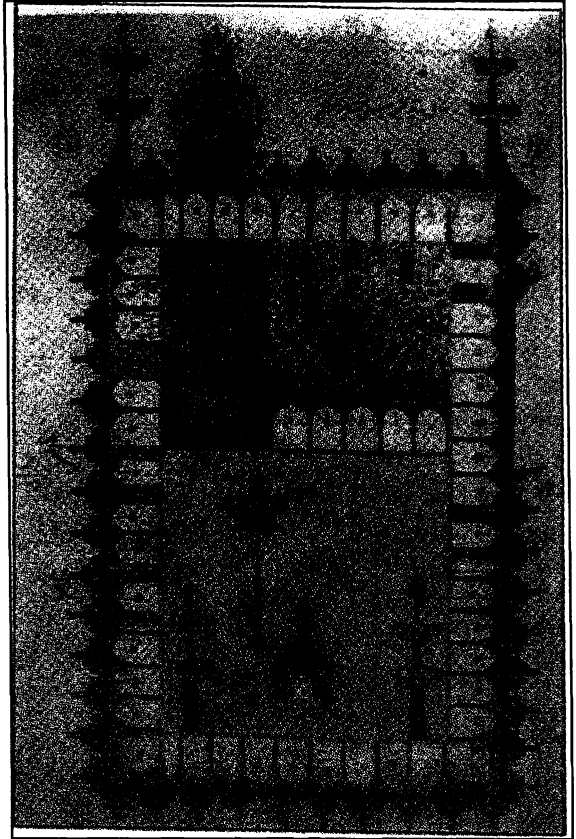
هذا، وبالله التوفيق

المؤلف



الفصل الأول
المدينة فى العصر الجاهلى

تعريف المدينة ولمحة عن نشأتها



تعرف المدينة فى اللغة بالإقامة.

كقول ابن منظور: مدن بالمكان: أى أقام به.

وقد ورد فى القرآن الكريم تمييز «المدينة» عن «القرية».

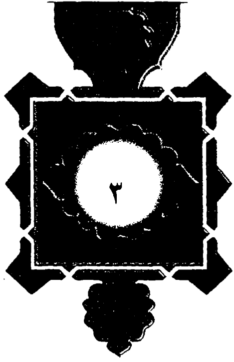
قال تعالى: ﴿ **قَالُوا أَرْجِهْ وَأَخَاهُ وَابْعَثْ فِي الْمَدَائِنِ حَاشِرِينَ** (٣٦) ﴾ [الشعراء].

وقوله تعالى: ﴿ **وَدَخَلَ الْمَدِينَةَ عَلَىٰ حِينِ غَفْلَةٍ مِّنْ أَهْلِهَا...** (١٥) ﴾ [القصص].

وفى الحديث الشريف: عن عبد الله بن عمر؛ أن رسول الله ﷺ قال: «يهل أهل المدينة من ذى الحليفة، ويهل أهل الشام من الجحفة...». الحديث.

وتشير بعض التعريفات اللغوية للفظ «المدينة» إلى تحديد الكيان المادى والاجتماعى لها.

المسجد النبوى - تصويرة من مخطوط لحسن بن محمد سنة ١١٨٩هـ/ ١٧٧٥م



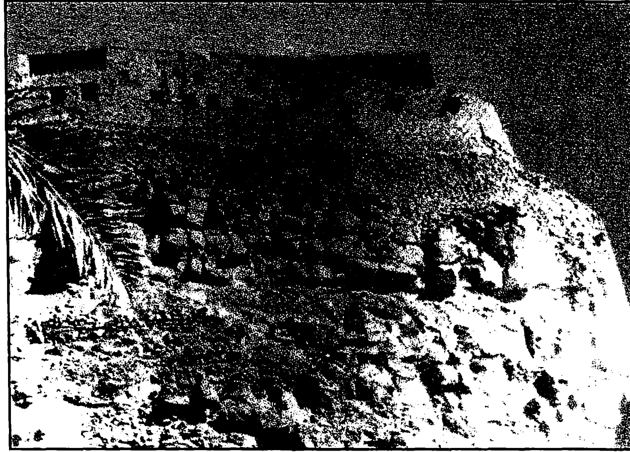
كقول ابن منظور: إن المدينة هى: الحصن يبنى فى أصطمة من الأرض، وكل أرض يبنى بها حصن فى أصطمتها فهى مدينة.

وأشار القزوينى إلى تعريف المدينة وكيفية نشأتها من وجهة النظر السابقة، وهى تحديد الكيان المادى والاجتماعى بقوله:

«إن الله خلق الإنسان على وجه لا يمكنه أن يعيش وحده كسائر الحيوانات، بل يضطر إلى الاجتماع بغيره حتى يحصل الهيئة الاجتماعية التى يتوقف عليها المطعم والملبس، فإنها موقوفات على مقدمات كثيرة لا يمكن لكل واحد القيام بجميعها وحده، مثال ذلك: كيف يتولى الشخص الواحد الحراثة، فإنها موقوفة على آلاتها، وآلاتها تحتاج إلى النجار، والنجار يحتاج إلى الحداد.

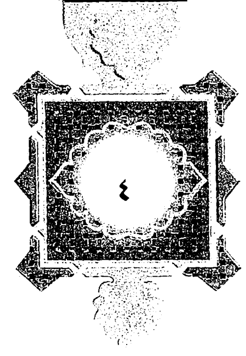
وعند حصول كل هذه الأشياء تتم الهيئة الاجتماعية ومتى فُقد شىء من ذلك فقد اختلت الهيئة الاجتماعية، كالبدن إذا فقد بعض أعضائه فيتوقف نظام معيشة الإنسان.

أما عند حصول الهيئة الاجتماعية: فلو اجتمع البشر فى صحراء لتأذوا بالحر والبرد، والمطر والريح، ولو تسحروا بالخيام والخرقاهات لم يأمنوا مكر اللصوص والعدو، ولو اقتصروا على الحيطان والأبواب كما نرى فى القرى التى لا سور لها، لم يأمنوا صولة ذى البأس، فألهمهم الله تعالى إلى اتخاذ السور والخندق والفصيل، فحدثت المدن والأمصار والقرى والديار.



قصر مرحب - مدينة خيبر

ثم إن الملوك الماضين عندما أرادوا بناء المدن، اتخذوا آراء الحكماء فى ذلك، فاختاروا - الحكماء - أفضل ناحية فى البلاد، وأفضل مكان فى الناحية، وأعلى منزل فى المكان من السواحل والجبال ومهب الرياح؛ لأنها تفيد صحة أبدان أهلها وحسن أمزجتها، واحترزوا من اختيار المكان فى الجزر، وأعماق الأرض، فإنها تورث كربا وهرما.



واتخذوا للمدن سورا حصينا منيعا، وللسور عدة أبواب حتى لا يتزاحم الناس فى الدخول والخروج، كذلك أشار إلى أن: بالمدينة مكانا لملك المدينة وناديا لاجتماع الناس فيه، وأشار أيضا إلى طبيعة كل مدينة واختلافها عن غيرها من حيث النشاط البشرى.

ويعلق أحد الباحثين على قول القزوينى بأن:

«لهذا التعريف دلالاته المتصلة مباشرة بالمقاييس والمعايير الحضارية التى تميز المدينة عن غيرها من مراكز الاستيطان الأخرى، فهو يشير صراحة إلى أن المدن لا تقام إلا بواحد من مراكز الاستيطان الأخرى، ويشير إلى أن المدن لا تقام إلا فى حالة وجود «الهيئة الاجتماعية» كما تشير أيضا إلى أن المدينة تتميز بسورها الذى يحصنها، وفى ذلك تأكيد واضح على الدلالة الحضارية لإقامة السور الذى يعنى الأمن والأمان لساكنى المدينة.

كذلك أشار القزوينى إلى وجود سلطة فى المدينة ممثلة فى الحاكم أو الملك، وأشار ـ أيضا ـ إلى اختلاف طبيعة الأرض والمناخ على النشاط البشرى، وتميز مجتمع كل مدينة عن غيرها بنشاطات يتفوقون بها.

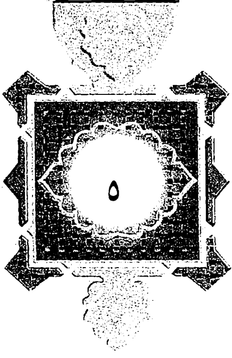
فنجد أنه وازن بين تعريفه من المنظور المادى والمنظور الاجتماعى بصورة تؤكد سبق الفكر الإسلامى فى إدراكه المقاييس والمعايير التى تميز المدينة».

ولم تغفل كتب الحسبة أنه عند تخطيط المدن يجب على الوالى أن يعين عليهم رجلا أمينا ثقة بصيرا بصنعتهم، وأن يستعمل الصانع ما يصحح به عمله ويضبطه من زوايا وموازين وخيوط، وإن جرى فيما يستعمله انحراف أو ميل عن الاستواء لزمه تعديل ذلك وحتى يعود صحيحا مستقيما.

ونهى البناءين من القطع من أخشاب الناس المستأجرة.

ويُقسم البناءون بالله على أنهم لا يأخذون من الجيادين أو من الجباسين رشوة أو هدية مقابل تواطؤهم على أخذ الجبس رديئا أو لم ينضج، ويأخذ عليهم الأيمان - أيضا - على أن لا يبيعوا للناس إلا ما صح من أدوات البناء.

والنتيجة المباشرة لذلك: هو الحرص الشديد على إتقان البناء واستخدام مواد الإنشاء بالمواصفات المطلوبة، وهى متانة البناء، حتى لا يكون الإهمال سببا فى جلب الأذى للآخرين.





تبدأ نشأة المدينة الإسلامية من «يثرب» بعد هجرة الرسول ﷺ إليها، والتى حـولتهـا إلى «مدينة» بمفـهوم حـضارى واضح، فأصـبحت تسـمى «المدينة» فبـعد الهجرة حـدث تغير واضح، سـعى إلى تحقيـقه الرسول ﷺ، أساسـه الدعوة إلى الإسلام، ذلك الدين الذى بدأت فى ضوء قـيمه وتعاليمه عـملية تهيئة المجتـمع الإسلامى الجديد لحيـاة حضارية تلازمت تماما مع اهتـمامه بالكيـان المادى للمدينة، فأدى ذلك تدريجـيا إلى تكامل المراكز الحضارية الإسلامية.

وكانت خطتـه ﷺ واضحة منذ البـداية، فدعا إلى تذويب الـقبيلة بدعـوته إلى التآخى فى الإسـلام، وأكد فى الوقت ذاته على رابطة ذوى الأرحـام، وكـذلك أكد - أيضـا - على الرابطة العامة بين المسلمين؛ فـأدى ذلك إلى خلق مجتمع واحد متماسك بعيـدا عن النزعة القبلية، وتبع ذلك إلغاء العصبية القبلية، ولا شك أن كل ذلك ساعد على تحقيق قيم الإسلام وتطبيقها.

أولا: الحياة الاجتماعية فى المدينة

يثرب وسبب تسميتها:

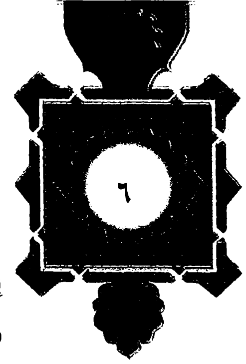
هى مدينة الرسول ﷺ، وهى ثانى مدن الحجاز، ودار الهجرة التى نصرت الإسلام وأعزت المسلمـين، وبها ثانى الحـرمين الشـريفين، هذا فـضلا عن كـونها العـاصمة الأولى لـلإسلام فى التاريخ.

ولم تكن تعرف قبل ذلك بهذا الاسم، وإنما كانت تعرف بيثرب.

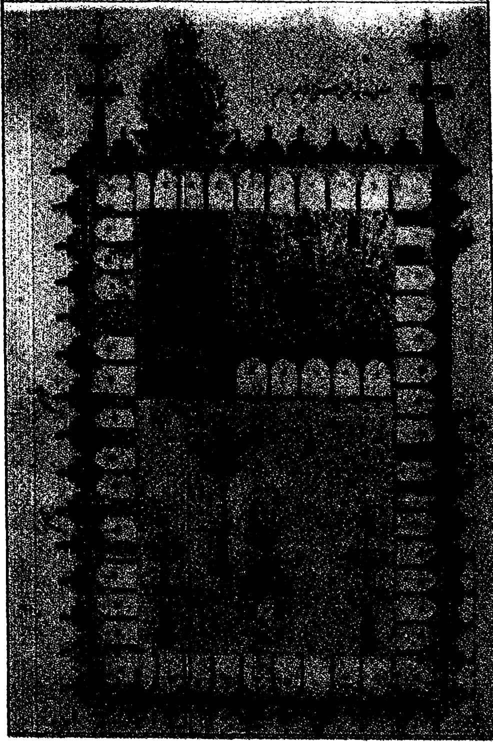
ويقول ياقوت: يثرب: بفتح أوله وسكون ثانيه وكـسر الراء وباء موحدة: هى مدينة رسول الله ﷺ.

وقد ورد لفظ «يثرب» فى القـرآن الكريم قال تعالى: ﴿**وَإِذْ قَالَت طَّائِفَةٌ مِّنْهُمْ يَا أَهْلَ يَثْرِبَ لا مُقَامَ لَكُمْ فَارْجِعُوا**..(١٣)﴾ [الأحزاب].

ويرى السمهودى بأن اسمها: «يثرب»، أو «أثرب».



وأن لفظ «يثـرب» أو «أثرب» اسـم لموضـع مخـصـوص من أرض المدينة التى حـدودها من طرف وادى قناة شـرقـا إلى طرف الجـرف غـربا ومن زبالة الـزج جنوبا، إلى البسـاتين التى تعرف بالمال شمالا.



تصويرة للمسجد النبوى من مخطوطة لكتاب دليل مكة والمدينة ٩٩٠هـ/ ١٥٨٢م

أما أول من نزلها من الأقدمين: تسمى «يثرب» نسبة إلى «يثرب بن قانية بن مهلائيل»، وهو أول من سكنها عند تفريق ذرية نوح.

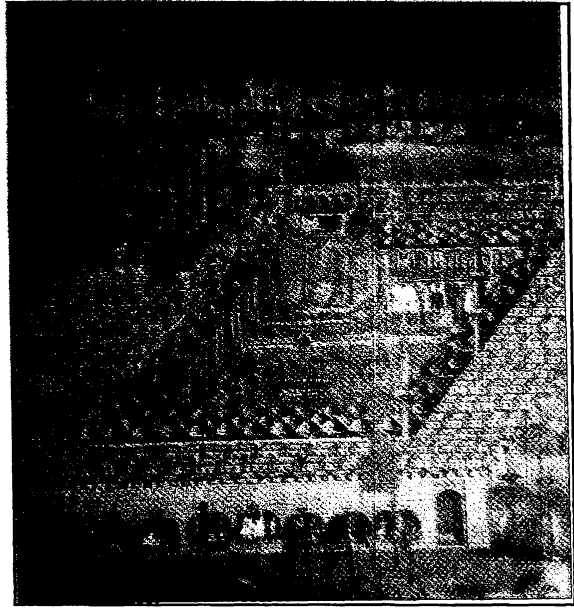
وإن أول من نزلهـا بعد قـوم نوح: قوم يقال لـهم: «صعل وفالـج» فغزاهم داود عـليه السلام، فـأخذ منهم مـائة ألف عذراء، وسلط الله عليهم الدود فى أعناقهم فهلكوا، فقبورهم هى التى فى السهل والجبل.

المسجد النبوى - تصويرة من المصحف الشريف - نسخة كمال زادة السيد نظيف سنة ١٢٤٩هـ/ ١٨٢٢م - (متحف الفن الإسلامى بالقاهرة)





ويرى البعض: أن أول من نزلها من العماليق، وأقام فيها منهم قبائل تسمى «هف»، و«سعد بن هفان»، و«بنو مطرويل»، ثم نزلها اليهود من أقدم أزمانهم، وقيل أنهم أتوها من أيام موسى أثناء حروبه مع الكنعانيين».



المسجد النبوى - تفاصيل من لوحة بالمتحف الإسلامى بالقاهرة

أما اسم المدينة: فقد جاء فى القرآن الكريم قوله تعالى: ﴿**مَا كَانَ لِأَهْلِ الْمَدِينَةِ وَمَنْ حَوْلَهُم مِّنَ الْأَعْرَابِ أَن يَتَخَلَّفُوا عَن رَّسُولِ اللَّهِ وَلَا يَرْغَبُوا بِأَنفُسِهِمْ عَن نَّفْسِهِ...**(١٢٠)﴾ [التوبة]، وقوله تعالى: ﴿**لَئِن لَّمْ يَنتَهِ الْمُنَافِقُونَ وَالَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ وَالْمُرْجِفُونَ فِي الْمَدِينَةِ...** (٦٠)﴾ [الأحزاب].

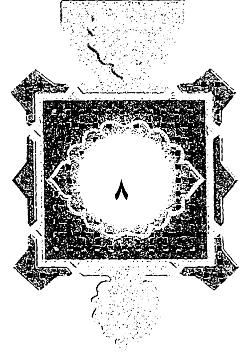
وقد كره ﷺ لفظ «يثرب» لما فيه من التثريب، وسماها طيبة، والمدينة.

روى عن زيد بن أسلم قال: قال النبى ﷺ: للمدينة عشرة أسماء هى: «المدينة، وطيبة، وطابة، وسكينة، وجَبَار، ومحبورة، ويندد، ويثرب».

وفى رواية أخرى عن عبد الله بن جعفر بن أبى طالب قال: سمى الله المدينة: الدار والإيمان».



سور مدينة خيبر بالمدينة المنورة



قال ابن شبة: فجاء فى الحديث الأول: ثمانية أسماء، وجاء فى هذا اسمان؛ فالله أعلم أهما تمام العشرة أسماء التى فى الحديث الأول أم لا.

وقيل أن لها تسعة وعشرين اسما.

أما عن تسميتها «مدينة الرسول»؛ لنزوله ﷺ بها.

سكان المدينة:

سبق القول بأن المدينة سكنها العماليق، واليهود، وكذلك سكنها العرب.

أ - اليهود:

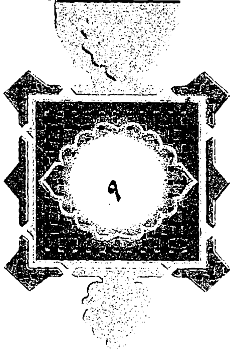
يرجع وجود اليهود فى يثرب إلى القرنين الأول والثانى بعد الميلاد، وهذا ما تؤكده الأدلة التاريخية، وهى أن الظروف السياسية التى كانت اليهود تمر بها - فى تلك الفترة، بعد نجاح الرومان فى السيطرة على سورية ومصر وعلى اليهودية ودولة الأنباط، قد ساعدت على هجرة أعداد من اليهود إلى شبه الجزيرة العربية، التى كانت بعيدة عن السيطرة الرومانية، هذا فضلا عن أن بلاد العرب إنما كانت ولا تزال فى بداوة تشبه ما كان عليه اليهود إلى حد ما، هذا إلى أن اليهود أنفسهم إنما كانوا ينظرون إلى أن العرب من ولد إسماعيل، وبما أنهم - اليهود - من نسل إسحاق فهم جميعا من نسل إبراهيم الخليل عليه السلام، وبالتالى فهم من ذوى رحمهم ولهم بهم صلة من قربى.

هذا فضلا عن أمر هروب اليهود إلى أعالى الحجاز ودخولهم إليه أمر ميسور.

وبعد أن سكنت جموع اليهود فى الجزيرة العربية، وكثرت أعدادهم تركزت جماعات أو كتل يهودية فى يثرب بالذات، وذلك بسبب خصب أراضيها، وغزارة المياه بها، بالإضافة إلى كونها محطة من محطات الطريق التجارى القديم الذى يصل بين الشام واليمن.

وكان اليهود أهل تجارة، فما لبثوا أن اقتنوا الضياع والأموال، وأصبحت تجارة المدينة وثرواتها فى أيديهم.

خشى اليهود بعد ذلك على أنفسهم من جيرانهم العرب، ولعلهم أدركوا أن قراهم الخصبة، ومزارعهم الغنية بالأشجار والثمار، ووديانهم التى تفيض بالمياه وآبارهم وعيونهم العديدة، سوف توجه إليهم أنظار عرب الصحراء؛ لذلك عمدوا على الإكثار من بناء الحصون.



وبلغت اليـهود فى يثرب نـيفا وعـشرين فـرعا، وأهم هذه القـبائل والبطون هى:

(١) بنو أنيف: وقد نزلوا قباء.

(٢) بنو القصيص: وقد نزلوا مع سابقيهم قباء.

(٣) بنو قـريظة: وكانوا يـسكنون الحرة التى تسـمى باسـمهم حـتى اليوم.

(٤) بنو هدل: وكانوا يسكنون مع بنى قريظة.

(٥) - بنو عمرو: وكانوا يسكنون مع بنى قريظة - أيضا.

(٦) بنو النضير: وكانوا يسكنون بالنواعم.

(٧) بنو مربد: ولهم منازل تعرف باسمهم.

(٨) بنو ماسكة: ولهم منازل فى القف.

(٩) بنو محمم: وكانت لهم أرض تسمى خناقة.

(١٠، ١١، ١٢) بنو معاوية - بنو أزعورا - بنو زيد اللات.

(١٣) بنو قينقاع: وكانوا عند منتهى جسر بطان.

(١٤، ١٥) بنو حجر - بنو ثعلبة وكانا يسكنان زهرة.

(١٦) يهود الجوانية: وهو موضع فى شمال المدينة.

(١٧) بنو عكوة.

(١٨) بنو مراية.

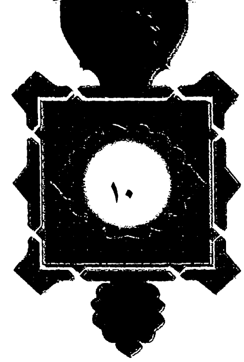
(١٩) يهود راتج: لهم منازل تعرف باسمهم.

(٢٠) يهود يثرب: بادوا ولم يبق منهم أحد.

(٢١) بنو ناغصة: سكنوا شعب بنى حرام.

ب - العرب: (الأوس والخزرج):

يروى الإخباريون أن القبائل العربية - من أوس وخزرج - قد هاجرت من اليمن إلى يثرب على إثر سيل العرم، وهناك فى يثرب وجدت تلك القبائل أن الأموال والحصون والنخيل فى أيدى اليهود، فضلا عن العدد والقوة.



أقــام الأوس والخــزرج بالمدينة، وعقدوا حلفا مع اليهود يأمن به بـعـضـهـم من بعض، ويمنعــون به من ســواهم، فــصــارت الأوس والخــزرج أصـحـاب أمـوال، فلمـا رأت قريظة والنضـير ذلك خافت من أن تختلهم اليهود، حتى قام رجل منهم يسمى «مالك بن العـجلان» أخو بنـى سالم بن عـوف بن الخزرج، فـأرسل فى طلب نجدة من بـلاد الشام ضـد اليهـود، فأقبل ملك يسـمى «أبو جبيلة» فى جمع كبـير لنصرة الأوس والخزرج، وبعد ذلك تـفرقت الأوس والخزرج فى المدينة، وسكنوا فى معظم نواحيها.



خريطة المدينة المنورة عند بداية الدعوة الإسلامية

ويظهـر من روايـات الأخـبـاريين: أن الأوس والخزرج، لم يكونوا يميلون إلى الهـدوء والاستقرار، بل كانوا أميل إلى حياة البـداوة القائمة على الخصومة والتقاتل، وقد بقى الحيـان يتخاصمان حتى جاء الرسول ﷺ إليهما، فأكرمهم الله باتباعه.

تلك لمحة مختصرة عن التوزيع البشرى فوق أرض يثرب، ومن نزلها من الأقدمين.

المجتمع فى المدينة فى العصر الجاهلى:

كان المجتمع القبلى فى الجاهلية ينقسم إلى ثلاث طبقات اجتماعية هى:

طبقة **القبيل** أو جمهور أبناء القبيلة الصرحـاء، وطبقة الموالى الذين اندمجوا فى القبيلة عن طريق الحلف أو الجوار، ثم طبقة العبـيد والرقيق. أما طبقة القبيل أو الصـرحاء: فهم أبناء القبيلة الذين يرتبطون بها برابطة الدم، وهم جمهـور القبيلة ودعامتها، وكانوا يسـتجيبون لندائها ظالمة أو مظلومة، مقابل إضفاء القبيلة حمايتها عليهم، مع عدم الإتيان بأى فعل يشين إلى سمعة القبيلة.

أما طبقة الموالى: فهم الذين خلعتهم القبيلة وفصلتهم عنها لجرائم ارتكبوها، ثم دخلوا فى قبـيلة أخرى على أساس الجـوار، وكان لهم نفس حقـوق أفراد القبيـلة، ولكن رابطة الجوار هذه كانت مؤقتة.



أما طبقة العبيد أو الرقيق، فكانت محرومة من كل الامتيازات، بل يمكن القول بأنها كـانت مثقلة بالواجبات نحو ساداتـها، وكان يوكل إليهم بالأعمال التى يأنف منها العرب كالرعى والحدادة والحجامة والنجارة.

الأغنياء والفقراء:

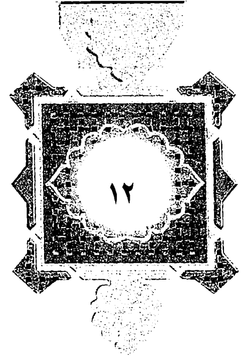
كان من العرب فريق ينعم بالثراء والترف، وفريق يعانى مرارة البؤس والفقر.

أما الـفريق الأول فكانوا يشـتغلون بالتـجارة وكـونوا منها ثروات، أو بالزراعـة فى أطراف الصحراء العربيـة فى اليمن وفى الحيرة وفى مشارف الشام وفى الواحات التى يسكنـون بها كيثرب والطائف.

أما الفقراء فهم الذين يشتغلون بحرفة الرعى.



الحياة البدوية



لاحظنا فيما سبق أن الصراع فى يثرب بدأ بين اليهود والأوس والخزرج وانتهى بغلبة الأوس والخزرج، وأصبحوا منذ ذلك الحين خنع اليهود ظاهريا يعيشون فى كنف الأوس والخزرج فى أحلاف عديدة ومتنوعة، حسب ما يحقق مصالحهم.

كذلك سلكوا بسبيل الوقيعة وإثارة الفتن بين كل من الأوس والخزرج، وقنعوا بالسيطرة الاقتصادية والاستيلاء على موارد الثروة والتجارة، ثم نشبت الحرب بين الأوس والخزرج أنفسهم.

نلاحظ مما سبق أن العلاقات بين عناصر المجتمع اليثربى لم تكن مستقرة فسرعان ما تنشب بين الحين والآخر فترات صراع ونزاع.

كذلك كان المجتمع فى يثرب يميل إلى الغزل واللهو والغناء، وعرفوا اتخاذ القينات.

كذلك كانوا يعيشون قبائل متنابذة، لا يعرفون فكرة الأمة، وإنما يعرفون فكرة القبيلة، وما يربط بين أبنائها من نسب، وكل قبيلة تتعصب لأفرادها تعصبا شديدا، فإذا جنى أحدهم جناية شركته فى مسئوليتها.

وإذا قتل لها أحد أبنائها هبت للأخذ بثأره هبة واحدة.

فلما جاء الإسلام أخذ يضعف من شأن القبلية ويحل محلها فكرة الأمة، قال تعالى: ﴿**كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ**.. (١١٠)﴾ [آل عمران].

المرأة فى يثرب:

كانت المرأة فى يثرب كغيرها من النساء - فى هذا العصر - يشتركن مع الرجال فى بعض أمور الحرب وعرف اليثربيون تعدد الزوجات، وكان الطلاق شائعا عندهم، فقد كان العربى لا يكتفى بزوجة واحدة، إما بقصد إعالتهن أو لغرض سياسى، إذا كان رئيسا بين قومه، بأن يصهر إلى عدد كبير من القبائل، حتى يرتبط معها برابطة المصاهرة، أو بقصد الإكثار من الذرية والتناسل.

كذلك كان النساء يشتركن مع أزواجهن فى الأعمال اليومية، فتقضى وقتها فى مساعدته فى أعمال الزراعة، إذا كانت تعيش فى مناطق زراعية أو فى الطهى وإعداد الطعام وحلب الأغنام، أو تقوم بغزل الصوف ونسجه، وكثيرا ما كانت تحترف بعض الأعمال التى تكتسب من ورائها مالا تعتمد عليه فى حياتها كالتجارة أو الرضاع أو الغناء أو النسيج أو تقويم الرماح أو دبغ الجلود.

أما معاملة اليثربيين لأبنائهم، فقد كانت تنطوى على الحنان والمحبة وليسر أحوالهم المادية، فإنه لم يؤثر عنهم أنهم وقعوا فيما وقع فيه بعض فقراء العرب فى المواطن الأخرى من قتل أولادهم خشية الإملاق، حيث سفههم القرآن فى قوله تعالى: ﴿**وَلا تَقْتُلُوا أَوْلادَكُمْ خَشْيَةَ إِمْلاقٍ نَّحْنُ نَرْزُقُهُمْ وَإِيَّاكُمْ إِنَّ قَتْلَهُمْ كَانَ خِطْئًا كَبِيرًا** (٣١)﴾ [الإسراء].

ورغم غيرتهم على بناتهم فإنه لم يعرف عنهم وأد البنات.



ثانيا: الحياة السياسية فى المدينة:

سبق القول بأن يثرب كانت ميدانا للصراع بين اليهود والعرب (الأوس والخزرج) والذى انتهى بغلبة وتفوق الأوس والخزرج على اليهود.

لكن على الرغم من صلة القربى التى كانت تجمع بين الأوس والخزرج، فقد وقعت بينهما حروب هلك فيها من الطرفين خلق كثير.

ويظهر من الروايات أن الأوس والخزرج وإن كانوا قد تحضروا واستقروا غير أنهم لم يتمكنوا من التخلص من الروح الأعرابية تخلصا تاما، بل بقوا محافظين على أكثر سجاياها، ومنها النزعة إلى التخاصم والتقاتل، ومن أهم هذه الحروب:

(١) يوم سمير:

وسبب هذه الحرب هو أن شخصا من ذبيان اسمه «كعب الثعلبى» نزل على مالك بن العجلان، وأقام فى يثرب، ونعم بجواره.

خرج كعب ذات يوم إلى أحد أسواق بنى قينقاع، فرأى رجلا من «غطفان» بيده فرس ينادى فى الناس لكى يبيعها، ولكن الذى يأخذها لابد أن يكون من أشرف أو أعز أهل يثرب، بناء على ذلك غضب رجل من الأوس وأنكر أن يكون أعز أهل يثرب الذى اشترى هذا الفرس من الحرب.

وتوالت الأحداث، ونشبت من أجل ذلك حرب طاحنة بين الأوس والخزرج، وكان الدافع وراء هذه الحرب هو دافع العصبية، فقد تحزب «مالك بن العجلان» لمقتل حليفه «كعب».

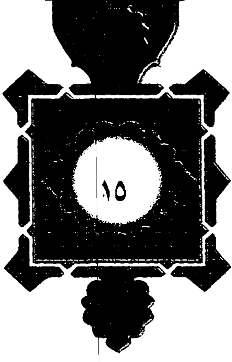
أما سبب تسميته بهذا الاسم: نسبة إلى «سمير بن زيد»، من بنى عمرو بن عوف، وهم فرع من الأوس.

واستمرت هذه الحرب فى أيام متقطعة وأماكن مختلفة، وانتهت ظاهريا بحكم ثابت بن المنذر، ولكنها تركت حزازتها فى النفوس وجعلتها مستعدة للالتحام فى أى وقت آخر.

(٢) يوم السرارة:

والسبب المباشر لهذه الحرب هو: أن رجلا من بنى الحارث بن الخزرج لقى رجلا من بنى عمرو بن عوف خارجا من بئر أريس - وهى تقع غربى مسجد قباء - فرماه بنبل كان السبب فى قتله، فلم يتصرف بنو عمرو بن عوف بالأسلوب الذى يحقن الدماء، بل عمدوا إلى الغدر بالقاتل، فقتلوه فى داره.

مسجد قباء أول مساجد الإسلام



وهو أسلوب لا تقبله النفوس اليثربية، فقد كانوا على الرغم من عداوتهم لا يقتلون رجلا فى داره ولا فى نخله.

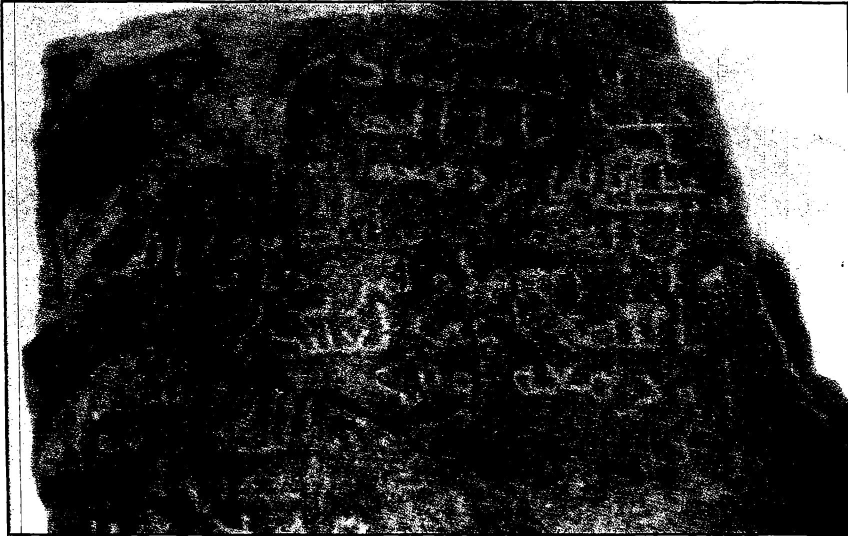
ولما علم أهله بذلك عزموا على الأخذ بثأر قتيلهم من بنى عمرو بن عوف فأرسل بنو الحارث يؤذنونهم بالحرب، فالتقوا بـ «السرارة»، ودار القتال بينهم أربعة أيام متتالية، كان النصر فيها حليف الخزرج.

(٣) يوم بعاث:

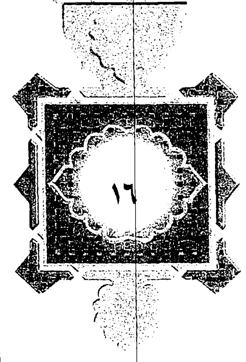
كان هذا اليوم هو آخر الحروب التى نشبت بين الأوس والخزرج، وقبل هجرة المصطفى ﷺ بخمس سنوات.

أما وقد كانت الغلبة فى معظم الحروب السابقة لصالح «الخزرج»، ومن ثم فقد رأى «الأوس» محالفة «بنى قريظة» فأرسلت إليهم الخزرج فى طلب الحلف معهم، وأن لا يدخلوا فى حلف مع الأوس، ومع ذلك فقد استمر كل فريق منهم يستميل إليه اليهود.

رجع الأوس من عمرتهم خائبين لأنهم لم يفلحوا فى إقناع قريش بمحالفتهم ومناصرتهم على الخزرج، وكادوا يسلمون بالأمر الواقع، ويلقوا السلاح ويعطوا السيادة للخزرج، ولكن اليهود لم يحل لهم انتهاء الصراع على هذه الصورة، فعملوا خلال الثلاث عشرة أو الأربع عشرة سنة من الهدنة على إشعال نار الحرب بين الحيين مرة أخرى، وعرضت قريظة والنضير الحلف على الأوس لكى تقويا عزمهم على محاربة الخزرج.



نقش على تل فى آبار على بالمدينة المنورة



قبـل الأوس هذا الحلف، وعقـدوا عليه الآمـال، لاسـترداد هيبتـهم ومكانتهم، وانضمت إليهم قبائل أخرى من اليهود.

نشبت الحرب بين الفريقين عند «بعاث» - حصن بنى قريظة - وانهزم الأوس فى اليوم الأول، غيـر أن قائد الخزرج «عمر بن النعمـان» سرعان ما قتل، وانتـهز الأوس الفـرصة، فـمالوا على الخـزرج ميلة واحدة، يـقتلون رجالهم ويـحرقون منازلهم ونـخيلهم، بعد أن كـانت اليهـود قد نهـبت ما استطاعت من أموالهم.

ولم ينقذ الخزرج من الكارثة، إلا خشـية الأوس من أن يستعيد اليهـود مركزهم السابق فى يثرب.

ويمكن القول بأن النزاع الذى كان بين الأوس والخزرج فى الجاهلية انقلب فى الإسلام إلى تنافس شريف مثمر، فـاجتمعوا حول الرسول ﷺ فى وحدة مـتراصة لا تعرف إلا الإخلاص لله ولرسوله.

ثالثا: الحياة الثقافية فى المدينة:

كان لأهل يثرب بحكم اشـتغالهم بالزراعة معرفـة خاصة بالأمور الزراعية وحصـيلة علمية بمتطلباتها، وهى معرفـة بالطبع لا تتأتى للمجتمع الرعوى فى البادية، ولا للمـجتمع التجارى فى مكة.

ولا شك أن المعرفة بالزراعة تتطلب إلماما ببعض الأمور المتعلقة بها عن طريق المعرفة بأماكن وجود المياه وحفر الآبار بها، ومعرفة طريقة تبطين هذه الآبار بالحجارة.. إلخ.

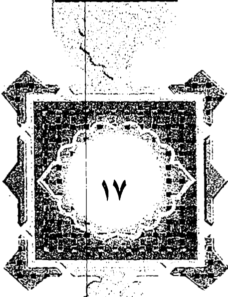
كذلك استتبع الأمـر وجود بعض الحرف اليدوية التى تقوم على الحركة الزراعـية مثل حرفة غزل الصوف والوبر.

وصناعة بعض المكاييل من خشب الأشجار، وصناعة بعض أوانى الشرب والطعام.

وصناعة الأبواب وأسقف المنازل وأعمدتها من النخل.

وقامت بينهم أنواع من المعاملات نهى عنها الإسلام كالمحاقلة والمزابنة.. إلخ.

ولا شك أن العملية الزراعية، وما يقوم عليهـا من حرف يدل على الناحية العقلية، وحسن استخـدام الإنسان للوسائل الذاتية الميسـرة له دون تدخل خارجى، وهذا يشير إلى الناحيـة العقلية والفكرية التى بلغها أهلها يثرب.



كذلك كان أهل يثرب مثل غيرهم تجارا يخرجون إلى الأسواق المجاورة لهم فيتجرون بها.

ولا شك أن عملية التجارة هذه تعد عاملا من عوامل نشر الثقافة، ومعرفة ما لدى هذه القبائل من نظم وعادات وتقاليد سواء فى البيع أو الشراء، أو المستوى الثقافى الذى بلغته هذه القبائل التى يتجرون معها.

وعرفت صناعة الأسلحة فى يثرب، ولم تكن فى بدايتها فى يد الأوس والخزرج، وإنما كانت بيد اليهود.

ولم ترو كتب السيرة عن قيام مثل تلك الصناعات بين المسلمين فى يثرب وتقدمها بينهم.

وربما يرجع ذلك ليس إلى قصور فى العقلية العربية أو اليثربية، وإنما هو بسبب النظرة الخاصة التى كان ينظر بها العرب إلى المشتغلين بمثل هذه الحرف.

وعرفوا كذلك دباغة الجلود لاستعمالها فى الأغراض المختلفة كالقرب فى حالة حمل الماء وتبريده، والدلاء لجذب الماء من الآبار.

حيث كانوا يقرنون بالحبال الرفيعة رؤوس ثلاث جرائر منزوعة السعف ويوقفونها مفتوحة الأرجل، ثم يعلقون عليها القربة ليبرد ما فيها من ماء بواسطة الهواء الطبيعى.

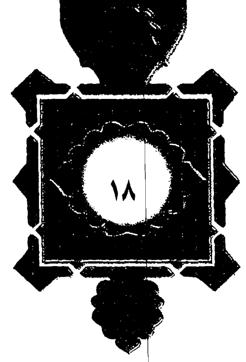
كذلك كان دبغ الجلود لغرض الكتابة عليها، وكان هذا النوع من الصناعة يخضع لعملية خاصة عن غيره من الجلود المستخدمة.

وإلى جانب هذه المعارف والثقافات كانت لهم معارف عامة بجميع علوم عصرهم التى كانت شائعة فى البيئات العربية الأخرى، البدوية منها والحضرية، وهى فى عمومها تدور حول علم الأنساب والتواريخ وتعبير الرؤيا.. إلخ.

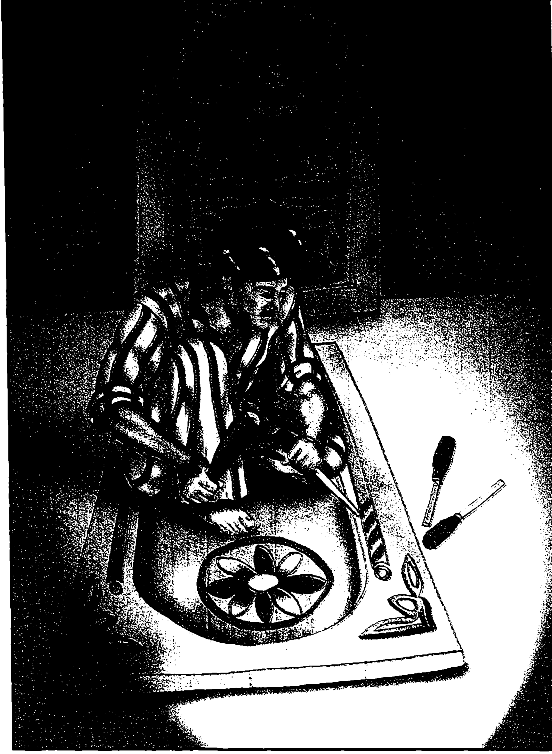
وكانت الصراعات التى تنشب بين الحين والآخر فى المدينة سببا فى نشاط الشعراء من الطرفين المتخاصمين الذين يستلون ألسنتهم فى قول الشعر، سواء كان ذلك لغرض الفخر أو رغبة فى انتقاص الخصم، أو إثارة النخوه لتشتد قوى الحرب ويستميت أصحاب الشاعر وأهله فى القتال.

وكان من هؤلاء الشعراء حسان بن ثابت الشاعر المخضرم ولسان الخزرج والمدافع عنهم، وقيس بن الخطيم وهو من الأوس، وعامر بن الأطنابة، والربيع بن أبى الحقيق اليهودى.. وغيرهم.

وقد يكون من المناسب أن نتلمس مقدار ثقافة أهل يثرب من خلال لغتهم، فإن اللغة التى كانوا يستعملونها كانت ناضجة لغة وتركيبا، إذ إنهم كانوا يستعملون اللغة العربية السائدة والتى



وصلتنا بهـا النصوص الجـاهليـة، وهى تدل على عـقليـة راقيـة وثقافـة محكمة تعـبر عن المعـانى الـكليـة، كمـا تعبـر عن المعانى الجـزئيـة بكل دقـة ووفاء.


نموذج لبعض الحرف عند عرب يثرب

رابعا: الحياة الدينية فى المدينة:

كـانت عبـادات العـرب قبل ظهـور الإسلام كـثيـرة إلى الغايـة، وكانت عـبادة الشمس والنجـوم أكثرها انتشـارا، وأخذت القبـائل العربية من الأمم التى كـانت تتصل بها كثيرا من آلهتها.

فـقـد وجــدت فى يثـرب الديانة اليهودية، وكذلك انتشرت عبادة الأوثان.

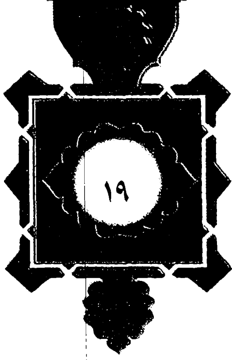
وقد اختلفت الروايات فى كيفية وصول اليـهود إلى يثرب، فهناك من يرى أن وجود اليهود فى يثرب إنما كـان منذ أيام موسى عليـه السلام، وآخر يرى أن اليـهود قدمـوا فى أيام داود عليه السلام، والفـريق الثالث يرى أنهم جاءوا إلى بلاد العـرب فى القرن الثامن قبل الميـلاد، والفريق الرابع يرى أن هجرة اليهود إلى يثرب كانت بعد سقوط اليهودية وتدمير الهيكل فى القرن السادس قبل الميلاد.

أما الرأى الأخير فيرى أن وجود اليـهود فى يثرب إنما يرجع إلى القرنين الأول والثانى بعد الميلاد.

أما سبب وجود عبادة الأوثان بين الأوس والخزرج وحلفـائهم فيرى بعض الباحثين بأن هذا أمر غير مستغرب، فإن جميع العرب كانت تدين بالوثنية على درجات متفاوتة.

فالبدوى فى المجـتمع الرعوى بصفة عامـة كان وثنيا ضعيف الوثنية، ضـعيف الإيمان بأى دين، وكان كل ما يهمه هو أن يدين بتقاليد قبيلتـه ويتبع أعراف جماعته وما وجد عليه آباءه، ولا يبيح لنفسه الخروج عن هذا الإطار، بل يعد مجرد التفكير فيه خروجا وعقوقا.

أما فى المجتـمعات الزراعية كـيثرب التى ليست فيـها بيوت عبادة جـامعة ولا مجتـمعات



للأصنام يقوم عليها سدنة ترتبط بها مصالحهم، لم تكن الوثنية - أيضا- قوية بالقدر الكبير.

وإنما كانت الوثنية مستحكمة بحق فى نفوس قريش وثقيف ممن كان فى بلادهم بيوت للأصنام.

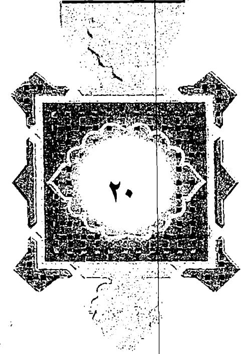
ومما يؤكد هذا القول: أنه فى حملة أبرهة التى أراد فيها هدم الكعبة عندما مرَّ بالطائف خرج إليه مسعود بن معتب فى رجال من ثقيف، فقالوا له: «أيها الملك، إنما نحن عبيدك، سامعون لك مطيعون، ليس عندنا لك خلاف، وليس بيتنا هذا الذى تريد هدمه ـ يقصدون اللات ـ إنما تريد البيت الذى بمكة، ونحن نبعث معك من يدلك عليه» - فتجاوز عنهم أبرهة، وبعثوا معه أبا رغال لكى يدله على الطريق إلى مكة.

ومع كل ما سبق فإنه يمكن الجزم بأمرين:

أولهما: أن وثنية العرب سواء فى الحضر أو البدو كانت تعتمد على البساطة والبعد عن الطقوس المعقدة والروح الكهنوتية كثيرة الوسائط، فلم يعرف فى يثرب أو غيرها من بلاد العرب عن وجود طبقة من رجال الدين الذين ينظر إليهم أنهم من غير طينة البشر.

نماذج من بعض الأوثان فى الجاهلية





ثانيهما: أن العرب بما فيهم أهل يثرب كانوا يعظمون هذه التماثيل والأحجار لا لاعتقاد أنها آلهة مطلقة، وإنما كانوا يتخذون منها وسيلة للتقرب من الإله الأعظم (وهو الله عز وجل وعلا).

وقد كان لكل قبيلة صنم تدين له بالعبادة، ولم يكن العرب يكتفون بهذه الأصنام الكبرى يقدمون لها صلواتهم وقرابينهم، بل كان أكثرهم يتخذ له صنما أو نصبا فى بيته، يطوف به حين خروجه، ويأخذه معه عند سفره، إذا أذن له هذا الصنم فى السفر - حسب اعتقادهم.

وكانت هذه القرابين عبارة عن ذبائح يوزعون لحومها، وينذرون لها النذور.

ومن ذلك قوله تعالى: ﴿ **مَا جَعَلَ اللَّهُ مِنْ بَحِيرَةٍ وَلَا سَائِبَةٍ وَلَا وَصِيلَةٍ وَلَا حَامٍ... (١٠٣)** ﴾ [المائدة].

أما البحيرة فهى: الناقة تشق أذنها فلا يركب ظهرها ولا يجز وبرها ولا يشرب لبنها إلا ضيف، أو يتصدق به، أو تترك لآلهتهم.

أما السائبة: فهى التى ينذر الرجل أن يسيبها إذا بُرئ من مرضه، أو أصاب أمرا يطلبه، فإن كان ذلك أساب جملا أو ناقة لبعض آلهتهم.

أما الوصيلة فهى: التى تلد أمها اثنين فى بطن، فيجعل صاحبها لآلهته الإناث منها، ولنفسه الذكور.

الحامى: هو الفحل إذا أنتج له عشر إناث متتابعات، ليس بينهن ذكر، حمى ظهره فلم يُركب، ولم يجز وبره، وخلى فى الإبل للنزو والضراب فقط.

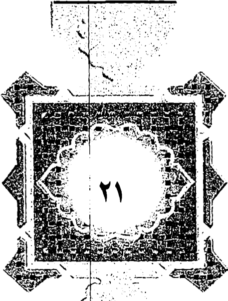
وكانت «مناة» هى الصنم الذى تعبده الأوس والخزرج، ولم يكن هو الصنم الوحيد الذى تتوجه إليه بالعبادة، وإنما كان هناك أكثر من صنم غيره، ولكنه كان المعبود الأساس لها.

أما سبب تسميته بهذا الاسم: لأن دماء النساء كانت تمنى عندها أى تراق، والبعض كان يسميها مناءة من النوء كأنهم كانوا يستمطرون عندها الأنواء تبركا بها.

وكان من درجة ولاء الأوس والخزرج: أنهم كانوا إذا حجوا يقفون مع الناس المواقف كلها ولا يحلقون رؤوسهم، فإذا نفروا أتوها فحلقوا رؤوسهم عندها، وأقاموا حولها، لا يرون تمام حجهم إلا بذلك.

ولم يؤثر عن أهل يثرب اتخاذهم أوثانا غير مناة، أما ما عداها من الآلهة فكان يدينون لها من باب المجاملة.

وكان اليثربيون كغيرهم من العرب إلى جانب وثنيتهم يعظمون الكعبة بمكة ويسمونها بيت الله، ويجلونها فوق إجلالهم لأى معبود آخر لهم، وكانوا يعتمرونها ويحجون لها ويقفون مع الناس المواقف كلها، ولكنهم لا يحلون ولا يحلقون رؤوسهم إلا عند مناة، وكانوا يدينون بما



تدين به العرب مما فرضته قريش على الحجاج والعمار، من أنه لا ينبغى لأهل الحل أن يأكلوا من طعام جاءوا به من الحل إلى الحرم إذا جاءوا حجاجا أو عمارا، بل عليهم أن يشتروا لأنفسهم طعاما من داخل الحرم.

وكان من معتقدات اليثربيين وغيرهم من العرب جميعا: أنه إذا قدم المرء على واد وجب عليه أن ينهق نهيق الحمار حين إشرافه عليه، فإذا فعل ذلك لم يضره - فى زعمهم - وباء ذلك الوادى.

وبما أن المدينة كانت كثيرة المستنقعات، فقد كان يتعرض زائرها للوباء، ولا ينجو - فى اعتقادهم - إلا من يفعل الفعل السابق فى عشرة أصوات فى طلق واحد.

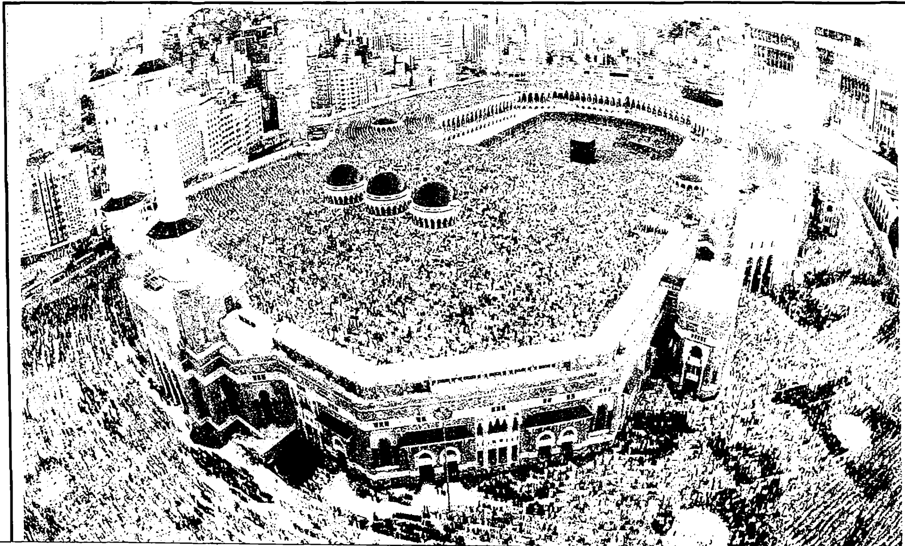
وبصفة عامة يمكن القول: أنه لم يكن عند أهل يثرب ولا غيرهم من العرب الوثنيين تصور متكامل للناحية الدينية، غير ما هو ظاهر من الركون إلى بعض القوى الغيبية التى لم تستسيغها عقولهم، إلا بعد أن رمزوا لها بأوثان محسوسة أو جعلوها وسيلة توصلهم لها وتقربهم منها زلفى.

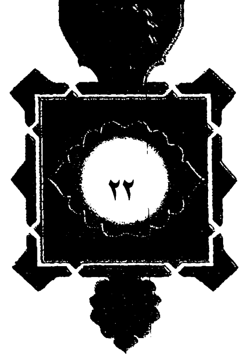
وقد نشأ عن وحدة لغة العرب ووجود آلهتهم فى الكعبة إمكان صهر عبادتهم لهذه الآلهة وتحويلها إلى عبادة إله واحد.

أما عن السبب فى تصديق أهل يثرب لدعوته ﷺ وسرعة استجابتهم للإسلام، فلعل السبب فى ذلك حتى لا يسبقهم اليهود إلى الإسلام فيقتلوهم قتل عاد وإرم، أو لكثرة ما سمعوا من اليهود عن الله والوحى وعن البعث والحساب والجنة والنار، ونحو ذلك.

أو لعل حالة المجتمع فى يثرب كانت تدعو إلى انتهاز مثل هذه الفرصة، إذ وجد أهل يثرب فى هذا الدين ما يوحد كلمتهم ويجمع شملهم ويقضى على ما بينهم من تنازع وبغضاء، كما وجدوا فى شخصيته ﷺ بغيتهم المنشودة.

البيت الحرام بمكة المكرمة





الفصل الثانى
المدينة فى صدر الإسلام

تمهيد:

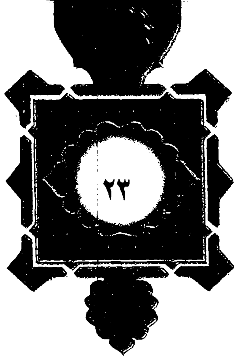
لقى ﷺ أشد الأذى من قومه، فأخذوا يستهزئون به ويخاصمونه، فنرى أبا جهل بن هشام، والعاص بن وائل السهمى وغيرهم من المشركين ينزلون به ﷺ أنواعا من الأذى.

وفى ذلك الوقت عاد أصحاب رسول الله ﷺ الذين هاجروا إلى مكة حين علموا أن الإسلام صار فى منعة وقوة، وعندما رجعوا رأوا خلاف ذلك، كذلك نقضت قريش الصحيفة.

وفى نفس الوقت - أيضا - توفيت السيدة خديجة وعمه أبو طالب، ولا شك أن ذلك كان سببا من أسباب امتهان قريش له ﷺ.

آثار سوق عكاظ





ومعنى ذلك: أن الوقت أصبح مهيئا لهجرته ﷺ والخروج من مكة إلى مكان آخر عسى أن يجد هناك من يستجيب له ويؤمن بدعوته.

خروج الرسول من مكة إلى المدينة:

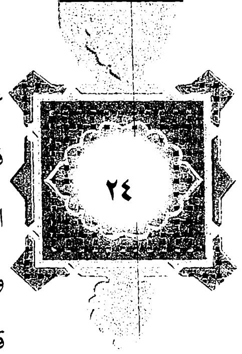
بعد وفاة أبى طالب وخديجة فى السابع والعشرين من شوال فى السنة العاشرة من الهجرة، اشتد إيذاء قريش للنبى ﷺ، ففعلوا معه ما لم يستطيعوا فعله فى حياة أبى طالب؛ حيث اعترضه سفيه من سفهاء قريش، ونثر على رأسه التراب، ودخل ﷺ بيته والتراب على رأسه، فقامت إحدى بناته، وجعلت تغسل عنه التراب وهى تبكى، ورسول الله ﷺ يقول لها: لا تبكى يا بنية، فإن الله مانع أباك، ويقول أيضا: «ما نالت منى قريش شيئا أكرهه حتى مات أبو طالب».

ولكن هذا الحادث لم يزده ﷺ إلا توجها إلى الله وإيمانا بنصره إياه.

عند ذلك قرر ﷺ الخروج إلى الطائف يلتمس النصرة من ثقيف، والمنعة بهم من قومه، وأملا فى أن يقبلوا منه ما جاءهم به وراجيا إسلامهم.

ولما انتهى ﷺ إلى الطائف عمد إلى نفر من ثقيف، وكان بها يومئذ أبناء عمير

مناظر من مكة والمدينة - صفحة من مخطوط دلائل الخيرات لمحمد بن سليمان الجزولى - التجليد عثمانى سنة ١٢٣٣هـ/ ١٨١٨م



الثلاثة، وهم سادتها وأشرافها، وهؤلاء الثلاثة إخوة هم: عبد ياليل بن عمرو بن عمير، وسعود ابن عمرو ابن عمير، وحبيب بن عمرو بن عمير، فجلس إليهم، ودعاهم ﷺ إلى الله، وكلمهم بما جاءهم له من نصرته على الإسلام، والقيام معه على من خالفه من قومه، فردوا عليه بشر جواب، وعندئذ رجاهم ﷺ أن لا يذكروا من استنصاره بهم شيئا حتى لا يشمت به قومه.

كذلك أغروا به سفهاءهم وصبيانهم يسبونه ويصيحون به، حتى اجتمع الناس عليه، وألجأوه إلى حائط أو بستان لعتبة وشيبة ابنى ربيعة فاحتمى به. . . إلخ.

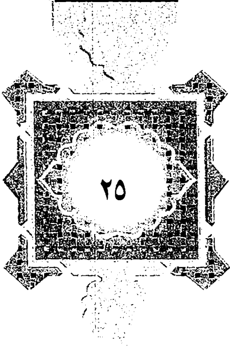
عاد النبى ﷺ إلى مكة وقومه أشد ما كانوا عليه من خلافه، فأخذ يعرض نفسه على القبائل فى مواسم عكاظ ومجنة وذى المجاز يدعوهم إلى الله، ويسألهم أن يصدقوه ويمنعوه، فيتعرض له عمه أبو لهب، ويمنع القبائل من قبول دعوته.

فيذكر السهيلى: أن رسول الله ﷺ عرض نفسه على بنى ذهل بن ثعلبة، ثم على بنى شيبان بن ثعلبة.

واستجاب ﷺ لكلام أبى بكر بأن هؤلاء القوم من بنى شيبان «غرر فى قومهم، وفيهم مفروق بن عمرو بن هانئ بن قبيصة، ومثنى بن حارثة، والنعمان بن شريك. .، وذلك أملا فى أن يشرح الله صدرهم للإسلام. . ودار بينهم، وبينه ﷺ حديث مطول ولكنهم لم يستجيبوا لدعوته.

فلما أراد الله عز وجل إظهار دينه، وإعزاز نبيه ﷺ، وإنجاز وعده له، خرج ﷺ فى نفس الغرض من ذلك وهو عرض نفسه على القبائل، فبينما هو ﷺ عند العقبة لقى نفرا من الخزرج أراد الله بهم خيرا.

فدار بينهم وبينه ﷺ كلام، وكان مما قالوه للنبى ﷺ: «. . إنا قد تركنا قومنا ولا قوم بينهم من العداوة والشر ما بينهم، فعسى أن يجمعهم الله بك، فسنقدم عليهم فندعو إلى أمرك، ونعرض عليهم الذى أجبناك إليه من هذا الدين، فإن يجمعهم الله عليك فلا رجل أعز منك».



ثم انصرفوا عنه ﷺ راجعين إلى بلادهم، وقد آمنوا وصدقوا، وهم - على حسب ما ذكره ابن هشام - ستة نفر من الخزرج.

وفى العام المقبل جاء فى موسم الحج اثنا عشر رجلا فلقوه عند العقبة، وهى التى تعرف باسم «بيعة العقبة الأولى»، أو كما تسمى «البيعة الصغرى»، «أو بيعة النساء».

وقد بايعهم ﷺ على أن لا يشركن بالله ولا يسرقن ولا يزنين، ولا يقتلن أولادهن، ولا يأتين ببهتان يفترينه بين أيديهن وأرجلهن، ولا يعصينه فى معروف، فإن وفَّيْن ذلك فلهن الجنة، وأرسل معهم مصعب بن عمير؛ لكى يقرئهم القرآن ويعلمهم تعاليم الإسلام.

ثم رجع مصعب بن عمير إلى مكة، وجاء من أهل يثرب جمع غفير فى موسم الحج، وكان بينهم سبع وسبعون مسلما، منهم ثلاثة وسبعون رجلا وامرأتان.

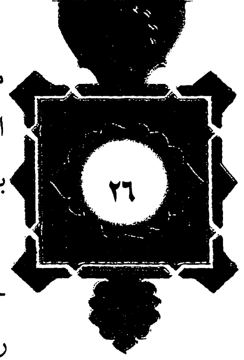
فكانت بيعة العقبة الثانية، أو «البيعة الكبرى» تمييزا لها عن سابقتها الصغرى.

وكان الهدف من هذه البيعة لا يقف عند الدعوة إلى الإسلام كما كان ﷺ يفعل ذلك مدة ثلاث عشرة سنة متتابعة فى رفق وهوادة مع احتمال صنوف الأذى والألم، بل تمتد إلى ما وراء ذلك وتكون حلفا يدفع به هؤلاء المسلمون عن أنفسهم الأذى بالأذى والعدوان بالعدوان.

وكان ﷺ قبل بيعة العقبة لم يؤذن له فى الحرب، ولم تحل له الدماء، فلما عتت قريش على الله عز وجل، وردوا عليه ما أرادهم به من الكرامة، وكذبوا نبيه ﷺ، وعذبوا ونفوا من عبده ووحده.. أذن الله عز وجل لرسوله بالقتال والانتصار ممن ظلمهم وبغى عليهم فكان أن نزل قوله تعالى: ﴿ **أُذِنَ لِلَّذِينَ يُقَاتَلُونَ بِأَنَّهُمْ ظُلِمُوا وَإِنَّ اللَّهَ عَلَىٰ نَصْرِهِمْ لَقَدِيرٌ** (٣٩) ﴾ [الحج].

قدوم الرسول ﷺ المدينة:

فلما أذن الله تعالى لرسوله ﷺ فى الحرب وبايعه كما سبق القول هؤلاء المجموعة من الأنصار؛ على الإسلام والنصرة له ولمن اتبعه وآوى إليه من المسلمين.



أمر رسول الله ﷺ أصحابه من المهاجرين من قومه، ومن معه بمكة من المسلمين بالخروج إلى المدينة والهجرة إليها، واللحوق بإخوانهم من الأنصار، وقال لهم: «إن الله عز وجل قد جعل لكم إخوانا ودارا تأمنون بها».

فخرج المسلمون إلى يثرب أرسالا - كما يذكر ابن هشام - «أى جماعات واحدة إثر الأخرى»، وأقام رسول الله ﷺ بمكة ينتظر أن يأذن له ربه فى الخروج من مكة، والهجرة إلى المدينة.

أما عن موقف قريش من ذلك، فقد فطنت للأمر، فحاولت أن ترد كل من استطاعت رده إلى مكة؛ لتفتنه عن دينه، أو لتعذبه وتنكل به.

وبلغت من ذلك أنها كانت تحول بين الزوج وزوجته، إذا كانت المرأة من قريش فلا يدعونها تسير معه، وأنها كانت تحبس من تستطيع حبس من لم يطعها، لكنها لم تقدر على أكثر من ذلك.

ويعلل البعض سبب ذلك: حتى لا تكون حربا أهلية بين مختلف قبائلها إن هى همت بقتل واحد من أهل هذه القبائل.

وكان أول من قدمها - المدينة - من المهاجرين أبو سلمة بن عبد الأسد، ثم بعده عامر بن ربيعة ومعه امرأته ليلى بنت أبى حثمة.

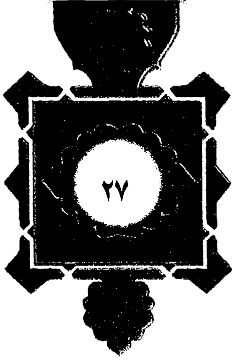
ولما رأت قريش أن رسول الله ﷺ قد صارت له شيعة وأصحاب من غيرهم بغير بلدهم، ورأوا خروج أصحابه من المهاجرين إليهم، عرفوا أنهم صاروا فى منعة، فحذروا من خروجه ﷺ خشية من حربه لهم.

فاجتمعوا فى دار الندوة، يتشاورون فيها ما يصنعون فى أمر رسول الله ﷺ.

وكثر الكلام فى ذلك، فكان القول بأن «يجمعوا من كل قبيلة فتى شابا قويا شريفا فى قومه، ذا نسب، يسلحونه بسيف صارم، ثم يعمدوا إلى النبى فيضربونه بسيوفهم ضربة رجل واحد فيقتلوه، ويتفرق دمه فى القبائل جميعا، وعندئذ لا يستطيع بنو عبد مناف أن يحاربوا كل قبائل قريش، فأجمعت قريش على هذا الرأى، وتفرقوا وهم مجمعون عليه.

الأمر بالهجرة:

وصل الرسول ﷺ نبأ ما بيتت قريش لقتله، وأمره الله بعدم المبيت على فراشه فى تلك الليلة، كما أمره بالهجرة، وأنزل عليه قوله تعالى: ﴿ **وَإِذْ يَمْكُرُ بِكَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِيُثْبِتُوكَ أَوْ يَقْتُلُوكَ أَوْ يُخْرِجُوكَ وَيَمْكُرُونَ وَيَمْكُرُ اللَّهُ وَاللَّهُ خَيْرُ الْمَاكِرِينَ** (٣٠) ﴾ [الأنفال].



وقوله: ﴿ **أَمْ يَقُولُونَ شَاعِرٌ نَّتَرَبَّصُ بِهِ رَيْبَ الْمَنُونِ** (٣٠) **قُلْ تَرَبَّصُوا فَإِنِّي مَعَكُم مِّنَ الْمُتَرَبِّصِينَ** (٣١) ﴾ [الطور].

فلما أظلم الليل قال ﷺ لعلى بن أبى طالب: «نم على فراشى وتسجى - أى تغطى - ببردى هذا الحضرمى الأخضر فنم فيه، فإنه لن يخلص إليك شىء تكرهه منهم».

وخرج عليهم رسول الله ﷺ فأخذ حفنة من تراب فى يده، ثم قرأ قوله تعالى: ﴿ **وَجَعَلْنَا مِن بَيْنِ أَيْدِيهِمْ سَدًّا وَمِنْ خَلْفِهِمْ سَدًّا فَأَغْشَيْنَاهُمْ فَهُمْ لا يُبْصِرُونَ** (٩) ﴾ [يس].

وخرج ﷺ مع صاحبه أبى بكر - رضى الله عنه - بعد أن استأجر دليلا يقال له: عبد الله ابن أريقط، وصحبهما - أيضا - عامر بن فهيرة.

٢٨

وعن قدومه ﷺ قال ابن هشام:

عن عبد الرحمن بن عويمر بن ساعدة، قال: حدثنى رجال من قومى من أصحاب رسول الله ﷺ قالوا:

لما سمعنا بمخرج رسول الله ﷺ - من مكة، وتوكفنا - أى استشعرنا وانتظرنا - قدومه، كنا نخرج إذا صلينا الصبح إلى ظاهر حرتنا ننتظر رسول الله ﷺ فوالله لا نبرح حتى تغلبنا الشمس على الظلال، فإذا لم نجد ظلا دخلنا، وذلك فى أيام حارة، حتى إذا كان اليوم الذى قدم فيه رسول الله ﷺ جلسنا كما كنا نجلس، حتى إذا لم يبق ظل دخلنا بيوتنا، وقدم رسول الله ﷺ حين دخلنا البيوت، فكان أول من رآه رجل من اليهود، وقد رأى ما كنا نصنع، وأنا ننتظر قدوم رسول الله ﷺ علينا فصرخ بأعلى صوته يا بنى قيلة - المراد بذلك الأنصار جميعا- هذا جدكم قد جاء.

فخرجنا إلى رسول الله ﷺ فى ظل نخلة، ومعه أبوبكر - رضى الله عنه- فى مثل سنه، وأكثرنا لم يكن يرى رسول الله ﷺ قبل ذلك، وركبه الناس - أى ازدحموا عليه - وما يعرفونه من أبى بكر، حتى زال الظل عن رسول الله ﷺ فقام أبو بكر فأظله بردائه فعرفناه عند ذلك.

أولا: الحياة السياسية

مقومات دولة الرسول فى المدينة:

قامت دولة الرسول ﷺ فى المدينة على عدة أسس من أهمها:

١ - بناء المسجد الجامع بالمدينة:

إن المتبادر إلى الذهن أن الغرض الأساسى من بناء المسجد، هو إقامة الصلوات والتفقه فى الدين، وهذا بلا شك يعد غرضا أساسيا من وجوده، ولكن كان هناك غرض هام هو اجتماع المسلمين لإرساء قواعد الوحدة بينهم وبحث ما يهمهم من شؤون الحياة.

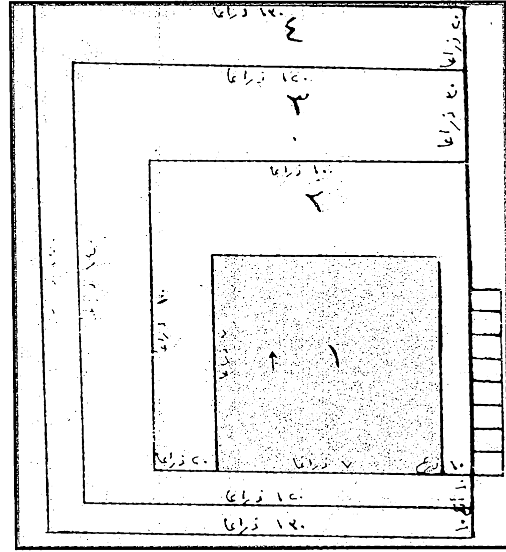
فلم تكد ناقة الرسول ﷺ تأتى على دار بنى مالك بن النجار، حتى بركت على باب مسجده ﷺ وهو يومئذ مربد لغلامين يتيمين من بنى النجار، فلم ينزل ﷺ من عليها وثبت، فسارت غير بعيد ورسول الله ﷺ واضع لها زمامها لا يثنيها به، حتى انتهت إلى مكانها الأول، فنزل عنها ﷺ فاحتمل أبو أيوب خالد بن زيد رحله فوضعه فى بيته، ثم سأله ﷺ عن المربد: لمن هو ؟ فقال له معاذ بن عفراء: يا رسول الله هو لسهل وسهيل ابنى عمرو، وهما يتيمان لى



وسأرضيهما منه فاتخذه مسجدا.

فأمر به ﷺ أن يتخذ مسجدا، وأقام فى بيت أبى أيوب حتى بُنى له مسجده ومساكنه.

وقد مر بناء المسجد بأطوار، فقد ذكر السهيلى عن ابن إسحاق فى رواية يونس بن بكير عنه، وبنى مسجد رسول الله ﷺ وسُقِّف بالجريد، وجعلت قبلته من اللبن، ويقال: بل من حجارة منضودة بعضها على بعض، وجعلت عمده من جذوع النخل».



مسقط أفقى لمسجد الرسول ﷺ

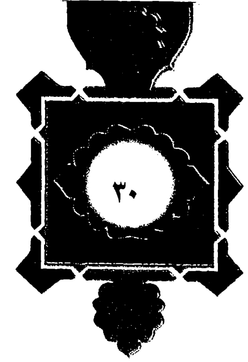
ومراحل زيادته فى صدر الإسلام

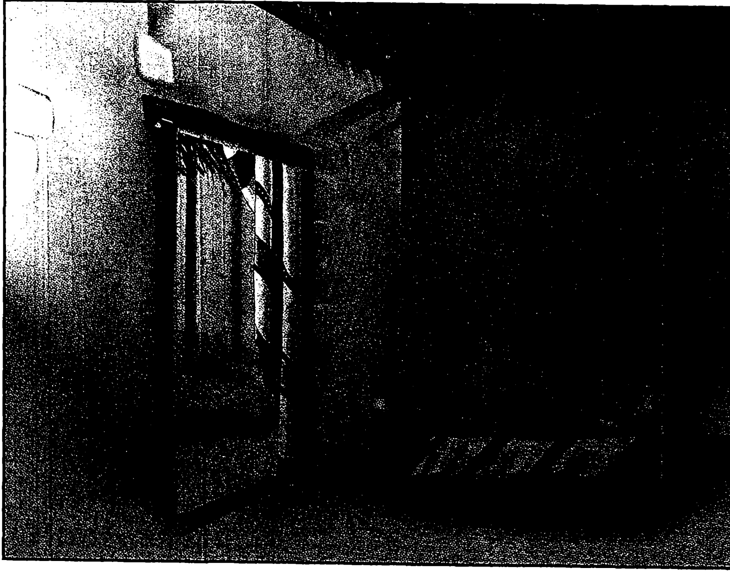
أما بيوته ﷺ: فكانت تسعة بيوت بعضها من جريد مطين بالطين وسقفها جريد، وبعضها من حجارة منضودة بعضها فوق بعض، مسقوفة بالجريد - أيضا.

وظل المسلمون، منذ أن هاجر الرسول إلى يثرب، يولون وجوههم فى الصلاة شطر بيت المقدس طوال ستة عشر شهرا كاملة، أو سبعة عشر شهرا فى قول آخر، ثم حولت القبلة إلى الكعبة قبل وقعة بدر بشهرين عندما نزل قوله تعالى: ﴿ **قَدْ نَرَىٰ تَقَلُّبَ وَجْهِكَ فِي السَّمَاءِ فَلَنُوَلِّيَنَّكَ قِبْلَةً تَرْضَاهَا فَوَلِّ وَجْهَكَ شَطْرَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ...** (١٤٤) ﴾ [البقرة].

والخلاصة فى ذلك هو أن مسجد رسول الله ﷺ فى المدينة أصبح المركز الذى تنطلق منه الدعوة الإسلامية فى تلك المناطق الجديدة، بالإضافة إلى كونه مركزا لقيادة الجيش الإسلامى الذى انطلق إلى التوسع شرقا وغربا لضم هذه المناطق إلى الدولة الإسلامية التى أصبح مسجده ﷺ نواة لها.

كما أصبح مسجده ﷺ النموذج الذى احتوته المساجد الإسلامية فى سائر العصور التالية، ومركزا علميا وثقافيا يجتمع فيه الصحابة لمعرفة أمور دينهم، ويتبعوا أوامره ويجتنبوا نواهيه.





٢- المؤاخــــاة بيـن المهاجرين والأنصار:

كان أول مـا انصرف إليه تفكيـره ﷺ هو توحيد صفوف المسلمـين وتأكيد وحدتهم؛ للقضاء عـلى كل شبهة فى أن تثور العداوة القـديمة - كالتى كانت بين الأوس والخزرج - بينهم.

الكعبة المشرفة

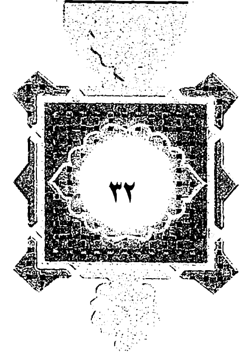


ولتحقيق هذه الغاية دعا المسلمين ليتآخوا فى الله أخوين أخوين.

فقد آخى ﷺ بين عمه حمزة بن عبد المطلب وزيد بن حارثة، وبين ابن عمه جعفر بن أبى طالب ومعاذ بن جبل، وأبى بكر الصديق وخارجة بن زهير، وبين عمر بن الخطاب وعتبان بن مالك، وبين أبى عبيدة بن الجراح وسعد بن معاذ، وبين عبد الرحمن بن عوف وسعد بن الربيع، والزبير بن العوام وسلمة بن سلامة، وعثمان بن عفان وأوس بن ثابت بن المنذر، وطلحة بن عبيد الله وكعب بن مالك، وسعيد بن زيد بن عمرو بن نفيل وأبى بن كعب، ومصعب بن عمير وأبى أيوب خالد بن زيد، وأبى حذيفة بن عتبة وعباد بن بشر، وعمار بن ياسر وحذيفة بن اليمان، وبين أبى ذر الغفارى والمنذر بن عمرو.



البقيع - المدينة المنورة - قبر سيدنا عثمان بن عفان رضى الله عنه



وكان حاطب بن أبى بلتعة وعويم بن ساعدة أخوين، وسلمان الفارسى وأبو الدرداء أخوين، وبلال مولى أبى بكر وأبو رويحة أخوين.

ويرى السهيلى: أن السبب من هذه المؤاخاة هو: لكى يُذهب عنهم ﷺ وحشة الغربة ويؤنسهم من مفارقة الأهل والعشيرة ويشد أزر بعضهم ببعض.

والواقع أن عملية المؤاخاة هذه لم تكن الأولى من نوعها، فقد سبقتها مرحلة أولى تمت فيها المؤاخاة بين المهاجرين أنفسهم.

فقد خاطبهم ﷺ قائلا: «تآخوا فى الله أخوين أخوين»، ثم أخذ بيد على بن أبى طالب، فقال: هذا أخى.

ويرى البعض أن المؤاخاة تمت على ثلاث مراحل هى:

الأولى: بين الأنصار بعضهم لبعض - والمراد بالأنصار: هم الأوس والخزرج، الذين نصروا النبى ﷺ وبايعوا له.

والثانية: بين المهاجرين بعضهم لبعض، والثالثة بين الأنصار والمهاجرين.

وبناء على هذه المؤاخاة أظهر أهل يثرب لإخوانهم المهاجرين من مكة إليهم من كرم الضيافة ما تقبله هؤلاء - المهاجرون - مغتبطين لأنهم تركوا مكة، وتركوا وراءهم ما يملكون فيها من متاع ومال، ودخلوا المدينة لا يكادون يجدون من قوتهم إلا القليل، فلم يكن على جانب من الثراء فيهم سوى عثمان بن عفان - رضى الله عنه.

الدروس المستفادة من هذه المؤاخاة:

١- توثقت وحدة المسلمين فى المدينة بعد أن كانوا فيها قبائل مختلفة.

٢- بناء على هذا التوحد أصبح المسلمون يشكلون قوة خطيرة يحسب مشركو مكة لها حسابا كبيرا.

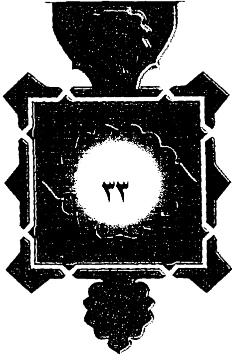
٣- وصل رسول الله ﷺ بيثرب موطنه الجديد إلى وحدة سياسية ونظامية، لم تكن معروفة من قبل فى سائر أنحاء الحجاز.

٤- كانت المؤاخاة أهم الوسائل لإقامة نظام اجتماعى جديد على أساس من المودة والتآلف، وإزالة أسباب الوحشة والنفور من نفوس المهاجرين.

٥- وضع رسول الله ﷺ نظاما اقتصاديا على أساس من التكافل الاجتماعى، إذ لم يكن لدى المهاجرين مال يستثمرونه أو تجارة يربحون منها.

٦- تجنب رسول الله ﷺ بهذه المؤاخاة محاولات المنافقين الوقيعة بين الأوس والخزرج، وبين المهاجرين والأنصار لإفساد الأمر فيما بينهم.

٧- كفالة حرية العقيدة.



٣- الوثيقة التى وضعها ﷺ لتنظيم العلاقات بين أهل المدينة:

بعد أن اطمأن ﷺ إلى وحدة المسلمين بهذه المؤاخاة، كتب كتابا بين المهاجرين والأنصار وادع فيه اليهود من أهل المدينة وأقرهم على دينهم وأموالهم، وعرف هذا الكتاب باسم «الصحيفة» وقد قسمت إلى ثلاثة فصول: أولها: خاص بالمدينة، وثانيها: خاص باليهود، والثالث: عام عن المدينة.

ويستنتج من هذه الوثيقة عدة أمور منها:

١- أن الصحيفة تجاهلت نظام القبيلة الذى يفتت وحدة العرب، وجعلت من المسلمين جميعا أمة واحدة.

٢- نظمت الصحيفة حق الأخذ بالثأر على نحو يجنب قيام حرب داخلية.

٣- تركت الصحيفة لله ولرسوله أمر فض أى نزاع أو شجار يخاف فساده.

٤- أكدت الصحيفة تضامن المسلمين والمؤمنين، وتماسكهم أمام أى خطر خارجى يهدد سلامة دولة الرسول فى المدينة.

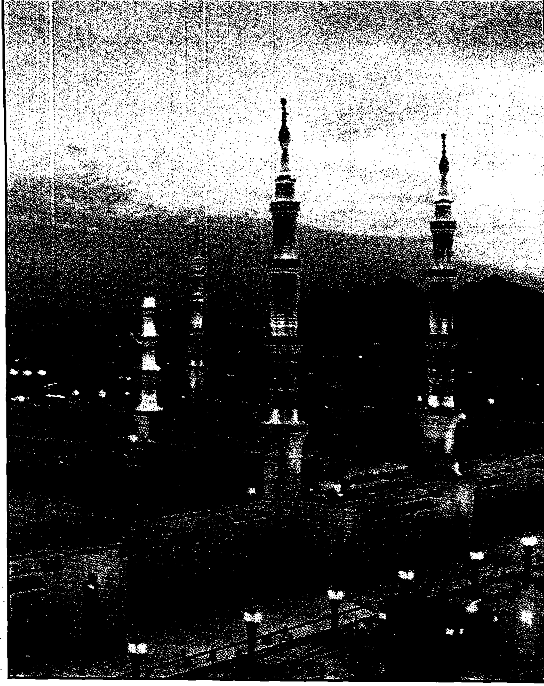
٥- أوضحت الصحيفة موقف المسلمين من يهود المدينة.

ويرى البعض أن هذه الوثيقة هى من الوثائق السياسية الجديرة بالإعجاب على مر التاريخ، فهى تعتبر فتحا جديدا فى الحياة السياسية والحياة المدنية فى عالم يومئذ، هذا العالم الذى كانت تعبث به يد الاستبداد وتعيث فيه يد الظلم فسادا.

تشريع الأذان:

بعد أن اطمأن ﷺ على المسلمين بالمدينة، واجتمع إليه إخوانه من المهاجرين والأنصار، استحكم أمر الإسلام؛ فقامت الصلاة، وفرضت الزكاة والصيام، والحدود، وفرض الحلال والحرام، وكان ﷺ حين قدم المدينة يجتمع الناس إليه للصلاة لحين مواقيتها بغير دعوة، فَهَمَّ أن يجعل بوقا كبوق يهود الذين يهرعون به لصلاتهم، ثم كرهه، ثم أمر بالناقوس فنحت ليضرب به للمسلمين للصلاة.

فبينما هم كذلك إذ رأى عبد الله بن زيد بن ثعلبة أخو بلحارث بن الخزرج النداء، فأتى رسول الله ﷺ، وقص عليه ما رآه فى منامه.. إلخ.


المسجد النبوى حاليا

فكانت صيغة الأذان: «الله أكبر الله أكبر، الله أكبر الله أكبر، أشهد أن لا إله إلا الله، أشهد أن لا إله إلا الله، أشهد أن محمدا رسول الله، أشهد أن محمدا رسول الله، حى على الصلاة، حى على الصلاة، حى على الفلاح، حى على الفلاح، الله أكبر، الله أكبر، لا إله إلا الله».

وكذلك انقلبت مخاوف المسلمين أمنا، وأصبحت يثرب مدينة الرسول، وأصبح غير المسلمين من أهلها قوة منبعثة من أعماق قلوب عرفت التضحية فى سبيل الإيمان، وذاقت الأذى بسببه ألوانا، وهاهى اليوم تجنى ثمرة الصبر وتستمتع من حرية العقيدة بما قرره الإسلام من أن ليس لإنسان على إنسان سيادة.

وانفسح المجال أمام محمد ﷺ لكى يعلن تعاليمه، وليكون بذاته وبتصرفاته المثل الأعلى لهذه التعاليم، وليصبح بذلك حجر الأساس للحضارة الإسلامية.

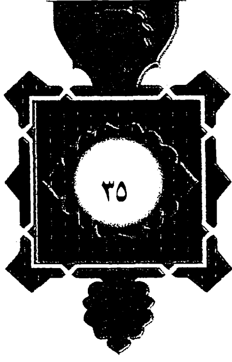
السياسة الخارجية لدولة المدينة:

أ- الجبهة الداخلية:

١ - موقف الرسول من يهود المدينة:

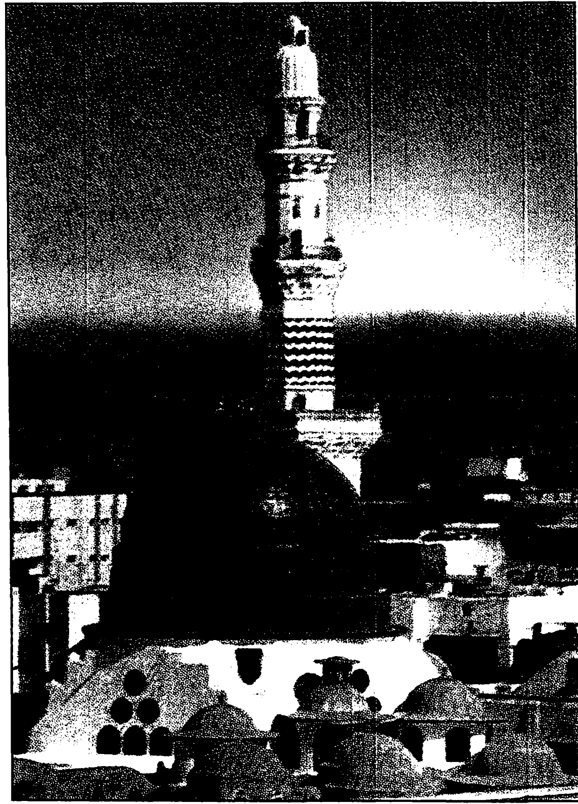
بعد أن اعتنق نفر من أحبار اليهود فى يثرب الإسلام عن إيمان كامل بعد وصول النبى ﷺ منهم عبد الله بن سلام، الذى كان حبرا عالما من سادة اليهود، وأسلم بإسلامه أهل بيته.

عندئذ نصبت أحبار اليهود لرسول الله العداوة، وذلك لما خص به الله تعالى العرب من أخذه رسول منهم، وانضم إليهم رجال من الأوس والخزرج ممن كان على جاهليته، فكانوا أهل نفاق على دين آبائهم من الشرك والتكذيب بالبعث، فظهروا بالإسلام، واتخذوه جُنة من القتل ونافقوا فى السر، ومن هؤلاء الأحبار: حيى بن أخطب، وأخواه أبو ياسر بن أخطب، وجدى بن



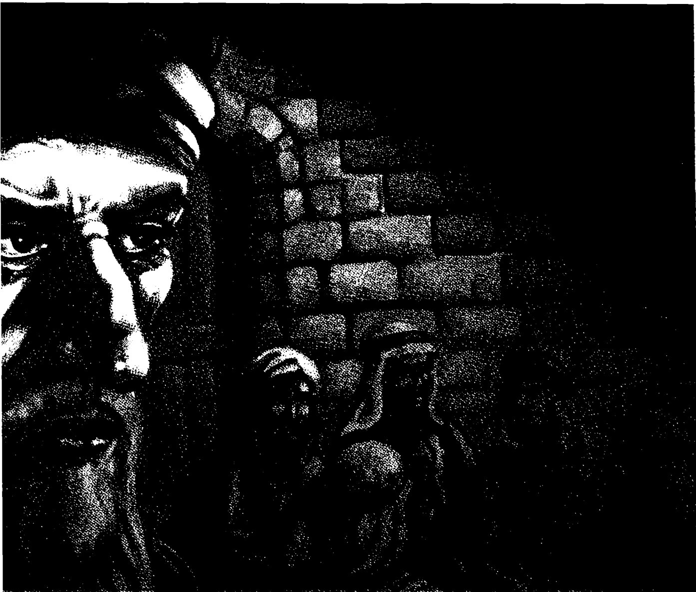
أخـــطـــــب.. وغيرهم.

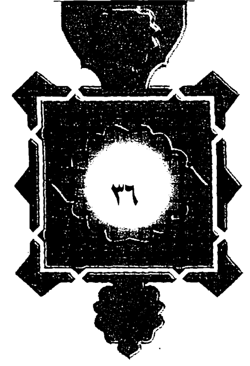
وقـد فـطن ﷺ إلى المشـاعـر الخفية لليهود، وهى مـشـاعـر مناهضـة للدين الإسـلامى، فأخذ يحترز منهم ويحذرهم، وأوحى الله إليه بأن يصرف القبلة إلى الكعبة بعد سبعة عشر شهرا من هجرته إلى يثرب، وحاولوا بعـد ذلك أن يفتنوه عن دينه، فـقدم إليـه عدة نفـر منهم بعد أن صرفـت القبلة إلى الكعبة، فقالوا لـه: يا محمد ما ولاك عن قـبلتك الـتى كنت عليـهـا لـنتـبـعك أو نصـدقك، فـأنزل الله تعـالى فـيـهـم:



القبة الخضراء المميزة للمسجد النبوى ومئذنة قايتباى

﴿ سَيَقُولُ السُّفَهَاءُ مِنَ النَّاسِ مَا وَلَّاهُمْ عَن قِبْلَتِهِمُ الَّتِي كَانُوا عَلَيْهَا قُل لِّلَّهِ الْمَشْرِقُ وَالْمَغْرِبُ يَهْدِي مَن يَشَاءُ إِلَىٰ صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ (١٤٢) وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطًا لِّتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ وَيَكُونَ الرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيدًا وَمَا جَعَلْنَا الْقِبْلَةَ الَّتِي كُنتَ عَلَيْهَا إِلَّا لِنَعْلَمَ مَن يَتَّبِعُ الرَّسُولَ مِمَّن يَنقَلِبُ عَلَىٰ عَقِبَيْهِ وَإِن كَانَتْ لَكَبِيرَةً إِلَّا عَلَى الَّذِينَ هَدَى اللَّهُ وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُضِيعَ إِيمَانَكُمْ إِنَّ اللَّهَ بِالنَّاسِ لَرَءُوفٌ رَّحِيمٌ (١٤٣) قَدْ نَرَىٰ تَقَلُّبَ وَجْهِكَ فِي السَّمَاءِ فَلَنُوَلِّيَنَّكَ قِبْلَةً تَرْضَاهَا فَوَلِّ وَجْهَكَ شَطْرَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ وَحَيْثُ مَا كُنتُمْ فَوَلُّوا وُجُوهَكُمْ شَطْرَهُ وَإِنَّ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ لَيَعْلَمُونَ أَنَّهُ الْحَقُّ مِن رَّبِّهِمْ وَمَا اللَّهُ بِغَافِلٍ عَمَّا يَعْمَلُونَ (١٤٤) وَلَئِنْ أَتَيْتَ الَّذِينَ أُوتُوا





الْكِتَابَ بِكُلِّ آيَةٍ مَّا تَبِعُوا قِبْلَتَكَ وَمَا أَنتَ بِتَابِعٍ قِبْلَتَهُمْ وَمَا بَعْضُهُم بِتَابِعٍ قِبْلَةَ بَعْضٍ وَلَئِنِ اتَّبَعْتَ أَهْوَاءَهُم مِّنْ بَعْدِ مَا جَاءَكَ مِنَ الْعِلْمِ إِنَّكَ إِذًا لَّمِنَ الظَّالِمِينَ (١٤٥)﴾ [البقرة].

فلما لم يجدوا أية استجابة منه ﷺ أخذوا يبثون بذور الخصام والشقاق بين المسلمين ويثيرون الفتن والخصومات القديمة بين الأوس والخزرج بقصد الوقيعة؛ وتبع ذلك عدة حوادث وضح من خلالها ما يخفيه هؤلاء اليهود وما يضمرونه من شر للإسلام والمسلمين كمحاولتهم الوقيعة بين الأوس والخزرج. . ومحاولة تشكيك المسلمين فى دينهم وصد من يرغب فى اعتناقه والطعن فيه.

ثم كان انتصار المسلمين فى بدر، فكان أن قطعوا - اليهود - العهد الذى عقدوه مع النبى ﷺ، وحادثة الصاغة فى سوق بنى قينقاع، ثم كانت محاولتهم للنيل من الإسلام والمسلمين بقتله ﷺ وأخيرا كانت غزوة الأحزاب، إذ حاصرهم النبى ﷺ فلم يجدوا بُدا من الاستسلام.

فخاطبوه ﷺ على أن يحكّم فيهم سعد بن معاذ، فكان حكمه بأن تقتل الرجال وتقسم الأموال وتسبى الذرارى والنساء.

وبالقضاء على يهود بنى قريظة تطهرت الجبهة الداخلية من عدو شديد البأس، وضعف أمر المنافقين من بين الأوس والخزرج.

٢- موقف الرسول من منافقى الأوس والخزرج:

كان هناك نفر من الأوس والخزرج ممن أظهروا الإسلام، وأبطنوا الكفر؛ لغرض أو لآخر.

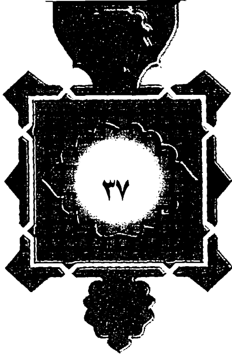
وكان من هؤلاء المنافقين «جلاس بن سويد» الذى تخلف عن رسول الله ﷺ فى غزوة تبوك، ونيثل بين الحارث، ووديعة بن ثابت. . وغيرهم.

ولم تزل شوكة المنافقين قوية فى المدينة بوجود اليهود، ومناهضتهم للنبى ﷺ، ولم تضعف سطوتهم إلا بعد أن طهر رسول الله ﷺ مدينته من اليهود الذين أشعلوا نار النفاق فى المدينة بتشكيكهم فى الإسلام وتضامنوا مع المنافقين من الأوس والخزرج.

ب- الصراع بين مكة والمدينة

١- مرحلة السرايا الاستطلاعية:

بعد أن هاجر النبى ﷺ إلى يثرب، وأسس فيها نواة الدولة العربية الإسلامية، كان على يقين أن قريشا لن تتركه يتقوى ليتغلب عليها، أو على الأقل ليتحرش بقوافلها التجارية إلى



الشام، ولهذا السبب اعتبر النبى ﷺ قريشا العدو الأول للمسلمين، ونص فى صحيفته (الوثيقة) على تحريم إجارة قريش ونصرتها، وتحريم إجارة مال لقريش أو نفس.

وتطبيقا لذلك كان يبعث السرايا لتعترض عير قريش فى طريقها إلى الشام، أو عند عودتها إلى مكة، دون أن تشتبك معها فى قتال أو تستولى على قوافلها.

وكان من هذه السرايا: سرية عبيد بن الحارث بن المطلب، الذى سار بمن معه حتى بلغ ماء بأسفل ثنية المرة، فلقى بها جمعا عظيما من قريش، فلم يكن بينهم قتال.

وبعث كذلك حمزة بن عبد المطلب إلى سيف البحر من ناحية العيص، وكان معه ثلاثون راكبا من المهاجرين، فلقى بهم أبا جهل بذلك الساحل فى ثلثمائة راكب من أهل مكة، ولكن حجز بينهم مجدى بن عمرو الجهنى، وكان موادعا للفريقين، فانصرف القوم، ولم يحدث بينهم قتال.

وأرسل - كذلك - سعد بن أبى وقاص فى ثمانية رهط من المهاجرين، فخرج حتى بلغ بهم الخرار من أرض الحجاز، لكى يقطع الطريق على عير قريش، ولكنهم وصلوا إلى هذا المكان بعد أن مرت عير قريش، فلم يحدث قتال.

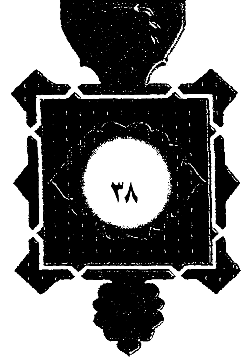
ومن هذه السرايا - أيضا - سرية عبد الله بن جحش الذى أرسله النبى ﷺ، ومعه ثمانية رهط من المهاجرين، وكتب له كتابا وأمره ألا ينظر فيه حتى يسير يوما، وكان مراده ﷺ، أن يرسله إلى مكان يسمى «نخلة» بين مكة والطائف.

وكان الغرض الرئيسى من هذه السرية هو استطلاع تحركات العدو والوقوف على أخبار قريش.

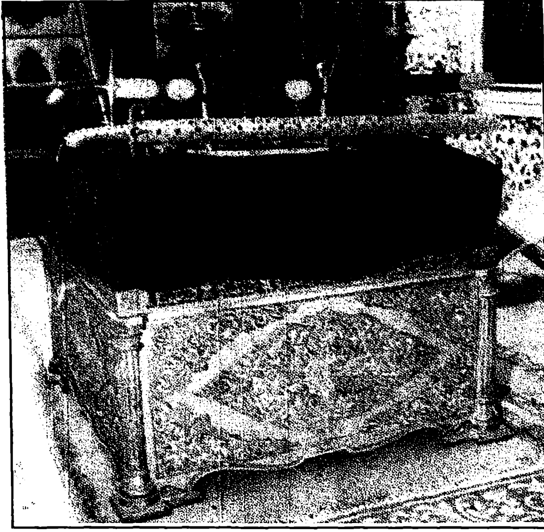
٢- مرحلة الغزوات:

بعد أن بعث ﷺ السرايا الاستطلاعية لكى يحيط علما بأخبار قريش، وإشعارهم بمدى قوة المسلمين، عزم عزما صادقا على الوقوف بصرامة فى وجه قريش؛ حتى لا يجعل تجارتهم تمر بأراضى المدينة، فكانت مرحلة الغزوات هذه.

وكانت غزوة بدر الكبرى، التى كتب الله النصر فيها للمسلمين وغنم المسلمون فيها غنائم كثيرة، ورجعوا إلى المدينة فرحين بنصر الله لهم، إلا أن هذا الأمر أثار حفيظة قريش، التى أخذت تعد العدة للثأر ليوم بدر، وكانت غزوة أحد التى أسفرت عن هزيمة المسلمين، وانتهزتها قريش فرصة للثأر من المسلمين والتمثيل بالقتلى منهم، فهذه هند بنت عتبة تتخذ من آذان الرجال وأنوفهم خلاخل وقلائد، وبقرت بطن حمزة فأخذت كبده فلاكتها، فلم تستطع أن تستسيغها فلفظتها.

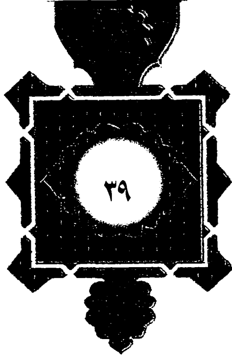


بعد ذلك قدم وفد من قبيلة إلى النبى ﷺ وطلبوا منه أن يرسل معهم من يعلمهم تعاليم الإسلام، فأرسل معهم ستة نفر من الصحابة، ولكن تبين أن هذا الوفد من قبيلة «هذيل» التى احتالت بهذه الفكرة لكى تثأر لزعيمها الذى قتله المسلمون، فقامت بقتل هؤلاء الصحابة، على أثر ذلك حزن النبى ﷺ حزنا شديدا على مقتل هؤلاء الصحابة.



سيفا النبى ﷺ تم ترصيعهما بالجواهر فى عهد السلطان العثمانى أحمد الثالث

وفكر النبى تفكيرا سياسيا دقيقا، فخاف من أن تضعف هيبة المسلمين فى نفوس قبائل العرب، ثم إنه رأى أن اليهود والمنافقين يتربصون به الدوائر، فرأى أن أفضل وسيلة لذلك هو استدراجهم لكى تتضح نياتهم.



وأثبتت الأحداث المتلاحقة سوء نية هؤلاء اليهود، فكان لا بد من طردهم من المدينة، فصالحهم ﷺ على أن يخرجوا منها، ولكل ثلاثة منهم بعير يحملون عليه ما شاءوا من أموال وطعام وشراب، ليس لهم غير ذلك.

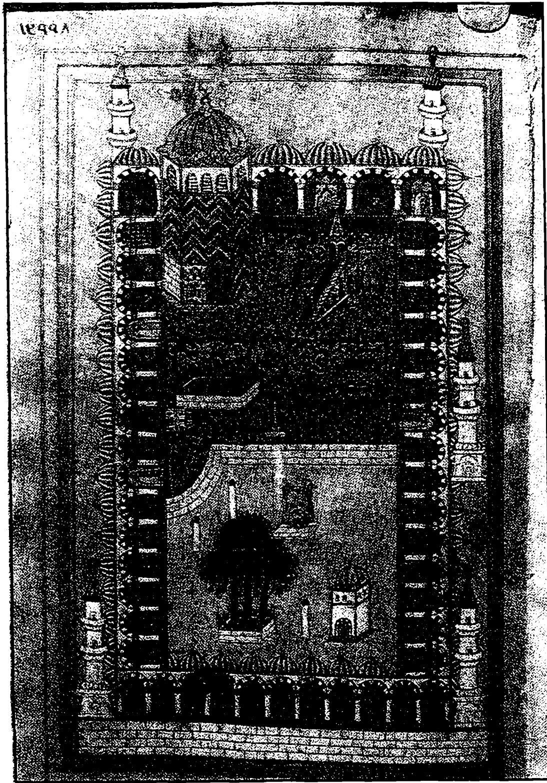
جـ- توجيه الدعوة الإسلامية فى داخل الجزيرة العربية وخارجها

فى العام السادس من الهجرة، وبعد أن عقد ﷺ مع قريش صلح الحديبية، وتخلص من يهود المدينة، اتجه إلى نشر الدعوة الإسلامية فى مجالات تمتد خارج دولته فى المدينة وعلى نطاق الجزيرة العربية، بل على نطاق أبعد من ذلك، فأرسل إلى الملوك يدعوهم إلى الإسلام، وكتب لهم كتبا مختومة بخاتمه.

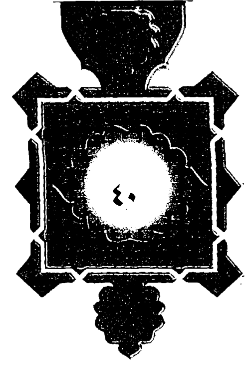


رسالة النبى ﷺ لكسرى

ومن الذين أرسلهم ﷺ دحية بن خليفة الكلبى إلى قيصر ملك الروم، وعبد الله بن حذافة السهمى إلى كسرى ملك فارس، وعمرو بن أمية الضمرى إلى النجاشى ملك الحبشة، وحاطب بن أبى بلتعة إلى المقوقس ملك الإسكندرية، وعمرو ابن العاص السهمى إلى جيفر وعباد ابنى الجُلندى الأزدى ملكى عمان، وسليط بن عمرو إلى ثمامة بن أثال وهوذة بن على الحنفيين ملكى اليمامة، والعلاء بن الحضرمى إلى المنذر بن سارى العبدى ملك البحرين، وشجاع بن وهب الأسدى إلى الحارث بن أبى شمر الغسانى ملك تخوم الشام.



المسجد النبوى تصويرة من مخطوط بمتحف الفن الإسلامى بالقاهرة (رقم ١٣٩٩٨)



ثانيا: الحياة الاجتماعية:

أصبحت يثرب بعد هجرة الرسول ﷺ إليها معقل الإسلام وملجأ جماعة المسلمين، وغدت تعرف باسم مدينة النبى أو المدينة المنورة، وأصبح بها فى ذلك الوقت ثلاثة أصناف من السكان.

الأول: المهاجرون وهم الذين هاجروا فرارا بدينهم من مكة إلى المدينة.

وكان أول من هاجر إلى المدينة - على ما يذكره ابن هشام - من أصحاب رسول الله ﷺ من قريش أبو سلمة بن عبد الأسد المخزومى، فقد هاجر إلى المدينة قبل بيعة أصحاب العقبة بسنة.

ثم كان أول من قدمها من المهاجرين بعد أبى سلمة عامر بن ربيعة ومعه امرأته ليلى بنت أبى حثمة، ثم عبد الله بن جحش وأهله، وتبعهم عمر بن الخطاب، وعياش بن أبى ربيعة المخزومى، ثم تتابع المهاجرون بعد ذلك.

الثانى: الأنصار وهم الذين دخلوا الإسلام من سكان المدينة الأصليين وهم (الأوس والخزرج)؛ وسموا بذلك لأنهم نصروا النبى على قريش، وصاروا يفتخرون بهذه التسمية حتى غلبت عليهم، وصارت فى منزلة النسب.

الثالث: اليهود وهم الذين انتهى بهم الأمر إلى الخروج تدريجيا من جزيرة العرب.

ويرى البعض تقسيما آخر وهو: أنه وجد بالمدينة فى ذلك الوقت ثلاث طوائف من السكان هم:

١- المسلمون.

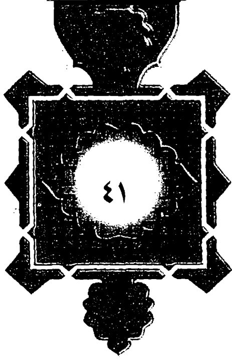
٢- اليهود (النضير، وقريظة، وقينقاع).

٣- العرب: الذين لم يدخلوا فى الإسلام، فأراد ﷺ أن يوجد نوعا من التعاون فعقد معهم معاهدة تعاون، وادعهم فيها وأقرهم على أموالهم ودينهم.

ومما لا شك فيه أن المجتمع المسلم فى عصر صدر الإسلام فى المدينة المنورة كان غاية فى التماسك والترابط، فقد عاش المسلمون إخوة فيما بينهم وقوة قاهرة على من عاداهم، ومن ذلك قوله تعالى:

﴿مُحَمَّدٌ رَّسُولُ اللَّهِ وَالَّذِينَ مَعَهُ أَشِدَّاءُ عَلَى الْكُفَّارِ رُحَمَاءُ بَيْنَهُمْ تَرَاهُمْ رُكَّعًا سُجَّدًا يَبْتَغُونَ فَضْلاً مِّنَ اللَّهِ وَرِضْوَانًا سِيمَاهُمْ فِي وُجُوهِهِم مِّنْ أَثَرِ السُّجُودِ﴾ [الفتح].

فعلى مثل هذا التلاحم والارتباط المتين قام الإسلام وأرسى قواعده.



وتتلخص أهم مظاهر هذا الارتباط فى:

١- نظام المؤاخاة:

فقد كان الهدف من هذه المؤاخاة إقامة رابطة متينة من الأخوة بين الفئتين الأساسيتين اللتين تشكلان المجتمع الجديد فى المدينة وهما فئتا المهاجرين والأنصار؛ تأكيدا لوحدة المجتمع وشدا للبناته.

٢- نبذ العصبية الجاهلية:

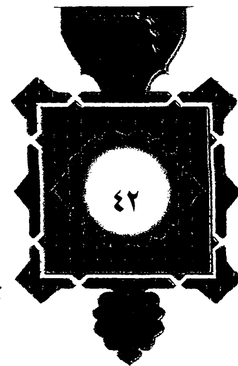
وكانت هذه العصبية سمة من سمات المجتمع الجاهلى، وعندما جاء الإسلام ألغى هذه العصبية، وأحل محلها التسامح، ونلتمس من المصادر بعض المواقف التى تدل على مدى ما يتمتع به الإسلام من تعاليم تدعو إلى التسامح ونبذ العصبية.

فقد ذكر أن ثابت بن قيس بن الشماس أخا بلحارث بن الخزرج وثب على صفوان بن المعطل، فضربه حسان بن ثابت، فانطلق به - ثابت - إلى دار بنى الحارث بن الخزرج، فلقيه عبدالله بن رواحة، فسأله عن ذلك، فقص عليه الأمر، فسأله عبد الله بن رواحة: هل علم رسول الله ﷺ بهذا الأمر ؟ فقال: لا. . وعندما انتهى الأمر إلى رسول الله ﷺ جمع حسان وصفوان. . وقال ﷺ لحسان: «يا حسان أتعيب على قوم أن هداهم الله عز وجل للإسلام»؛ ثم قال: «أحسن يا حسان فى الذى أصابك»، قال: هى لك يا رسول الله.

ولعل هذا المثال وغيره من الأدلة الدالة على مدى سماحة تعاليم الإسلام، ونبذه للتعصب. .

٣- إلغاء بعض العادات والتقاليد:

عندما جاء الإسلام ألغى بعضا من العادات والتقاليد، وسن مكانها أنظمة أخرى، اعتمد فيها على كتاب الله وسنة رسوله. . فمن ذلك أن سن الإسلام مبدأ القصاص فى القتل، ومن فوائده أنه يقلل من حوادث القتل كثيرا، الذى يؤدى إلى استمرار أعمال الثأر زمنا طويلا؛ ولذا رئى أن تقوم الدية التى تدفع إلى أهل المقتول مقامه - أحيانا، قال تعالى: ﴿**يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُتِبَ عَلَيْكُمُ الْقِصَاصُ فِي الْقَتْلَى الْحُرُّ بِالْحُرِّ وَالْعَبْدُ بِالْعَبْدِ وَالأُنثَى بِالأُنثَى فَمَنْ عُفِيَ لَهُ مِنْ أَخِيهِ شَيْءٌ فَاتِّبَاعٌ بِالْمَعْرُوفِ وَأَدَاءٌ إِلَيْهِ بِإِحْسَانٍ ذَلِكَ تَخْفِيفٌ مِّن رَّبِّكُمْ وَرَحْمَةٌ فَمَنِ اعْتَدَى بَعْدَ ذَلِكَ فَلَهُ عَذَابٌ أَلِيمٌ (١٧٨)**﴾ [البقرة].



أيضـا - احتـرم الإسـلام حق التملـك، حتى مـا كـان منه خاصـا بالمغلوبين، ومن ذلك أن الأراضى التى أخذت من المغلوبين بالفـتح أعيدت إليهم على أن يؤدوا خراجها.

رفع الإسلام - كذلك - مكانة المرأة، وأعلى شأنها، ومنحها حقوقا فى الميراث، ولعل خير ما يوضح لنا حال المرأة قبل الإسلام وبعده من قوله تعالى: ﴿ **حُرِّمَتْ عَلَيْكُمْ أُمَّهَاتُكُمْ وَبَنَاتُكُمْ وَأَخَوَاتُكُمْ وَعَمَّاتُكُمْ وَخَالاتُكُمْ وَبَنَاتُ الأَخِ وَبَنَاتُ الأُخْتِ وَأُمَّهَاتُكُمُ اللاَّتِي أَرْضَعْنَكُمْ وَأَخَوَاتُكُم مِّنَ الرَّضَاعَةِ وَأُمَّهَاتُ نِسَائِكُمْ وَرَبَائِبُكُمُ اللاَّتِي فِي حُجُورِكُم مِّن نِّسَائِكُمُ اللاَّتِي دَخَلْتُم بِهِنَّ فَإِن لَّمْ تَكُونُوا دَخَلْتُم بِهِنَّ فَلا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ وَحَلائِلُ أَبْنَائِكُمُ الَّذِينَ مِنْ أَصْلابِكُمْ وَأَن تَجْمَعُوا بَيْنَ الأُخْتَيْنِ إِلاَّ مَا قَدْ سَلَفَ إِنَّ اللَّهَ كَانَ غَفُورًا رَّحِيمًا** (٢٣) ﴾ [النساء].

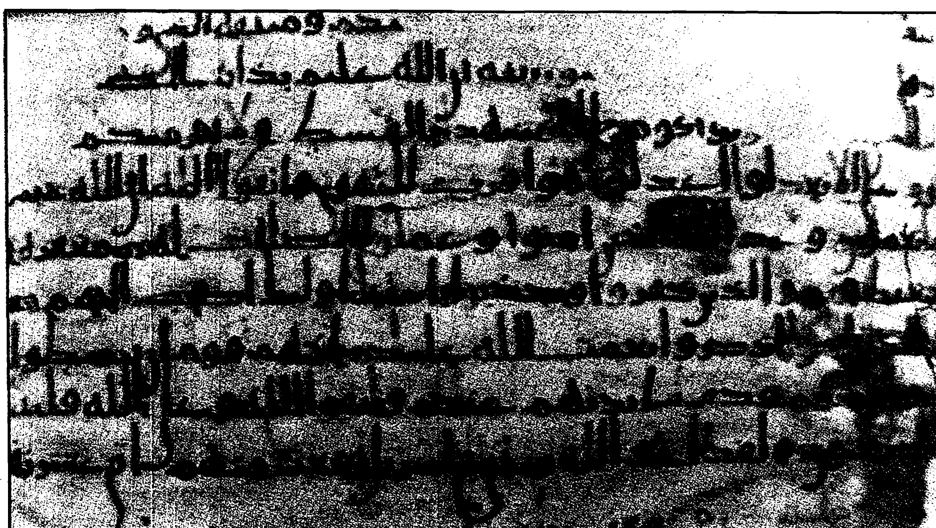
كذلك قوله تعالى: ﴿ **وَإِذَا بُشِّرَ أَحَدُهُم بِالأُنثَىٰ ظَلَّ وَجْهُهُ مُسْوَدًّا وَهُوَ كَظِيمٌ** (٥٨) ﴾ [النحل].

تلك نبذة عن النظم الاجـتماعية التى كـانت سائدة فى المدينة خلال عصـر صدر الإسلام، وقد رأينا كيف أن الإسلام ألغى بعضا من العادات التى لا تتناسب مع شريعته، وأحل محلها نظما إسلامية يسير عليها المسلمون فى شئون حياتهم ومعاشهم.

ثالثا - أثر الإسلام فى الحياة السياسية والثقافية والاجتماعية:

أ: أثر الإسلام فى الحياة السياسية:

كان من أثر الإسلام فى المدينة المنورة فى الحياة السيـاسية أن سنت بعضا من النظم التى لم تكن معـروفة من قبل، أو كانت مـعروفة، ولكن وضع الإسلام لهـا تنظيما آخر بما يتـماشى مع أسلوب الحياة الجديد الذى قامت عليه دولة الإسلام فى المدينة.



من رقائق المصحف الشريف الأولى

ومن هذه النظم:

١ - الخلافة:

فقد نشأت كضرورة اقتضتها الحياة الإسلامية عقب وفاة النبى ﷺ، كما أن منزلة الخليفة من الأمة كمنزلة الرسول ﷺ من المؤمنين له عليهم الولاية العامة والطاعة التامة، وله حق القيام على دينهم.

٢- الوزارة:

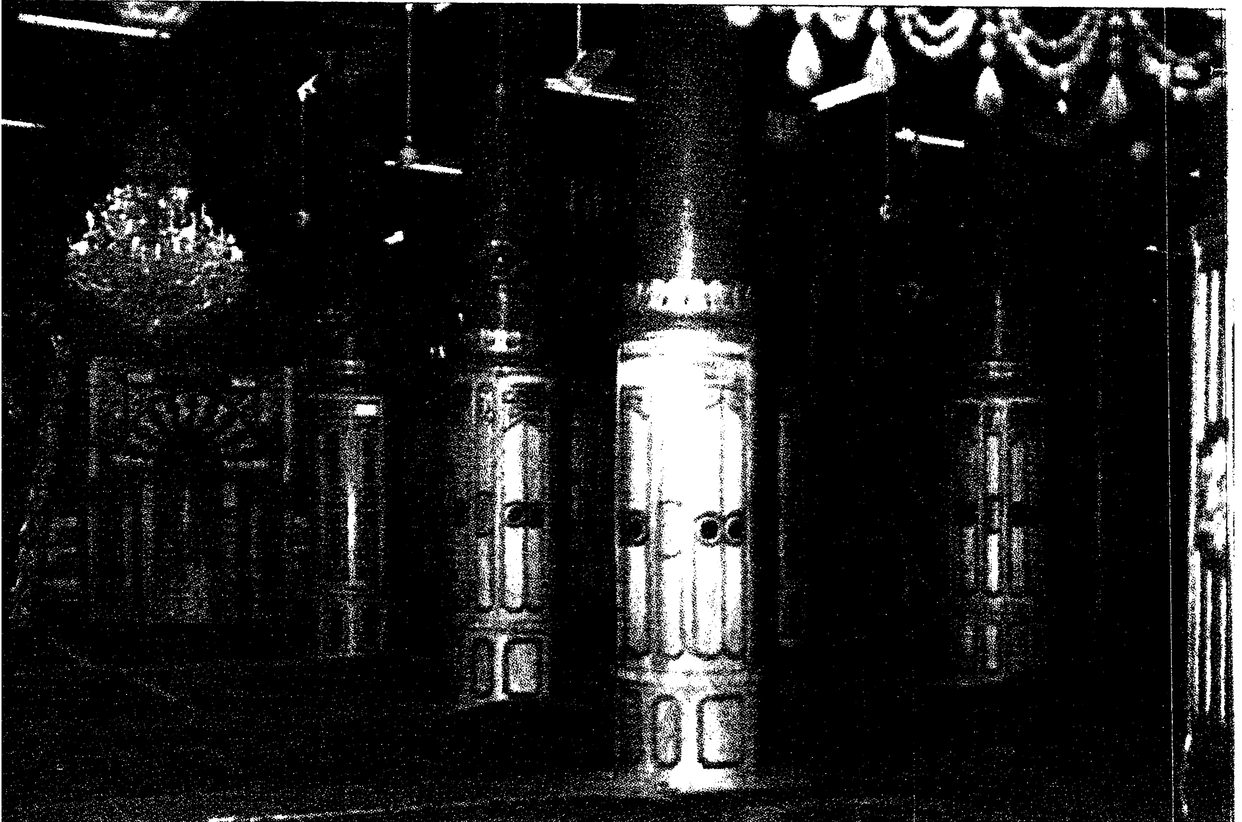
إذا أريد بها استعانة الأمير أو السلطان بمن يشد أزره أو يعاونه فى الحكم، فهى تتصل بصدر الإسلام؛ لأن النبى ﷺ كان يشاور أصحابه فى الأمور العامة والخاصة، ويخص أبابكر ببعض الأمور.

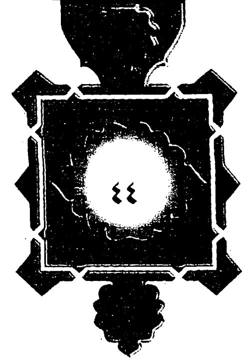
٣- الكتابة:

حيث اقتضت الظروف وجود هذه الوظيفة، وكان الخليفة يختار كاتبه من بين الذين يجيدون الخط.

فقد كان عمر بن الخطاب، وعثمان بن عفان، وعلى بن أبى طالب، وغيرهم يكتبون القرآن ويحررون الكتب التى كان الرسول الكريم ﷺ يرسلها إلى الملوك والأمراء.

الحرم النبوى (الروضة الشريفة)





٤- الحجابة:

وهى وظيفـة كبيرة تشـبه كبيـر الأمناء فى هذا العصر، وكـان يشغل متوليها منصبا ساميا فى البلاط، ومهمته إدخال الناس على الخليفة، بحسب أهمية مراكزهم.

٥- الدواوين:

اقتضت الحالة فى عصر الخلفـاء الراشدين وجود عدد من الدواوين التى تعد بمثابة الوزارات فى العصر الحالى.

حيث اتسعت رقعة الفتوحات الإسلامية وأثرت الدولة العربية الإسلامية فأنشأ سيدنا عمر - رضى الله عنه - ديوان الجند، لكتابة أسماء الجند وما يخص كلا منهم من العطاء، وديوان الخراج أو الجباية لتـدوين ما يرد إلى بيت المال وما يفرض لكل مسلم من العطاء، وهذه الأنظمـة مأخوذة عن الفرس.

هذا بعض من التنظيمات الـسياسية التى كان للإســلام أثر فى وجودها فى المدينة المنورة فى عصر صــدر الإسلام، ومما لا شك فيه أن هذه النـظم تدل على المستوى الرفيع الذى بلغـته المدينة المنورة.

ب - أثر الإسلام فى الحياة الثقافية:

لم تكن الدعوة الإسـلامية فى الحـياة العربيـة حدثا دينيـا فحسب، وإنما كـانت انقلابا فى المفاهيم، وتغيرا فى القيم.

فنجد الإنسان العربى داخل المدينة وخارجها ينفض عن نفسه غبار الخنوع للأوثان.. ويتفهم حقيقة وجوده فى هذه الحياة، فإذا به تتفتح له آفاق الحضارة، وآماد الفكر النابض بالحياة.

لقد أعاد الإسلام صيـاغة الإنسان العربى من الداخل، وزرع فيه قيمـا جديدة تعده لتحرير نفسه وقيادة الكون والقوامة على شريعة الله، وهى لا تتحقق إلا بمضمون ثقافى جديد.



١- تحرير الإنسان من الخرافات:

حيث قضى الإسلام على كل مظاهر الوثنية، وما كان يصاحبها من كهانة وسحر وشعوذة، ولا شك أن أول خطوة صحيحة فى طريق الفكر السليم هى تحرير العقل من غير هذه الخرافات والترهات.

قال تعالى: ﴿ إِنَّ فِى خَلْقِ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ وَاخْتِلافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ لآيَاتٍ لأُولِى الأَلْبَابِ (١٩٠) ﴾ [آل عمران].

٢- تكريم العقل:

كرم الإسلام العقل وبجله وأنحى باللائمة على الذين لا يستخدمون عقولهم ولا يستغلون ما أنعم الله به عليهم من إدراك وقدرة على التمييز، وشبههم بالأنعام تارة، وبالصم وبالبكم والعمى تارة أخرى. قال تعالى: ﴿ لَهُمْ قُلُوبٌ لاَّ يَفْقَهُونَ بِهَا وَلَهُمْ أَعْيُنٌ لاَّ يُبْصِرُونَ بِهَا وَلَهُمْ آذَانٌ لاَّ يَسْمَعُونَ بِهَا أُوْلَئِكَ كَالأَنْعَامِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ أُوْلَئِكَ هُمُ الْغَافِلُونَ (١٧٩) ﴾ [الأعراف].

٣- استخلاف الله للإنسان فى الأرض:

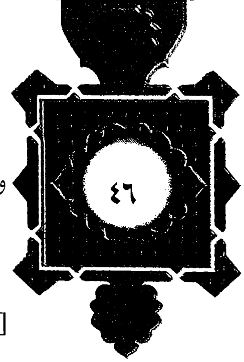
ولا شك أن إحساس الإنسان بهذا السلطان يدفعه إلى تحسين سياسته فى التعامل مع عناصر الكون والاستفادة منها، وذلك تفجير للقوى الطبيعية الكامنة، واستغلال لمصادر الثروة والطاقة، وعن هذا تنتج كل أدوات الحضارة ووسائل المدنية.

قال تعالى: ﴿ وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلائِكَةِ إِنِّى جَاعِلٌ فِى الأَرْضِ خَلِيفَةً.. (٣٠) ﴾ [البقرة]، ﴿ وَهُوَ الَّذِى جَعَلَكُمْ خَلائِفَ الأَرْضِ.. (١٦٥) ﴾ [الأنعام].

٤- تكريم الله للإنسان:

قال تعالى: ﴿ وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِى آدَمَ وَحَمَلْنَاهُمْ فِى الْبَرِّ وَالْبَحْرِ وَرَزَقْنَاهُم مِّنَ الطَّيِّبَاتِ وَفَضَّلْنَاهُمْ عَلَىٰ كَثِيرٍ مِّمَّنْ خَلَقْنَا تَفْضِيلاً (٧٠) ﴾ [الإسراء].

فعلى هذا الأساس لا يجوز امتهان الإنسان أو التقليل من شأنه مهما كانت منزلته فى الحياة الاجتماعية.



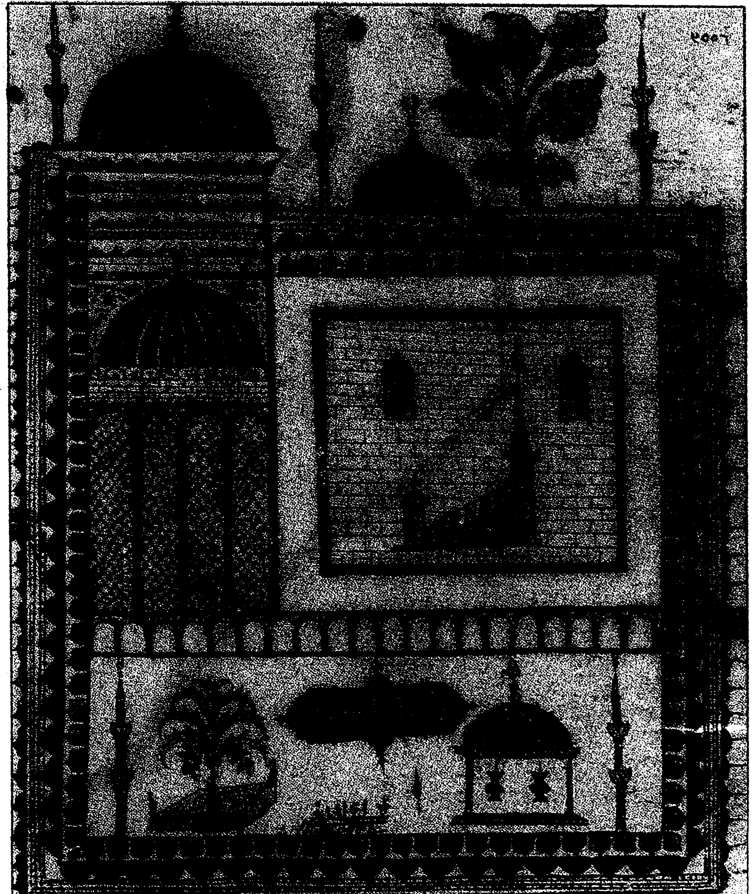
٥- تمجيد التفكير والتدبر:

فنجد أن عموم الخطاب يتوجه إلى أولى الألباب، وأولى النهى، وللذين يتفكرون أو يعقلون.. إلخ.

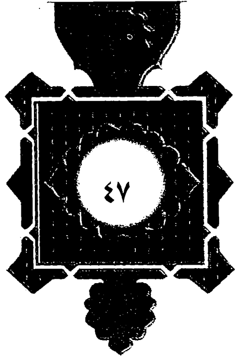
قال تعالى: ﴿ أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ الْقُرْآنَ أَمْ عَلَىٰ قُلُوبٍ أَقْفَالُهَا (٢٤) ﴾ [محمد].

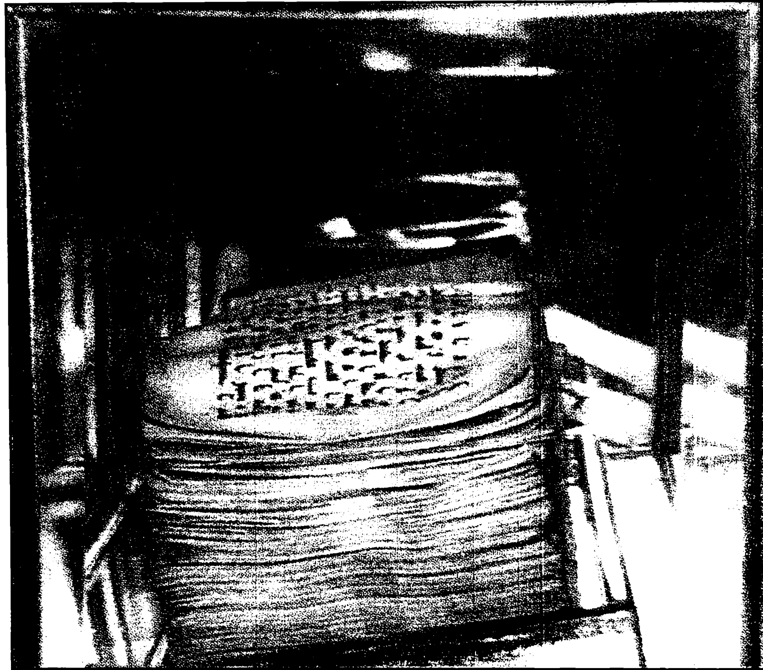
٦- التعريف بتواريخ الأمم السابقة:

فقد فتح القرآن الكريم الأعين على تواريخ الأمم السابقة كعاد وثمود وبنى إسرائيل.. وغيرهم.



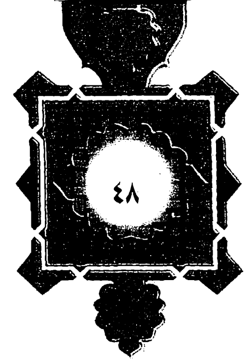
بلاطة خزفية - دمشق - عمل محمد الشامى - سنة ١١٤١هـ/ ١٧٢٩م





مصحف على بن أبى طالب - كرم الله وجهه - متحف الفن الإسلامى بالقاهرة

الحرم النبوى وبه محراب النبى ﷺ



ولا شك أن الآيات القرآنية حافلة بالقصص حول هذه الموضوعات مع بيان مواطن العبرة والعظة، قال تعالى: ﴿وَضَرَبْنَا لَكُمُ الْأَمْثَالَ ﴿٤٥﴾﴾ [إبراهيم].

٧- التنظيمات والتشريعات:

اشتمل القرآن على عديد من النظم والتشريعات السماوية التى تنظم حياة الفرد والجماعة، وتعين على تكوين الأمة وإقامة الدولة، وهى أمور لم يكن للعرب عهد بها فى المدينة قبل ذلك.

٨- الدعوة إلى العلم:

كانت الدعوة إلى العلم، وأنها نعمة من الله أسبغها على الإنسان مما اقترنت به الآيات الأولى من القرآن الكريم قال تعالى: ﴿اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِى خَلَقَ ﴿١﴾ خَلَقَ الْإِنسَانَ مِنْ عَلَقٍ ﴿٢﴾ اقْرَأْ وَرَبُّكَ الْأَكْرَمُ ﴿٣﴾ الَّذِى عَلَّمَ بِالْقَلَمِ ﴿٤﴾ عَلَّمَ الْإِنسَانَ مَا لَمْ يَعْلَمْ ﴿٥﴾﴾ [العلق].

٩- رفع مكانة المعلم:

فقد أعطى الإسلام للمعلم مكانة عظيمة لا نظير لها، وجعله من ورثة الأنبياء، وأوجب إكرامه وإجلاله، قال تعالى: ﴿إِنَّمَا يَخْشَى اللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاءُ.. ﴿٢٨﴾﴾ [فاطر].

١٠- الاستفادة من حضارة البلاد المفتوحة:

على الرغم من أصالة النهضة العلمية والثقافية فى الإسلام، فإن الإسلام لم يغلق المنافذ أمام نظم وعلوم وأساليب البلاد المفتوحة؛ ما لم يتصادم ذلك مع الشريعة الإسلامية.

وإذا نظرنا إلى الحركة العلمية فى المدينة فى عصر صدر الإسلام، نجد أنها كانت منبعا لأكثر الأحداث التاريخية، حيث بها حدث النبى ﷺ أكثر حديثه، وبها شاهد الكثير من الصحابة ما فعله ﷺ، وسمعوا ما قاله، وكانوا شركاء فى بعض ما وقع من أحداث كغزوات وفتوح.

وكانت الأحداث التاريخية سببا من أسباب النهضة العلمية، فقد نشبت بين مكة والمدينة معركة حامية إثر هجرته ﷺ من مكة إلى المدينة، وقفت قريش ومن يؤازرها فى جانب، ووقف ﷺ ومن هاجروا معه ومن التفوا حوله فى جانب آخر.



وبمجرد أن اشتبكت السيوف أخذ الشعراء فى الجانبين المتنازعين يسلون ألسنتهم، ومن الأسماء التى لمعت من قريش فى هذه الحرب أبى سفيان بن الحارث، وعبد الله الزبعرى، وضرار بن الخطاب الفهرى، وأبى عزة الجمحى، وهبيرة بن أبى وهب المخزومى.

ومن الأسماء التى برزت من الأنصار فى المدينة فى ذلك الوقت: حسان بن ثابت، وكعب بن مالك، وعبد الله بن رواحة.

وكانت الأحاديث التى تتعلق بحياة النبى ﷺ فى المدينة وغزواته هى الأساس لما ألّف بعد ذلك من كتب السير والمغازى، والدليل على ذلك هو ما نجده من وجوه شبه كبير فى الأسلوب، وفى طريقة السرد للوقائع وحكايتها.

وكان عروة بن الزبير أشهر فقهاء المدينة ومحدثيها، وكان أقدم من ألف فى سيرة الرسول ﷺ.

وقد مكنته إقامته بالمدينة من الإلمام بكثير من الأخبار عن الأيام الأولى للإسلام استمدها من مصادرها الأولية عن عائشة - رضى الله عنها، وآل الزبير رضوان الله عليهم.

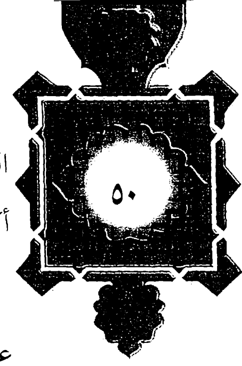
أما طريقة التدريس فى هذا العصر، فقد كان العلم - ولا سيما الدينى- يدرس فى المساجد، حيث يجلس الأستاذ فى المسجد، وحوله الآخذون عنه على شكل حلقة، وتكبر الحلقة وتصغر تبعا لقدر الأستاذ.

كذلك لم يكن فى هذا العصر شائعا حفظ القرآن الكريم جميعه، كما شاع بعد ذلك، وإنما كانوا يحفظون السورة ويتفهمون معانيها، فإذا حذقوها انتقلوا إلى غيرها.

ومن أشهر المفسرين للقرآن: على بن أبى طالب، وعبد الله بن عباس، وعبد الله بن مسعود، وأبى بن كعب.

وللدلالة على مكانة العلم فى الإسلام، وحثه على العلم والتعلم نذكر رأى بعض المستشرقين: أن الإسلام من أكثر الديانات ملاءمة لاكتشافات العلم، ومن أعظمها تهذيبا للنفوس، وحملا على العدل والإحسان والتسامح.

أما عن السبب فى وضع الحديث ونسبته كذبا إلى رسول الله ﷺ فيرى بعض الباحثين: بأن السبب فى ذلك هو ربما يكون عدم تدوين الحديث، والاعتماد على الذاكرة، وصعوبة حصر ما قاله ﷺ، أو فعله فى مدة ثلاثة وعشرين عاما من بدء الوحى حتى وفاته ﷺ.



أما عن الكتابة، فقد كان هناك كتبة الوحى.

أمـا أدوات الكتابة كـالدواة والقلم. . فـقد كـانت مـعروفـة فى هذا العصـر، وأغلب ما كـانوا يكتبـون على عسـيب النخل، وعلى الألواح من أكتاف الغنم وغيرها من العظام الطاهرة والخرق والجلود.

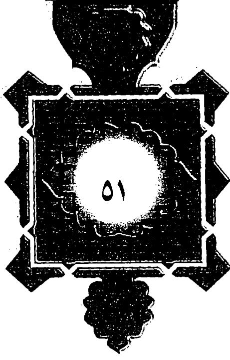
هذا بعض من أثر الإسلام فى الحـياة الثقافيـة فى المدينة المنورة خلال عصـر صدر الإسلام، ومما لا شك فـيه أن كل ما توصل إليـه المسلمون من نظم وإنجـازات فى شـتى مناحى الحـياه إنمـا تعود بالدرجـة الأولى إلى تلك الـلبنات الأولى التى وضعها الرسول الخاتم ﷺ.

ج- أثر الإسلام فى الحياة الاجتماعية:

جاء الإسلام والعرب مـتفرقون سياسيا تمـزقهم العصبية، وتضعفـهم الفردية؛ يظلم القوى منهم الضعيف، ويستـغل الغنى منهم الفقير، وهم فى وضع اجتماعى مـضطرب، يعيش أكثرهم عيشة غزو وسلب فى الغالب، فنقلهم إلى مسـتوى روحى عال وهداهم من الشرك إلى التوحيد، وهذب من أخلاقهم، وقاوم العصبية القبلية والخصومات والثأر عند القبائل، فنجح فى ذلك.

كذلك جعل الدين والتعاون أساس صلاتهم الاجتمـاعية، وحث على مساعدة الفقير وحرم الربا، وفرض الزكـاة، ومنع اكتناز الذهب والفـضة؛ ليخـفف من الفوارق الاجتـماعيـة. وجمع العـرب تحت راية واحدة، فـوحدهم بعـد تفرق، وقـواهم بعـد ضعف، وألف بين قلوبهم بعـد تباغـضهم، فخلف مـنهم وحدة، بعد أن كـانوا مبعـثرين، وطمس لهجـاتهم المتعـددة وجعلهم يتكلمون بلغة قريش التى نزل بها القرآن.

وخير دليل على ذلك أننا نجد أن آيات الأحكام كانت تنزل بالمدينة على حسب تطور جماعة المسلمين، ولو وقفنا على تاريخ نزول آيات الأحكام وتتبـعنا تسلسل الآيات تبعا لتسلسل الحوادث لفهمنا أصدق فهم حالة المسلمين الاجتماعية وتدرجها فى الرقى.



المصادر والمراجع

أولا: المصادر:

١- ابن الأخوة: «معالم القربة فى أحكام الحسبة»، تصحيح ونشر روبن ليوى، دار الفنون، كمبردج، ١٩٣٧م.

٢- الأصفهانى: (على بن الحسين ت ٣٥٦ هـ): «الأغانى»، الجزء الرابع، مكتبة الأسرة، الهيئة المصرية العامة للكتاب، ٢٠٠١م.

٣- السمهودى: (نور الدين أبو الحسن على بن عبد الله بن أحمد بن على ت ٩١١هـ / ١٥٠٥م): «وفا الوفا بأخبار دار المصطفى»، القاهرة، ١٣٢٦هـ.

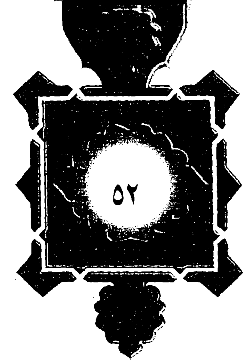
٤- السهيلى: (أبى القاسم عبد الرحمن بن عبد الله بن أحمد بن أبى الحسن ت ٥٨١هـ / ١١٨٥م): «الروض الأنف»، تقديم وتعليق / طه عبد الرؤوف سعد، مكتبة الكليات الأزهرية.

٥- ابن شبة: (أبو زيد عمر بن شبة النميرى ت ١٦٢هـ): «تاريخ المدينة المنورة»، تحقيق فهيم محمد شلتوت، لم تذكر سنة ولا مكان الطبع.

٦- القزوينى: (زكريا بن محمد بن محمود ت ٦٨٢هـ/ ١٢٨٣م): «آثار البلاد وأخبار العباد»، دار صادر - بيروت.

٧- مالك: (الإمام مالك بن أنس): «الموطأ»، تصحيح وتخريج / محمد فؤاد عبد الباقى، دار الحديث، مصر.

٨- المقدسى: (أبو عبد الله محمد بن أحمد بن أبى بكر ت ٣٨١هـ): «أحسن التقاسيم فى معرفة الأقاليم»، الطبعة الثانية، دار صادر، بيروت.



٩- ابن منظور: (جـمـال الدين مـحـمـد بن مكرم ت ٧١١هـ / ١٣١١م): «لسان العرب»، الجزء السادس، دار المعارف.

١٠- ابن النجار: (محمد بن محمود ت ٦٤٧ هـ): «الدرة الثمينة فى تاريخ المدينة»، دار الكتب العلمية، بيروت - لبنان.

١١- ياقوت: (شـهاب الدين أبو عـبد الله ت ٦٢٦هـ / ١٢٢٩م): «معجم البلدان»، دار صادر، بيروت، ١٣٩٧هـ / ١٩٧٧م.

١٢- اليعـقوبى: (أحمد بن أبـى يعقوب بن جعـفر بن واضح): «تاريخ اليعـقوبى»، دار بيروت للطباعة والنشر، بيروت، لبنان.

ثانيا: المراجع:

١- أمين: أحمد: فجر الإسلام، الطبعة الثالثة عشر، مكتبة النهضة المصرية، ١٩٨٢م.

٢- حسن: حسن إبراهيم (دكتور): تاريخ الإسلام السياسى والدينى والثقافى والاجتماعى، الطبعة التاسعة، مكتبة النهضة المصرية، ١٩٧٩م.

- النظم الإسلامية «بالاشتراك»، مكتبة النهضة المصرية، تاريخ الطبع (بدون).

٣- حسن: على إبراهيم (دكتور): - التاريخ الإسلامى العام، مكتبة النهضة المصرية، تاريخ الطبعة (بدون).

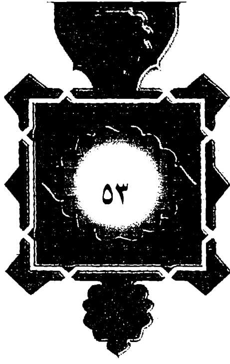
٤- الخطراوى: محمد العيد (دكتور): المدينة فى العصر الجاهلى، مؤسسة علوم القرآن، دمشق، سوريا، الطبعة الأولى، ١٤٠٣هـ / ١٩٨٢م.

- المدينة فى صدر الإسلام، الطبعة الأولى، مكتبة دار التراث، المدينة المنورة، ومؤسسة علوم القرآن، سوريا، ١٤٠٤هـ/ ١٩٨٤م.

٥- الدورى: عبد العزيز (الدكتور): تاريخ العرب، الطبعة الثالثة، مطبعة العانى، بغداد، ١٣٧٠هـ/ ١٩٥١م.

٦- زيدان: جورجى: العرب قبل الإسلام، منشورات دار مكتبة الحياة، بيروت، لبنان، تاريخ الطبع (بدون).

٧- سالم: السيد عبد العزيز (دكتور): التاريخ السياسى والحضارى للدولة العربية، دار النهضة العربية، بيروت، تاريخ الطبع (بدون).



- تاريخ العـرب قبل الإسـلام، مـؤسسـة شـباب الجـامعـة، الإسكندرية، لم تذكر سنة الطبع.

٨- شلبى: أحمد (دكـتور): موسوعة التاريخ الإسـلامى والحضارة الإسلامـية، الجـزء الأول، الطبعة السـادسة، مكتـبة النهـضة المصرية، ١٩٧٤م.

٩- ضـيف: شـوقى (دكـتـور): تاريخ الأدب العـربى - العـصـر الإسلامى، الطبعة السابعة، دار المعارف- مصر.

- الشعر والغناء فى المدينة ومكة لعصر بنى أمية، الطبعة الثالثة، دار المعارف، مصر.

١٠- عثمان: مـحمد عبد الستـار (دكتور): المدينة الإسلامية، سلسلة عـالم المعرفة، وهى تصدر عن المجلس الأعلى للثقافة والفنون والآداب، الكويت، ١٤٠٨هـ / ١٩٨٨م.

١١- على: جواد (دكتور): المفصل فى تاريخ العرب قبل الإسلام، الجزء الرابع والخامس، لم تذكر سنة ولا مكان الطبع.

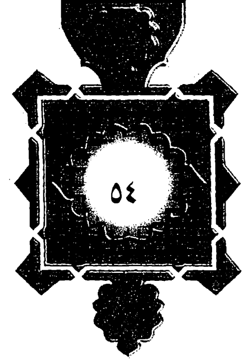
١٢- فضل: مـحمـد عبد الوهاب (دكـتور): التـاريخ وتطوره فى ديار الإسلام، الطبـعة الثانية، مطبعة الأمانة، ١٤٢٠هـ/ ٢٠٠٠م.

١٣- لوبون: جوسـتاف: حضارة العـرب، ترجمة عـادل زعيتر، مكتـبة الأسرة، الهيـئة المصرية العامة للكتاب، ٢٠٠٠م.

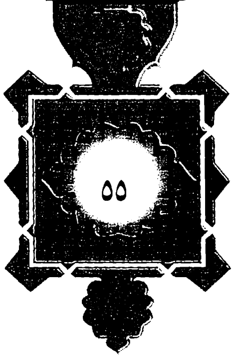
١٤- مهـران: محـمد بيـومى (دكتـور): تاريخ العـرب القديم، دار المعـرفة الجـامعـية، الإسكندرية، ١٩٨٨م.

١٥- هارون: عبد السلام: تهذيب سيرة ابن هشام، الطبعة العاشرة، دار البحوث العلمية، الكويت، ومؤسسة الرسالة، ١٤٠٥هـ/ ١٩٨٤م.

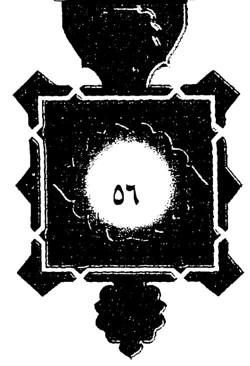
١٦- هيكل: محمد حسين (دكتور): حياة محمد، الطبعة الحادية والعشرون، دار المعارف، مصر.


٥٤


محتويات الكتاب



الموضوع | الصفحة



الموضوع	الصفحة

Abstract

This work handles the historical background of the Holy City of " Medina Al- Munwara " in the pre Islamic period, depending on primary sources and updated references.

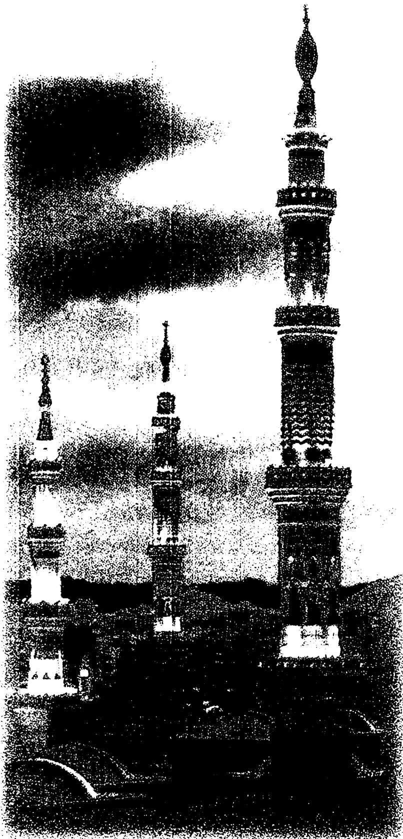
There is a brief survey of the political, social, and cultural aspects of that city.

Then the author highlighted the transformation of the city in the early Islamic period, together with the conflict between " Medina " and " Mecca", and its consequences.

Particular emphasis is laid on the social status in " Medina", and the impact of Islam in consolidating the spirit of brotherhood between "Helpers" and "Immigrants ". Mention is made of the major sources of that period.

Dr. Mohamed Nissan

(3)
El Medina El - Munwara in the Early Islamic Period



Dr. Mohamed Nissan

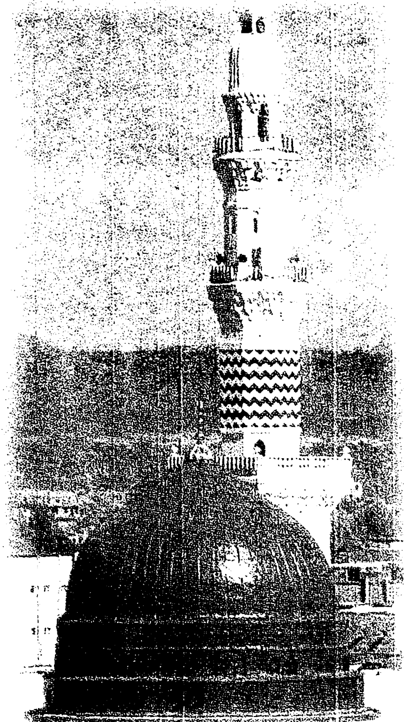
(٤)

الرسول ﷺ وبناء الدولة الإسلامية

تأليف

د. حسن على حسن

أستاذ التاريخ الإسلامى
كلية دار العلوم - جامعة القاهرة







هذه صفحات تتضمن سيرة الرسول الكريم؛ أعظم من أنجبتهم البشرية وأكمل الخلق قاطبة، نحاول فيها جاهدين، أن نرسم خطوطا عامة لحياته الكريمة الحافلة بالجهاد والمثل العليا، بل إن شئت القول كانت مثلا أعلى يتحرك بين الناس ويجد فيه كل الخلائق مثلهم الأعلى فى كل لون من ألوان الحياة: فى السياسة والاقتصاد والاجتماع والأخلاق وشتى مناحى الحياة.

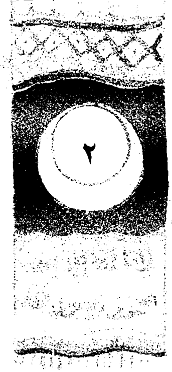
يقول أبو الحسن الندوى: السيرة النبوية تتميز من بين سير أفراد البشر وفيهم الأنبياء وغير الأنبياء بدقتها وشمولها واستيعابها لدقائق الحياة وتفاصيلها وملامحها وقسماتها، وذلك بفضل الحديث الذى لا يوجد له نظير، وكتب السير والشمائل، وما جمع وحفظ من الأدعية والأذكار النبوية وما حفظ ونقل من جوامع الكلم وما أثر عن الوصافين الحاذقين من أصحابه، وأهل بيته فى صفته التى لم تحفظ كتب الآداب والتاريخ والأنساب صفة أكثر منها دقة وأعظم استيعابا للملامح البشرية والدقائق الخلقية.

ورغم كل هذا فلا بد من الاعتراف بأن تصوير حياته وأخلاقه واستيعاب المعجزات التى اشتملت عليها سيرته ودعوته وحياته الانفرادية والاجتماعية، ومعاملته مع الله ومع الخلق، وآيات الحسن والإحسان فى تكوين خَلقه وخُلقه، وفى حبه ورأفته، وفى دعائه وابتهاله، وفى تألمه للإنسانية ومصيرها، وفى منطقه وحكمته وكماله يكاد يكون مستحيلا على باحث أو باحثين الإلمام بشتى نواحى حياته.

وقد حاولنا بقدر توفيق الله لنا تلمُّس بعض جوانب العظمة فى حياته، وذلك بإلقاء الضوء على بعض جوانب هذه العظمة، فإن كنا قد وفقنا فى ذلك فمن الله وإن كان غير ذلك فمن عجزنا البشرى.

أسأل الله أن يكون عملنا هذا خالصا لوجهه الكريم، والله ولى التوفيق.

المؤلف



القسم الأول
الملامح الطبوغرافية للجزيرة العربية

موقع شبه الجزيرة

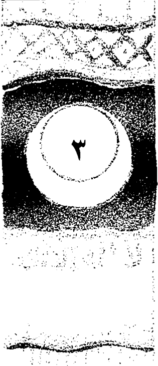
تقع شبه جزيرة العرب فى الطرف الجنوبى الغربى من قارة آسيا، يحدها الخليج العربى شرقا والبحر الهندى جنوبا والبحر الأحمر من الغرب، ويحدها برزخ السويس من الشمال الغربى، وأما حدها الشمالى فيبدأ بغزة ويمر جنوب البحر الميت إلى شرق الأردن ثم يمر من دمشق إلى العراق وينتهى إلى الخليج العربى.

ويقال إنها كانت جزءا من الصحراء الكبرى الممتدة فى شمال أفريقيا ثم انشقت الأرض عن أخدود البحر الأحمر الذى تحفه الصخور النارية على جانبيه.

النواحى الطبيعية لشبه الجزيرة

شبه الجزيرة مستطيلة الشكل، وهى عبارة عن هضبة مرتفعة لا يقل ارتفاع أى جزء منها عن ١٥٠٠ قدم عن سطح البحر، وهذه الهضبة تأخذ فى الانخفاض التدريجى كلما اتجهنا إلى الشرق أو الغرب، ويبدأ الانحدار من سلسلة جبال تعرف بجبال السراة وهى تمتد من أقصى الشمال إلى أقصى الجنوب؛ ويختلف الانحدار الغربى عن الشرقى فى أن الغربى شديد الانحدار، وبذلك يكون واديا ضيقا بين الجبال والبحر الأحمر، وهذا الوادى يسمى تهامة، أما الانحدار الشرقى فهو تدريجى حيث ينتهى بأرض الجزيرة والعراق والخليج العربى ويسمى نجد.

وأهم الجبال جبل السراة الذى ذكرناه من قبل، وتتخلله بعض الوديان العميقة، وتختلف أسماء الجبل باختلاف المناطق، ويطلق على الجزء الذى يشرف على مكة جبل حراء؛ وهناك جبل شمر وهو على شكل هلال ويقع فى جنوب صحراء النفود فى شمال شبه الجزيرة، أما فى جنوبها الشرقى فهناك الجبل الأخضر.



وقد قسم جغرافيو العرب المنطقة إلى خمسة أقسام هى:

١ ـ **تهامة**: وتسمى أيضا الغور، وقد أطلق عليها تهامة من التهم وهو شدة الحر وركود الريح، أما تسميتها بالغور فذلك لانخفاض أرضها، وهى تتكون من السهل الساحلى الممتد على شاطئ البحر الأحمر، ويبتدئ شمالا من العقبة وينتهى جنوبا إلى اليمن، وتقع عدة مدن هامة فى هذا القسم منها جدة وينبع والحديدة.

٢ ـ **نجد**: وقد سميت نجدا لارتفاع أرضها، وهى تشمل المنطقة الممتدة من الحجاز غربا إلى البحرين شرقا، ومن بادية الشام شمالا إلى حدود اليمن جنوبا.

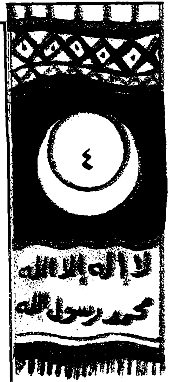
٣ ـ **الحجاز**: وقد سمى حجازا لأنه حجز ما بين نجد وتهامة، ويتضمن الحجاز أهم مدن المنطقة إذ تقع به مكة والمدينة والطائف وتبوك، وقد اكتسب هذا الإقليم أهمية اقتصادية كبيرة باعتباره الممر التجارى بين الشام واليمن؛ فضلا عن المراكز التجارية التى تقع فيه وأبرزها مكة، ويتخلل الحجاز كثبان وآكام خصبة تقيم بها القبائل، كما أن به كثيرا من ينابيع الماء التى تقام حولها بعض المزروعات.

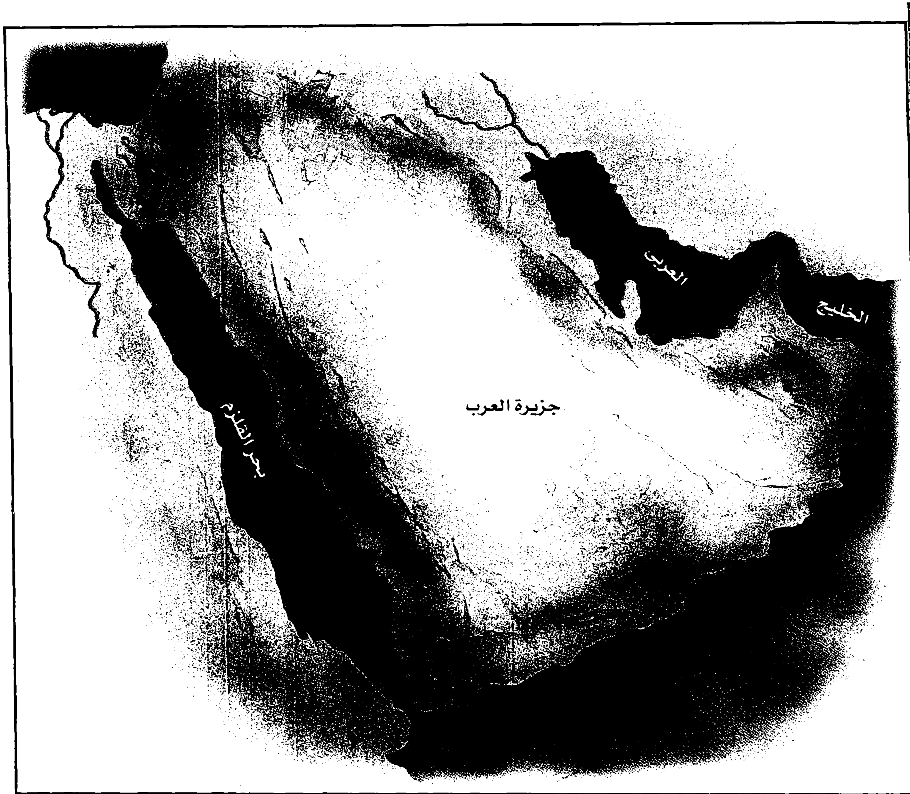
٤ ـ **العروض**: وسميت عروضا لاعتراضها بين اليمن ونجد من العراق، ويشمل إقليم العروض اليمامة والبحرين، وهى التى تسمى بهجر وتمتاز بكثرة النخيل، أما الجزء الشمالى منها فيطلق عليه اسم الأحساء.

٥ ـ **اليمن**: وسميت باليمن لأنها تقع إلى يمين الكعبة، أو لأنها بلاد اليمْن والخير والبركة، ويطلق عليها: «بلاد العرب السعيدة»، وهى تقع فى جنوب شبه الجزيرة، وتمتد من نجد إلى المحيط الهندى وتضم حضرموت والشحر وعمان ونجران. وأهم مدن اليمن صنعاء.

مناخ بلاد العرب

مناخ بلاد العرب حار بوجه عام وذلك لقربها من خط الاستواء، وتختلف الحرارة من منطقة إلى أخرى؛ فمنطقة تهامة المجاورة لشاطئ البحر الأحمر شديدة الحرارة مع نسبة عالية من الرطوبة لانخفاضها؛ كذلك تشتد الحرارة حين تهب رياح الجنوب. أما الأقاليم الوسطى ومنطقة نجد فتمتاز بمناخ معتدل وصحى بسبب جفاف الجو، وبخاصة عندما يهب نسيم الشمال المنعش، أما اليمن فهواؤه معتدل فى فصلى الشتاء والخريف، ويكثر نزول المطر فى فصل الربيع نتيجة لهبوب الرياح الموسمية، أما الصيف فتشتد فيه درجة الحرارة وينزل بعض المطر فى وسط الجزيرة وفى المناطق الواقعة إلى الغرب منه فى فصل الشتاء.





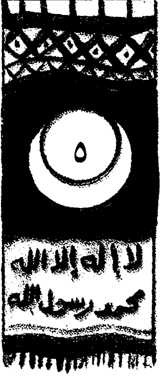
خريطة شبه الجزيرة العربية

الحياة الاقتصادية

تختلف مناطق الزراعة من منطقة لأخرى فى شبه الجزيرة، وذلك باعتبار سقوط الأمطار ووجود الآبار التى كانت متناثرة فى أنحاء متفرقة من شبه الجزيرة نتيجة لتوافر المياه الجوفية الناتجة عن سقوط الأمطار، وتكون أحيانا قريبة من سطح الأرض بدرجة تكفى لاستخدامها فى الزراعة مما يشجع على وجود تجمعات سكانية فى تلك المناطق التى تسمى واحات.

وأهم الزراعات فى تلك المناطق هو النخيل الذى ينتج أنواعا مختلفة من التمر، ويكثر النخل بصورة خاصة فى خيبر والمدينة والبحرين واليمامة، وهناك أنواع أخرى من المزروعات، ومنها البن الذى جادت زراعته باليمن، كذلك تكثر زراعة الشعير فى فدك ووادى القرى وخيبر والمدينة والبحرين، أما القمح فتكثر زراعته باليمامة والذرة فى عسير والكروم فى الطائف واليمن.

وفى أنحاء متفرقة من البلاد توجد النباتات العطرية ومنها عود الند واللبان والصمغ العربى، وتعتبر شجرة البخور من أهم السلع فى الحياة التجارية لبلاد العرب الجنوبية، وتزرع على المرتفعات الموازية للساحل الجنوبى.



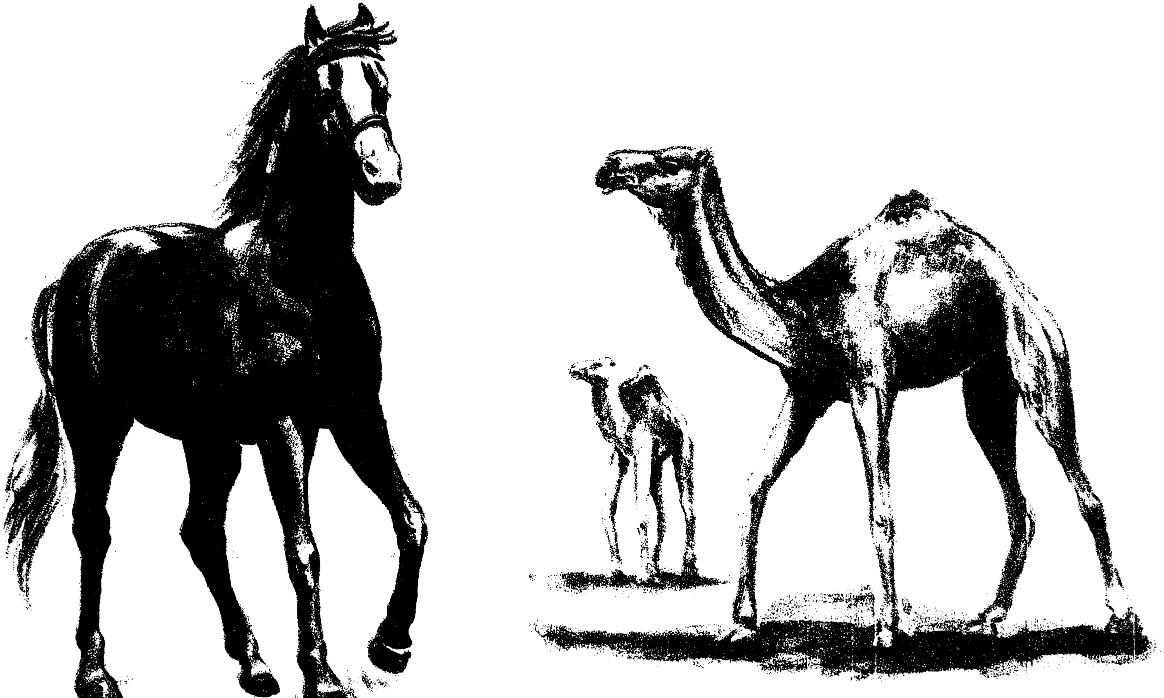
وبجانب المناطق الزراعيـة؛ توجد مساحات واسـعة من المراعى التى تعيش فيـها أنواع مختـلفة من الحيوانات والـتى تكون ثروة حيوانيـة بالبلاد، ويأتى فى مقدمتها الجمال والخيـول والأغنام، ويعتبر خيل نجد من أجود أنواع الخيل، وكان له دور بارز فى حـياة البـدو وفى المعارك والارتحـال من مكان إلى آخر، كـذلك اعتمد العربى على الجمل فى السفر والانتقال فى الصحراء.

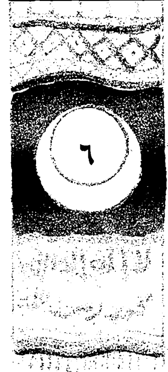
وهناك حيـوانات مفترسـة عاشت فى أنحاء متـفرقة من الصحـراء، ومنها الأسد والفهد والنمر والثعلب والذئب وغيرها من الحيوانات.

ولم يكن للعرب حظ كبير فى الصناعة، وذلك لميلهم للبداوة وبعدهم عن العمـران الحضرى وما يدعـو إليه من الصنائع وغيرهـا، وهذا يرجع إلى احتقار البـدوى للصناعة واحترافها مع ميلهم للبساطة وسكنى الصحراء، إلا أنه وجدت بعض أنواع من الصناعات البسيطة وخاصة الحواضر كصناعة البناء ونسج الملابس، وكـان نساء العرب يشتغلن بالغزل، كذلك وجدت صناعة السلاح ودبغ الجلود وغيرها من الصناعات الضرورية لحياة الإنسان.

أما التجارة فقـد احتلت ركنا بارزا فى حياتهم، وخاصة سكان الحواضـر أمثال مكة ويثرب واليمن فى الجنوب، وقد اشتغل العرب بالتجارة الخارجية والداخلية.

أما التجارة الخارجية فقـد نشطت العلاقات بين الشام وبلاد الفرس وبين اليمن فى الجنوب، وكانت التجارة تشق طريقها عبر أراضى شبه الجـزيرة مارة بالمراكز التجارية وأهمها مكة، وقد أشار القرآن الكريم إلى رحلتين لـقريش إحداهما إلى الشام فى زمن الصـيف والأخرى لليمن فى زمن





الشتاء، وقد ذكر بعض المفسرين أن قريشا كانت لها أربع رحلات: الأولى لهاشم وكانت إلى الشام، والثانية لعبد شمس وكانت للحبشة، والثالثة لعبد المطلب وكانت لليمن، والرابعة لنوفل وكانت لبلاد فارس.

أما التجارة الداخلية فكانت تتمثل فى تلك الأسواق التى كان يقيمها العرب فى أنحاء متفرقة من شبه الجزيرة، وذلك لتبادل السلع وإنشاد الأشعار وتبادل الأخبار، وكانت أهم الصادرات الحيوانات وأصوافها والبن والتمر وأصناف البخور المختلفة. وأهم الواردات المنسوجات والسكر.

وقد ازدهرت التجارة فى مكة وخاصة بعد انهيار الحالة الاقتصادية باليمن نتيجة لانهيار سد مأرب مع وقوع مكة فى منتصف الطريق بين اليمن والشام، وأصبح للقرشيين صلات تجارية واسعة مع الشام مما عاد على أهل مكة بالأموال الطائلة.

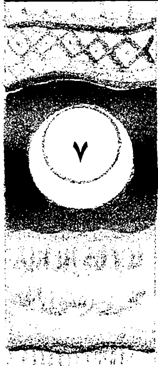
لفظ عرب

فى عصرنا الحاضر يطلق لفظة عرب على الشعوب المقيمة بين الفرات شرقا وحتى المحيط الأطلسى غربا، أما قبل الإسلام فهم سكان شبه جزيرة العرب، وقد وردت لفظة عرب فى النقوش الآشورية والبابلية بأشكال مختلفة، كما أن كلمة عرب وردت فى عدد من أسفار التوراة.

ولفظة عرب فى التاريخ القديم كانت ترادف لفظة بدو أو بادية، وكان ورودها لأول مرة بنفس هذا المدلول فى النقوش الآشورية التى ترجع إلى القرن التاسع قبل الميلاد، وقد اختلف المؤرخون فى تعليل تسميتهم بالعرب؛ فهناك رأى يشير إلى اتصافهم بين الأمم بالأعراب وهو البيان، وهناك رأى آخر يشير إلى انتسابهم إلى أبيهم يعرب بن قحطان أصل العرب العاربة، وأن يعرب أطلقها على بعض أقاليم تهامة، ومن ثم عممت على سكان شبه الجزيرة، فيما يرى بعض الباحثين أن اللفظة مشتقة من الكلمة العبرية «آرابا» وتعنى الأرض الداكنة أو المغطاة بالكلأ، وهذا التفسير يشير إلى الحياة الاجتماعية التى كان يحياها العرب والقائمة على التنقل والسعى إلى موارد العشب.

ومن ناحية أخرى فالعرب ينتمون إلى الجنس السامى نسبة إلى سام بن نوح ولغتهم هى اللغة العربية التى تعتبر إحدى اللغات السامية، وتسميتهم بالسامية ترجع إلى أزمنة قديمة، فقد جاء فى التوراة أنه كان لنوح ثلاثة أولاد منهم البشر بعد الطوفان وهم: سام وحام ويافث، وقد سكن الساميون وهم أحفاد سام فى الشرق الأوسط، وانقسموا بعد تكاثرهم إلى أقسام فرعية وقبائل، وقد اعتمد النسابون العرب على ما جاء فى التوراة وذكروا ذلك فى مؤلفاتهم مع بعض الإضافات.

اتجه كثير من المؤرخين إلى تقسيم تاريخ العرب قبل الإسلام إلى ثلاثة أقسام: العرب البائدة، والعرب العاربة، والعرب المستعربة.



أنساب العرب

العرب البائدة

وهى التى هلكت واندثرت قبل الإسلام وذلك نتيجة لبعض التأثيرات الجغرافية من رمال زاحفة وبراكين مدمرة وزلازل أتت على العمران والمدن القائمة.

وممن تحدث عنهم القرآن الكريم عاد قوم هود عليه السلام وكانوا يعيشون فى الأحقاف التى تقع فى الجنوب الشرقى لشبه الجزيرة العربية، وفيهم يقول الله تعالى فى كتابه العزيز ﴿**وَاذْكُرْ أَخَا عَادٍ إِذْ أَنذَرَ قَوْمَهُ بِالأَحْقَافِ وَقَدْ خَلَتِ النُّذُرُ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِ أَلاَّ تَعْبُدُوا إِلاَّ اللَّهَ إِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ** ﴿٢١﴾﴾ [الأحقاف].

كذلك ورد فى القرآن الكريم الحديث عن ثمود قوم صالح عليه السلام، وكانوا يعيشون فى الشمال الغربى لشبه الجزيرة العربية، ومما ورد عنهم فى القرآن الكريم:

﴿**وَإِلَىٰ ثَمُودَ أَخَاهُمْ صَالِحًا قَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُ هُوَ أَنشَأَكُم مِّنَ الأَرْضِ وَاسْتَعْمَرَكُمْ فِيهَا فَاسْتَغْفِرُوهُ ثُمَّ تُوبُوا إِلَيْهِ إِنَّ رَبِّي قَرِيبٌ مُّجِيبٌ** ﴿٦١﴾ **قَالُوا يَا صَالِحُ قَدْ كُنتَ فِينَا مَرْجُوًّا قَبْلَ هَٰذَا أَتَنْهَانَا أَن نَّعْبُدَ مَا يَعْبُدُ آبَاؤُنَا وَإِنَّنَا لَفِي شَكٍّ مِّمَّا تَدْعُونَا إِلَيْهِ مُرِيبٍ** ﴿٦٢﴾﴾ [هود].

وقد أباد الله عادا وثمود لتكذيبهم رسلهم وتطاولهم عليهم. يقول الله فى كتابه العزيز:
﴿**كَذَّبَتْ ثَمُودُ وَعَادٌ بِالْقَارِعَةِ** ﴿٤﴾ **فَأَمَّا ثَمُودُ فَأُهْلِكُوا بِالطَّاغِيَةِ** ﴿٥﴾ **وَأَمَّا عَادٌ فَأُهْلِكُوا بِرِيحٍ صَرْصَرٍ عَاتِيَةٍ** ﴿٦﴾ **سَخَّرَهَا عَلَيْهِمْ سَبْعَ لَيَالٍ وَثَمَانِيَةَ أَيَّامٍ حُسُومًا فَتَرَى الْقَوْمَ فِيهَا صَرْعَىٰ كَأَنَّهُمْ أَعْجَازُ نَخْلٍ خَاوِيَةٍ** ﴿٧﴾ **فَهَلْ تَرَىٰ لَهُم مِّنْ بَاقِيَةٍ** ﴿٨﴾﴾ [الحاقة].

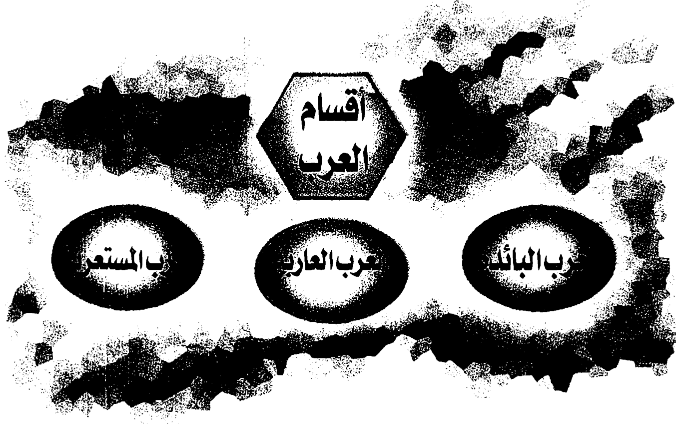
ومنهم أيضا قبيلة طسم وجديس اللذين كانا يسكنان اليمامة ولكنهم هلكوا واندثروا.

العرب العاربة

العرب العاربة أو القحطانية أو عرب الجنوب لأنهم اتخذوا جنوب بلاد العرب مقرا لهم، وقد يطلق عليهم أيضا اسم العرب اليمنية، كما يطلق عليهم أيضا اسم السبئية نسبة إلى أشهر دولها سبأ، وأكثر ما توصف به فى كتب مؤرخى العرب هو القحطانية نسبة إلى جدها الأول



قحطان، وهو قحطان به عابر بن شامخ بن أرفخشذ بن سام بن نوح عليه السلام، وقد أنجب قحطان عدة أبناء منهم يعرب الذى أنجب يشجب الذى أنجب حمير.



العرب المستعربة

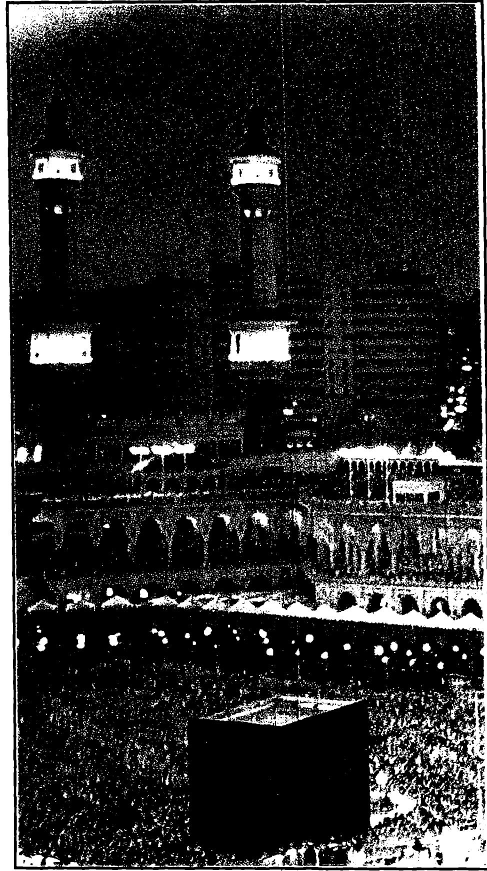
أو العدنانية أو عرب الشمال وهم من نسل إسماعيل بن إبراهيم، أما موطنهم ففى تهامة والحجاز ونجد وما وراء ذلك إلى مشارف الشام والعراق.

وأما عن مجىء سيدنا إسماعيل فتشير الرواية العربية إلى أن سيدنا إبراهيم ولد بالعراق فى مدينة أور الكلدانية لأب نجار كان يصنع الأصنام، فلما شب إبراهيم ساوره الشك فى أمر الأصنام، ومن ثم توجه إليها وحطمها وكان جزاؤه أن ألقى فى النار، فنجاه الله وارتحل إلى فلسطين ومعه زوجه سارة ومنها توجه إلى مصر، وهناك أهديت له جاريته هاجر التى ولدت له ابنه إسماعيل؛ ثم أنجبت زوجته الأولى سارة إسحاق وحدث تنافس بين الزوجتين مما اضطر معه إبراهيم إلى نقل زوجته هاجر وابنها إسماعيل إلى مكة. وقيل إن الله أمره بذلك حيث ترك هاجر وابنها إسماعيل فى هذا المكان القفر الذى لا زرع فيه ولا ضرع وليس معها سوى القليل من الزاد والماء، وقد فزعت هاجر وقالت لإبراهيم: إلى أين أنت ذاهب وتاركنا فى هذا الوادى؟ فلم يجبها فسألته: آلله أمرك بهذا؟ قال: نعم، قالت: إذن لن يضيعنا، وبعد نفاد الماء، جرت هاجر باحثة عن الماء وترددت بين الصفا والمروة سبع مرات حتى تفجر الماء تحت قدمى إسماعيل، وقد حاولت منعه من التسرب وقالت: زم زم فسميت زمزم.



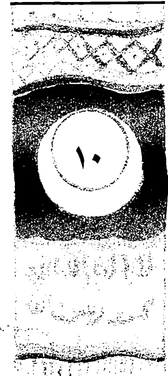
تسببت بئر زمزم وتوافر المياه فى مجىء القبائل إلى الإقامة فى المنطقة وخاصة قبيلة جرهم ومنهم تزوج إسماعيل، وقد عاد سيدنا إبراهيم إلى المنطقة مرة أخرى حيث رفع هو وابنه إسماعيل قواعد البيت الحرام، يقول الله تعالى فى كتابه العزيز :

﴿وَإِذْ يَرْفَعُ إِبْرَاهِيمُ الْقَوَاعِدَ مِنَ الْبَيْتِ
وَإِسْمَاعِيلُ رَبَّنَا تَقَبَّلْ مِنَّا إِنَّكَ أَنتَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ
(١٢٧) رَبَّنَا وَاجْعَلْنَا مُسْلِمَيْنِ لَكَ وَمِن ذُرِّيَّتِنَا أُمَّةً مُّسْلِمَةً
لَّكَ وَأَرِنَا مَنَاسِكَنَا وَتُبْ عَلَيْنَا إِنَّكَ أَنتَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ
(١٢٨) رَبَّنَا وَابْعَثْ فِيهِمْ رَسُولاً مِّنْهُمْ يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِكَ
وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَيُزَكِّيهِمْ إِنَّكَ أَنتَ الْعَزِيزُ
الْحَكِيمُ (١٢٩)﴾ [البقرة].



بيت الله الحرام قبلة المسلمين يحجون إليه فى كل عام

مدائن صالح



ثم دعا سيدنا إبراهيم الناس بعد بناء الكعبة المشرفة إلى الحج، يقول الله فى محكم التنزيل:

﴿ وَأَذِّن فِي النَّاسِ بِالْحَجِّ يَأْتُوكَ رِجَالاً وَعَلَىٰ كُلِّ ضَامِرٍ يَأْتِينَ مِن كُلِّ فَجٍّ عَمِيقٍ ﴿٢٧﴾ لِيَشْهَدُوا مَنَافِعَ لَهُمْ وَيَذْكُرُوا اسْمَ اللَّهِ فِي أَيَّامٍ مَّعْلُومَاتٍ عَلَىٰ مَا رَزَقَهُم مِّنْ بَهِيمَةِ الأَنْعَامِ فَكُلُوا مِنْهَا وَأَطْعِمُوا الْبَائِسَ الْفَقِيرَ ﴿٢٨﴾ ثُمَّ لْيَقْضُوا تَفَثَهُمْ وَلْيُوفُوا نُذُورَهُمْ وَلْيَطَّوَّفُوا بِالْبَيْتِ الْعَتِيقِ ﴿٢٩﴾ ﴾ [الحج].

وبهذا قامت مدينة مكة المقدسة التى يعظمها المسلمون جميعا ويحنون إلى زيارتها والطواف حول بيتها المقدس.

ولم يزل أبناء إسماعيل بمكة يتناسلون ومن نسله عدنان وولده معد ثم ابنه نزار، وقد أنجب نزار أربعة أبناء تزعموا أربعة قبائل كبيرة هم: أياد وأنمار وربيعة ومضر.

ويهمنا هنا أن نشير إلى مضر وكانوا أهل الكثرة والغلب فى الحجاز، وكانت لهم الرياسة بمكة، وكان أولاده فى الجاهلية أشرف العرب، وزاد من شرفهم انتساب النبى ﷺ لهم، ومن نسل إلياس بن مضر كنانة ومن كنانة قريش وهم أولاد مضر بن مالك بن النضر بن كنانة، وهذا بدوره أنجب كثيرا من الأبناء، ويهمنا أن نذكر منهم عبد مناف وقد أنجب هاشما الذى أنجب عبد المطلب جد النبى ﷺ.

وقد هاجر كثير من أولاد عدنان إلى مناطق متفرقة جريا وراء العيش ومنابت العشب، فهاجرت عبد القيس من بطون ربيعة إلى البحرين، وخرجت بنو حنيفة إلى اليمامة، وسكنت ثقيف بالطائف وهوازن فى مكة.

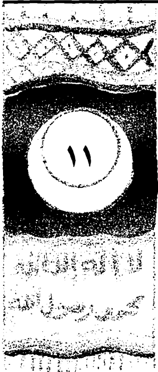
وقد دخل عرب الجنوب والشمال فى الإسلام مشاركين فى الفتوحات الإسلامية وإرساء قواعد الحضارة الإسلامية فى أنحاء متفرقة من الأرض،وبرغم أن الشعب العربى بقسميه الجنوبى والشمالى عاشا فى شبه الجزيرة، إلا أنه وجدت بينهما بعض الفروق منها:

١ - النواحى المعيشية:

فبينما كان أهل الجنوب يميلون إلى الاستقرار حيث اشتغلوا بالزراعة باليمن والمناطق الجنوبية، وساهموا فى تأسيس لون من ألوان الحضارة؛ نجد أن عرب الشمال كانوا أهل خيام ورحلة وغزو لا يستقرون فى مكان لأن معاشهم من كسب الإبل والقيام عليها.

٢ - من حيث اللغة:

وبالرغم من أن لغة الجنوب والشمال تنتميان إلى اللغة السامية إلا أن لغة الجنوب التى أطلق عليها لغة حمير كانت تختلف عن لغة الشمال فى الإعراب وفى الضمائر وفى كثير من أحوال الاشتقاق والتصريف.



٣ - الأديان:

يشتـرك عرب الجنوب والشمـال فى كثير من ضـروب العبادة وفى عـبادة الأصنام إلا أنهمـا يختلفان؛ فـآلهة اليمن أقرب إلى مـعبودات البـابليين وعندهم عشتار وبعل وغيـرها، أما عرب الشمال فيشتركـون فى عبادات تختلف عن تلك كاللات والعزى ومناة وهبل.

٤ - الأسماء:

انفرد كل قسم من قسمى العرب بأسماء تخـالف الآخر فبينما كانت أسماء اليمنييـن فى الدولتين المعينية والسـبئية تشبـه أسماء الدولة الحمـورابية أو البابلية كـأسماء أب يدع واليفع ومعدى كرب، بينما فى الشمال اختاروا أسماء تتفق مع البداوة من أمثال: أسد ونمر وثعلبة وكلب، كذلك اتخذوا أسماء تنتسب إلى آلهتهم كعبد اللات وعبد العزى.

٥ - الصفات الجسمية:

فبـينما أهل الجنوب يميلون إلى السـواد وتشبه وجوههم أهل الحـبشة والصومـال، أما أهل الشمال فتتضح فى وجوههم الصفات السامية؛ فالبدوى أسمر اللون ممدود الوجه كبير الرأس طويل القامة.

المجتمع المكى قبيل الإسلام

نتحـدث عن مكة الموطن الأول للنبى ﷺ؛ فيه ولد ونشـأ وفيه تلقى رسالة الإسـلام ودعا قومـه وفيه صـبر وقاوم عناد أهل مكة ومن حـولها حتى اضطـروه إلى الهجرة إلى يثـرب موطنه الثانى.

تقع مكة فى واد منحـصر بين الجبـال تصله بالخارج عـدة طرق تتجه نحـو الشمـال ونحو الجنوب، ويبـدو أن هذا المكان بدأ كمحطـة للقوافل، يضربون فـيه الخـيام للراحـة وذلك قبل أن يواصلوا رحلتهم إلـى الشمال أو الجنوب، أمـا مناخها فهـو قارى أى شديد الحـرارة صيفـا شديد البرودة شتاء مع قلة فى سقوط الأمطار؛ لذا كانت المياه شـحيحة، واعتمد الناس فى شربهم على مياه الآبار، فإذا ما سقطت الأمطار فإنها تكون غزيـرة وتتجمع حتى تصبح سيولا تتدفق من فوق الجبال وتكتسح ما يقابلها.

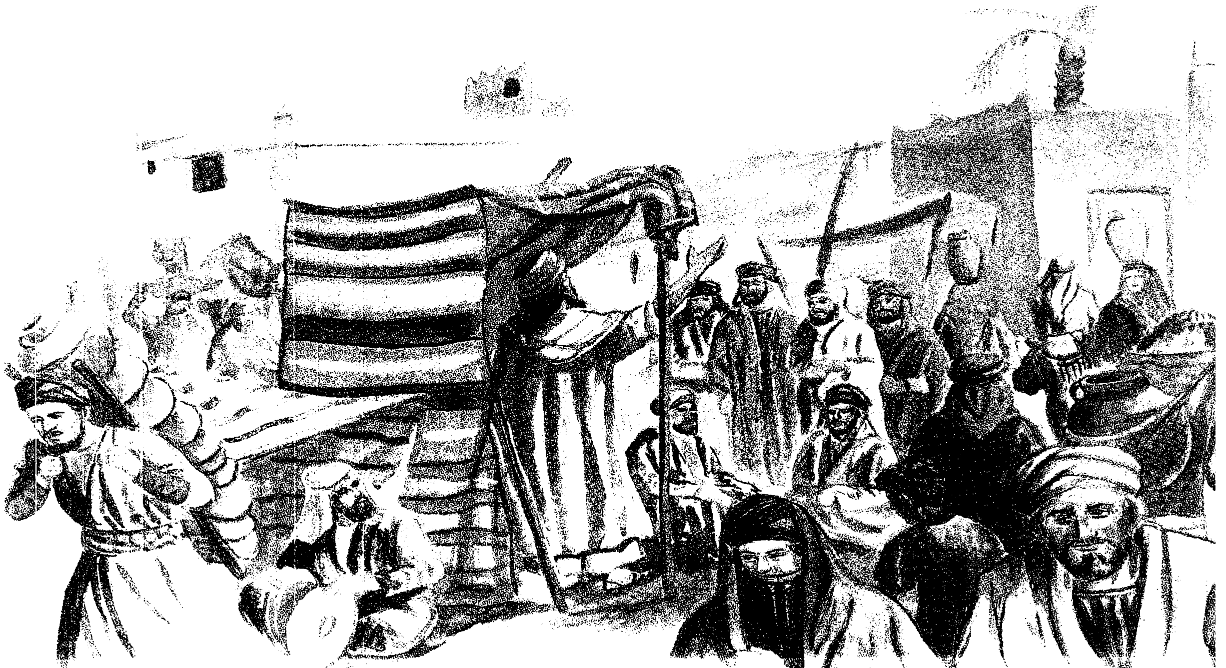


وقبل أن نتناول تاريخـها السيـاسى، نلقى الضوء على حيـاتها الاقتـصادية والاجتماعية باعـتبار أن العوامل السياسية والاقتصادية والاجـتماعية شكلت تاريخ مكة، ذلك التاريخ الذى واجـهه النبى ﷺ وغيّـره بالإسلام، ومن ناحيـة أخرى فمدينة مكة وحياتها صورة للحياة العربية قبل الإسلام.

اشتـغل أهل مكة بالتجارة نظرا لـلظروف الطبيعـية التى كانت تحـياها مكة باعتبار موقعها، ونظرا لقلة الأمطار مما تعـذر معه قيام الزراعة؛ لذا اتجه أهلها إلى التجـارة، وكانت تجـارتهم متنوعة، فـمنهم تاجر الحـبوب وتاجـر الملابس وتاجر الأسلحة وغيرها من أنواع المتاجر.

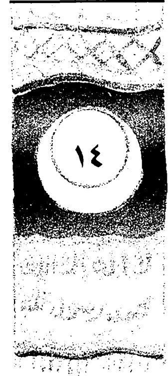
وقـد ازدهرت التجـارة فى مكة فى القـرن السادس الميـلادى، وذلك بعد تدهور الأحـوال الاقتصادية فى اليمن نتيجة الصراع على السلطة من ناحية وبين اليهود والمسيحيين من جهة أخرى، يضاف إلى ذلك أن منطقـة الشمال أى الشـام شهدت اضطرابات مسـتمرة وعدم اسـتقرار نتيـجة الصراع المسلح الذى دار على أرض الشـام بين الفرس من ناحية والرومان من ناحـية أخرى، هذه الأوضاع المضطربة فـى الجنوب وفى الشمال زادت من أهمـية مكة كـمركز تجـارى مسـتقر لجلب البضائع وتصريفها.

وقد اشتغل بالتـجارة الرجال، وفى بعض الأحيان كانت النساء تصرف أمـوالها فى التجارة عن طريق استخدام ذوى الخبـرة من التجار فى البيع والشراء، وكان أصحاب الـتجارة يسيرون مع القافلة أو يرسلون شريكا لهم أو أجيرا أو عبدا. على أن القوافل كانت تنظم بصورة جماعية فيعين لها رئيس وحراس وأدلاء وأناس يعملون فيها بجانب بعض التجار الذين يرافقونها.





سوق عكاظ



وحتى تأمن القافلة فى طريقها، كانت تعقد اتفاقيات مع رؤساء القبائل التى تجتازها القافلة، وبذلك يضمنون سلامة القافلة.

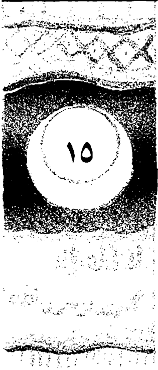
وبجانب تجارة القوافل، كانت هناك الأسواق حيث تعرض فيها البضائع المختلفة، ومن أشهر هذه الأسواق بمكة سوق ذى المجنة القريب منها وسوق عكاظ، وهذه الأسواق جعلت من مكة مقصدا للتجار من جنسيات مختلفة من الشام وبلاد فارس ومصر وغيرها من المناطق المحيطة بشبه الجزيرة.

وقد اتخذ بعض هؤلاء التجار مستودعات لمتاجرهم بمكة يجلبون إليها مختلف البضائع ويصرفونها فى أسواق مكة، ومن ذلك أن تجار الشام كانوا يجلبون القمح والزيوت والخمر إلى تجار مكة، كما أن مكة صارت مركزا للصيرفة بحيث يستطيع التجار دفع أثمان السلع التى ترسل إلى بلاد بعيدة، كما كانت عملية الشحن والتفريغ لهذه التجارة الدولية تتم هناك، وكذلك كان يتم التأمين على المتاجر وهى تجتاز الطرق المحفوفة بالمخاطر.

وكانت مكة البوتقة التى انصهرت فيها الثقافات واللهجات المختلفة، وبالرغم من أن التعليم لم يكن منتشرا فى شبه الجزيرة نتيجة عدم ميل العرب إلى تلقى العلوم وأسلوب حياتهم البدوى الذى كان يحتم عليهم الانتقال من مكان إلى آخر مع استمرار الحروب بينهم؛ إلا أن هذا لم يمنع شبه الجزيرة من أن تتأثر ببعض الثقافات الخارجية نتيجة للعلاقات التجارية التى كانت تربط أنحاء شبه الجزيرة ببلاد فارس والروم، بالإضافة إلى وجود بعض الجنسيات غير العربية التى كانت تعيش فى مدن الحجاز كالأحباش فى مكة، كذلك تسربت بعض المؤثرات الفارسية عن طريق الحيرة إلى داخل شبه الجزيرة، كما تسربت بعض الألفاظ الرومية عن طريق غساسنة الشام إلى داخل شبه الجزيرة، وقد تجلى تأثر لغة العرب بالحضارات السابقة فى تلك الألفاظ المتنوعة، فمنها ما أصله حبشى كرهبان وحواريون ومنبر، ومنها ما أصله فارسى كالفرند والفردوس وسجيل وغيرها، ومنها ما أصله رومى كلفظة كنيسة وبيعة وغيرها من الألفاظ.

وكانت اللغة العربية هى اللغة المستعملة وهى إحدى اللغات السامية، وقد انتشرت اللغة العربية عن طريق القبائل النازحة من الجنوب ومنها قبيلة جرهم التى أقامت بمكة، كما لعب الشعراء دورا كبيرا فى رسم صورة لحياة العرب إذ كان شعرهم سجلا دقيقا يذكر فيه الشاعر أمجاد قبيلته وفعالها وأنسابها وأيامها المشهورة، وكانت القبيلة تعد نفسها ذات حظ عظيم إذا هى رزقت شاعرا يدافع عنها فى المجامع ويذكر أمجادها ويعدد فخارها، بجانب ذلك كان الشاعر له أثره الكبير فى رفع شأن القبيلة أو خفضها.

وكانت للعرب أسواق عامة يجتمعون فيها لتبادل الأخبار وإنشاد الأشعار ومبادلة متاجرهم، ومن هذه الأسواق عكاظ وسوق ذى المجنة وذى المجاز، وهذه الأسواق على بساطتها إلا أنها كانت أشبه بالمهرجان الأدبى الذى يتبارى فيها الشعراء، فإذا ما فازت قصيدة من القصائد كتبت



بحروف من ذهب وعلقت على الكعبة تكريما لها ولقائلها ولتحفظها الأجيال بعد ذلك.

وقد برع العرب فى بعض العلوم المتصلة ببيئتهم وحاجتهم اليومية، فحاجتهم إلى المطر أكسبتهم ملاحظة الجو وتغيراته وما تنبئ عنه تلك التغيرات بقرب المطر أو الإنذار بالجدب، وحاجتهم إلى الإبل أكسبتهم معرفة طبائع الإبل وكيفية معالجتها ومداواتها، ونتيجة معيشتهم فى الصحراء برعوا فى علم القيافة أى علم الأثر، وذلك بمعرفة آثار الأقدام وأثر الماشى فى الصحراء.

وقد تمتعت مكة بمكانة دينية ممتازة بين العرب؛ وذلك لوجود الكعبة والأصنام فى ساحتها، تلك الأصنام التى كان يقدسها العرب ويطوفون حولها. وكان عامة العرب بعد إسماعيل على دين إبراهيم عليه السلام تعبد الله وحده ولا تشرك به شيئا، وبتقادم العهد تسربت طقوس وثنية إلى شبه الجزيرة العربية، وذلك أن العرب كانوا يقدسون الكعبة ويحترمونها؛ وكان العرب كما نعلم يرحلون كثيرا فى تجاراتهم فاضطر بعضهم إلى أخذ قطعة من حجارة الكعبة تبركا بها وتعظيما لها، وبذلك تسرب إلى العرب تعظيم الحجارة، فلما سار عمرو بن لحى الخزاعى إلى بلاد الشام ورأى أهلها يعظمون التماثيل أعجبته الفكرة وأخذ بعض التماثيل ووضعها حول الكعبة باعتباره حارس الكعبة وخادمها، ثم تطور الأمر فصاروا يصنعون التماثيل لعظمائهم ويضعونها فى الكعبة؛ ويجدر بنا أن نشير إلى بعض المصطلحات المتعلقة بالأصنام.

أما **الصنم** فهو على صورة إنسان من معدن أو خشب، وأما **الوثن** فكان على شكل إنسان من الحجر، وأما **النصب** فهو حجر غفل ليس على صورة معينة، وأما أهم الأصنام التى عبدتها العرب فهى:

١ ـ هبل وهو أعظم أصنام قريش، وكان على بئر فى جوف الكعبة تجمع فيه الهدايا، وكان هبل من عقيق أحمر على صورة إنسان مكسور اليد فجعلت يده من ذهب، وكان حجاج قريش يطوفون حوله ويحلقون رءوسهم ويلبون عنده.

٢ ـ إساف ونائلة وهما صنمان على الصفا والمروة وكان عبادهما من خزاعة وقريش ومن حج البيت من العرب.

٣ ـ العزى، وهى من الآلهة التى عبدها أهل مكة وكانوا يقسمون بها وتعتبر العزى من أعظم الأصنام عند قريش.

٤ ـ اللات وموقعها على مقربة من الطائف، وكان أهلها يحجون إليها ويقدمون لها القرابين، وقد حرم العرب أن تقتلع أشجار أو يصطاد حيوان بجوارها وفى حماها.

٥ ـ مناة وكانت إلهة القضاء والقدر، وهى عبارة عن صخرة سوداء على ساحل البحر، وكانت الأزد وغسان يحجون إليها ويعظمونها.



وبجانب هذه الأصنام كـانت هناك أصنام أخرى عـبدها العرب وقـدسوها ومنها: ود وسواع ويغوث ويعوق ونسر.

ولم تكن الوثنية مقصورة علـى عبادة الأصنام، وإنما اتخذت مظاهر أخرى منها عبادة بعض العرب لبعض مظاهر الطبيعة كعبادة الأشجار، ومن هذه الأشجار ذات أنواط وهى شجرة عظيمـة خضراء يأتونها كل عام فيعلقون عليـها أسلحتهم ويذبحون عندها ويقيمون عندها يوما؛ وكان فى بيت العزى ثلاث شجرات كانت تعلق عليه الهدايا، ويلاحظ أن مكان الأشجار كان عند الينابيع والأماكن الخصبة.

وبجانب عـبادة الأصنام وتقـديسها كـانت هناك طوائف مسـيحيـة وأخرى يهودية، وقد اعتـنقت بعض القبائل العربية المسيـحية نتيجة للبـعثات التبشيرية الـقادمة من العراق والحبشـة واستطاعت أن تنشئ لها بعض الكنائس كما حـدث باليمن وقد اعتنقت المسيـحية بعض القبائل العربية كقبائل تغلب وغسان وطيئ وبكر.

وكان اعـتناق هذه القبائل الدين المسيـحى أمرا طبيـعيا وذلك بحكم جوارها بالشـام حيث موطن المسيـحية؛ إلا أن المسيـحية لم تكن راسخـة الأقدام، وذلك لأن مبادئها ومـا تدعو له من السلام والموادعة تتـنافى مع طبيعة البدوى الـتى جبلت على الحرب والشدة والقـسوة، يضاف إلى ذلك الانقسامات المذهبية التى كانت تعانى منها المسـيحية فى ذلك الوقت مما صرف جهد المبشرين عن نشرها داخل شبه الجزيرة.

وكانت اليـهودية أكثر حظـا من المسيحيـة إذ جاءت موجـات من اليهود إلى شبـه الجزيرة، وأقاموا فى بعض الواحات الحجـازية، كفدك وتيماء ووداى القرى وخيبر ويثـرب كما انتشروا فى اليمن واليمامة والبحرين، ويكاد يجمع المؤرخون المحدثون على أن اليهود جاءوا إلى جزيرة العرب مهاجـرين من فلسطين عندما ساءت أحوالهم الاقـتصادية، وقد اصطبغ اليـهود بالصبغـة العربية، فعلى الرغم من كثرة عددهم كانوا يتكلمون العربية واتخذوا أسماء عربية.

قام أبناء إسمـاعيل والجراهمة بسدانة الـبيت وحراسته حـتى جاءت قبيلة خزاعـة من قبائل الجنوب فى القرن الثانى الميلادى وأقاموا بمكة، وبعد فترة من الوقت استطاعوا أن يرغموا الجراهمة على الرحيل من مكة ويتولوا هم خـدمة الكعبة ما يقرب من مائتى سنـة حتى استطاع قصى وهو من نسل إسماعيل وبمعاونة إخوته وعشيرته أن ينتزع السيادة من قبيلة خزاعة ويرجعها إلى قريش.



القسم الثانى
الرسول ﷺ: المولد والنشأة

نسب الرسول:

ينتسب الرسول الكريم صلوات الله وسلامه عليه إلى أعرق الأسر القرشية نسبا وأصلا فهو: محمد بن عبد الله بن عبد المطلب بن هاشم بن عبد مناف بن قصى، وقد جمع أجداده من كريم الخصال وحميد الفعال ما جعل الأسرة تحتل مكانا مرموقا بين الأسر القرشية، ويجدر بنا أن نتعرض لبعض الأخبار المتعلقة بأجداد النبى ﷺ.

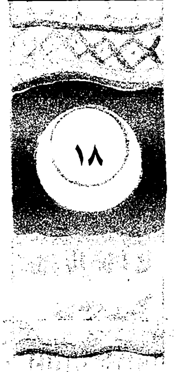
قصى:

واسمه زيد، وإنما أطلق عليه قصى لأنه كان بعيدا عن بلده مكة فى صحبة والدته بالشام وظل هناك حتى صار شابا وعاد إلى مكة، واستطاع بما أوتى من شجاعة ورجاحة أن يصبح سيدا لأهل مكة مرموق المكانة معترفا له بالفضل. يقول ابن إسحاق: «فولى قصى البيت وأمر مكة، وجمع قومه من منازلهم إلى مكة، وتملك على قومه وأهل مكة فملّكوه.. فكان قصى أول بنى كعب بن لؤى أصاب ملكا أطاع له به قومه فكانت إليه الحجابة (أى حجابة الكعبة) والسقاية (يعنى سقاية زمزم) والرفادة - أى (إطعام الحجيج) والندوة (الاجتماع للمشورة) واللواء (راية الحرب) فحاز شرف مكة كله، وقطّع مكة رباعا بين قومه فأنزل كل قوم من قريش منازلهم من مكة التى أصبحوا عليها».

وقد استطاع قصى أن يخطو خطوات واسعة نحو إنشاء إدارة منظمة بمكة بما أدخله من إصلاحات؛ من أهمها أنه جمع أبناء قريش وجعل لكل بطن حيا خاصا على مقربة من الكعبة، كذلك ابتنى قصرا جعل بابه يؤدى إلى الكعبة مباشرة، وكان هذا القصر يسمى دار الندوة يتولى رياسته قصى، ومن اختصاصاته بحث الشئون المتعلقة بالتجارة والحرب والشئون الدينية، ولم يكن يدخل دار الندوة إلا أبناء قصى وممن تجاوز الأربعين من قريش وذلك للتشاور.

وقد استطاع قصى بما استنه من تنظيمات أن يؤمن حجاج البيت وأن يوفر الطعام والماء وكل ما يلزم حجاج البيت.

وقد أنجب قصى أبناء منهم عبد مناف بن قصى، وهذا بدوره أنجب هاشم بن عبد مناف بن قصى.



هاشم:

واسمه عمرو، وإنما قيل له هاشم لأنه أول من هشَّم الثريد لقومه بمكة وأطعمه. وقد اصطلحت قريش على أن يتولى هاشم بن عبد مناف السقاية والرفادة، فجمعت إليه الرياسة على قريش فكان يطعم بمكة ومنى وعرفة، ويأمر بحياض من أدم فتجعل فى موضع زمزم ثم يسقى فيها من الآبار التى بمكة، ولا يزال يعمل هذا وذاك حتى يتفرق الناس إلى بلادهم، وقد ذكر ابن إسحاق أن هاشما هو أول من سيّر الرحلتين لقريش: رحلتى الشتاء والصيف.

عبد المطلب:

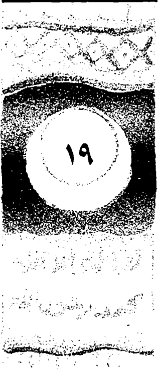
واسمه شيبة وكان والده هاشم قد قدم يثرب فتزوج سلمى بنت عمرو من بنى عدى بن النجار فولدت له شيبة حتى إذا صار شابا توجه عمه المطلب إلى يثرب وأحضره إلى مكة وأردفه وراءه على بعيره فلما دخل مكة قالت قريش: عبد المطلب ابتاعه فبها سمى شيبة: عبد المطلب فقال المطلب: ويحكم إنما هو ابن أخى هاشم قدمت به من يثرب.

ثم صارت السيادة والرئاسة لعبد المطلب فكان يتولى السقاية والرفادة، وشرف فى قومه شرفا لم يبلغه أحد من آبائه وأحبه قومه وعظم خطره فيهم.

ومن **أبرز الأحداث** فى عهد عبد المطلب هو كشفه عن بئر زمزم وما فيها من كنوز، وكانت جرهم قد دفنتها فى هذا المكان حين رحيلهم عن مكة، وبفعل الرياح والأعاصير ردم هذا المكان حتى تولى عبد المطلب الرئاسة فى قومه، فبدأ البحث والتنقيب حتى أزال الأتربة والحجارة عن بئر زمزم واستخرج منها المجوهرات وغيرها. يقول الطبرى: «وهو الذى كشف عن زمزم بئر إسماعيل ابن إبراهيم واستخرج ما كان فيها مدفونا وذلك غزالان من ذهب كانت جرهم دفنتهما ـ فيما ذكر ـ حين أخرجت من مكة. وأسياف وأدراع، فجعل الأسياف بابا للكعبة، وضرب فى الباب الغزالين صفائح من ذهب فكان أول ذهب حليت به الكعبة.

ولا شك أن هذا العمل زاد من مكانة عبد المطلب، ليس فى مكة وحدها، وإنما بين القبائل التى تقصد مكة للحج وتقديم القرابين للأصنام والسقاية من بئر زمزم.

وهناك **حادثة أخرى** هامة فى حياة عبد المطلب وهى ترتبط ارتباطا وثيقا بابنه عبد الله والد النبى ﷺ، هذه الحادثة هى نذر أحد أبنائه وتقديمه قربانا للأصنام إذا رزق بعشرة أبناء، وشاء الله أن يتم أولاده عشرا وعرف أنهم سيمنعونه فجمعهم ثم أخبرهم بنذره ودعاهم إلى الوفاء بهذا النذر وسألوه عن كيفية ذلك؟ وكانت الطريقة أن يكتب كل ابن اسمه على قدح وعند الكعبة طلب عبد المطلب من صاحب القداح أن يضرب على بنيه بهذه السهام، وتمت عملية الاقتراع



وخرجت القـداح من نصيب ابنه عـبد الله، وشرع عـبد المطلب فى تنفـيذ النذر وذلك بذبح عبد الله وتـصدى له زعماء مكة ورجالات قـريش ومنعوه من ذلك، وكان الـسبـيل للخروج من هذا المأزق هو التـوجه إلى عـرافة فى خـيبـر وهناك أخبروها بقصة النذر ووقوعه على عبد الله فأخبرتهم بأن يضربوا القداح على عبد الله وعلى الدية وهى عشـرة من الإبل، فإن خرجت القداح على عـبد الله فليزد دية أخرى عـشرة من الإبل وهكذا حتى تخرج القـداح على الإبل، وعاد الركب إلى مكة وأجريت عـملية الاقـتراع مرة أخـرى على عبد الله والإبـل حتى بلغت الإبل مائة واستوثق عبد المطلب من خروج القداح على الإبل ومن ثم نحرها ونجا عبد اللهمن الذبح.

كذلك شهدت مكة **حادثة أخرى** هامة فى عهـد عبد المطلب وهى محـاولة أبرهة الحبشى مهـاجمة مكة وهدم الكعـبة بسبب أن أعـرابيا دخل كنيسـة كان بناها أبرهة فى اليـمن لينافس بها الكعبة فى مكانتها، إلا أن هذا الأعرابى دخل الكنيسة ولطخها بالقاذورات، فأقسم أبرهة ليحطمن الكعبة، وجهز جيشا ضخما تتقدمه مجموعة من الفيلة لمهاجمة مكة.

سار أبرهة بجـيشه حتى وصل قـريبا من مكة وهناك استولى على إبل أهل مكـة واستدعى أبرهة عبد المطلب زعيم مكة الذى حضر إليه ثم سأله أبرهة عن حاجته فقال عبد المطلب: حاجتى أن يرد الملك مائتى بعير أصابها لى، فقـال أبرهة: كنت أعجبتنى حين رأيتك ثم زهدت فيك حين كلمتنى؛ أتكلمنى فى مائتى بعيـر أصبتها لك وتترك بيتا هو دينك ودين آبـائك قد جئت لهدمه لا تكلمنى فيه؟! فقال له عبد المطلب: إنى أنا رب الإبل وإن للبيت ربا سيمنعه. قال: ما كان ليمتنع منى، قال: أنت وذاك.

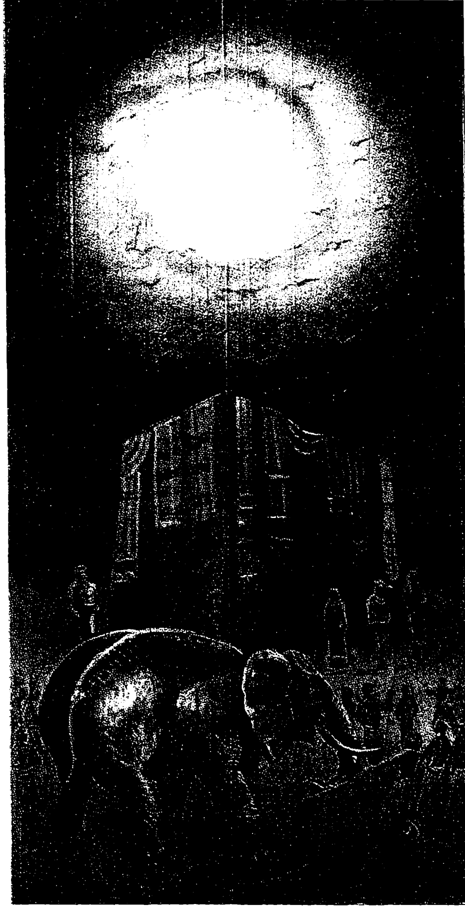
وعاد عـبد المطلب إلى قريش وأخـبرهم بما دار بينه وبين أبرهة، وأمـرهم بالخروج من مكة والتحصن بشـعاب الجبال، ثم قام عبد المطلب وأخـذ بحلقة باب الكعبة وقام معـه نفر من قريش يدعون الله ويستنصرونه على أبرهة وجنده فقال عبد المطلب وهو آخذ بحلقة باب الكعبة.

لا هُـمّ إن العــبــد يمـنع رحلـه فــامنع حِــلالـك
لا يــغـلــبنّ صـليــبـهم لا يــغـلـبنّ صـليـبـهم

وخرج عبدالمطلب ومن معه إلى الجبال المحيطة بمـكة، وشرع أبرهة ومعه الفيلة فى مهاجمة مكة إلا أن الفيلة لم تـتحرك من مكانهـا برغم إيذائها وضربهـا إلا أنها توقفت عن الهـجوم على البيت الحرام، وهنا أرسل الله عليهم طيرا أمثـال الخطاطيف مع كل طائر منها ثلاثة أحجار، حجر فى منقاره وحجران فى رجليه أمثال الحمص والعدس لا تصيب أحدا منهم إلا هلك، فهلك معظم



الجيش ومن نجا منهم هرب عائدا إلى اليمن، وخرجوا يتساقطون بكل طريق، وأصيب أبرهة فى جسده وخرجوا به معهم يسقط أنملة أنملة حتى قدموا به صنعاء وهو مثل فرخ طائر فما مات حتى انصدع صدره عن قلبه. وقد أشار القرآن الكريم إلى هذه الحادثة وبين فضل الله على أهل مكة بقوله تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِأَصْحَابِ الْفِيلِ ﴿١﴾ أَلَمْ يَجْعَلْ كَيْدَهُمْ فِي تَضْلِيلٍ ﴿٢﴾ وَأَرْسَلَ عَلَيْهِمْ طَيْرًا أَبَابِيلَ ﴿٣﴾ تَرْمِيهِم بِحِجَارَةٍ مِّن سِجِّيلٍ ﴿٤﴾ فَجَعَلَهُمْ كَعَصْفٍ مَّأْكُولٍ ﴿٥﴾﴾ [الفيل].



وقد ترتب على هذه الحادثة نجاة الكعبة من المعتدين أن زاد إعظام العرب لقريش وقالوا: هم أهل الله، قاتل الله عنهم وكفاهم العدو، وازدادوا تعظيما للبيت وإيمانا بمكانته عند الله، وقد وقعت هذه الحادثة فى العام الذى ولد فيه النبى ﷺ.

ثم زوج عبد المطلب ابنه عبد الله من آمنة بنت وهب وهى من عشيرة زهرة القرشية. يقول ابن إسحاق: «فخرج به عبد المطلب حتى أتى به وهب بن عبد مناف بن زهرة بن كلاب بن مرة بن كعب بن لؤى بن غالب بن فهر، وهو يومئذ سيد بنى زهرة نسبا وشرفا فزوجه ابنته آمنة بنت وهب وهى يومئذ أفضل امرأة فى قريش نسبا وموضعا».

إلا أن عبد الله لم يهنأ طويلا بزواجه إذ خرج فى تجارة إلى الشام، وحين عودته ألم به مرض فى يثرب ثم أدركه الموت وكانت زوجه آمنة حاملا فى رسول الله ﷺ.

مولده ونشأته

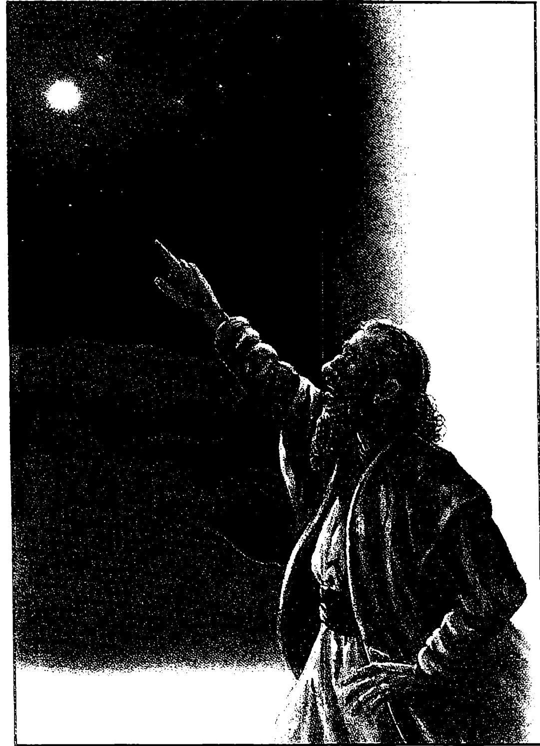
ولد رسول الله ﷺ يوم الإثنين لاثنتى عشرة ليلة خلت من شهر ربيع الأول عام الفيل.

وقد تنبأ اليهود بمولد الرسول الكريم فى يثرب. روى عن حسان بن ثابت قال: والله إنى لغلام يفعة - أى القوى - ابن سبع سنين أو ثمان أعقل كل ما سمعت، إذ سمعت يهوديا يصرخ



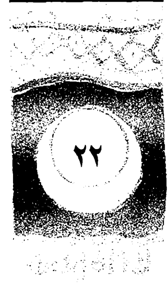
بأعلى صوته على أطمة ـ كل حصن مبنى بحجارة ـ بيثرب: يا معشر يهود، حتى إذا اجتمعوا إليه، قالوا له: ويلك ما لك؟ قال: طلع الليلة نجم أحمد الذى ولد به.

وبعد أن وضعته أمه، أرسلت إلى جده عبد المطلب تخبره بالنبأ السعيد، وقابل الجد الحزين على فراق ابنه عبد الله ذلك النبأ بالفرح والاستبشار ولقبه باسم محمد، ولم يكن هذا الاسم منتشرا بين العرب، وذلك لميلهم فى اختيار أسماء أبنائهم مناسبتها للبيئة من أمثال صخر وغير ذلك من الأسماء، وربما كان اختياره لهذا اللقب لإحساسه الداخلى بما سيصير لهذا المولود من شأن. يقول ابن إسحاق: «فلما وضعته أمه ﷺ أرسلت إلى جده عبد المطلب: أنه قد ولد لك غلام فأته فانظر إليه، فأتاه فنظر إليه وحدّثته بما رأت حين حملت به وما قيل لها فيه. وما أمرت به أن تسميه فيزعمون أن عبد المطلب أخذه فدخل به الكعبة، فقام يدعو الله ويشكر له ما أعطاه ثم خرج به إلى أمه فدفعه إليها.



ويروى أن عبد المطلب إنما سماه محمدا لرؤيا رآها، زعموا أنه رأى فى منامه كأن سلسلة من فضة خرجت من ظهره لها طرف فى السماء وطرف فى الأرض وطرف فى المشرق وطرف فى المغرب، ثم عادت كأنها شجرة على كل ورقة منها نور، وإذا أهل المشرق والمغرب يتعلقون بها، فقصها؛ فعبرت له بمولود يكون من صلبه يتبعه أهل المشرق والمغرب ويحمده أهل السماء والأرض فلذلك سماه محمدا.

وقد جرت عادة العرب سكان الحواضر على إرسال أطفالهم إلى الصحراء حرصا منهم على تلقين أبنائهم أساليب الفصاحة والبلاغة، وخاصة أن مكة قد كثرت فيها الوفود التجارية وأبناء الدول الأخرى مما يخشى منه العجمة على ألسنة الصغار، وقد أقبلت حليمة بنت أبى ذؤيب من بنى سعد بن بكر هى وغيرها من المرضعات لتحمل طفلا تربيه فى البادية، وقد أعرضت المرضعات عن أخذ محمد ابن عبد الله وذلك حين علمن بوفاة والده وما يصحب ذلك من قلة المال الذى يصبنه، تقول



حليمة: «. . حتى قـدمنا مكة نلتمس الرضعاء فما منا امرأة إلا وقـد عرض عليها رسول الله ﷺ فـتأباه إذا قيل لهـا أنه يتيم، وذلك أنا كنا نرجـو المعروف من أبى الصبى، فكنا نقول: يتيم ما عسى أن تصنع أمه وجده، فكنا نكرهه لذلك».

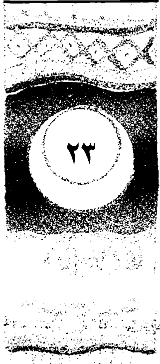
نجحت المرضعـات فى اصطحاب أطفال من مكة عدا حليـمة التى اضطرت إلى اصطحاب النبى حتى لا تعـود إلى مضاربها بدون طفل. تقول حليـمة: «فما بقيت امـرأة قدمت معى إلا أخـذت رضيعا غـيرى، فلما أجـمعنا الانطلاق قلت لصـاحبى - أى زوجـها: والله إنى لأكـره أن أرجع من بين صـواحبى ولم آخـذ رضيعا والله لأذهبن إلى ذلك اليتيم فـلآخذنه، قال: لا عليك أن تفعلى عسى الله أن يجعل لنا فيه بركة».

وما إن حل النبى ﷺ بين أفراد أسرة حليمة حتى عمتهم البركة ونزل بهم خير كثير. تقول حليمة: «فلما وضعته فى حجرى أقـبل عليه ثدياى بما شاء من لبن فشرب حتى روى وشرب معه أخوه حتى روى ثم ناما، وما كنا ننام معه قـبل ذلك، وقام زوجى إلى شارفنا تلك فإذا بها لحافل فحلب منها ما شرب وشربت حتى انتهينا ريا وشبعا فبتنا بخير ليلة، يقول صاحبى حين أصبحنا: تعلَّمى والله ياحليمة لقد أخذت نسمة مباركة، قلت: والله إنى لأرجو ذلك».

تغذى النبـى ﷺ بلبن حليمة ونشـأ وتربى فى بنى سعـد، وتعلم الفصـاحة والبـلاغة فى الصحراء، وظهـر ذلك واضحا فى أقواله فيـما بعد، وقد أشار النبـى ﷺ إلى نشأته الأولى حين قال: أنا أعربكم، أنا من قريش ولسانى لسان بنى سعد بن بكر.

وقد اضطرت المرضعة أن تعيد الطفل الصغير إلى والدته بمكة إثر حادث وقع له وهو حادثة شق الصدر، إذ بينما الـنبى ومعه ابن حليمة يجلســان خلف الخباء إذ برجلين عليهــما ثياب بيض يأخذان النبى فأضجعاه وشقا بطنه وأخرجا منه شيئا وانصرفا، فأسرع ابن حليمة وأخبر أبويه الخبر فجاءا مسرعين إلى النبى ليسألاه. تقول حليمـة: «فخرجت أنا وأبوه نحوه فوجدناه ممتقعا وجهه، قالت: فـالتزمـته والتـزمه أبوه فـقلنا: مالك يا بـنى؟ قال: جاءنـى رجلان عليـهما ثيـاب بيض فأضجعانـى فشقا بطنى فالتمسا فـيه شيئا لا أدرى ما هو. قالت: فرجـعنا به إلى خبائنا وقال لى أبوه: يا حليمة لقد خشيت أن يكون هذا الغلام قد أصيب، فألحقيه بأهله قبل أن يظهر ذلك به».

بهذه الحادثة المفاجـئة عاد النبى ﷺ إلى أمه فى مكة لترعاه وتكمل تربيـته، غير أن الطفل اليتيم لم ينعم طويلا برعايتـها، فقد كان من عادتها أن تذهب فى كل عام لـزيارة قبر زوجها والد النبى ﷺ فى يثرب، وفى العام الـسادس من مولد النبى ﷺ ذهبت كعادتهـا إلا أنها مرضت عند عودتها وماتت فى قرية تسمى الأبواء بين يثرب ومكة، وعادت به حاضنته أم أيمن إلى مكة.

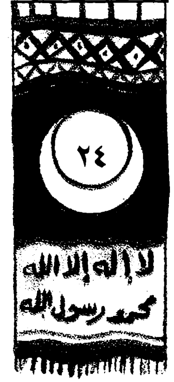


عاش النبى ﷺ فى كفالة جده عبـد المطلب، وقد بذل الجد كل جهده فى تخفـيف ألم اليتم عن نفس الصـبى الصغيـر، فكان يفضله على غـيره من أبنائه ويقربه إليه ويفرح بوجوده، وكان من عادة عبد المطلب أن يجلس على فراش فى فناء الكعبة فـلا يقربه أحد إلا النبى ﷺ. يقول ابن إسحاق: «وكـان يوضع لعبد المطلب فراش فى ظل الكعبة، فكان بنوه يجلسـون حول فراشه ذلك حتى يخرج إليه، لا يجلس عـليه أحد من بنيـه إجلالا له، قال: فـكان رسول الله ﷺ يأتى وهو غلام حتى يجلس عليه، فيأخذه أعمامه ليؤخروه عنه، فيقول عبد المطلب إذا رأى ذلك منهم: دعوا ابـنى، فو الله إن له لشأنا، ثم يجلسـه معـه على الفراش ويمسح ظهره بيده ويسره ما يراه يصنع».

ولم يكن الاهتمام من عبد المطلب مقصـورا على تقريبه النبى ﷺ إليه فى مجلسه بل تعداه إلى المأكل والمشـرب فكان لا يأكل طعـاما إلا قـال: علىّ بابنى فيـؤتى به إليـه ليشـاركه الطعـام والشراب، وبطبيعـة الحال كان الدافع إلى هذا المسلك من جانب عبد المطلب إحـساسه بوحدة هذا الصبى بعد أن فقد والديه، فأراد أن يحوطه بحبـه ويعوضه الحنان المفقود، ومن ناحية أخرى كانت الرعاية والاهتمام المتـزايد للنبى ﷺ عاملا من عوامل زيادة مكانته ومحبتـه فى قلوب أسرته فضلا عن زعماء قريش ورجالاتها.

إلا أن النبى ما لبث أن فـقد عطف الجد وذلك بوفـاة الجد فى العام الثـامن من مولد النبى ﷺ، وقد كفله عمه أبو طالب برغم أنه لم يكن غنيا، وربما كان السبب فى ذلك أن عبد الله والد النبى كان شقـيقا لأبى طالب فهمـا أخوان لأب وأم يضاف إلى هذا وصية عـبد المطلب لابنه أبى طالب بالاهتمام والعناية بالنبى ﷺ.

وقد شارك النبى ﷺ عـمه فى أعماله التجارية، ولـما بلغ الثانية عشرة من عمـره رافقه فى رحلة تجارية إلى الشـام ووصلا إلى بصرى، وكانت من المراكز التـجارية الهامة فى الشـام، وتشير بعض الروايات التاريخية أنه كـان ببصرى راهب اسمه بحيرا، وحـين التقى بأبى طالب وابن أخيه محمد أخبر أبا طالب بأن ابن أخيه سوف يكون له شأن كبير ورجاه أن يحافظ عليه ويحميه ويعود به مسرعـا خوفا عليه من عدو يتـرصده. وقد أشار ابن إسحـاق إلى الحوار الذى دار بين الراهب بحيرى وبين رسول الله ﷺ: «قام إليه بحيـرى فقال له: يا غلام: أسألك بحق اللات والعزى ألا ما أخبرتنى عمـا أسألك عنه، وإنما قال له بحيرى ذلك لأنه سمع قومه يحلفون بهـما، فزعموا أن رسول الله ﷺ قال له: لا تسـألنى باللات والعزى فوالله ما أبغضت شـيئا قط بُغضهمـا، فقال له بحيرى: فبـالله ألا ما أخبرتنى عما أسـألك عنه، فقال له: سلنى عما بدا لك، فـجعل يسأله عن أشياء من حاله فى قومه وهيئته وأموره، فـجعل رسول الله ﷺ يخبره فيوافق ذلك ما عند بحيرى من صفته، ثم نظر إلى ظهره فرأى خاتم النبوة بين كتفيه على موضعه من صفته التى عنده.



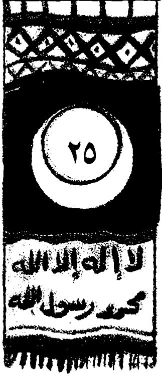
فلما فـرغ أقبل على عمه أبى طـالب فقال له: ما هذا الغـلام منك؟ قال: ابنى قال له بحيـرى: ما هو ابنك وما ينبغى لهذا الغلام أن يكـون أبوه حيا قال: فإنه ابن أخى، قـال: فما فـعل أبوه؟ قال: مـات وأمه حبلى به، قـال: صدقت فارجع بابن أخـيك إلى بلده واحذر عليـه اليهود فـوالله لئن رأوه وعرفـوا منه ما عرفت ليبغنه شرا، فإنه كائن لابن أخيك هذا شأن عظيم فأسرع به إلى بلاده».

وحين بلغ النبى ﷺ الخـامسة عشرة من عـمره وقيل عشرين شـهد حرب الفجار واشـترك فيها، وكـانت الحرب بين قريش ومن معهـا من كنانة وبين قيس عيـلان، وقد نشبت الحـرب نتيجة أن أحـد أبناء قبيلة قـيس أجار قافلة للنعـمان فغضب من ذلك أحد الكـنانيين واعتدى على القافلة فى الشهـر الحرام مما أدى إلى نشوب الحرب بينهما وناصرت قريش كنانة، وقد سميت حرب الفجـار نتيجة وقوع القتال فى الشهر الحرام وكان دور النبى ﷺ هو تجهـيز السهام للرماة والرد على العـدو. يقول ابن إسحاق: «وشـهد رسول الله ﷺ بعض أيامهم، وأخرجه أعمامه معهم، وقال رسول الله ﷺ: كنت أنبل على أعمامى أى أرد عليهم نبل عدوهم إذا رموهم بها».



زواج النبى ﷺ من السيدة خديجة

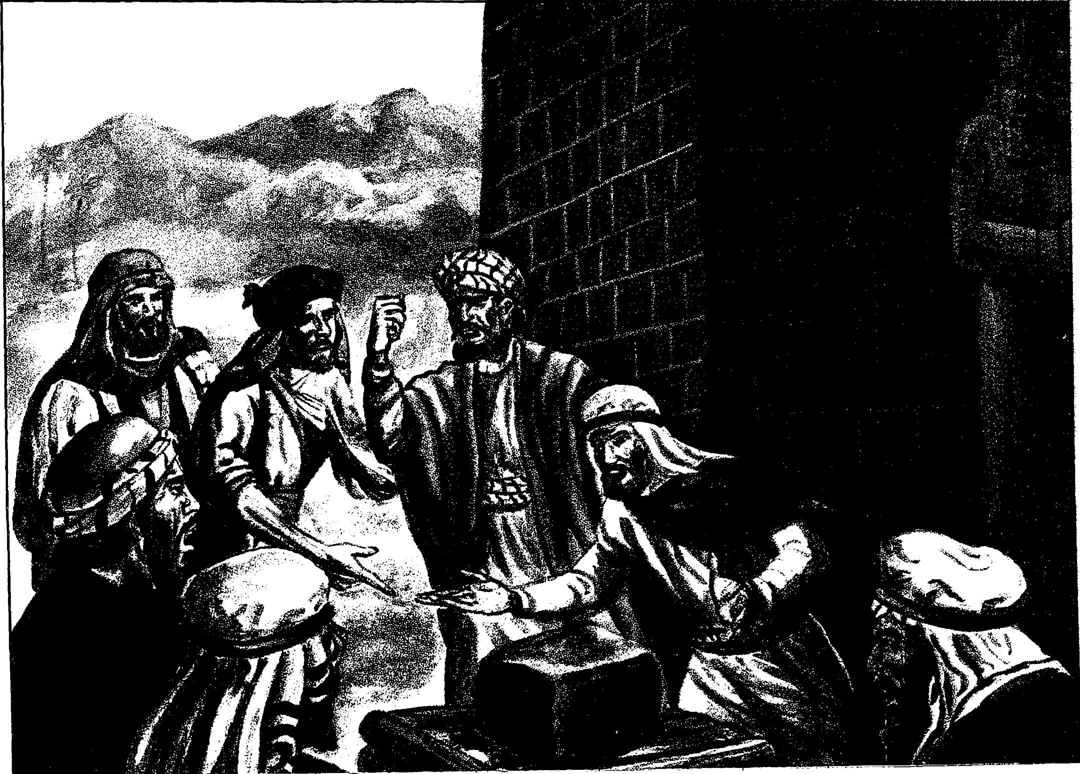
حتى إذا بلغ النبى ﷺ الخامسـة والعشرين من عمره، اشتغل بتجـارة السيدة خـديجة وهى سيدة من بنى أسد بن عـبد العزى ذات شرف ومال ولها تجارة واسعة وكـانت تستـأجر الرجال فى مـالها وتضـاربهم إياه بشىء تجـعله لهم، فلما بلغ عن رسول الله ﷺ ما بلغها مـن صدق حديثه

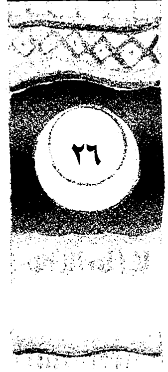


وعظم أمانته وكرم أخـلاقه، بعثت إليه فعرضت عليـه أن يخرج فى مال لها إلى الشام تاجرا وتعطيه أفـضل ما كانت تعطى غيره من التجـار مع غلام لها يقال له ميسـرة، فقبله رسول الله ﷺ مـنها، وخرج فى مالهـا ذلك وخرج معه غـلامها ميسرة حتى قدم الشام.

سافـر النبى ﷺ إلى الشام برفقـة ميسرة خـادم السيدة خديجـة، وعايش ميسرة النبى واتصل به اتصالا وثيقا ووجـد من أمانته وصدق حديثه وإخلاصه فى عمله ما بهره، فضلا عمـا أشارت إليه بعض الروايات من تنبؤ الرهبان فى الشام بنبوة محمد. يقول الكلاعى: «ثم حضر رسول الله ﷺ سوق بصرى فباع سلعته التى خرج بها واشترى سلعة فكان بينه وبيـن رجل اختلاف فى سلعة فقال الرجل: احلف باللات والعزى فـقال رسول الله ﷺ: ما حلفت بهـما قط، فقـال الرجل: القول قولك، ثم قال لميـسرة وخلا به: يا ميسرة هذا نبى والذى نفسى بيده إنه لهو، تجده أحبارنا منعوتا فى كتبهم، فوعى ذلك ميسرة».

هذه الأخبار وغيرها نقلها ميسرة إلى السـيدة خديجة التى ازدادت به إعجابا وإيمانا بأخلاقه وصفاته، ومن ثم عرضت علـيه الزواج وهى خطوة إيجابية من ناحيتهـا فهى تعلم الظروف المالية الصعبة التى كان يعيشها الـنبى مع عمه أبى طالب ولا شك أن هذه الظروف المالية قيد على حركة النبى فى التوجه إليها وطلب يدها، ومن ثم كانت هى البادئة يدفعها فى ذلك تلك الصفات الطيبة والخصال الحميدة فضلا عن الشرف والأصل العريق، ومن ثم أرسلت إليه تعرض عليه الزواج.





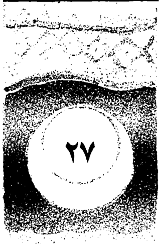
وكانت الخطوة التالية أن ذكر النبى ﷺ ذلك العرض على أعمامه فوافقوا على ذلك، وتقدم إلى خويلد بن أسد الذى رحب بمصاهرة النبى، وتم الزواج وكان تاريخ هذا الزواج قبل الهجرة بثمان وعشرين سنة وأقامت معه خمسا وعشرين سنة، وهى أم أولاده جميعا ما عدا إبراهيم فإنه من مارية القبطية.

وقد قامت السيدة خديجة بدور كبير فى حياة النبى ﷺ، فالاستقرار المادى هيأ للنبى الظروف الملائمة للتأمل والتعبد فى غار حراء حتى إذا تلقى الدعوة كانت أول من آمن به من النساء، ووقفت بجواره تؤازره وتسانده وتخفف عنه المشقات والآلام التى اعترضت طريقه، حتى إذا ماتت قبيل الهجرة ببضع سنوات حزن عليها النبى ﷺ حزنا شديدا وسمى عام وفاتها «عام الحزن».

فلما بلغ النبى ﷺ الخامسة والثلاثين من عمره، تهدمت بعض جدران الكعبة، ومن ثم شرعت قريش فى هدمها وبنائها، وقد تهيب القرشيون فى بادئ الأمر هدم أركان الكعبة فبدأ الوليد بن المغيرة بالهدم؛ ولما لم يحدث ضرر أقبل المكيون على عملية الهدم حتى وصلوا إلى أساس إسماعيل ثم أقاموا البناء فلما كمل البناء وأرادوا وضع الحجر الأسود مكانه اختلفوا فيمن يضعه ووصل الأمر والنزاع بينهم إلى حد التهيؤ للقتال حتى تدخل أبو أمية بن المغيرة بن عبد الله واقترح على قريش بقوله: «اجعلوا بينكم فيما تختلفون فيه أول من يدخل من باب هذا المسجد يقضى بينكم فيه» ففعلوا فكان أول داخل عليهم رسول الله ﷺ فلما رأوه قالوا: هذا الأمين، رضينا هذا محمد فلما انتهى إليهم وأخبروه الخبر قال ﷺ: هلم إلىّ ثوبا فأتى به فأخذ الركن - أى الحجر الأسود - فوضعه فيه بيده ثم قال: لتأخذ كل قبيلة بناحية من الثوب ثم ارفعوه جميعا ففعلوا حتى إذا بلغوا به موضعه، وضعه هو بيده ثم بنى عليه وبذلك انحسم الخلاف وقضى النبى بحكمته وسديد رأيه على مشكلة كانت تهدد أمن المنطقة بالخلافات والحروب.

إرهاصات الدعوة

فى هذه الفترة الزمنية، كانت الدلائل تشير إلى وقوع حدث هام، وبعبارة أخرى كانت المنطقة فى حاجة ماسة إلى من يخلصها من حيرتها التى تردت فيها، وقد تجمعت عدة عوامل لتجعل من مكة المنطلق لهذا الحدث الهام.



فمكة ـ كما سبق أن أشرت ـ أصبحت ملتقى القوافل التجارية وقد زاد غنى أبنائها نتيجة ممارستهم الأعمال التجارية، يضاف إلى ذلك أنها أصبحت محطة رئيسية فى طريق قوافل الجنوب والشمال ووسعت من صلاتها التجارية مما عاد عليها بالأموال الطائلة.

وكانت مكة ملتقى اللهجات العربية المختلفة نظرا للندوات السنوية التى كانت تعقد فيها بعد الفراغ من موسم الحج والتى يلتقى فيها الشعراء والخطباء ليتحدثوا بما عندهم، وكان هذا اللقاء السنوى عامل مزج للهجات المختلفة وتوحيدا لها فى لهجة متعارف عليها بين القبائل المختلفة وهى لهجة قريش.

يضاف إلى ذلك تلك المكانة الدينية التى نالتها قريش بحكم جوارها للبيت المكرم وحراستها للكعبة وإشرافها على الحج فى كل عام وصيانتها لأصنام العرب، كل هذا أدى إلى مكانة متميزة لمكة بين غيرها من الحواضر.

وبجانب ذلك فقد شاع فى شبه الجزيرة أنباء عن مبعث نبى يوحد القبائل ويجمعها فى أمة واحدة، وكان مصدر هذه الأقوال أهل الكتاب وغيرهم ممن يقرءون فى كتب السابقين، وقد أذاعوا بين الناس اقتراب ظهور ذلك النبى المصلح، وعلى يديه سيتم انقلاب أخلاقى وسياسى. وقد استغل اليهود بصفة خاصة هذه الأقوال فى إرهاب أعدائهم. قال ابن إسحاق: «وحدثنى عاصم بن عمر عن قتادة عن رجال من قومه قالوا: إن مما دعانا إلى الإسلام مع رحمة الله تعالى وهداه لنا، لما كنا نسمع من رجال يهود، وكنا أهل شرك أصحاب أوثان وكانوا أهل كتاب عندهم علم ليس لنا، وكانت لا تزال بيننا وبينهم شرور فإذا نلنا منهم بعض ما يكرهون قالوا لنا: إنه قد تقارب زمان نبى يبعث الآن نقتلكم معه قتل عاد وإرم، فكنا كثيرا ما نسمع ذلك منهم، فلما بعث الله رسوله ﷺ أجبناه حين دعانا إلى الله تعالى وعرفنا ما كانوا يتوعدوننا به فبادرناهم إليه فآمنا به وكفروا به، ففينا وفيهم نزلت هذه الآيات من سورة البقرة: ﴿**وَلَمَّا جَاءَهُمْ كِتَابٌ مِّنْ عِندِ اللَّهِ مُصَدِّقٌ لِّمَا مَعَهُمْ وَكَانُوا مِن قَبْلُ يَسْتَفْتِحُونَ عَلَى الَّذِينَ كَفَرُوا فَلَمَّا جَاءَهُم مَّا عَرَفُوا كَفَرُوا بِهِ فَلَعْنَةُ اللَّهِ عَلَى الْكَافِرِينَ** ﴿٨٩﴾﴾ [البقرة].

يضاف إلى ذلك عوامل خارجية، منها التفكك والضعف الذى أصاب دولة الفرس ودولة الروم نتيجة للحروب المستمرة بينهما، وهذه العوامل مجتمعة داخلية وخارجية جعلت من مكة المكان المناسب لظهور شخصية النبى ﷺ ليغير المفاهيم والمبادئ التى اعتنقتها العرب، وقد أحس بعض عقلاء العرب ضرورة تغيير الأوضاع القائمة وخاصة ما يتعلق منها بعبادة الأصنام والسجود للأوثان والاعتقاد فى نفعها وضررها، ومن ثم وجدنا بعض العرب يجتنبون قومهم ولا يشاركون فى تقديس الأصنام، ومن هؤلاء: ورقة بن نوفل وعبيد الله بن جحش وعثمان بن الحويرث وزيد



ابن عمرو، اجتمعوا فى أحد أعياد العرب وقال بعضهم لبعض «تعلمون والله ما قومكم على شيء، لقد أخطأوا دين أبيهم إبراهيم ما حجر نطيف به، لا يسمع ولا يبصر ولا يضر ولاينفع، يا قوم التمسوا لأنفسكم دينا فإنكم والله ما أنتم على شيء، فتفرقوا فى البلدان يلتمسون الحنيفية دين إبراهيم».

فى هذا المجتمع المضطرم بالأحداث كان النبى ﷺ يتوجه إلى غار حراء كل عام ويقضى فيه فترة من التأمل والتفكر والتعبد، تاركا مكة فى لهوها وعبثها. وقد أشار ابن إسحاق نقلا عن الزهرى عن عروة عن السيدة عائشة رضى الله عنها أنها حدثته «أن أول ما بدئ به رسول الله ﷺ من النبوة حين أراد الله كرامته ورحمة العباد به؛ الرؤيا الصادقة لا يرى رسول الله ﷺ رؤيا فى منامه إلا جاءت كفلق الصبح، قالت: وحبب الله تعالى إليه الخلوة، فلم يكن شيء أحب إليه من أن يخلو وحده» وفى رواية أخرى كان رسول الله ﷺ يجاور فى حراء من كل سنة شهرا، وكان ذلك مما تتحنث به قريش فى الجاهلية، فكان يجاور ذلك الشهر من كل سنة يطعم من جاءه من المساكين، فإذا قضى جواره من شهره ذلك كان أول ما يبدأ به إذا انصرف من جواره قبل أن يدخل بيته الكعبة فيطوف سبعا أو ما شاء الله ثم يرجع إلى بيته.

الوحى

لفظة الوحى لغة معناها إعلام مع إخفاء وسرعة وهذا الإعلام له عدة مراتب:

١ ـ أن يخاطب فى النوم وهى الرؤيا الصادقة، وقد حدثت لكثير من الأنبياء ومنها ما قاله سيدنا إبراهيم لابنه إسماعيل: ﴿ ... **يَا بُنَيَّ إِنِّي أَرَىٰ فِي الْمَنَامِ أَنِّي أَذْبَحُكَ** ... ﴿١٠٢﴾ ﴾ [الصافات].

٢ ـ أن يقذف فى القلب ما يراد إلقاؤه دون واسطة وهو يقظان، وذلك ما يسمى بالإلهام.

٣ ـ أن يرسل الله رسولا يخبره بما يريد إعلامه إياه، وهو المسمى بالملك.

٤ ـ أن يسمعه الله كلامه مباشرة كما حدث لموسى عليه السلام ﴿**وَهَلْ أَتَاكَ حَدِيثُ مُوسَىٰ** ﴿٩﴾ **إِذْ رَأَىٰ نَارًا فَقَالَ لِأَهْلِهِ امْكُثُوا إِنِّي آنَسْتُ نَارًا لَّعَلِّي آتِيكُم مِّنْهَا بِقَبَسٍ أَوْ أَجِدُ عَلَى النَّارِ هُدًى** ﴿١٠﴾ **فَلَمَّا أَتَاهَا نُودِيَ يَا مُوسَىٰ** ﴿١١﴾ **إِنِّي أَنَا رَبُّكَ فَاخْلَعْ نَعْلَيْكَ إِنَّكَ بِالْوَادِ الْمُقَدَّسِ طُوًى** ﴿١٢﴾ **وَأَنَا اخْتَرْتُكَ فَاسْتَمِعْ لِمَا يُوحَىٰ** ﴿١٣﴾ ﴾ [طه].

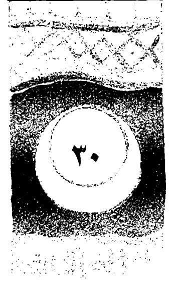
وهذه الأحوال الأربعة تشترك فى حقيقة واحدة وهى حدوث العلم المتيقن فى قلب من ألقى إليه العلم.



وقد سبق أن أشرنا كيف مر النبى ﷺ بمرحلة الرؤيا الصادقة، وكيف كان يعتزل فى غار حراء ابتعادا عن مكة وما يدور فى جنباتها من عمل ولهو، ابتعادا بنفسه وتأملا فى الكون وآياته حتى جاءه الوحى، وقد اختلفت الروايات فى الوقت والمكان الذى جاءه فيه الوحى إلا أن أرجح هذه الروايات تلك التى تشير إلى وقت نزول الوحى فى يوم الإثنين لسبع عشرة خلت من رمضان للسنة الحادية والأربعين من ميلاده، وما رواه ابن هشام عن كيفية لقاء النبى بالوحى بما ذكره النبى قائلا:

«جاءنى جبريل وأنا نائم بنمط من ديباج فيه كتاب فقال: اقرأ، قال: قلت: ما أقرأ؟ قال فغتنى به حتى ظننت أنه الموت ثم أرسلنى فقال: اقرأ؟ قال: قلت: ما أقرأ؟ قال فغتنى به حتى ظننت أنه الموت ثم أرسلنى فقال: اقرأ: قال: قلت: ما أقرأ؟ قال: فغتنى به حتى ظننت أنه الموت ثم أرسلنى فقال: اقرأ: قال: فقلت ما أقرأ: ما أقول الا افتداء منه أن يعود لى بمثل ما صنع بى فقال: ﴿ اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ ① خَلَقَ الإِنسَانَ مِنْ عَلَقٍ ② اقْرَأْ وَرَبُّكَ الأَكْرَمُ ③ الَّذِي عَلَّمَ بِالْقَلَمِ ④ عَلَّمَ الإِنسَانَ مَا لَمْ يَعْلَمْ ⑤ ﴾ [العلق]. قال: فقرأتها ثم انتهى فانصرف عنى وهببت من نومى فكأنما كتبت فى قلبى كتابا، قال: فخرجت حتى إذا كنت فى وسط من الجبل سمعت صوتا من السماء يقول: يا محمد أنت رسول الله وأنا جبريل؛ قال: فرفعت رأسى إلى السماء أنظر فإذا جبريل فى صورة رجل صاف قدميه فى أفق السماء يقول: يا محمد أنت رسول الله وأنا جبريل، قال: فوقفت أنظر إليه فما أتقدم وما أتاخر وجعلت أصرف وجهى عنه فى آفاق السماء، قال: فلا أنظر فى ناحية منها إلا رأيته كذلك، فما زلت واقفا ما أتقدم أمامى وما أرجع ورائى حتى بعثت خديجة رسلها فى





طلبى، فبلغوا أعلى مكة ورجعوا إليها وأنا واقف مكانى ذلك، ثم انصرف عنى وانصرفت راجعا إلى أهلى حتى أتيت خديجة فجلست إلى فخذها مضيفا ـ أى مستندا وملتصقا ـ إليها فقالت: يا أبا القاسم أين كنت؟ فو الله لقد بعثت رسلى فى طلبك حتى بلغوا مكة ورجعوا لى، ثم حدثتها بالذى رأيت فقالت: أبشر يا ابن عم واثبت فوالذى نفس خديجة بيده إنى لأرجو أن تكون نبى هذه الأمة».

يشير النص السابق إلى أن النبى ﷺ كان كعادته يتعبد فى غار حراء وأن جبريل جاءه وهو نائم ودار الحوار بينهما، بينما تشير روايات أخرى إلى يقظة الرسول حين جاءه الوحى، ومن ذلك ما رواه الطبرى «أتى جبريل محمدا ﷺ فقال: يا محمد اقرأ؟ فقال: ما أقرأ؟ قال: فضمه ثم قال: يا محمد اقرأ، قال: ما أقرأ؟ فضمه ثم قال يا محمد اقرأ قال: وما أقرأ؟ قال: ﴿ **اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ ① خَلَقَ الإِنسَانَ مِنْ عَلَقٍ ②** ﴾ حتى بلغ: ﴿ **عَلَّمَ الإِنسَانَ مَا لَمْ يَعْلَمْ ⑤** ﴾.

وحتى تدعم السيدة خديجة قولها، توجهت إلى ابن عمها ورقة بن نوفل فأخبرته بما حدث فأجابها ورقة قائلا: «قدوس، قدوس، والذى نفس ورقة بيده لئن كنت صدقتنى يا خديجة لقد جاءه الناموس الأكبر الذى كان يأتى موسى وإنه لنبى هذه الأمة فقولى له: فليثبت».

وهكذا كانت صلة النبى بالسماء عن طريق الوحى، ومنذ هذه اللحظة حمل النبى أعباء الدعوة الجديدة، دعوة تغاير ما تعارف عليه القوم، دعوة أساسها وحدانية الله وإسلام الوجه له، وترك الخضوع والسجود لغير الله والإيمان بالملائكة والأنبياء وبيوم الحساب، وأن للإنسان ما سعى وأن سعيه سوف يرى ثم يجزاه الجزاء الأوفى، وأن الناس كلهم لا يتفاضلون إلا بمقدار صلاحهم وتقواهم، وتحريم أكل مال الناس بالباطل وتحريم الفواحش ما ظهر منها وما بطن، وغير ذلك من المبادئ السامية التى لم يألفها العرب.

دور الدعوة السرية

أدرك النبى ﷺ بثاقب فكره أن الدعوة ستواجه معارضة قوية؛ وذلك لأن قريشا هم سدنة الوثنية فى شبه الجزيرة، لذا بدأ النبى بدعوة أقرب الناس إليه إلى الدين الجديد، وكان فى مقدمة هؤلاء المقربين السيدة خديجة زوجته وعلى بن أبى طالب، وكان يبلغ من العمر عشر سنوات، وقد تعهد النبى ﷺ بتربيته والإنفاق عليه إثر الشدة التى أصابت والده أبا طالب فأخذه النبى ﷺ لتخفيف العبء عن عمه، وبذلك نشأ فى بيت النبوة، وكان أول من آمن من الصبيان، وزيد بن حارثة مولى رسول الله ﷺ وأبو بكر بن أبى قحافة، وكان أبو بكر كما يقول ابن إسحاق: رجلا

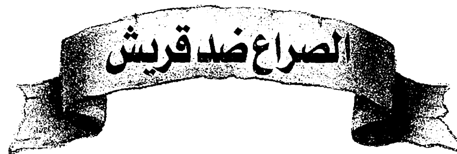
مؤلفا لقـومه ـ أى محببا لهم، مـحببا سهلا، وكـان أنسب قريش لقريش وأعلم قريش بهـا وبما كان فيهـا من خير وشـر، وكان رجلا تاجرا ذا خلق ومـعروف، وكان رجـال قومـه يأتونه ويألفونه لغـير واحد من الأمـر لعلمه وتجـارته وحسن مجـالستـه فجعل يدعـو إلى الله وإلى الإسلام من وثق به من قـومه ممن يغـشاه ويجلس إليه.

وقد قام أبو بكر بعد إسلامه بدعـوة أصدقائه والمقربين له فأسلم على يديه عثمان بن عـفان والزبير بن العوام وعبد الرحمن بن عـوف وسعد بن أبى وقاص وطلحة بن عبيد الله وغير هؤلاء من السابقين، فكان هؤلاء النفر ـ كما يقول ابن إسحاق ـ الذين سبقوا الناس بالإسلام فصلوا وصدقوا رسول الله ﷺ بما جاءه من الله.

وقد اتخذ لهم النبى ﷺ دار الأرقم بن أبى الأرقم، وكانت تقع على الصفا، وكان الرسول يجتمع بهم ليعلمهم أحكام الدين والتحدث فى أحوال المشركين ووسائل نشر الدعوة بين الناس.

ونشير هنا إلى دوافع إقـبال المسلمين الأولين على الدين الجديد برغم مـا يعلمونه من عنت واضطهاد عـشائرهم لهم؛ فضـلا عن احتمـال الإيذاء وفقدهم لأرواحهـم وممتلكاتهم، وقد زعم بعض الباحثين أن المستضعفين قد دخلوا الإسلام رغبة فى التحرر والفقراء رغبة فى الكسب، نظرا لما فيـه من مبادئ اشـتراكيـة. . وإذا نحن فحصنا هذه الرواية فـإننا نجد عكس ذلك، فـالمسلمون الأولون كان أكـثرهم من التجار ورجـال الطبقة الوسطى وممن كـانت لهم عشائر تحمـيهم وتدافع عنهم،وقد دخله أيضـا من المستضـعفين والأرقـاء أمثال بلال وعمـار وغيرهم، وقـد نالهم بسبب إسلامهم أذى كـثيرا، وقد مناهم سادة قريش بالحـرية وبامتيازات ماليـة إن هم تركوا الإسلام ومع ذلك تحملوا العذاب فى سبيل عقيدتهم.

وهناك روايات تشير إلى دوافع بعض من أقـبل على الإسلام، فعثمان بن مظـعون كان قبل الإسلام من الباحثين عن الدين، وسعيد بن زيد بن عـمر بن نفيل هو ابن الرجل الذى كان حنيفيا يبحث عن دين إبراهيم، وخالد بن سعيد بن العاص، اعتنق الإسلام لأنه رأى نفسه فى المنام على حافة هاوية من النار يدفعـه إليها أبوه ويدفعه عنها رجل آخر ليـنقذه، وعمر بن الخطاب أسلم إثر سمـاعه آيات من القـرآن تأثر بها وانفـتح قلبه لهـا فآمن بالدين الجـديد، وهكذا نرى أن العقـيدة الخالصة من أدران الشرك، والدين الذى يتفق والفطرة الإنسانيـة هما الدافعان وراء اعتناق المسلمين للدين الجديد.



ظلت الدعوة سرا بين الأصحاب والمعـارف ثلاث سنوات، يجتمعون فى دار الأرقم بن أبى الأرقم يتعلمون قواعد الدين الجديد، ولا شك أن فترة الثلاث سنوات كانت كافية لأن يعرف أهل



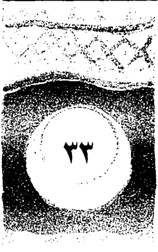
مكة بأن هناك شيئا يتم فى الخفاء، وقد وصل الأمر بالمشركين إلى التساؤل عن هذه الدعوة الجديدة والصلوات التى يؤديها المسلمون، فلما عرفوا أنها تخالف معتقداتهم كان الشجار والعراك.

يقول ابن إسحاق: «وكان أصحاب رسول الله ﷺ إذا صلوا ذهبوا فى الشعاب فاستخفوا بصلاتهم من قومهم، فبينما سعد بن أبى وقاص فى نفر من أصحاب رسول الله ﷺ فى شعب من شعاب مكة، إذ ظهر عليهم نفر من المشركين وهم يصلون فناكروهم ـ وهى من الإنكار أى الجحود ـ وعابوا عليهم ما يصنعون حتى قاتلوهم فضرب سعد بن أبى وقاص يومئذ رجلا من المشركين بلحى بعير فشجه فكان أول دم أريق فى الإسلام».

كان هذا الاحتكاك بين المسلمين والمشركين وسريان الإسلام بين المقربين من النبى ﷺ ممهدات، حتى إذا جاء الأمر من السماء بإعلان الدعوة بدأت مرحلة جديدة فى تاريخ كفاح المسلمين. قال ابن إسحاق: «ثم دخل الناس فى الإسلام أرسالا من الرجال والنساء حتى فشا ذكر الإسلام بمكة وتحدث به، ثم إن الله عز وجل أمر رسوله ﷺ أن يصدع بما جاء منه وأن يبادئ الناس بأمره وأن يدعو إليه، وكان بين ما أخفى رسول الله ﷺ أمره واستتر به إلى أن أمره الله تعالى بإظهار دينه ثلاث سنين ـ فيما بلغنى ـ من مبعثه، ثم قال الله تعالى له: ﴿**فَاصْدَعْ بِمَا تُؤْمَرُ وَأَعْرِضْ عَنِ الْمُشْرِكِينَ** ﴿٩٤﴾﴾ [الحجر] وقال تعالى: ﴿**وَأَنذِرْ عَشِيرَتَكَ الْأَقْرَبِينَ** ﴿٢١٤﴾ **وَاخْفِضْ جَنَاحَكَ لِمَنِ اتَّبَعَكَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ** ﴿٢١٥﴾﴾ [الشعراء]، وقال جل جلاله: ﴿**وَقُلْ إِنِّي أَنَا النَّذِيرُ الْمُبِينُ** ﴿٨٩﴾﴾ [الحجر]، فلما نادى رسول الله ﷺ قومه بالإسلام وصدع به كما أمره لم يبعد منه قومه ولم يردوا عليه ـ فيما بلغنى ـ حتى ذكر آلهتهم وعابها، فلما فعل ذلك أعظموه وناكروه وأجمعوا خلافه وعداوته إلا من عصم الله تعالى منهم بالإسلام وهم قليل مستخفون، وحدب على رسول الله ﷺ عمه أبو طالب ومنعه وقام دونه ومضى رسول الله ﷺ على أمر الله مظهرا لأمره، لا يرده عنه شىء».

ومن النص السابق يمكننا أن نستخلص أن الدين الجديد لا يشكل خطرا على أهل مكة مادام بعيدا عن أصنامهم ومعتقداتهم، فلما تعرض لها وبين زيفها وباطلها، ناصبه أهل مكة العداء والحرب.

وقد سلك النبى ﷺ فى سبيل إعلان دعوته وسيلة النداء على البطون والعشائر لإعلان النبأ؛ وذلك بأن سار إلى جبل الصفا بظاهر مكة ونادى كل بطن من بطون قريش باسمها ولما اجتمعوا إليه قال لهم: إن الله أمرنى أن أنذر عشيرتى الأقربين وأنى لا أملك لكم من الدنيا منفعة ولا من الآخرة نصيبا إلا أن تقولوا لا إله إلا الله، فقال له أبو لهب: تبا لك سائر اليوم ألهذا جمعتنا؟ فأنزل الله فى أبى لهب وزوجه: ﴿**تَبَّتْ يَدَا أَبِي لَهَبٍ وَتَبَّ** ﴿١﴾ **مَا أَغْنَىٰ عَنْهُ مَالُهُ وَمَا**



كَسَبَ ﴿٢﴾ سَيَصْلَىٰ نَارًا ذَاتَ لَهَبٍ ﴿٣﴾ وَامْرَأَتُهُ حَمَّالَةَ الْحَطَبِ ﴿٤﴾ فِي جِيدِهَا حَبْلٌ مِّن مَّسَدٍ ﴿٥﴾ [المسد].

ومنذ هذه اللحظة بدأ الصراع بين قوى الشرك المتمثلة فى قريش وقوى الإيمان المتمثلة فى النبى ﷺ ومن اتبعه من المسلمين، وقد استخدمت قريش كل الوسائل من أسئلة إلى استهتار واستهزاء إلى سب وإيذاء وتعذيب للأرقاء والمستضعفين.



دفاع أبى طالب عن النبى ﷺ

وقد حاولت قريش النيل من النبى ﷺ ولكنها اصطدمت بحماية عمه أبى طالب له بحكم العصبية حتى إذا استفحل الأمر توجهوا إليه قائلين: إن ابن أخيك قد سب آلهتنا وعاب ديننا وسفه أحلامنا وضلل آباءنا، فإما أن تكفه عنا وإما أن تخلى بيننا وبينه، فإنك على مثل ما نحن عليه من خلافه فرد عليهم أبو طالب ردا جميلا فانصرفوا عنه ومضى رسول الله ينشر دعوته.

إلا أن موقف أبى طالب ودفاعه عن النبى ﷺ دفع قريشا إلى اتخاذ مسلك آخر لعلها تجد فيه العلاج مما هى فيه، فمشى إليه بعض زعماء مكة وعرضوا عليه أن يقدموا له فتى من فتيان قريش من أعرق الأسر حسبا ونسبا ويأخذوا بدلا منه النبى ﷺ يتصرفون فيه بالطريقة التى تخلصهم من الدين الجديد. قال ابن إسحاق: «ثم إن قريشا عرفوا أن أبا طالب قد أبى خذلان رسول الله ﷺ وإجماعه لفراقهم فى ذلك وعداوتهم، مشوا إليه بعمارة بن الوليد بن المغيرة فقالوا له - فيما بلغنى - يا أبا طالب هذا عمارة بن الوليد أنهد - أقوى وأشد - فتى فى قريش وأجمله فخذه فلك عقله - ديته إذا قتل - ونصره واتخذه ولدا فهو لك، وأسلم إلينا ابن أخيك هذا الذى قد خالف دينك ودين آبائك وفرق جماعة قومك وسفه أحلامهم فنقتله فإنما هو رجل برجل فقال: والله لبئس ما تسوموننى - تبادلوننى - أتعطوننى ابنكم أغذوه لكم وأعطيكم ابنى تقتلونه، هذا والله ما لا يكون أبدا.

قال: فقال المطعم بن عدى: والله يا أبا طالب أنصفك قومك وجهدوا على التخلص مما تكرهه فما أراك تريد أن تقبل منهم شيئا، فقال أبوطالب للمطعم: والله ما أنصفونى ولكنك أجمعت خذلانى ومظاهرة القوم علىّ فاصنع ما بدا لك».

استمرت الدعوة تشق طريقها، وتواجه الصعاب والاستهزاء ويصبر المستضعفون على ما يلاقونه من عنت ومشقة، وكل يوم تزداد الدعوة أنصارا وأتباعا مما دفع قريشا إلى اتخاذ موقف حاسم ومتشدد ضد النبى وأبى طالب؛ لذا توجهوا إلى أبى طالب معلنين حربهم للنبى وكل من انضم إليه وقد وجهوا تحذيرهم لأبى طالب قائلين له:

يا أبا طالب إن لك سنا وشرفا ومنزلة وإنا قد استنهيناك من ابن اخيك فلم تنهه عنا، وإنا والله لا نصبر على هذا من شتم آبائنا وتسفيه أحلامنا وعيب آلهتنا حتى تكفه عنا أو ننازله وإياك، ثم انصرفوا عنه.





فعظم على أبى طالب فراق قومه وعداوتهم وبعث إلى الرسول ﷺ وحدثه عما قال قومه فظن أنه قد ضعف عن نصرته ومؤازرته وقال له: يا عم والله لو وضعوا الشمس فى يمينى والقمر فى يسارى على أن أترك هذا الأمر ما تركته حتى يظهره الله أو أهلك دونه، فقال أبو طالب: اذهب يا ابن أخى فقل ما أحببت فوالله لا أسلمك لشىء أبدا.

وهكذا تجلى الإيمان المطلق والثبات على العقيدة من جانب النبى ﷺ، كما تتجلى قوة العصبية الأسرية المتمثلة فى أبى طالب الذى وقف بجانب ابن أخيه مهما واجه من عداوة وخصام، وذلك بالرغم من بقائه على الشرك.

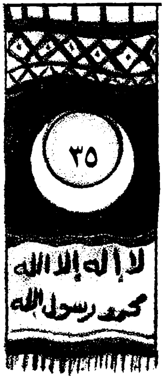
أسباب عداوة قريش للدين الجديد

وهنا يجدر بنا الإشارة إلى الأسباب التى جعلت من قريش العدو الأول للدعوة الإسلامية:

أولا - الدافع الدينى:

وهى تلك المعتقدات والطقوس التى ورثها العرب عن أجدادهم وتقديسهم للأصنام والأوثان؛ فجاء الإسلام وفضح هذه المعتقدات وكشف عن زيفها وبطلانها. وأن الوجود كله ملك لله وهو وحده المستحق للعبادة، ومن ثم فالدين الجديد زلزل معتقدات العرب الدينية، ولم يكن تحدى الإسلام موجها إلى عقائدهم فحسب بل إلى ذاتيتهم وكيانهم الروحى، فاندفعوا يدافعون عنه بقوة، ومما زاد فى هذه المقاومة روح المحافظة التى تتجلى عند البدو بصورة خاصة، وقد أوضح القرآن حجة العرب فى التمسك بعبادة الأصنام حين قال: ﴿**بَلْ قَالُوا إِنَّا وَجَدْنَا آبَاءَنَا عَلَىٰ**





أُمَّةٍ وَإِنَّا عَلَىٰ آثَارِهِم مُّهْتَدُونَ ﴿٢٢﴾ وَكَذَٰلِكَ مَا أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ فِي قَرْيَةٍ مِّن نَّذِيرٍ إِلَّا قَالَ مُتْرَفُوهَا إِنَّا وَجَدْنَا آبَاءَنَا عَلَىٰ أُمَّةٍ وَإِنَّا عَلَىٰ آثَارِهِم مُّقْتَدُونَ ﴿٢٣﴾ قَالَ أَوَلَوْ جِئْتُكُم بِأَهْدَىٰ مِمَّا وَجَدتُّمْ عَلَيْهِ آبَاءَكُمْ قَالُوا إِنَّا بِمَا أُرْسِلْتُم بِهِ كَافِرُونَ ﴿٢٤﴾ ﴾ [الزخرف].

ومما زاد فى عنف مقاومتهم أن دعوة الرسول ﷺ للوحدانية كانت جديدة عليهم فلم يكن قد أتاهم من قبله رسول ﴿**لِتُنذِرَ قَوْمًا مَّا أُنذِرَ آبَاؤُهُمْ فَهُمْ غَافِلُونَ ﴿٦﴾**﴾ [يس].

كما أن الإسلام يقوم على عبادة الله وهو إله واحد يعبد فى كل مكان، وهذا معناه تهديد مصالح أبناء مكة الذين يشرفون على كثير من الآلهة، وباعتناق العرب للإسلام ستزول أهمية هذه الآلهة، وبالتالى ستضيع الفائدة المادية التى تعود على من يقوم بحراسة الأصنام وصيانتها.

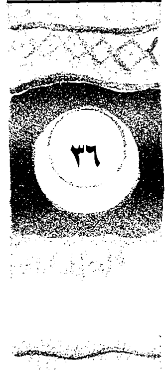
ثانيا - الدافع الاجتماعى:

ويتمثل فى تلك المبادئ التى جاء بها الإسلام والتى تضع أسسا جديدة تغاير ما تعارف عليه القوم، ومنها المساواة بين الناس جميعا وجعل الجميع إخوة فى الدين الجديد لا سيد ولا مسود وإنما الجميع متآخون فى ظل عقيدة واحدة، والتفاضل بينهم يكون بالأعمال الصالحة فقط، هذه المبادئ سوف تغير من الأوضاع الاجتماعية ووضع الفرد فى القبيلة ومدى قوة هذه القبيلة وضعفها أو فقرها وغناها.

ومعنى انتشار الدين الجديد وتكوينه لطبقة جديدة متضامنة متحدة، معناه القضاء على نفوذ الزعماء والأغنياء وذوى الجاه فى قريش فضلا عن النزول بهم من مستواهم ومساواتهم بغيرهم من الفقراء والضعفاء من أهل مكة.

ثالثا - الدافع السياسى:

ويتمثل فى نظام الحكم بمكة والذى يدور حول الزعامة الجماعية، ولا تقبل قريش أن تخضع لرجل يملك أمرها ويفرض نفوذه عليها، ونظروا إلى الدين الجديد على أنه سلطة جديدة يستطيع محمد بواسطتها التحكم فى أوضاعهم. وفى القرآن ما يشير إلى طاعة الرسول: ﴿ ... **وَمَن يُطِعِ**



اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَقَدْ فَازَ فَوْزًا عَظِيمًا ﴿٧١﴾ ﴾ [الأحزاب]، ﴿ قُلْ أَطِيعُوا اللَّهَ وَالرَّسُولَ فَإِن تَوَلَّوْا فَإِنَّ اللَّهَ لا يُحِبُّ الْكَافِرِينَ ﴿٣٢﴾ ﴾ [آل عمران]، وغيرها من الآيات التى تأمر باتباع الدين الجديد بالطاعة للنبى، ومن ثم وجدت قريش فى هذه الأوامر تغييرا للنظام السياسى الذى ورثه الأبناء عن الأجداد، وفيه تتمركز الزعامة فى يد رجل واحد وهو ما تأباه قريش كل الإباء، وقد واجهت قريش من رئاسة النبى للدين الجديد بالاستهزاء، وقد صور القرآن ذلك. ﴿ وَإِذَا رَأَوْكَ إِن يَتَّخِذُونَكَ إِلاَّ هُزُوًا أَهَذَا الَّذِي بَعَثَ اللَّهُ رَسُولاً ﴿٤١﴾ ﴾ [الفرقان]، وفى آية أخرى ﴿ وَقَالُوا لَوْلا نُزِّلَ هَذَا الْقُرْآنُ عَلَىٰ رَجُلٍ مِّنَ الْقَرْيَتَيْنِ عَظِيمٍ ﴿٣١﴾ ﴾ [الزخرف].

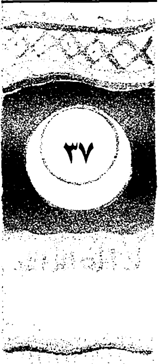
صور التعذيب والإيذاء

استمرت قريش فى عدائها لا تدخر جهدا إلا بذلته فى سبيل القضاء على الدعوة الجديدة والتركيز فى عداوتهم على النبى. . فتارة يسمونه بأبى كبشة ومذمم، وتارة يرمونه بالأوساخ فى طريقه أو رميه بالحجارة. قال ابن إسحاق: «ثم إن قريشا اشتد أمرهم للشقاء الذى أصابهم فى عداوة رسول الله ﷺ ومن أسلم معه منهم فأغروا برسول الله ﷺ سفهاءهم فكذبوه وآذوه ورموه بالشعر والسحر والكهانة والجنون، ورسول الله ﷺ مظهر لأمر الله لا يستخفى به، مناد لهم بما يكرهون من عيب دينهم واعتزال أوثانهم وفراقه إياهم عن كفرهم».

بل بلغت العداوة بهم أن حاولوا خنق رسول الله ﷺ، يقول عروة: «حتى إذا كان فى الغد اجتمعوا فى الحجر وأنا معهم، فقال بعضهم لبعض: ذكرتم ما بلغ منكم وما بلغكم حتى إذا باداكم بما تكرهون تركتموه، فبينما هم فى ذلك طلع عليهم رسول الله ﷺ فوثبوا إليه وثبة رجل واحد. وأحاطوا به يقولون: أنت الذى تقول كذا وكذا لما كان يقول من عيب آلهتهم ودينهم فيقول رسول الله ﷺ: نعم أنا الذى أقول ذلك قال: فلقد رأيت رجلا منهم أخذ بمجمع ردائه قال: فقام أبو بكر رضى الله عنه دونه وهو يبكى ويقول: أتقتلون رجلا أن يقول ربى الله؟ ثم انصرفوا عنه فإن ذلك لأشد ما رأيت قريشا نالوا منه قط».

واستمرت قريش فى عدائها وإيذائها لرسول الله ﷺ وهو صابر محتسب، لا يمل فى تبليغ الدعوة ولا يهدأ فى الأخذ بيد الناس إلى طريق الحق، وقد كان الإسراف فى الإيذاء سببا فى إسلام حمزة عم رسول الله ﷺ. قال ابن إسحاق:

«إن أبا جهل مر برسول الله ﷺ عند الصفا فآذاه وشتمه ونال منه بعض ما يكره من العيب لدينه والتضعيف لأمره، فلم يكلمه رسول الله ﷺ، ومولاة لعبد الله بن جدعان فى مسكن لها تسمع ذلك ثم انصرف عنه فعمد إلى ناد من قريش عند الكعبة فجلس معهم، فلم يلبث حمزة بن



عبد المطلب رضى الله عنه أن أقبل متوشحا قوسه راجعا من قَنْص - صيد - له وكان صاحب قنص يرميه ويخرج له، وكان إذا رجع من قنصه لم يصل إلى أهله حتى يطوف بالكعبة، وكان إذا فعل ذلك لم يمر على ناد من قريش إلا وقف وسلم وتحدث معهم، وكان أعز فتى فى قريش وأشد شكيمة، فلما مر بالمولاة وقد رجع رسول الله ﷺ إلى بيته قالت له: يا أبا عمارة لو رأيت ما لقى ابن أخيك محمد آنفا من أبى الحكم بن هشام: وجده هاهنا جالسا فآذاه وسبه وبلغ منه ما يكره، ثم انصرف عنه ولم يكلمه محمد ﷺ.

فاحتمل حمزة الغضب لما أراد الله من كرامته فخرج يسعى ولم يقف على أحد، معدا لأبى جهل إذ لقيه أن يوقع به، فلما دخل المسجد نظر إليه جالسا فى القوم فأقبل نحوه إذا قام على رأسه رفع القوس فضربه بها فشجه شجة منكرة ثم قال: أتشتمه وأنا على دينه أقول ما يقول؟ فرد ذلك علىَّ إن استطعت. فقامت رجال من بنى مخزوم إلى حمزة لينصروا أبا جهل فقال أبو جهل دعوا أبا عمارة، فإنى والله قد سببت ابن أخيه سبا قبيحا، وتم - المراد أتم إسلامه - حمزة رضى الله عنه على إسلامه وعلى ما تابع عليه رسول الله ﷺ من قوله، فلما أسلم حمزة عرفت قريش أن رسول الله ﷺ قد عز وامتنع وأن حمزة سيمنعه فكفوا عن بعض ما كانوا ينالون منه».

ومن ناحية أخرى حاولت قريش من جانبها استمالة النبى ﷺ وإغرائه بالمال والجاه والسلطان فى سبيل أن يترك دعوته، وقد قام بذلك عتبة بن ربيعة أحد سادات قريش حين توجه إلى النبى ﷺ وقال له: يا ابن أخى إنك منا حيث قد علمت من السِّطة - الشرف والفضيلة - فى العشيرة والمكان فى النسب وإنك قد أتيت قومك بأمر عظيم؛ فرقت به جماعتهم وسفهت به أحلامهم وعبت به آلهتهم ودينهم وكفّرت به من مضى من آبائهم، فاسمع منى أعرض عليك أمورا تنظر فيها لعلك تقبل منًّا بعضها:

قال: فقال رسول الله ﷺ: قل يا أبا الوليد أسمع، قال: يا ابن أخى إن كنت إنما تريد بما جئت به من هذا الأمر مالا جمعنا لك من أموالنا حتى تكون أكثرنا مالا، وإن كنت تريد به شرفا سودناك علينا، حتى لا نقطع أمرا دونك، وإن كنت تريد به ملكا ملكناك علينا، وان كان هذا الذى يأتيك رئيا - ما يتراءى للإنسان من الجن - تراه لا تستطيع رده عن نفسك طلبنا لك الطب وبذلنا فيه أموالنا حتى نبرئك منه، فإنه ربما غلب التابع على الرجل حتى يداوى منه، أو كما قال له، حتى إذا فرغ عتبة ورسول الله ﷺ يستمع منه، قال: أقد فرغت يا أبا الوليد؟ قال: نعم، قال: فاسمع منى، قال: افعل فقال: بسم الله الرحمن الرحيم: ﴿**حمٓ ﴿١﴾ تَنزِيلٌ مِّنَ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ ﴿٢﴾ كِتَابٌ فُصِّلَتْ آيَاتُهُ قُرْآنًا عَرَبِيًّا لِّقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ﴿٣﴾ بَشِيرًا وَنَذِيرًا فَأَعْرَضَ أَكْثَرُهُمْ فَهُمْ لا يَسْمَعُونَ ﴿٤﴾ وَقَالُوا قُلُوبُنَا فِي أَكِنَّةٍ مِّمَّا تَدْعُونَا إِلَيْهِ وَفِي آذَانِنَا وَقْرٌ وَمِنْ بَيْنِنَا وَبَيْنِكَ حِجَابٌ**



فَاعْمَلْ إِنَّنَا عَامِلُونَ ﴿٥﴾ ﴾ [فصلت]، ثم مضى رسول ﷺ فيها يقرؤها عليه، فلما سمعها منه عتبة أنصت لها وألقى يديه خلف ظهره معتمدا عليها يسمع منه ثم انتهى رسول الله ﷺ إلى السجدة منها فسجد ثم قال: قد سمعت يا أبا الوليد ما سمعت فأنت وذاك.

فقام عتبة إلى أصحابه فقال بعضهم لبعض: نحلف بالله لقد جاءكم أبو الوليد بغير الوجه الذى ذهب به، فلما جلس إليهم قالوا: ما وراءك يا أبا الوليد؟ قال: ورائى أنى قد سمعت قولا والله ما سمعت مثله قط، والله ما هو بالشعر ولا بالسحر ولا بالكهانة. يا معشر قريش، أطيعونى واجعلوها بى ولا تدخلوا بين هذا الرجل وبين ما هو فيه فاعتزلوه، فوالله ليكونن لقوله الذى سمعت منه نبأ عظيم، فإنه إن تصبه العرب فقد كفيتموه بغيركم وإن يظهر على العرب فملكه ملككم وعزه عزكم، وكنتم أسعد الناس به، قالوا: سحرك والله يا أبا الوليد بلسانه، قال: هذا رأيى فيه فاصنعوا ما بدا الكم».

وحين فشلت قريش فى إقناع النبى بترك دعوته، وجدنا أبا جهل يشرع فى اتخاذ خطوة أكثر جرأة وخطورة وهى محاولة اغتيال النبى ﷺ ومن ثم قال أبو جهل لقريش:

يا معشر قريش إن محمدا قد أبى إلا ما ترون من عيب ديننا وشتم آبائنا وتسفيه أحلامنا وشتم آلهتنا، وإنى أعاهد الله لأجلسن له غدا بحجر ما أطيق حمله فإذا سجد فى صلاته فضخت - كسرت - به رأسه فأسلمونى عند ذلك أو امنعونى، فليصنع بعد ذلك بنو عبد مناف ما بدا لهم: قالوا: والله لا نسلمك لشىء أبدا فامض لما تريد..

فلما أصبح أبو جهل أخذ حجرا كما وصف ثم جلس لرسول الله ﷺ ينتظره وغدا رسول الله ﷺ كما كان يغدو، وكان رسول الله ﷺ بمكة وقبلته إلى الشام فكان إذا صلى صلى بين الركن اليمانى والحجر الأسود وجعل الكعبة بينه وبين الشام، فقام رسول الله ﷺ يصلى وقد غدت قريش فى أنديتهم ينتظرون ما أبو جهل فاعل، فلما سجد رسول الله ﷺ احتمل أبو جهل الحجر ثم أقبل نحوه حتى إذا دنا منه رجع منهزما ممتقعا لونه مرعوبا قد يبست يداه على الحجر، حتى قذف الحجر من يده وقام إليه رجال قريش فقالوا له: مالك يا أبا الحكم؟ قال: قمت لأفعل به ما قلت لكم البارحة فلما دنوت منه عرض لى دونه فحل من الإبل، لا والله ما رأيت مثل هامته ولا مثل قصرته - القصرة أصل العنق - ولا أنيابه لفحل قط فهمّ بى أن يأكلنى.

قال ابن إسحاق فذكر رسول الله ﷺ: ذلك جبريل عليه السلام لو دنا لأخذه.

لم يكن الإيذاء والاعتداء مقصورا على رسول الله ﷺ؛ بل امتد التعذيب والتنكيل إلى من آمن من أرقاء مكة وضعفائها. يقول ابن إسحاق: «ثم إنهم عدَوْا على من أسلم واتبع رسول الله ﷺ من أصحابه، فوثبت كل قبيلة على من فيها من المسلمين فجعلوا يحبسونهم ويعذبونهم



بالضرب والجوع والعطش، وبرمضاء مكة إذا اشتد الحر من استضعفوا منهم يفتنونهم عن دينهم فمنهم من فُتِن من شدة البلاء الذى يصيبه ومنهم من يَصْلُب لهم، ويعصمه الله منهم.

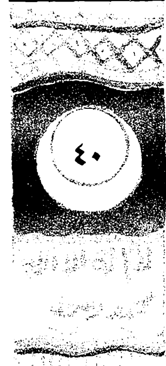
وقد حفلت كتب السيرة بأخبار من عذبتهم قريش ومنهم **بلال بن رباح** وكان صادق الإسلام طاهر القلب، وكان مولى لأمية بن خلف، وقد تفنن أمية فى تعذيبه فكان يخرجه إذا حميت الظهيرة فيطرحه على ظهره مقيدا فى بطحاء مكة ويضع صخرة فوق صدره ثم يقول له: لا تزال هكذا حتى تموت أو تكفر بمحمد وتعبد اللات والعزى، فيقول وهو فى ذلك البلاء: أحد أحد، وظل فى هذا العذاب الدائم حتى أعتقه سيدنا أبو بكر الصديق.

وكذلك جارية بنى مؤمل وهم حى من بنى عدى تعهدها عمر بن الخطاب قبل إسلامه بالضرب والتعذيب لإسلامها حتى أعتقها سيدنا أبو بكر الصديق.



وأسرة عمار بن ياسر التى شمل العذاب كل أفرادها. يقول ابن إسحاق «كانت بنو مخزوم يخرجون بعمار بن ياسر وبأبيه وأمه وكانوا أهل بيت إسلام، إذا حميت الظهيرة يعذبونهم برمضاء مكة، فيمر بهم رسول الله ﷺ فيقول: صبرا آل ياسر، موعدكم الجنة، فأما أمه فقتلوها وهى تأبى إلا الإسلام».

وقد اشتد بالمسلمين الإيذاء والضرب حتى أن بعضهم من شدة التعذيب والتنكيل كان يوافق قريشا فيما يقولونه. قال ابن اسحاق: وحدثنى حكيم بن جبير عن سعيد بن جبير قال: قلت لعبد الله بن عباس: أكان المشركون يبلغون من أصحاب رسول الله ﷺ من العذاب ما يعذرون به فى ترك دينهم؟. فقال: نعم والله، إن كانوا ليضربون أحدهم ويجيعونه ويعطشونه حتى ما يقدر أن يستوى جالسا من شدة الضرب الذى نزل به حتى يعطيهم ما سألوه من الفتنة حتى يقولوا له: اللات والعزى إلهك من دون الله، فيقول: نعم، حتى إن الجعل ليمر بهم فيقولون له: أهذا الجعل إلهك من دون الله؟ فيقول: نعم.. افتداء منهم مما يبلغون من جهده».



واستخدمت قريش الحرب النفسية فيمن لا تستطيع التأثير عليه بدنيا: وكان أبو جهل الفاسق الذى يغرى بهم فى رجال من قريش، إذا سمع بالرجل قد أسلم، له شرف ومنعة أنّبه وأخزاه وقال له: تركت دين أبيك وهو خير منك، لنسفهن حلمك، ولنقبحن رأيك، ولنضعن شرفك، وإن كان تاجرا قال: والله لنكسدن تجارتك، ولنهلكن مالك، وإن كان ضعيفا ضربه وأغرى به.

الهجرة إلى الحبشة

ولما رأى رسول الله ﷺ ما يصنع بأصحابه، وهو لا يستطيع أن يدفع عنهم، أمرهم بالرحيل إلى الحبشة حيث الأمن. قال ابن إسحاق: فلما رأى رسول الله ﷺ ما يصيب أصحابه من البلاء وما هو فيه من العافية، بمكانه من الله ومن عمه أبى طالب وأنه لا يقدر على أن يمنعهم مما هم فيه من البلاء قال لهم: لو خرجتم إلى أرض الحبشة فإنه بها ملك لا يظلم عنده أحد، وهى أرض صدق، حتى يجعل الله لكم فرجا مما أنتم فيه فخرج عند ذلك المسلمون من أصحاب رسول الله ﷺ مخافة الفتنة وفروا إلى الله بدينهم فكانت أول هجرة فى الإسلام.

وكان أول من خرج من المسلمين عثمان بن عفان مع امرأته رقية بنت رسول الله ﷺ وأبو حذيفة بن عتبة بن ربيعة ومعه امرأته سهلة بنت سهيل والزبير بن العوام وعبد الرحمن بن عوف ومصعب بن عمير وأبو سلمة بن عبد الأسد، وكان جميع من لحق بأرض الحبشة وهاجر من المسلمين سوى أبنائهم الذين خرجوا بهم صغارا وولدا بها ثلاثة وثمانين رجلا.

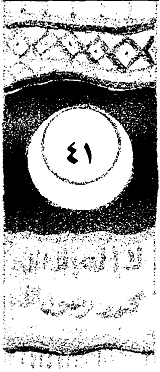
وأما دوافع هجرتهم إلى الحبشة فيمكننا أن نجملها فى الدوافع الآتية:

أولا: تجنب الاضطهادات التى قام بها المشركون وإخفاق المسلمين فى التصدى لهذا التيار.

ثانيا: أن قريشا فرضت على من أسلم حصارا اقتصاديا وضيقت عليهم فى أرزاقهم وتجارتهم، ومن هنا كانت أرض الحبشة ميدانا خصبا لكى يزاول المسلمون أعمالهم التجارية وهم فى أمن على معتقداتهم.

ثالثا: أن بقية المناطق المحيطة بشبه الجزيرة العربية كبلاد الفرس والروم واليمن كانت على علاقات تجارية وثيقة بقريش، وهناك احتمال رد من يلجأ من المسلمين إليهم إلى قريش حرصا منهم على العلاقات الودية والتجارية القائمة بين هذه المناطق ومكة.

وقد أوضح القرآن الكريم أن دوافع الهجرة إنما كانت بسبب الاضطهادات التى وقعت على المسلمين. وقد أشار القرآن إلى ذلك فى عدة مواضع ومنها ﴿ **ثُمَّ إِنَّ رَبَّكَ لِلَّذِينَ هَاجَرُوا مِنْ بَعْدِ مَا فُتِنُوا ثُمَّ جَاهَدُوا وَصَبَرُوا إِنَّ رَبَّكَ مِنْ بَعْدِهَا لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ** ﴿١١٠﴾ ﴾ [النحل].



ولم تقف قريش مكتوفة الأيدى إزاء هجـرة المسلمين إلى الحبشة، ومن ثم أرسلت رجلين هما: عبـد الله بن أبى ربيعة وعمرو بن العاص مـحملين بالهدايا إلى نجاشى الحبـشة محاولين بذلك إعادة هؤلاء المسلمين المهـاجرين إلى مكة مرة أخرى. وقد عرض القرشيان قضيتهما على النجاشى قائلين له: أيها الملك إنه قد ضوى إلى بلدك مـنا غلمان سفـهاء فـارقوا دين قومـهم ولم يدخلوا فى دينك، وجاءوا بدين ابتدعوه، لا نعرفه نحن ولا أنت وقد بعثنا إليك فيهم أشراف قومهم من آبائهم وأعمامهم وعشائرهم لتـردهم إليهم فهم أعلم بهم عينا وأعلم بما عابوا عليهم وعاتبوهم فيه.

وقد رفض النجـاشى هذا الطلب حتى يسأل المسلمـين عن حقيقـة دينهم ودعواهم ومن ثم أرسل فى طلب بعض المسلمـين للاستـفسـار منهم عن ذلك، وكان المتكلم بلـسان المسلمـين أمام النجاشى هو جعفر بن أبى طالب رضوان الله عليه الذى قال:

أيها الملك، كنا قوما أهل جاهلية، نعبد الأصنام ونأكل الميتة ونأتى الفواحش ونقطع الأرحام ونسىء الجوار ويأكل القـوى منا الضعيف، فكنا على ذلك حتى بعث الله إلينـا رسولا منا، نعرف نسبـه وصدقه وأمانتـه وعفافه، فـدعانا إلى الله لنوحده ونعبده، ونخلع ما كنا نعبد نحن وآباؤنا من دونه من الحـجارة والأوثـان وأمرنا بصـدق الحـديث وأداء الأمـانة وصلة الرحـم وحـسن الجوار والكف عن المحارم والـدماء، ونهانا عن الفـواحش وقـول الزور، وأكل مـال اليـتيم، وقذف المحصنات.. وأمرنـا أن نعبد الله وحده لا نشـرك به شيـئـا، وأمرنا بـالصلاة والزكـاة والصيـام (فعدد عليـه أمور الإسلام) فـصدقناه وآمنا به واتبعناه علـى ما جاء به من الله فعـبدنا الله وحده، فلم نشرك به شيـئا وحرمنا ما حرم علينا وأحللنـا ما أحل لنا، فـعـدا علينا قـومنا فعـذبونا وفتنونا عن ديـننا، ليردونا إلى عـبادة الأوثان من عبادة الله تعالى، وأن نستحل ما كنا نستـحل من الخبـائث، فلما قـهرونا وظلـمونا وضيـقوا علينا، وحالوا بيننا وبـين ديننا خرجنا إلى بلادك واخترناك علـى من سواك ورغبنا فى جوارك ورجونا أن لانظلم عندك أيها الملك.





فقال له النجاشى: هل معك مما جاء به عبد الله من شىء؟ فقال له جعفر: نعم، فقال لـه النجاشى: فاقرأه علىّ، فـقرأ عليه صدرا من سورة مـريم، فبكى النجاشى حـتى اخضلت لحيته ثـم قال: إن هذا والذى جاء به عيسـى ليخرج من مشكاة واحدة. انطلقا فلا والله لا أسلمهم إليكما.

سلام عمر بن الخطاب

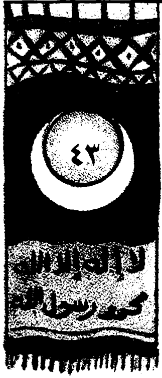
كان إسلام عمر بن الخطاب فـتحا كبيرا فى مسيرة الدعوة الإسـلامية فى مكة، إذ بإسلامه قوى أمر المسلمين وأصيب الـكفر والشرك فى مقتل، أو كما يقول عبـد الله بن مسعود: إن إسلام عمر كان فتحا، وإن هجرته كانت نصرا، وإن إمارته كانت رحمة، ولقد كنا ما نصلى عند الكعبة حتى أسلم عمر، فلما أسلم قاتل قريشا حتى صلى عند الكعبة وصلينا معه.

وقد استجـاب الله تعالى لدعاء نبيه ﷺ حين دعـا قائلا: اللهم أيد الإسلام بأبى الحكم بن هشام أو بعمر بن الخطاب، وكان تحقيق الدعوة من نصيب عمر بن الخطاب.

«لقد خرج عمر غـاضبا حاملا سيفه يريد أن يخلص قريشـا من الدعوة الجديدة وأن سبيله إلى ذلك هو قتل النبى، ومن ثم توجه إلى دار الأرقم لتنفيذ هذه المهمة، والتقى فى الطريق بنعيم ابن عبد الله الذى سأله عن وجهته فأخبـره بما يريد، وهنا حذره نعيم بن عبد الله بمغبة ذلك قائلا له: والله لقد غرتك نفـسك من نفسك يا عمر، أترى بنى عبـد مناف تاركيك تمشى على الأرض وقد قتلت مـحمدا، أفلا ترجع إلى أهل بيتك فـتقيم أمرهم، قال: وأى أهل بيـتى؟ قال: ختنك وابن عمك سـعيد بن زيد وأختك فـاطمة بنت الخطاب فقـد والله أسلما وتابعا محـمدا على دينه فعليك بهما».

وهنا تغيرت وجهـة عمر واتجه إلى بيت أخته فاطمـة، وهناك استمع إلى بعض آيات القرآن تتلى داخل البيت فلمـا دخل واستفـسر عن ذلك رفضت أختـه تسليمه الصـحيفة التى تقـرأ منها فضربها وسال الدم من وجهها، وهنا مـسته رقة شديدة ومن ثم تلطف فى القول وأصر على قراءة الصحيفة فطلبت منه أخته التطهر حتى تمكنه القراءة فـى الصحيفة، وفعلا تطهر وأخذ يقرأ وكانت سورة طه، وهنا أراد الله به خيرا إذ دخل الإيمان قلبه ورغب فى الإسلام، ومن ثم توجه إلى دار الأرقم للقاء النبى ﷺ.

يقول ابن إسحاق: «أخذ عمر سيفه فتوشحه ثم عمد إلى رسول الله ﷺ وأصحابه فضرب عليهم الباب، فلما سمعوا صوته قام رجل من أصحاب رسول الله ﷺ فنظر من خلال الباب فرآه متوشـحا السيف، فرجع إلى رسـول الله ﷺ وهو فزع فقال: يا رسول الله هـذا عمر بن الخطاب



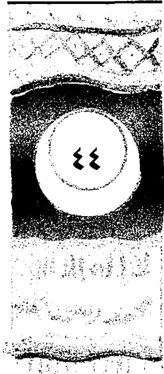
متوشحا السيف، فقال حمـزة بن عبد المطلب، فأذن له، فإن كان جاء يريد خيرا بذلناه له وإن كان جاء يريد شرا قتلناه بسيفه، فقال رسول الله ﷺ: ائذن له فأذن له الرجل ونهض إليه رسول الله ﷺ حتى لقيه فى الحجرة فأخذ حجزته ـ موضع الإزار ـ أو بمجـمع ردائه ثم جبـذه به جـبذة شـديدة وقـال: ما جـاء بك يا ابن الخطاب؟ فوالله ما أرى أن تنتهى حتى ينزل الله بك قارعـة، فقال عمر: يا رسول الله جئتك لأومن بالله وبرسوله وبما جاء من عند الله، فقال: فكبر رسول الله ﷺ تكبيـرة عرف أهل البيت من أصـحاب رسول الله ﷺ أن عمـر قد أسلم فتـفرق أصحـاب رسول الله ﷺ من مكانهم وقد عزوا فى أنـفسهم حين أسلم عـمر مع إسلام حمزة وعرفوا أنهما سيمنعان رسول الله ﷺ وينتصفون بهما من عدوهم».

ولا شك أن إسلام عمـر كان له رد فعل عنيف فى قريش إذ أخـزى الله الكفر وأهله، ولم يكتف عمر بأن يعلن إسلامه فى دار الأرقم، وإنما أراد أن يذيع الخبر علـى الملأ غير مبال بما يصيبه من مكروه، قال عمر: لما أسلمت تلك الليلة تذكرت مَن مِن أهل مكة أشد لرسول الله ﷺ عداوة حتى آتيه فأخبره أنى قد أسلمت، قال: قلت أبو جهل، قال: فأقبلت حين أصبحت حتى ضربت عليه بابه، قـال: فخرج إلى أبو جهل فـقال: مرحبـا وأهلا بابن أختى ما جاء بك؟ قـال: جئت لأخبرك أنى قد آمنت بالله ورسـوله محمد وصدقت بما جاء به، قال: فـضرب الباب فى وجهى، وقال: قبحك الله وقبح ما جئت به.



حققت الدعوة الجديدة عدة انتصارات، فالمهاجرون من المسلمين إلى الحبشة قد نعموا بالأمن والاستقرار فى ظل النجـاشى، كما أن الإسلام ازداد قوة بإسلام حمزة بن عـبد المطلب وعمر بن الخطاب، كما أن كل الوسائل التى بذلتها قـريش لتثنى النبى وأصحابه عن الإسلام لم تفلح، ولم ينجح الإغراء بالمال ولا الـتهديد والإيذاء والحـبس بالنسبة للمـستضـعفين، لـذا فكرت قريش فى سلاح جديد لعلها تحقق أهدافها، وكان السلاح الجديد هو سلاح المقاطعة.

فقد قـرر سادة قريش مقاطعة بـنى هاشم فى الشراء والبيع والزواج وكل المناسبات وكـتبوا صحيفة فى هذا المعنى، قال ابن إسحـاق: «فلما رأت قريش أن أصحاب رسول الله ﷺ قد نزلوا بلدا أصابوا به أمنا وقـرارا وأن النجاشى قد منع من لجـأ إليه منهم، وأن عمـر قد أسلم فكان هو وحمزة بن عـبد المطلب مع رسول الله ﷺ وأصحابه وجعل الإسـلام يفشو فى القبائل، اجـتمعوا وائتمروا بينهم أن يكتبوا كتابا يتعاقدون فيه على بنى هاشم وبنى المطلب على ألا ينكحوا إليهم ولا



ينكحوهم ولا يبيعوهم شيئا ولا يبتاعوه منهم، فلما اجتمعوا لذلك كتبوه فى صحيفة ثم تعاهدوا وتواثقوا على ذلك، ثم علقوا الصحيفة فى جوف الكعبة توكيدا على أنفسهم، وكان كاتب الصحيفة منصور بن عكرمة بن عامر بن هاشم بن عبد مناف بن عبد الدار بن قصى فدعا عليه رسول الله ﷺ فشل بعض أصابعه.

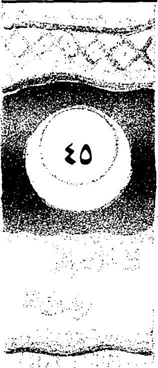
فلما فعلت ذلك قريش انحازت بنو هاشم وبنو المطلب إلى أبى طالب بن عبد المطلب، فدخلوا معه فى شعبه واجتمعوا إليه وخرج من بنى هاشم أبو لهب عبد العزى بن عبد المطلب إلى قريش فظاهرهم».

وبملاحظة النص السابق، نرى أن المقاطعة موجهة إلى بنى هاشم وبنى عبد المطلب، ولم يكن كل بنى هاشم من المسلمين فضلا عن أن هناك مسلمين ممن لا ينتمون إلى أسرة النبى ﷺ وإنما ينتمون إلى قبائل أخرى، وهذا يدعونا إلى القول أن العصبيات القبلية كانت توجه سلاح المقاطعة بمعنى القضاء على نفوذ بنى هاشم ومكانتها متخذين محاربة النبى والإسلام ستارا يبررون به أفعالهم.

استمرت المقاطعة ما يقرب من ثلاث سنوات تحمّل فيها النبى ﷺ ومن معه صنوف الحرمان والآلام وقد خفف من آلام المقاطعة الأشهر الحرام حيث كان يباح للمسلمين البيع والشراء كما أنه كانت تصلهم سرا بعض المعونات المادية، يقول الكلاعى:

«وقد كان أبو جهل فيما يذكرون لقى حكيم بن حزام معه غلام يحمل قمحا يريد به عمته خديجة وهى مع رسول الله ﷺ فى الشعب فتعلق به وقال: أتذهب بالطعام إلى بنى هاشم؟ فقال له أبو البخترى: طعام كان لعمته عنده أفتمنعه أن يأتيها بطعامها؟ خل سبيل الرجل، فأبى أبو جهل حتى نال أحدهما من صاحبه، فأخذ أبو البخترى لحى بعير فضربه فشجه ووطئه وطأ شديدا، وحمزة بن عبد المطلب قريب يرى ذلك وهم يكرهون أن يبلغ ذلك رسول الله ﷺ وأصحابه فيشمتون بهم».

لم يكن أبو البخترى وحده من كفار قريش الذى عارض المقاطعة وإنما رفض ذلك بعض سادة قريش ورأوا فى المقاطعة ظلما وغبنا لبنى هاشم وبنى عبد المطلب، ومن هؤلاء هشام بن عمرو وزهير بن أمية والمطعم بن عدى وزمعة بن الأسود، واتفقوا فيما بينهم على نقض الصحيفة. يقول ابن هشام: «فأجمعوا أمرهم وتعاقدوا على القيام فى الصحيفة حتى ينقضوها. وقال زهير: أنا أبدؤكم فأكون أول من يتكلم فلما أصبحوا غدوا إلى أنديتهم، وغدا زهير بن أبى أمية عليه حلة فطاف بالبيت سبعا ثم أقبل على الناس فقال: يا أهل مكة أنأكل الطعام ونلبس الثياب وبنو هاشم هلكى لا يباع ولا يبتاع منهم، والله لا أقعد حتى تشق هذه الصحيفة القاطعة الظالمة.



قال أبو جهل وكان فى ناحية المسجد: كذبت والله ولا تشق، فقال زمعة ابن الأسود: أنت والله أكذب، ما رضينا كتابتها حين كتبت، قال أبو البخترى: صدق زمعة لا نرضى ما كتب فيها ولا نقر به، قال المطعم بن عدى: صدقتما وكذب من قال غير ذلك، نبرأ إلى الله منها ومما كتب فيها، قال هشام بن عمرو نحوا من ذلك فقال أبو جهل: هذا أمر قضى بليل، تُشُوِر فيه بغير هذا المكان. وأبو طالب جالس فى ناحية المسجد، فقام المطعم إلى الصحيفة ليشقها فوجد الأرضة قد أكلتها إلا باسمك اللهم».

وهناك رواية أخرى تشير إلى إخبار النبى ﷺ عمه أبا طالب بما حدث للصحيفة من تآكل وأنه لم يبق بها إلا اسم الله وما عدا ذلك فقد أكلته الأرضة.

«وذكر بعض أهل العلم أن رسول الله ﷺ قال لأبى طالب: يا عم إن ربى الله قد سلط الأرضة على صحيفة قريش، فلم تدع منها اسما هو لله إلا أثبتته فيها ونفت منه الظلم والقطيعة والبهتان، فقال: أربُّك أخبرك بهذا؟ قال: نعم، فوالله ما يدخل عليك أحد ثم خرج إلى قريش، فقال:

يا معشر قريش إن ابن أخى أخبرنى بكذا وكذا فهلمّ صحيفتكم فإن كان كما قال ابن أخى فانتهوا عن قطيعتنا وانزلوا عما فيها وإن يكن كاذبا دفعت إليكم ابن أخى، فقال القوم: رضينا فتعاقدوا على ذلك ثم نظروا فإذا هى كما قال رسول الله ﷺ فزادهم ذلك شرا، فعند ذلك صنع الرهط من قريش فى نقض الصحيفة ما صنعوا».

وهكذا لم تنجح قريش فى مقاطعتها للنبى ﷺ واستمرت تشق طريقها إلا أن النبى ﷺ أصيب بصدمة كبيرة وهى وفاة زوجته السيدة خديجة وكانت له نعم الزوجة بوفائها ومساندتها وعطفها، وفى نفس الوقت فَقَدَ سندا آخر هو عمه أبو طالب الذى كان يحميه من أذى المشركين وبطشهم، وقد نجحت قريش فى إيذاء النبى، ولم يكن هذا النجاح متيسرا لها من قبلُ فى حياة أبى طالب. قال ابن إسحاق: «ثم إن خديجة بنت خويلد وأبا طالب هلكا فى عام واحد فتتابعت على رسول الله ﷺ المصائب بهلك خديجة وكانت له وزير صدق على الإسلام يشكو إليها وبهلك عمه أبى طالب وكان له عضدا وحرزا فى أمره ومنعة وناصرا على قومه وذلك قبل هجرته إلى المدينة بثلاث سنين، فلما هلك أبو طالب، نالت قريش من رسول الله ﷺ من الأذى مالم تكن تطمع به فى حياة أبى طالب حتى اعترضه سفيه من سفهاء قريش فنثر على رأسه ترابا».

وقد عبر النبى ﷺ عن حزنه لوفاة عمه أبى طالب الذى كان يمنع عنه أذى كثيرا «لما نثر ذلك السفيه على رأس رسول الله ﷺ ذلك التراب، دخل رسول الله ﷺ بيته والتراب على رأسه،



فقامت إليه إحدى بناته فجعلت تغسل عنه التراب وهى تبكى ورسول الله ﷺ يقول لها: لا تبكى يا بنية فإن الله مانع أباك قال: ويقول بعد ذلك: ما نالت منى قريش شيئا أكرهه حتى مات أبو طالب».

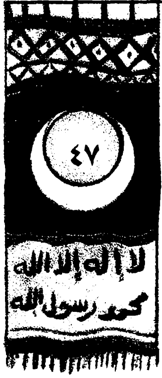


حلة النبى الى الطائف

لم يدخر النبى ﷺ جهدا إلا وبذله فى سبيل نشر الإسلام ودعوته قومه للدين الجديد وقريش تزداد إيذاء وإرهاقا للمسلمين، وقد فكر النبى ﷺ فى فتح ميدان جديد للدعوة خارج أسوار مكة؛ لعله يجد النصرة والتأييد، لذا نراه يتوجه إلى الطائف يدعو زعماءها وأهلها إلى الإسلام فوجد منهم الإعراض والإيذاء والسخرية.

التقى رسول الله ﷺ بسادة ثقيف فى الطائف وكانوا ثلاثة هم : عبد ياليل بن عمرو، ومسعود بن عمرو، وحبيب بن عمرو، وقد جلس رسول الله ﷺ إليهم يعرض عليهم الإسلام ويشرح مبادئه ويطلب منهم النصرة والتأييد، وقد أجابه الثلاثة أسوأ إجابة وسخروا منه. يقول ابن إسحاق: «هو يمرط ـ ينزعه ويلقى به ـ ثياب الكعبة إن كان الله أرسلك وقال الآخر: أما وجد الله أحدا يرسله غيرك، وقال الثالث: والله لا أكلمكِ أبدا، لئن كنت رسولا من الله كما تقول لأنت أعظم خطرا من أن أرد عليك الكلام، ولئن كنت تكذب على الله، ما ينبغى لى أن أكلمك فقام رسول الله ﷺ من عندهم وقد يئس من خير ثقيف».

لم يكتف أهل الطائف برفض دعوة الإسلام، وإنما حرضوا صبيانهم وغلمانهم على قذف النبى بالحجارة حتى سال الدم الشريف من عقبيه، وفى هذا الجو الحزين من الكرب الشديد توجه الرسول إلى الله بالدعاء قائلا: «اللهم إليك أشكو ضعف قوتى وقلة حيلتى وهوانى على الناس يا أرحم الراحمين، أنت رب المستضعفين وأنت ربى، إلى من تكلنى؟ إلى بعيد يتجهمنى أم إلى عدو ملكته أمرى؟ إن لم يكن بك على غضب فلا أبالى، ولكن عافيتك هى أوسع لى، أعوذ بنور وجهك الذى أشرقت له الظلمات، وصلح عليه أمر الدنيا والآخرة من أن تنزل بى غضبك أو يحل على سخطك، لك العتبى حتى ترضى ولا حول ولا قوة إلا بك».

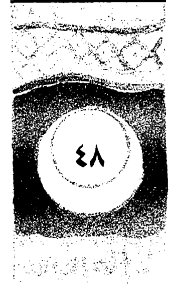


وسرعان ما استجاب الله لدعاء نبيه وأرسل إليه جبريل الذى ناداه قائلا:

إن الله قد سمع قول قومك لك وما ردوا عليك وقد بعث إليك ملك الجبال لتأمره بما شئت فيهم، فنادانى ملك الجبال فسلم على فقال يا محمد ذلك لك فما شئت؟ إن شئت أن أطبق عليهم الأخشبين ـ جبلان حول مكة ـ فقال النبى ﷺ بل أرجو أن يخرج الله من أصلابهم من يعبد الله لا يشرك به شيئا.

هكذا كانت نتيجة رحلته إلى الطائف، الإيذاء والسخرية، وعاد النبى ﷺ إلى مكة وأنباء إخفاقه فى الطائف قد سبقته إلى مكة، وهنا بدأ النبى ﷺ يبحث عن حليف يمكنه من دخول مكة والاطمئنان على حياته، لذا عرض نفسه على أكثر من زعيم حتى أجابه إلى ذلك المطعم بن عدى.

فى هذا الجو المشحون بالقلق على الدعوة؛ مع فقد الناصر بمكة المتمثل فى عمه أبى طالب فضلا عن السخرية والاستهزاء من خارج مكة متمثلا فى أهل الطائف ومعاملتهم السيئة للنبى ﷺ، فى هذا الجو المظلم أراد الله لنبيه التخفيف والاطمئنان لنصرة السماء، وقد تمثل ذلك فى رحلة أرضية من مكة إلى بيت المقدس حيث صلى النبى بالأنبياء، ثم فى رحلة سماوية حين عرج به إلى السماء ليرى من آيات ربه الكبرى وليزداد يقينا بنصرة الله له، وأن الإسلام الذى يلاقى فيه كل هذا العنت والعناد من أهل مكة وغيرها سيعلو شأنه وسوف ينتشر وتسطع أنواره فى كل مكان.



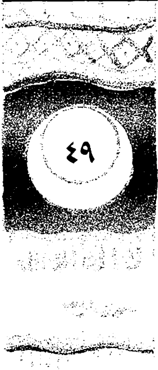
موسم الحج والدعوة إلى الإسلام

واصل النبى ﷺ دعوته، وكان موسم الحج واجتماع القبائل فى مكة فرصة سانحة للنبى ﷺ لكى ينشر الدعوة ومبادئ الإسلام وقريش ترقبه وتتبعه وتكذبه فى كل مجلس. قال ربيعة بن عباد الدؤلى: إنى لغلام شاب مع أبى بمنى ورسول الله ﷺ يقف على منازل القبائل من العرب فيقول يا بنى فلان إنى رسول الله إليكم، يأمركم أن تعبدوا الله ولاتشركوا به شيئا وأن تخلعوا ما تعبدون من دونه من هذه الأنداد، وأن تؤمنوا بى وتصدقوا بى وتمنعونى حتى أبين عن الله ما بعثنى به قال: وخلفه رجل أحول وضىء له غديرتان - أى ضفيرتان - عليه حلة عدنية، فإذا فرغ رسول الله ﷺ من قوله وما دعا إليه، قال ذلك الرجل يابنى فلان، إن هذا إنما يدعوكم أن تسلخوا اللات والعزى من أعناقكم وحلفاءكم من الجن من بنى مالك بن أقيش إلى ماجاء به من البدعة والضلالة فلا تطيعوه ولا تسمعوا فيه، قال: فقلت لأبى: يا أبت من هذا الذى يتبعه ويرد عليه مايقول؟ قال: هذا عمه عبد العزى بن عبد المطلب، أبولهب.

وهكذا كانت دعاية قريش المسمومة حائلا دون إجابة القبائل وانصرافها عن الدخول فى الدين الجديد، لذا نجد بنى محارب يرفضون الدعوة الجديدة؛ لأن قريشا وهم قوم النبى ﷺ لم يؤمنوا بالدين الجديد، فحين عرض النبى دعوته على بنى محارب كانت إجابة شيخهم: عجبا لك! يأبى قومك أن يتبعوك وتأتى إلى محارب تدعوهم إلى ترك ما كان عليه آباؤهم، اذهب فإنه غير متبعك رجل من محارب حتى آخر الدهر.

وتوالى رفض القبائل فى الموسم ومنهم قبائل كندة وقبائل كلب وبنى حنيفة وغيرهم، أما من أنصت إلى النبى ورغب فى الدخول فى الدين الجديد فقد اشترط أن يرث الملك بعد وفاة النبى ظنا منهم أن الدعوة الجديدة إنما هى دعوة دنيوية تقوم على التملك والسيطرة والسلطان، وهذا ما حدث لبنى عامر حين عرض عليهم النبى ﷺ فقال رجل منهم: أرأيت إن نحن بايعناك على أمرك ثم أظهرك الله على من خالفك، أيكون لنا الأمر من بعدك؟ قال: الأمر إلى الله يضعه حيث يشاء، قال: فقال له: أفتُهدف نحورنا للعرب دونك، فإذا أظهرك الله كان الأمر لغيرنا، لاحاجة لنا بأمرك، فأبوا عليه.

وهكذا اختلف موقف القبائل من النبى ﷺ ما بين معترض ومشترط. وواصل النبى ﷺ دعوة القبائل فى موسم الحج حتى التقى بستة من الخزرج وعرض عليهم الإسلام ومبادئه وقد



استجاب هؤلاء النفر للدين الجديد لما كانوا يسمعونه من اليهود بالمدينة من اقتراب ظهور نبى جديد. يقول ابن إسحاق: «فجلسوا معه ـ أى جلس الستة من الخزرج مع رسول ﷺ ـ فدعـاهم إلى الله عز وجل وعرض عليهم الإسـلام وتلا عليهم القرآن. قال: وكان مما صنع الله بهم فى الإسـلام أن يهود كانوا معهم فى بلادهم وكانوا أهل كـتاب وعلم وكانوا هـم أهل شرك وأصحـاب أوثان، فكانوا إذا كان بينهم شيء قالوا لهم: إن نبيا يبعث الآن، قد أظل زمانه، نتبعه فنقتلكم معه قتل عاد وإرم، فلما كلـم رسول الله ﷺ أولئك النفر ودعاهم إلى الله، قـال بعضهم لبعض: يا قوم تعلمـوا والله إنه للنبى الذي توعدكم به يهود فلا تسـبقنكم إليه، فأجابوه فيما دعاهم إليه بأن صدقـوه وقبلوا منه ما عرض عليهم من الإسلام، وقالوا: إنا قد تركنا قومنا ولا قوم بينهم من العداوة والشر ما بينهم فعسى الله أن يجمعهم بك فسنقدم عليهم فندعوهم إلى أمرك، ونعرض عليهم الذى أجبناك إليه من هذا الدين، فـإن يجمعهم الله عليه فلا رجل أعز منك. ثم انصرفوا عن رسول الله ﷺ راجعين إلى بلادهم وقد آمنوا وصدقوا».

وبذلك لعبت المعلومات السـابقة لدى هؤلاء النفر دورها فى إيمانهم، أمـا هؤلاء النفر فهم ستة من الخزرج منهـم من بنى النجار أسعد بن زرارة أبو أمامة وعـوف بن الحارث بن رفاعة ومن بنى دزين رافع بن مالك ومن بنى سلمة قطبة بن عامر وعقبة بن عامر وجابر بن عبد الله.

عاد هؤلاء النفر إلى المدينة واستطاعوا أن ينشـروا الإسلام فى عدد محدود من سكان المدينة حتى إذا كان العام التالى أقبل اثنا عشر نفرا من الأنصار مسلمين وأقبلوا على النبى مبايعين وطلبوا من النبى ﷺ داعيـة يعلمهم الإسلام ويفقهـهم فى الدين، ووقع الاختيار على الصـحابى الجليل مصعب به عـمير ليكون الداعيـة والمعلم، وقد أثمرت جهـود مصعب، فما أن أقـبل موسم الحج التالى، حتى أقبل على النبى ﷺ ثلاثـة وسبعون رجلا وامرأتان لمبايعتـه واتفقوا على مكان اللقاء سرا بعيدا عن أعين قريش، وقد حضر هذا اللقاء العباس عم النبى، وبالرغم من شركه إلا أنه أراد الاطمئنان على سلامة ابن أخيه وصدق نوايا هؤلاء القوم ولذا بادرهم قائلا:

يا معشر الخزرج : إن محمدا منا حـيث قد علمتم وقد منعناه من قومنا ممن على مثل رأينا فيه، فهو فى عز من قومه ومنعـة فى بلده، وإنه قد أبى إلا الانحياز إليكم واللحوق بكم فإن كنتم ترون أنكم وافون له بما دعـوتموه إليه ومانعوه ممن خـالفه، فأنتم ومـا تحملتم من ذلك، وإن كنتم ترون أنكم مسلمـوه وخاذلوه بعد الخروج به إليكم فمن الآن فـدعوه فإنه فى عز ومنعـة من قومه وبلده قال: فقلنا له: قد سمعنا ما قلت، فتكلم يا رسول الله فخذ لنفسك ولربك ما أحببت.

قال: فتكلم رسول الله ﷺ فتلا القرآن ودعا إلى الله ورغب فى الإسلام ثم قال أبايعكم على أن تمنعونى مما تمنعون منه نسـاءكم وأبناءكم. قال: فأخذ البراء بن معـرور بيده ثم قال: نعم والذى



بعثك بالحق نبيا لنمنعك مما نمنع منه أزرنا ـ المقصود النساء أو الأنفس ـ فبايعنا يا رسول الله فنحن والله أبناء الحروب وأهل الحلقة ـ السلاح ـ ورثناها كابرا عن كابر. قال فاعترض القول والبراء يكلم رسول الله ﷺ أبو الهيثم بن التيهان فقال: يا رسول الله إن بيننا وبين الرجال حبالا وإنا قاطعوها ـ يعنى اليهود ـ فهل عسيت إن نحن فعلنا ذلك ثم أظهرك الله أن ترجع إلى قومك وتدعنا؟ وقال: فتبسم رسول الله ﷺ ثم قال: بل الدم الدم والهدم الهدم ـ معناه دمى دمك وما تهدمه أنت أهدمه أنا ـ أحارب من حاربتم وأسالم من سالمتم. وقال رسول الله ﷺ: أخرجوا إلى منكم اثنى عشر نقيبا ليكونوا على قومهم بما فيهم، فأخرجوا منهم اثنى عشر نقيبا: تسعة من الخزرج وثلاثة من الأوس وقال الرسول للنقباء: أنتم على قومكم بما فيهم كفلاء ككفالة الحواريين لعيسى ابن مريم وأنا كفيل على قومى ـ يعنى المسلمين ـ قالوا: نعم».

بهذه البيعة، بدأت مرحلة جديدة فى تاريخ الدعوة الإسلامية وهى مرحلة الانطلاق لبناء الدولة الإسلامية فى ظل من الحماية والمنعة من أهل المدينة، كما أن أرضهم سوف تصبح أرض إسلام، وترتب على ذلك أن سمح النبى ﷺ بالهجرة للمسلمين من مكة إلى المدينة.

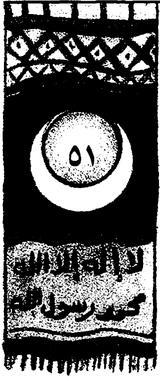


الهجرة

أدركت قريش الخطر الذى يهددها نتيجة مبايعة أهل يثرب للنبى ﷺ، فقد صارت له قوة يركن إليها ويستعين بها، كما أدركت النتائج المترتبة على هجرة أبنائها إلى المدينة وذلك بعد أن سمح لهم النبى بالهجرة وما يترتب على ذلك من تكوين جبهة قوية تضم أبناء مكة المسلمين بالإضافة إلى مسلمى المدينة، وأن المسلمين بنوعيهم مهاجرين وأنصارا، ربما انطلقوا من قاعدتهم بيثرب للإغارة على مكة والقضاء على دين الآباء والأجداد، فضلا عن أنهم يشكلون خطرا على تجارة مكة المتجهة إلى الشام؛ والتجارة هى عصب الحياة لقريش.

هذه المخاطر بدت واضحة أمام زعماء قريش، لذا دعا الزعماء لعقد اجتماع حاسم يصلون فيه إلى رأى قاطع بشأن صاحب الدعوة، وقد أشارت المراجع إلى الحوار الذى دار بين الزعماء فى دار الندوة، ومن ذلك ما ذكره ابن إسحاق:

«فقال بعضهم لبعض: إن هذا الرجل قد كان من أمره ما قد رأيتم، فإنا والله ما نأمنه على الوثوب علينا فيمن اتبعه من غيرنا، فأجمعوا فيه رأيا. قال: فتشاوروا ثم قال قائل منهم: احبسوه



فى الحديد وأغلقـوا عليه بابا ثم تربصوا به مـا أصاب أشباهه من الشـعراء الذين كانوا قبله ومن مضى منهم من هذا الموت حتى يصيبه ما أصابهم.

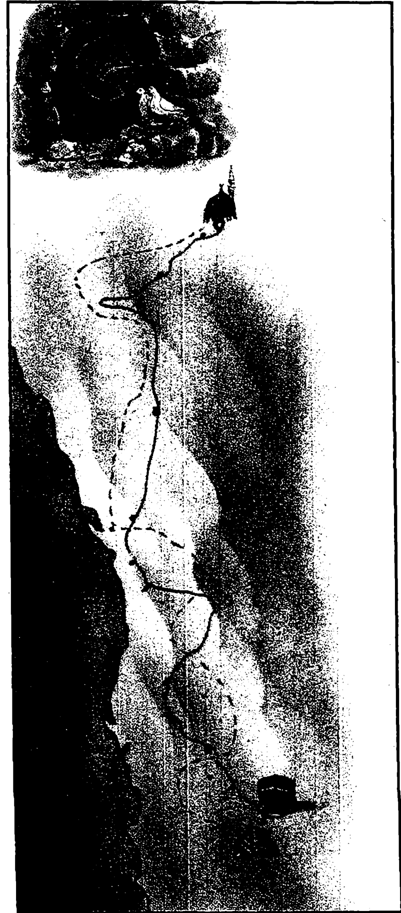
فقال الشيخ النجدى: لا والله، ما هذا لكم برأى والله لئن حـبستموه كما تقولون ليخرجن أمره من وراء الباب الذى أغلقتم دونه إلى أصحابه فلأوشكوا أن يثبوا عليكم فينتزعوه من أيديكم ثم يكاثروكم به حتى يغلبوكم على أمركم ما هذا لكم برأى فانظروا فى غيره.

فتشاوروا ثم قال قائل منهم: نخـرجه من بين أظهرنا فننفيه من بلادنا فإذا أخرج عنا فوالله مـا نبالى أين ذهب ولا حيث وقع إذا غاب عنا وفرغنا منه فـأصلحنا أمرنا وألفتنا كما كانت.

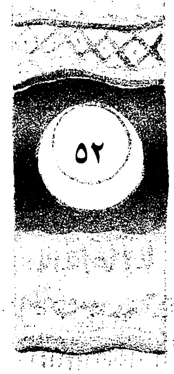
فقـال الشيخ النجـدى: لا والله ما هذا لكم برأى.. ألم تروا حسن حـديثه وحـلاوة منطقه وغلبتـه على قلوب الرجال بمـا يأتى به، والله لو فعلتم مـا أمنتم أن يحل على حى من العرب فيغلب عليهـم بذلك من قوله وحديثه حتى يتابعوه عليه ثم يسير بهم إليكم حتى يطأكم بهم فى بلادكم فيأخذ أمركم من أيديكم، ثـم يفعل بكم ما أراد، دبروا فيه رأيا غير هذا.

قال: فقال أبو جهل بن هشام: والله إن لى فيه لرأيا ما أدراكم وقعتم عليه بعد قالوا: وما هو يا أبا الحكم؟ قال: أرى أن نأخذ من كل قبيلة فتى شابا جلدا نسيبا وسطا فينا، ثم نعطى كل فتى منهم سيفا صارما ثم يعمدوا إليه فيضربوه بها ضربة رجل واحد فيقتلوه فنستريح منه، فإنهم إذا فعلوا ذلك تفرق دمه فى القبائل جميعا، فلم يقدر بنو عبد مناف على حـرب قومهم جـميـعا فـرضوا منا بالعـقل ـ الدية ـ فعقلناه لهم.

قال: فقـال الشيخ النجدى: «القول مـا قال الرجل، هذا الرأى لا رأى غـيـره. فتـفـرق القـوم على ذلك وهم مجمعون له».

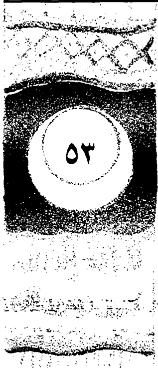


خريطة الهجرة



من النص السابق نستنبط مدى ما تعانيه قريش من الدين الجديد، وكيف أنها استعرضت كل الآراء فى سبيل القضاء على صاحب الدعوة، وأنها استقرت فى النهاية على قتله وأن يشترك فى القتل أبناء القبائل؛ وبذلك لا يستطيع بنو هاشم محاربة كل القبائل ومن ثم يقبلون الدية وتستريح قريش من عناء الدعوة الجديدة.

هذه الخطة المحكمة لم تنجح لأن الله حفظ نبيه ودعوته وجاء الوحى وأخبر النبى ﷺ بما دبرته قريش ويأمره بالهجرة إلى يثرب، وصحب النبى ﷺ أبا بكر فى الرحلة من مكة إلى المدينة، ورعاية الله وعنايته تحوطهما من أخطار الطريق وما يتربص بهما خلال الرحلة حتى وصلا سالمين يوم الإثنين الثامن من شهر ربيع الأول سنة ثلاث وخمسين مضت من مولده.



القسم الثالث
بناء الدولة الإسلامية فى المدينة

قبل أن نتناول الحديث عن التنظيمات الإدارية التى أقامها الرسول ﷺ فى المدينة نشير إلى الوضع الجغرافى لها وما كان يسودها قبل مجىء الرسول ﷺ.

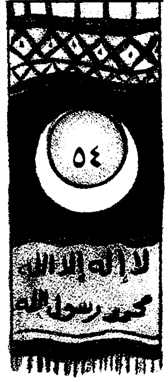
تقع المدينة شمالى مكة وتبعد عن ساحل البحر الأحمر بحوالى ٧٠ كم، وتمتد رقعة المدينة حوالى اثنى عشر ميلا وعرضها حوالى عشرة أميال، ويخترقها وادى بطحان الذى يجرى من الجنوب الشرقى إلى الشمال الغربى ثم يجتمع فى وادى العقيق الذى يأتى من أواسط الحجاز، ويجرى فى الأطراف الجنوبية والغربية من المدينة ثم ينحرف غربا ليصب فى البحر بالقرب من ينبع، وتصب فى وادى بطحان عدة وديان فرعية تجرى من الجنوب، بالإضافة إلى ذلك يوجد فى المدينة عدد من الآبار الكبيرة التى يستفاد من مياهها الغزيرة فى الشرب والزراعة.

وقد انتشرت المزارع فى منطقة المدينة، وفصلت بين المجموعات السكنية التى تكونت منها عند ظهور الإسلام عدة مجموعات كل منها كالقرية، أشهرها قباء فى الجنوب وزهرة فى الشرق ويثرب وزبالة فى الشمال.

والمدينة قديمة فى التاريخ ويبدو أن اسمها القديم الشائع هو يثرب، وقد ذكر القرآن هذا الاسم ﴿ **وَإِذْ قَالَت طَّائِفَةٌ مِّنْهُمْ يَا أَهْلَ يَثْرِبَ لا مُقَامَ لَكُمْ فَارْجِعُوا...** ﴿١٣﴾ ﴾ [الأحزاب]، ولكن الذى كان شائعا عند ظهور الإسلام هو تسميتها المدينة، وبهذا الاسم ذكرت فى القرآن الكريم وفى الأحاديث النبوية وكتب التاريخ والأدب.

والمدينة بهذا الموقع المتميز والظروف الطبيعية جعلتها منطقة حصينة، لذا كان «من حكمة الله أن اختارها دار هجرة الرسول ﷺ ومركزا للدعوة عدا ما أراده الله من إكرام أهلها وأسرار لا يعلمها إلا الله أنها امتازت بتحصين طبيعى حربى لا تزاحمها فى ذلك مدينة أخرى فى الجزيرة فكانت حرة الوبرة مطبقة على المدينة من الناحية الغربية وحرة واقم مطبقة على المدينة من الناحية الشرقية، وكانت المنطقة الشمالية من المدينة هى الناحية الوحيدة المكشوفة - وهى التى حصنها رسول الله ﷺ، بالخندق سنة خمس فى غزوة الأحزاب - وكانت الجهات الأخرى من أطراف المدينة محاطة بأشجار النخيل والزرع الكثيف لا يمر منها الجيش إلا فى طرق ضيقة لا تتفق فيها والنظام العسكرى وترتيب الصفوف».

أما عن سكانها قبل هجرة المسلمين إليها فكانت تتكون من بعض قبائل اليهود وبعض القبائل العربية، **أما عن اليهود** فقد كانوا جاليات كبيرة انتشروا فى أماكن كثيرة من يثرب والطرق



المؤدية إلى الشام وكانت كتل اليهود الكبرى تتركز فى يثرب بالذات حيث كان فيها ثلاث قبائل وهى: بنو قنيقاع وبنو النضير وبنو قريظة، وإلى جانبها كانت توجد بطون وعشائر يهودية متفرقة ذكر السمهودى أنها كانت أكثر من عشرين بطنا. يقول أحد الباحثين: عاشت قبائل اليهود الثلاث الكبرى فى مساكنها عيشة التكتل والأحياء الخاصة، بينما عاشت البطون الصغيرة منتشرة إلى جوارهم أو إلى جوار البطون العربية فى يثرب، وقد ابتنى اليهود الحصون والقلاع والقرى المحصنة، وكانت من القوة والمناعة بحيث ظنوا أنها مانعتهم ممن يريدهم وبحيث ظن العرب ذلك. ومما لا ريب فيه أن هذه الحصون والقلاع والقرى كانت وسيلة لتوطيد مركز اليهود وإقرارا لهيبتهم فى نفوس العرب، كما كانت دليلا على ما كانوا عليه من قوة.

والعنصر الثانى من سكان المدينة هم العرب وكانوا وقت هجرة الرسول ﷺ «أصحاب الكلمة العليا فى يثرب وبيدهم كان توجيه الأمور بها وجموع العرب بالمدينة ما عدا بعض العشائر الصغيرة تنتسب إلى قبيلتين كبيرتين هما الأوس والخزرج، وأما عن صفاتهم الأخلاقية فكانوا أصحاب نخوة وإباء وفروسية وقوة شكيمة، ألفوا الحرية ولم يخضعوا لأحد ولم يدفعوا إلى قبيلة أو حكومة إتاوة أو جباية، وقد جاء ذلك صريحا فى الكلمة التى قالها سعد بن معاذ سيد الأوس لرسول الله ﷺ: قد كنا نحن وهؤلاء القوم على الشرك بالله وعبادة الأوثان ولا نعبد الله ولا نعرفه، وهم لا يطمعون أن يأكلوا منها ثمرة إلا قرى أو بيعا».

أما عن النظم التى كانت سائدة فيها قبل الإسلام فهو النظام القبلى «فكان أفراد كل عشيرة يسكنون معا فى منطقة واحدة تقع فيها مزارعهم كما أنهم يشتركون فى الدية عن القتل الخطأ ويتعاونون فى الشدائد، والواقع أن التماسك العشائرى لم يكن قويا فقد حدثت زيجات بين أفراد عشائر مختلفة مما كان له أثر فى تخفيف آثار العزلة العشائرية التى كانت كثيرا ما تقوى الشكوك وتزيد فى العداء، وللمرأة مكانة مستقلة فقد كن يبايعن الرسول ﷺ بشروط منبثقة من طبيعة المرأة».

صارت السلطة فى المدينة بعد الهجرة بيد رسول الله ﷺ باعتباره الرسول الذى له مكانة خاصة منفردة والذى اختاره الله لتبليغ رسالته وإعلام الناس بأوامر الله مصداقا لقوله تعالى: ﴿ **... وَمَا آتَاكُمُ الرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَاكُمْ عَنْهُ فَانتَهُوا ...** ﴿٧﴾ ﴾ [الحشر] كما أن هناك من الآيات التى وردت فى كتاب الله تأمرنا بطاعة الله ورسوله ﴿ **قُلْ أَطِيعُوا اللَّهَ وَالرَّسُولَ ...** ﴿٣٢﴾ ﴾ [آل عمران]، ﴿ **وَمَا أَرْسَلْنَا مِن رَّسُولٍ إِلاَّ لِيُطَاعَ بِإِذْنِ اللَّهِ ...** ﴿٦٤﴾ ﴾ [النساء]، ﴿ **مَن يُطِعِ الرَّسُولَ فَقَدْ أَطَاعَ اللَّهَ ...** ﴿٨٠﴾ ﴾ [النساء]، وهناك آيات كثيرة تشير إلى هذا المعنى، وهو وجوب طاعة الرسول ﷺ لأنها من طاعة الله.



ويمكننا أن نـلمس الخطوط العـامـة لتنظيـمـاته ﷺ فى المدينة وتتـمـثل فى خطوط ثلاثة:

بناء المسجد، والمؤاخاة بين المهاجـرين والأنصار، ثم المعاهدة بين المسلمين من جهة واليهود سكان المدينة من جهة أخرى.

أما عن بناء المســجد فكان أول شىء فعله حين هجـرته إلى يثرب أن شرع ﷺ فى بناء مسجد يجتمع فيــه المسلمون للعبادة ومعرفة أحكام الدين، ولم يكن فقط هو الهدف من إنشاء المسـجد، وإنما جعل أيضا للمشاورة وللقـضايا وشئون التجارة، وفيــه يلتفون حول الرسول ﷺ يأخذون عنه مـبادئ الدين الجديد ونظم المجتـمع، وفى هذه المدرسة النبوية ستـمتزج النفوس والـعقليات وتقوى الوحـدة وتتآلف القلوب بسبب المخالطة ويتفاهم بعضهم مع بعض مما قضى على رابطة القـبلية الضعيفة وأحل محلها رابطة إسلامية، ومن هذا المكان ينبعث الأذان خمس مرات فى اليوم يعلن أن كلمة الله هى العليا.

وأما المؤاخـاة بين المهاجرين والأنصـار ومعاهدة اليـهود فقد نظـمتها الوثيقـة التى صارت دستورا لأهل المدينة، ويمكننا أن نلخص مبادئها فيما يلى:

أولا: أقرت الصـحيفة الوحـدة بين المسلمين على اختـلاف قبائلهم وعشـائرهم وأنهم أمة واحدة.

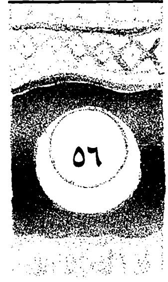
ثانيا: أن الشعار الذى يجب أن يسود بين المسلمين هو شعار التعاون والتضامن.

ثالثـا: الحـرية الدينيـة مكفـــولة لليـــهـــود ولهم من الحـقـوق مثل مـا للمـسلمـين وعليـهم الدفـاع عن المدينة فى حالة وقوع هجوم عليها.

رابعا: أن الحكم وإقرار الأمور إنما مرده كتاب الله وسنة نبيـه وليـس للثـأر ودعـاوى الجاهلية سبيل بين المسلمين.



مسجد قباء أول مسجد وضع لعامة المسلمين بالمدينة المنورة



خامسا: أنه لا سلام مع قريش ولا تعامل حتى تدخل فى دين الله.

سادسا: أن نفقات الحرب موزعة على السكان، وكل جماعة مسئولة عن تجهيز نفسها للقتال.

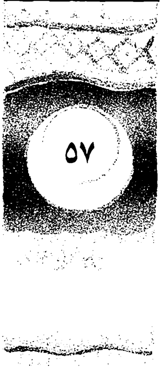
ومن ناحية أخرى فإن هذه المؤاخاة بين المهاجرين والأنصار لم تقتصر على الفريقين مع بعضهما البعض «فقد آخى بين مهاجر ومهاجر وبين أنصارى وأنصارى، وكان قصد الرسول ﷺ من ذلك الإجراء أن يقرب بين بعض قبائل المهاجرين والبعض الآخر، كما قصد أن يقرب أيضا بين الأوس والخزرج إذ كانت الحروب بينهما قريبة، وليس هذا فحسب فقد آخى بين أفراد من أعظم القبائل العربية وبين بعض الموالى والعبيد، فمثلا آخى بين حمزة بن عبد المطلب وزيد بن حارثة وبين أبى الدرداء وسلمان الفارسى، وكانت نتيجة ذلك أن تكونت أسرة إسلامية واحدة تكونت من القبائل المتعددة ونسى كل أرومته ومحتده وتطلع لرباط الإسلام الذى ألف الله ما بين معتنقيه، وأصبح جمهور سكان المدينة جماعتين فقط هما جماعة المسلمين وجماعة غير المسلمين وأغلبهم من اليهود فأتاح ذلك للرسول أن يخطو خطوة حاسمة يحقق بها التحالف بين سكان المدينة جميعا ويضرب المثل العليا للتعاون بين أتباع الأديان المختلفة على أساس من حرية العقيدة وحرية الدين.

تنظيمات الرسول ﷺ الاقتصادية

وضع القرآن الكريم والسنة المطهرة أسس النظام الاقتصادى، ذلك النظام الذى يقوم على العدالة الاجتماعية ويمنع استغلال الأقوياء للضعفاء وكذلك الأغنياء للفقراء، إذ جعل للفقير حقا معلوما فى مال الغنى كما منع الغزو والقتال والعدوان بين المسلمين إذ إن الإسلام ألف بينهم وأصبحوا بنعمته إخوانا، كما حرم الربا ومنع الممارسات اللاأخلاقية والاستغلال، وألغى ما كان يأخذه الحكام من عشور وضرائب.

والزكاة ركن من أركان الإسلام وفريضة فرضها الله فى أموال الأغنياء لتنفق على الفقراء والمحتاجين، وبجانب فريضة الزكاة كان هناك خمس الغنيمة والفىء؛ أما الخمس فقد بينت سورة الأنفال توزيعه وجرى العمل بذلك التوزيع فكانت الغنائم تجمع ثم تقسم خمسة أقسام: للجند أربعة منها ثم يقسم الخمس الباقى خمسة أقسام أيضا كما ورد فى الآية:

١ ـ لله ورسوله. ٢ ـ ذو القربى. ٣ ـ اليتامى. ٤ ـ المساكين. ٥ ـ ابن السبيل.



وأما الفيء فهو ما يقع فى أيدى المسلمين بلا قتال أثناء طريقهم للغزو ولم يوجفوا عليه بخيْل ولا ركاب كما ورد ذلك فى سورة الحشر.

كذلك ورد فى القرآن الكريم من الآيات ما ينظم علاقات التعامل بين المسلمين ومن ذلك:

١ ـ أمر أمرا عاما بالوفاء بالعقود وهى كلمة تشمل جميع الالتزامات التى يلتزمها الإنسان.

٢ ـ نهى عن أكل أموال الناس بالباطل والإدلاء بها إلى الحكام وأباح الربح من التجارة.

٣ ـ نهى عن أكل الربا أشد نهى ومثل آكليه أشنع تمثيل كما ورد فى سورة البقرة.

٤ ـ بين شكل التعامل فى أطول آية من القرآن وهى آية الدين فيها أمر مؤكد بكتابة الدين والاستشهاد عليه، ثم جعل الرهن وثيقة بما فى الذمة إن لم يجدوا كاتبا ثم وكلهم إلى أنفسهم وذممهم إن أمن بعضهم بعضا وأمر من اؤتمن أن يؤدى أمانته.

التنظيمات العسكرية

الحرب والقتال والفر والكر كانوا من سمات الحياة العربية قبل الإسلام، فالعربى محارب بطبعه، فرض عليه ذلك تلك البيئة الصحراوية القاسية ونوع الحياة فيها وسبل تحصيل رزقه.

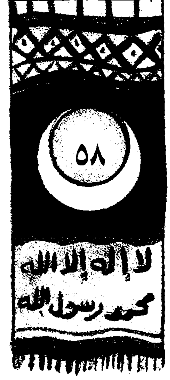
فلما جاء الإسلام، شرع الله الجهاد لأسباب تختلف عن الأسباب التى تعود عليها العرب وألفوها فالقتال فى الإسلام يرجع إلى أمرين:

أولا ـ الدفاع عن النفس عند التعدى.

ثانيا ـ الدفاع عن الدعوة إذا وقف أحد فى سبيلها بفتنة من آمن أى بإرغامه بأنواع التعذيب حتى يرجع عما اختاره لنفسه دينا أو بصد من أراد الدخول فى الإسلام أو بمنع الداعى من تبليغ الدعوة.

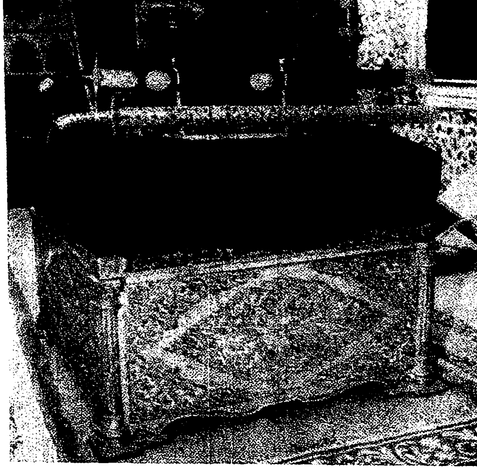
ففى قوله تعالى: ﴿**أُذِنَ لِلَّذِينَ يُقَاتَلُونَ بِأَنَّهُمْ ظُلِمُوا وَإِنَّ اللَّهَ عَلَىٰ نَصْرِهِمْ لَقَدِيرٌ** ﴿٣٩﴾
الَّذِينَ أُخْرِجُوا مِن دِيَارِهِم بِغَيْرِ حَقٍّ إِلَّا أَن يَقُولُوا رَبُّنَا اللَّهُ... ﴿٤٠﴾﴾ [الحج].

وقد تضمنت الآية السبب فى مشروعية القتال وهو ما عاناه المسلمون فى مكة من إيذاء واستيلاء على الأموال والممتلكات فكان الجهاد لرد العدوان ومحاربة البغى والظلم ثم تتابعت



الآيات التى توضح حقيقة الجهاد وأن الهدف الأساسى هو نشر دين الله وتحرير العقل البشرى من جهالة الشرك وعبادة غير الله تعالى ﴿وَقَاتِلُوهُمْ حَتَّىٰ لَا تَكُونَ فِتْنَةٌ وَيَكُونَ الدِّينُ كُلُّهُ لِلَّهِ فَإِنِ انتَهَوْا فَإِنَّ اللَّهَ بِمَا يَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴿٣٩﴾﴾ [الأنفال].

كما أن النبى ﷺ كان عليه تأمين حدود المدينة وإشعار القبائل المتربصة والمحيطة بالمدينة بقوة المسلمين وبمقدرتهم على الدفاع عن عقيدتهم ووطنهم الجديد.



سيفا النبى ﷺ فوق غطاء مخملى والسيف موجود بالقسم الأمامى، وأعيد صنع السيف الثانى على نمط السيف الأول

نشاط المسلمين العسكرى ضد المشركين

خرجت السرايا من المدينة لاستمالة القبائل المحيطة بالمدينة وعقد المعاهدات معها ونشر الإسلام بينها، ثم أخذ النبى ﷺ يترصد قوافل قريش كنوع من الحرب الاقتصادية؛ إذ إن عماد الحياة فى قريش هو قوافلها التجارية، فإذا ما أصيبت قريش فى تجارتها سهل على النبى إخضاعها ونشر الإسلام فى القبائل العربية، وبذلك بدأت فترة من المعارك بين المسلمين وقريش، بعضها سرايا وهى التى لم يقدها النبى ﷺ وبعضها غزوات وهى التى شارك فيها النبى ﷺ.

غزوة ودان

وأولى غزواته ﷺ غزوة ودان ولم يحدث فيها قتال ورجع منها النبى ﷺ بعد أن عقد معاهدة مع بنى ضمرة. يقول ابن إسحاق: «حتى بلغ ودان وهى غزوة الأبواء يريد قريشا وبنى



ضمرة بن بكر فوادعته فيها بنو ضمرة وكان الذى وادعه منهم عليهم مخشى بن عمرو الضمرى وكان سيدهم فى زمانه ذلك، ثم رجع رسول الله ﷺ إلى المدينة ولم يلق كيدا. . وهى أول غزوة غزاها».

غزوة بواط

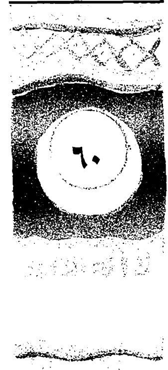
وشبيه بغزوة ودان غزوة بواط، وقد خرج النبى ﷺ على رأس قواته فى ربيع الأول بهدف الالتقاء بقوافل قريش حتى بلغ بواط من ناحية رضوى إلا أنه لم يحدث اشتباك ورجع النبى ﷺ إلى المدينة.

سرية عبدالله بن جحش:

أرسل النبى ﷺ عبد الله بن جحش قائدا على ثمانية من المهاجرين لاستطلاع أحوال قريش وأعطاه كتابا وأمره ألا يفتحه إلا بعد مسيرة يومين، فلما سار عبد الله يومين هو وجماعته فتح الرسالة فوجد فيها: «إذا نظرت فى كتابى هذا فامض حتى تنزل نخلة بين مكة والطائف فترصد بها قريشا وتعلم لنا من أخبارهم، فلما نظر عبد الله بن جحش فى الكتاب قال: سمعا وطاعة. ثم قال لأصحابه: قد أمرنى رسول الله ﷺ أن أمضى إلى نخلة أرصد بها قريشا حتى آتيه منهم بخبر، وقد نهانى أن أستكره أحدا منكم، فمن كان يريد الشهادة ويرغب فيها فلينطلق ومن كره ذلك فليرجع، فأما أنا فماض لأمر رسول الله ﷺ، فمضى ومضى معه أصحابه لم يتخلف عنه منهم أحد».

بهذا الأمر، وضح الهدف من خروج هذه الجماعة وهو الاستطلاع والتعرف على أخبار قريش، سارت الجماعة فى طريقها لتحقيق الهدف حتى وصلوا إلى مكان يدعى نخلة وإذا بقافلة تجارية لقريش تحمل بضائع تسير فى حماية جماعة من المشركين بقيادة عمرو بن الحضرمى، وهنا تشاور المسلمون ما يصنعونه بالقافلة؛ ومما عقد الموقف أن تاريخ لقائهم بالقافلة كان آخر يوم فى شهر رجب وهو من الأشهر الحرم التى يمتنع فيها القتال، ومن ناحية أخرى لو سمحوا للقافلة بالمسير ودخلت مكة لامتنع عليهم قتالها، وبعد عدة مشاورات، استقر أمرهم على منازلة القافلة والاستيلاء عليها.

وهذه الجماعة ـ أى جماعة عبد الله بن جحش ـ بقتالها للمشركين خالفت أوامر النبى ﷺ الذى لم يأمرهم بقتال فضلا عن قتالهم فى شهر رجب وهو شهر تحرم العرب القتال فيه، وقد



استغلت قريش هذه الحادثة فى التشنيع على النبى وأصحابه أنهم يستحلون القتال فى الأشهر الحرم. يقول ابن إسحاق: «فلما قدموا على رسول الله ﷺ قال: ما أمرتكم بقتال فى الشهر الحرام فوقف العير والأسيرين وأبى أن يأخذ من ذلك شيئا، فلما قال ذلك رسول الله ﷺ سقط فى أيدى القوم، وظنوا أنهم قد هلكوا، وعنفهم إخوانهم من المسلمين فيما صنعوا، وقالت قريش: قد استحل محمد وأصحابه الشهر الحرام وسفكوا فيه الدم وأخذوا فيه الأموال وأسروا فيه الرجال فقال يرد عليهم من المسلمين ممن كان بمكة: إنما أصابوا ما أصابوا فى شعبان».

فلما أكثر الناس فى ذلك أنزل الله على رسوله: ﴿**يَسْأَلُونَكَ عَنِ الشَّهْرِ الْحَرَامِ قِتَالٍ فِيهِ قُلْ قِتَالٌ فِيهِ كَبِيرٌ وَصَدٌّ عَن سَبِيلِ اللَّهِ وَكُفْرٌ بِهِ وَالْمَسْجِدِ الْحَرَامِ وَإِخْرَاجُ أَهْلِهِ مِنْهُ أَكْبَرُ عِندَ اللَّهِ ...**﴾ ﴿٢١٧﴾ [البقرة]، فلما نزل القرآن بهذا الأمر فرج الله عن المسلمين ما كانوا فيه من الخوف وقبض رسول الله ﷺ العير والأسيرين.

وهكذا حسمت الآيات الكريمة مشكلة القتال فى الشهر الحرام وأن محاربة الدين والصد عنه أكبر عند الله من القتال فى الشهر الحرام، وبذلك انفرجت أزمة عبد الله بن جحش وأصحابه.

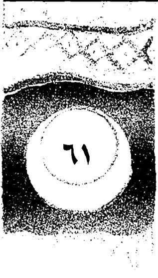


غزوة بدر

وكان فيها الصدام الكبير بين رسول الله ﷺ ومن معه من المسلمين وبين قوى الشرك بقيادة زعماء قريش ورؤسائها.

وكانت الأنباء قد بلغت النبى ﷺ عن طريق العيون والجواسيس أن قافلة ضخمة محملة بالمتاجر يقودها أبو سفيان قد أقبلت من الشام بقيادة أبى سفيان، وقد وجدها النبى ﷺ فرصة سانحة للقضاء على هيبة قريش فضلا عن حرمانها من أموالها وبضائعها، ومن ناحية أخرى سيجد المهاجرون الذين تركوا أموالهم وعقارهم بمكة واستولت عليه قريش سيجد هؤلاء المهاجرون فى ذلك المال القرشى تعويضا لهم عما فقدوه، ومن ثم استحث النبى ﷺ أصحابه للخروج لمقابلة القافلة والاستيلاء عليها. يقول ابن إسحاق:

«لما سمع رسول الله ﷺ بأبى سفيان مقبلا من الشام، ندب المسلمين إليهم وقال: هذه عير قريش فيها أموالهم فاخرجوا إليها لعل الله أن ينفلكموها، فانتدب الناس فخف بعضهم وثقل بعضهم وذلك أنهم لم يظنوا أن رسول الله ﷺ يلقى حربا».



واستطاع أبو سفيان عن طريق التجسس واستطلاع الأنباء أن يعرف بتجهيز المسلمين وخروجهم للاستيلاء على القافلة، ومن ثم أسرع وأرسل ضمضم بن عمرو الغفارى إلى قريش يستنفرها ويحثها على الإسراع لإنقاذ القافلة، وهذا بدوره أقبل على مكة بأسرع ما يستطيع وقد جرح بعيره وشق قميصه وهو يقول: يا معشر قريش: اللطيمة اللطيمة ـ أى القافلة ـ أموالكم مع أبى سفيان قد عرض لها محمد فى أصحابه، الغوث، الغوث.

بهذا المنظر المثير المؤثر هبت قريش للدفاع عن هيبتها وكرامتها وتجارتها قبل أن يفلت الزمام من يدها وتصير هزيلة فى نظر العرب فضلا عن ضياع أموالها، لذا وجدنا كل قادر على حمل السلاح يخرج للمعركة ومن لم يستطع استأجر من ينوب عنه وزوده بالسلاح والطعام، أما من تكاسل وتراخى فكان نصيبه السخرية والاستهزاء، من ذلك «أن أمية بن خلف كان أجمع القعود، وكان شيخا جليلا جسيما ثقيلا فأتاه عقبة بن أبى معيط وهو جالس فى المسجد بين ظهرانى قومه بمجمرة يحملها فيها نار وعود حتى وضعها بين يديه ثم قال: يا أبا على استجمر فإنما أنت من النساء قال: قبحك الله وقبح ما جئت به قال: ثم تجهز فخرج مع الناس».

وهكذا استطاع زعماء قريش تحريض من لم يرغب فى القتال ومن ثم خرجت بجموعها قاصدة إنقاذ القافلة والثأر من محمد وأصحابه.

بخروج قريش فى عدة الحرب تغير الموقف بالنسبة للمسلمين وأصبحت المهمة الجديدة هى مواجهة قوات قريش فى معركة فاصلة ووجد النبى ﷺ فى موقف يحتاج فيه أخذ رأى الأنصار فى الحرب المقبلة، إذ إن ما بينه وبينهم من عهود إنما تتعلق فقط بالدفاع عن النبى داخل المدينة وحمايته بها، أما وقد خرج من المدينة فقد تغير الموقف، ومن ثم بدأ النبى يوجه حديثه إلى جميع المسلمين طالبا رأيهم ومشورتهم وهو يقصد بصفة خاصة الأنصار. يقول ابن هشام: «وأتاه الخبر عن قريش بمسيرهم ليمنعوا عيرهم فاستشار الناس وأخبرهم عن قريش فقام أبو بكر الصديق فقال وأحسن ثم قام عمر بن الخطاب فقال وأحسن ثم قام المقداد بن عمرو فقال: يا رسول الله امض لما أراك الله فنحن معك، والله لا نقول لك كما قالت بنو إسرائيل لموسى: اذهب أنت وربك فقاتلا إنا ها هنا قاعدون» ولكن اذهب أنت وربك فقاتلا إنا معكما مقاتلون فوالذى بعثك بالحق لو سرت بنا إلى برك الغماد ـ موضع بناحية اليمن ـ لجالدنا معك من دونه حتى تبلغه. فقال له رسول الله ﷺ خيرا ودعا له به.

ثم قال رسول الله ﷺ: أشيروا على أيها الناس. وإنما يريد الأنصار، فلما قال رسول الله ﷺ ذلك قال له سعد بن معاذ: والله لكأنك تريدنا يا رسول الله؟ قال: أجل. قال: فقد آمنا بك وصدقناك وشهدنا أن ما جئت به هو الحق وأعطيناك على ذلك عهودنا ومواثيقنا على السمع

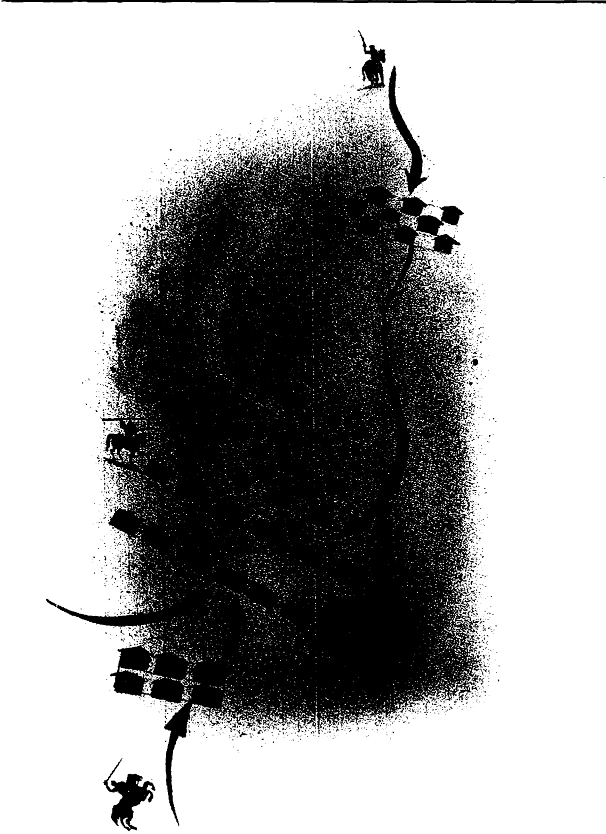


والطاعة فامض يا رسول الله لما أردت فنحن معك فوالذى بعثك بالحق لو استعرضت بنا هذا البحر فخضته لخضناه معك، ما تخلف منا رجل واحد وما نكره أن تلقى بنا عدونا غدا، إنا لصبر فى الحرب صدق فى اللقاء لعل الله يريك ما تقر به عينك فسر بنا على بركة الله، فسر رسول الله ﷺ بقول سعد ونشطه ذلك ثم قال: سيروا وأبشروا فإن الله تعالى قد وعدنى إحدى الطائفتين والله لكأنى الآن أنظر إلى مصارع القوم».

وهكذا أعلن الأنصار قرارهم وهو الوقوف بجوار النبى والدعوة الإسلامية فى كل الظروف وفى كافة الميادين مهما تحملوا من تبعات، وقد فرح النبى بصدق إيمانهم وقوة عقيدتهم.

نزل النبى ﷺ قريبا من ماء بدر وقد رتب الجند وجعل اللواء لمصعب بن عمير وكان اللواء أبيض اللون فى حين حمل على بن أبى طالب وأحد الأنصار رايتين سوداوين وجعل على المؤخرة قيس بن أبى صعصعة، أما الأنصار فكانت رايتهم مع سعد بن معاذ.

وعند نزول المسلمين قريبا من ماء بدر، وجد الحباب بن المنذر أن معسكر المسلمين ليس فى المكان الصالح للقتال، ومن هنا وجه للنبى سؤالا: يا رسول الله أرأيت هذا المنزل أمنزل أنزلكه الله ليس لنا أن نتقدمه ولا نتأخر عنه أم هو الرأى والحرب والمكيدة؟ فكان جواب النبى الكريم: بل هو الرأى والحرب والمكيدة، وهنا اقترح الحباب أن ينتقل المسلمون من مكانهم ويجعلوا ماء بدر خلفهم يشربون هم ويحرمون العدو من الشرب، وقد وافق النبى ﷺ وانتقل الجيش إلى المكان الجديد.



استطاع أبو سفيان أن ينجو بالقافلة ويبعدها عن القوات الإسلامية، وخلال ذلك علم بخروج قريش لمحاربة النبى وصحبه، ومن ثم أرسل إلى زعماء قريش يدعوهم إلى الرجوع وعدم خوض المعركة لأن القافلة قد نجت ولا مبرر لدخول قريش فى معركة إلا أن العصبية القرشية والعداوة المتأصلة فى نفس أبى جهل جعلته لا يستجيب لنداء أبى سفيان، قال



أبو جهل: والله لا نرجع حتى نرد بدرا ـ وكان بدر موسما من مواسم العرب يجتمع لهم به سوق كل عام ـ فنقيم عليه ثلاثا فننحر الجزر ونطعم الطعام ونسقى الخمر وتعزف علينا القيان وتسمع بنا العرب وبمسيرنا وجمعنا فلا يزالون يهابوننا أبدا بعدها فامضوا.

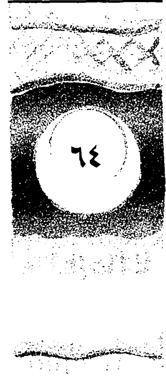
وبرغم إصرار أبى جهل على الإقامة فى بدر فى مواجهة القوات الإسلامية، وأن نذر الحرب بدأت تظهر فى الأفق واستعد الفريقان للقتال إلا أن بعض عقلاء قريش بدأوا يحرضون قومهم على الرجوع دون قتال منعا لقتل الأقارب والأصحاب، وهذا ما قاله عتبة بن ربيعة حين وقف فى معسكر المشركين يدعوهم إلى الرجوع، قال لهم: يا معشر قريش إنكم والله ما تصنعون بأن تلقوا محمدا وأصحابه شيئا، والله لئن أصبتموه لا يزال الرجل ينظر فى وجه رجل يكره النظر إليه قتل ابن عمه أو ابن خاله أو رجلا من عشيرته فارجعوا وخلوا بين محمد وبين سائر العرب فإن أصابوه فذاك الذى أردتم وإن كان غير ذلك ألفاكم ولم تعرّضوا منه ما تريدون.



إلا أن صوت عتبة وغيره من الأصوات العاقلة ضاعت بين صرخات الحرب وشهوة الانتقام من جانب أبى جهل ومن انضم إليه.

وبدأت المعركة بالمبارزة، ثم التحم الفريقان فى معركة ضارية وسيوف الحق تطيح برءوس الشرك وزعماء الكفر، ورسول الله ﷺ يجلس فى عريشه ومعه أبو بكر يرقب المعركة ويبعث بتعليماته ويناشد ربه النصر والمؤازرة فى هذا الموقف الصعب ومما قاله: اللهم إن تهلك هذه العصابة ـ أى جماعة المسلمين ـ اليوم لا تعبد، وأبو بكر يقول: يا نبى الله بعض مناشدتك ربك فإن الله منجز لك ما وعدك، وقد خفق ـ أى نام نوما يسيرا ـ خفقة وهو فى العريش ثم انتبه فقال: أبشر يا أبا بكر، أتاك نصر الله، هذا جبريل آخذ بعنان فرس يقوده على ثناياه النقع ـ أى الغبار ـ».

ودارت المعركة وتجلت البطولات الإسلامية والفداء والتضحية والإقبال على الموت بنفس راضية، وأسفرت المعركة عن انتصار مؤزر للمسلمين وهزيمة منكرة للمشركين ومقتل الكثير من زعمائهم وعلى رأسهم: عتبة بن ربيعة وشيبة بن ربيعة وأبو جهل بن هشام وزمعة بن الأسود وأبو البخترى بن هشام وأمية بن خلف وغيرهم.



وخرجت الرسل مسرعة تحمل بشرى النصر إلى أهل المدينة وعاد النبى ﷺ ورايات النصر تخفق فوق رءوس المسلمين وفى ركابهم أسارى المشركين بعد المعركة التى انهزمت فيها قريش وفقدت خيرة أبنائها فضلا عن العار الذى نالها بسبب الهزيمة، وفى الجانب الآخر ارتفع شأن المسلمين فى شبه الجزيرة العربية بهذا النصر العزيز، فضلا عن الأموال التى غنموها من المعركة والتى عوضت المهاجرين بعض ما فقدوه من مال.

لم يمكث النبى ﷺ بالمدينة سوى سبعة أيام حتى انطلق يريد بنى سليم إلا أنه لم يحدث قتال وأقام هناك ثلاثة أيام ثم عاد بجنوده إلى المدينة.

لم تتحمل قريش تلك المصيبة التى أصابتها فى بدر، لذا وجدنا أبا سفيان الذى لم يشهد القتال حين علم نبأ الهزيمة وخبر القتلى من قريش يقسم ألا يتمتع بأطايب الحياة حتى يثأر لقتلى بدر، وانطلق على رأس مائتى جندى من قريش للإغارة على نواحى المدينة واستطاع أن يحرق بعض نخيلها ويقتل رجلين من الأنصار ويفر هاربا بجنوده.

وقد بلغت أنباء هذه الإغارة النبى ﷺ فخرج فى إثره يتعقبه وأحس أبو سفيان بالمطاردة فتخفف من المؤن التى يحملها إمعانا فى الهرب وأفلت من قبضة النبى ﷺ واستولى المسلمون على هذه المؤن والمعدات، ولذا سميت غزوة السويق.

يهود بنى قينقاع:

واجه النبى ﷺ مؤامرة داخلية بالمدينة متمثلة فى انتهاكات اليهود من بنى قينقاع أمن المواطنين فضلا عن السخرية والاستهزاء اللذين قابل بهما اليهود انتصار المسلمين فى بدر وقد حذرهم النبى ﷺ من مغبة عصيانهم واستهزائهم. يقول ابن هشام: «وكان من حديث بنى قينقاع أن رسول الله ﷺ جمعهم بسوق بنى قينقاع ثم قال: يا معشر يهود احذروا من الله مثل ما نزل بقريش من النقمة، وأسلموا فإنكم قد عرفتم أنى نبى مرسل، تجدون ذلك فى كتابكم وعهد الله إليكم. قالوا: يا محمد لا يغرنك أنك لقيت قوما لا علم لهم بالحرب فأصبت منهم فرصة، إنا والله لئن حاربناك لتعلمن أنا نحن الناس».

وهكذا أعلن اليهود عن طويتهم، وخبيئة نفوسهم ثم وقعت حادثة لإحدى المسلمات فى سوق بنى قينقاع واستغاثت فأسرع إليها أحد المسلمين لإنقاذها وقتل اليهودى وتجمع اليهود وقتلوا المسلم، ثم كانت الفتنة وانتهت بعد أن توسط بعض أهل المدينة لدى النبى ﷺ بأن طردوا من المدينة وتوجهوا إلى الشام.

غزوة أحد



فكرت قريش فى عمل كبير تسترد به هيبتها وتثأر لقتلاها فى بدر ولم يطل بها التفكير إذ استقر أمرها على منازلة النبى وأصحابه وحشدت فى سبيل ذلك كل ما تملك من مال وعتاد وجندت من تستطيع تجنيده من المقاتلين حتى النساء انضممن إلى الجيش لإثارة الغيرة والحمية فى نفوس الجند، فأبو سفيان قائد الحملة خرجت معه زوجته هند بنت عتبة وخرج عكرمة بن أبى جهل بأم كلثوم بنت الحارث وخرج عمرو بن العاص بريطة بنت عتبة وغير هؤلاء كثير، وبذلك ضمن زعماء قريش ألا يفر الجند إذا اشتد القتال دفاعا عن الأعراض وحماية النساء.

بلغت الأنباء الرسول فى المدينة لذا جمع أصحابه وعرض عليهم الأمر وانقسم المسلمون فريقين، فريق رأى البقاء بالمدينة والدفاع عنها، وكان النبى ﷺ يميل لهذا الرأى، وفريق حبذ الخروج وخاصة أولئك الذين لم يشهدوا بدرا وكانوا يتحرقون شوقا لقتال المشركين. يقول ابن هشام: «وكان رسول الله ﷺ يكره الخروج فقال رجال من المسلمين ممن أكرم الله بالشهادة يوم أحد وغيره ممن كان فاته بدر: يا رسول الله اخرج بنا إلى أعدائنا لا يرون أنا جبنا عنهم وضعفنا؟ فقال عبد الله بن أبىّ بن سلول: يا رسول الله أقم بالمدينة لا تخرج إليهم فوالله ما خرجنا منها إلى عدو لنا قط إلا أصاب منا ولا دخلها علينا إلا أصبنا منه، فدعهم يا رسول الله فإن أقاموا أقاموا بشر محبس وإن دخلوا قاتلهم الرجال فى وجههم ورماهم النساء والصبيان بالحجارة من فوقهم وإن رجعوا رجعوا خائبين كما جاءوا».

وانتهى الحوار باستجابة النبى ﷺ للرأى الثانى القائل بالخروج لملاقاة الأعداء، وتجهز المسلمون وخرجوا من المدينة وقام المنافقون بزعامة عبد الله بن أبى بعملية تثبيط لهمم المقاتلين إذ عاد عبد الله بثلث الجيش من منتصف الطريق مدعيا أن بقية المسلمين لم يستمعوا لقوله بالبقاء بالمدينة. وبطبيعة الحال كانت حركة مقصودة من عبد الله الهدف منها بث الضعف والوهن فى صفوف المسلمين وبذلك يتمكن المشركون من تحقيق النصر.

وصل النبى ﷺ إلى ميدان المعركة وجعل أحدا خلفه وعبأ جنوده وكانوا سبعمائة مقاتل وأسند إلى عبد الله بن جبير قيادة فرقة الرماة وكانوا خمسين مقاتلا وأمرهم بحماية مؤخرة الجند ومدافعة قريش بالنبال، وأمرهم ألا يبرحوا أماكنهم سواء انتصر المسلمون أم انهزموا ودفع باللواء إلى مصعب بن عمير.

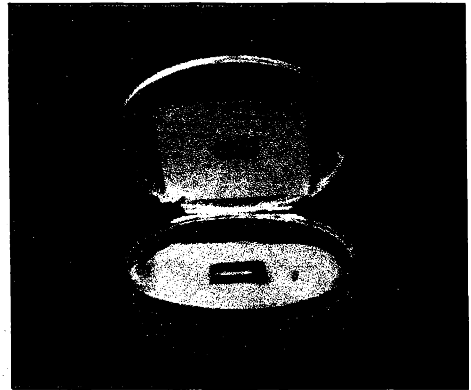




وفى الجهة المقابلة عبأت قريش قواتها البالغ عددها ثلاثة آلاف وعينوا على الميمنة خالد بن الوليد وعلى الميسرة عكرمة بن أبى جهل.

اشتبك الفريقان فى معركة مصيرية وأقبل المسلمون على الاستشهاد يفتكون بالمشركين ويمزقونهم كل ممزق، وما هى إلا جولة حتى انكشف أمر المشركين وولوا الأدبار وتحقق النصر وأقبل المسلمون على الغنائم يأخذونها، وخالف الرماة المسلمون على ظهر الجبل أوامر النبى ﷺ وتركوا مواقعهم حين رأوا بوادر النصر وليشاركوا إخوانهم فى جمع الأسلاب والمغانم.

وترتب على ترك الرماة لأماكنهم أن انقلبت موازين المعركة رأسا على عقب وتحول النصر فى جانب المسلمين إلى هزيمة وقتل الكثير من المسلمين وعلى رأسهم حمزة عم الرسول ﷺ، واستطاع المشركون أن يصلوا إلى النبى ﷺ ويصيبوه بكثير من الجراح. يقول ابن إسحاق: «وانكشف المسلمون، فأصاب فيهم العدو وكان يوم بلاء وتمحيص أكرم الله فيه من أكرم من المسلمين بالشهادة حتى خلص العدو إلى رسول الله ﷺ فصدم بالحجارة حتى وقع لشقه فأصيبت رباعيته وشج فى وجهه وكلمت شفته وكان الذى أصابه عتبة بن أبى وقاص، وفى رواية أخرى: كسرت رباعية النبى ﷺ يوم أحد وشج فى وجهه فجعل الدم يسيل على وجهه وجعل يمسح الدم وهو يقول: كيف يفلح قوم خضبوا وجه نبيهم وهو يدعوهم إلى ربهم. فأنزل الله عز وجل فى ذلك ﴿لَيْسَ لَكَ مِنَ الْأَمْرِ شَيْءٌ أَوْ يَتُوبَ عَلَيْهِمْ أَوْ يُعَذِّبَهُمْ فَإِنَّهُمْ ظَالِمُونَ ﴿١٢٨﴾﴾ [آل عمران].



سن النبى ﷺ وهى قطعة صغيرة من أسنانه كسرت أثناء موقعة أحد واحتفظ بها داخل بقج ووضعت داخل محفظة مرصعة



وضرب المسلمون فى الدفاع عن النبى ﷺ أروع الأمثلة فى التضحية والفداء إذ اشتدت هجمات المشركين بقصد قتل النبى ﷺ إلا أن استبسال المسلمين وقتالهم دونه لم يحققا هدف قريش وقد تساوى فى ذلك الرجال والنساء، فهذا أبو دجانة قد ترّس نفسه أمام الرسول يتلقى النبل فى ظهره حتى مات، وهذه أم عمارة نسيبة بنت كعب المازنية كانت تسقى الجرحى فلما انهزم المسلمون واشتد الهجوم على رسول الله ﷺ، تركت الماء وأخذت سيفا وقوسا تدافع بهما حتى أصيبت بجراح كثيرة.

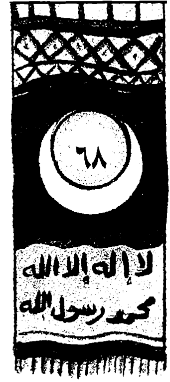
فرحت قريش بهزيمة المسلمين وقد شاع بين صفوفهم أن النبى قتل فيمن قتل من المسلمين، لذا وقف أبو سفيان على مرتفع ينادى فى المسلمين: أفى القوم محمد؟ فقال - أى النبى - لا تجيبوه فقال: أفى القوم ابن أبى قحافة: قال: لا تجيبوه، قال: أفى القوم ابن الخطاب؟ قال لا تجيبوه. فلما لم يجبه أحد قال إن هؤلاء قتلوا فلو كانوا أحياء لأجابوا، فلم يملك عمر نفسه فقال: كذبت يا عدو الله قد أبقى الله لك ما يخزيك، وهنا أقبل أبو سفيان على عمر يستوثق خبر مقتل النبى ﷺ فلما أجابه بغير ما يريد عاد من حيث أتى وقد أعلن أن اللقاء العام القادم.

بدأ الرسول ﷺ بعد انصراف المشركين فى دفن القتلى وحين رأى حمزة وما صنع به حزن لذلك حزنا شديدا وقال: لن أصاب بمثلك أبدا، وما وقفت موقفا قط أغيظ لى من هذا.

وعاد النبى ﷺ وبلغت أنباء الهزيمة المدينة وفى طريق العودة، ظهرت نماذج رائعة من صور الإيمان واليقين فهذه المرأة الدينارية تحدث عنها ابن إسحاق قائلا:

قبر سيدنا حمزة عند جبل أحد



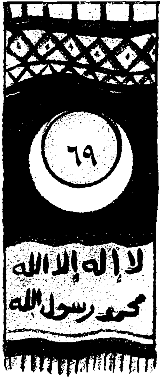


«مر رسول الله ﷺ بامرأة من بنى دينار وقد أصيب زوجها وأخوها وأبوها مع رسول الله ﷺ بأحد فلما نعوا لها قالت: فما فعل رسول الله ﷺ؟ قالوا: خيرا يا أم فلان هو بحمد الله كما تحبين قالت: كل مصيبة بعدك جلل، تريد صغيرة. قال ابن هشام: الجلل يكون من القليل ومن الكثير وهو هاهنا من القليل» وهكذا تجلى الإيمان المطلق فى تلك اللحظات العصيبة والمحنة القاسية التى مر بها المسلمون وقد أنزل آياته تخفيفا عن المسلمين وتقوية لإيمانهم ويقينهم ﴿**وَلا تَهِنُوا وَلا تَحْزَنُوا وَأَنتُمُ الأَعْلَوْنَ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴿١٣٩﴾ إِن يَمْسَسْكُمْ قَرْحٌ فَقَدْ مَسَّ الْقَوْمَ قَرْحٌ مِّثْلُهُ وَتِلْكَ الأَيَّامُ نُدَاوِلُهَا بَيْنَ النَّاسِ وَلِيَعْلَمَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا وَيَتَّخِذَ مِنكُمْ شُهَدَاءَ وَاللَّهُ لا يُحِبُّ الظَّالِمِينَ ﴿١٤٠﴾ وَلِيُمَحِّصَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا وَيَمْحَقَ الْكَافِرِينَ ﴿١٤١﴾**﴾ [آل عمران].

غزوة حمراء الأسد:

لم يمكث النبى ﷺ بعد عودته من أحد سوى يوم واحد، ثم أمر الجنود بالاستعداد للخروج لمطاردة جيش المشركين وهو يهدف من وراء ذلك إشعار الكفار بأن الهزيمة لم تؤثر فى عزيمة المسلمين وأنهم من القوة بحيث خرجوا يطلبون الثأر، وقد وصل النبى ﷺ فى مسيرته حتى بلغ حمراء الأسد، وهى تقع على ثمانية أميال من المدينة فأقام بها ثلاثة أيام دون أن يلقى المشركين.

ومن ناحية أخرى فقد فكر المشركون فى العودة والقضاء على من تبقى من المسلمين، وقد شجعهم على ذلك النصر الذى أحرزوه فى أحد، هذا الخاطر عرض لهم فى أفكارهم ومن ثم بدءوا فى تنفيذه إلا أن معبد الخزاعى من قبيلة خزاعة وكان يميل للمسلمين بالرغم من كفره استطاع خداع أبى سفيان وإرهابه من بطش المسلمين وبذلك انصرف أبو سفيان ومن معه دون العودة إلى القتال. يقول ابن إسحاق: «ثم خرج - أى معبد - ورسول الله ﷺ بحمراء الأسد حتى لقى أبا سفيان بن حرب ومن معه بالروحاء، وقد أجمعوا الرجعة إلى رسول الله ﷺ وأصحابه؛ وقالوا: أصبنا حد أصحابه وأشرافهم وقادتهم ثم نرجع قبل أن نستأصلهم لنكرن على بقيتهم فلنفرغن منهم، فلما رأى أبو سفيان معبدا قال: ما وراءك يا معبد؟ قال: محمد قد خرج فى أصحابه يطلبكم فى جمع لم أر مثله قط، يتحرقون عليكم تحرقا، قد اجتمع معه من كان تخلف عنه فى يومكم، وندموا على ماصنعوا، فيهم من الحنق - شدة الغيظ - عليكم شىء لم أر مثله قط، قال: ويحك ماتقول؟ قال: والله ما أرى أن ترتحل حتى أرى نواصى الخيل، قال: فوالله لقد أجمعنا الكرة عليهم لنستأصل بقيتهم، قال: فإنى أنهاك عن ذلك. وهكذا استطاع معبد أن يثنى قريشا عن عزمها وعاد النبى ﷺ إلى المدينة دون أن يقاتل المشركين.



يوم الرجيع:

لم تكن الحرب بين رسول الله ﷺ وبين قريش مقصورة على المواجهة العسكرية بين الفريقين، وإنما امتدت الحرب على شكل خيانة وغدر من قبل القبائل المحيطة بالمدينة والتى أرادت التقرب إلى قريش بدماء المسلمين. وقد تجلى ذلك حين أقبل وفد من عضل والقارة وهم بنو الهون بن خزيمة به مدركة وقابلوا رسول الله ﷺ بالمدينة وأخبروه بإسلامهم واستأذنوه فى اصطحاب بعض المسلمين رغبة فى تعليم القرآن ومبادئ الدين الجديد، وقد استجاب النبى لطلبهم وبعث معهم ستة نفر وهم: مرثد بن أبى مرثد الغنوى وخالد بن البكير الليثى وعاصم بن ثابت وخبيب بن عدى وزيد بن الدثنة وعبد الله بن طارق.

خرج الركب من المدينة حتى إذا وصلوا إلى بقعة تسمى الرجيع، التف هؤلاء الأعراب حول المسلمين الستة وأعلنوا عن نيتهم الحقيقية وهى القبض عليهم وبيعهم فى مكة، وقد رفض أربعة من الستة الاستسلام لغدر الأعراب وسلوا سيوفهم وظلوا يقاتلون حتى استشهدوا وبقى زيد ابن الدثنة وخبيب بن عدى فقيدوهما وساروا إلى مكة وهناك بيعا الاثنان، أما خبيب فقد اشتراه عقبة بن الحارث وقتله ثأرا لأبيه، وأما زيد بن الدثنة فاشتراه صفوان بن أمية ليقتله ثأرا لمقتل أبيه أمية بن خلف.

وقد تجلى إيمان زيد فى تلك اللحظات الرهيبة التى سبقت قتله والتى عبر فيها زيد عن إيمانه وحبه الشديد لرسول الله ﷺ. يقول ابن إسحاق: «وأما زيد بن الدثنة فابتاعه صفوان بن أمية ليقتله بأبيه أمية بن خلف وبعث به صفوان بن أمية مع مولى له يقال له نسطاس إلى التنعيم - موضع بمكة - وأخرجه من الحرم ليقتلوه واجتمع رهط من قريش منهم أبو سفيان بن حرب وقال له أبو سفيان حين قدم ليقتل: أنشدك الله يا زيد أتحب أن محمدا عندنا الآن فى مكانك نضرب عنقه وأنك فى أهلك؟ قال: والله ما أحب أن محمدا فى مكانه الذى هو فيه تصيبه شوكة تؤذيه وأنى جالس فى أهلى. قال: يقول أبو سفيان: ما رأيت من الناس أحدا يحب أحدا كحب أصحاب محمد محمدا، ثم قتله نسطاس - يرحمه الله.

يوم بئر معونة:

وشبيه بغدر يوم الرجيع، ما حدث للمسلمين عند بئر معونة، فلم تمر أربعة أشهر على نكبة أحد حتى أقبل عامر بن مالك بن جعفر ويعرف بأبى براء ملاعب الأسنة إلى المدينة والتقى به النبى ﷺ فلم يستجب إلا أنه عرض على النبى أن يصحب جماعة من المسلمين لعلهم ينجحوا فى هداية قومه، فإذا تم ذلك فسوف يسلم إلا أن النبى عبر له عن مخاوفه من أهل نجد أن يقتلوا



المسلمين فطمأنه عامر بن مالك وكان زعيما فى قومه بأنهم فى جواره وفى جماعته فأذن النبى ﷺ لأربعين من المسلمين برئاسة المنذر بن عمرو لمصاحبة عامر ودعوة قبائل بنى عامر ومن حولها إلى الإسلام.

خرج الركب حتى إذا نزلوا بالقرب من بئر معونة وهى بين منازل بنى عامر وبنى سليم أرسلوا أحد المسلمين وهو حرام بن ملحان بكتاب رسول الله ﷺ إلى عامر بن الطفيل يدعونه إلى الإسلام؛ فما كان منه إلا أن قتل الرسول واستنفر القبائل للفتك بالمسلمين، وقد امتنعت قبيلة عامر بن مالك عن المشاركة فى القتال وفاء بجوار أبى براء إلا أن قبائل سليم وعصية وذكوان استجابت لنداء عامر بن الطفيل وأقبلوا على المسلمين ودارت معركة غير متكافئة انتهت باستشهاد جميع المسلمين عدا كعب بن زيد الذى أصيب بجراح واستطاع الفرار من أرض المعركة وأخبر النبى ﷺ بما حدث.

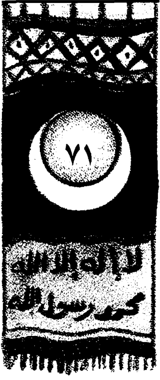
وقد حزن النبى ﷺ لمقتلهم، وتقول المصادر: إن النبى ﷺ أقام شهرا يدعو فى صلاة الغداة على الذين قتلوا أصحاب بئر معونة يدعو على رعل وذكوان وعصية الذين عصوا الله ورسوله.

يهود بنى النضير:

تناولنا من قبل موقف بنى قينقاع بعد غزوة بدر واستهزائهم بالمسلمين ثم اعتدائهم على إحدى نساء المسلمين وانتهى أمرهم بطردهم من المدينة، ولم يكن بنو النضير بأسلم طوية من إخوانهم بنو قينقاع فقد امتلأت قلوبهم حقدا وكراهية للنبى والمسلمين، وقد كانوا يتحينون الفرصة للغدر بالنبى ﷺ وأصحابه.

وقد وجد بنو النضير الفرصة سانحة حين أقبل النبى ﷺ إلى حيهم يطلب منهم العون المالى فى دفع دية اثنين من بنى عامر قتلا خطأ، وخلال انتظار النبى ﷺ مع بعض أصحابه وقد استند إلى جدار لهم إذ هموا بإلقاء حجر عليه للتخلص منه، وقد علم النبى ﷺ بنبأ المؤامرة فغادر المكان وأصحابه وانصرف عائدا إلى المدينة. يقول ابن إسحاق: «فلما أتاهم رسول الله ﷺ يستعينهم فى دية ذينك القتيلين، قالوا : نعم يا أبا القاسم نعينك على ما أحببت مما استعنت بنا عليه، ثم خلا بعضهم ببعض فقالوا: إنكم لن تجدوا الرجل على مثل حاله هذه ـ ورسول الله ﷺ إلى جنب جدار من بيوتهم قاعد ـ فمن رجل يعلو على هذا البيت فيلقى عليه صخرة فيريحنا منه؟ فانتدب لذلك عمرو بن جحاش بن كعب أحدهم فقال: أنا لذلك فصعد ليلقى عليه صخرة كما قال، ورسول الله ﷺ فى نفر من أصحابه منهم أبو بكر وعمر وعلى رضوان الله عليهم.

فأتى رسول الله ﷺ الخبر من السماء بما أراد القوم فقام وخرج راجعا إلى المدينة فلما استلبث النبى ﷺ أصحابه قاموا فى طلبه فلقوا رجلا مقبلا من المدينة فسألوه عنه فقال: رأيته داخلا المدينة فأقبل أصحاب رسول الله ﷺ حتى انتهوا إليه فأخبرهم الخبر بما كانت اليهود أرادت من الغدر به وأمر رسول الله ﷺ بالتهيؤ لحربهم والسير إليهم.



وهذه المؤامرة تعتبر نقضـا لما بين النبى واليهود من شروط الموادعة؛ لذا أمر النبى ﷺ بالتجهيز لمحاربة بنى النضير، وتحصن اليهود فى حصونهم وقد شجعهم على قتـال المسلمين المساعـدات المنتظرة من جانب المنافقـين الذين راسلوهم سرا يعرضون عليهم العون والمؤازرة فى مواجهة المسلمين.

هذه المساعدات المزعومة لم تنفع اليهـود؛ إذ تخلى المنافقون عن موقفهم، ووجد اليهود أنفسهم وجهـا لوجه أمام قوة المسلمين فنزلوا على شروط النبى ﷺ وتركوا ديارهم وخـرجوا متجـهين إلى الشمـال جزاء خيانتـهم ونقضهم للعـهود والمواثيق.

غزوة الأحزاب

كانت فى السنة الخامسة من الهجرة وهى امـتداد لمؤامرات اليهود الذين لم يدخروا جهدا إلا وبذلوه فى سبيل القضاء على الإسلام، فلمـا طردوا من المدينة لم يستسلموا لذلك بل أسرع بعض زعمـائهم وهم سلام بن أبى الحقيق وحـيى بن أخطب وكنانة بن الربيع وغيـرهم فى نفر من بنى النضـير، وتوجـه هذا الجمـع قاصـدا مكة لكى يستـنفروا قـريشا ويحـرضوهـا على منازلة النبى والمسلمين ويعرضوا مساعدتهم ومناصرتهم لقريش ومن ينضم إليها، وفى سبيل هذه الغـاية وجدنا اليهـود يفضلون الشرك على الإيمان بالله، وعبـادة الأصنام على عبادة الله، وفى ذلك يقول القرآن الكريم: ﴿ **أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ أُوتُوا نَصِيبًا مِّنَ الْكِتَابِ يُؤْمِنُونَ بِالْجِبْتِ وَالطَّاغُوتِ وَيَقُولُونَ لِلَّذِينَ كَفَرُوا هَؤُلاءِ أَهْدَىٰ مِنَ الَّذِينَ آمَنُوا سَبِيلاً ﴿٥١﴾ أُولَٰئِكَ الَّذِينَ لَعَنَهُمُ اللَّهُ وَمَن يَلْعَنِ اللَّهُ فَلَن تَجِدَ لَهُ نَصِيرًا ﴿٥٢﴾** ﴾ [النساء].

ولم يقتصر اليهود على إثارة قريش بل توجهوا إلى القبائل القريبة إلى مكة يدعونها لمهاجمة المدينة ويزينون الفوائد التى تعود عليهم من وراء ذلك بل وزادوا على ذلك أن عرضوا على غطفان نصف تمر خيبر إذا قبلت غطفان الخروج والاشتراك فى القتال.

وهكذا تهيأ لقريش من المقاتلين ما لم يتهيأ لها من قبل إذ خرجت قريش وقائدها أبو سفيان ابن حرب وخرجت غطفان وقائدها عيينة بن حـصن والحارث بن عوف وغيرهم من قادة العرب، وبلغت هذه الحشود أربعة وعشرين ألف مقاتل وهو عدد كبير.

بلغت أنباء هذه الحشود النبى ﷺ فـاستشار من حوله من أصحابه واستـقر رأيهم على حفر خندق حول المدينة يحمـيها من هجمات المشركين ويقف المسلمـون خلف هذا الخندق يدفعون من يريد اقتحـامه، وبدأ العمل فى حفـر الخندق واشترك المسلمون وعلى رأسهـم النبى ﷺ فى الحفر



حتى أتموه عدا الناحية التى يقيم بها بنو قريظة اطمئنانا إلى دفاعهم عن المدينة طبقا للمعاهدات التى بين المسلمين واليهود ووقف النبى ﷺ فى ثلاثة آلاف مقاتل دفاعا عن المدينة وحماية لها.

أقام المشركون حول المدينة وبدأ زعماء اليهود فى معسكر المشركين الاتصال بيهود بنى قريظة لينقضوا ما بينهم وبين المسلمين من عهود، ونجح حيى بن أخطب فى التأثير على كعب بن أسد زعيم بنى قريظة حتى جعله يعلن نقضه للعهد الذى بينه وبين المسلمين وانضمامه إلى معسكر المشركين فى محاربة المسلمين، وبذلك أصبح المسلمون فى موقف صعب إذ المشركون أمامهم واليهود من خلفهم وكلهم يتحرق شوقا للقضاء على الإسلام والمسلمين. يقول ابن إسحاق: «وعظم عند ذلك البلاء واشتد الخوف وأتاهم عدوهم من فوقهم ومن أسفل منهم حتى ظن المؤمنون كل ظن ونجم النفاق من بعض المنافقين حتى قال قائل منهم: كان محمد يعدنا أن نأكل كنوز كسرى وقيصر وأحدنا اليوم لا يأمن على نفسه أن يذهب إلى الغائط، وأقام عليه المشركون قريبا من شهر لم يكن بينهم إلا الرمى بالنبل والحصار».

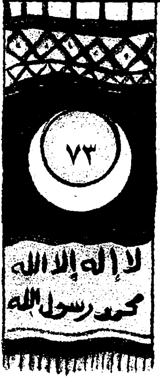
وهكذا يتضح الموقف السيىء الذى عاشه المسلمون بجموع زاخرة من المشركين قد تجهزت بكل أدوات القتال تهاجم المدينة من الأمام، وجموع اليهود الخائنة تعلن انضمامها للمشركين لتحقيق هدف مشترك بينهما فضلا عن بعض المنافقين فى صفوف المسلمين الذين يثيرون بأقوالهم وأفعالهم روح الهزيمة والاستسلام بين المسلمين.

فى هذه الظروف الصعبة حاول النبى ﷺ أن يفتت جبهة المشركين بأن يعرض على قبائل غطفان بعض ثمار المدينة مقابل انصرافهم وعدم اشتراكهم فى القتال ونجحت المفاوضات فى ذلك، وقبل أن يوقع النبى ﷺ على الوثيقة الخاصة بهذا الصلح بعث إلى سعد بن معاذ وسعد بن عبادة يستشيرهما فى هذا الصنيع فرفضا تلك الشروط لأنها تتنافى مع كرامة الأنصار فتوقف النبى عن ذلك.

وهكذا ظهر إصرار المسلمين على القتال وإيمانهم بالنصر ورفضهم للموادعة بينهم وبين المشركين، وقد حاول بعض فرسان المشركين عبور الخندق إلا أن يقظة المسلمين وترصدهم لحركات المشركين أخفقت كل محاولة قام بها المشركون.

كان سلاح الإيقاع والخديعة هو الوسيلة الناجحة للقضاء على هذا التحالف بين المشركين واليهود، وقد استخدم هذا السلاح ببراعة فائقة نعيم بن مسعود الأشجعى الذى أقبل على النبى ﷺ وقال:

يارسول الله إنى قد أسلمت وإن قومى لم يعلموا بإسلامى فمرنى بما شئت فقال رسول الله ﷺ إنما أنت فينا رجل واحد فخذّل عنا إن استطعت فإن الحرب خدعة.



فخرج نعيم حتى أتى بنى قريظة، وكان لهم نديما فى الجاهلية فقال: يا بنى قريظة قد عرفتم ودّى إياكم وخاصة ما بينى وبينكم، قالوا: صدقت فلست عندنا بمتهم، فقال لهم: إن قريشا وغطفان ليسوا كأنتم والبلد بلدكم به أموالكم وأبناؤكم ونساؤكم لاتقدرون أن تتحولوا منه إلى غيره، وإن قريشا وغطفان قد جاءوا لحرب محمد وأصحابه، وقد ظاهرتموهم عليه وبلدهم وأموالهم ونساؤهم بغيره فليسوا كهيئتكم فإن رأوا نهزة أصابوها، وإن كان غير ذلك لحقوا ببلادهم وخلوا بينكم وبين الرجل ببلدكم فلا طاقة لكم به إن خلا بكم فلا تقاتلوا مع القوم حتى تأخذوا منهم رهنا من أشرافهم يكونوا بأيديكم ثقة لكم على أن يقاتلوا معكم محمدا حتى تناجزوه.

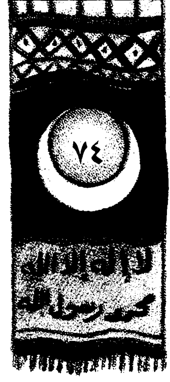
قالوا: لقد أشرت بالرأى..

ثم خرج حتى أتى قريشا فقال لأبى سفيان ومن معه من رجالهم: قد عرفتم ودى لكم وفراقى محمدا وإنه قد بلغنى أمر رأيت على حقا أن أبلغكموه نصحا لكم فاكتموا عنى، قالوا: نفعل. قال: تعلمون أن معشر يهود قد ندموا على ما صنعوا فيما بينهم وبين محمد وقد أرسلوا إليه إنا قد ندمنا على ما فعلنا فهل يرضيك أن نأخذ من القبيلتين من قريش وغطفان رجالا من أشرافهم فنعطيكهم فتضرب أعناقهم ثم نكون معك على من بقى منهم حتى نستأصلهم؟ فأرسل إليهم: نعم، فإن بعثت إليكم يهود يلتمسون رهنا من رجالكم فلا توقعوا إليهم منكم رجلا واحدا.

ثم خرج حتى أتى غطفان فقال: يا معشر غطفان إنكم أهلى وعشيرتى وأحب الناس إلىّ ولا أراكم تتهمونى، قالوا: صدقت ما أنت عندنا بمتهم، قال: فاكتموا عنى قالوا نفعل، ثم قال لهم مثل ما قال لقريش وحذرهم ما حذرهم.

فلما كانت ليلة السبت من شوال سنة خمس وكان ذلك من صنع الله عز وجل لرسوله ﷺ أرسل أبو سفيان بن حرب ورءوس غطفان إلى بنى قريظة عكرمة بن أبى جهل فى نفر من قريش وغطفان فقالوا لهم: إنا لسنا بدار مقام قد هلك الخف والحافر فاغدوا للقتال حتى نناجز محمدا ونفرغ مما بيننا وبينه فأرسلوا إليهم: إن اليوم يوم السبت وهو يوم لا نعمل فيه شيئا، وقد كان أحدث فيه بعضنا حدثا فأصابه ما لم يخف عليكم، ولسنا مع ذلك بالذين نقاتل معكم محمدا حتى تعطونا رهنا من رجالكم يكونون بأيدينا ثقة لنا حتى نناجز محمدا، فإنا نخشى أن ضرستكم الحرب واشتد عليكم القتال أن تنشمروا إلى بلادكم وتتركونا والرجل فى بلدنا ولاطاقة لنا بذلك.

فلما رجعت إليهم الرسل بما قالت بنو قريظة قالت قريش وغطفان: والله إن الذى حدثكم نعيم بن مسعود لحق فأرسلوا إلى بنى قريظة: إنا والله لاندفع إليكم رجلا واحدا من رجالنا فإن كنتم تريدون القتال فاخرجوا فقاتلوا.



فقالت بنو قريظة حين انتهت الرسل بهذا: إن الذى ذكر لكم نعيم بن مسعود الحق ما يريد القوم إلا أن يقاتلوا فإن رأوا فرصة انتهزوها وإن كان غير ذلك انشمروا إلى بلادهم وخلوا بينكم وبين الرجل فى بلدكم فأرسلوا إلى قريش وغطفان: إنا والله لا نقاتل معكم حتى تعطونا رهنا، فأبوا عليهم وخذل الله بينهم وبعث عليهم الريح فى ليال شاتية شديدة البرد فجعلت تكفأ قدورهم وتطرح آنيتهم.

وهكذا نجحت مكيدة نعيم فى بث الشك والخوف فى نفوس كل من المشركين واليهود، كل فريق يحذر الآخر، وبهذا تحطمت الرابطة بينهما ثم أرسل الله الرياح الشديدة مع انخفاض شديد فى درجة الحرارة مما دفع أبا سفيان إلى النداء فى جموع قريش بالرحيل ورحلت جموع المشركين دون أن تحقق أهدافها.

يهود بنى قريظة:

ما أن اطمأن النبى ﷺ لرحيل المشركين حتى أذّن داعى المسلمين بالتوجه إلى بنى قريظة لمحاسبتهم على خيانتهم وغدرهم بالمسلمين، وقاد النبى ﷺ جموع المسلمين وحاصرهم خمسا وعشرين ليلة حتى تعب اليهود من شدة الحصار، وأرسلوا إلى النبى ﷺ يعرضون عليه النزول على حكمه فيهم، وقد اختار لهم النبى ﷺ سعد بن معاذ زعيم الأوس وكان حليفا لهم فى الجاهلية وكان سعد مصابا بجرح فى قدمه خلال حصار المشركين للخندق فحمله المسلمون على محفة حتى جاء إلى بنى قريظة وحكم فيهم أن تقتل الرجال وتقسم الأموال وتسبى الذرارى والنساء، وقد صدق النبى ﷺ على هذا الحكم قائلا: قد حكمت فيهم بحكم الله من فوق سبعة أرقعة ـ والأرقعة السموات واحدها رقيع.

صلح الحديبية:

خرج رسول الله ﷺ فى العام السادس من الهجرة معتمرا ودعا المهاجرين والأنصار وغيرهم للدخول معه مكة لأداء العمرة، وسار الركب الحاشد الذى بلغ ما يقرب من ألف وستمائة رجل يسوقون أمامهم سبعين بدنة لأداء مناسك العمرة، وقد بلغت الأنباء قريشا التي عظم عليها ذلك الصنيع ووجدت بها مهانة ومذلة أن يقتحم النبى وأصحابه مكة وتتسامع بذلك العرب فتكون المذلة إلى آخر الدهر.

وقد حرصت قريش قبل أن تبدأ القتال أن تستوضح نيات المسلمين لذا أرسلت العديد من الرسل وكلهم يأتى بإجابة واحدة وهى رغبة المسلمين فى أداء مناسك العمرة وأن البيت الحرام حق لكل عربى يطوف به، وقد شاهد هؤلاء الرسل مدى إصرار المسلمين على موقفهم ومدى تماسكهم



وطاعتهم للنبى ﷺ حتى أن عروة بن مسعود الثقفى مبعوث قريش إلى النبى حين عاد من معسكر المسلمين يصرح قائلا لزعماء قريش:

يا معشر قريش إنى قد جئت كسرى فى ملكه وقيصر فى ملكه والنجاشى فى ملكه وإنى والله ما رأيت ملكا فى قوم قط مثل محمد فى أصحابه، ولقد رأيت قوما لايسلمونه لشىء أبدا فروّوا رأيكم.

وقد قام النبى ﷺ بدوره بإرسال الرسل من قبله لتوضيح موقفه فأرسل خراش بن أمية الخزاعى فاعتدت عليه قريش وأرادوا قتله لولا أن تدخلت الأحابيش وأنقذته من القتل، ثم أراد النبى ﷺ إرسال عمر بن الخطاب إلا أن عمر اعتذر خوفا على حياته، ومن ثم وقع الاختيار على عثمان بن عفان لوجود عصبية له بمكة تدافع عنه وتحميه وتوجه عثمان يحمل تعليمات النبى ﷺ إلى مكة وبلغ زعماءها، إلا أنهم حبسوه فترة من الوقت وتسربت الأنباء إلى معسكر النبى بأن قريشا قتلت عثمان.

نادى النبى ﷺ أصحابه للمبايعة على الموت وعلى مقاتلة قريش عقابا لها على غدرها بعثمان ثم اتضح الموقف وأن عثمان بخير وقد أقبل إلى معسكر المسلمين ومعه سهيل بن عمرو لعرض شروط قريش على النبى وقد قبلها النبى ﷺ، وكُتب عقد بين الطرفين وهو يتلخص فى النقاط الآتية:

١ ـ أن الرسول يرجع من عامه هذا فلا يدخل مكة وإذا كان العام القابل دخلها المسلمون فأقاموا بها ثلاثا معهم سلاح الراكب، السيوف فى القرب بعد أن تخرج منها قريش.

٢ ـ وضع الحرب بين الطرفين عشر سنين يأمن فيها الناس ويكف بعضهم عن بعض.

٣ ـ من أتى محمدا من قريش من غير إذن وليه رده عليهم ومن جاء قريشا ممن مع محمد لم يرد عليه.

٤ ـ من أحب أن يدخل فى عقد محمد وعهده دخل فيه ومن أحب أن يدخل فى عقد قريش وعهدهم دخل فيه.

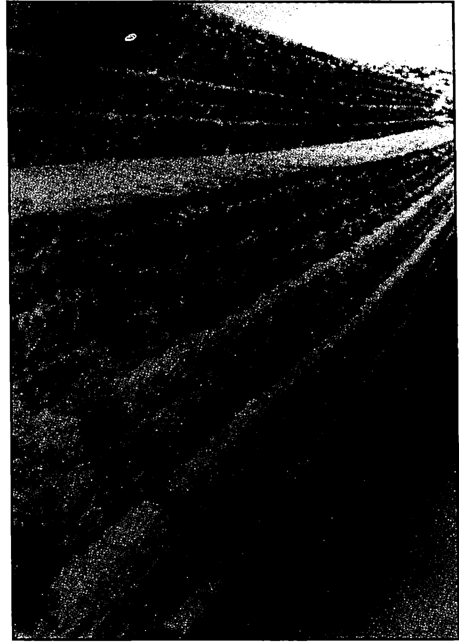
وبمقتضى هذه المعاهدة دخلت خزاعة فى حلف النبى ودخلت بنو بكر فى حلف قريش وعاد المسلمون من عامهم هذا ولم يدخلوا مكة، وقد أتاحت معاهدة الحديبية إقرار السلام بين المشركين والمسلمين، وأتاحت الوقت للنبى لكى يقوم بمهمته الأساسية وهى تبليغ الناس الدعوة الإسلامية ونشر نور الله فى الأرض. كما أن المعاهدة أتاحت للمسلمين دخول مكة بعد ذلك مما كان له أبلغ الأثر فى مشركى مكة، كذلك نتج عن هذا الصلح أن فاء خالد بن الوليد إلى عقله ودخل فى الإسلام وهكذا كان صلح الحديبية نصرا للمسلمين.

غزوة خيبر

٧٦

لا إله إلا الله محمد رسول الله

فى العام السابع من الهجرة، خرج النبى ﷺ على رأس جنده من المسلمين قاصدا خيبر حين بلغه ما يدبره اليهود من مؤمرات وخاصة بعد أن لجأ إليها اليهود المطرودون من المدينة وهؤلاء جميعا ظلوا على غدرهم وتربصهم، وقد حرص النبى ﷺ على كتمان أخبار تحركاته وسار بالجند فى طريق غير معلومة حتى يتحقق عنصر المفاجأة ويكون له النصر، يقول أنس بن مالك وكان فى جند المسلمين: «فركبت خلف أبى طلحة وإن قدمى لتمس قدم رسول الله ﷺ واستقبلنا عمال خيبر غادين قد خرجوا بمساحيهم ومكاتلهم، فلما رأوا رسول الله ﷺ والجيش: قالوا: محمد والخميس معه، فأدبروا هرابا فقال رسول الله ﷺ: الله أكبر خربت خيبر، إنا إذا نزلنا بساحة قوم فساء صباح المنذرين».



سور حصن فى خيبر

وهكذا تمت المفاجأة واستطاع المسلمون الاستيلاء على بعض حصونهم إلا أن حصنين وهما حصن الوطيح والسلالم ظل المسلمون بضع عشرة ليلة محاصرين لهما، وفى خلال ذلك تمت عدة مبارزات بين أصحاب رسول الله وبين بعض محاربى اليهود انتهت بفوز المسلمين، فلما يئس اليهود من النصر وأوشكوا على الهلاك، خاطبوا النبى ﷺ على البقاء بأرضهم على أن يدفعوا نصف غلتها كضريبة للمسلمين.

وبالرغم من سماحة النبى ﷺ فى معاملة اليهود وإبقائهم فى أرضهم، إلا أنهم غدروا وحاولوا قتله، وقد تمثل فيما فعلته زينب بنت الحارث زوجة سلام بن مشكم أحد زعماء اليهود حين أهدت شاة مسمومة للنبى ﷺ رغبة فى الفتك به. يقول الكلاعى: «فلما اطمأن رسول الله ﷺ أهدت له زينب بنت الحارث امرأة سلام بن مشكم شاة مصلية ـ مشوية ـ وقد سألت أى عضو من الشاة أحب إليه؟ فقيل لها: الذراع فأكثرت فيه من السم ثم سمت سائر الشاة، ثم جاءت بها



فلما وضعتها بين يديه تناول الذراع فلاك منها مضغة فلم يسغها ومعه بشر بن البراء بن معرور قد أخذ منها كما أخذ رسول الله ﷺ فأما بشر فأساغها وأما رسول الله ﷺ فلفظها ثم قال: إن هذا العظم ليخبرنى أنه مسموم، ثم دعا بها فاعترفت فقال: ما حملك على ذلك؟ قالت: بلغت من قومى ما لم يخف عليك فقلت: إن كان ملكا استرحت منه وإن كان نبيا فيخبر، فتجاوز عنها رسول الله ﷺ ومات بشر بن البراء من أكلته التى أكل».

وفى هذا العام خرج النبى ﷺ معتمرا وقد صحبه جمع كبير من المسلمين وتوجه إلى مكة وطاف بالبيت وأقام بمكة ثلاثة أيام وخلال ذلك ترك أشراف قريش مكة كراهية منهم لمشاهدة المسلمين وعاد النبى ﷺ إلى المدينة.

سرية مؤتة:

فى العام الثامن من الهجرة أرسل النبى ﷺ حملة عسكرية إلى المناطق الشمالية حتى يؤمن الدولة الإسلامية ويبث الرعب فى قلوب القبائل المتحفزة للإغارة على المسلمين، وقد ترأس هذه الحملة ثلاثة من القادة العسكريين: زيد بن حارثة فإن أصيب فجعفر بن أبى طالب، فإن أصيب فعبد الله بن رواحة وخرج النبى ﷺ وكبار الصحابة يودعون هذه الحملة.

ما إن وصلت هذه الحملة إلى أرض معان من الشام حتى تواترت الأنباء بحشود ضخمة بقيادة هرقل قد نزلت أرض مآب، وهنا تغير الموقف فلم يكن المسلمون فى العدد الصغير قد خرجوا لمواجهة مثل هذه الحشود، ومن ثم بدأوا يتشاورون. يقول ابن إسحاق: «فلما بلغ ذلك المسلمين أقاموا على معان ليلتين ينظرون فى أمرهم وقالوا: نكتب إلى رسول الله ﷺ فنخبره بعدد عدونا فإما أن يمدنا بالرجال وإما أن يأمرنا بأمره فنمضى له. فشجع الناسَ عبدُ الله بن رواحة فقال: يا قوم والله إن الذى تكرهون للذى خرجتم تطلبون الشهادة، وما نقاتل الناس بعدد ولا قوة ولا كثرة وما نقاتلهم إلا بهذا الدين الذى أكرمنا الله به فانطلقوا فإنما هى إحدى الحسنيين إما ظهور وإما شهادة، فقال الناس صدق والله ابن رواحة فمضى الناس».

وهكذا لعب الإيمان والرغبة فى الاستشهاد دورهما فى بث الحماسة وعدم الاكتراث بهذه الأعداد الضخمة من جيوش العدو. وكان اللقاء فى سهل مؤتة ودارت معركة غير متكافئة استشهد فيها القادة الثلاثة وتحاجز القوم ثم تولى القيادة خالد بن الوليد واستطاع بمهارته وقيادته الحكيمة أن ينقذ الجيش الإسلامى من الهلاك وأن يعود به سالما إلى المدينة.



فتح مكة

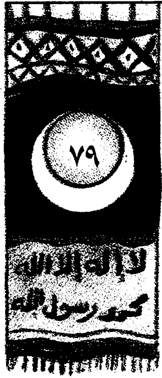
لم يمض على صلح الحديبية سوى عام واحد وفى أوائل العام الذى يليه أى فى العام الثامن للهجرة، نقضت قريش عهودها وخالفت بندا من بنود المعاهدة وذلك بمساعدة حليفتها قبيلة بكر

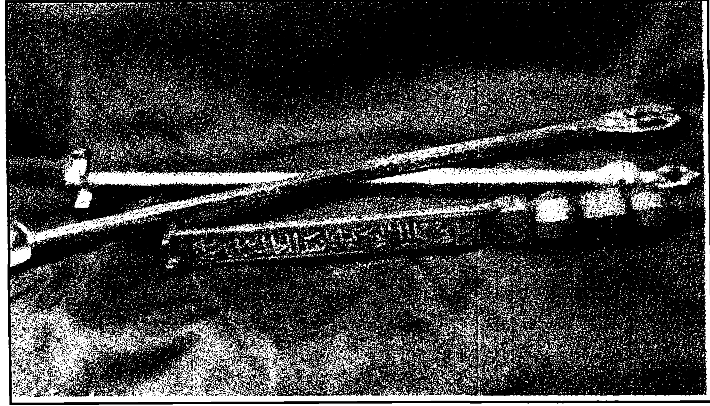


ضد قبيلة خزاعة حلفاء النبى ﷺ وقدموا السلاح والمال والرجال لمؤازرة قبيلة بكر ومن ثم انطلق عمرو بن سالم الخزاعى الكعبى ليخبر النبى ﷺ بنقض قريش لعهودها وما قدمته لقبيلة بكر فى نزاعه ضد قومه من خزاعة.

وقد أدركت قريش بعد فوات الوقت أنها أخطأت خطأ جسيما بمساندتها لقبيلة بكر وأنه لا قبل لها بمحاربة النبى والمسلمين، لذا وجدنا أبا سفيان ينطلق من مكة إلى المدينة فى محاولة لمنع الخطر المقبل، وقد لجأ إلى النبى يعرض عليه ما حدث ولكنه وجد إعراضا وصدودا كما حاول هذه المحاولة مع كبار الصحابة فلم يسمع له أحد وعاد إلى مكة وقد فشل فى مهمته.

أمر رسول الله ﷺ بالتجهيز والتعبئة دون أن يعلن عن هدفه من وراء ذلك وأخفى مقصده عن أقرب الناس إليه. يقول ابن إسحاق: «وأمر رسول الله ﷺ الناس بالجهاز، وأمر أهله أن يجهزوه فدخل أبو بكر على ابنته عائشة وهى تحرك بعض جهاز رسول الله ﷺ فقال: أى بنية أمركم رسول الله ﷺ أن تجهزوا؟ قالت: نعم فتجهز. قال: فأين ترينه يريد؟ قالت: والله ما أدرى».





مفتاحا الكعبة

وهذا الإخفاء المقصود به مفاجأة قريش قبل أن تتجهز، وبذلك يتحقق له النصر فلما أعلم أصحابه بوجهته كان يقول فى دعائه: اللهم خذ العيون والأخبار عن قريش حتى نبغتها فى بلادها. وسار النبى ﷺ على رأس قوات ضخمة بلغت عشرة آلاف، وفى رواية أخرى اثنى عشر ألف مقاتل وهو عدد كبير.

خرج أبو سفيان ومعه بعض الزعماء إلى ظاهر مكة يلتمس الأخبار فالتقى بالعباس بن عبد المطلب عم النبى، وشاهد تلك الجموع الزاخرة وقد أشعلت النيران ليلا مما زاد فى هيبتها وأحدث هذا المنظر رعبا وفزعا فى قلب أبى سفيان ومن معه، وقد أشار عليه العباس بالمثول بين يدى رسول الله ﷺ ليستأمنه ويعلن إسلامه، وقد وافق أبو سفيان على ذلك. يقول ابن إسحاق: «فلما أصبحتُ ـ أى العباس ـ غدوت به ـ أى بأبى سفيان ـ إلى رسول الله ﷺ فلما رآه قال: ويحك يا أبا سفيان ألم يأن أن تعلم أن لا إله إلا الله؟ قال: بأبى أنت وأمى ما أحلمك وأكرمك وأوصلك والله لقد ظننت أن لو كان مع الله إله غيره لقد أغنى شيئا بعد. قال:





ويحك يا أبا سفيان ألم يأن لك أن تعلم أنى رسول الله؟ قال: بأبى أنت وأمى ما أحلمك وأكرمك وأوصلك أما هذه والله فإن فى نفسى منها شيئا حتى الآن. قال له العباس: ويحك أسلم واشهد أن لا إله إلا الله وأن محمدا رسول الله قبل أن تضرب عنقك، قال: فشهد شهادة الحق وأسلم .

قال العباس: قلت يا رسول الله إن أبا سفيان رجل يحب الفخر فاجعل له شيئا قال: نعم من دخل دار أبى سفيان فهو آمن، ومن أغلق عليه بابه فهو آمن، ومن دخل المسجد فهو آمن».

انصرف أبو سفيان من معسكر المسلمين وقد أسلم فحمل البشرى لأهل مكة بالأمان والاطمئنان إذا ما دخلوا بيته أو المسجد أو لزم كل فرد داره، وبالرغم مما فى هذا الأمر من سماحة إلا أن أبا سفيان وجد مقاومة من أقرب الناس إليه من زوجته هند التى عارضت قوله ووبخته على ما فعل.

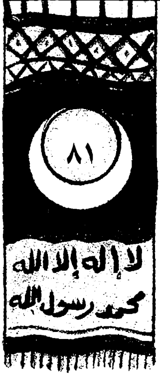
قسم النبى ﷺ جنوده إلى فرق وكل فرقة تدخل من ناحية من نواحى مكة، وحمل كل واحد منهم لواء، وكان منظرا مهيبا، أعلام الحق ترتفع إلى عنان السماء ونداء الله أكبر يسمع فى كل مكان، وجنود الحق شارعة السيف تدخل فى زهو معقل المقاومة الأول منتصرة ظافرة، وكان المسلمون بالأمس القريب خائفين يلوذون بإسلامهم خوف البطش والقتل، والآن تغيرت الصورة وتبدلت ولم يحدث قتال سوى الجهة التى تولاها خالد بن الوليد نتيجة لمقاومة بنى بكر له.

حتى إذا اطمأن الناس وذهب عنهم الروع قام الرسول ﷺ وطاف بالبيت. يقول ابن إسحاق: «ولما نزل رسول الله ﷺ مكة واطمأن الناس خرج حتى جاء البيت فطاف به سبعا على راحلته ليتسلم الركن بمحجن فى يديه فلما قضى طوافه دعا عثمان بن طلحة فأخذ منه مفتاح الكعبة ففتحت له فدخلها فوجد فيها حمامة من عيدان فكسرها ثم وقف على باب الكعبة فقال:

﴿ يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُم مِّن ذَكَرٍ وَأُنثَىٰ وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوبًا وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ ﴿١٣﴾ ﴾ [الحجرات].

ثم قال: يا معشر قريش ما ترون أنى فاعل بكم، قالوا: خيرا أخ كريم وابن أخ كريم، فقال: اذهبوا فأنتم الطلقاء».

كان لفتح مكة آثار بعيدة المدى فى تاريخ الدعوة الإسلامية، إذ إن هذا الفتح قضى على مركز الوثنية فى شبه الجزيرة وذلك حين حطم المسلمون الأصنام ثم دخلت قريش الإسلام مما رفع من قدرها، وبإسلام قريش تخلص النبى والمسلمون من أقوى معارضة للإسلام والمسلمين، وتفرغ المسلمون بعد ذلك لنشر الإسلام فى أنحاء شبه الجزيرة .



أقام الرسول ﷺ بعد فتحها خمس عشـرة ليلة وكان فتحها لعشر بقين من رمضــان سنة ثمان ينظم أمورها وينشــر بين الناس أحكام الدين وفى نفس الوقت كان يرسل السرايا لهدم الأصنام فى الأماكن القريبة من مكة.

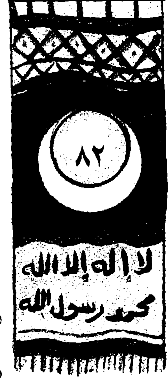
غزوة حنين

كان نجاح النبى ﷺ فى فـتح مكة وهدم ما بها من أصنام فضلا عن هدمه الأصنـام البعيدة عن مكة منذرا للقـبائل المشركـة بالخطر الجسـيم الذى يترصـدها، ومن ثم أسرعت قـبائل هوازن وثقيف بالاستعداد للحرب دفاعا عن شركها ومـعتقداتها، وتولى قيادة هذه الجموع مالك بن عوف وانضم إلى هوازن وثقيف بـنو نصر وجشم وبنو سـعد بن بكر، وقد عـمد مالك إلى حـشد كل قواته، تلك القـوات التى تزودت بكل معدات القتـال وضمت القوات المقاتلة والأطفـال والنساء، وهذا يعنى القتال حتى النهاية دفاعـا عن الأعراض والأنساب، بل إن مالك بن عوف أصدر أوامره لجنوده إن رأيتموهم فاكسروا جفون سيوفكم ثم شدوا شدة رجل واحد.

بلغت أنباء هذه الحشود والجموع النبى ﷺ بمكة فأمر المسلمين بالتجهز لمواجهة الخطر الجديد حتى إذا تم تجهـيزهم بلغ عددهم اثنى عشر ألفـا وهو عدد كبير حـتى أن بعضهم صرح مفـتخرا بقوله: لن نغلب اليوم من قلة. وهى ثـقة جعلت بعضهم يركن إلى هذا العدد الكبـير ولا يكترث بقوة العـدو، وقد ضم هذا الجيش بعض سـكان مكة حديثى العهـد بالإسلام ممن خرجـوا بهدف الغنيمة فقط ولا يهمهم لمن تكون الغلبة. يقول ابن إسحاق: «فلما خرج رسول الله ﷺ إلى حنين خرج مـعه أهل مكة ركبـانا ومشـاة حتى خرج مـعه النساء يمـشين على غيـر دين نظّارا ينظرون ويرجون الغنائم ولا يكرهون أن تكون الصدمة برسول الله ﷺ».

هذه النوعيات فى معسكر المسلمين لم تثبت أمام كمائن المشركين، إذ انهالت السهام والنبال على مقـدمة حيش المسلمـين مما جعلهـا تفر هاربة، وهذا الارتداد أحدث أثرا سـيئا فى صـفوف المسلمين، إذ تخلخت الصفوف وفر الكثير بفعل الصدمة الأولى وصمد النبى ﷺ فى أرض القتال وحوله نفر من المهـاجرين والأنصار وأهل بيته، وكـان ممن ثبت معه من المهاجـرين أبو بكر وعمر ومن أهل بيته على بن أبى طالب والعباس وأبو سفيان بن الحارث وابنه الفضل وغير هؤلاء.

وخلال هذه الهزيمة تكشفت حقيقة بعض من انضم إلى جيش المسلمين فنرى بعضهم يقول شامـتا: لا تنتهى هزيـمتهم دون البـحر، بينما صـرح آخر قائلا: ألا بطـل السحر. وغـيرها من



الأقوال، بل إن بعضهم وجدها فرصة سانحة لقتل النبى ﷺ. يقول ابن إسحاق: «وقال شيبة بن عثمان بن أبى طلحة أخو بنى عبد الدار، وكان أبوه قتل يوم أحد: قلت: اليوم أدرك ثأرى اليوم أقتل محمدا، قال: فأدرت برسول الله لأقتله فأقبل شيء حتى تغشى فؤادى فلم أطق ذلك فعلمت أنى ممنوع منه».

فى هذا الموقف الصعب والموت يحدق بالنبى ﷺ من كل مكان نراه ينادى فى أصحابه من المهاجرين والأنصار يدعوهم إلى الثبات والقتال، وكان العباس يقف بجوار النبى ﷺ فأمره النبى بالنداء فى الناس لارتفاع صوته «قال: أى النبى - يا عباس اصرخ: يا معشر الأنصار يا معشر أصحاب السمرة قال: فأجابوا لبيك لبيك قال: فيذهب الرجل ليثنى بعيره فلا يقدر على ذلك فيأخذ درعه فيقذفه فى عنقه ويأخذ سيفه وترسه ويقتحم عن بعيره ويخلى سبيله فيؤم الصوت حتى ينتهى إلى رسول الله ﷺ حتى إذا اجتمع إليه منهم مائة استقبلوا الناس فاقتتلوا».

وتوالت نداءات النبى ﷺ على أصحابه ودعاؤه بالنصر للإيمان على الكفر والشرك: يا أصحاب البيعة يوم الحديبية يا أصحاب سورة البقرة يا أنصار الله ورسوله، ثم قبض النبى ﷺ قبضة من الحصباء فحصب بها وجوه المشركين وقال: شاهت الوجوه. وقد أثمر ثبات النبى ونداؤه للمسلمين على تغيير الموقف وقلب الهزيمة إلى نصر مؤزر وفر من استطاع الفرار من المشركين نجاة بحياته من القتل.

تحقق النصر وكان عليهم تتبع الفلول المنهزمة والتى لجأت إلى الطائف، لذا وجدنا رسول الله ﷺ يتجه إلى الطائف للقضاء على المنهزمين والفارين من المعركة وكانت الطائف مدينة محصنة قوية، وقد حاصرها النبى ﷺ ما يقرب من خمسة عشر يوما دوى جدوى، وأدرك النبى أنه لا فائدة من حصارها فتركها وانصرف عنها ونزل بالجعرانة، وذلك لتقسيم المغانم ،وقد وافاه هناك وفد من هوازن يرجونه العفو عن أسراهم وقالوا له: يا رسول الله إنا أهل وعشيرة وقد أصابنا من البلاء ما لا يخفى عليك فامنن علينا منّ الله عليك. إنما فى هذه الحظائر عماتك وخالاتك وحواضنك اللائى كن يكفلنك.

وقد تأثر النبى ﷺ بهذه المقالة فخيرهم بين أخذ السبى أو الأموال فقالوا له: يا رسول الله لقد خيرتنا بين أموالنا وأحسابنا، بل ترد علينا نساءنا وأبناءنا فهم أحب إلينا، ولم يكن النبى ليرضى أن يأخذ من المقاتلين مغانمهم فقال لهم: أما ما كان لى ولبنى عبد المطلب فهو لكم وإذا أنا صليت الظهر بالناس فقولوا: إنا نستشفع برسول الله ﷺ إلى المسلمين وبالمسلمين إلى رسول الله فى أبنائنا ونسائنا فسأعطيكم عند ذلك وأسال لكم.



فلما صلى الظهر قاموا فتكلموا بمثل ما قال لهم فقال عليه السلام: أما ما كان لى ولبنى عبد المطلب فهو لكم فقال المهاجرون والأنصار: ما كان لنا فهو لرسول الله ﷺ، وبذلك رد عليه السلام إلى هوازن أبناءهم ونساءهم، ثم دخل النبى ﷺ مكة معتمرا فلما فرغ من عمرته انصرف راجعا إلى المدينة وعيَّن عتاب بن أسد على مكة وخلف معه معاذ بن جبل يفقه الناس فى الدين ويعلمهم القرآن.

غزوة تبوك

لم يكن فتح مكة وما حولها، والنشاط العسكرى فى الجنوب صارفا النبى ﷺ عن التفكير فى مناطق الشمال والخطر الذى يتهدد الدعوة من تطلع قبائل الشمال للانقضاض على الدعوة الإسلامية، وخاصة بعد فشل حملة مؤتة فى تحقيق أهدافها ومقتل ثلاثة من قادة الحملة، وربما كان هذا الفشل داعيا لمزيد من الجرأة من جانب قبائل الشمال، ومن هنا كان لابد من حملة عسكرية تعيد الأمور إلى نصابها ليسترد بها المسلمون مكانتهم ويبسطوا نفوذهم على المنطقة الشمالية.

لذا أصدر النبى ﷺ أوامره بالتجهز والاستعداد للانطلاق إلى الشمال، وقد صاحب هذا الاستعداد كثير من المشقة والجهد، وذلك لشدة الحر وانتظار المسلمين جنى محاصيلهم وثمارهم مع قلة ما بأيديهم من مال وسلاح، وهذه الظروف مجتمعة كانت ابتلاء وامتحانا لإيمان المسلمين واختبارا لصدق يقينهم.

وخلال التجهيز والاستعداد للخروج، ظهرت نماذج من النفاق كشفها الله لنبيه وفضح نواياهم وما تكنه صدورهم فالجدّ بن قيس أحد بنى سلمة قال له النبى: يا جد هل لك العام فى جلاد بنى الأصفر؟ فقال: يا رسول الله أتأذن لى ولا تفتنى، فوالله لقد عرف قومى أنه ما من رجل أشد عجبا بالنساء منى وإنى أخشى إن رأيت نساء بنى الأصفر لا أصبر، فأعرض عنه رسول الله ﷺ وقال: قد أذنت لك ففيه نزلت ﴿ **وَمِنْهُم مَّن يَقُولُ ائْذَن لِّي وَلا تَفْتِنِّي أَلا فِي الْفِتْنَةِ سَقَطُوا وَإِنَّ جَهَنَّمَ لَمُحِيطَةٌ بِالْكَافِرِينَ** ﴿٤٩﴾ ﴾ [التوبة].

كذلك عمد بعض المنافقين إلى تثبيط غيرهم عن القتال بقولهم: ﴿ ... **وَقَالُوا لا تَنفِرُوا فِي الْحَرِّ قُلْ نَارُ جَهَنَّمَ أَشَدُّ حَرًّا لَّوْ كَانُوا يَفْقَهُونَ** ﴿٨١﴾ **فَلْيَضْحَكُوا قَلِيلاً وَلْيَبْكُوا كَثِيرًا جَزَاءً بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ** ﴿٨٢﴾ ﴾ [التوبة].



وبجانب هذه النماذج السيئة، كانت هناك صور مشرفة للإيمان واليقين منها إسراع أغنياء المسلمين بالإنفاق على الحملة وعلى تجهيز المقاتلين ومنهم سيدنا عثمان بن عفان الذى قال عنه النبى ﷺ: اللهم ارض عن عثمان فإنى عنه راض، كذلك أقبل سبعة من فقراء الأنصار يسألون النبى مساعدتهم للخروج للقتال فلما أخبرهم النبى بعدم إمكانية ذلك جزعوا لعدم تمكنهم من الخروج حتى هيأ الله لهم أحد الأنصار الذى جهز لهم الدواب اللازمة فخرجوا فرحين مستبشرين لمصاحبتهم رسول الله.

سار الجيش حتى وصل تبوك، وهناك أقبل يوحنة بن رؤبة صاحب إيلة فصالح رسول الله ﷺ وأعطى الجزية، وأتاه أهل جرباء وأذرح فأعطوا الجزية وكتب لهم رسول الله ﷺ كتابا يضمن فيه سلامتهم وعدم الاعتداء عليهم.

أقام النبى ﷺ فى تبوك عشر ليال ثم قفل عائدا إلى المدينة وكانت آخر غزوة يخرج فيها النبى ﷺ.



عام الوفود

كان انتصار المسلمين فى فتح مكة وإخضاع القبائل ثم خروج المسلمين إلى الشمال وخضوع القبائل هناك لسلطان المسلمين كل هذا كان داعيا إلى استجابة القبائل للدين الجديد إذ أحست قوى الشرك أن لا قبل لهم بقوة المسلمين.

ومن ثم أخذت القبائل تتوافد على المدينة حتى عرفت السنة التاسعة من الهجرة بعام الوفود، ومن هذه الوفود وفد ثقيف ووفد بنى تميم ووفد من قيس ووفد من بكر ووفد من ربيعة وغير هؤلاء من الوفود، وكان يجرى حوارا واستفسارات ومناقشات وكانت النتيجة إسلامهم، ومن ذلك ما دار من حوار بين زعيم وفد بنى سعد بن بكر والرسول حين قال له: يا ابن عبد المطلب إنى سائلك ومغلظ عليك فى المسألة فلا تجدن على فى نفسك، قال: لا أجد فى نفسى فسل ما بدا لك. قال: أنشدك الله إلهك وإله من كان من قبلك وإله من هو كائن بعدك، آلله بعثك إلينا رسولا؟ قال: اللهم نعم، قال: فأنشدك الله أأمرك أن تأمرنا أن نعبده وحده ولا نشرك به شيئا وأن نخلع هذه الأنداد التى كان آباؤنا يعبدونها معه؟ قال: اللهم نعم، قال: فأنشدك الله آلله أمرك أن نصلى هذه الصلوات الخمس. قال: اللهم نعم، ثم جعل يذكر فرائض الإسلام فريضة فريضة: الزكاة والصيام والحج وشرائع الإسلام كلها حتى إذا فرغ قال: فإنى أشهد أن لا إله إلا الله وأشهد أن محمدا رسول الله. وسأنفذ هذه الفرائض وأجتنب ما نهيت عنه ثم لا أزيد ولا أنقص ثم خرج إلى قومه فأسلموا.



وهكذا كانت الوفـود تتعلم الإسـلام وتتفقـه فى الدين ويشهـدون أخلاق رسول الله ﷺ وعشرة أصحابه، وقد تضرب لهم خيام فى فناء المسجد فيسمعون القرآن ويرون المسلمـين يصلون ويسألون رسول الله ﷺ عما يـجول فى خاطرهم فى بساطة وصراحة.

وفى سبيل تبليغ الرسالة للناس جميعا أرسل النبى ﷺ إلى الملوك والأمراء رسله يحملون رسـائل تدعوهم إلى الإيمان بالله وعبادتـه وعدم الشرك به ورفض الأوثان والأصنام وإخلاص الوجـه لله، ومن هؤلاء كسـرى ملك الفرس وقيـصر ملك الروم والمقوقس حاكم مصر وغير هؤلاء.

حجة الوداع

فى ذى القعدة من العام العاشر للهجرة أذن النبى ﷺ فى أصحابه بالحج، وتجهز المسلمون لمصاحبة النـبى ﷺ فى حجه، وكان حشدا كبـيرا ضم المهاجرين والأنصار وبقيـة القبائل، وبلغ عددهم ما يقـرب من مائة ألف مسلم، وخرج هذا الجمع الزاخـر قاصدا مكة لأداء مناسك الحج وليتـعلم المسلمون فرائض دينهم من رسـول الله . .وفى ساحة عـرفات وقف النبى ﷺ يخطب المسلمين ويحدد لهم مبادئ الإسلام وقواعد الدين، ومما جاء فيها:

«أيها الناس اسمعوا قولى فـإنى لا أدرى لعلى لا ألقاكم بعد عامى هذا بهذا الموقف أبدا، أيها الـناس إن دماءكم وأموالكـم عليكم حرام إلى أن تلقـوا ربكم كحـرمة يومكم هذا وحـرمة شهركم هذا، وستلقون ربكم فيسألكم عن أعمالكم.

واستمر رسول الله ﷺ فى خطبته وفيها أعلن لهم المبادئ التى يسيرون عليها والعلاقة التى تربط بين المسلمين، وكـيف أنها تقوم على تحريم الاعـتداء على الأموال والأعراض وأن مـقياس الإيمان هو العمل الصالح الذى يقدمه الفرد لنفسه ولمجتمعه، وأن قاعدة العلاقات بين الناس هى الأمانة فى المال والعـمل فى الحياة الخـاصة والعامـة على حد سواء، وأن الإسـلام حرم الربا لما يحدثه من كـراهية وحقد بين الأفـراد، وأوضح لهم النبى ﷺ فى خطبته كـيف أن الشيطان لهم بالمرصاد يحـاول جاهدا النفاد إلى قلوبهم ونفـوسهم وإلى أعمالـهم. كما حرم عليـهم التلاعب بالأشهر الحرم وحددها لهم.

ثم تطرق النبى ﷺ إلى العـلاقة الأسـرية وهى علاقـة هامة بصـلاحهـا يصلح المجتـمع وأوصى الرجال بمعـاملة النساء معـاملة طيبة والحـفاظ عليهـن ورزقهن وكسوتـهن، وبذلك ينشأ الأبناء فى جـو من الحب والتعـاطف ويكونون أدوات بناء وإصلاح فى المجـتمع وخـتم خطبـته

بالتركيـز على علاقة الأخوة والمودة التى تربط المسلم بأخـيه المسلم. بذلك حدد العلاقات العامة بين المسلمين التى تبنى على الحب والمساواة.

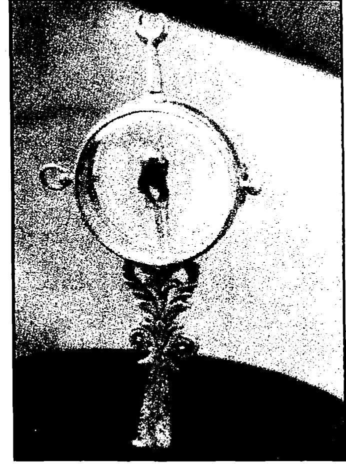




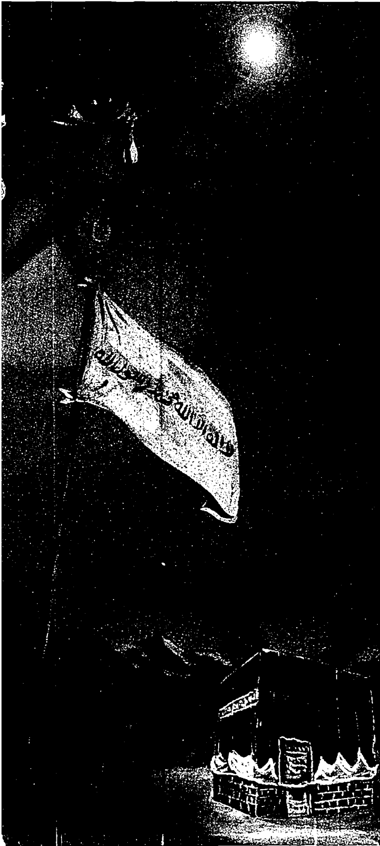
وفاة الرسول ﷺ

أكـمل الرسـول ﷺ مناسك الحج ثم عـاد إلـى المدينة ولم يمض سـوى شهـرين حتى مرض النبى ﷺ فـاستأذن نسـاءه فى أن يُمَرّض فى بيت عـائشة، ولما اشتـد عليه المرض خرج إلى أصحابه وصعد المنبر وقال:

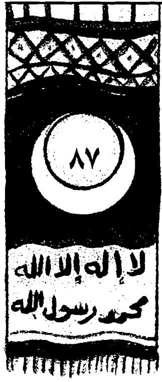
يا معشر المهاجرين والأنصار استوصوا بالأنصار خيرا فإن الناس يزيدون وإن الأنصـار على هيئتـها لا تزيد وأنهم كـانوا عيـبتى التى آويت إليـها فأحـسنوا إلى محسـنهم وتجاوزوا عن مسيئهم.


العلبة التى يحتفظ فيها بشعرة من اللحية النبوية الشريفة

وأمـر النبى ﷺ أبا بكر أن يصلى بالناس أثنـاء مرضـه، ولما كـان يوم الإثنيـن ١٣ربيع الأول سنة ١١ هجـرية الموافق ٨ يونيـو ٦٣٣م لحق النـبى ﷺ بالرفـيق الأعلى، وقـد ذهل الـصحـابة بهول الصـدمة ولم يصدقـوا نبأ وفاة النبى ﷺ حتى خرج عليهم أبو بكر وتلا عليهم قـول الله تعالى: ﴿**وَمَا مُحَمَّدٌ إِلاَّ رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِ الرُّسُلُ أَفَإِن مَّاتَ أَوْ قُتِلَ انقَلَبْتُمْ عَلَىٰ أَعْقَابِكُمْ وَمَن يَنقَلِبْ عَلَىٰ عَقِبَيْهِ فَلَن يَضُرَّ اللَّهَ شَيْئًا وَسَيَجْزِي اللَّهُ الشَّاكِرِينَ** ﴿١٤٤﴾﴾ [آل عمران].

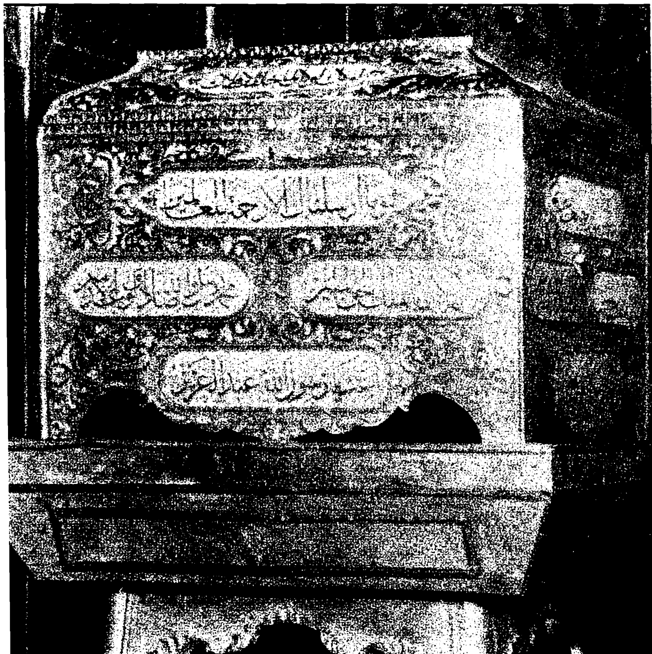


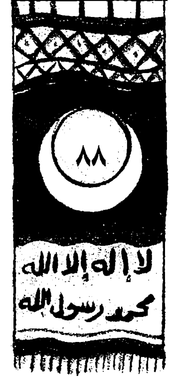
وحينئذ أفـاق المسلمون على الحقيقـة المؤلمة وبدءوا يواجهون حياتهـم بدون القائد الأعلى والمعلم العظيم الذى ترك فيـهم كتاب الله وسنته المطهرة.



المصادر والمراجع

- القرآن الكريم.
- ابن الأثير: (٥٥٥هـ ـ ٦٣٠م) على بن أحمد بن أبى الكرم: الكامل فى التاريخ، دار صادر، بيروت.
- البخارى (ت ٢٥٦هـ) محمد بن إسماعيل بن إبراهيم: صحيح البخارى، دار إحياء التراث العربى.
- ابن خلدون: مقدمة ابن خلدون، دار إحياء التراث.
- ابن خلكان: (٦٠٨هـ ـ ٦٨١هـ) أبو العباس شمس الدين أحمد بن محمد: وفيات الأعيان وأنباء أبناء الزمان.
- ابن سعد: الطبقات الكبرى، دار صادر، بيروت.
- الطبرى: أبو جعفر محمد بن جرير (ت ٣١٠هـ): تاريخ الطبرى، دار المعارف.
- ابن كثير (ت ٧٧٤هـ) عماد الدين أبو الفدا إسماعيل، البداية والنهاية، دار الفكر العربى.
- الكلاعى الأندلسى (ق ٦٣٤هـ) أبو ربيع سليمان بن موسى: الاكتفا فى مغازى المصطفى.
- ابن هشام (ت ٢١٣هـ) لأبى محمد عبد الملك بن هشام: مختصر سيرة ابن هشام، المجلس الأعلى سنة ١٩٩٣.
- ا.د حسن على حسن: محاضرات فى تاريخ العرب قبل الإسلام والسيرة النبوية، مكتبة الشباب سنة ١٩٨٦.
- ا.د محمد محمد زيتون: السراج المنير من سيرة سيد المرسلين، مكتبة النهضة ١٩٩٤.




٨٨
لا إله إلا الله
محمد رسول الله


المحتويات

Abstract

This work highlights the Message of the Prophet of God (PBUH), and his efforts to establish an Islamic Umma.

When Qurayish opposed and persecuted the Prophet, he and his companions migrated into El- Medina Al - Manura, and the immigrants were accommodated in the abodes of the Helpers who shared with them their food and income.

The Prophet (PBUH) built his mosque in Al - Medina in which the nucleus of the Arab Muslim State was founded. The faithful in Medina challenged the disbelievers of Qurayish in the battles of Badr and El - Khandaq, and in the year 8H., Mecca was won over, and thus the whole Arabian Peninsula came under the banner of Islam. In the tenth year of Hegira, the Prophet performed the farewell pilgrimage together with the Arabs who embraced Islam.

The principles laid by the Prophet were the guide lines of the Rightly Guided Caliphs, who expanded the boundaries of the Umma East and West, and thus the Persian Empire and parts of the Byzantine Empire were incorporated into the Umma.

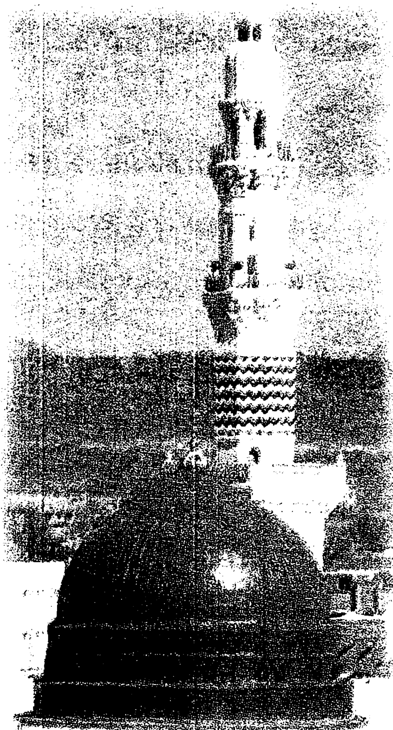
The Ummayites pursued the conquests as far as China in the East and Southern France in the West. The Islamic Umma was bound together by the Law of God, and ruled by the Constitution of the Holy Quran, and the tradition of the Prophet.

Dr. Hassan Ali Hassan

(4)

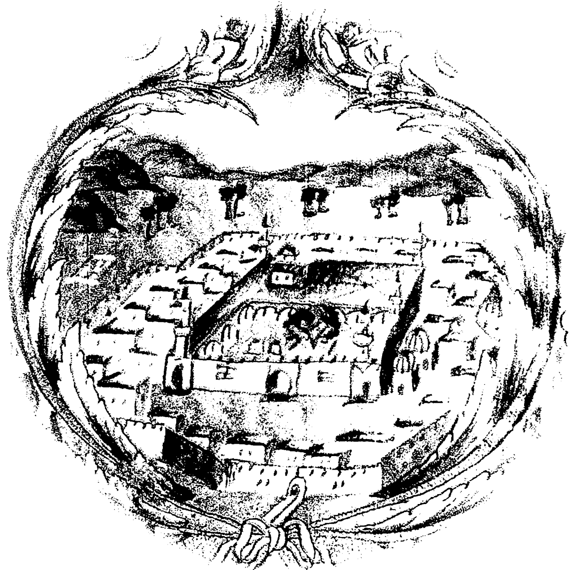
The Prophet of God (Peace Be Upon Him) and the establishment of Islamic Umma

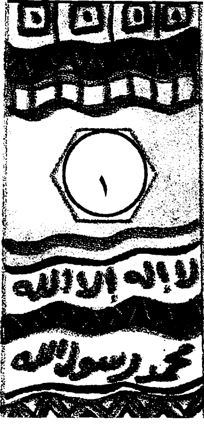
Dr. Hassan Ali Hassan



(٥)
عصر الخلفاء الراشدين
(الحياة السياسة والحضارية)

تأليف
د. عطية أحمد محمود القوصى
أستاذ التاريخ الإسلامى
كلية الآداب - جامعة القاهرة





مقدمة

الخلفاء الراشدون، هم حكام الدولة الإسلامية عند بدايتها، وهم الذين خلفوا رسول الله ﷺ في حكم المسلمين وقيادة دولة الإسلام وإقرار نظامها السياسى، والعمل على توسعتها، التوسعة التى شملت ـ فى آخر دولتهم ـ معظم العالم المعمور آنذاك.

وكان المسلمون قد واجهوا بعد وفاة رسول الله ﷺ محمد ﷺ، مشكلة نظام الحكم وكيفية إدارة أمر الدولة التى وضع هو أساس لبناتها وأعلن القضاء على الوثنية وإعلاء كلمة الوحدانية ورفع لواء العدل والحرية والإخاء والمساواة وأضاء بتعاليمه وهديه وبما نزل عليه من وحى طريق البشرية من الظلام إلى النور، وحررهم من أغلال العبودية ورسم لهم طريق النجاة فى الحياتين: الدنيا والآخرة.

ولقد فوجئ المسلمون بوفاة الرسول ﷺ، رغم إيمانهم بأنه بشر وإيمانهم بحتمية الموت على كل البشر، وأن البقاء والخلود لله وحده، الواحد القهار، إلا أن وقوع الموت المفاجئ على نبيهم وحبيبهم ومنقذهم وحاديهم أوقعهم فى حيرة وبلبلة دلت على أنهم تناسوا وقوع هذا الأمر على خير خلق الله وأكرم رسله، وأنهم استبعدوا عن أذهانهم وقوعه عليه فباتوا يتخبطون فى أمرهم وتساءلوا عن كيفية سير سفينة الإسلام دون ربان. وجاءت هذه المشكلة من أن الرسول ﷺ ارتحل عنهم دون أن يوصى بالنص لأحد بعده بالحكم، كما أنه لم يخلّف وراءه ابنا يرث حكمه للمسلمين وقيادة الدولة الإسلامية من بعده. كذلك فإن آيات القرآن الكريم لم تشر لهذا الأمر، وكأن الله ورسوله قد تركا الأمر للمسلمين، فى أول تجربة لهم لحكم أنفسهم، أن يختاروا من نظم الحكم القائمة آنذاك فى العالم المجاور ما يلائم معيشتهم وظروفهم ويتماشى مع تطور حياتهم ولا يتنافى مع تعاليم الدين الجديد.

المؤلف





ارتبط التشريع الإسلامى بقيام الدولة التى وضع الرسول ﷺ أساسها وأرسى قواعدها، لذلك كان لابد من وجود سلطة تنفيذية ـ بعد ارتحال الرسول ﷺ ـ لهذه الدولة تقوم بتطبيق التشريع وتحافظ على وحدة الأرض ووحدة الجماعة، وتحقق عالمية الدولة خارج نطاق شبه جزيرة العرب، وتسهر ـ فى نفس الوقت ـ على مصلحة الجماعة الإسلامية وتؤمنها من أى خطر يتهددها أو عدو يهدد أمنها.

وقد عُرف النظام الذى تمثل فى الطريقة التى هدى الله المسلمين إليها لاختيار شخص من يخلف الرسول ﷺ فى حكمهم وفى تسيير أمور دولتهم باسم نظام الخلافة.

على أن هذا النظام الخلافى لم ينشأ من فراغ، فلقد خطط له رسول الله ﷺ عند إقامته الدولة تطبيقا لما نزل عليه من وحى، واجتهادا من عنده وبمشورة أصحابه فيما لم ينزل فيه كتاب ولا وحى، طوال العشر سنوات التى قاد فيها مسيرتها بعد هجرته إلى المدينة المنورة. وقد تمثلت أسس قيام هذه الدولة فى مبدأين هامين من مبادئ التشريع الإسلامى، وهما: مبدأ الشورى فى الحكم بالنسبة للحاكم، ومبدأ الطاعة لله وللرسول بالنسبة للرعية، وقد أشار إليهما خالق هذا الكون فى كتابه الكريم فى قوله تعالى: ﴿ ... **وَشَاوِرْهُمْ فِي الأَمْرِ** ... ﴿١٥٩﴾ ﴾ [آل عمران]، كذلك فى قوله تعالى: ﴿**يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَأُوْلِي الأَمْرِ مِنكُمْ** ... ﴿٥٩﴾ ﴾ [النساء].

وقد رسخ الرسول ﷺ هذين المبدأين عمليا، فأصبح الحكم فى الإسلام بمثابة عقد أو عهد، وهو ما عرف عند المسلمين باسم «البيعة»، وهى بيعة بين الراعى والرعية، يلتزم الطرفان فيها بحدود التشريع الإسلامى. وقد طبق رسول الله ﷺ نظام الشورى فى الحكم، وظهر فى عهده أهل الشورى، وكانوا من كبار صحابته، واستبعد النظام الوراثى فى اختيار قيادات حكومته، وقد كان النظام الوراثى فى الحكم معروفا للعرب بسبب اتصالاتهم بممالك الفرس والروم، وممالك اليمن القديمة، وملوك الغساسنة والمناذرة على حدود الشام والعراق.



وما حدث فى اجتماع سقيفة بنى ساعدة بالمدينة، بعد وفاة رسول الله ﷺ مباشرة، وحُسم فيه اختيار أول خليفة لدولة الإسلام الناشئة، يؤيد رسوخ مبادئ ومفاهيم الشورى فى الحكم عند المسلمين. وقد برز فى اجتماع السقيفة هذا مبدأ آخر فى الحكم، وهو ضرورة أن يكون خليفة رسول الله ﷺ من قريش، وذلك من خلال المناقشات التى وقعت بها، والتى استطاعت أن تتخطى حاجز العصبية القبلية عند القبائل بين المهاجرين والأنصار. وقد اعتمد إقرار هذا المبدأ على إقرار أهل السقيفة بما للمهاجرين من فضل وسابقة على الأنصار فى نصرة الدعوة الإسلامية وتحمل مشاق نصرتها. وبذلك نجد أن المبادئ التى قام عليها نظام الخلافة وأقرها اجتماع السقيفة هى: اقتصار اختيار الخليفة على القرشيين دون سائر رجال القبائل، وأن يكون المختار من أهل الشورى، وأن يكون أهل الشورى، الذين يساعدون الخليفة فى الحكم من كبار الصحابة، وأن يتم اختيار الخليفة بالانتخاب الحر، وأن تؤخذ للخليفة الذى وقع الإجماع عليه، البيعة العامة من عموم المسلمين. وقد كان على الخليفة المنتخب الالتزام بما فى كتاب الله وما جاء فى سنة رسوله، وعلى الرعية التى بايعت السمع والطاعة ما دام الخليفة قائما بهذا الالتزام.

ولتفصيل ما وقع فى سقيفة بنى ساعدة، نقول: إنه لما وصل إلى الأنصار نعى رسول الله ﷺ لهم، سارعوا إلى التفكير فى شخص من يخلفه فى تدبير أمورهم وقيادة مسيرتهم، فاجتمعوا فى سقيفة لبنى ساعدة، كان الأنصار يجتمعون فيها للنظر فى أمورهم المهمة، وكان المهاجرون وقتذاك مشغولين بتجهيز دفن الرسول ﷺ. ولمّا كانوا يرون أن الأمر لهم لأن حاضرة الدولة مدينتهم المنورة، وأن رسول الله ﷺ مات بينهم، وأنهم أنصار الله وكتيبة الإسلام، رشحوا للرياسة شيخا منهم من سادة الخزرج هو «سعد بن عبادة»، ودعوه ليتحدث باسمهم وليبين موافقته على اختيارهم له رئيسا لدولة الإسلام وخليفة لرسول الله ﷺ فى حكم المسلمين ودولتهم. وامتثل سعد لطلبهم وقام فيهم خطيبا وبين فى خطبته هذه فضل الأنصار على دولة الإسلام الناشئة، وسبقهم فى نصرة الله ورسوله واستجابتهم لدعوته وقت أن أعرض الجميع عنه.

غير أن الأوس لم يكونوا راضين بما يجرى وامتعضوا لهذا الاختيار وخافوا أن تؤدى رياسة سعد للمسلمين إلى سيادة الخزرج عليهم وإلى عودة الصراع القديم الذى كان قائما فى يثرب قبل الإسلام بين الأوس والخزرج والحرب بينهما.



ولقد وصل خبر اجتماع السقيفة إلى كبار رجال الصحابة من المهاجرين، فسارع ثلاثة منهم إلى هذا الاجتماع حتى يشاركوا فى حسم هذا الأمر الخطير الذى يتوقف عليه مستقبل أمة الإسلام، وحتى لا يتيحوا الفرصة للأنصار للتصرف بمفردهم فى أمر الخلافة الهام دون أن يكون للمهاجرين فيه من رأى. وكان الثلاثة هم: أبو بكر الصديق وعمر بن الخطاب وأبو عبيدة بن الجراح. ولما وصل الثلاثة وتبينوا ما انتهى إليه الخزرج من اختيار سعد بن عبادة للخلافة، نهض فى المجتمعين أبو بكر، وألقى أول خطبة له فى جموع الأنصار، وبين فى هذه الخطبة فضل المهاجرين عن الأنصار فى القيام بأمر الدعوة ونصرتها، وبيَّن كذلك سابقة المهاجرين فى كتاب الله، وبين كذلك أن المهاجرين هم أهل رسول الله ﷺ وعشيرته وهم الذين تحملوا معه عنت الكفار والمشركين فى مكة من قريش وغيرها من القبائل، وهم الذين هاجروا معه وتركوا ديارهم وأبناءهم وأموالهم، وأن منهم قريشا قبيلة رسول الله ﷺ وعشيرته. كذلك اعترف بالفضل للأنصار، لكنه أبان بأنه فضل يلى فضل المهاجرين فى المكانة والسابقة. وقصد أبو بكر، فى خطبته، أن تكون إمارة الدولة للمهاجرين ووزارتها للأنصار، وذلك بقوله لهم، ضمن ما قال: «نحن الأمراء وأنتم الوزراء، وإن رسول الله ﷺ قال الأئمة من قريش، وقال: أوصيكم بالأنصار خيرا: أن تقبلوا محسنهم وتتجاوزوا عن مسيئهم. وإن الله سمانا الصادقين وسماكم المفلحين، وقد أمركم أن تكونوا معنا حيثما كنا: مصداقا لقوله تعالى: ﴿**يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَكُونُوا مَعَ الصَّادِقِينَ** ﴿١١٩﴾﴾ [التوبة].

ولم يتقبل جميع الأنصار قول أبى بكر، فقام «الحباب بن المنذر» خطيبا فى المجتمعين يدافع عن حق الأنصار فى الحكم، ويطلب من الأوس والخزرج الاتفاق على اختيار رجل منهم أوسيا كان أو خزرجيا، وطالبهم بعدم الاختلاف والتفريط فى هذا الأمر حتى لا يقع لأحد غيرهم. كما أشار ابن المنذر، فى ختام خطابه، بإمكانية أن يتقاسم المهاجرون والأنصار الحكم، بقوله: «وليكن منا أمير ومنكم أمير».

ولما تحرج الموقف فى السقيفة بين المهاجرين والأنصار، قام أبو عبيدة بن الجراح فى المجتمعين خطيبا موجها حديثه إلى الأنصار ملاطفا لهم بقوله أنهم أول من آمن ونصر فلا يكونوا أول من غَيَّر وبَدَّل.



وفوجئ المجتمعون بقيام «بشـير بن سعد»، زعيم الأوس، خطيبا مؤيدا حق المهـاجـرين فى الخـلافـة دون الأنصـار، وقـد كان لخطـابه وقع بالغ فى النفوس. فـانبرى عـمر بن الخطاب وأبو عـبيدة يعلنـان مبايعـتهمـا لأبى بكر بالخلافـة، ثم تقدم، بعدهما، بشـير بن سعـد زعيم الأوس، وبايع أبا بكر، وبايعه من بعده رجال الأوس، فاضطرت الخـزرج لمبايعة أبى بكر حفاظا على وحدة كلمة المسلمين، عدا سعد بن عـبادة الذى لم يبايع وخرج من الاجتماع ناقما على ما وقع فـيه. وقد عرفت هذه البيعة التى تمت لأبى بكر فى سـقيفة بنى سـاعدة باسم: البـيعـة الخاصة، ثـم أخذت له، بعـد ذلك، فى مسـجد الرسول ﷺ البيعـة العـامة، بعد أن قـام أبو بكر فى النـاس خطيـبا وصلى بهم. وقد بيّن أبو بكر فى خطبته هذه الخطة التى سوف يسير عليها والالتزام الذى وجب على الحاكم المسلم أن يلتزمه مع نفسه ومع الرعية بقوله:

«أيُهـا الناس إنى وُلِّيت عليكم ولست بخـيـركم، فإن رأيتـمونى عـلى حق فأعـينونى وإن رأيتمونى على باطل فقومونى، ألا إن أضـعفكم عندى القوى حتى آخذ الحق منه، وأقواكم عندى الضعـيف حتى آخذ الحـق له، الصدق أمانة والكذب خـيانة، أطيعـونى ما أطعت الله فـيكم فإن عصيته فلا طاعة لى عليكم، أقول قولى هذا وأستغفر الله لى ولكم».

هذا، وقد كان عدد الخلفاء الراشدين أربعة خلفاء، جاء ترتيب وسنوات حكمهم كالتالى:

١ ـ أبو بكر الصديق، عبد الله عتيق بن أبى قحافة (١٢ ربيع الأول ١١ هجرية).

٢ ـ عمر الفاروق، بن الخطاب (٢٢ جمادى الآخرة ١٣ هجرية).

٣ ـ عثمان بن عفان، ذو النورين (٢٩ ذى الحجة ٢٣ هجرية).

٢ ـ على بن أبى طالب، المرتضى (١٧ ذى الحجة ٣٥ هجرية).

هذا، وقد انتـهى عهـد حكم هؤلاء الخلفاء الراشـدين سنة ٤١هجرية، بقيـام حكم الدولة الأموية التى أسســها الخليفة معاوية بن أبى سـفيان فى هذا العام ولتستـمر فى حكم دولة الإسلام حتى سنة ١٣٢ هجرية.

وبذلك تكون مدة خلافة الراشدين قد استغرقت ثلاثين عاما.



فضائل أبى بكر الصديق

كان اسمه، رضى الله عنه، عبد الله، وقيل عبد الكعبة، فلما أسلم سماه النبى ﷺ عبد الله. وقيل: إن أمه أسمته «عتيقا» لعتاقة وجهه، أى جماله، والعتق هو الجمال.

وقيل: إن أمه كانت لا يعيش لها ولد فلما ولدته استقبلت به البيت ثم قالت: «اللهم إن هذا عتيقك من الموت فهبه لى» فعاش فسمته عتيقا، وكان يعرف به. وقيل: إن رسول الله ﷺ سماه عتيقا بقوله له: «أنت عتيق الله من النار». ولقد اختلف فى تسميته بالصديق، وقد قيل: إن ذلك كان لقبا قد غلب عليه فى الجاهلية، وقيل سمى صديقا لتصديقه النبى ﷺ فى خبر الإسراء، وقيل أيضا لمبادرته إلى تصديق الرسول ﷺ فى كل ما جاء به عموما.

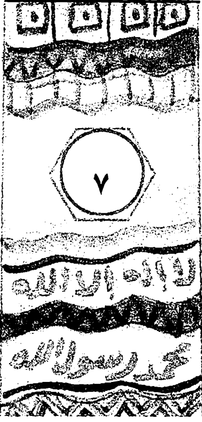
وكان أبو بكر، حسب وصف ابنته السيدة عائشة له، أبيض نحيفًا خفيف العارضين، ناتئ الجبهة، غائر العينين، يميل جسده إلى الانحناء.

وأبو بكر هو أول من آمن بدعوة رسول الله ﷺ وصدقه، وأول من أسلم من الرجال. وقد قالت ابنته عن إسلامه: «خرج أبو بكر يريد النبى ﷺ وكان صديقا له فى الجاهلية فلقيه، فقال: يا أبا القاسم فقدت من مجالس قومك واتهموك بالعيب لآبائها وأديانها، فقال رسول الله ﷺ: إنى رسول الله ﷺ أدعوك إلى الله عز وجل».

فلما فرغ رسول الله ﷺ أسلم أبو بكر وما بين الأخشبين (جبلان بمكة) أكثر منه سرورا بإسلام أبى بكر. وقد قال عن مبادرته هذه: «ما دعوت أحدا إلى الإسلام إلا كانت منه كبوة ونظر وتردد إلا ما كان من أبى بكر بن أبى قحافة ما انتظر عنه حين ذكرته له وما تردد فيه».

قال ابن إسحاق، فى إسلام أبى بكر وذكر من أسلم على يديه:

«ولما أسلم أبو بكر أظهر إسلامه ودعا إلى الله ورسوله، وكان رجلا مؤلفا لقومه محببا سهلا، وكان أنسب قريش لقريش وأعلم قريش بها وبما كان فيها من خير وشر، وكان رجلا تاجرا ذا خلق ومعروفا، وكان رجال قريش يأتونه ويألفونه لغير واحد من الأمر لعلمه وتجارته وحسن مجالسته، فجعل يدعو إلى الإسلام من وثق به من قومه ممن يغشاه ويجلس إليه فأسلم بدعائه



فيمن بلغني: عثمان بن عفان والزبير بن العوام وعبدالرحمن بن عوف وسعد ابن أبى وقاص وطلحة بن عبيد الله، فجاء بهم إلى رسول الله ﷺ حين استجابوا له فأسلموا فكان هؤلاء النفر الثمانية الذين سبقوا بالإسلام وصدقوا رسول الله ﷺ يعنى: عليا وزيدا وأبا بكر ومن أسلم على يديه».

وكان أبوبكر يدفع المشركين عن إيذاء رسول الله ﷺ، ومن ذلك أنه جاء مرة عند الكعبة ورسول الله ﷺ يصلى فرأى عقبة بن أبى معيط يتقدم نحو الرسول ﷺ ويضع رداءه فى عنقه ويخنقه به خنقا شديدا فيسرع أبو بكر إليه ويدفعه عنه ويخلصه منه ويقول له:

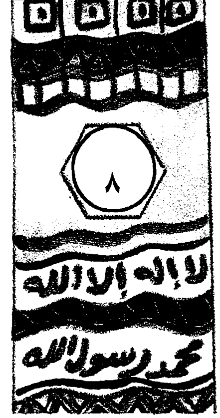
«أتقتلون رجلا أن يقول ربى الله وقد جاءكم بالبينات من ربكم؟».

ومن خصائص أبى بكر مصاحبته لرسول الله ﷺ ومؤانسته له فى الغار أثناء الهجرة إلى المدينة، وسبقه بعد رسول الله فى دخول الجنة، وتخصيص الرسول ﷺ له بالأخوة، فى قوله ﷺ: «**لو كنت متخذا من أمتى خليلا لاتخذت أبا بكر خليلا ولكن أخى وصاحبى**». واختصاصه بنفع ماله للنبى بقوله: «**ما نفعنى مال قط ما نفعنى مال أبى بكر**».

وخاصيته بإنفاق أربعين ألف دينار على رسول الله ﷺ وفى سبيل الله. واختصاصه بإعتاق سبعة ممن كانوا يعذبون فى الله منهم بلال بن رباح وعامر بن فهيرة. وباختصاصه بأنه كان أشجع الناس فى القتال وبخاصة يومى بدر وأحد. ومن خصائصه أيضا شدة بأسه وثبات قلبه لما ارتدت العرب بعد وفاة رسول الله ﷺ. وأيضا اختصاصه بالفتوى بين يدى رسول الله ﷺ وإمضاء النبى لفتياه.

واختصاصه أيضا بأنه أول من جمع القرآن، وتقديم النبى إياه أميرا على الحج فى حياته، والتقديم إماما فى الصلاة حين غاب النبى فى بعض شئونه وفى مرضه الأخير. وصفوة القول أن أبا بكر قاسم الرسول ﷺ مر العيش وحلوه وآلام الحياة وما فيها من نصر وظفر وبقى معه لا ينفك عنه كظله.

ومن فضائل أبى بكر شهوده بدرا والحديبية مع رسول الله ﷺ، ومؤانسته للرسول فى الغار وبقتال أهل الردة، وحضوره كل مشاهد رسول الله ﷺ وثباته يوم أحد يوم أن انهزم الناس، ودفع الرسول ﷺ إليه رايته العظمى يوم تبوك وتنزهه عن شرب المسكر فى الجاهلية والإسلام، وعدم سجوده لصنم قط. وأنه كانت له فراسة وعلم بالقراءة والكتابة وأنساب العرب. وكان زاهدا رقيق القلب ورعا كثير البكاء فى الصلاة من خشية الله، متواضعا، غيورا على الدين، قويا فى الحق. ومن فضائله أيضا جمع القرآن، بعد معركة اليمامة واستشهاد أعداد كبيرة من حفظة القرآن، فعهد بذلك إلى زيد بن ثابت الذى قام بجمعه وظل عند الصديق حتى وفاته.

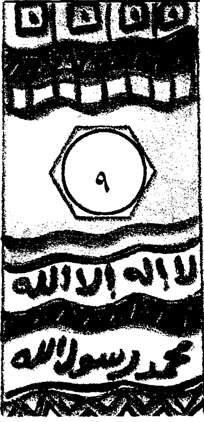




ولقد انعقد إجماع المسلمين على بيعة أبى بكر بالخلافة، بسبب علو مكانته فى الإسلام، وسبقه إليه وصحبته لرسول الله ﷺ طوال حياته، ومناصرته وملازمته له، وإخلاصه له وصحبته له فى هجرته إلى المدينة وإنابته فى الحج بالمسلمين فى العام التاسع للهجرة، وإصراره على نيابته فى الصلاة بالمسلمين، دون غيره من الصحابة، فى مرضه الأخير. وقد يكون ذلك إيحاءً للمسلمين باتخاذه خليفة له، مع عدم ارتقاء هذا التخصيص إلى مرتبة النص والتعيين إلا أن هذه الخصوصية تعد من أبلغ الدلائل على ما كان لأبى بكر من خصوصية عند رسول الله ﷺ ومن مكانة لم يرق إليها أحد غيره، وقد تسمح هذه المكانة له بصدارة الجماعة الإسلامية وخلافته فى حكم دولة الإسلام من بعده.

ولقد اختلفت الروايات فى موقف على بن أبى طالب من بيعة أبى بكر بالخلافة، فيقول كتاب الشيعة ومؤرخوهم أن عليا تخلف، عن عمد، عن مبايعة أبى بكر وأنه لم يبايعه إلا بعد انقضاء ستة أشهر على خلافته، وذلك احتجاجا على ما وقع فى السقيفة من غبنه لحقه فى الخلافة دون أبى بكر. ويرى هؤلاء الكتاب أن عليا كان أحق بالخلافة من أبى بكر لسبقه فى الإسلام ولدوره قبل الهجرة وبعدها ولملازمته الرسول ﷺ فى كل حروبه ومعاركه، ولقرابته من الرسول ﷺ وتربية الرسول ﷺ له وتزويجه من ابنته فاطمة، أحب بناته إلى قلبه، وإنجابه لأحفاد رسول الله ﷺ. بينما تقول رواية كتاب أهل السنة ومؤرخيهم أن سبب تأخر على عن اجتماع السقيفة هو انشغاله بتجهيز رسول الله ﷺ ودفنه، وسبب تأخره بعد ذلك انشغاله بجمع القرآن، ويروى محمد بن سيرين رواية مفادها قال: «لما بويع أبو بكر أبطأ على فى بيعته وجلس فى بيته، قال فبعث إليه أبو بكر ما أبطأ بك عنى أكرهت إمارتى؟ قال على: ما كرهت إمارتك ولكنى آليت ألا أرتدى ردائى إلا إلى صلاة حتى أجمع القرآن». ، ثم خرج فبايعه.

وهنالك رواية أخرى تقول بأن عليا ظل ممتنعا عن مبايعة أبى بكر بالخلافة مدة ستة شهور بعد بيعة الناس له، وذلك بعد أن توفيت السيدة فاطمة بنت الرسول ﷺ، وزوج على، وقد كانت غاضبة من أبى بكر لمنع إعطائها حقها فى ميراث أبيها فى فدك وبنى النضير وخيبر، عملا بحديث ثبت عن رسول الله ﷺ مفاده قوله ﷺ: «نحن معشر الأنبياء لا نورث كل ما نتركه صدقة». ولما ماتت لم يجد مفرا من البيعة لأبى بكر احتراما لغضب زوجته.



ولقد أورد «الطبرى» هذه الرواية، ونلاحظ أن صيغة خبر الطبرى تجعل مسألة الميراث سببا لامتناع على وبنى هاشم عن مبايعة أبى بكر. لكن مطالبتهم أبا بكر بالميراث تقتضى أن تكون بعد الاعتراف بخلافته، وفى هذا من التناقض ما يجعل القصة مصطنعة وإن كان لها أصل ما. فكل ما يمكن أن يكون هو أنهم بعد مبايعتهم لأبى بكر طالبوا بما اجتهدوا أنه ميراثهم من النبى ﷺ فأورد أبو بكر عليهم حديث رسول الله ﷺ بصدد ميراث الأنبياء الذى سمعه عن رسول الله ﷺ، وانتهى الأمر عند هذا الحد.

ويكون ما عدا ذلك من قول من زيادات الشيعة وتأليفهم، لأنه لا يمكن أن يكون علىّ وفاطمة وبنو هاشم لم يصدقوا أبا بكر فى الحديث الذى رواه، كما لا يمكن أن يكونوا قد كابروا وأصروا على المطالبة بالميراث بعد سماعهم لحديث رسول الله ﷺ. ومن الغريب أن أعداء الإسلام الذين يحملون على أبى بكر منع فاطمة من إرثها فى فدك وخيبر قد نسوا أن عليا نفسه، لما تولى الخلافة، لم يعط أحدا ورث فاطمة ولا لأحد من بنى هاشم ما تركه رسول الله ﷺ من ميراث عملا بحديث رسول الله ﷺ: «نحن معشر الأنبياء لا نورث. . .». وإذا كان أبو بكر منع ذلك عن فاطمة فيكون من الأولى أن منع عن ابنته عائشة، زوج رسول الله ﷺ، المشاركة فى الميراث، وهذا ما حدث بالفعل. وعموما فإن أكثر الروايات التى قيلت فى هذا الصدد، أن عليا سارع إلى بيعة أبى بكر وأنه كان معاونا له فى شئون الخلافة، وأنه كان يعرف فضله ومن أقرب الناس إليه. وقد ورد أن عليا لم ينقطع عن صلاة من الصلوات خلف أبى بكر، وأنه خرج معه إلى «ذى القصة» لما خرج الصديق شاهرا سيفه يريد قتال أهل الردة.

وكان أبو بكر خير رجل يواجه الموقف الذى أصبح فيه المسلمون بجزيرة العرب بعد وفاة الرسول ﷺ، ويواجه الأحداث الشداد التى وقعت فى الدولة الإسلامية وهى لا تزال فى فترة النشوء والتكوين. ففضلا عن شدة إيمانه بدعوته وصلابة عوده فى الإسلام وتشربه بأخلاق رسول الله وعمله بسنته، فإنه امتاز بالبراعة السياسية والفكر السديد وبُعد النظر، وبفضل هذه الصفات استطاع أن يتصدى لرياح التغيير العاتية التى هبت على الدولة الناشئة تريد أن تقتلعها من جذورها، ونجح فى مجابهة أكبر أزمة تعرض لها الإسلام فى بداية تكوينه وهى أزمة الردة والمتنبئين، واستطاع بشجاعته وقوة نزاله أن يخمد نيران هذه الردة المتأججة ويحولها إلى تراب ورماد.

ومن أهم الأعمال التى تنسب إلى الصديق فى أمر دولة الخلافة:

أ ـ محاولة إقراره النظام السياسى فى الدولة والقضاء على حركة الردة والمتنبئين ومانعى الزكاة.



ب ـ توسيع حدود الدولة خارج نطاق شبه الجزيرة العربية، فيما عرف فى التاريخ بحركة الفتوح العربية ونشر الإسلام.

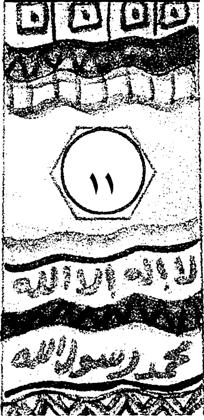
جـ ـ تخطى أمر الصراع على الخلافة بالمشورة فى ترشيح عمر بن الخطاب خليفة من بعده.

حركة الردة والمتنبئين ومانعى الزكاة

ظهر فى العام العاشر من الهجرة، فترة مرض الرسول ﷺ الأخير، بعض الخارجين عن الدعوة وعن الدولة العربية الإسلامية من رجال القبائل العربية، وادعى بعضهم النبوة تشبها برسول الله ﷺ . ومن هؤلاء: الأسود العنسى فى اليمن، ومسيلمة الكذاب فى بنى حنيفة باليمامة، وطليحة بن خويلد فى بنى أسد بمنطقة نجد، وسجاح التميمية فى بنى تميم بنجد أيضا. كذلك انتقض على الدولة العربية الإسلامية عدد كبير من القبائل العربية، عقب وفاة الرسول ﷺ، ممن لم يكن الإسلام قد استقر فى قلوبهم بعد، وممن لم يتذوقوا حلاوة الإيمان، وأعلنت تمردها وخروجها على الدولة مستندة على حجج عديدة واهية، وقد عرف هذا الخروج بجميع أشكاله باسم حركة الردة.

ويتضح لنا من واقع دراسة المجتمع الإسلامى، مع بداية تكوين الدولة الإسلامية، أنه كانت هناك قبائل عربية قد دخلت الإسلام طائعة مختارة مؤمنة إيمانا كاملا بهذا الدين وبتعاليمه السمحة، فإن هناك قبائل أخرى قد انضوت تحت لواء الدولة الجديدة تحت ظروف متعددة ولأهداف مادية مصلحية خاصة بها، حتى أنها ما كادت تسمع عن مرض الرسول ﷺ وتتيقن من ارتحاله إلى الرفيق الأعلى حتى تحلل بعضها من بيعته وخرجت على الدولة الإسلامية وأعلنت تمردها. ولقد زاد انتشار هذه الحركة على أثر النزاع الذى دار فى سقيفة بنى ساعدة بين المهاجرين والأنصار حول مسألة الخلافة.

ولقد اتخذت حركة الردة أشكالا مختلفة تبعا للعوامل وللظروف التى تأثرت بها، فبدأت بحركات التنبؤ، التى ارتكزت أساسا على عصبية القبائل العربية. وقد ظهر جميع من ادعوا النبوة فى العام الأخير من حياة الرسول ﷺ. فظهر «الأسود العنسى» فى اليمن، وتبعت دعوته بعض

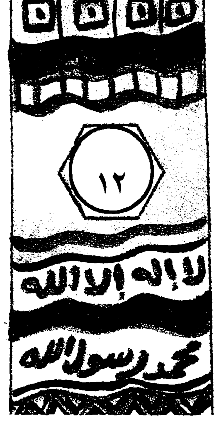


قبائل اليمن وأهل مدنها وبخاصة قبيلة مذحج. وأعلن «طلحة بن خويلد» نفسه نبيا فى بنى أسد بنجد، فانضمت قبيلته بنو أسد إليه ومعهم كثير من حلفائهم من غطفان. وفى اليمامة، ادعى مسيلمة بن حبيب الحنفى النبوة فى قبيلته بنى حنيفة، وقد تطاول مسيلمة فى دعواه بأن أرسل للنبى كتابا يدعوه فيه مقاسمة النبوة معه، كذلك ادعى بأن له قرآنا مثل قرآن محمد، فنعته الرسول ﷺ لذلك بالكذب فعرف من وقتها بمسيلمة الكذاب. كما ادعت امرأة من بنى تميم بنجد تدعى سجاح النبوة، وقامت بالاتصال بمسيلمة وتزوجت منه، وشكلا حركة واحدة فى ادعائهما النبوة.

ولقد تجمعت معظم هذه القبائل التى ادعى رجالها النبوة فيهم خارج الحجاز، وبالذات فى منطقة نجد وبلاد اليمن؛ ذلك لأن العصبية القبلية التى نجح الإسلام، بشكل ملحوظ، فى القضاء عليها فى الحجاز، لم يستطع القضاء عليها خارج الحجاز فى بقية أنحاء شبه الجزيرة. وقد ظلت هذه العصبية تسيطر عليهم بأفكارها وتقاليدها. فلما أعلن هؤلاء المتنبئون نبوتهم، وجدت طريقها إلى قلوبهم رغبة فى انتزاع السيادة من قريش والحجاز، ورأت هذه القبائل أنها ليست أقل من قريش فى أن يظهر من بينهم نبى مثلما ظهر بين قريش. وكان أمل هؤلاء المدعين أن يحققوا المجد والسلطان لأنفسهم ولقبائلهم، مثلما صار لمحمد ولقريش. ورغم أن بعض رجال هذه القبائل كانوا يعلمون كذب ادعاء هؤلاء المتنبئين إلا أنهم ساندوهم وظاهروهم توكيدا لعصبيتهم وجهالتهم. ولقد عمد المتنبئون إلى التشبه بالنبى فى الشكل والمظهر، كذلك عمدوا على الاستعانة بالسحر والكهانة والشعوذة، التى كانت لا تزال منتشرة وسائدة آنذاك بين قبائل العرب، فى إظهار كراماتهم والإيحاء للناس بحقيقة نبوتهم.

وإلى جانب هؤلاء المتنبئين، كان هناك المرتدون عن الإسلام، وقد كانوا أصنافا مختلفة، فمنهم: من ثار على الأوضاع الاجتماعية الجديدة والقيم الأخلاقية التى أقرها الإسلام، وحاول إرساء قواعدها بينهم، وهى أوضاع وقيم كانت ترتكز أساسا على العدل والمساواة بين أفراد الجماعة الإسلامية ومنع العصبية والعنصرية وإذابة الفوارق السحيقة والمتناقضات المقيتة بين أفراد القبيلة الواحدة وبين أفراد القبائل وبعضها البعض.

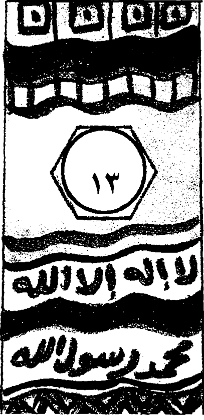
ومنهم من ارتد عن الإسلام بتشككه فى صحة نبوة الرسول ﷺ غداة موته، وقد كان هؤلاء يظنون أن الرسول ﷺ معصوم من الموت ولا تنطبق عليه نواميس البشر، فلما مات وأدركوا أنه واحد مثلهم يخضع لما يخضعون له، صدموا واهتزت صورة هذا النبى أمام أعينهم فارتدوا. وقد كان معظم هؤلاء ممن تأخروا فى الدخول فى الإسلام، وبخاصة من سكان البحرين.



وهناك فريق ارتد بسبب رفضه دفع فريضة الزكاة بعد موت النبى ﷺ، واعتبار أن هذه الزكاة كانت مجرد جزية يعطونها لمحمد وهو حى، أو هى صدقة يتصدقون بها عليه فى حياته ليسير بها أحوال دولته، أما وقد مات، فإنهم رأوا، أنه ليس هنالك مبرر للاستمرار فى دفعها، خاصة بعد أن تولى أبو بكر الخلافة، وهو من قريش. وكان فى تصورهم أن دفعهم الزكاة له معناه الانقياد لقريش، وهم يرفضون هذا الأمر ويسعون للخلاص منه قدر إمكانهم. وقد جاء معظم هذا الفريق من ردة اليمن وعمان واليمامة، وكانت الكثرة الغالبة من المرتدين من أولئك الذين تمردوا على حكومة المدينة، بعد موت الرسول ﷺ، وبعد أن استقرت الخلافة بانتخاب أبى بكر، القرشى، خليفة. ولم يرتد هذا الفريق عن الإسلام، كفرا به وإنكارا لتعاليمه التى يعتقدون فى صدقها وصحتها، ولكنهم تمردوا تنصلا من تبعية الخضوع لحكومة المدينة وسيطرة قريش عليهم، وخاصة أن هذه القبائل لم تكن قد تعودت الخضوع لمثل هذه السلطة من قبل. وقد انحاز فريق من هؤلاء إلى ثورات بعض المتنبئين يستنصرون بهم على قريش أملا فى الخلاص والتحرر من زعامتها وقيادتها التى فرضت عليهم.



ولقد ساعد على تفشى أمر الردة ودعوة المتنبئين وقبول القبائل لها سطحية هذه القبائل فى فهم تعاليم الإسلام، الذى لم يكن قد استقر فى قلوبهم بعد، ولم تواتهم الفرصة لتفهم تعاليمه واستقرارها فى أذهانهم، وقد دخل هؤلاء الإسلام فى وقت قريب، وكانت صحبتهم للرسول صحبة قصيرة ومنهم من لم ير الرسول ﷺ ومن لم يسمع عنه. ولم يكن أمر الاقتناع بالعقيدة



والتعاليم الإسلامية الجديدة أمرا يسيرا على مثل هذه المجتمعات العربية القبلية التى عاشت على البداوة وتأثرت بطبيعة الصحراء القاسية وتأصلت فيها العادات القبلية وعبادة الأصنام والأوثان وتقديس كل ما هو قديم موروث. ولم يكن خافيا أنه كانت وراء هذه الحركات الهدامة أصابع خارجية تحركها فى الخفاء، تمثلت فى القوى المعادية للإسلام والحاقدة عليه وعلى سرعة انتشاره؛ أمثال يهود شمال الحجاز، ونصارى الحبشة ونجران والشام ومجوس العراق وفارس. وقد اعتمد هؤلاء فى تدبير مؤامراتهم على عملائهم داخل أراضى دولة الإسلام. وقد ظهر هذا الأمر واضحا جليا فى الشعارات المسيحية واليهودية والمجوسية التى رفعها هؤلاء المتنبئون والمرتدون لدعواهم ورسالاتهم الزائفة المزعومة.

ولقد كان الخليفة الصديق، وهو فى بداية خلافته، أمام أحد أمرين لا ثالث لهما، وهو إما أن يطأطئ الرأس أمام العاصفة حتى تمر وتهدأ ويتساهل مع هؤلاء المتمردين، كسبا للوقت، وإتاحة الفرصة لهم لتفهم الإسلام فهما صحيحا وبالتالى استقراره فى قلوبهم، وخاصة أن هؤلاء لم يكن قد انقضى زمن كاف على إسلام غالبيتهم. وقد يكون له العذر لو فعل ذلك بسبب الظروف الدقيقة والحرجة التى كانت تمر بها الدولة الإسلامية وهى فى طور التكوين فى الداخل والخارج. وإما تشمير السواعد وقتال المرتدين والمتنبئين دون هوادة وعدم التساهل مع مانعى الزكاة واعتبارهم مرتدين لانتقاضهم ركنا أساسيا من أركان الإسلام الخمسة.



ولقد اختار أبو بكر الأمر الثانى واعتبر الجميع مرتدين خارجين عن الدين، ورأى ضرورة الضرب بشدة فى معالجة مثل هذه الأمور التى قد يقضى التهاون فيها على الدولة، وقد يقتلعها أساسا من جذورها. وأعلن أبو بكر الحرب على الجميع وارتدى للحرب لباسه، وتحول هذا النحيل الهادئ الرقيق البَكَّاء إلى



قائد ثائر عنيف متحد ومستعد للنزال حفاظا على وحدة الدولة التى ورثها وورث قيادتها عن رسول الله ﷺ وأخذ بيعتها من كافة المسلمين، ودفاعا عن الأمانة التى اؤتمن عليها غداة يوم سقيفة بنى ساعدة. هذا، وقد مال بعض الصحابة، وفيهم عمر العنيف المتشدد، وتكلموا مع الخليفة بشأن مانعى الزكاة وإمكانية تركهم وما يرغبون من منع دفع الزكاة حتى يتمكن الإسلام والإيمان من قلوبهم ويتفهموا فرضية الزكاة فيؤدوها طائعين. وكان بعض مانعى الزكاة قد احتجوا أمام الخليفة بقوله تعالى: ﴿**خُذْ مِنْ أَمْوَالِهِمْ صَدَقَةً تُطَهِّرُهُمْ وَتُزَكِّيهِم بِهَا وَصَلِّ عَلَيْهِمْ إِنَّ صَلاتَكَ سَكَنٌ لَّهُمْ وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ** ﴿١٠٣﴾﴾ [التوبة]، وقالوا: «فلسنا ندفع الزكاة إلا لمن صلاته سكن لنا، وها قد رحل»، وقد قال عمر لأبى بكر: «إذا منعك العرب الزكاة فاصبر عليهم»، فقال له أبو بكر متحديا: «والله لو منعونى عقال ناقة كانوا يؤدونه إلى رسول الله ﷺ لقاتلتهم عليه، والله لأقاتلن من فرق بين الصلاة والزكاة، والله لأقاتلنهم ولو قاتلتهم بمفردى حتى تنفرد بالموت سالفتى».

ولقد بدأ أبو بكر معالجة الموقف بإنفاذ بعثة أسامة بن زيد أولا إلى الشام، تحقيقا وتنفيذا لأمر ورغبة رسول الله ﷺ ، وليوهم أهل الردة استخفافه بحركتهم وأن حربهم لن تكلفه شيئا، وأنه إنما يجهز قوته الحقيقية للحرب الخارجية مع الروم، وأن دولته لديها من القوات ما يكفيها للقضاء على أى تمرد داخلى، وأنها لو لم تكن كذلك لما سارعت بإنفاذ جيش أسامة إلى الشام وفى مثل هذا الوقت بالذات. وقد كان هذا العمل العبقرى من جانب أبى بكر أول بداية النهاية للمرتدين.

وكانت المرحلة التالية فى مواجهة المرتدين هى تحصين المدينة، عاصمة الدولة، وحمايتها بالحراس والطلائع عند منافذها لرد أى عدوان من قِبَل أى من هذه القبائل المعادية عليها. وقد صدق حدس الصديق فى ذلك وظهر بُعْد نظره، حينما طمعت قبيلة غطفان فى قوة المسلمين، حين علمت بخروج حملة أسامة إلى الشام وظنها خلو المدينة من قوات تدافع عنها، فهاجمت المدينة، ولكنها فوجئت بباقى القوات الإسلامية مستعدة متأهبة للقائهم، فأوقعت بهم هزيمة ساحقة على أطراف المدينة، ففروا من وجهها عائدين إلى بلادهم بعد أن خاب سعيهم، وقد تتبعتهم القوات الإسلامية حتى مواطنهم، وقامت بضم هذه المواطن إلى الدولة بعد أن تعهد سكانها الالتزام بالطاعة.

وكان لهذا الانتصار على غطفان، هذه القبيلة الكبيرة، نتيجة مزدوجة إحداها على المرتدين والأخرى على المسلمين. فقد أدرك المرتدون متانة الجبهة الإسلامية فى الداخل والخارج، وعدم تأثر قوة المسلمين بخروج حملة أسامة إلى الشام. وبالنسبة للمسلمين، فقد أحسوا بقوتهم



وبحلاوة الانتصار، الأمر الذى زاد من عزيمتهم وقوّى من إرادتهم فى مقاتلة المرتدين أينما كانوا حتى إحراز النصر عليهم. كذلك استفاد الخليفة من غنائم غطفان، وغنائم حملة أسامة التى عادت منتصرة ومحملة بالغنائم، فى تجهيز أحد عشر جيشا لمقاتلة المرتدين والمتنبئين ومانعى الزكاة. وقد جعل أبو بكر اللواء والقيادة لكل جيش من هذه الجيوش لقائد كبير وبطل رائد من مقاتلى الإسلام. ووجه هذه الجيوش جميعها، فى وقت واحد، كل جيش منها إلى جهة من جهات أهل الردة والمتنبئين. ولقد انتدب أبو بكر لقيادة هذه الجيوش كلا من: خالد بن الوليد، وعكرمة بن أبى جهل، والمهاجر بن أمية، وخالد ابن سعيد بن العاص، وعمرو بن العاص، وحذيفة بن محصن، وعرفجة بن هرثمة، وطريف بن حاجز، والعلاء بن المغيث الحضرمى، وسويد بن مقرن، وشرحبيل بن حسنة.

ولقد حدد الخليفة لكل قائد المنطقة التى سيتوجه لقتال أصحابها، وطلب من جميع القواد ألا يبدأ أحدهم الحرب مع أهل الجهة المتوجه إليها إلا بعد أن يدعوهم إلى الاستتابة والعودة من الارتداد إلى الإسلام، فإن استجابت قبل منها وإن أبت قاتلها دونما انتظار. كذلك طلب منهم الاستعانة بمن ثبت على إسلامه من أهل القبائل على المرتدين منهم، لأنهم أعلم بأحوال قومهم منهم وأعلم بنقاط قوتهم ونقاط ضعفهم.

هذا، وقد نفذ القادة أوامر الخليفة، ولما لم تستجب القبائل لطلب الاستتابة واستجابت لنداء الأنفة والعصبية القبلية وصمموا على الحرب حاربتهم الجيوش الإسلامية حربا شرسة لا هوادة فيها، انتهت بتمزيق فلولهم وسحق قواتهم والقضاء تماما على المرتدين والمتنبئين وعودة فلول هذه القبائل إلى حظيرة الإسلام.

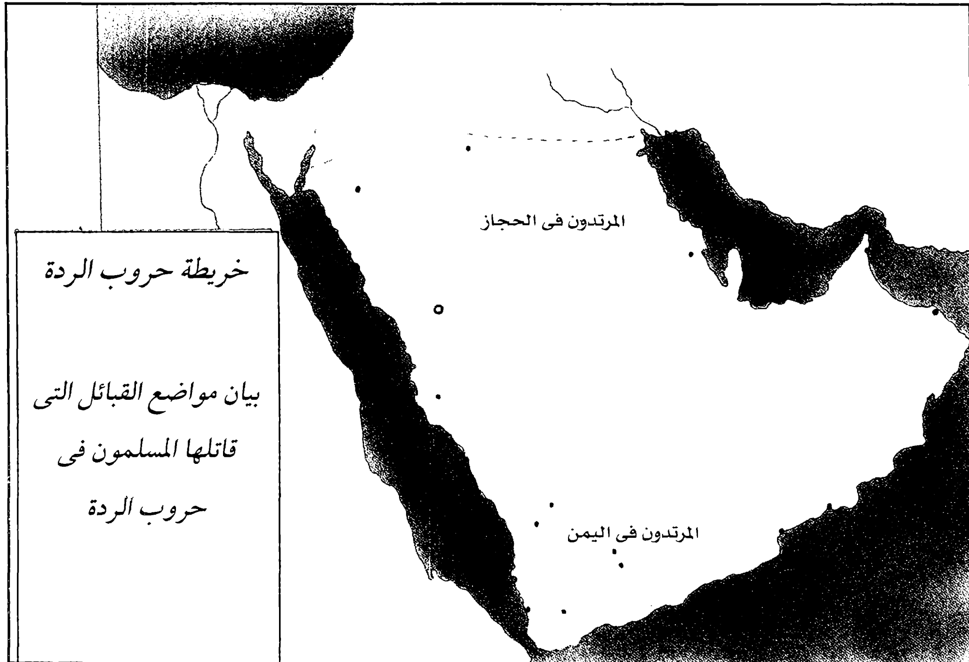
وتعد الحملة التى تولى خالد بن الوليد قيادتها من أهم الحملات التى جهزها الصديق لقتال المرتدين، وقد كان بها خيرة المهاجرين والأنصار. وقد وجه خالد اهتمامه، أول الأمر، إلى إخضاع قبيلة بنى أسد وزعيمها طليحة بن خويلد، ونجح فى هزيمة طليحة وإخضاع قبيلته التى أعلنت توبتها وعودتها للإسلام والتزامها بدفع الزكاة لدولة الإسلام. أما طليحة نفسه، فقد هرب إلى الشام، بعد انفضاض أتباعه عنه، ثم قدم بعد ذلك إلى المدينة وقابل الخليفة الصديق وأعلن توبته أمامه، فعفا الخليفة عنه. وبعد ذلك أصبح طليحة جنديا مقاتلا فى صفوف المسلمين أيام الفتح، وأبلى بلاء حسنا وخصوصا فى فتح بلاد العراق.

وتوجه خالد، بعد هزيمة بنى أسد، إلى قبيلة بنى تميم بنجد، لمقاتلة أتباع سجاح التميمية الذين اعترفوا بنبوتها وامتنعوا عن دفع الزكاة، فانتصر عليهم وعادوا إلى الإسلام والتزموا بدفع



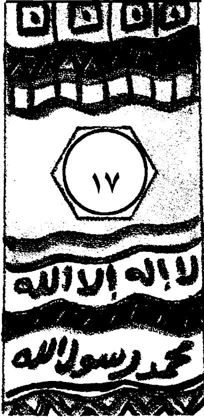
الزكاة. ثم سار خالد، بعد ذلك، بقواته إلى اليمامة لمقاتلة بنى حنيفة ونبيهم مسيلمة الكذاب. ونظرا لخطورة حالة مسيلمة وقوة تسليح أتباعه من بنى حنيفة، قام أبو بكر بإمداد جيش خالد بقوة جديدة من مقاتلى المسلمين بقيادة عكرمة بن أبى جهل وشرحبيل بن حسنة. وتقابل الجيش الإسلامى مع قوات مسيلمة فى معركة حامية استبسل الجانبان فيها وسقط فيها عدد كبير من قتلى الفريقين، حتى ألجأ خالد مسيلمة إلى مكان حصين يعرف بالحديقة، فحصره هناك. ونجح البراء ابن مالك فى فتح باب سور الحديقة، فاقتحمها المسلمون وهم يكبرون ويهللون. ونجح أبو دجانة الأنصارى الذى كان بطلا فى معركة أحد، والذى نال الشهادة فى هذه المعركة، مع وحشى الحبشى، قاتل حمزة عم الرسول ﷺ، فى الوصول إلى مكان مسيلمة وقتله. ففر بنو حنيفة منهزمين حين تأكدوا من قتل نبيهم المزعوم، وأمعن المسلمون القتل فيهم حتى تم القضاء على قوة بنى حنيفة. وبعد المعركة، جاءت وفود المنهزمين من بنى حنيفة إلى معسكر خالد وأعلنت توبتها وندمها وبراءتها من الردة ومسيلمة ورجوعها إلى الإسلام، فقبل خالد ذلك منهم وعفا عنهم. هذا، ولقد استشهد فى حرب بنى حنيفة عدد كبير من المسلمين، وبخاصة من حفظة القرآن.

ولقد نجحت كل القوات التى أرسلها الخليفة الأول فى مهمتها، وقضت بغير رجعة على حركة الردة والمتنبئين التى كادت تجهض دولة الإسلام وهى فى المهد. ونجح خليفة رسول الله ﷺ فى أكبر امتحان تعرض له. ورغم انتهاء حرب الردة إلا أن آثارها استمرت قائمة فى المجتمع الإسلامى وأنه كانت لهذه الآثار تأثير على الجماعة الإسلامية فيما بعد فى عدة نواح:



خريطة حروب الردة

بيان مواضع القبائل التى قاتلها المسلمون فى حروب الردة



فمن الناحية الاجتماعية، فقد ظلت جماعة المرتدين والقبائل التى شاركت فى الردة تشعر بعقدة الذنب حتى بداية خلافة الخليفة الثانى عمر، خاصة لأن أبا بكر لم يسمح لهم بالمشاركة فى الفتوح الإسلامية، فحرمهم بذلك من أجر الجهاد فى الآخرة وحصيلة الغنائم التى كانوا فى حاجة إليها فى دنياهم لمواجهة ظروف بلادهم الاقتصادية الصعبة.

ومن الناحية الدينية، فقد وضح أمر الإسلام ووضحت حقيقته لكل العرب الذين عرفوا صدق دعوة هذا الدين وتأكدوا من استمرارية الدعوة الإسلامية بعد وفاة الرسول ﷺ.

ولقد تأكدت عبقرية الصديق فى أمر الردة، فهو بعد أن قضى على المرتدين لم يشأ أن يترك القوات العائدة من الحرب منتصرة بلا شغل يشغلهم فى المدينة فتقتتل مع بعضها البعض، فقام بتوجيه هذه القوات المنتشية بخمر النصر إلى الجهاد والفتح ونشر رسالة الإسلام ودين الله خارج جزيرة العرب، وذلك تنفيذا لخطة رسول الله ﷺ فى إبلاغ دعوة الإسلام إلى كل بقاع الأرض. فلم تكد القوات الإسلامية العائدة من حرب المرتدين والمتنبئين تلتقط أنفاسها إلا وسمعت النفير العام يستنفرهم للجهاد والفتح. وجهز الصديق جيوشه لفتح بلاد العراق وبلاد الشام وجعل القيادة لجيشى الفتح للقائدين العظيمين: خالد بن الوليد والمثنى بن حارثة الشيبانى.

وبذلك أعلن الخليفة الراشد أبو بكر بدء مرحلة جديدة فى حياة الدولة الإسلامية، وهى مرحلة الفتح والتوسع وتكوين الدولة العربية الكبرى التى ستصل إلى أكبر اتساع لها فى عهد الخليفة الراشد الثانى عمر بن الخطاب.



توسيع حدود الدولة خارج نطاق شبه الجزيرة العربية

أمر الله تعالى رسوله بأن يبلغ دعوة الإسلام للناس كافة وعامة، لأنها آخر رسالات السماء إلى الأرض، وآخر إنذار إلهى لبنى البشر للعودة إلى عبادة الله الواحد الأحد خالق هذا الكون ونبذ الشرك به وما هو دون الوحدانية من عبادات زائفة واعتقادات فاسدة. من أجل ذلك، أرسل الرسول ﷺ، فى السنة السادسة من الهجرة، كتبه إلى ملوك وحكام العالم وقتذاك يدعوهم إلى الإسلام،ويطلب منهم أن يخلوا بين شعوبهم وهذا الدين حتى يقفوا على حقيقته وألا يكونوا حاجزا بينهم وبينه، وبذلك يمنعوا الهداية عنهم كما منعوها عن أنفسهم.

ولما لم تؤت هذه الكتب النتائج المطلوبة من إرسالها أيقن الرسول ﷺ أن حكام هذه الدول التى أرسل كتبه إليهم قد تصدوا لدعوته وقد حجبوا عن شعوبهم دعوة الدين الجديد. لذا استتبع ذلك من الرسول ﷺ، ومن يتولى أمر دعوة الإسلام من بعده، أن يزيل هذا الحاجز ويكسره بمحاربة هؤلاء الحكام وإسقاط حكوماتهم لتوصيل دعوة الإسلام إلى شعوبهم. وقد بدأ الرسول ﷺ ذلك بإرسال جيشه لمحاربة الروم عند تخوم الشام ووقوع غزوة مؤتة بينهما فى العام الثامن للهجرة. ثم كانت غزوة تبوك فى العام التاسع للهجرة، والتى قادها بنفسه ونجحت فى إظهار قوة الدولة الجديدة لدولة الروم التى كانت تعانى آنذاك من الضعف والتدهور. ثم جاء إعداد حملة أسامة بن زيد، قبل وفاة الرسول ﷺ وإنفاذ أبى بكر لها فى بداية خلافته ونجاحها فى هزيمة القوات القبلية البدوية التى التقت بها فى منطقة البلقاء (الأردن) وتحقيق الهدف الذى خرجت من أجله. ولما أنهى أبو بكر حربه مع المرتدين والمتنبئين وجه قواته، التى عادت تحمل أكاليل النصر، إلى فتح بلاد الشام والعراق، معلنا بذلك الحرب على أكبر قوتين فى العالم آنذاك وهما دولتا الفرس والروم.



وتوالت الانتصارات العربية الإسلامية على قوات الفرس والروم، وسقطت فى يد المسلمين، فى فترة وجيزة لم تتجاوز العشر سنوات، كل الإمبراطورية الفارسية، كما سقطت فى أيديهم بلاد الشام ومصر وأفريقيا التى كانت من مستعمرات الروم.

وهنالك عوامل عدة أدت إلى هذه الانتصارات الإسلامية الهائلة للمسلمين وهذه الهزائم الساحقة التى حلت بالفرس والروم، كان من أهمها: العامل العقائدى، الذى يأتى أول هذه العوامل، ويتمثل فى إيمان العرب بالإسلام، واستقرار هذا الإيمان فى قلوبهم، ورغبتهم فى رفع كلمة الإسلام وإعلاء رايتها إما بالنصر أو الاستشهاد، وإذكاء روح الجهاد بينهم.

كذلك فإن من عوامل النصر الإسلامى تغير أسلوب القتال بين المسلمين وبين الفرس والروم، فلقد حارب العرب المسلمون حربا فدائية تعتمد على الكر والفر وتعتمد على المجابهة الشخصية والفروسية، وهى حرب لم يتعود الفرس والروم على مثلها، فقد كانت جيوشهم نظامية بطيئة الحركة ثقيلة التسليح لم تتعود على حرب العصابات الفدائية التى تعتمد أساسا على نصب الكمائن وسرعة مباغتة العدو.

وأيضا فإن الحالة المتردية التى كانت عليها الدولتان الكبيرتان، وحالة الإنهاك التى حلت بهما آنذاك نتيجة للحروب الطويلة بينهما كان لها أكبر الأثر فى سهولة هزيمة قواتهم التى كانت تقاتل بلا روح ولا حماس أو إيمان. كذلك فإن هذه الحروب بينهما كانت قد عطلت مواردهما وأنهكت اقتصادهما مما كان له انعكاساته على قتالهم مع المسلمين، فضلا عن أن الاضطهاد الدينى الذى وقع على شعوب هاتين الدولتين الواقعة تحت حكمهما، كان من أهم الأسباب التى أدت إلى نجاح غزوات المسلمين ضدهما، بسبب المساعدات والتسهيلات التى كانوا يقدمونها للجيوش الإسلامية الفاتحة لبلادهم. وقد كانت هذه الشعوب تطمع فى التحرر من احتلال الفرس والروم لبلادهم، وترحب بالمسلمين الذين جاءوا ليطبقوا شرع الله الذى ساوى بين عباده جميعا رغم اختلاف أجناسهم وألوانهم.

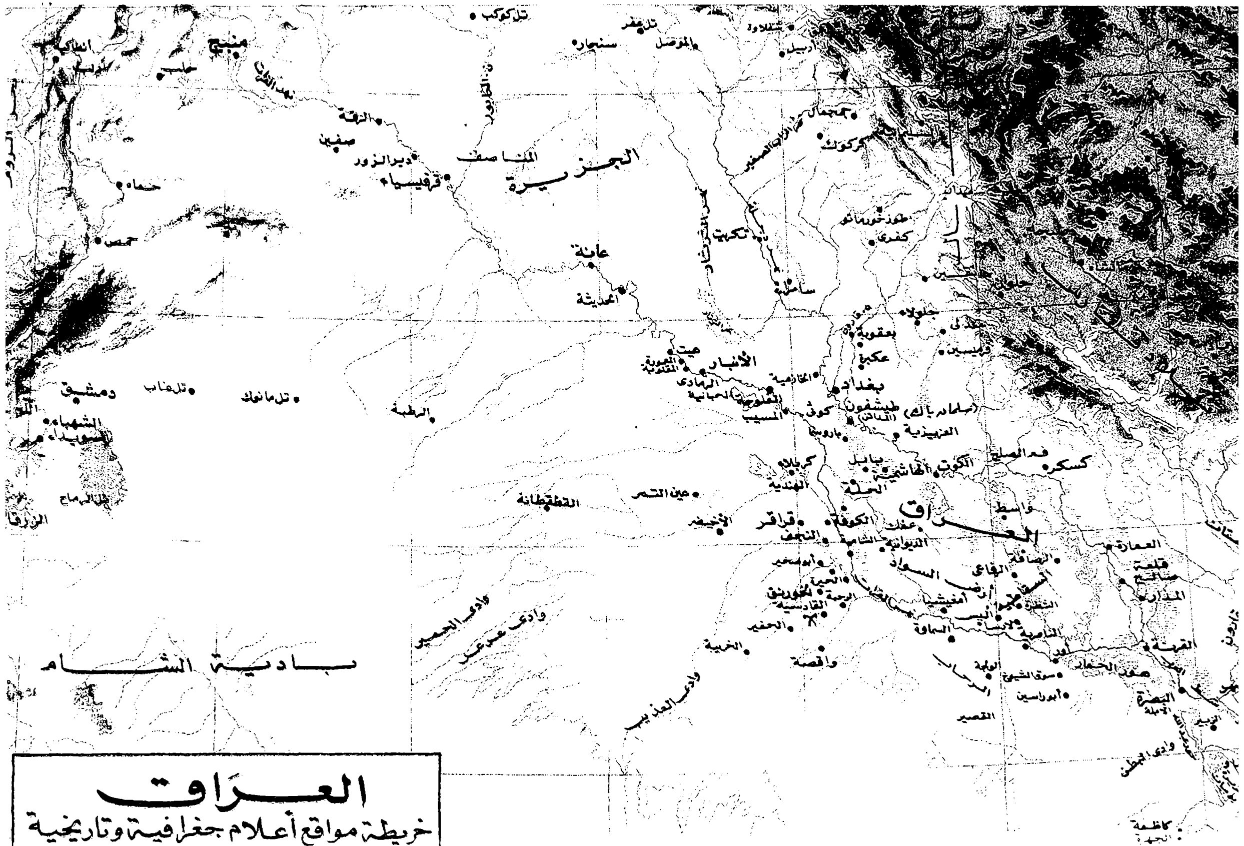
أما عن أحداث الفتوح الإسلامية، فى عهد الصديق، فقد دلت سياسة أبى بكر فيها على بعد نظره وقوة عزيمته وجرأته حين وجه جيوشه لغزو دولتى الفرس والروم فى وقت واحد، وقد حال بذلك دون اتحاد القوتين الكبيرتين فى جبهة واحدة، لضرب المسلمين. وقد اتخذ القتال، فى بادئ الأمر، طابع الاشتباكات المتفرقة التى يخوضها الفرسان وطليعة الجيش جسًا لنبض قوة العدو، ثم ما لبث أن تحولت هذه الاشتباكات إلى معارك طاحنة انتهت بتغلب المسلمين على قوات الفرس والروم، ثم مطاردة قواتهما المندحرة والاستيلاء على الأسلاب والغنائم والبلاد المفتوحة. ولم يكن أمام أهل هذه البلاد بعد أن واجهت الإسلام وجها لوجه غير أمرين، إما اعتناقه والدخول فى حمايته والتمتع بما للمسلمين من حقوق وما عليهم من واجبات، وإما البقاء على دياناتهم المسيحية أو اليهودية أو المجوسية، مع دفع الجزية، أما الملحدون والوثنيون فلا مكان

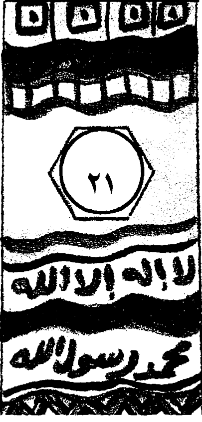
لهم تحت مظلة الحكم الجديد؛ لأن هذه الفتوح أعلنت نهاية دولة الشرك والوثنية من العالم كله.

وعن تفاصيل الفتح فى عهد الصديق، نقول إن الخليفة عهد إلى المثنى ابن حارثة الشيبانى بغزو العراق، بعد فراغه من حرب المرتدين فى منطقة البحرين، ثم أسند القيادة بعد ذلك إلى خالد بن الوليد، بعد فراغه من مقاتلة بنى حنيفة والقضاء على مسيلمة الكذاب سنة ١٢هـ/٦٣٣م. فسار خالد بقواته التى كانت معه فى اليمامة وانضمت هذه القوات لقوات المثنى القادمة من البحرين، وتوجهت القوتان من البحرين إلى العراق. وكانت العراق مستعمرة فارسية، يحكمها القائد «هرمز» نيابة عن ملك الفرس.

ذات السلاسل:

ولقد أرسل الخليفة قوات إضافية لمساعدة قوات خالد، بقيادة القعقاع بن عمرو التميمى، انضمت للقوات المتوجهة لفتح العراق، ولمَّا اكتمل تجمع جيش خالد، انطلق به إلى داخل العراق

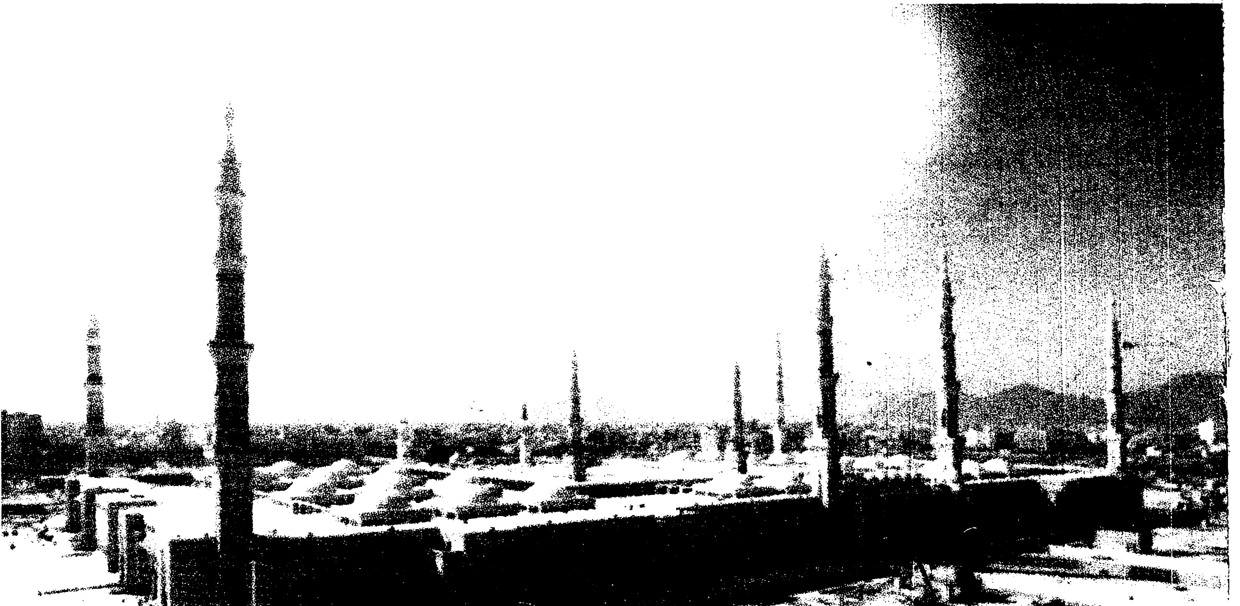




بتشكيل مكون من ثلاث فرق على كل فرقة قائدها. وقد قاد المثنى بن حارثة فرقة، وقاد الثانية عدى بن حاتم الطائى، أما الفرقة الثالثة فقد تولى خالد قيادتها بنفسه. وخرجوا متتالين، وتواعدوا باللقاء عند منطقة الحفير، وهى منطقة مياه بالقرب من البصرة. وبعد أن تجمعت الفرق الثلاث الإسلامية عند الحفير التقت هنالك مع قوات هرمز الفارسية، وكانت نتيجة اللقاء هزيمة الفرس ومقتل قائدهم هرمز وفرار من بقى من رجاله على قيد الحياة. وقد عرفت معركة الحفير هذه أيضا بموقعة «ذات السلاسل»؛ لأن قائد الفرس هرمز كان قد قام بتقييد جنده بالسلاسل حتى لا يفروا من لقاء العدو ويثبتوا فى القتال.

وواصلت الجيوش الإسلامية سيرها، بعد المعركة، داخل العراق حتى بلغت موضع البصرة الحالى، وهنالك أوقعت الهزيمة بالقوات الفارسية التى رابطت فى البصرة. ثم قامت القوات الإسلامية بعبور الفرات وحاربت هنالك قبائل بنى تغلب العربية وهزمتها، ثم استولت على مدينتى: الحيرة والأنبار. ومن الحيرة، توجه خالد، على رأس قواته، إلى عين التمر، ففتح حصنها عنوة. ثم سار بعد ذلك، شمالا حتى وصل الغراض، على حدود الشام والعراق والجزيرة، وهنالك اشتبك مع قوات الفرس فى معركة كبيرة انتهت بنصر المسلمين، ثم عاد خالد بقواته إلى الحيرة.

مسجد الرسول الكريم ﷺ بالمدينة المنورة





وهنالك وجد خالد فى انتظاره أمر الخليفة بالانتقال من العراق إلى الشام لمساعدة جيوش المسلمين التى كانت قد توجهت لفتح الشام وكانت آنذاك فى وضع حرج، كذلك إدراك الخليفة أن حرب الروم تتطلب قيادة شخصية قيادية كبيرة للجيش سبق لها محاربة الروم مثل شخصية ابن الوليد. وقد أمر الخليفة الصديق خالدا بترك إمرة جيش العراق للمثنى بن حارثة، وأن يعجل بالمسير بنصف القوات إلى الشام. وقد قام خالد بتنفيذ أمر الخليفة، الذى ربما كان آخر الأوامر التى أصدرها، فقد وافاه الأجل آنذاك وانتقل إلى الرفيق الأعلى.

وتوفى أبو بكر ليلة الثلاثاء، بين المغرب والعشاء، ٢٢جمادى الآخرة سنة ١٣هجرية، مات بالحمى بعد أن لازمته خمسة عشر يوما، وهو ابن ثلاث وستين سنة. وقد غسلته زوجته أسماء بنت عميس بوصية منه، وصب عليها الماء ابنه عبد الرحمن، وصلى عليه عمر بن الخطاب فى مسجد الرسول ﷺ، ودفن إلى جوار الرسول ﷺ فى حجرة عائشة وألصقوا لحده بلحد الرسول. ونزل فى قبره عمر وعثمان وطلحة وابنه عبد الرحمن، ودفن ليلا. وقد خلف أبو بكر من الأولاد ستة: ثلاثة بنين، هم على التوالى: عبد الله وعبد الرحمن ومحمد، وثلاث بنات: عائشة وأسماء وأم كلثوم.

ترشيحه عمر بن الخطاب خليفة من بعده

لما حضرت أبو بكر الوفاة دعا عمر فقال له: «اتق الله يا عمر واعلم أن لله عملا بالنهار لا يقبله بالليل وعملا بالليل لا يقبله بالنهار، وأنه لا يقبل نافلة حتى تؤدى فريضة. وإنما ثقلت موازين من ثقلت موازينهم يوم القيامة باتباعهم الحق فى دار الدنيا وثقله عليهم، وحق لميزان لايكون له إلا الحق أن يكون ثقيلا، وإنما خفت موازين من خفت موازينهم باتباعهم الباطل وحق لميزان لا يكون فيه إلا الباطل أن يكون خفيفا.

وإن الله ذكر أهل الجنة فذكرهم بأحسن أعمالهم وتجاوز عن سيئاتهم فإذا ذكرتهم قلت إنى لأخاف ألا ألحق بهم، وأن الله ذكر أهل النار وذكرهم بأسوأ أعمالهم ورد عليهم أحسنها، فإذا ذكرتهم قلت إنى لأرجو ألا أكون مع هؤلاء، ليكون العبد راغبا راهبا لا يتمنى على الله ولا يقنط



من رحمته، فإن أنت حفظت وصيتى فلا يك غائب أحب إليك من الموت وإن لم تحفظ وصيتى فلا يك غائب أبغض إليك من الموت».

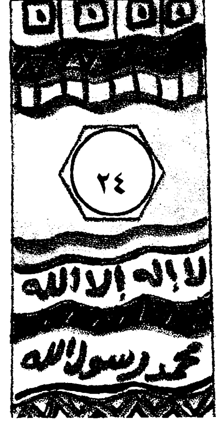
ودخل جماعة من الصحابة على أبى بكر وهو فى فراش الموت، لما عزم على استخلاف عمر، فقال له قائل منهم: «ما أنت قائل لربك إذا سألك عن استخلافك عمر علينا وقد ترى غلظته»، فقال أبو بكر:

«أجلسونى، أبالله تخوفوننى، خاب من تزود من أمركم بظلم. أقول: اللهم إنى استخلفت عليهم خير أهلك، أبلغ عنى ما قلت لك من وراءك» ثم اضطجع وجاء عثمان بن عفان وقال له: «اكتب: بسم الله الرحمن الرحيم، هذا ما عهد به أبو بكر فى آخر عهده بالدنيا خارجا منها وعند أول عهده بالآخرة داخلا فيها حيث يؤمن الكافر ويوقن الفاجر ويصدق الكاذب، إنى استخلفت بعدى عمر بن الخطاب فاسمعوا وأطيعوا، فإنى لم آل الله ورسوله ودينه ونفسى وإياكم خيرا، فإن عدل فذاك الظن به وعلمى فيه، وإن بَدَّل فلكل امرئ ما اكتسب، والخير أردت ولا علم لى بالغيب. وسيعلم الذين ظلموا أى منقلب ينقلبون، والسلام عليكم ورحمة الله بركاته».

ولقد استمرت خلافة أبى بكر مدة عامين، ولما مرض مرض الموت وأحس بدنو أجله خشى إن هو قبض ولم يتدبر أمر من يخلف المسلمين فى الحكم بعده ويجمع شتاتهم ويوحد كلمتهم، أن يعود الاختلاف والشقاق بين المسلمين فيتمكن عدوهم منهم، وهو يرى أن الأخطار ما زالت تحيط بدولة الإسلام، وجيوشهم قد خرجت للجهاد. وقد كان ماثلا أمام ناظرى الصديق ما حدث بين المسلمين يوم سقيفة بنى ساعدة غداة وفاة رسول الله ﷺ . فرأى، ببعد نظره، أن يحتاط لهذا الأمر تلافيا للخطر وتجنبا له. فنظر أبو بكر فى أهل الشورى من كبار صحابة رسول الله ﷺ رجلا تتوافر فيه صفات خليفة المسلمين ويرضى المسلمون بحكمه لهم فوقع اختياره على عمر بن الخطاب. وأراد الصديق، قبل أن يمكن لهذا الاختيار، أن يستشير فيه كل من دخل عليه من الصحابة. فاستشار منهم: عبد الرحمن بن عوف، وعثمان بن عفان، وأسيد بن حضير الأنصارى، وسعيد بن زيد الأنصارى، وغيرهم من كبار المهاجرين والأنصار الذين عادوه فى مرضه، فأثنوا على عمر وأيدوا ترشيح الصديق له للخلافة. ثم دعا الخليفة أبو بكر عثمان بن عفان وأملاه كتاب عهده لعمر.

وكانت هذه البيعة الخاصة، وقد قرئ العهد لعمر فى مسجد الرسول ﷺ، وأخذت لعمر البيعة العامة، وقد قام عمر خطيبا فى الناس يعلن عن برنامج سياسة حكومته ويتلخص فى تحمله مسئولية قيادة المسلمين على الطريق القويم.

هذا، وقد بويع عمر بالخلافة صبيحة ليلة وفاة أبى بكر سنة ١٣هـ.

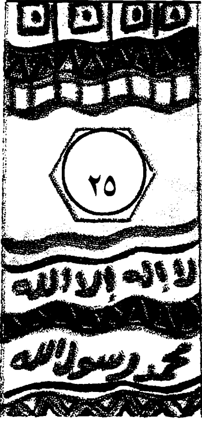


الفاروق عمر

هو عمر بن الخطاب بن نفيل بن عبد العزى، من بنى عدى (القرشيين)، ولم يزل اسمه فى الجاهلية والإسلام عمر، وكناه رسول الله ﷺ أبا حفص، وكان ذلك يوم بدر، كذلك سماه ﷺ الفاروق؛ لأن الله فرق به بين الحق والباطل. كان أبيض اللون، طويل القامة، أصلع أجلح، كث اللحية أعسر شديد حمرة العينين.



كانت سن عمر عندما دخل الإسلام اثنتين وثلاثين سنة، فكان شابا قويا. وكان إسلام عمر بعد خروج من خرج من أصحاب رسول الله ﷺ إلى الحبشة، وكان عمر قد خرج يوما متقلدا سيفه فلقيه رجل من بنى زهرة فقال: أين تعمد يا عمر؟ فقال: أريد أن أقتل محمدا، قال: وكيف تأمن من بنى هاشم وبنى زهرة وقد قتلت محمدا؟ فقال له عمر: ما أراك إلا قد صبأت وتركت دينك الذى أنت عليه، قال: أفلا أدلك على العجب يا عمر؟ إن أختك وختنك قد صبئا وتركا دينك الذى أنت عليه. فمشى عمر حتى أتاهما وعندهما رجل من المهاجرين يقال له خباب. فلما سمع خباب صوت عمر توارى فى البيت فدخل عليهما وقال: «ما هذه الهمهمة التى سمعتها عندكم، قال: وكانوا يقرأون سورة طه فقالا: ما عدا حديثا تحدثناه بيننا، قال: فلعلكما قد صبأتما؟ قال له ختنه: أرأيت يا عمر إن كان الحق فى غير دينك؟ فوثب عمر على ختنه فوطأه وطأ شديدا، فجاءت أخته فدفعته عن زوجها فلطمها بيده حتى أدمى وجهها. فقالت له وهى غضبى: يا عمر إن كان الحق فى غير دينك اشهد أن لا إله إلا الله واشهد أن (سيدنا) محمدا عبده ورسوله. فلما تبين عمر قال: أعطونى هذا الكتاب الذى عندكم فأقرأه، وكان عمر يقرأ الكتب، فقالت أخته: إنك نجس ولا يمسه إلا المطهرون فقم فاغتسل أو توضأ، فقام فتوضأ ثم أخذ الكتاب فقرأ ﴿طه﴾ حتى أتى إلى قوله تعالى: ﴿**إِنَّنِي أَنَا اللَّهُ لا إِلَهَ إِلاَّ أَنَا فَاعْبُدْنِي وَأَقِمِ الصَّلاةَ لِذِكْرِي** ﴿١٤﴾﴾ [طه]، فقال عمر: دلونى على محمد. فلما سمع خباب قول عمر خرج من مخبئه وقال: أبشر يا عمر فإنى أرجو أن تكون دعوة رسول الله ﷺ ليلة الخميس: اللهم أعز الإسلام



بعمـر بن الخطاب أو بعمرو بن هشام»، قـال ورسول الله ﷺ فى الدار التى فى أصل الصفا.

فانطلق عمـر حتى أتى الدار، قال: وعلى الباب حـمزة وطلحة وناس من أصحـاب رسول الله ﷺ ، فلمـا رأى حمزة وجل القـوم من عمـر، قال حمزة: نعم فهذا عمر، وإن يرد الله بعـمر خيرا يسلم وإن يرد غير ذلك قتلناه بسيفه. فخرج رسول الله ﷺ حتى أتى عمر فأخذ بمجامع ثوبه وحمائل سيفه وقال له: أما أنت بمنته يا عمر، ما جاء بك يا ابن الخطاب؟.

فقـال عمـر: جئت لأومن بالله ورسـوله، قال: فكبّـر رسول الله ﷺ تكبيرة عرف أهل البـيت من أصحاب رسول الله ﷺ أن عمر قد أسلم. فتـفرق أصحاب رسول الله ﷺ من مكانهم وقد عزوا فى أنفسهم حين أسلم عمر مع إسلام حمزة وعرفوا أنهما سيمنعان رسول الله ﷺ وينتصفان لهم من عدوهم.

قال عمـر: «لما أسلمت تلك الليلة تذكرت أى أهل مكة أشد لرسـول الله ﷺ عداوة حتى آتيه فأخبره أنى قد أسلمت، قال فقلت: أبو جهل، قال: فأقبلت حين أصبحت حتى ضربت عليه بابه، قال: فخرج إلىَّ أبو جهل، فقال: مرحـبا وأهلا يا ابن أختى ما جاء بك؟ قال قلت: جئت أخبرك أنى قد آمنت بالله وبرسوله محمد ﷺ وصدقت بما جاء به، قال: فضرب الباب فى وجهى وقال: قبحك الله وقبح ما جئت به.

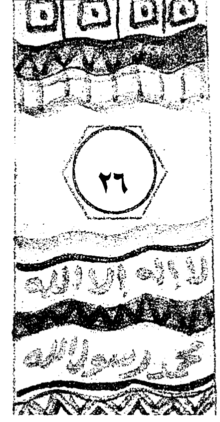
وعن ابن مسعود أنه قال: «كـان إسلام عمر فتحًا وهجرته نصـرا وإمارته رحمة، لقد رأيتنا ولم نستطع نصلى بالبيت حتى أسلم عمر، فلما أسلم عـمر قاتلهم حتى تركونا فصلينا وما صلينا ظاهرين حتى أسلم عمر».

ولقد كان إسـلام عمر مكملاً لإسلام أربعـين رجلا، فقد أسلم مع رسـول الله ﷺ تسعة وثلاثون رجلا، ثم إن عمر أسلم فـصاروا أربعين رجلا، فنزل جبريل عليـه السلام بقوله تعالى: ﴿ **يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ حَسْبُكَ اللَّهُ وَمَنِ اتَّبَعَكَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ ۝٦٤** ﴾ [الأنفال].



لم يُعلم أن أحدا من المهـاجرين هاجر إلا مختـفيا إلا عمر بن الخطاب فـإنه لمَّا هاجر تقلد سيفه وتنكب قوسه ومضى نحو الكعبة والملأ من قريش بفنائها، فطاف بالبيت سبعًا متمكنًا ثم أتى المقام فصلى مـتمكنًا ثم وقف وقال: «من أراد أن تثكله أمه أو يُيتّم ولـده أو تُرمل زوجته فليلقنى وراء هذا الوادى». فما تبعه أحد.





اختص عمر بموافقة التنزيل فى قضايا دينية هامة منها:

اتخاذ مقام إبراهيم مصلى، وفى الحجاب، وفى أسارى بدر.

فقد أشار عمر على رسول الله ﷺ باتخاذ مقام إبراهيم مصلى، فأنزل الله تعالى: ﴿ ... **وَاتَّخِذُوا مِن مَّقَامِ إِبْرَاهِيمَ مُصَلًّى** ... ﴿١٢٥﴾ ﴾ [البقرة].

وفى مسألة أسارى بدر، استشار رسول الله ﷺ فى مصيرهم كلا من أبى بكر وعمر، فأشار أبو بكر بإطلاق الأسارى بعد أخذ الفدية منهم، وأشار عمر بقتل الأسارى، وأخذ الرسول ﷺ برأى أبى بكر، وأيد القرآن رأى عمر بنزول قوله تعالى: ﴿ **مَا كَانَ لِنَبِيٍّ أَن يَكُونَ لَهُ أَسْرَىٰ حَتَّىٰ يُثْخِنَ فِي الْأَرْضِ تُرِيدُونَ عَرَضَ الدُّنْيَا وَاللَّهُ يُرِيدُ الْآخِرَةَ وَاللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ** ﴿٦٧﴾ ﴾ [الأنفال].

وفى أمر حجاب زوجات الرسول ﷺ، قال عمر لرسول الله ﷺ: «يا رسول الله ﷺ يدخل عليك البر والفاجر فلو حجبت أمهات المؤمنين؟ فأنزل الله قوله: ﴿ ... **وَإِذَا سَأَلْتُمُوهُنَّ مَتَاعًا فَاسْأَلُوهُنَّ مِن وَرَاءِ حِجَابٍ** ... ﴿٥٣﴾ ﴾ [الأحزاب].

ومن خصائص عمر أن الله جعل الحق على لسانه وقلبه، كذلك اختصاصه بالهيبة ونفران الشيطان منه، كذلك اختصاصه بالشدة فى أمر الله تعالى. وأنه أول من تسمى بأمير المؤمنين، وأنه من العشرة المبشرين بالجنة. وإشارته على أبى بكر بجمع القرآن ما يدل على غزارة علمه وحسن نظره وفراسته وإصابة رأيه.

ومن خصائصه توليه القضاء على عهد رسول الله ﷺ. كذلك تواضعه وزهده وشفقته على رعيته وتفقد أحوالهم ومحافظته على مال المسلمين.



تولى عمر الخلافة بوصية أبى بكر له، وبإجماع الصحابة والمسلمين على تزكية اختيار أبى بكر له، وعقب ذلك أعلن عمر فى أول خطاب له، بعد توليه الخلافة، أنه سيقتدى فى سياسته للأمة برسول الله ﷺ وبالشيخ أبى بكر، وأنه سيعمل على تدعيم قوة أمة الإسلام، وأنه سيجعل الشورى والعدالة أساس الحكم فى دولته. وأنه سيواصل تبليغ رسالة الإسلام للناس كافة متبعًا فى



ذلك سنة الرسول ﷺ وسنة الخليفة سابقه بمواصلة الفتوح ومحاربة الوثنية والشرك بالله فى كل مكان. وقد تمكن عمر من تحقيق ما وعد به فكان الخليفة المثل والقدوة لكل زمان ومكان.

وقد تولى عمر بن الخطاب الخلافة فى اليوم الذى مات فيه أبو بكر، لمدة عشر سنوات، كان خلالها مثالا للحاكم المسلم الحق الذى التزم بمبادئ التشريع الإسلامى فى الحكم ومسيرة دولة الإسلام.





تركنا فتوح العراق عندما ترك خالد بن الوليد القيادة للمثنى بن حارثة بعد أن تقدمت القوات الإسلامية حتى الأنبار، وكان أبو بكر قد أوصى عمر، وهو على فراش الموت، بأن يرسل مدداً إلى المثنى يساعده على حربه فى العراق بدلا من القوات التى اصطحبها خالد معه حين توجه للقتال فى الشام.

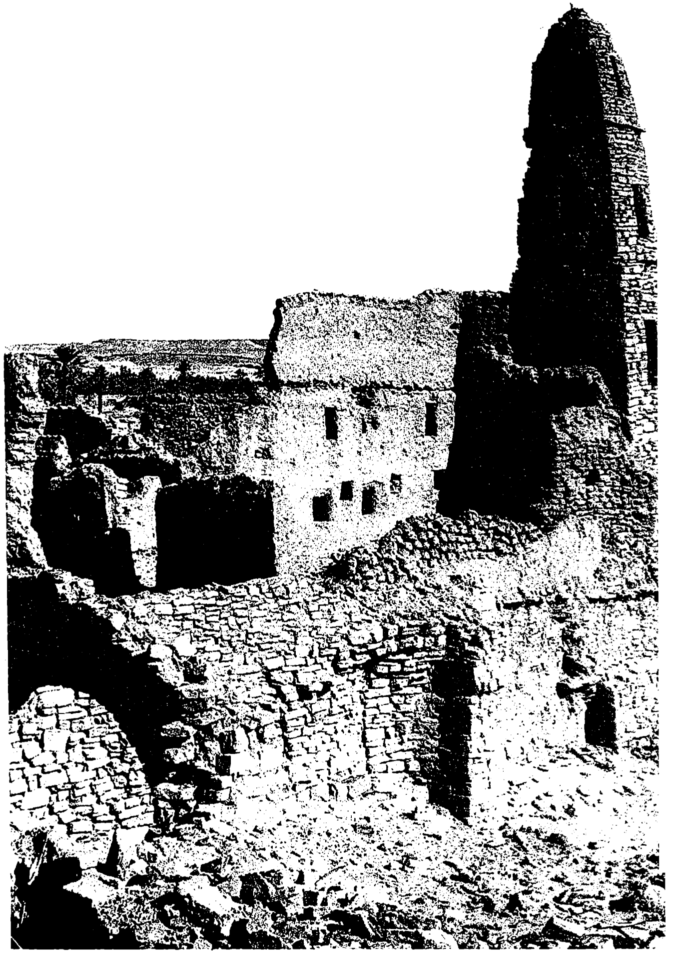
معركة الجسر:

ولما ولى عمر الخلافة، لم يعمل على إعادة خالد إلى العراق بل استبقاه فى الشام، وأرسل نجدة عسكرية إلى المثنى بن حارثة بقيادة أبى عبيد ابن مسعود الثقفى. وكتب للمثنى بجعل قيادة الجيش العامة فى العراق لأبى عبيد والعمل تحت إمرته. وقد ولى عرش الفرس آنذاك، من الأسرة الحاكمة الفارسية، امرأة تدعى بوران. وقد وجهت هذه المرأة سياستها إلى طرد العرب من ريف العراق، وأسندت قيادة الجيش، الذى يقاتل العرب، لأمهر قوادها «رستم». وتوالت المعارك بين المسلمين والفرس، حتى وقعت بينهما معركة «الجسر» الشهيرة التى هُزم فيها المسلمون وقتل فيها قائدهم أبو عبيد الثقفى تحت أرجل الفيلة التى استخدمها الفرس فى حربهم فى مقدمة جيشهم،

واستشهد معه أربعة آلاف مسلم بين قتيل وغريق فى نهر الفرات.

ولقد أفلح المثنى فى سحب باقى جيشه من المعركة سالمًا. وكان وقع الهزيمة على المسلمين وعلى الخليفة عمر شديداً، وقيل: إن عمر بقى سنة لا يذكر أمر العراق لمصاب أبى عبيد والمسلمين فيه.

ثم أرسل عمر بعد ذلك مدداً للمثنى من رجال القبائل الذين سبق ارتدادهم من أهل اليمن من قبيلتى بجيلة وكندة اليمنيتين. وقد رأى عمر ضرورة الاستفادة من قوات هؤلاء التائبين من المرتدين بعد أن صلحت توبتهم وبعد أن أبدوا إظهار رغبتهم فى الجهاد كسبًا للأجر والثواب، كذلك كسبا لغنائم الحرب بعد أن أضيروا من عدم المشاركة فيها فى عهد الصديق.



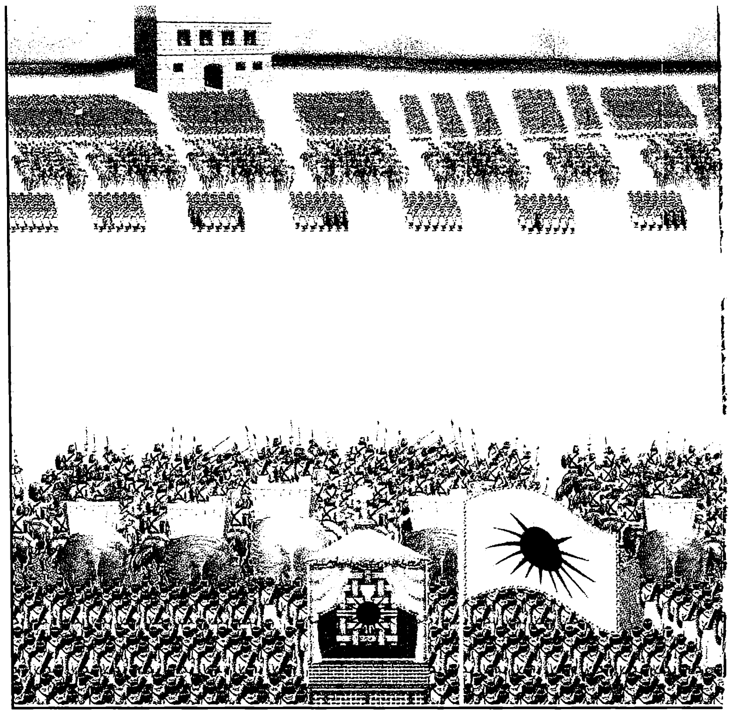
مسجد عمر بن الخطاب بالمدينة المنورة

معركة البويب:

ولقد التقت القوات الإسلامية، التى بلغ عدد رجالها اثنى عشر ألف جندى، مع قوات الفرس، التى زاد عددها على مائة ألف جندى، عند منطقة «البويب» على نهر الفرات. وانتهت معركة البويب بنصر المسلمين على الفرس.

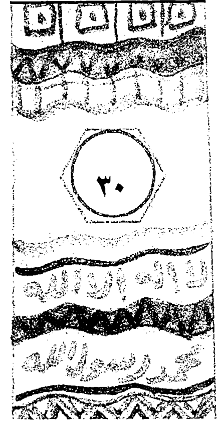
وقد فتح لهم هذا النصر الطريق إلى عموم العراق، فاستولوا على كل المنطقة الممتدة بين دجلة والفرات من أرض السواد. كذلك أوقع الرعب والفزع فى قلوب الفرس الذين يئسوا من إمكانية إحراز النصر على المسلمين، ففتّ ذلك فى عضدهم، ومن ناحية أخرى شجع المسلمين على مواصلة الفتح فى أرض فارس نفسها. وقد توفى المثنى بن حارثة الشيبانى بعد هذه المعركة متأثرا بجراحه بعد أن أبلى فى فتح العراق بلاءً عظيمًا جعل التاريخ يحفر اسمه بأحرف من نور.





ترتيب الجيوش العربية فى معركة القادسية
حسب وصفها فى أطلس الفتوحات
الإسلامية

مقام سعد بن أبى وقاص



وأرسل الخليفة عمر الصحابى الجليل «سعد بن أبى وقاص» ليتولى قيادة جيوش المسلمين المحاربة للفرس بعد وفاة المثنى ، وقد ضم إلى هذا الجيش بعض القواد والأدباء والشعراء، أمثال: طليحة بن خويلد، وعمر بن معديكرب، والأشعث بن قيس الكندى.

وتولى آنذاك عرش مملكة الفرس يزدجرد بن شهريار، آخر ملوك الفرس الساسانيين، بعد خلع بوران عن العرش، وجهز جيشا كبيرا لطرد العرب من العراق، وجعل قيادة هذا الجيش لقائده العظيم رستم.

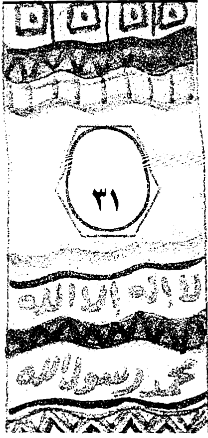
معركة القادسية:

وسار سعد بقواته إلى قرية القادسية، التى كانت تقع جنوب غربى بغداد الحالية وغرب الكوفة، وكان عدد جيش المسلمين لا يزيد على الثمانية آلاف مقاتل، حيث التقى هنالك بجيش الفرس الذى زاد عدده عن الثلاثين ألف مقاتل تتقدمهم أعداد من الفيلة. واستطاع سعد أن يستثير القيادة الفارسية وأن يجبرها على البدء بالقتال. وبالفعل وقع القتال بين الطرفين، واستمر لمدة أربعة أيام متواصلة، وقد سدد المسلمون سهامهم، بصورة مكثفة، إلى جند العدو وبخاصة إلى عيون الفيلة ليشلوا حركتها ويربكوا حركة الفرس. وقد نجحت خطة سعد، وانتهت المعركة بهزيمة ساحقة للفرس، وقتل رستم نفسه فى المعركة وقتل عدد كبير من قواته، وهروب باقى الجند الناجين من ميدان المعركة بعد أن تركوا وراءهم الكثير من الزاد والسلاح والأسلاب، وذلك سنة ١٦هـ/ ٦٣٧م. وعقب هذا الانتصار الكبير انفتحت أبواب العراق للمسلمين وانفتح طريقهم إلى فارس نفسها. وقد فر ملكهم يزدجرد إلى المدائن وهو موقن بنهاية حكمه ونهاية الإمبراطورية الساسانية.

عند ذلك كتب سعد إلى الخليفة عمر يبشره بالنصر والفتح، فكتب إليه عمر أن يتوقف حيث وصلت قواته وعدم متابعة الفرس ومليكهم. كذلك أمره بأن يبتنى عاصمة جديدة فى تلك البلاد تكون دار هجرة للمسلمين وتكون معسكرا لقواتهم، فأنشأ مدينة الكوفة، قرب الضفة الغربية لنهر الفرات سنة ١٦ هـ/ ٦٣٧م، وأسس بها مسجدها الجامع، واختط الناس بها منازلهم. وسرعان ما عمرت الكوفة وتوافد الناس عليها فاتسعت وأصبحت من عواصم الإسلام الكبرى، كما صارت المركز الرئيسى للجيوش العربية فى العراق وما يليها شرقا وشمالا.

موقعة نهاوند:

واصل سعد بن أبى وقاص زحفه على بلاد فارس بعد أن أذن الخليفة له بذلك، فواصلت القوات الإسلامية زحفها داخل أراضى دولة الفرس حتى وصلت إلى عاصمة بلاد الفرس طيسفون (المدائن). وعلى أبواب العاصمة دارت معركة كبيرة بين الفرس والمسلمين بعد حصار لها دام مدة شهرين. وأخيرا نجحت القوات الإسلامية فى اقتحامها، وقبل سقوطها فى يد المسلمين هرب منها الملك يزدجرد إلى نواحى أصفهان.



ولما دخل المسلمـون المدائن اغتنمـوا منها الكثـير من الأموال والـذخائر والتحف التى كانت فى حوزة ملوك آل ساسـان. وقد شجع سقوط المدائن فى يد المسلمـين، والى البـحرين العـلاء بن المغيـث الحضـرمى، أن يقوم بغـزو السواحل الفارسـية بناء على توجيه من الخليـفة. فاستولت قـواته على منطقة الأهواز بإقليم خوزستان.

وفى سنة ٢٠ هـ/ ٦٤٠م جمع الملك الفارسى يزدجرد جيشًا كبيرًا قوامه مائة ألف مقاتل عند أصـفهان لمحاربة المسلمين فى معركـة نهائية تكون فاصلة بينه وبين المسلمـين، إما يسـتعـيد بهـا ملك ساسـان أو يقضى على دولتـهم واسمـهم إلى الأبد. وتحرك يزدجرد على رأس هذا الجيش الـكبير من عند أصفـهان وتوقف عند نهاوند فى ناحية الأهواز. وعندما علم عمر بذلك قرر الخروج إلى العراق لقيادة الجيش الإسلامى بنفسـه، ولكنه عاد فأقام «النـعمان بن مقـرن» قائدا للجيش، فتـجمع المسلمون فى البـصرة، ثم خرجوا للقاء الـفرس. وفى سنة ٢١هـ/ ٦٤١م، وعند نهاوند، وقعت معركـة نهاوند الكبرى التى انتصر فيها المسلمون انتصارًا ساحقًا على الفرس، وقد خسر الجيش الفارسى فى هذه المعركة نصف عدده على وجه التـقريب، وفر الباقـون بين جريح وطريد. وقد أطلق كتـاب المسلمين على هذه المعركـة «فتح الفتـوح»؛ لأن المسلمين استـولوا، نتيجـة لها، على ثلاثة أرباع إمبـراطورية فارس وعمت الدعوة الإسلامية معظم بلاد الفرس وانطفأت فيها نيران المجوسية الوثنية.

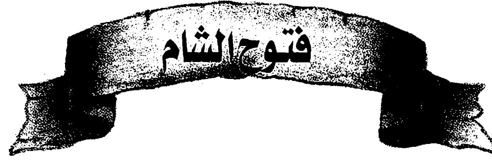
واتجهت جيوش المسلمين، بعد فتح نهاوند، إلى فتح الأراضى الشرقية لدولة فارس. فسار النعـمان بن مقرن إلى مدينـة همدان وقام بفـتحها، كذلك توجه القائد عبد الله بن بديل إلى مدينة أصفهان وعقـد صلحا مع أميرها على أن يؤدى أهلها الخراج والجزية مـقابل تأمينهم على أموالهم وأنفسهم وأراضـيهم. وقام القائد عروة بـن زيد الطائى سنة ٢٢هـ/ ٦٤٢م بفتح إقليم الرى. وفى نفس العام قام القائد حـذيفة بن النعمان بفتح إقليم أذربيجـان وفرض الخراج والجزية على أهله. وتوجه القائد الأحنف بن قيس التميمى إلى إقليم خراسان، ففتح مدن هرات ونيسابور وسرخس، وأخذ هذا القائد يتـعقب الملك الفارسى يزدجرد الذى أخذ فى التـنقل من بلد لآخر داخل بلاد ما وراء النهر حتى بلغ أرض الصين. ولقـد استمر حال يزدجرد فى التدهور وظل يعيش مـتخفيًا فى البلاد حتى قتل فى خراسان سنة ٣١هـ/ ٦٥١م فى خلافـة عثمان. وبموت يزدجرد انتهت شجرة العائلة الساسانية الفارسية الحاكمة وتمزقت دولة الساسانيين، وبذلك تحققت دعوة رسول الله ﷺ، حين قام مليكهم كسرى أنوشروان بتمزيق كتاب الرسول ﷺ إليه حين أرسل يدعوه إلى الإسلام، فدعا الرسول ﷺ ربه بتمزيق ملك الأكاسرة وقد كان.



وباختفاء حكم الأكاسرة بدأ أهل إيران يدخلون الإسلام بأعداد كبيرة، وعقد رؤساء النواحى الصلح مع المسلمين. ووصل سلطان الإسلام إلى أقصى حدود إيران (فارس) شرقا. وقام والى الكوفة، وهو المغيرة بن شعبة، الذى عينه عمر ابن الخطاب على ما فتح المسلمون من بلاد فارس، بإصدار أمره إلى القائد سراقة بن عمرو بن عبد الرحمن بالتوجه لفتح بلاد الباب (بلاد الترك) وهى الأراضى الشاسعة الواقعة بين فارس والصين، وتقوم فيها الآن أفغانستان وباكستان وبعض الجمهوريات الإسلامية الروسية، أى أن الإسلام بلغ مداه ووصل إلى حدود الصين فى عهد خلافة عمر بن الخطاب.



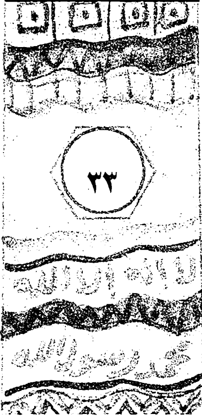
رسالة النبى ﷺ إلى كسرى



فتوح الشام

كان المسلمون قد شرعوا فى غزو أطراف الشام الجنوبية فى حياة الرسول ﷺ، حيث كانت معركة مؤتة سنة ٨هـ/ ٦٣٠م، ثم تلتها سرية أسامة بن زيد، التى توفى الرسول ﷺ وهى متأهبة للخروج، فأكمل أبو بكر سيرها إلى تخوم البلقاء (شرق الأردن)، وقد حققت هذه الحملة انتصارا على العرب المتنصرة المقيمين فى بادية الشام.

وبعد أن فرغ أبو بكر من حرب الردة أرسل قواته إلى الشام فى نفس الوقت الذى أرسل فيه قواته إلى العراق لنشر الإسلام وتوسعة حدود الدولة التى وضع الرسول ﷺ أساسها. وقد تيسر لأبى بكر سنة١٢هـ/ ٦٣٣م أن يجهز عدة جيوش لغزو الشام، وقد أسند قيادة كل جيش منها لمحارب مسلم شجاع. فجعل يزيد بن أبى سفيان على رأس جيش توجه إلى دمشق، وجعل القائد اليمنى شرحبيل بن حسنة الكندى على جيش وجهته الأردن، وعمرو بن العاص على جيش وجهته فلسطين، وأبو عبيدة بن الجراح على جيش وجهته حمص. وتوجه كل جيش من هذه الجيوش إلى الجهة التى وجه إليها.



وبدأت الاصطدامات الأولى مع قوات الروم، فى وادى عربة بفلسطين، مع جيش عمرو بن العاص. واستطاع جيش عمرو أن ينتصر على قوات الروم التى كانت تعسكر هناك وأن يجبرها على التراجع إلى غزة. وتقابل جيش عمرو مع جيش يزيد واتجه الجيشان سائرين نحو الشمال، إلا أن القائدين فوجئا بمواجهة جيش كبير كان هرقل قيصر الروم، قد حشده شمال فلسطين لوقف زحف القوات العربية فى بلاد الشام. كذلك تحرج موقف القوات الإسلامية بعد ارتداد حاكم دومة الجندل عن محالفة دولة المسلمين وإعلان ولائه للروم. عندئذ كتب عمرو إلى الخليفة يطلب النجدة.

وقد رأى أبو بكر إذ ذاك أن فتح الشام ونجدة القوات الإسلامية المقاتلة هناك تكون لها الأهمية الأولى عن فتح العراق؛ ومن ثم كتب إلى خالد بن الوليد، الذى كان يقاتل فى العراق مع جيش المثنى بن حارثة، بأن ينتقل من العراق إلى الشام لقيادة الجيش الإسلامى هناك وتوصيل النجدة للقوات الإسلامية بالشام. وقد امتثل خالد لأمر الخليفة، وخرج من الحيرة بنصف جيش العراق متجها إلى الشام. وقام خالد بعمل يعد من أعظم الأعمال العسكرية فى التاريخ إذ قطع بادية الشام فى خمسة أيام بماء وزاد قليلين، ووصل سالما بجيشه إلى بصرى جنوبى دمشق، وكانت فيها حامية رومية فقضى عليها دون صعوبة، كذلك استولى على دومة الجندل.

ثم سار خالد، سنة ١٣هـ/ ٦٣٤م بالجند إلى أجنادين، وهناك اشتبك مع جيش الروم الذى كان يقوده تيودور، أخو هرقل، فى معركة «أجنادين» الشهيرة التى انتهت بانتصار المسلمين وهروب تيودور من ميدان المعركة إلى حمص. وبانتصار المسلمين فى أجنادين أصبحت كل فلسطين فى أيديهم.

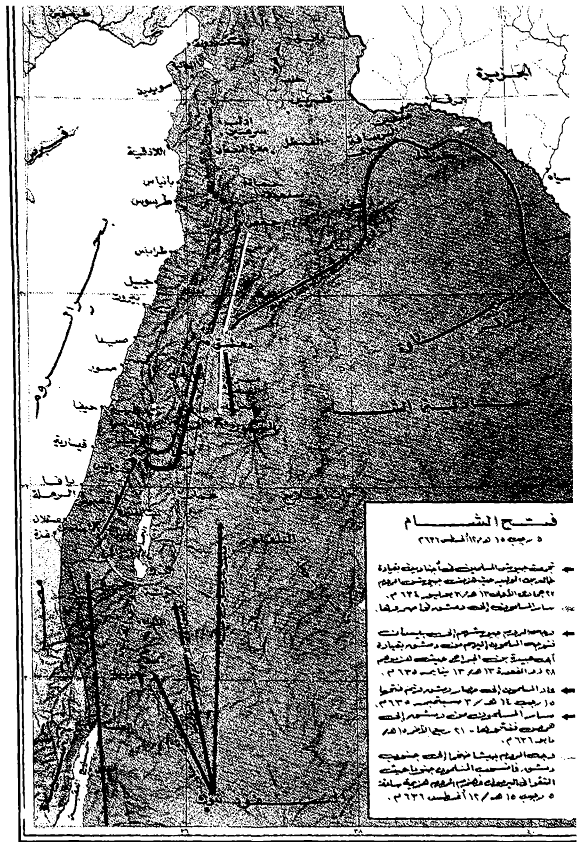
وتوفى الخليفة أبو بكر فى تلك الأثناء وتولى الخلافة عمر بن الخطاب، وفى السنة الأولى من خلافة عمر، تركز القتال فى الشام عند منطقة الأردن حيث انتصر المسلمون على الروم عند نيسان ومرج الصفر، وانفتح بذلك طريق دمشق أمامهم فساروا إليها وحاصروها من جميع الجهات، وقد اشترك فى حصارها جميع قادة جيوش المسلمين بالشام، وكانت معركة دمشق بالشام تشبه معركة المدائن بالعراق. ولم تقاوم حامية دمشق كثيرا واستسلمت بعد حصار لها دام ستة أشهر فطلب حاكمها الصلح والأمان فدخلتها القوات الإسلامية بعد أن أعطت أهلها الأمان (سنة ١٤هـ).

وبعد سقوط دمشق ورد أمر الخليفة عمر للقوات المقاتلة بجعل القيادة فى الشام لأبى عبيدة ابن الجراح بدلاً من خالد بن الوليد، فلم يتأثر خالد لذلك بل قبل الأمر عن طيب خاطر أن يقاتل تحت إمرة ابن الجراح كجندى عادى.



ضريح أبو عبيدة عامر

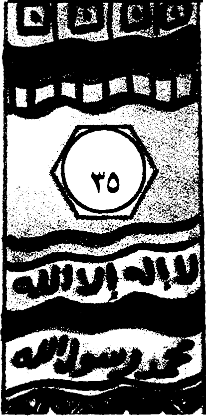
ابن الجراح - الأردن



معركة اليرموك:

غضب هرقل بسقوط دمشق فى يد المسلمين، وصمم على تكوين جيش كبير يوقف به زحف المسلمين على الشام وينتزع به من أيديهم ما استولوا عليه من بلدان. وقد شكل هرقل هذا الجيش من جند الروم وعرب الشام وإقليم الجزيرة وجند أرمينيا، وأراد أن يكون اللقاء مع المسلمين، هذه المرة، حاسمًا ونهائيًا. ورأى المسلمون، بعد ما علموا من أمر جيش هرقل الكبير، الانسحاب من دمشق وتجمع القوات الإسلامية حيث تجمع الروم عند حوض نهر اليرموك. وقد بلغ عدد جيش الروم مائة وأربعين ألفا ولم يجاوز جيش المسلمين الأربعين ألفا.

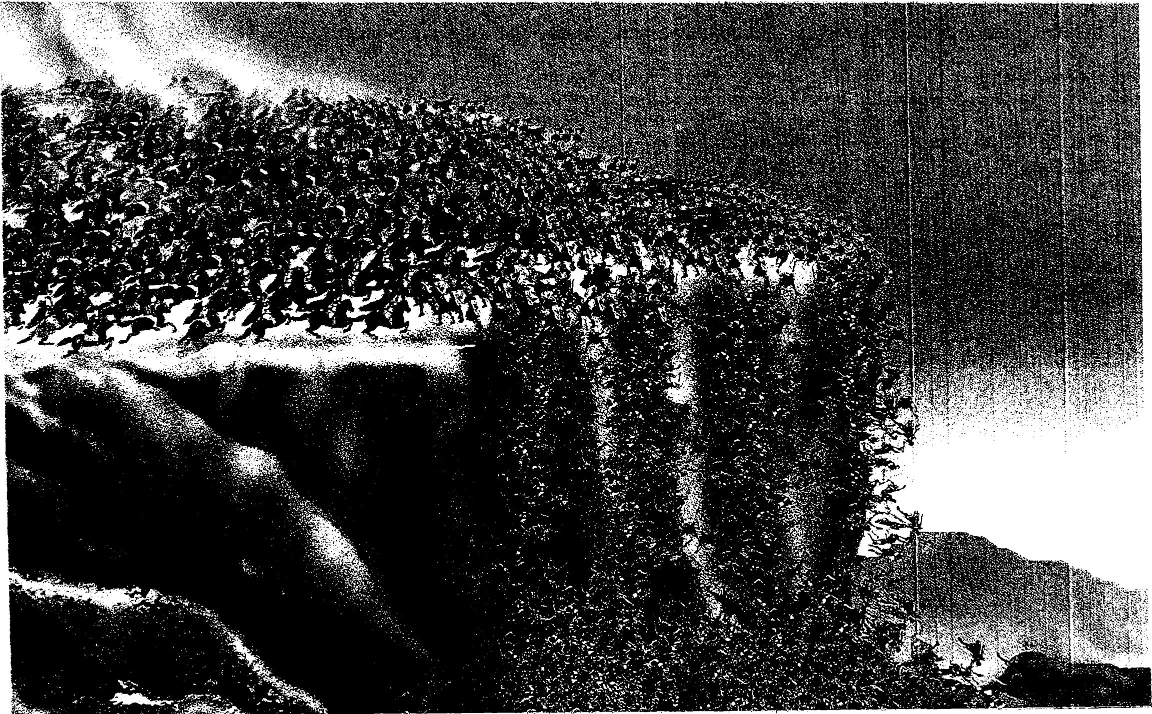




وفى سنة ١٥هـ/ ٦٣٦م، وعند اليرموك، دارت معركة كبيرة بين الروم والمسلمين، انتهت بهزيمة ساحقة لجيش الروم وبنصر كبير للمسلمين. وتشتتت، على أثر الهزيمة، قوات الروم، ولاذ من نجا من الموت بالفرار أو الاستسلام. وكان هرقل، إمبراطور الروم، مقيما آنذاك بأنطاكية، فلما بلغه خبر هزيمة جنده قرر الانسحاب من الشام إلى عاصمته القسطنطينية، وقد ودع بلاد الشام، وهو ينسحب منها بقوله عبارته المشهورة التى سجل بها التاريخ تلك الهزيمة الساحقة التى حلت بالروم: «عليك يا سوريا السلام ونعم البلد هذا للعدو».

واتجهت القوات الإسلامية لإتمام فتح مدن الشام، فتوجه أبو عبيدة ومعه خالد، ففتحوا اللاذقية وحلب وأنطاكية. واتجه عمرو بن العاص بجيشه إلى فلسطين ليفتح بيت المقدس، فسار إليها وحاصرها. ولما اشتد حصاره لها قرر بطريقها (سفرنيوس) وأهلها ألا يسلموا المدينة إلا للخليفة نفسه؛ وذلك ليطمئنوا على مصيرهم وليضمنوا سلامة كنائسهم. فأرسل عمرو بذلك إلى الخليفة الذى وافق على الحضور. وخرج عمر من المدينة المنورة متجها إلى فلسطين، واجتمع فى الجابية مع قواده، ثم توجه إلى بيت المقدس، وتسلمها سنة ١٥هـ/ ٦٣٦م، وأعطى لأهلها عهدا أمنهم فيه على أموالهم وديانتهم وأماكن عبادتهم، وسلم لهم كتاب الصلح. وبسقوط بيت المقدس فى يد المسلمين تكون فلسطين والشام كلها قد صارت فى يد المسلمين ودخلت كجزء هام من أجزاء الدولة العربية الإسلامية الكبرى.

معركة اليرموك - كما جاء وصفها فى أطلس الفتوحات الإسلامية







كانت الضرورة الحربية تقتضى من العرب، بعد أن تم لهم فتح بلاد الشام، أن يفتحوا مصر، حتى لا يعاود الروم مهاجمتهم من هذه الناحية التى تقع فى نطاق دولتهم. ولم تخف عن عمرو بن العاص، فاتح فلسطين، تلك الحقيقة وغيرها من المزايا الاقتصادية التى تعود على الدولة الإسلامية من وراء ضم مصر إليها. وقد كان عمرو بن العاص أكثر الناس معرفة بأهمية مصر وغنى مواردها.

ولقد اقترح عمرو بن العاص، فى لقائه مع الخليفة بالجابية، أن يوافقه على السير لفتح مصر. فلم يجبه الخليفة آنذاك على طلبه لانشغاله بفتح الشام، ولم تكن من سياسة الخليفة عمر أن يفتح على المسلمين جبهتين للحرب فى وقت واحد. ولما أبدى الخليفة تخوفه على المسلمين من هذا الفتح، قام عمرو بتهوينه عليه والتقليل من شأن قوة الروم، فعهد إليه بالفتح. وقد عقد عمر لعمرو قيادة جيش قوامه أربعة آلاف مقاتل كلهم من عرب القحطانية اليمنية.

فسار عمرو بجيشه من قيسارية بفلسطين فى المحرم سنة ١٩هـ/ ٦٣٩م، قاصداً مصر، ولما وصل العريش انضم إلى جيشه رجال من قبائل لخم وراشدة اليمنيتين، وكانت هاتان القبيلتان قد توطنتا فى حوف العريش قبل الإسلام، مما سهل فتح مدينة العريش التى لم تكن بها حامية رومانية.

وبعد سقوط العريش تابع الجيش الإسلامى سيره إلى الفرما (بورسعيد الحالية) مخترقا الطريق الذى يسلكه المهاجرون والفاتحون والتجار والحجاج منذ أقدم العصور. وقد كانت الفرما حصينة، وهى أول حصن من سلسلة حصون الروم على الساحل المصرى، وهى مفتاح مصر ومدخلها من ناحية الشرق، فحاصرها عمرو بقواته لمدة شهر ثم سقطت فى يده، ومضى الجيش الإسلامى فى أرض مصر حتى وصل بلبيس (بمحافظة الشرقية)، عاصمة إقليم الحوف. وقد التقى الجيش الإسلامى، عند بلبيس، بحامية عسكرية للروم، ودار قتال بينهما انتهى بانتصار المسلمين ودخولهم المدينة واستيلائهم عليها.

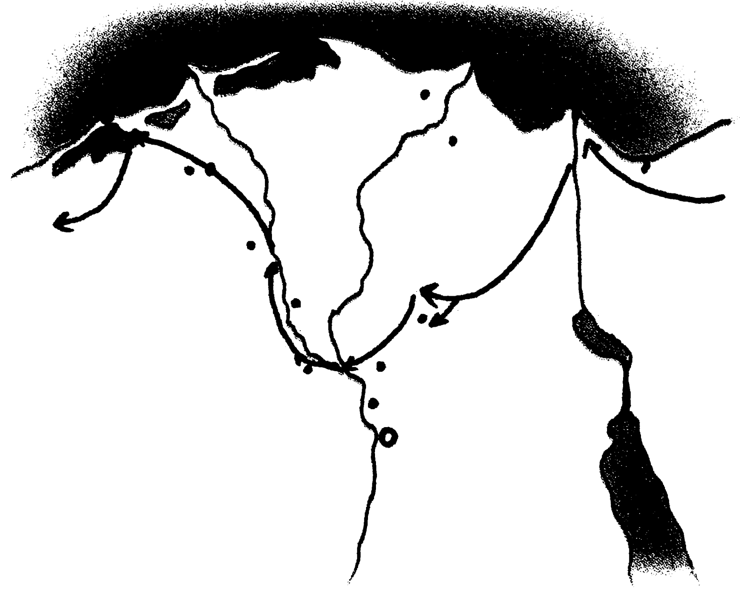


معركة عين شمس:

وبعد ذلك سار عمرو بن العاص بجيشه من بلبيس إلى قرية أم دنين، على النيل شمالى حصن بابليون، وطليعة الدفاع عن الحصن. وقد كانت أم دنين حصينة ويجاورها مرفأ سفن كبير. وبسبب المقاومة الشديدة التى قوبل بها جيش عمرو، أرسل للخليفة يطلب المدد، فأرسل له أربعة آلاف مقاتل فيهم عدد من الصحابة، منهم: الزبير بن العوام وعبادة بن الصامت، والمقداد بن الأسود، ومسلمة بن مخلد الأنصارى. ولقد التقى الجيش الإسلامى، بعد وصول هذا المدد إليه، مع قوات الروم التى خرجت لقتال المسلمين عند عين شمس، بقيادة القائد الرومانى تيودور. وانتصرت القوات الإسلامية على الروم فى هذه المعركة واستولت، بعدها، على أم دنين وعين شمس. ثم تقدمت، بعد ذلك القوات الإسلامية، لفتح حصن بابليون، آخر قلاع الروم الحصينة بأرض مصر، ومقر إقامة المقوقس (قيرس) نائب إمبراطور الروم فى حكم مصر. وكان الحصن منيعا، وقد أحاطه الروم بخندق مملوء بالماء، فحاصره المسلمون من جميع نواحيه مدة سبعة أشهر.

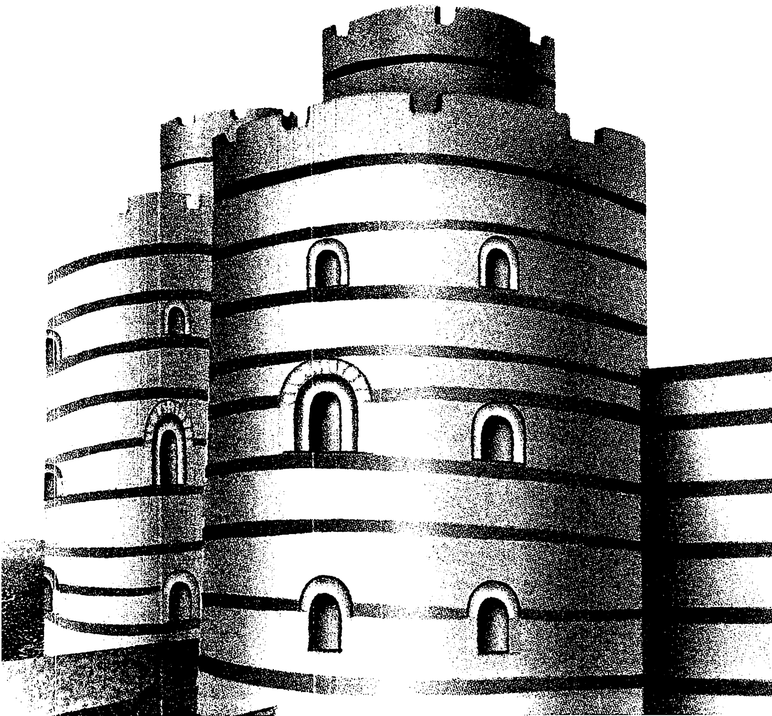
دخول الحصن:

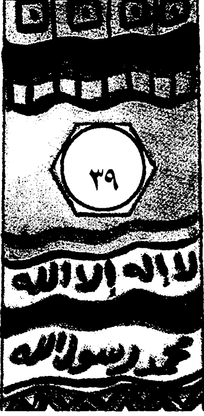
ولما اشتد حصار المسلمين على الروم والقبط فى الحصن رأى المقوقس أن يطلب الصلح من عمرو بن العاص، فوافق عمرو على ذلك. وأرسل عمرو قائده الصحابى الجليل عبادة بن الصامت يعلن للمقوقس شروط الفاتحين المسلمين، وهى لم تختلف عن شروطهم فى أى فتح، وهى: إما الإسلام أو الجزية أو القتال. ولما عرض المقوقس على ملك الروم هرقل هذه الشروط رفضها وطلب من المقوقس الاستمرار فى القتال، ففشلت بذلك تدابير الصلح. وواصل المسلمون حصارهم للحصن، ولما ضاقوا من طول حصاره، قام بعض الفدائيين المسلمين، وعلى رأسهم الصحابى الجليل الزبير بن العوام، بتسلق أسوار الحصن وفتحه وهم يكبرون. فدخل الرعب فى قلوب جند الحصن وصاروا يقاتلون المسلمين وهم خائفون. ولما رأى المقوقس أنه لا قبل له بمقاومة هؤلاء المحاربين المستبسلين فى القتال، أرسل إلى عمرو، ثانية، يطلب الصلح. فوافقه عمرو على الصلح مقابل دفع الجزية. وانتهى الصلح بين الطرفين بتسليم حصن بابليون للمسلمين مقابل انسحاب جيش الروم منه خلال أيام، لا يحملون معهم إلا أقواتهم، مع التعهد بدفع الجزية للمسلمين، وبالفعل تم تسلم المسلمين للحصن، مستهل المحرم ٢٠هـ/ أبريل ٦٤٠م.


خريطة فتح مصر

وبعد ذلك أرسل عمرو بن العاص حملة من جيشه لفتح الفيوم جعل قيادتها لربيعة الصدفى، وحملة لفتح الصعيد الأوسط بقيادة عبد الله بن سعد بن أبى سرح، وحملة ثالثة لفتح جنوب مصر بقيادة عقبة بن عامر الجهنى.

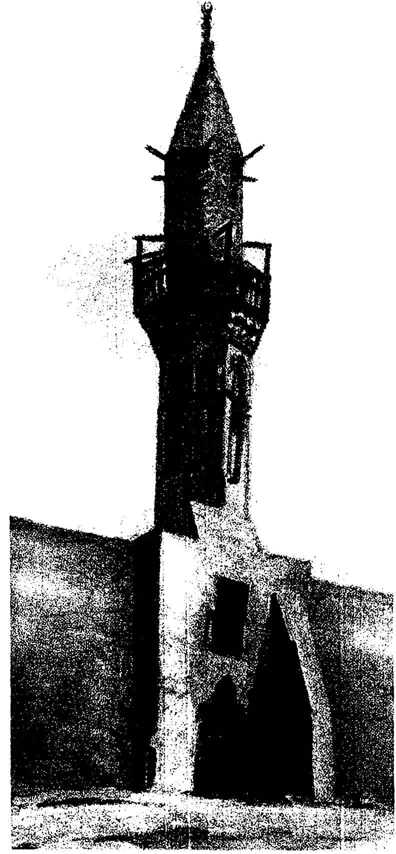
وكان على المسلمين، بعد ذلك، أن يتجهزوا لفتح الإسكندرية، عاصمة مصر الرومانية، والاستيلاء عليها بعد أن انسحبت القوات الرومية إليها. وقد أخذ الروم يحصنون المدينة براً وبحراً حتى لا تسقط فى يد المسلمين، وهم يعلمون أن معنى سقوط العاصمة فى أيدى المسلمين زوال سيادتهم من على مصر نهائيا. وقد بعث عمرو بن العاص إلى الخليفة عمر يستأذنه فى فتح الإسكندرية فأذن له، فسار إليها فى ربيع الأول سنة ٢٠هـ/ ٦٤٠م. ولما وصلت


حصن بابليون



قوات المسلمين إلى الإسكندرية، بعد التغلب على الجيوش الصغيرة التى قابلتها فى طريقها إليها، قامت بحصارها لمدة أربعة أشهر، توفى هرقل إمبراطور الروم أثناءها. فعمل خلفاؤه على إنهاء الحرب فى مصر للتفرغ لحل مشاكلهم الداخلية داخل الإمبراطورية.

وتحقيقا لذلك، فقد أمرت الإمبراطورة مارتينة، التى تولت الوصاية على العرش بعد موت هرقل، المقوقس بالعودة إلى مصر وطلب الصلح النهائى مع عمرو بن العاص والانسحاب من مصر نهائيا. فجاء المقوقس لعمرو، الذى رحب به، وعقدت بين الطرفين معاهدة، عرفت بمعاهدة الإسكندرية، تم بمقتضاها جلاء الروم عن الإسكندرية.



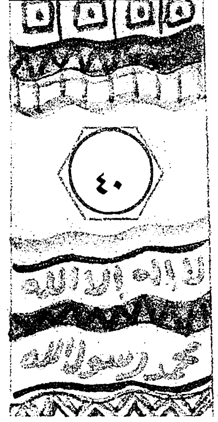
مئذنة جامع عمرو بن العاص

ولم تنته سنة ٢١هـ/ ٦٤١م حتى أصبحت مصر كلها فى قبضة العرب، وولاية من ولايات الدولة العربية الإسلامية الكبرى. ولقد اختط عمرو بن العاص عاصمة جديدة لمصر هى الفسطاط، بدلا من الإسكندرية، قرب حصن بابليون (بمصر القديمة). كذلك ابتنى أول جامع له فيها. وهو الشهير بجامع عمرو، أو الجامع العتيق. وبذلك دخلت مصر طورا جديدا من أطوار تاريخها فى عهد خلافة عمر، وهو الطور العربى الإسلامى.



فتح المغرب

لما استقر للعرب فتح مصر، فكروا فى تأمينها من ناحية الغرب، بعد أن أمنوها من ناحية الشرق، حتى لا يهاجمها الروم من هذه الناحية التى كانت تمثل جزءا من مستعمراتهم. وفى سنة ٢٢هـ/ ٦٤٢م توجه عمرو بن العاص إلى إقليم برقة (الجزء الشرقى من ليبيا الحالية)، واستولى عليه بعد أن هزم الحامية الرومية الصغيرة التى كانت هناك. وفرض عمرو الجزية على أهل برقة،



ثم تابع سيره بجيشه غربًا حتى وصل إلى مدينة طرابلس الغرب التى افتتحها عنوة بعد أن تغلب على قوات الروم بها. ثم كتب عمرو إلى عمر يطلب منه الإذن له بفتح باقى الساحل الإفريقى الشمالى، إلا أن الخليفة عمر نهاه عن ذلك وطلب منه العودة إلى مصر بجنوده، فامتثل لأمره وعاد إليها.

تنظيم أمور الدولة

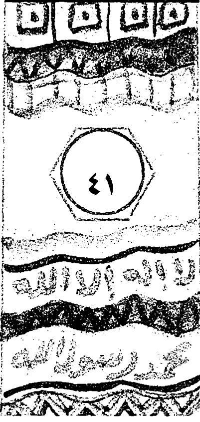
لقد كان عمر رئيسًا للدولة الإسلامية وخليفة المسلمين، وهو أول من دعى بأمير المؤمنين. ويعتبر عمر المؤسس الفعلى للدولة العربية الإسلامية التى وضع أساسها رسول الله ﷺ، نظرا لطول مدة حكمه واتساع الدولة فى عهده اتساعا لم يقم لها فى عهد الرسول ﷺ وعهد الصديق. وينسب لعمر وضع أسس التنظيم الإدارى والمالى والقضائى والعسكرى لدولة الإسلام سنة ١٧هـ.

وقد قام عمر بتقسيم الدولة إلى أقسام إدارية كبرى عدة، وهى:

ولايات الحجاز ونجد وشبه الجزيرة، وولايات فارس والعراق، وولايات بلاد ما وراء النهر، وولايات الشام، وولايات مصر والمغرب. وقد قسم عمر ولايات فارس والعراق إلى ثلاثة أقسام جعل قسما منها لخراسان وعاصمته مرو، وقسمًا للعراق الشمالى وحاضرته الكوفة، وقسمًا للعراق الجنوبى وحاضرته البصرة. كذلك قسم ولايات الشام إلى قسمين: قسم جعل قاعدته حمص والقسم الثانى قاعدته دمشق. وجعل فلسطين قسمًا مستقلاً بذاته. أما ولايات مصر والمغرب فقد قسمها إلى ثلاث ولايات: مصر العليا ومصر السفلى وغرب مصر وليبيا.

وقد جعل عمر على كل ولاية واليا تشدد فى اختياره، كما جعل إلى جانب كل والٍ فى ولايته عاملا للخراج مسئولاً عن الأمور المالية ومستقلا فى إدارته عن الوالى. وكان عمر، فى كل موسم حج، يجمع ولاته وعمال خراجه ويقوم بمحاسبتهم أشد الحساب، ومن كان يجد فيه تقصيرا كان لا يتردد فى عزله على الفور.

والخليفة عمر بن الخطاب هو أول من دَوَّن الدواوين فى الدولة الإسلامية، نقلا عن الفرس، وذلك بسبب اتساع الدولة فى عهده وكثرة مواردها والحاجة لضبط هذه الموارد والاستفادة منها، فأنشأ أول ما أنشأ ديوانَى العطاء والجند.



وكان المال فى دولته قد وصل إلى الغاية حتى أنشأ بيت المال ووضع ديوانْى العطاء والجند، يقول صاحب الفخرى فى هذا الأمر ما نصه:

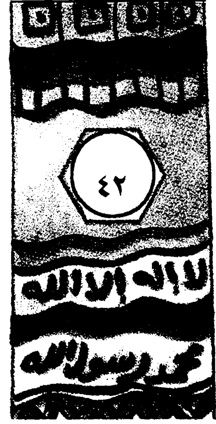
«فلما كانت سنة خمس عشرة من الهجرة وهى خلافة عمر، رأى أن الفتوح قد توالت وأن كنوز الأكاسرة قد ملكت وأن الحمول من الذهب والفضة والجواهر النفيسة والثياب الفاخرة قد تتابعت، فرأى التوسيع على المسلمين وتفريق تلك الأموال فيهم ولم يكن يعرف كيف يصنع وكيف يضبط ذلك. وكان بالمدينة بعض مرازبة الفرس. فلما رأى حيرة عمر قال له: يا أمير المؤمنين إن للأكاسرة شيئًا يسمونه ديوانا، جميع دخلهم وخرجهم مضبوط فيه لا يشذ منه شيء، وأهل العطاء مرتبون فيه مراتب لا يتطرق عليها خلل. فتنبه عمر، رضى الله عنه، وقال: صفه لى، فوصفه المرزبان. فـفطن عمر لذلك ودَوَّن الدواوين وفرض العطاء، فجعل لكل واحد من المسلمين نوعًا مقررًا، وفرض لزوجات الرسول ﷺ، ولسراريه وأقاربه حتى استنفد الحاصل ولم يدخر فى بيت المال شيئا... ثم إن عمر رأى أن يجعل العطاء على حسب السبق إلى الإسلام وإلى نصرة الرسول ﷺ فى مواطن حروبه، ثم استخدم الكتاب فى الدواوين وأمرهم بترتيب الطبقات وضبط العطاء... وقال لهم: ابدأوا بالعباس عم الرسول ﷺ وببنى هاشم ثم بمن بعدهم طبقة بعد طبقة وضعوا آل الخطاب حيث وضعهم الله عز وجل. فاعتمد ما أشار به وجرى الأمر على ذلك مدة خلافته وخلافة عثمان رضى الله عنهما».

ولقد جعل عمر لعموم المسلمين عطاء ثابتا من عائد أموال الفتوح والخيرات التى تدفقت على الدولة الإسلامية بسببها جعل اختصاصه ديوان العطاء.

أما ديوان الجند، فقد رصده عمر لتسجيل أسماء الجنود وأسرهم ورصد أعطيات ثابتة لهم مقابل تفرغهم للقتال. وقد اقتصر الرصد فى هذا الديوان على الجند العرب فقط حتى سنة ٢١٨هـ.

والخليفة عمر هو أول من وضع التأريخ بعام الهجرة، وضعه فى السنة السابعة عشرة، وفى هذه السنة زاد الخليفة فى توسعة المسجد النبوى بالمدينة المنورة.

والخليفة عمر أول من طبق النظام القضائى على نطاق العالم الإسلامى، فعين قضاة، ينوبون عنه، فى الفصل بين الناس وفض منازعاتهم وحل مشاكلهم. ويوسع عمر دائرة القضاء لتغطى رقعة الدولة الإسلامية جميعها بعد اتساعها فى عهده، فولى أبا الدرداء قضاء الكوفة، وعثمان بن قيس بن أبى العاص قضاء مصر وأبا موسى الأشعرى قضاء البصرة، وقد كتب لأبى موسى كتابًا حين ولاه أمر القضاء يعد بمثابة لائحة داخلية يعمل القضاة بها. وقد بيَّن فى هذا

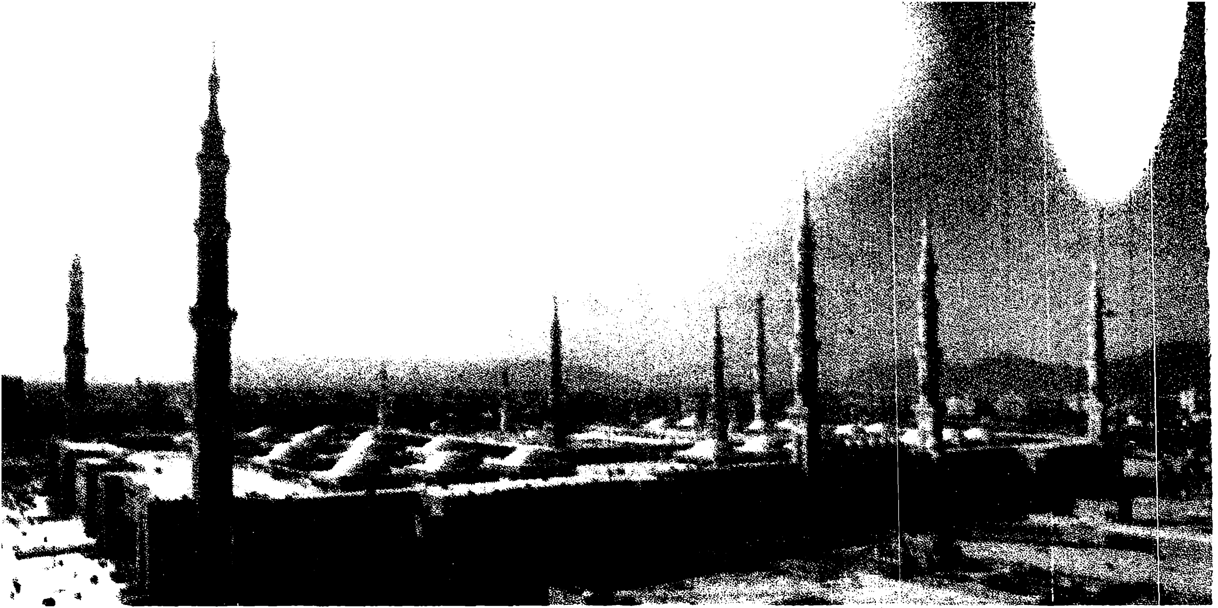


الكتاب القواعد التى يجب على القاضى أن يرتكز عليها حين يتصدر للقضاء. وقد ظل هذا الكتاب دستوراً للقضاء فى الإسلام سار على نهجه القضاة المسلمون عصوراً طويلة.

وكان الخليفة عمر أول من باشر وظيفة المحتسب من الخلفاء، وحذا بقية الخلفاء حذوه فى هذا الأمر.

وفى سنة ١٨هـ، وهى السنة الخامسة من خلافة عمر، كان عام الرمادة، الذى أصاب الناس فيه أزمة جفاف شديدة، وقع بسببها طاعون عمواس الذى مات فيه خمسون ألفا منهم أبو عبيدة بن الجراح ومعاذ بن جبل وغيرهم من الصحابة.

وكان عمر، رضى الله عنه، ملازمًا للحج فى سنى خلافته، وكان من سيرته أن يأخذ عماله بموافاته كل سنة فى موسم الحج ليحجزهم بذلك عن الرعية ويحجز عنهم الظلم ويتعرف أحوالهم عن قرب، وليكون للرعية وقت معلوم ينهون إليه شكاواهم.



مسجد الرسول الكريم ﷺ بالمدينة المنورة

ولقد ضرب عمر مثلاً أعلى للحاكم المسلم كيف ينبغى أن يكون، وقد قال عنه الجاحظ: «رحم الله أبا بكر فقد أتعب من بعده. فلما مات عمر قال الناس: رحم الله أبا بكر وعمر فقد أتعبا من جاء بعدهما» ومعنى ذلك أنهما ضربا للناس مثلاً أعلى للحاكم المسلم يصعب على غيرهما الوصول إليه.

ولقد هاب الناس عمر هيبة شديدة، لأنه كان لا ينظر إلا لصالح الإسلام والمسلمين وكان يقتدى برسول الله ﷺ فى كل أعماله، وكان حريصا على صالح المسلمين، وكان عادلاً كل العدل لا تأخذه فى الله لومة لائم، وكان عالمًا واسع العلم بشئون الدين والدنيا، وكان دائبًا فى عمله، وكان تواضعه وزهده أكثر ما يميزه، فلقد روى عنه أنه لما قدم الشام لقيه الجنود وعليه عمامة وقد خلع خفيه وهو يخوض الماء آخذا بزمام راحلته وخفاه تحت إبطه، فقالوا له: «يا أمير المؤمنين، الآن تلقاك الأمراء وبطارق الشام وأنت هكذا؟» فقال: «إنا قوم أعزنا الله بالإسلام فمهما طلبنا العز بغير ما أعزنا الله به أذلنا الله».



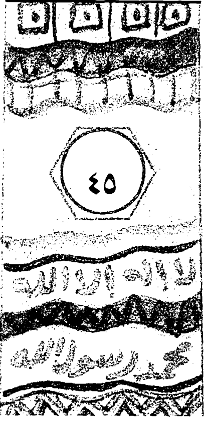
وفاته

وبينما كان عمر يدير أمر دولة الإسلام بالعدل والحزم والجد والنشاط، ويضع النظم لدولة الإسلام التى كانت قد شكلت إمبراطورية كبرى حدودها معظم بلاد العالم القديم، فاجأه وهو يصلى الفجر يوم الأربعاء ٢٦ ذى الحجة سنة ٢٣هـ/ أكتوبر ٦٤٤م، شاب مجوسى يدعى أبو لؤلؤة فيروز، وهو مولى للمغيرة بن شعبة وضربه بخنجر مسموم ضربات قاتلة، وبعد أن طُعن حمل إلى داره فظل أياماً يحاولون علاجه دون جدوى إذ إن حالته ساءت ثم قضى نحبه رحمة الله عليه.



ولقد روى ابن سعد فى طبقاته قصة مقتل عمر بقوله:

«كان عمر، رضى الله عنه، لا يأذن لسبى قد احتلم فى دخول المدينة حتى كتب إليه المغيرة ابن شعبة وهو على الكوفة يذكر له غلامًا سبيًا عنده جملة صنائع، ويستأذنه أن يدخل المدينة، ويقول: إن عنده أعمالا كثيرة فيها منافع للناس، إنه حداد ونقاش ونجار، فأذن له أن يرسله إلى المدينة، وضرب عليه المغيرة مائة درهم فى الشهر. فجاء إلى عمر يشتكى إليه شدة الخراج، فقال له عمر: ما خراجك بكثير، فانصرف ساخطًا يتذمر. فلبث عمر ليالى ثم دعاه فقال له: ألم أخبر أنك تقول: «لو أشاء لصنعت رحى تطحن بالريح»، فالتفت إلى عمر عابسا وقال: «لأصنعن لك رحى يتحدث الناس بها»، فلما ولى قال عمر لأصحابه: أوعدنى العبد آنفا. ثم اشتمل أبو لؤلؤة على خنجر ذى رأسين نصابه فى وسطه فكمن بزاوية من زوايا المسجد فى الغلس، فلم يزل هناك حتى خرج عمر يوقظ الناس للصلاة فلما دنا منه طعنه ثلاث طعنات» وقد قيل إنه طعن معه اثنى عشر رجلا مات منهم ستة، فألقى عليه رجل من أهل العراق ثوبًا، فلما اغتم فيه قتل نفسه. وحمل عمر إلى أهله، وكادت الشمس تطلع، فصلى عبد الرحمن بن عوف بالناس بأقصر سورتين.



وقال عمر: الحمد لله الذى لم يجعل منيتى بيد رجل يدعى الإسلام، ثم قال لابنه: يا عبد الله، انظر ما علّى من الديْن، فحسبوه فوجدوه ستة وثمانين ألفا ونحوها، فقال: إنْ وفىّ مال آل عمر فأده من أموالهم وإلا فاسأل فى بنى عدى، فإن لم تف أموالهم فاسأل فى قريش، اذهب إلى أم المؤمنين عائشة، فقل: يستأذن عمر أن يدفن مع صاحبيه، فذهب إليها، فقالت: كنت أريد المكان لنفسى ولأوثرنه اليوم على نفسى، فأتى عبد الله فقال: قد أذنت فحمد الله تعالى. ودفن يوم الأحد مستهل المحرم وصلى عليه صهيب فى المسجد.

وكانت ولايته عشر سنين وستة أشهر وخمس ليال، وكان يحج كل عام غير سنتين متواليتين. واختلف فى سنه يوم مات، والأرجح أنه ثلاث وستون كسن النبى ﷺ وأبى بكر. وكان له ثلاثة عشر ولدا، تسع بنين وأربع بنات، وأكبر أبنائه عبد الله ويكنى بأبى عبد الرحمن، وأكبر بناته حفصة، زوج النبى ﷺ.

ولقد سئل عمر، قبل وفاته، فى أن يستخلف على المسلمين خليفة من بعده، مثلما فعل أبو بكر، فاختار ستة من كبار الصحابة ليختاروا واحدا من بينهم للخلافة. وهؤلاء الستة هم: على بن أبى طالب، وعثمان بن عفان، وطلحة بن عبيد الله، والزبير بن العوام، وسعد بن أبى وقاص، وعبدالرحمن بن عوف.

وأوصى بأن يكون معهم، وقت الاختيار، عبد الله ابنه، دون أن يكون له الحق فى أن يختار للخلافة. وقال: «أوصى الخليفة من بعدى بالمهاجرين الأولين أن يعرف لهم حرمتهم، وأوصيه بالأنصار خيرا: الذين تبوءوا الدار والإيمان من قبلهم أن يقبل من محسنهم وأن يعفو عن مسيئهم، وأوصيه بأهل الأنصار خيرا فإنهم درع الإسلام وجباة المال وغيظ العدو، وأوصيه بالأعراب خيراً فإنهم أصل العرب ومادة الإسلام، وأن يأخذ من حواشى أموالهم ويرد على فقرائهم، وأوصيه بذمة الله وذمة نبيه ﷺ أن يوفى لهم بعهدهم وأن يقاتل من وراءهم ولا يكلفوا إلا طاقتهم».



القسم الثالث
ذو النورين (عثمان بن عفان)

هو عثمان بن عفان بن أبى العاص بن أمية بن عبد شمس بن عبد مناف، القرشى، الأموى. ولد فى السنة السادسة بعد عام الفيل، وأسلم على يد الصديق، وهاجر الهجرتين: الأولى إلى الحبشة، والثانية إلى المدينة. وتزوج رقية بنت رسول الله ﷺ قبل النبوة وماتت عنده فى ليالى غزوة بدر، فتأخر عن بدر لتمريضها بإذن من رسول الله ﷺ. وجاء البشير بنصر المسلمين ببدر يوم دفنوها بالمدينة فزوّجه رسول الله ﷺ بعدها أختها أم كلثوم، وتوفيت عنده سنة تسع من الهجرة، وسمى بذى النورين لزواجه ببنتى النبى. وهو من السابقين الأولين وأول المهاجرين وأحد العشرة المبشرين من رسول الله ﷺ بالجنة، وأحد الستة الذين توفى رسول الله ﷺ وهو عنهم راض، وأحد الصحابة الذين جمعوا القرآن. ولقد استخلفه رسول الله ﷺ على المدينة فى غزوته إلى ذات الرقاع وإلى غطفان. وهو الذى جهز جيش العسرة فى غزوة تبوك بألف بعير وسبعين فرسا، وهو الذى اشترى بئر رومة بخمسة وثلاثين ألف درهم من ماله ووهبها للمسلمين.

مبايعته بالخلافة

بويع عثمان بالخلافة بعد دفن عمر بثلاث ليال، وكان الستة الذين رشحهم عمر ليختار المسلمون منهم واحدا للخلافة قد فوضوا الأمر لتدبير عبد الرحمن بن عوف الذى تنازل عن حقه فيها، وأخذ فى مشاورة الناس فى أمر من يتولى خلافتهم من الخمسة الآخرين المرشحين للخلافة، وروى أن الناس كانوا يجتمعون فى تلك الأيام إلى عبد الرحمن بن عوف يشاورونه ويناجونه فلا يخلو به رجل ذو رأى فيعدل بعثمان أحدا، ولما جلس عبد الرحمن للمبايعة حمد الله وأثنى عليه، وقال فى كلامه: إنى رأيت الناس لا يرضون إلا بعثمان خليفة عليهم. ثم أخذ بيد عثمان وقال: نبايعك على سنة الله وسنة رسوله وسنة الخليفتين بعده، فبايعه عبد الرحمن وبايعه المهاجرون والأنصار فى مسجد الرسول ﷺ بالمدينة.



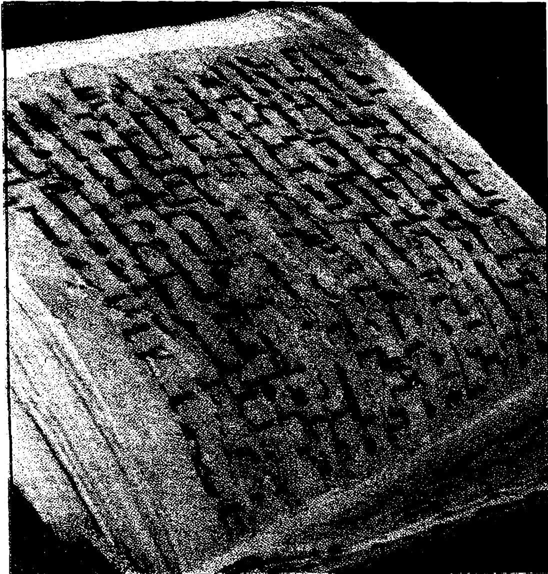
وكانت سن عثمان يوم بويع بالخلافة تسعا وستين سنة، ولما تولى أحاط به أبناء بيته، وكان فيهم شباب كثيرون لهم ذكاء وقدره وخبرة، وكان عمر قد ولى بعضهم الولايات الكبيرة مثل يزيد بن أبى سفيان، أخى معاوية، الذى شارك فى فتح الشام ثم أقامه عمر واليا عليها، ولما مات يزيد أقام عمر معاوية أخاه واليًا على الشام، وبرغم كفاءة هؤلاء الأمويين الذين ولاهم عثمان على الولايات إلا أن المسلمين لم يرضوا عن ذلك واتهموه بمحاباة أهله وإيثارهم على غيرهم ممن يتفوقون عليهم.

الفتوح أيام عثمان

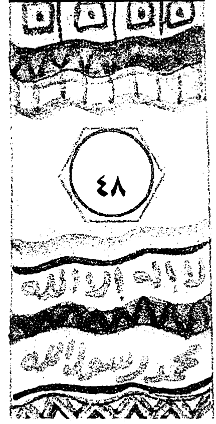
ولقد استمرت الفتوح فى عهد عثمان كما كانت فى أيام عمر، ففى أيامه فتحت بلاد التركستان فى منطقة ما وراء النهر، ووصلت قواته إلى حدود الصين. وفى عهد خلافته فتح بلاد المغرب، وكان فتحها على يد قائده عبد الله بن سعد بن أبى السرح، الذى سار سنة ٢٧ هـ/ ٦٤٨م على رأس جيش كبير لفتح إفريقيا (تونس الحالية)، وقد ضم هذا الجيش عدداً كبيراً من شباب الصحابة منهم سبعة تسموا باسم عبد الله، فسمى الجيش بجيش العبادلة، وقد تمكن هذا الجيش من الانتصار على قوات الروم هناك فى معركة سبيطلة.

ثم وجه ابن أبى السرح جيشًا إلى جنوب مصر لفتح بلاد النوبة وتأمين حدود مصر الجنوبية وانتصر على النوبيين وعقد معهم اتفاق «البقط».

وفى عهد عثمان أنشئ أول أسطول عربى، قام معاوية به بغزو جزيرتى قبرص ورودس فى البحر المتوسط. كذلك نجح هذا الأسطول فى إيقاع الهزيمة بأسطول الروم فى موضع قرب شواطئ آسيا الصغرى الجنوبية فى موقعة عرفت بذات الصوارى سنة ٣٤هـ / ٦٥٥م لكثرة صوارى السفن التى تشابكت فى هذه المعركة.



صورة من المصاحف الأولى فى الإسلام



الفتنة الكبرى

وقعت أحداث هذه الفتنة فى أواخر عهد خلافة عثمان، وتطورت أحداثها حتى انتهت بمصرع أول خليفة من خلفاء المسلمين بسبب الحكم. ولقد كانت جذور هذه الفتنة كامنة فى باطن نفسية العرب من قبل الإسلام، ولم تظهر على السطح إلا فى خلافة عثمان، أو بمعنى أصح عند اختيار عثمان خليفة دون اختيار على بن أبى طالب للخلافة، ولقد رأى الهاشميون فى هذا الاختيار تجاوزًا لحقهم فى الحكم وانحيازًا لمنافسيهم الأمويين. لذا أوجدت هذه النتيجة معارضة من بنى هاشم من أول الأمر، وأذكى هذا الاختيار روح التنافس القديم الذى كان بين بنى هاشم وبنى أمية على السيادة والزعامة فى مكة.

ولقد جاء اختيار عثمان الأموى للخلافة، فرصة طالما انتظرها الأمويون فى إحراز السيادة والزعامة على الهاشميين. وقد كان عثمان فى حاجة لخبرة بعض رجال الأمويين فى الحكم والإدارة ليكونوا عونًا له فى حكم الدولة، وقد أنس منهم الإخلاص والمعونة فعينهم ولاة وحكاما وقوادًا؛ الأمر الذى صبغ حكومته بالصبغة الأموية.

وكان عثمان قد قام بعزل بعض ولاة البلدان الذين كانوا ولاة فيها على عهد عمر بسبب وقوع بعض الأحداث فيها، فعزل المغيرة بن شعبة عن الكوفة وعين مكانه سعد بن أبى وقاص، ثم عزل الوليد بن عقبة بن أبى معيط، حين تأذى الناس من حكمه، وعين مكانه سعيد بن العاص. أما البصرة، فقد كان أبو موسى الأشعرى واليًا عليها من قبل عمر بن الخطاب، وقد ظل واليًا عليها مدة ست سنوات بعد وفاة عمر فى خلافة عثمان، ثم قام عثمان بعزله منها وولى مكانه ابن خاله عبد الله بن عامر. وكانت ولاية الأردن ودمشق قد اجتمعت لمعاوية بن أبى سفيان فى عهد عمر، فلما ولى عثمان الخلافة جعله أميرا عليها ثم ضم إليهما مدن حمص وقنسرين وبلاد فلسطين، وبذلك أصبح معاوية واليًا على كل الشام بعد سنتين من تولى عثمان أمر الخلافة، وكان يلى مصر عمرو بن العاص، فأبقاه عثمان واليًا عليها مدة عام واحد ثم قام بعزله عنها وتولية عبد الله بن سعد بن أبى السرح، أخيه فى الرضاعة عليها.

وهكذا نرى بنى أمية يستأثرون بالنفوذ والسلطان فى خلافة عثمان، وبرغم إثبات جدارتهم فى الحكم لتمرسهم وطول خبرتهم فيه إلا أن وقوع بعض الأحداث فى الأمصار أدى إلى



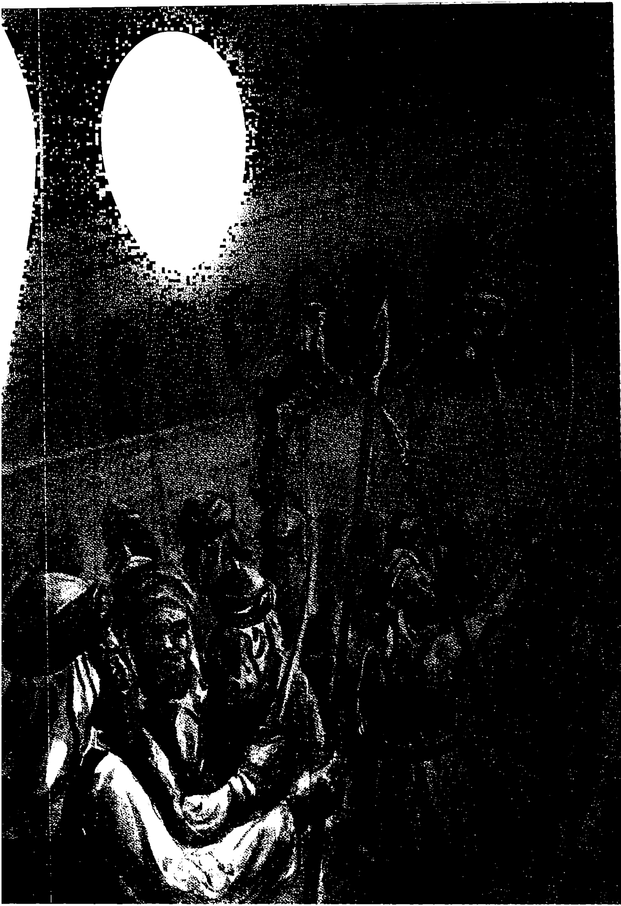
معـارضتهم والـثورة عليهم واتهـام الخليفـة باصطناع أقربائه والاستنـاد عليهم واستـبدادهم فى البـلاد التى تولوا أمرها وظلمـهم لأهلها؛ فـوقعت فى هذه الأمصـار الفتنة التى عرفـت بالفتنة الكبرى والتى انتـهت بالثورة على الخليـفة وانتهت بقتله.

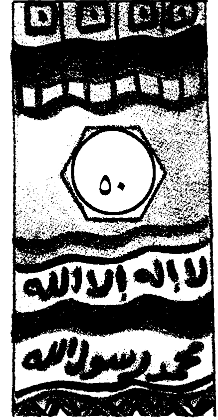
وفى سنة ٣٥ هـ/ ٦٥٥م أقـبلت جماعـات كبيـرة من أمصـار الكوفة والبصرة ومصر، لتسأل الخـليفة فى المدينة عن بعض الأمور الخاصة بهم ولرفع شكاياتهم إليه من نوابه وإطلاعـه على المخالفات التى ارتكبـوها فى الأمصار. وتطور الأمر عند التقاء هـؤلاء الثوار مع الخليفة إلى شبه محـاكمة له واتهام. وقد وجهوا للخليفـة ذاته بعض الاتهامات التى تمس شخصه قام بالرد عليهـا وتبرئة ساحته. لكن النفوس لم تهـدأ، والذين أشعلوا نار الثـورة لم يريدوا لها أن تنطفئ حتى تـقضى على كل شيء وحتى يحققوا ما خرجوا من أمصارهم من أجله.

وبعد انقـضاء موسم الحج زاد الهـياج واشتدت المناقـشات بين الخليفـة وهؤلاء الساخطين وأفلت من الخليفة الزمام؛ ذلك لأن المدينة العاصمة كانت خالية من القوات التى تستطيع أن تحفظ للخلافة هيبتها، وأن القوات كلها كانت فى الأقاليم ومنها ما كان فى خارج البلاد للجهاد.

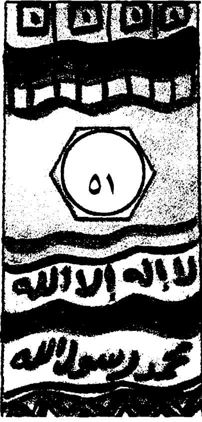
وتطور الأمر إلى محـاصرة الخليفة فى بيـته ومنع الزاد والطعام عنه، وفى الثـامن عشر من ذى الحجـة سنة ٣٥ هـ/ ٦٥٦م اقتحم بعـضهم الدار وقتـلوا الخليفة عـثمان ظلمًـا وعدوانًا وهو جـالس يقرأ فى مـصـحفـه وهو صـائم ولـم يكن من أحـد يدافع عنه سوى زوجـتـه نائلة بنت الفرافصة، التى اتقت سيف أحد المهاجمين بيـدها فقطع السيف أصابعها. ولقد سمى ما وقع فى هذا اليـوم من حدث مـفجع أليم «بيـوم الدار»، وهو يوم، بدون شك، نحس وشـؤم على دولة المسلمين؛ لأن فيه فتحت أبواب الفتنة التى لم يكن لها بعد ذلك أن تغلق.

وقد كان قتل عثمان يوم الجمـعة ١٨ ذى الحجة، ودفن ليلة السبت بين المغرب والعشاء فى البقيع، وكان له يوم قـتل اثنتان وثمانون سنة وكانت ولايته اثنتـا عشرة سنة، وكان له من الأولاد ستة عشر ولدا تسعة ذكور وسبع إناث.





ضريح سيدنا عثمان بن عفان بالبقيع - المدينة المنورة

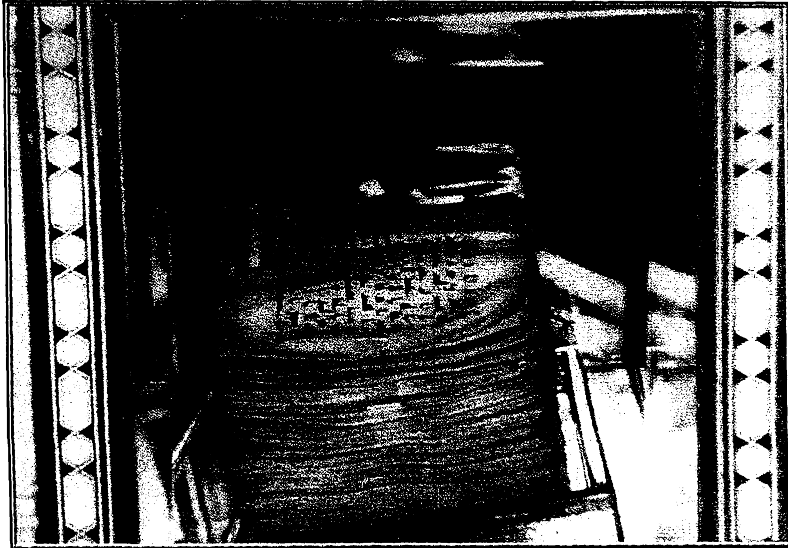


القسم الرابع
خلافة على بن أبى طالب

هو على بن أبى طالب بن عبد المطلب بن هاشم، أبو الحسن وأبو تراب، كناه بها النبى ﷺ، وأمه فاطمة بنت أسد بن هاشم، وهى أول هاشمية ولدت هاشميا، أسلمت وهاجرت.

بعث رسول الله ﷺ يوم الاثنين وأسلم علىٌّ يوم الثلاثاء، وكان عمره حين أسلم عشر سنين، ولم يعبد الأوثان قط لصغر سنه. تربى فى بيت رسول الله ﷺ ، وزوجه ابنته فاطمة التى أنجب منها ابنيه الحسن والحسين أحفاد رسول الله ﷺ. ولما هاجر إلى المدينة أمره بأن ينام فى فراشه ليلة الهجرة، كما أمره أن يقيم بعده بمكة حتى يؤدى عنه أمانة الودائع والوصايا التى كانت عند النبى ثم يلحق بأهله ففعل ذلك، وشهد مع رسول الله ﷺ بدرًا وأحدًا وسائر المشاهد، إلا تبوك فإن النبى استخلفه على المدينة، وله فى جميع المشاهد آثار مشهورة وأعطاه النبى ﷺ اللواء فى مواطن كثيرة.

ولقد كان على شجاعًا، تقيًا، شديدًا فى دين الله، راسخ القدم فى الإيمان، كريمًا سخيًا، زاهدًا، متواضعًا، عادلاً.



مصحف على بن أبى طالب



لما قتل عثمان، هرع الناس إلى علىّ يطلبونه للحكم، وتراكمت عليه الجماعة فى البيعة فبايعه المهاجرون والأنصار، ثم بايعه الناس البيعة العامة، فذلك يوم الجمعة الثالث عشر من ذى الحجة سنة خمس وثلاثين للهجرة. ولقد تولى على الخلافة فى أعقاب الفتنة الكبرى وعلى أثر مقتل الخليفة عثمان مظلومًا، ولقد كان قتلته والذين أشعلوا نار الفتنة لا يزالون يرابطون فى المدينة ولم يغادروها إلى أمصارهم حتى يحققوا ما جاءوا من أجله. وما زال المتربصون بالإسلام والمحرضون على الفساد، وعلى رأسهم اليهودى عبد الله بن سبأ، يترصدون للإسلام وللمسلمين. ولقد انقسم الناس آنذاك بين: مطالبين للخليفة الجديد بثأر دم الخليفة المقتول ومتهمين لعدد من الصحابة، وعلى رأسهم الخليفة الجديد، بمسئولية قتل عثمان وعدم قيامهم بالدفاع عنه كما يجب، وحماية من قتلوا الخليفة ظلمًا وعدوانًا وهم على استعداد لقتل كل من يقف أمام أطماعهم، وفريق ثالث اعتزل الفتنة وأغلق باب بيته عليه أو ترك المدينة إلى غيرها من البلاد حتى لا تتلوث أيديهم بدماء ضحايا الفتنة، وكلها دماء أناس مسلمين.

وكان على الخليفة الجديد علىٍّ أن يعالج الموقف بما عهد فيه من حكمة وما شهد به له من حنكة، وكان عليه أن يطفئ نار الفتنة وأن يتخطى رواسبها ليصل بالدولة الجريحة إلى بر الأمان، وإذا كان علىٌّ قد اتهم فى دم عثمان، فإننا نستطيع القول بأنه ليس علىّ وحده هو المتهم فى هذا، ولكن من منطلق هذا الاتهام يكون كل الصحابة متهمين؛ لأنه لا يمكن أن يغلب ألف رجل من الثوار جاءوا من الأمصار لقتل الخليفة أن يغلبوا أربعين ألفا من أهل المدينة إذا هم وضعوا فى اعتبارهم حماية الخليفة من القتل. وإذا افترضنا جدلا أن عليا وطلحة والزبير ومعاوية قد تضافروا على قتل عثمان، فماذا صنع الصحابة من المهاجرين والأنصار بالقعود عن نصرته؟

وفى الحقيقة، فإن المسئول الأول عن دم الخليفة هم دعاة الفتنة والمدبرين لها من أمثال ابن سبأ وأتباعه، ومن بعض رجال القبائل الذين حقدوا على قريش أن تكون السيادة لها على القبائل. والصحابة جميعهم أبرياء من دم الخليفة، فحاشى لله أن يتآمر صحابى على قتل إنسان، وهو يعلم أن قاتل النفس بغير حق مخلد فى النار، فما بالك لو كان هذا الإنسان خليفة المسلمين! لقد كان جميع الصحابة وراء عثمان وكانوا يساندونه وكانوا مستشاريه وأداته فى الحكم وأهل مشورته والمدافعين عنه يوم الدار، وقبل هذا اليوم المشئوم، فكيف يجرؤ مجترئ على اتهامهم بقتل الخليفة؟ لقد ثبت أن الحسن والحسين، ابنا على، وكذلك عبد الله بن الزبير وعبد الله بن عمر ومروان بن الحكم والصحابى الجليل أبو هريرة، كانوا كلهم يحملون السلاح دفاعا عن الخليفة ويتناوبون حراسة داره، وأن الثوار لم يقتحموا الدار لقتل الخليفة إلا بعد صرفه لهم وإصراره على



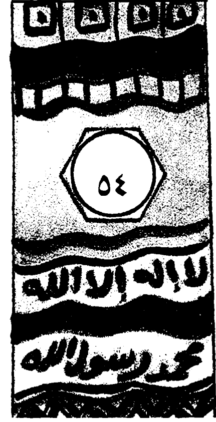
ألا يدافع أحد عنه وطلبه منهم وضع أسلحتهم والتزام بيوتهم. ولم يكن عثمان، وهو الرجل المؤمن بقضاء الله وصاحب الأيادى البيضاء فى الإسلام، يتصور أن تنتهى الأمور إلى ما انتهت، وأن يهون على الناس خليفتهم، وأن يلقى هذه النهاية الدموية على يد الثوار وهو موقن بعدالة حكمه ونزاهة شخصه وطهارة عماله.

ولقد بدأ علىٌّ خلافته بالعمل على إزالة أسباب شكوى الناس، وقد تمثلت فى شكاياتهم من ولاة عثمان، فقام بعزل ولاة عثمان جميعهم وتولية غيرهم، وقد قصد بذلك أن يطوى صفحة سابقة بخيرها وشرها، بصدد علاقة هؤلاء الولاة مع رعيتهم فى الأمصار، وفتح صفحة جديدة بتولية ولاة جدد قد يرضى عليهم أهل الأمصار. فقام بعزل أبى موسى الأشعرى عن الكوفة، وعزل عبد الله بن عامر عن البصرة وعبد الله بن أبى السرح عن مصر، ومعاوية بن أبى سفيان عن الشام. ولم يكن لدى الخليفة، فى عزله هؤلاء الولاة عن ولاياتهم، أى شك فى ذممهم أو فى سلوكهم، ولكنه أراد التغيير حتى يقطع الطريق على الثوار والمتمردين ويقيم عليهم الحجة. هذا، ولم يستبد الخليفة برأيه هذا، ولكنه بعد مشورة كبار الصحابة ومن بينهم طلحة والزبير وموافقتهم عليه.

وبينما كان على يتدبر الأمر فوجئ بتجمع فى مكة بقيادة طلحة والزبير، يطالب أصحابه الخليفة بالتحقيق فى مقتل عثمان وبأخذ الثأر من قاتليه، وقد انضمت لهذا التجمع أم المؤمنين السيدة عائشة بنت أبى بكر، التى كانت قد ذهبت إلى مكة لأداء فريضة الحج وفراًا من الفتنة. وقد قيل إن بنى أمية هم الذين حرضوا على تدبير هذا التجمع لإحراج علىّ فى بداية خلافته بعد أن عزل ولاتهم عن الأمصار التى كانوا يتولون حكمها. وقيل إن المجتمعين تحولوا، بعد ذلك، ومعهم السيدة عائشة من مكة إلى البصرة ليتمكنوا من قتلة عثمان الذى تجمعوا فى البصرة. ولقد ظنت السيدة عائشة أن فى خروجها مصلحة للمسلمين، اجتهاداً منها لتحقيق غاية طلحة والزبير والتعاون مع على من أجل إطفاء نار الفتنة والقضاء على المنافقين والمفسدين من قتلة عثمان الذين اتخذوا من البصرة قاعدة لهم.

ولقد التف الناس حول الجمل الذى كان عليه هودج السيدة عائشة، لذا عرفت المعركة التى وقعت هنالك بين أنصارها وأنصار على بمعركة الجمل، وقد انهزم فيها أهل الجمل، وقتل طلحة والزبير.

وبعد انتهاء المعركة جاء علىٌّ إلى أم المؤمنين وقال لها: «غفر الله لك»، فقالت: «ولك، ما أردت إلا الإصلاح»، ثم أنزلها دار عبد الله بن خلف، وكانت أعظم دار فى البصرة، وزارها بعد



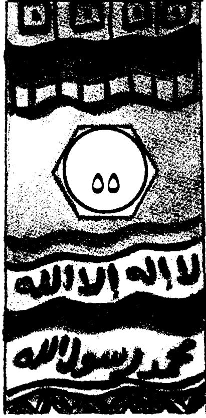
ذلك ورحبت به وجلس عندها وبايعته بالخلافة. ولما أرادت الخروج إلى المدينة بعث لها بكل ما تحتاج له من ركوب وزاد ومتاع، وأرسل معها أربعين امرأة، وسير معها أخاها محمد بن أبى بكر مكرمة محترمة.

وبعد أن انتصر علىّ فى موقعة الجمل دخل البصرة وصالح أهلها، وبايع له العراق وفارس جميعا، فانتقل إلى الكوفة ودخلها فى ١٢رجب واتخذها عاصمة لخلافته.

ورغم انتصار علىّ فإن خلافته كانت تواجه الكثير من الصعوبات، بسبب بداية الاقتتال بين المسلمين بعضهم وبعض يوم الجمل، مما زاد الحنق فى النفوس والرغبة فى الثأر. كذلك لوجود قتلة عثمان فى جيش على ووجود أنصار عبد الله بن سبأ الميّالين للشر واستمرار الفتن. وأيضا كان فى جيش على كثيرون من رجال القبائل المتأخرة فى دخول الإسلام فلم يكن يهمهم الوقوف إلى جانب الحق بقدر اهتمامهم بما يحقق مصالحهم ويزيد من مكاسبهم.

وكانت الخطوة الثانية أمام الخليفة بعد معركة الجمل، المواجهة مع أهل الشام الذين خرجوا بقيادة معاوية بن أبى سفيان يرفعون قميص عثمان مطالبين بالثأر له من قتلته. هذا، ولم يذكر معاوية وفريقه الخليفة فى أمر البغى على عثمان إلا لمناسبة انضمام قتلة عثمان إلى صفوفه ووقوفهم معه. فهم لم يتهموه بقتل عثمان اتهامًا مباشرًا لأنهم يعلمون أن قتلة عثمان هم الذين أساءوا إلى علىّ كما أساءوا إلى عثمان وإلى الإسلام.





ولقد سار عليّ بقواته، فى أواخر ذى القعدة سنة ٣٦هـ، إلى حدود الشام والتقى بجيشه مع جيش معاوية بقرب الرقة على شاطئ الفرات فى سهل يعرف بصفين، ووقعت هنالك معركة كبيرة كاد جيش على فيها أن يقضى على جيش الشام، لولا لجوء معاوية إلى التحكيم. ولقد كان التحكيم من تفكير عمرو بن العاص، بقصد وقف القتال بين المتحاربين برفع المصاحف على أسنة الرماح وتحكيم كتاب الله بين المتقاتلين. فتوقف القتال، رغمًا عن على.

وقد كتب كتاب التحكيم يوم ١٣ صفر سنة ٣٧هـ، على أن يختار كل فريق من الفريقين المتقاتلين حكما له، وأن يجتمع هذان الحكمان بالناس ويتبينا رأيهم فى أمر الخلافة، ثم يجتمعان سويا ويعلنان رأيهما فى أمر النزاع بين الطرفين بهدف حقن دماء المسلمين. واختار حزب على الصحابى الجليل أبا موسى الأشعرى، واختار حزب معاوية الصحابى الجليل عمرو بن العاص.

ولقد اجتمع الحكمان فى دومة الجندل، جنوب الأردن، فى شهر رمضان ٣٧هـ/ فبراير ٦٥٨م، ولقد روى المغالطون عن حادثة التحكيم أن أبا موسى الأشعرى وعمرو بن العاص اتفقا على خلع على ومعاوية فخلعهما أبو موسى أولا واكتفى عمرو بخلع عليّ دون معاوية. وهذه مغالطة لم تحدث، وأصل المغالطة هنا تجاهل المغالطين أن معاوية لم يكن يومئذ خليفة ولا هو ادعى الخلافة، وأنه لم يكن هنالك خليفتان أو أميران للمؤمنين، وأن الاتفاق بين الحكمين كان على خلعهما معا، وأن أبا موسى خلع الخليفتين تنفيذا للاتفاق بينهما وأن عمروًا خلع أحدهما وأبقى الآخر خليفة خلافا للاتفاق وخداعا لأبى موسى، وهذا كله كذب وافتراء.

والذى فعله عمرو هو الذى فعله أبو موسى لا يفترق عنه فى شيء. وقد بقى أمر الإمامة أو الخلافة معلقًا على نظر أعيان الصحابة ليروا فيه رأيهم متى شاءوا وكيف شاءوا. وقد اتفق أبو موسى وعمرو على أن يعهدا بأمر الخلافة على المسلمين الباقين على قيد الحياة من أعيان صحابة رسول الله ﷺ آنذاك والذين توفى وهو راض عنهم. واتفاق الحكمين على ذلك لا يتناول معاوية؛ لأن معاوية لم يكن خليفة آنذاك ولم يقاتل على الخلافة. وإنما كان يطالب بإقامة الحد الشرعى على الذين شاركوا فى قتل عثمان. فلما وقع التحكيم على إمامة المسلمين اتفق الحكمان على ترك النظر فيها إلى كبار الصحابة وأعيانهم. أما التصرف العملى فى إدارة البلاد فلم يتناوله الحكمان إنما تركا كلا من عليّ ومعاوية يتصرف فى البلاد التى تحت يده.



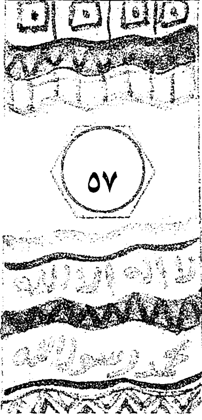
وبذلك فإن التحكيم لم يقع فيه خداع ولامكر ولم تتخلله بلاهة ولا غفلة، كما يدعى المغرضون. وكان التحكيم يكون محل المكر والغفلة لو أن عمرواً أعلن فى نتيجة التحكيم أنه ولى معاوية خلافة المسلمين، وهذا ما لم يعلنه عمرو ولا ادعاه معاوية.

ولم تبدأ خلافة معاوية إلا بعد صلحه مع الحسن بن على سنة ٤١هـ، بمبايعة الحسن لمعاوية وتنازله عن الخلافة، ومن ذلك اليوم فقط تسمى معاوية بأمير المؤمنين وأصبح خليفة للمسلمين. فعمرو بن العاص لم يغالط أبا موسى الأشعرى ولم يخدعه لأنه لم يعط معاوية شيئًا جديدًا، ولم يقر فى التحكيم غير ما قرره أبو موسى ولم يخرج عما اتفقا عليه معًا. فبقيت العراق والحجاز وتوابعهما تحت يد من كانت تحت يده من قبل، وبقيت الشام وما تبعها تحت يد من كانت تحت يده من قبل. وتعلق أمر الإمامة والخلافة بما سيكون عليه من اتفاق أعيان الصحابة متى شاءوا وكيف شاءوا ولهم أن يبقوا عليا على الخلافة أو أن يخلعوه عنها ويولوا عليها من يرونه خيراً منه.

وإذا كانت الخطوة الثانية لم تتم فليس ذلك تقصيراً من أبى موسى أو نشاطًا من عمرو، فهما قد قاما بمهمتهما بحسب اقتناعهما وبحسب ما أدى إليه اجتهادهما. وواقع الأمر أن التحكيم بالذات قد رفع منزلة معاوية إلى مقام على، أو حط من مقام على إلى مستوى منزلة معاوية، إذ إن قرار الحكمين قد شكك فى منصب على الفعلى فى حين أنه أقصى معاوية عن ادعاء وهمى لم يكن قد تجاسر على المجاهرة به، والحق أن معاوية لم يجاهر بطلب الخلافة إلا بعد مضى سنين من التحكيم، وكان علىّ آنذاك قد انتقل إلى الدار الآخرة.



ولقد رفضت طائفة القراء من قبائل بكر وتميم وطيئ، التى كانت تقاتل مع جيش على، فكرة التحكيم ونتيجته، برغم أنهم هم الذين دفعوا عليًا لقبولها، واتخذوا من صيحة أحد زعمائهم وهى «لا حكم إلا لله» شعاراً لهم، أى أن حكم الله فى الأمر واضح لا يحتاج إلى هذا التحكيم، وإنه ما كان لعلىّ أن يقبل مثل هذا التحكيم لأنه إمام الأمة وخليفة المسلمين، وطلبوا منه أن يرفض هذا التحكيم وأن يتوب إلى الله. ولما يئس على منهم تركهم فكبُر جمعهم وازدادت

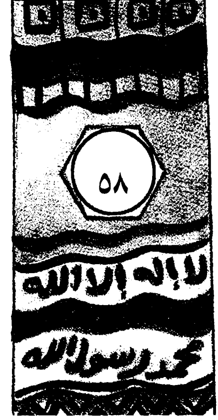


أعدادهم، فظهر فيهم من يؤلبهم على العصيان والثورة. فخاف علىّ أن يتفاقم الأمر، وخاصة أنهم اختاروا من بينهم رجلاً يدعى «عبد الله بن وهب الراسبى»، إماماً لهم وساروا نحو قرية قريبة من الكوفة تسمى «حروراء» واتخذوها قاعدة لهم. وقد أطلق المسلمون على هؤلاء الخارجين عن جماعة على وجيشه اسم الخوارج، بينما أطلقوا هم على أنفسهم اسم «الحرورية»، نسبة إلى حروراء عاصمتهم، و«الشراة»، بقولهم أنهم اشتروا أنفسهم بأن باعوها فى سبيل الله.

وقد دخل علىّ فى نقاش مع هؤلاء الخوارج ومحاولة التفاهم معهم على الرجوع إلى صفه وصف المقاتلين فى جيشه لمواصلة الانتصار على جند الشام؛ إلا أنهم رفضوا وأصروا على دعواهم وطالبوا علياً بإقرار الخطأ على نفسه لقبوله التحكيم والتوبة إلى الله عما فعل. وقد حاول علىّ التفاهم معهم أكثر من مرة، فرجع إليه جماعة منهم، وبقى نحو أربعة آلاف رجل منهم خارجين.

فلم يكن أمام علىّ سوى مقاتلة هذه الفئة الخارجة عن صف المسلمين وعن وحدتهم فى وقت الحرب وفى ظرف يتحدد فيه مصير الأمة الإسلامية فقاتلهم عند قرية النهروان، خارج الكوفة، وهزمهم وقُتل فى المعركة عدد كبير منهم. فانضاف إليه عدد منهم بعد الهزيمة، وفر الباقون هاربين بأفكارهم ومبادئهم ينشرونها فى البلاد البعيدة عن قبضة الدولة. وبالفعل نجحت جماعة الخوارج هذه فى الانتشار وفى نشر أفكارها فيما بعد فى بلاد فارس واليمن والمغرب، وظهرت جماعتهم كفرقة دينية وسياسية لعبت دورا هاما منذ ذلك الوقت فى أحداث الدولة الإسلامية، وكان لها دور كبير فى إسقاط الدولة الأموية، التى حكمت المسلمين بعد انتهاء دولة الخلفاء الراشدين.

وبعد انتصار علىّ للخوارج فى النهروان، وعودة من عاد منهم إلى صفوفه، استنفر رجاله للعودة للقتال والخروج لمقاتلة جند الشام الذين التفوا حول معاوية، والذين ازداد عددهم بمن انضم إليهم من الهاربين من الخوارج بعد هزيمة النهروان. لكن جند العراق تكاسلوا عن الخروج، وكانوا قد ملوا القتال وطول أمده وتشوقوا للعودة إلى بلادهم وعوائلهم، فتسللت أعداد كبيرة منهم عائدة إلى العراق، ولم يتبق معه سوى عدد قليل منهم حرص على متابعة القتال معه. وفى الوقت الذى تناقصت فيه أعداد جيش على؛ تزايدت أعداد جيش معاوية وخاصة حين رأى الناس تخاذل أهل العراق وعدم رغبتهم فى الاستمرار فى القتال؛ هذا فضلا عن سياسة معاوية فى ترغيب الناس ووعدهم بالمناصب والأموال لمن ينضم إلى صفه.

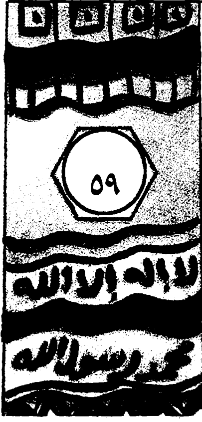


مقتل الخليفة

وبينمـا كان علىّ يستـحث جنده على القـتال ويعدهم بالـنصر إذا هم واصلوه مـعـه، حدثت مـؤامـرة الخوارج، الـتى دبروها للتـخلص من على ومعاوية وعمرو بن العاص بالقتل والاغتيال فى ليلة واحدة، وذلك أخذا بثأر قتـلاهم يوم النهـروان. فاجتـمع بمكة ثلاثة منهم: عـبد الرحـمن بن ملجم المرادى، والبرك بن عبد الله التميمى، وعمرو بن بكر التميمى وتعاهدوا على قتل الثلاثة.

قال الزبير بن بكار: «كـان من بقى من الخوارج قد تعاقدوا على قتل على ومـعاوية وعمرو ابن العاص، فـخرج لذلك ثلاثة، فكان عـبد الرحـمن بن ملجم هو الذى التزم لهم قـتل على، فدخل الكوفة عازما على ذلك واشترى سيفا لذلك بألف درهم وسقاه السم، وكان فى خلال ذلك يأتى عليـا يسأله فيـتحمله، إلى أن وقـعت عينه على قطام، وهى امـرأة رائعة الجـمال ترى رأى الخوارج، وكان على قد قتل أباها وإخوتها بالنهروان، فخطبها ابن ملجم لنفسه، فقالت له: أنا لا أتزوج إلا على مهر لا أريد سواه، فقال: ما هو؟ قالت: ثلاثة آلاف دينار وقتل علىّ. قال: والله لقـد قصـدت قـتل على والفـتك به ومـا أقدمنى هذا المصـر غـير ذلـك، ولكنى لما رأيتك آثرت تزويجك. فـقالت: إلا الذى قلت لـك. قال: ومـا يغنيك أو يغنينى من قـتل علىّ وأنا أعلم إن قتلت عليا لم أفت؟ فقـالت: إن قتلته ونجوت فهو الذى أردت فتبلغ شـفاء نفسى ويهنيك العيش





معى، وإن قـتلت فما عند الله خـير من الدنيا ومـا فيهـا. فقال لهـا: لك ما اشترطت فقـالت له: سألتـمس لك من يشـد ظهـرك، فبعثت إلى ابن عم لها يدعى وردان بن مـجالد، فـأجـابهـا، ولقى ابن مـلجـم شـبيـب بن بحـرة الأشجـعى فقـال لـه: يا شبيب هل لك فى شرف الدنيا والآخـرة؟ قال: وما هو؟ قـال: تساعـدنى على قتل على بـن أبى طالب. قال: ثكلتك أمك لقـد جئت شيئا إدًا، كيف تقدر على ذلك؟ قـال: إنه رجل لا حرس له، ويخرج إلى المسجـد منفردا دون من يحـرسه، فنكمن له فى المسـجد فـإذا خرج إلى الصلاة قـتلناه فإذا نجـونا نجونا وإن قـتلنا سعـدنا بالذكر فى الدنيـا والجنة فى الآخرة. فقـال: ويلك، إن عليا ذو سابقة فى الإسـلام مع النبى ﷺ والله ما تنشرح نفسى لقـتله. قال: ويلك إنه حكَّم الرجال فى دين الله عز وجل وقتل إخـواننا الصالحين فنقتله ببعض من قتل ولا تشكن فى دينك، فأجابه وأقـبلا حتى دخلا على قطام وهى معتكفة فى المسجد الأعظم فى قبة ضربتـها لنفسها فدعت لهما، وأحدوا أسيافـهم، وجلسوا قبالة السدة التى يخرج منها علىّ، فـخرج علىّ إلى صلاة الصبح فـبدره شبيب فضربه فـأخطأه وضربه ابن ملجم على رأسه بالسيف وهو يقول: الحكم لله يا علىّ لا لك ولا لأصـحابك. فقال علىّ: لا يفوتكم وهذا الكلب. فشد الناس عليه من كل جانب ليأخذوه، وهرب شبيب خارجا من باب كندة، فلما أخـذ قال على: احـبـسوه فـإن مت فاقـتلوه ولا تمثلوا به، وإن لم أمت فـالأمـر إلىَّ فى العفـو والقصاص».

ولقد تمت عملـية القتل صبيـحة يوم السابع عشـر من رمضان، صبيـحة يوم بدر سنة ٤٠ للهجرة. وفى الوقت الذى تعـرض فيه على للقتل كانت هنـالك محاولتان قد قام بهـما الخوارج لقتل معاوية وعمـرو بن العاص، لكن هاتين المحاولتين قد فشلتا ونجا منـهما كل من معاوية وابن العاص؛ ذلك لأن الذى ذهب لقـتل معاوية لم يـتمكن منه حين ضـربه بالسيف فأصـاب السيف فخذه وهرب دون أن يكمل عليه فنجا بذلك معـاوية من الموت. وأما الذى ذهب لاغتيال عمرو، فذهب إليه وضرب بالسيف من كـان يؤم الناس فى الصلاة ظنًا منه أنه ابن العاص، ولكن عمروا فى هذه الليلة كـان قد تغيب عن الصـلاة فى المسجد لمرضـه فناب عنه فى الصلاة بالناس مـقدم شرطته خارجة بن حذافة السهمى، فضربه الخارجى عمرو بن بكر التميمى بسيفه فقتله، وهو يظن أنه قتل عمروا. وقيل إن عـمروا حين سمع بالخبر حمد الله على نجاته وقـال عبارته المشهورة التى صارت من بعد ذلك مثلاً من أمثال العرب وهى: «أرادنى وأراد الله خارجة».

ولقـد اختلف فى سن على يوم مـات، والأرجح أن سنه يوم موتـه كان خـمسا وسـتين، صحب منهـا النبى بمكة ١٣ سنة وعـمره إذ ذاك ١٢سنة، ثم هاجر فـصحـبه بالمدينة عـشر سنين وعاش بعده ثلاثين سنة.



وقد كان له من الولد ١٤ذكرا، و١٨أنثى، وأهم أولاده من السيدة فاطمة، أحفاد رسول الله ﷺ هما الحسن والحسين، وأهم بناته أم كلثوم الكبرى وزينب الكبرى شقيقتا الحسن والحسين.

ولقد دفن عليٌّ أول ليلة من العشر الأواخر من رمضان، واختلف فى موضع قبره، فقيل دفن فى قصر الإمارة بالكوفة، وقيل دفن فى رحبة الكوفة، وقيل دفن فى النجف فى موضع بطريق الحيرة.

وهكذا انتهت حياة آخر الخلفاء الراشدين بالقتل، لأنه لم يتخذ لنفسه الحيطة بعدما حدث مع صاحبيه عمر وعثمان بأن يتخذ له حرسًا يحميه من تآمر المتآمرين، ولكن هذه إرادة الله وقدره، فقد قدَّر سبحانه أن يموت ثلاثة من الخلفاء الراشدين شهداء بأيدى الغدر دون عمل حساب لمكانتهم ودرجاتهم العالية فى الإسلام ومنزلتهم عند رسول الله ﷺ .

وقد كان علىّ رجلا صادقًا مؤمنًا واثقًا فى نفسه وفى ربه، وكان شجاعًا لايعرف الخوف، ولم يهزم فى معركة واحدة، ولا بارز أحداً إلا غلبه، وكان الرسول ﷺ قد أهداه سيفًا أسماه «ذا الفقار»، كان علىّ يقاتل به ويحصد به رقاب أعداء الإسلام حتى أن الناس قالوا عن ذلك: «ذو الفقار بألف سيف وعلى بألف رجل، فعلى وذو الفقار معا بألف ألف رجل»

وقد كان إلى جانب ذلك من أبلغ الناس منطقًا وأوفرهم حكمة، وكان مستودعا للعلوم، وخطبه تمثل البلاغة العربية بعينها، وقد كان يلى رسول الله ﷺ فى بلاغته؛ إذ كان عليه الصلاة والسلام أبلغ الناس، ولقد ورد عنه أنه لما ضربه ابن ملجم، دخل عليه الحسن ابنه وهو باك فقال له على: «يا بنى احفظ عنى أربعا وأربعا»، قال: «وما هن يا أبت» قال: «أغنى الغنى العقل، وأكبر الفقر الحمق، وأوحش الوحشة العجب، وأكرم الكرم حسن الخلق»، قال: «فالأربع الأخر؟» قال: «إياك ومصاحبة الأحمق فإنه يريد أن ينفعك فيضرك، وإياك ومصادقة الكذاب فإنه يقرب عليك البعيد ويبعد عليك القريب، وإياك ومصادقة البخيل، فإنه يقعد عنك أحوج ما تكون إليه، وإياك ومصادقة الفاجر فإنه يبيعك بالتافه».

ومن أقواله رضى الله عنه: «خمس خذوهن عنى : لا يخافن أحد منكم إلا ذنبه، ولايرجو إلا ربه، ولا يستحى من لايعلم أن يتعلم، ولا يستحى من لايعلم إذا سئل عما لايعلم أن يقول: الله أعلم، وإن الصبر من الإيمان بمنزلة الرأس من الجسد، إذا ذهب الصبر ذهب الإيمان وإذا ذهب الرأس ذهب الجسد».



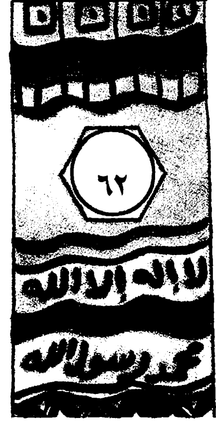
ولما قتل على ذهب إليه جماعة من المسلمين، كانوا قريبين منه، وقالوا له: «استخلف علينا»، فقال: «لا، ما استخلف رسول الله ﷺ فأستخلف، ولكن إن يرد الله فسيجمعكم بعدى على خيركم كما جمعكم بعد نبيكم على خيركم». فلما مات عقد الناس بالبيعة من بعده لابنه الحسن بن على، وهم يرون أنه أحق بالخلافة من معاوية ومن كثيرين غيره، وكان الحسن قد خرج للقضاء على الفئة الباغية التى عارضت خلافة أبيه لإدخالها فى طاعة الدولة، لكنه لم يستمر فى ذلك ورأى ضرورة حقن دماء المسلمين ووقف نزيف دم المسلمين وإخماد هذه الفتنة التى اشتعلت نيرانها فى أواخر خلافة عثمان.. ولقد رأى أن ذلك لن يتم إلا بتنازله عن حقه فى الخلافة والمصالحة مع معاوية، وكان معاوية قد أرسل للحسن من يتوسط لإنهاء الحرب ووقف اقتتال المسلمين مع بعضهم البعض. وقد جاء رجلان إلى الحسن من طرف معاوية من بنى عبد شمس، وهما عبد الرحمن بن سمرة وعبد الله بن عامر بن كريز يتوسطان فى الصلح، وانتهت الوساطة بالمصالحة وتنازل الحسن لمعاوية عن مطالبته بحقه فى الخلافة. وقد تم عقد البيعة مع الحسن لمعاوية فى موضع يقال له «مسكن» على نهر دجيل، فى ربيع الأول سنة ٤١ للهجرة، فسمى ذلك العام بعام الجماعة، لاجتماع كلمة المسلمين فيه بعد الفرقة.

ولقد دخل معاوية، بعد ذلك، وأعوانه الكوفة فبايعه أهلها وبايعه بقية المسلمين فى كافة الأمصار بالخلافة. وبتولى معاوية بن أبى سفيان الخلافة ينتهى عهد خلافة الخلفاء الراشدين ويبدأ عهد جديد هو عهد الخلافة الأموية، وهو عهد استمر فى الحكم مدة ٩١ عاما، انتهى بسقوطه على يد العباسيين سنة ١٣٢ للهجرة.

خاتمة
الدولة الإسلامية فى عصر الخلفاء الراشدين

استغرق عصر الخلفاء الراشدين فى مجموعه نحو ثلاثين سنة هجرية، فقد بدأ فى أوائل سنة ١١ وانتهى فى رمضان سنة ٤٠ للهجرة، ولكن هذه الفترة القصيرة تعد القاعدة الأساسية للحكم الإسلامى الأمثل والركائز الأولى للدولة العربية الإسلامية، وذلك لما يلى:

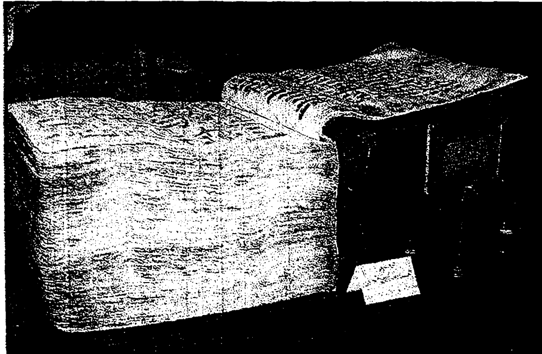
أولا ـ أنه عصر صحابة رسول الله ﷺ الذين عاشوا معه والذين صحبوه ورأوه وسمعوا منه وأخذوا عنه وتأدبوا بأدبه وأخذوا بأحاديثه وساروا على نهجه فكانوا مصابيح الهداية للأمة



الإسلامية من بعده. وقد عـاش الناس فى عصر الخلفاء الراشدين على هدى الصحابة، وقـد أظلتهم صحبتـهم لرسول الله ﷺ ، فغلب على الناس وازع الدين ومراعاة أوامر الإسلام والالتزام بما أمر به واجتناب ما نهى عنه.

ولذلك يعتبر هذا العصر عصر تطبيق الإسلام الصحيح، وما زال عصر عمـر بالذات، هو المثل الأعلى الذى يسـعى كل حكم إسلامى إلى الـوصول إليه.

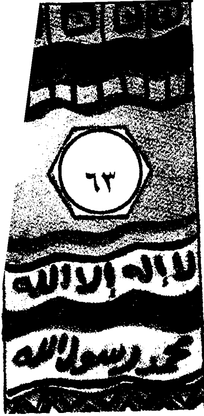
ثانيا ـ كان عصـر الخلفاء الراشدين هو عصر الفـتوح الكبرى وتكوين الدولة العربية الإسلامية الكبرى التى امـتدت حدودها من حدود الصين شرقا إلى حدود المحيط الأطلسى غربا، ومن غانة جنوبا إلى فرغانة شمالا. ولقد فتح الراشدون الطريق أمام خلفاء الأمويين من بعـدهم إلى استكمال الفتوح واستحواذ مـعظم بلدان قارات العالم القديم آنذاك، كذلك شهد هذا العصر، مع الفتح، انتشار الإسلام وكثرة معتنقيه وتحول معاقل للمسيحية والمجوسية إليه بعد أن أدركت شعوبهم أنه الدين الحق وأنه آخر رسالات الوحدانية من السماء إلى الأرض.



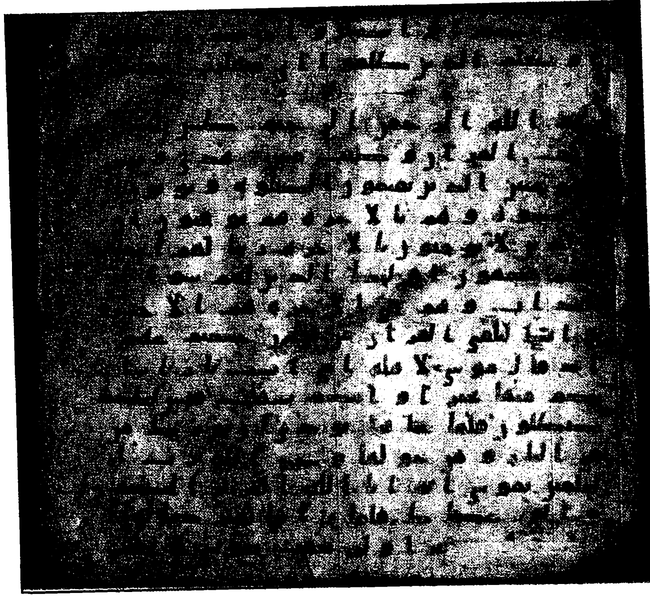
قرآن عثمان بن عفان - الذى كان يقرأ فيه عند استشهاده مصر - المشهد الحسينى

كـذلك هو العصـر الذى جـمع فيـه القـرآن فى مصـحف واحـد، هو مصـحف عثمان، وهو الباقى إلى اليوم أساسًا لكل ما هو على الأرض من مصـاحف بعد أن تولى الله حفظه؛ تصديقاً لقوله تعالى: ﴿**إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ** ⁽⁹⁾﴾ [الحجر].

ثالثا ـ كان هذا العصر عـصر انتصار العروبة والعـربية، فلقد كـان النبى والخلفاء من بعده عربًـا، وقد أعلى الإسلام العروبة والعـربية بنزول القرآن بلسان العـرب، وقد كان درس قواعد اللغة العربية من المهام الفكرية الأولى التي اضطلع بها العرب فى عصر الراشدين، وكان قد دعا إلى ذلك حـاجة الداخلين الجدد فى الإسـلام من شعوب الأمصـار إلى تعلمها والحـديث بها ورغبتهم فى قراءة القرآن وفهمه، وفهم ماوضع بصدده من شروح وتفاسير بالعربية. كذلك لحرص هؤلاء الشعوب على تقلد الوظائف الحكومية التى اقتصرت على من يجيد العربية قراءة وكتابة.

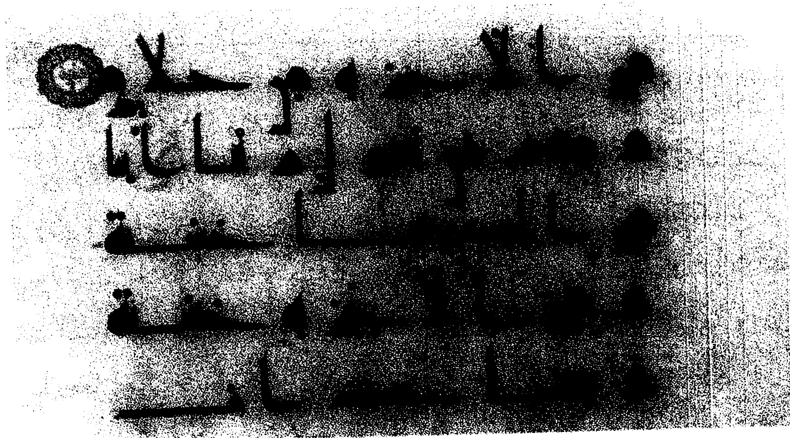


ولقد قيل إن أول من اهتم بوضع قواعد اللغة العربية هو على بن أبى طالب، وقد نحى بعد ذلك نحوه أبو الأسود الدؤلى واضع قواعد اللغة العربية على نحو على بن أبى طالب، ومن أجل ذلك سمى ذلك العلم بالنحو.

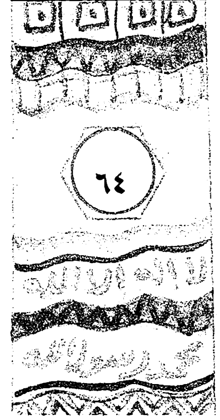


صفحة قرآن حسب طريقة - أبو الأسود الدؤلى - أبو النحو

رابعا ـ كان هذا العصر الذى وضعت فيه أسس نظم الدولة، وقد شملت هذه النظم السياسة والإدارة، والاقتصاد والاجتماع، وكل مايتصل بأمور هذه الدولة ويحقق آمال شعوبها.



صفحة من القرآن الكريم - كوفى منقط



النظام السياسى:

ففى النظام السياسى، أسس الرسول ﷺ دولة الإسلام فى المدينة، وقام الخلفاء من بعده بالمحافظة على هذه الدولة والعمل على صيانتها وحمايتها ورعاية رعاياها وتوسيع حدودها. وكان دستور هذه الدولة القرآن والسنة والشورى والاجتهاد والقياس، وقد كان الرسول ﷺ ومن بعده الخلفاء الراشدون قد قاموا بوظيفة رئيس الحكومة المدنى ورئاسة سلطتها التنفيذية فضلا عن قيادتهم للجيوش. وكانت تولية الخلفاء الراشدين، كما رأينا، انتخابية شورية، وكانت البيعة الخاصة تتم للخليفة عند تولّيه الخلافة، ثم تؤخذ له البيعة العامة من كافة المسلمين فى مسجد العاصمة الجامع ثم فى سائر مساجد الأمصار على أنه رئيسهم الذى ينظر فى أمورهم ويتولى زمام أمرهم. وكان مقر الخليفة فى عاصمة الدولة، وتحول لذلك هذا المقر من المدينة فى عهد أبى بكر وعمر وعثمان إلى الكوفة فى عهد على، ثم إلى دمشق وبغداد فى عهد الأمويين والعباسيين.

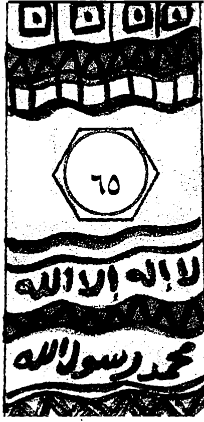
ولقد ظهرت الفرق الدينية السياسية فى خلافة على، من الخوارج والشيعة، ثم المرجئة والمعتزلة. وكان لكل فرقة من هذه الفرق رأى فى مسألة الخلافة وفى تولى الحكم، وقد ازداد خطر هذه الفرق عند نهاية عصر الراشدين وبداية قيام الدولة الأموية.

السلطة التنفيذية:

ولقد تكونت السلطة التنفيذية فى الحكومة الإسلامية فى عهد الخلفاء الراشدين من الخليفة، وهو رأس الدولة، ومجلس من أهل الشورى من كبار الصحابة، كان هذا المجلس يعقد فى المسجد الجامع ويتشاور رجاله مع الخليفة فى أمور المسلمين العامة. وقد كان بعض رجال الصحابة يقومون بعمل الوزراء للخلفاء، دون أن يتلقبوا بلقب وزراء، فقد كان عمر وزيرا لأبى بكر، وكذلك على وعثمان كانوا وزراء لعمر. وكان مروان بن الحكم بمثابة الوزير للخليفة عثمان.

إدارة الولايات:

وبالنسبة لإدارة الولايات زمن الراشدين، نجد أبا بكر، حين تولى الخلافة، يقر عمال الرسول ﷺ على ولاياتهم وأعمالهم، وكانت رقعة الدولة أيام خلافته، القصيرة العمر، لم تتجاوز حدود جزيرة العرب، ولما اتسعت الدولة فى عهد عمر قام عمر بتقسيمها إلى أقسام إدارية كبرى: وهى ولايات الحجاز ونجد وشبه الجزيرة وولايات فارس والعراق وولايات بلاد ما وراء النهر، وولايات الشام، وولايات مصر والمغرب. وقد جعل عمر على كل ولاية واليًا، تشدد فى اختياره، كما جعل إلى جانب كل وال فى ولايته عاملاً للخراج، مسئولاً عن الأمور المالية ومستقلا فى إدارته عن الوالى، وكان عمر فى كل موسم حج يذهب إلى الحج ويجتمع هنالك مع



ولاته وعمال خراجه ويقوم بمحاسبتهم أشد الحساب، ومن يجد منه تقصيراً كان لايتردد فى عزله على الفور واستبداله بمن هو أصلح منه.

النظام الإدارى:

أما عن النظام الإدارى فى عهد دولة الراشدين، فقد تقسمت الإدارة، داخل العاصمة المركزية للدولة، إلى ماعرف بالدواوين، وهى تقابل الآن الوزارات والمصالح الحكومية التى تتولى إدارة شئون الدولة فى الداخل والخارج. والخليفة عمر هو أول من أنشأ الدواوين فى الدولة الإسلامية، نقلاً عن الفرس، وذلك بسبب اتساع الدولة فى عهده وكثرة مواردها والحاجة لضبط هذه الموارد والاستفادة منها. فأنشأ ديوان العطاء وديوان الجند، وقد كانت هذه الدواوين نواة لما استجد بعد ذلك من دواوين فى عهد الدولة الأموية والدولة العباسية.

نظام الشرطة:

كذلك عرفت دولة الراشدين نظام الشرطة، ويقال: إن أول من شرط الشرطة فى الإسلام هو عمرو بن العاص أثناء ولايته لمصر للمرة الأولى فى عهد خلافة عمر بن الخطاب. ولقد كان الخليفة عمر يقوم بنفسه بالعسس ليلا ليتفقد أحوال رعيته، والعسس هو أصل نظام الشرطة. وأيضا ظهرت السجون فى الدولة الإسلامية فى عهد خلافة عمر.

القضاء:

ولقد تولى الخلفاء الراشدون أمر القضاء اقتداء برسول الله ﷺ فى هذا المجال. وقد طبق الخليفة عمر النظام القضائى على نطاق العالم الإسلامى فعين قضاة ينوبون عنه في الفصل بين الناس وحل مشاكلهم، فولى أبا الدرداء قضاء الكوفة، وولى عثمان بن قيس بن أبى العاص قضاء مصر، وولى أبا موسى الأشعرى قضاء البصرة، وكتب له كتابًا يعتبر دستوراً للقضاء الإسلامى حتى الآن، وقد كان القضاء، فى عهد الراشدين، مستقلاً محترم الجانب، وكان الخلفاء يتشددون فى اختيار القضاة من الرجال الذين عرفوا بالعلم والحزم والعدالة والنزاهة والفهم ولم يكن للقاضى كاتب أو سجل تدوّن فيه الأحكام؛ إذ لم يكونوا فى حاجة لذلك لأن الأحكام كانت فورية التنفيذ.

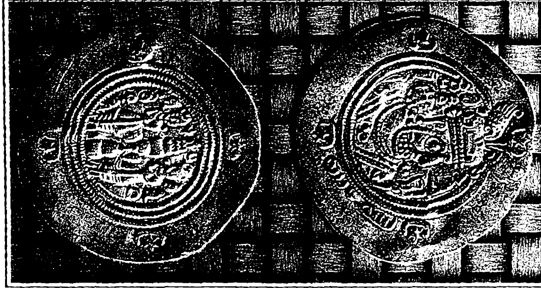
وكان القاضى يجلس للقضاء فى المسجد بعد الصلاة. ولم يكن القضاة يتقاضون أجراً أول الأمر، لكن الخليفة عمر جعل لهم أجوراً حتى يتفرغوا للقضاء وحتى لا ينظروا إلى ما بأيدى الناس، ولم يتأثر القضاة فى عهد الراشدين بميول الحكام ولم يخشوا سطوتهم، كذلك كان الخلفاء لايتدخلون فى أمر القضاء، وقد كانت كلمة القضاة نافذة حتى على الولاة وعمال الخراج والخلفاء أنفسهم وآل بيتهم.



وبالنسبة لأهل الذمة فلقد كان القاضى يقضى لهم على عتبة المسجد بعد صلاة العصر، ولقد كان الذميون يتقاضون وفق شرائعهم فى قضايا الملة والميراث، أما فى القضايا الجنائية فكانوا يتقاضون أمام المحاكم الإسلامية.

الجيش:

ولقد كان الخليفة هو القائد الأعلى للجيش، وهو الذى يعلن الحرب ويوقع معاهدات السلم، وهو أيضا الذى يضع خطط القتال ويعين القواد على الجيوش، وقد كان الذهاب للقتال فى عهد الرسول ﷺ وأبى بكر أمرا تطوعيًا، لكن الخليفة عمر هو أول من جعل الجندية فئة مخصوصة متفرغة للقتال، وجعل لها أعطيات ثابتة تصرف لهم ولعوائلهم تثبت فى ديوان الجند حتى يتفرغوا نهائيا للحرب والقتال.

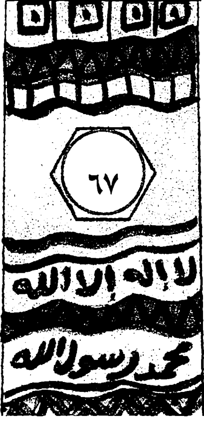

عُملة ساسانية - دُق عليها «بسم الله» - الصمد

وإلى عمر يرجع الفضل فى إقامة الحصون والمعسكرات الطويلة الدائمة لراحة الجنود فى أثناء الطريق، بعد أن كانوا يقطعون المسافات الطويلة على ظهور الإبل دون حصولهم على الراحة إلا فى أكواخ صنعت من سعف النخيل، وبعد ذلك بنيت العواصم فى الثغور وأقيمت الحصون والقلاع لصد هجمات الأعداء المباغتة.

كذلك اهتم عمر بن الخطاب ببناء المدن العسكرية الجديدة فى الأمصار المفتوحة، مثل الفسطاط والقيروان. واتخاذ هذه المدن كحواضر جديدة بدلاً من الحواضر التى كانت فى البلدان المفتوحة.

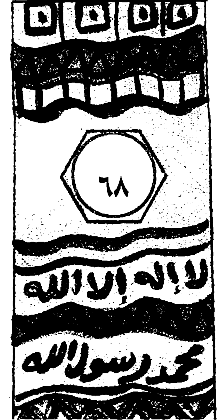
هذا، ولقد اهتم الخلفاء الراشدون، وخاصة الخليفة عمر، بالحياة الاقتصادية فى ولايات الدولة المختلفة وعمل على مايكفل النهوض بزراعتها وصناعتها وتجارتها؛ الأمر الذى أدى إلى زيادة موارد الدولة وانعكاس ذلك على حالة الرخاء الاجتماعى الذى عمت الدولة فى عهد الراشدين. الأمر الذى جعل عمر بن الخطاب يقرر عطاء ثابتًا فى ديوان العطاء لعموم المسلمين. كذلك لازدهار الحياة الثقافية والاهتمام بمعاهد العلم فى العواصم الإسلامية من كتاتيب ومدارس.

ومن أشهر المساجد التى بنيت فى عهد الخليفة عمر بن الخطاب، مسجد الكوفة الكبير بالكوفة، ثم مسجد عمرو بن العاص، الذى بنى فى مصر عند فتحها، وعرف بجامع عمرو أو الجامع العتيق.



المصادر والمراجع

- ابن الأثير: أُسد الغابة فى معرفة الصحابة، بولاق ١٢٧٤هـ
- الأزرقى: أخبار مكة، طبعة جوتنجن ١٢٧٥ هـ/ ١٨٥٨م.
- البلاذرى: فتوح البلدان، القاهرة ١٣١٨هـ.
- ابن سعد: الطبقات الكبرى، ليدن ١٣٢٢هـ.
- السيوطى: تاريخ الخلفاء، مصر ١٣٥١هـ.
- الطبرى: تاريخ الرسل والملوك، القاهرة ١٣٢٦هـ.
- الطبرى (المحب) : الرياض النضرة فى مناقب العشرة، مصر ١٩٥٣.
- ابن الطقطقى (ابن طباطبا): الفخرى فى الآداب السلطانية، بيروت (د.ت).
- ابن عبدالحكم: فتوح مصر وأخبارها، القاهرة ١٩١٤.
- عطية القوصى: تاريخ الدولة العربية الإسلامية، القاهرة ١٩٩٤.
- المقريزى: المواعظ والاعتبار بذكر الخطط والآثار، بولاق ١٢٧٠هـ.


٦٨
لا إله إلا الله
محمد رسول الله


المحتويات

Abstract

This book covers one of the most important chapters in Islamic History, the Age of the Rightly Guided Caliphs, which extended from 11 to 41H.

After the death of the prophet " Peace be upon him", the four Rightly Guided Caliphs, Abu Baker, Omar, Osman, and Ali Ibn Abby Taleb " May God be pleased with them all", followed the steps of the Prophet in spreading the word of God East & West.

The Main issue that appeared after the death of the Prophet was the issue of succession, in order to elect the right Caliph who could lead the Umma, and spread Islam amongst all the people of the earth, for Islam is a Universal Message not restricted by any means to the Arabs alone.

It should be pin pointed that the choice of the Caliph was based on the principle of "Shura"Consultation), and thus the four Rightly Guided Caliphs were chosen in order to lead the whole Umma into the right Path.

These Competent Caliphs succeeded in putting an end to the "Apostaty", and the Great " Dissention", and pursued the Islamic Jihad, and conquest.

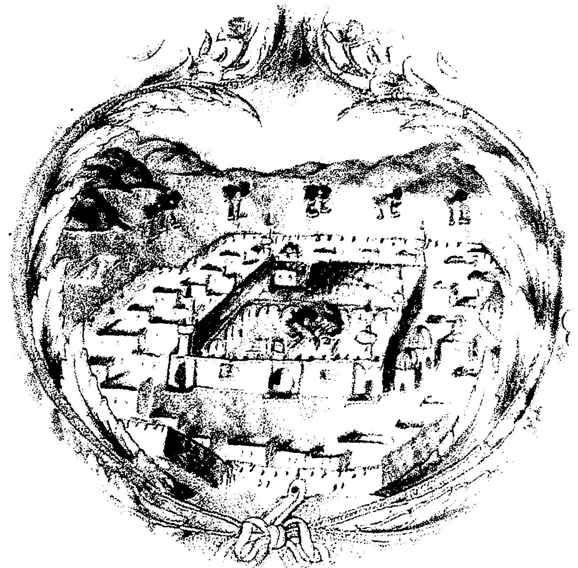
Equally important is the fact that during that age, the Islamic State extended from China in the Far East into Spain in the West, and thus Islamic Civilization helped Europe to step forward from darkness into enlightenment.

Dr. Attia El - Qossi

(5)

The Age of the Rightly Guided Caliphs

Dr. Attia El - Qossi



Encyclopaedia Introductory to the Islamic History

Islamic Ages extend from the birth of the Prophet " Peace be upon him" in the year 571 A.D., until the Ottoman conquest to Egypt in 1517 A.D.

This period covers the various epochs starting from the age of the Prophet himself, and passing through the age of the Rightly Guided Caliphs, Ummayid and Abbasid Caliphates, and the small independent dynasties here and there.

During that period, the Muslims contributed a lot to the Europeans in the diverse branches of knowledge, and thus Medieval Europe managed to step forward from barbarism, and feudalism into a new dawn of history.

Dr. Essam El -dine Abdel Raouf

CONSULTATIVE COMMITTEE FOR:
THE ENCYCLOPAEDIA OF HISTORY, ARCHAEOLOGY AND CIVILIZATION

Correspondence & Communications:

Dar El-Fikr El - Arabi

The Encyclopaedia of History, Archaeology and Civilization

94 Abbas Al-Akkad St., Nasr City - Cairo - Egypt

Tel.: 22752984 Fax: 22752735

www.darelfikrelarabi.com
INFO@darelfikrelarabi.com

CONTENTS

The Encyclopaedia of History, Archaeology and Civilization

Islamic History

Volume (1)

History and Civilization of the Early Islamic Period

Publisher
Dar Al-Fikr Al-Arabi
94 Abbas El - Akkad St. Nasr City - Cairo
tel . 22752794 . Fax : 22752735
www.darelfikrelarabi.com
INFO@darelfikrelarabi.com